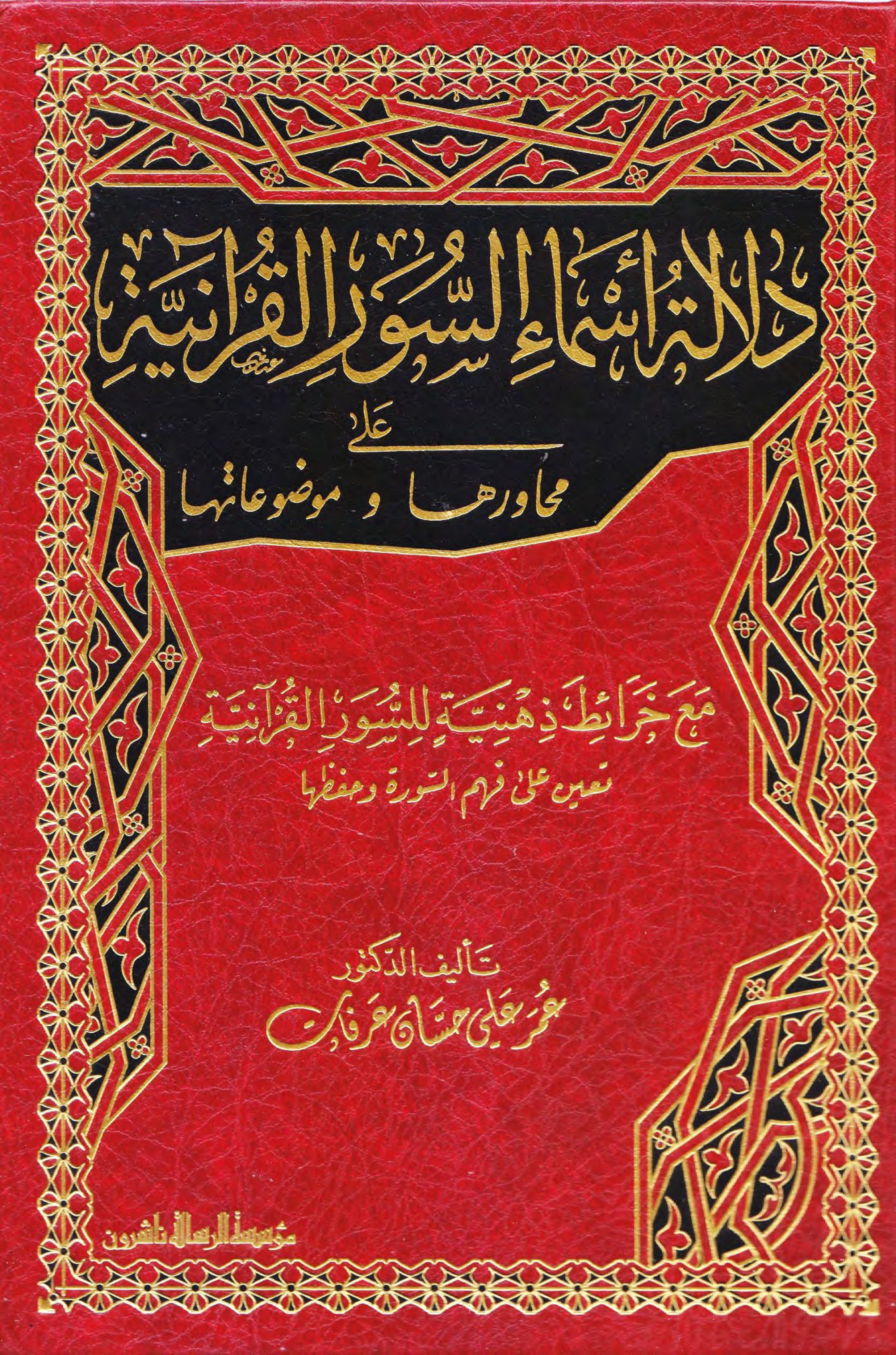

دلالة أسماء السور القرآنية
على
محاورها وموضوعاتها
مع خرائط ذهنية للسور القرآنية
تعين على فهم السورة وحفظها
تأليف الدكتور
عمر علي حسان عرفات
مؤسسة الرسالة ناشرون

دلالة أسماء السور القرآنية

على

محاورها و موضوعاتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

مؤسسة الرسالة ناشرون انتشار بألوان الطيف



هاتف: ٢٣٢١٢٧٥ ١١ (٩٦٣)
فاكس: ٢٣١١٨٣٨ ١١ (٩٦٣)
ص.ب: ٣٠٥٩٧

بيروت - لبنان
تلفاكس: ١٧٠٠٣٠٢ (٩٦١)
١٧٠٠٣٠٤ (٩٦١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠

Resalah
Publishers

Damascus - Syria
Tel:(963) 11 2321275
Fax:(963) 11 2311838
P.O.Box: 30597
Telefax: (961) 1 700 302
(961) 1 700 304
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Http://www.resalah.com
E-mail: resalah@resalah.com
facebook.com/resalah2007
twitter.com/resalah1970
instagram.com/resalahpublishers.

ISBN 978-9933-23-070-8



دلالة أسماء السور القرآنية

على

محاورها وموضوعاتها

مع خرائط ذهنية للسور القرآنية

تعين على فهم السورة وحفظها

تأليف الدكتور

عمر علي حسان عرفات

مؤسسة الرسالة ناشرون



الإهداء

إلى كل مؤمن أحبَّ القرآن العظيم، وخاضَ غِمارَه وسَبَر أغوارَه بنيَّة صادقةٍ وقلبٍ مخلص، لاستنباط حقيقةٍ تكشف وجهاً من وجوه إعجاز هذا الكتاب العظيم الخالد، أُهدي هذا العمل المتواضع.

تقديم بقلم الدكتور
أحمد إسماعيل نوفل

الحمد لله الذي أكرمنا وشرَّفنا بالقرآن، وصلى الله على النبي الأمين الذي بلَّغنا القرآن وبيّن لنا القرآن، وبعد:

فإنَّا لسنا نبالغ أبداً إذا قلنا: إن القرآن بحر لا تنتهي درره وجواهره ونفائسه ولآلؤه ومعانيه وموضوعاته ولطائفه وتحفه..، ولذلك لا تنتهي الكتب عنه وإن بلغت الملايين، وعطاء الله للعباد فيما أودعه في القرآن من معانٍ وموضوعات ما له من نفاد. إنها كلمات الله..

والدراسات الموضوعية واحد من ميادين البحث في القرآن، وهي بلا مبالغة أيضاً بحر محيط من الموضوعات لا ساحل له، ولا حدَّ له.

وقد وفِّق الباحث عمر عرفات أيّما توفيق في اختيار موضوع من بحر الموضوعات المتعلّقة بالقرآن، ولكنه موضوع يشمل القرآن كلّه، وذلك هو: «العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، دراسة تحليلية تطبيقية»، وقد تشرَّفتُ بالإشراف على هذا الموضوع، وقلت للباحث عرفات: «إن رسالتك هذه أو بحثك هذا سيكون كتاباً يسدُّ فراغاً في المكتبة التفسيرية أو المكتبة القرآنية»، وها قد كان.. وها هو يأخذ طريقه إلى النشر وإلى أيدي القرّاء، لعله يجيب عن أسئلة طالما دارت في الأذهان، وأهمّها:

هل يلخّص اسم السورة موضوعاتها؟

وهل يعبّر الاسم عن الوحدة الموضوعية للسورة؟

أم أنه ليس كذلك بالضرورة؟

وقد كان من دأب الباحث ونهجه أن يقدّم بأقوال السادة العلماء، ثم يعقِّب بقوله هو، لا لأنه يردُّ أقوال العلماء، بل هو يَرِد نبعها ويستقي منها، ويزيد ما يراه.. فلا بد أن يكون للباحث قول، وإذا كان اكتفى بالنقل عمّن سبق فلماذا التآليف والكتب؟

والباحث عمر عرفات مجدٌّ مجتهد مخلص، نشأ في بيئة علم وبيت علم. . ومع العلم ذوق وخلق وتواضع، فإذا قال: هذا رأيي، قاله لا ليترفع، ولكن ليُعْلم أن هذا ما أدّاه إليه اجتهادُه ونظره، لا أنه يقدِّمه على العلماء، لكنه يقدّمه بين يدي القارئ والعالم، فإن كان من ملاحظة وجّهت إليه.

وأزعم أن الباحث لم يتكلّف في بيان الوحدة الموضوعية للسورة، أو مدى تمثيل العنوان واسم السورة لوحدتها الموضوعية، وإنما كان يربط ما حقّه الترابط، فالقرآن عروة وثقى، ولا تكلّف في القول بتناسقه وتضافره وترابطه وتوثق الصلات بين موضوعاته وآياته. . فهذا هو الأصل، والتكلّف نقيض هذا.

وحتى أُعطي مثالاً على منهجية الطالب، فتحت الرسالة بلا ترتيب فكانت سورة «الفتح»، وابتدأ الباحث بقوله: «الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة»، فقال، وألخِّص حتى لا يطول التقديم: «والفتح: النصر، وخلاصة المعنى اللغوي يدور حول النصر والظفر، أما الدلالة السياقية، فالفتح كناية عن فتح الحديبية، والفتح انتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله، وقد دخل كثيرٌ من الناس الإسلامَ بعد صلح الحديبية»، ثم نقل عن المفسّرين قدماء ومُحْدَثين وجه الربط بين محور السورة وموضوعاتها واسمها، فقال: «محور السورة يدور حول التعريف بصلح الحديبية وبيان صفات المؤمنين فيه، والبيعة والإشارة إلى فتح خيبر . . ».

ثم لخّص الأقوال التي ذكرها بأن محور السورة هو: «بيان أن الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله يورث الرضا ويهيّئ للنصر، ولما كان صلح الحديبية هو أدلّ ما في السورة على ثبات المؤمنين وصدق إيمانهم، سميت السورة باسم الفتح».

ثم يبين موقفه وقوله إذ يقول: «وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة»، ثم قسّم السورة إلى أربعة أقسام: «مقدِّمة تحوي الامتنان من الله على رسول وعلى المؤمنين، وثانياً: بيان موقف المتخلفين عن الصلح، وثالثاً: بيان خيرات هذا الصلح على المؤمنين، ورابعاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق. . ».

وبعد، فهذا نموذج موجز شديد الإيجاز لتَعْلَم منهجية الباحث، وهكذا تسير معه هذا

الكتاب، والذي كان أطروحة جامعية، التقت على مناقشتها لرفع سويّتها وتعديلها وتهذيبها عقول جمهرة من أساتذة كلية الشريعة في الجامعة الأردنية وبعض أخواتها من الجامعات الأردنية..

وأسأل الله أن يكون توقّعنا من هذه الرسالة أو هذا الكتاب في محلّه أن يسدَّ فراغاً في المكتبة، وأن يُسهم في بيان الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، وفي الربط الوثيق بين اسم السورة ومحورها ومقاطعها وموضوعاتها.

والله يتولّى الجميع بالتوفيق.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

الدكتور

أحمد إسماعيل نوفل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن / الجامعة الأردنية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين القائل في محكم تنزيله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]، والقائل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ١-٣]، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد القائل: «تعاهدوا القرآنَ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصِّياً من الإبل في عُقُلِها»(١)، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم كتاب الدعوة الإسلامية، وقد شاءت حكمة الله أن جاء هذا القرآن مكوَّناً من سور، وكل سورة تشتمل على آيات لعرض الموضوعات المتناولة في هذه السورة، وقد جاءت كلُّ سورة من سور القرآن مسمّاةً باسم معيَّن ليميّزها عن الأخرى، وفي غالب الأمر يكون هذا الاسم فيه إشارةٌ إلى أحد الموضوعات البارزة في السورة.

وانطلاقاً من الإيمان بأن القرآن الكريم منزَّهٌ عن العبثية، وكل شيء فيه جاء وفق الحكمة الإلهية، وانطلاقاً من أمر الله تعالى، وأمر نبيه ﷺ بالتفكر والتدبر في آيات القرآن، كان لا بد أن تكون هناك ضرورة للإجابة حول تساؤلات عدة تدور في ذهن قارئ القرآن حول موضوع أسماء السور، كالتساؤل حول السر في انتقاء هذه الأسماء للسور دون غيرها، وحول علاقتها بمحور السورة وبموضوعاتها، وبالواقع الذي نزلت فيه.

من هنا كانت فكرة هذا الكتاب الذي كان بالأصل رسالة جامعية قُدِّمت لنيل درجة الدكتوراه في الجامعة الأردنية عام: (٢٠١٥ م، الموافق لعام: ١٤٣٦ هـ)، وقد كانت

(١) أخرجه الإمام البخاري، **الجامع المسند الصحيح**، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، برقم: ٥٠٣٢، وأخرجه أيضاً الإمام مسلم، **المسند الصحيح**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، برقم: ١٧٩٢. ومعنى «تفصِّياً» أي: تفلُّتاً.

بعنوان: «العلاقة بين اسم السورة القرآنية وموضوعاتها، دراسة تحليلية تطبيقية»، ثم لمَّا أردت إصدارها ككتاب حوَّلت العنوان إلى: «**دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها**»، فالكتاب يهدف إلى تحليل أوجه العلاقات بين اسم السورة القرآنية ومحورها وموضوعاتها، من خلال التطبيق العملي على سور القرآن الكريم، وإثبات أن أسماء سور القرآن توقيفية من الله، وليست اجتهادية من الرسول ﷺ أو الصحابة، من خلال بيان أن اسم السورة التوقيفي كان هو الأجدر والقمين بالسورة.

هذا وقد اعتمدت في هذا الكتاب منهجاً مطّرداً للكتابة، وتفاصيل ذلك:

- فأول ما أبدأ به في السورة المتناولة بيان الدلالة اللفظية لاسم السورة، إن كان لدلالته اللفظية علاقة مباشرة بموضوعات السورة.

- ثم أبيِّن الدلالة السياقية لكل اسم من أسماء السور القرآنية، وأعني بالدلالة السياقية: نظرة تحليلية إلى السياق الذي ذُكر فيه اسم السورة.

- ثم أستطلعُ آراء بعض المفسِّرين والكاتبين حول موضوع علاقة اسم السورة بموضوعاتها ومحورها أو وحدتها الموضوعية، ثم أجمع كلامهم بحيث يكون فقرة مستوعبة لما قالوه، مما له علاقة مباشرة بموضوع الكتاب.

- ثم أنظر نظرة تحليلية للسياق الكلي للسورة المتناولة، محاولاً استخلاص محور جامع لكل موضوعاتها، فإن وجدت شيئاً لم يذكره مَن سبقني بنيت على أقوالهم بزيادة ما عَنَّ لي، وإن لم أصل إلى شيء جديد اعتمدت كلامهم مع التلخيص الجامع المانع.

- ثم أحاول إثبات المحور الذي توصّلت إليه ـ سواء إذا أضفت على من سبقني شيئاً جديداً أم لم أضف ـ بما امتازت به كل سورة من الألفاظ التي انفردت بذكرها السورة المتناولة، أو الألفاظ التي تكررت بشكل لافت في السورة.

- ثم أقسِّم السورة المتناولة إلى موضوعات رئيسية، وأعطي لكل موضوع عنواناً معبّراً عنه، ليسهل بيان أوجه العلاقة بين اسم السورة وهذه الموضوعات، علماً بأن تقسيم السورة إلى موضوعات قبل الدراسة التحليلية لها أمر معروف ومتبع عند كثير من المفسرين، لا سيَّما سيِّد قطب في تفسيره «**في ظلال القرآن**».

ـ ثم أعرض هذه الموضوعات عرضاً تفصيلياً مبيناً أوجه العلاقة بينها وبين اسم السورة، وأذكر من الآيات ما يعطي صورة متكاملة للقارئ حول العلاقة بين اسم السورة وموضوعاتها.

ـ ثم أتبع السورة بشكل هندسي يكوّن خارطةً في الذهن ملخَّصةً حول محور السورة وموضوعاتها، ليساعد على فهم السورة وحفظها.

وينبغي لي أن أبيّن أن موضوع هذا الكتاب قائم على الاجتهاد، فاستنباط محور السورة أمر اجتهادي، وتقسيمها لموضوعات أمرٌ اجتهادي أيضاً، ومحاولة بيان أوجه العلاقة بينها وبين اسم السورة أمر اجتهادي أيضاً، ومعلوم أن الاجتهاد أمرٌ معرّض للصواب والخطأ، ولا أدَّعي أن ما ذكرته من أوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها هو نهاية المطاف، بل هي مجرّد محاولة جادّة معرّضة للصواب والخطأ، ولربّما ستأتي دراسات أكثر تعمّقاً ويظهر لها ما لم يظهر لي ويبقى الأمر اجتهادياً، ويبقى شأن القرآن أنه يَغلِب ولا يُغلَب.

ولا يسعني إلا أن أقول أن ما كان في هذا الكتاب من صواب فهو بتوفيق من الله، وما كان فيه من خطأ فهو من نفسي ومن الشيطان، ويطيب لي أن أتمثل بقول الإمام جلال الدين المحلّي رحمه الله[1]:

حمدتُ اللهَ ربّي إذ هداني ... لما أبديتُ من عَجْزي وضَعْفي
فمَنْ لي بالخطأ فأَرُدُّ عنه ... ومَنْ لي بالقَبُول ولو بحَرْف

والحمد لله في بدءٍ وفي ختمٍ



(١) ينظر: **تفسير الجلالين**، عند تفسير آخر سورة الإسراء.

التمهيد

قبل البدء بالدراسة التحليلية التطبيقية على سور القرآن لبيان أوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، لا بد لي أن أمهِّد للموضوع بتناول موضوع أسماء السور من حيث النظر إلى كَوْنها توقيفية أم اجتهادية، وبيان جهود العلماء السابقين حول موضوع هذا الكتاب، إذ إن الفضل لا بد أن يُنسَب لأهله، ولقد لفت موضوع هذا الكتاب نظر عدد منهم، وقد كانت لهم آثار لا ينبغي التغافل عنها:

أولاً: أسماء السور بين التوقيف والاجتهاد:

لقد وُجد خلاف بين العلماء حول مصدر أسماء السور، أتوقيفية هي، بمعنى أنها من عند الله تعالى أوحى بها إلى النبيّ ﷺ؟ أم هي اجتهادية من النبي ﷺ أو الصحابة الكرام؟

وقبل بيان هذا الاختلاف، لا بد من تعريفات موجزة لتكون مدخلاً إلى الكتاب:

الاسم لغة: جاء في معاجم اللغة أن الاسم هو ما يعرف به ذات الشيء والأظهر مما ذكرَتْه هذه المعاجم أن أصله: سِمْوٌ، من السُّمُوّ وهو الرفعة والعُلُوّ، وهو الذي به رفع ذكر المسمَّى فيُعرف به[1].

والسورة لغة: المنزلة الرفيعة، مأخوذة من السُّور، وهو الحائط، أصلها: سَوْرٌ، وهو أصل يدل على العلوّ والارتفاع، والسُّورة من البناء: ما حَسُن وطال، وقد قيل: إن أصلها: سؤرٌ، وهي البقيّة، فالسورة بقيّة من القرآن وقطعة منه[2].

---

(١) ينظر: ابن فارس، **معجم المقاييس في اللغة**، ص ٤٩٠، و الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص ٤٢٨، وابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ٢٦٧. وقد قال: «مَن قال إن اسْماً مأخوذٌ من وَسَمْت، فهو غلط، لأنه لو كان اسمٌ من سُمتُه لكان تصغيره: وسيماً».

(٢) ينظر: ابن فارس، **معجم المقاييس**، ص ٤٩٧، والأصفهاني، **المفردات**، ص ٤٣٣، وابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ٢٩٨. ولعلّ اشتقاقها من السور أرجح، لأنه لا توجد قراءة متواترة في لفظة «سورة» في القرآن بالهمز. ينظر: خاروف، **الميسر في القراءات الأربع عشرة**.

السورة القرآنية: «يطلق اسم السورة اصطلاحاً على طائفة من آي القرآن ذوات فاتحة وخاتمة، وأقلّها ثلاث آيات»[١].

ويعود وجه التشابه بين السُّور في اللغة والسورة القرآنية إلى أكثر من اعتبار: « إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية، كالسُّور توضع كل لَبِنة فيه بجانب لَبِنة، وإما لما في السورة من معنى العلوّ والرفعة المعنوية الشبيهة بعلوّ السور ورفعته المعنوية، وإما لأنها معجزة تُخرس كل مكابر، ويحقّ الله بها الحقّ ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون، أشبه بسور المدينة يحصِّنها ويحميها من غارة الأعداء وسطوة الأشقياء»[٢].

بعد هذه التعريفات أصبح بالإمكان الانتقال إلى موضوع بيان مصدر أسماء السور الذي اختلف فيه العلماء، ويمكن تفصيل آرائهم على النحو الآتي:

أولاً: اعتبار أسماء سور القرآن الكريم توقيفية:

لقد كان هذا رأي الإمام الزركشي رحمه الله حينما قال: «و ينبغي البحث عن تعداد الأسامي، هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني، فلن يُعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد». وقال تحت عنوان: اختصاص كل سورة بما سمّيت: «ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سمّيت به، ولا شكّ أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصّه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق؛ لإدراك الرائي للمسمّى، ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها»[٣].

وقد كان هذا رأي الإمام السيوطي رحمه الله حينما قال: «وقد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبيّنتُ ذلك»[٤].

---

(١) الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ص ١٨٦.

(٢) الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ١٩٥.

(٣) الزركشي، **البرهان**، ص ١٩٠.

(٤) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج ١، ص ١٠٦. ولم يتطرّق إلى هذه القضية الإمام السخاوي في كتابه: **جمال القراء وكمال الإقراء**، ولا الإمام ابن الجوزي في كتابه: **فنون الأفنان في علوم القرآن**.

وكان هذا أيضاً رأي الإمام الأشموني رحمه الله حينما قال: «اعلم أن ترتيب السور وتسميتها وترتيب آيها وعدد السور مسموعٌ من رسول الله ﷺ ومأخوذٌ عنه، وهو عن جبريل»[١].

ومن الكاتبين المعاصرين في علوم القرآن الذين اعتمدوا القول بأن أسماء سور القرآن توقيفية: الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، معتمداً على ورود أحاديث متعدّدة عن النبيّ ﷺ تُذكر فيها أسماء السور صراحة، ومن الذين اعتمدوا هذا القول من المعاصرين أيضاً الأستاذ الدكتور محمد المجالي، والدكتور عادل حسن[٢].

ثانياً: اعتبار بعض أسماء السور توقيفية، وبعضها الآخر اجتهادياً من الصحابة ﵃:

كان هذا رأي الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة في بحث له موسوم بـ «اسم السورة يمثل روحها العام» حينما رَدّ على كلام الإمام السيوطي المذكور آنفاً، فقال: «إن كان مراد هذا الحافظ طيب الله ثراه من الثبوت الذي زعم مجيء الحديث في كل اسم من أسماء سور القرآن على درجة صالحة للحجية من تواتر أو صحة أو حسن، فغير مسلَّم، فإن الباحث في كتب السنة وكتب التفسير بالمأثور يدرك لا محالة أنه مطلب عزيز المنال»، ثم ذكر خلاصة رأيه «فأما التحقيق الذي نقول به وندين الله عليه في هذه القضية بعد إتقان البحث وإنعام النظر، فهو أن التوقيف قد ثبت بالفعل في بعض السور، وقد لا يتيسر شيء أصلاً في العديد من السور ما يدلّ على توقيفيته، فالمنصف حينئذ يأخذ الحيطة ويلزم الجادّة، فلا يقول بالتوقيف إلا فيما ثبت فيه التوقيف، وما لم يثبت فإنه يتوقف فيه على أقل تقدير»[٣]. وقد

---

(١) الأشموني، **منار الهدى في بيان الوقف والابتدا**، ص ٥٧.

(٢) ينظر: أ.د فضل عباس، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، ج ١، ص ٤٣٨. أ.د محمد المجالي، **الوجيز في علوم الكتاب العزيز**، ص ١٩٧، ود. عادل حسن، **الجمان في علوم القرآن**، ص ٣٨٥، ٣٨٦، معتمداً على قول الزركشي والسيوطي السابق ذكرهما. ولم يتطرق إلى هذه القضية من المعاصرين الدكتور الزرقاني في كتابه: **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ولا الدكتور عدنان زرزور في كتابه: **علوم القرآن**، ولا أحمد مصطفى إبراهيم في كتابه: **علوم القرآن**.

(٣) أ. د إبراهيم عبد الرحمن خليفة، **اسم السورة يمثّل روحها العام**، بحث مستلّ من حولية كلية أصول الدين، القاهرة، العدد: ٩، ١٩٩٢. ص ٨ و ١١. بتصرف. وينظر: أ.د مصطفى رجب، **فيض المنان في علوم القرآن**، ص ٤١.

اعتمد هذا القول من الكاتبين المعاصرين في علوم القرآن الأستاذ الدكتور مصطفى رجب معتمداً على التعليل ذاته.

أقول: إنه ليُسلَّم للأستاذ الدكتور خليفة عدم وجود أحاديث صحيحة مرفوعة للنبيّ ﷺ في كل أسماء السور، ولكن: هل يدلّ ذلك على أن أسماء السور التي لم يصحّ فيها أحاديث عنه ﷺ اجتهادية؟ لقد اعتمد القائلون بأن ترتيب الآيات في القرآن توقيفي على حديث عام في هذا الموضوع، وهو قوله ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] . .» إلى آخرها[1]. ولكن هل صحّ عنه حديث في ترتيب كل آية من القرآن؟ لا يمكن لأحد أن يزعم ذلك، وعليه فيمكن للقائلين بأن أسماء السور توقيفية أن يعتمدوا على أحاديث عامة تثبت أن أسماء السور كانت مقرّرة في أذهان الصحابة، كقول الصحابي حذيفة ﷺ: «صلَّيت مع النبيّ ﷺ ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى. . فافتتح النساء. . ثم افتتح آل عمران. .»[2].

فلماذا لا نقول: إن أسماء السور كانت مقرّرة في أذهان الصحابة الكرام نظراً لورود أحاديث متعدّدة عن النبيّ ﷺ ذكرت فيها أسماء السور صراحة، ثم نقل الصحابة أسماء السور بالتواتر إلى التابعين، وهم نقلوها إلى أن وصلتنا، تماماً كما حصل في قضية ترتيب الآيات في السورة؟

ولعله مما يفيد في هذا الموضوع كلامٌ للباحثَيْن عيسى وادي ومحمود مهنا، إذ طرحا أسئلة عدَّة تدعم القول بأن أسماء السور توقيفية، منها: لو كان الصحابة هم الذين قد سموا السور، فكيف اتفقوا على السور التي لها اسم واحد وهي الأكثر، واختلفوا على أسماء السور الأخرى، ولماذا يصعب تبرير أسماء السور أحياناً كسورة يونس التي سميت باسمه، ولم تذكر فيها قصته، ولماذا اختيرت أسماء بعض السور من الآية الأولى كسورة الرحمن،

---

(١) ينظر: أحمد بن حنبل، **المسند**، برقم: ١٧٢٤٠.

(٢) ينظر: مسلم، **المسند الصحيح**، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم: ١٧٦٤.

وبعضها من الآية الأخيرة كسورة الماعون، وهل يمكن للصحابة أن يسمّوا سوراً في القرآن بأسماء حشرات كالعنكبوت، أو حيوانات كالبقرة، أو بأسماء أخرى كـ «الكافرون» و«المنافقون»؟[١].

أقول: ويمكن أن أضيف تساؤلات أخرى: فلماذا سمّيت سور بأسماء أنبياء كيوسف وهود، ولم تُسَمّ سور بأسماء آخرين كموسى مع أن قصته أكثر قصص القرآن عرضاً؟ ولماذا سمّيت سورتان في القرآن بحرف واحد هما: «ص»، «ق»؟ وهَبْ أن سورتي «طه» أو «يس» نزلتا بدون اسم، واجتمع أهل الأرض ليضعوا لهما اسمين، هل ستراهم يتفقون على هذين الاسمين، ولا يختارونهما من الموضوعات البارزة فيهما كحديث سورة طه عن السامري، أو عن قصة آدم، وكحديث سورة «يس» عن موضوع البعث، أو عن قصة أصحاب القرية؟ فإن كان الصحابة هم الذين اختاروا اسمي «طه» و«يس» لهاتين السورتين، ولغيرهما من السور الكثيرة التي تثير أسماؤها العجب والتساؤل كسورة النمل أو التين، فما الحكمة التي دفعتهم لاختيار هذه الأسماء إذاً؟

فيترجّح لي أن أسماء السور توقيفية، وسببُ هذا الترجيح الاجتهادُ العقلي الذي يثير التساؤلات السابقة وغيرها، وإن لم يصحّ عن النبيّ ﷺ حديث مرفوع في كل اسم من أسماء سور القرآن. والله أعلم.

وقبل أن أنتقل إلى النقطة الثانية ينبغي أن أذْكر أن الدكتورة منيرة الدوسري قد أثبتت في كتابها «أسماء سور القرآن وفضائلها»، بعد الدراسة التحقيقية أن السور التي كان لها أكثر من اسم توقيفي بدليل **صحيح مرفوع** إلى النبيّ ﷺ هي: **الفاتحة** فقد سمّاها النبيُّ بعدّة أسماء منها: أمّ الكتاب والسبع المثاني وغيرها، والبقرة وآل عمران فقد سمّاهما النبيّ ﷺ بالزهراوين، **والتوبة** سمّاها ببراءة، **والمُلْك** سمّاها بتبارك والمنجية، **والفلق والناس** سمّاهما بالمعوّذتين. ولم يصحّ أيّ حديث مرفوع إلى النبيّ ﷺ بسند صحيح في تسمية أيّ سورة أخرى بأكثر من اسم، بل كان ذلك من اجتهادات الصحابة كتسميتهم سورة الإسراء

---

(١) عيسى إبراهيم، ومحمود مهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢- ٨.

بسورة بني إسرائيل، وسورة غافر بسورة المؤمن، وسورة القلم بسورة «ن»، وسورة الصافات بالملائكة[١].

وأعتقد أنه لم يكن من مقصود النبيّ ﷺ إعطاء أسماء جديدة لهذه السور، إنما أراد أن يصفها بصفات مميّزة لها، وكذلك السور التي سمّاها ﷺ من الآية الأولى منها، كقوله لمعاذ رضي الله عنه: «إذا أممت بالناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبِّح اسم ربك الأعلى، واقرأ باسم ربك، والليل إذا يغشى»[٢]، فإني أعتقد أنه ﷺ أراد تحديد هذه السور لمعاذ رضي الله عنه حتى لا يذهب ذهنه إلى سور أخرى، لا أنه أراد تسميتها بغير أسمائها. ولذلك سأقتصر في هذا الكتاب حسبما ترجّح لديّ على الأسماء التوقيفية للسور فقط.

ثانياً: جهود السابقين في هذا الموضوع:

أ ـ جهود بعض الكاتبين في علوم القرآن:

لقد لفت هذا الموضوع نظر بعض الكاتبين في علوم القرآن فذكروا بعض الإشارات حول هذا الموضوع توحي تلميحاً بل تصريحاً أحياناً بضرورة الاعتناء به، ومن هؤلاء العلماء:

الإمام الزركشي رحمه الله في كتابه **البرهان**، فقد حاول تعليل تسمية سورة البقرة لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وتسمية سورة النساء لما تردّد فيها من أحكامهنَّ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها. وحاول الإجابة عن سبب تسمية سورة هود بهذا الاسم مع أنه قد ذكر فيها غيره من الأنبياء، فأجاب بأن اسمه لم يتكرر في سورة أخرى كتكرّره في هذه السورة، فقد ذكر فيها أربع مرات، وعلّل تسمية سورة «ق» لتكرار هذا الحرف فيها[٣].

---

(١) ينظر: د. منيرة محمد الدوسري، **أسماء سور القرآن وفضائلها**، ص ١٠٠ وما بعدها. والكتاب في الأصل رسالة ماجستير قدمت في كلية الآداب للبنات في الدمام.

(٢) ينظر: مسلم، **المسند الصحيح**، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم: ٩٧٥.

(٣) ينظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ص ١٩٠.

وقد نقل الإمام السيوطي رحمه الله كلام الزركشي، ثم طرح ثلاثة تساؤلات: عن عدم وجود سورة باسم موسى عليه السلام مع أن قصته أكثر القصص ذكراً في القرآن، وكان أولى سورة أن تسمّى باسمه طه أو القصص أو الأعراف، فأجاب لبسط قصته في هذه السور الثلاث ما لم يبسط في غيرها، وعن عدم تسمية سورة باسم آدم عليه السلام مع ذكره في عدّة سور، فأجاب كأنه اكتفاء بسورة الإنسان، وعن عدم تسمية الصافات باسم إبراهيم عليه السلام مع ذكره فيها، وكذلك سورة «ص» لم تسمَّ باسم داود عليه السلام. ولم يجب لكنه قال: «فانظر في حكمة ذلك»[١].

وقد كان للعلماء الكاتبين في علوم القرآن في عصرنا أيضا جهود في هذا الموضوع، كالأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، فبعد أن ذكر أن أسماء السور توقيفية طرح سؤالاً: أتعلَّلُ أسماء السور؟ فأجاب بأنه إذا تم ذلك في كثير من السور لوضوح العلاقة بين الاسم والسورة كسورة يوسف، فإنه لن يتمّ في كثير من السور أيضاً، وذكر مثالاً على ذلك سورة يونس، سميت باسمه ولم تذكر فيها قصته[٢]. وقد علل تسمية سورة إبراهيم في كتابه **قصص القرآن الكريم** حينما قال: «حدثنا القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام بأنه أمّة وأنه أبو الأنبياء . . . وسورة إبراهيم، السورة التي سميت باسمه، أرادها الله أن تكون أمة في السور كذلك فلها من اسمها نصيب، من أجل ذلك وجدنا هذه المحاضرة والمحاورة التي تنسب إلى الرسل، وما كان بينهم وبين أقوامهم، ولم نجد مثلها في غير هذه السورة الكريمة، إنهم تجمعوا ولكن في هذه السورة كما يتجمع الأبناء في بيت الأب»[٣].

ب ـ جهود بعض المفسِّرين:

ولقد لفت هذا الموضوع أيضاً نظر بعض المفسِّرين، فتجد كثيراً منهم يشير إلى أحد أوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها أو أحد موضوعاتها، وقد كان كلامهم حول هذه

---

(١) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج ١، ص ١١٣.

(٢) ينظر: أ. د فضل عباس، **إتقان البرهان**، ج ١، ص ٤٣٨. أقول: بل لعلّه يتمّ تعليل ذلك في كل سور القرآن في هذا الكتاب إن شاء الله.

(٣) أ. د فضل حسن، **قصص القرآن الكريم**، ص ٨٥. بتصرف. وهو يشير إلى الآيات ٨ - ١٤ من هذه السورة.

القضية يدلّ غالباً على عمق تحليلهم واهتمامهم بها، وأبرز هؤلاء المفسِّرين: المهايمي، والبقاعي، وسيِّد قطب، وابن عاشور، ومؤلِّفو التفسير الموضوعي[١]. وقد انطلقوا من قاعدة أن اسم السورة له علاقة مباشرة بمحورها، وكانوا يشيرون إلى هذه العلاقة قبل البدء بتفسير السورة، لكن كلامهم حول هذه القضية ما زال بحاجة إلى المزيد من التحليل ليس لبيان أوجه الربط بين اسم السورة ومحورها فحسب، بل لبيان علاقته بكل موضوعاتها.

ج ـ جهود بعض الكاتبين في الوحدة الموضوعية للسور القرآنية:

وقد كان لبعض الكاتبين في موضوع الوحدة الموضوعية للسور أيضاً جهود متعلّقة بأسماء السور، فبيان الوحدة الموضوعية للسورة يقتضي بيان العلاقة بين اسمها ووحدتها الموضوعية، وهذا موضوع لفت أنظار السابقين كالإمام الفيروزابادي في كتابه: **البيان بمقاصد سور القرآن**، الذي يقوم على فكرة أن لكل سورة مقصداً ـ محوراً ـ تدور عليه موضوعاتها، وقد كان جهده بمثابة دعوة إلى النظر في هذا الموضوع، ومنهم كذلك الإمام الفراهي في كتابه: **دلائل النظام**، إذ عقد فيه فصلاً أسماه «عمود السورة إجمالاً» وهو يقوم على فكرة أن لكل سورة محوراً يجمع موضوعاتها، وألحقه بفصل أسماه «مطالب السور»، وقد بيّن فيه العلاقة بين موضوعات السورة ومحورها، ولكنه تناول عدداً محدوداً من السور[٢].

ومن العلماء المعاصرين الذين كتبوا في هذا الموضوع الدكتور محمد حجازي في كتابه: **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، إذ كان من مقرّرات كتابه أن السورة الواحدة وحدة كاملة، لها هدف واحد قد يستتبع أغراضاً مختلفة غالباً، وقد أثبت ذلك بتناوله سورتي النساء والمائدة بالدراسة التحليلية، ومنهم كذلك الدكتور رفعت فوزي في كتابه:

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن وتيسير المنّان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن**، وكان ذلك منهجه في كل السور، والبقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، وكان ذلك منهجه في كل السور، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، وكان ذلك منهجه في بعض السور، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، وكان ذلك منهجه في بعض السور، إلا أنه امتاز بذكر الوحدة الموضوعية للسور، وأ. د مصطفى مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، وكان ذلك منهجهم في كل السور.

(٢) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، والفراهي، عبد الحميد، **دلائل النظام**، ص ٩١- ١٠٥.

الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، فقد تناول فيه ثلاث عشرة سورة من القرآن لاستنباط الوحدة الموضوعية فيها، وهذه السور كلها مكية ما عدا سورة الأحزاب[١].

وقد ذكرت عند الحديث عن جهود المفسِّرين في موضوع هذه الدراسة أن سيِّد قطب كان أبرز من تناول في تفسيره **في ظلال القرآن** موضوع الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، لكنه في كثير من السور لم يكن يبيّن أوجه العلاقة بين اسم السورة ووحدتها الموضوعية وموضوعاتها، في حين أنه أجاد جداً في السور التي بيّن فيها أوجه العلاقة بين اسم السورة ووحدتها الموضوعية كحديثه عن سورة الأعراف أو الأحزاب وغيرهما.

كانت هذه أبرز القضايا التي أردت إثباتها في مقدّمة الكتاب وفي تمهيده، وسأنتقل إلى الدراسة التطبيقية على جميع السور القرآنية، متّبعاً المنهج الذي أثبته في المقدّمة، ومستعيناً بالله وطالباً منه التوفيق والسداد.



(١) ينظر: د. محمد محمود حجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ص ٤٢- ٥٣، ١١٥- ١٢٥، د. محمد رفعت، **الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية**.

سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والتاء والحاء: أصل صحيح يدلّ على خلاف الإغلاق»[١]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «فاتحة كل شيء، مبدؤه الذي يُفتح به ما بعده، وبه سمّي فاتحة الكتاب»[٢]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى كونها أول سورة في القرآن، فهي كالمقدّمة له والخلاصة لما فيه من أصول الإيمان التي فصّلت السور الأخرى في تقريرها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تحوي كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصوّر الإسلامي، فهي تثبت استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بمُلك الدنيا والآخرة، واستحقاقه العبادة والاستعانة بالسؤال في المنّ بالتزام صراط الفائزين، فاسم السورة يشير إلى أنها تساعد على إزالة الحواجز بين الإنسان وتلقي الهدايات الربانية، ويشير إلى كونها مقدّمة القرآن ومفتاح مواضيعه وجامعة لأهمّ قضاياه[٣].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٣٤.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٦٢١.

(٣) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ١، ص ١٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ١، ٢١- ٢٦، ورضا، **تفسير المنار**، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: التعريف بربّنا مُنزل هذا الكتاب العظيم، فهو الرَّبُّ الرحمن الرحيم المالك، والتعريف بواجب العباد تجاه ربّهم، وهو التوجه له وحده بالعبادة والاستعانة به للتوفيق إلى الصراط المستقيم. ولما كان تعريف هذه السورة بمنزل الكتاب وبواجب العبد تجاه ربّه شاملاً لأصول الإيمان التي نزل القرآن لتقريرها، سمّيت بالفاتحة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التعريف بربّنا مُنْزِل هذا الكتاب، والتعريف بواجب عباده تجاهه سبحانه.**

وبتأمّل موضوعَي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما: التعريف بربّنا منزل هذا الكتاب، وثانيهما: التعريف بواجب العباد تجاه ربهم[1].

أولاً: جاء القسم الأول من السورة ليُعرّف الناس بمُنزل هذا الكتاب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وافتتاحها باسم الله يدل على أنه تعالى هو الحقّ الذي يستمدّ منه كل موجود

= ج ١، ص ٢٨- ٣٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ١٣١- ١٣٢، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ١، ص ١٥، ١٦، والندوي، أبو الحسن، **دراسات قرآنية**، ص ١٢٧- ١٣١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٧، ود. محمد عناية الله سبحاني، **البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران**، ص ٦٥، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٦- ١٩.

(١) التعريف بمنزل الكتاب شملته الآيات: ١- ٤، والتعريف بواجب العباد: ٥- ٧، ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تعرف بمنزل الكتاب: أ) فهي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الاسمين الجليلين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم هي الوحيدة التي يشكل فيها هذان الاسمان لوحدهما آية كاملة، ب) قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكر هنا فقط بهذا الإطلاق، بينما في سور أخرى كانت هذه العبارة جزءاً من الآية، إلا في سورة الصافات، فقد كانت هذه العبارة هي الآية الأخيرة منها، ولكنها متصلة بما قبلها من التسبيح والتنزيه لله تعالى، ج) قوله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة آل عمران ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: ٢٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان واجب العبد تجاه خالقه: أ) فقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ب) وكذلك قوله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ج) وقوله ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**.

وجودَه، ودالّ على اختصاصه تعالى بالإلهية، واختيار صفتي «الرحمن الرحيم» بالذكر مناسب جداً لسياق التعريف بهذا الخالق العظيم، لأنهما أكثر الصفات ترغيباً بالإيمان، ثم هما من أكثر الصفات تعلّقاً بالخلق، بمعنى أنهما من أكثر الصفات تجلية في الخلق، وبيان أنه ربّ العالمين دالّ على توحيد الربوبية كما لا يخفى.

ثانياً: وبعد التعريف بمنزل هذا الكتاب، انتقل السياق إلى التعريف بما يجب على العباد تجاه خالقهم الذي أنزل عليهم هذا الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فبما أنه تعالى وحده الإله والرَّبّ للعالمين، ينبغي اختصاصه تعالى بالعبادة والاستعانة، وبطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي غاية كل مؤمن مؤمِّل بما عند الله من الثواب، وراهب مما عند الله من العقاب في يوم الدين، ولذلك يرجو من ربّه أن لا يخرجه عن الصراط المستقيم، فيكون من المحرومين من الاستقامة لزيغهم عن الصراط المستقيم بتعمّدٍ حتى استحقّوا الغضب، أو بجهلٍ حتى استحقّوا الضلال.

وبتأمّل هذين القسمين تجد أن السورة حوت خلاصة الدين الذي فصلته سور هذا الكتاب كما ذكر الأفاضل، ولذلك سمّيت بالفاتحة لكونها كالمقدّمة لهذا القرآن، وفي ذلك أبلغ دلالة على المحور المذكور.



سورة الفاتحة

سورة التعريف بربنا مُنْزل هذا الكتاب، والتعريف بواجب عباده تجاهه

القسم الأول: (الآيات ١-٤)

التعريف بربنا مُنزلِ هذا الكتاب:

- افتتحت السورة بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مما يدلّ على اختصاصه تعالى بالإلهية.
- وبيان أنه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وأنه المستحقّ للحمد لأنه وحده ربّ العالمين، دالّ على اختصاصه تعالى بصفات الربوبية.
- وأعادت التأكيد على أنه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③﴾ لأنهما أكثر الصفات ترغيباً بالإيمان، وأكثرها تعلّقاً بالخلق، فرحمته سبقت غضبه.
- وبيان أنه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④﴾ فيه تأكيد على اختصاصه تعالى بالإلهية والربوبية معاً.
- فالقسم الأول من السورة أثبت أن منزل هذا الكتاب هو الإله الرَّبّ المالك والمدبّر لشؤون الخلق في الدنيا والآخرة.

القسم الثاني: (الآيات ٥-٧)

التعريف بواجب العباد تجاه ربهم:

- بعد بيان أن الله وحده إله العالمين وربّهم، بيّنت السورة واجب العباد تجاه خالقهم، إذ ينبغي أن يَخُصُّوه وحده بالعبادة والاستعانة وبطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي غاية كل مؤمن مُؤمِّل بما عند الله.
- ولذلك يتوجّه المؤمن إليه بالدعاء أن لا يخرجه عن الصراط المستقيم حتى لا يكون من المغضوب عليهم ولا الضالين.

سورة البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة بـ «البقرة» لذكر قصة البقرة التي أُمر بنو إسرائيل بذبحها، حينما قُتلت منهم نفسٌ ولم يعلموا القاتل، فأمرهم الله بضرب القتيل ببعض البقرة المذبوحة فيحيى ويخبر عن قاتله، ومن أبرز دلالات القصة بيان تنطّع وتلكّؤ وتردّد بني إسرائيل في تنفيذ هذا الأمر، إذ راجعوا نبيّهم موسى عليه السلام فيه ثلاث مرات، قائلين في كل مرة: «ادع لنا ربك»، بالإضافة إلى أن القصة تعرض مظهراً دالاً على قدرة الله على إحياء الموتى.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد السورة الدعوة إلى الإيمان بالغيب، وبقدرة الله على البعث ليوم

الحساب، ومن مقاصدها إقامة الدليل على أن القرآن هدًى يجب أن يُتَّبع في كل ما جاء به، وذكروا أن الخطاب في السورة يمكن أن يقسم لقسمَيْن: خطاب لبني إسرائيل أو متحدّث عنهم يبيّن موقفهم من استقبال الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة، وخطاب للأمة المسلمة ذات النشأة الجديدة، يحوي أحكاماً يُعدِّها لحمل أمانة الخلافة في الأرض، وهما قسمان يجمعهما محور واحد: بيان منهج خلافة الله في الأرض بين مَن أضاعوه ومَن أقاموه. وذكروا أن قصة البقرة هي أدلّ ما في السورة على هذا المحور[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: تربية الأمة الإسلامية وإعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض، وبيان استحقاقها لهذا الشرف لالتزامها بالصفات التي ارتضاها الله لخلفائه في الأرض، والتي من أهمّها: الاستسلام لأوامره تعالى والمسارعة إلى طاعته، والذي يدعوهم لذلك إيمانهم بالغيب وبقدرة الله على البعث للحساب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بيان زوال شرف الخلافة عن بني إسرائيل بعدما تخلّوا عن الصفات التي تؤهِّلهم لذلك، وإنما اختير اسم «البقرة» لهذه السورة لأن سياق قصة البقرة مع التعقيب الإلهي عليها أدلّ ما في السورة على هذا المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان منهج خلافة الله في الأرض بين مَنْ أضاعوه ومَن أقاموه.**

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالات اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ستّة موضوعات: أولاً: مقدّمة تبيّن صفات الأمة الإسلامية المؤهّلة للخلافة في الأرض، لالتزامهم بالمنهج الذي ارتضاه الله للخلافة،

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٣١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج١، ص٢٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ١، ص ٢٨- ٣٥ و ٧٧- ٨٠، ورضا، **تفسير المنار**، ج ١، ص ٨٠- ٩٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٢٠١ - ٢٠٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ١، ص ١٩- ٣٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ١١- ١٣، د.محمد عبد الله دراز، **النبأ العظيم**، ص ١٦٣- ٢١١، ومحمد قطب، **دراسات قرآنية**، ص ٢٨٧، ود. محمد عناية الله، **البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران**، ص ٤٣٠- ٤٣٧، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٧٣- ٧٥، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٠- ٣٨.

وثانياً: بيان للعدوّ الخارجي الظاهر لأمة الإسلام وهم الكافرون، وللعدوّ الداخلي الخفي المخادع وهم المنافقون، وثالثاً: دعوة للناس للقيام بالمهمّة التي خلقوا من أجلها، ألا وهي الخلافة في الأرض، وتأكيد ذلك بقصة آدم عليه السلام، ورابعاً: بيانٌ لأسباب زوال شرف الخلافة عن بني إسرائيل مع تحذير للأمة الإسلامية من الوقوع في تلك الأسباب، وخامساً: توجيهات وأحكام للأمة الإسلامية تؤهّلهم للخلافة في الأرض مع التحذير من التهاون بها، وسادساً: خاتمة تحوي تأكيداً لما سبق[(١)].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان للصفات التي ارتضاها الله عز وجل لخلفائه في

---

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وبيان العدو الخارجي والداخلي للأمة الإسلامية: ٦- ٢٠، ودعوة الناس للقيام بواجب الخلافة: ٢١- ٢٩، وقصة آدم عليه السلام المؤكدة لهذا الواجب: ٣٠- ٣٩، وبيان أسباب زوال استحقاق الخلافة عن بني إسرائيل: ٤٠- ١٤١، والتوجيهات والأحكام للأمة الإسلامية مع التحذير من التهاون بها: ١٤٢- ٢٨٢، والخاتمة: ٢٨٣- ٢٨٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي أمور لم تذكر في سور أخرى، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان نكول بني إسرائيل السابقين والمعاصرين منهم للنبيّ ﷺ عن مؤهلات الخلافة في الأرض: فانظر مثلاً عن بني إسرائيل السابقين: أ) التفصيل في طلبهم أطعمة تخرج من الأرض بدلاً من المَنّ والسلوى: ٦١، ب) قوله تعالى عنهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: ٧٤، وقريب منها في سورة الحديد: ١٦، ج) التفصيل في عدم استجابتهم لميثاق تحريم سفك الدماء: ٨٤، ٨٥، د) اتباعهم ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان: ١٠٢، هـ) نكولهم عن طاعة طالوت إلا قليلاً منهم: ٢٤٦- ٢٥١، وانظر مثلاً عن أهل الكتاب المعاصرين له ﷺ: أ) قوله تعالى لهم ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾: ٤١، لم يذكر إلا هنا، ب) وكذلك قولهم ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾: ١١١، ج) وقـولـه ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: ١١٣، د) وقوله ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: ١٢٠، ثانياً: ومنها أمور تؤكد استحقاق أمة النبيّ ﷺ للخلافة لالتزامهم بأحكام الله وإيمانهم بالآخرة: أ) فهي أكثر سورة ذكرت فيها «الآخرة»، وذلك عشر مرات، وأكثر سورة ذكر فيها «اليوم الآخر» وذلك سبع مرات، وأكثر سورة ذكر فيها «الموت» وذلك خمس مرات، وبمراجعة سياقاتها جميعاً سيتبين لك أنها تؤكد إيمان المؤمنين بالآخرة، وقلة إيمان بني إسرائيل بها إن لم يكن منعدماً، ب) هي الوحيدة التي فصلت في موضوع القبلة لتمييز المسلمين المستخلفين في الأرض عن باقي الأمم: ١٤٢- ١٥٠، ج) والوحيدة التي ذكرت السعي بين الصفا والمروة: ١٥٨، وقد فصلت في بعض أحكام الحج: ١٩٦- ٢٠٣، د) وقد فصلت في موضوع القصاص والدية: ١٧٨- ١٨٢، وذُكر هذا إشارةً في سورة المائدة: ٤٥، هـ) وقد فصلت في موضوع صيام رمضان: ١٨٣- ١٨٧، و) وموضوع الطلاق والإرضاع: ٢٢٦- ٢٤٢، هـ) وفي موضوع النفقة وبيان فضلها: ٢٦١- ٢٧٤، ز) وتحريم الربا: ٢٧٥- ٢٨٠، ح) وانظر آية الدَّين: ٢٨٢. فطالما التزم المؤمنون بهذه الأحكام فهم المؤهلون للخلافة بعد نكول بني إسرائيل عنها. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الأرض، وهي تمثّل خلاصة المنهج المرتضى لخلافة الله في الأرض، وهي صفات اختصّ بها المؤمنون، وسنرى أن هذه الصفات ذاتها أُمر بها بنو إسرائيل ولم يلتزموا، فزال عنهم شرف الخلافة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾، ويلفت النظر أن السياق مدح المؤمنين بالغيب، وبيّن أن من صفاتهم: إقامة الصلاة: وهي مظهر لعبادة الله بالغيب، والإنفاق: وهو مظهر يدل على إيمان المنفق بالأجر الغيبي الذي وعده ربّه به، والإيمان بجميع الكتب المنزلة: وهو مظهر للإيمان بالغيب أيضاً؛ لأنهم لم يروا هذه الكتب وإنما آمنوا بها، لأن الله أخبرهم عنها، واليقين بالآخرة: وهي من أهمّ قواعد الدين الغيبية.

أقول هذا لأنه سيأتي بيان قلّة إيمان بني إسرائيل بالغيب إن لم يكن منعدماً، وقد كان هذا هو السبب الرئيس لزوال شرف الخلافة في الأرض عنهم. فأنت ترى أن هذه الأمور الجليلة التي أُمر بها المؤمنون يدعوهم تقوى الله إلى الأخذ بها على محمل الجدّ والهمّة، وسترى في قصة البقرة كيف كاد بنو إسرائيل ينكلون عن أمر إلهي يسير وهو ذبح بقرة، فلم يكن في قلوبهم شيء من التقوى يدعوهم للمبادرة بتنفيذه، بل على العكس ظنّوا أن نبيّهم عليه السلام يهزأ بهم، وتنطّعوا في الأمر أيّ تنطّع. ولا يخفى الترابط بين إحياء الله للقتيل في تلك القصة وبين الدعوة إلى الإيمان بالغيب واليقين بالآخرة في هذه المقدّمة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى أمر خطير في تربية الأمة الإسلامية الناشئة وإعدادها، ألا وهو تحديد أعداء هذه الأمة وكشفهم وفضحهم لأخذ الحذر منهم، فالعدو الأول ظاهر مجاهر بالعداوة وهم الكافرون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾، فبعد هذه المفاصلة العقدية بيننا وبينهم، أصبح على الأمة الإسلامية إذاً أخذ الحيطة والحذر منهم، حتى يبقوا مؤهّلين لخلافة الأرض.

وأما العدوّ الثاني فهو عدوّ داخلي خطير ماكر مخادع: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، ولاحظ كيف بيّن السياق أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فما الذي يحملهم على الأخذ بصفات المؤهّلين للخلافة إذاً؟ بل هم هجروا تلك الصفات واتبعوا سبيل الإفساد والضلال، فوجب على الأمة الإسلامية أخذ الحيطة والحذر منهم.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى دعوة الناس للقيام بالواجب الذي خلقوا من أجله، ألا وهو الخلافة في الأرض، وقد عرض السياق بعض الآيات الكونية الداعية إلى الالتزام بهذا الأمر، ثم أكّد ذلك بقصة أبيهم آدم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فالواجب عليهم إذاً أن يؤمنوا بالله ويتقوه، ولاحظ كيف بيّن السياق أن الله خلق المدعوين وأسلافهم، وفي ذلك بيان لقدرته على بعثهم للحساب كما خلقهم أول مرة.

وقد عرض السياق أمراً تربوياً آخر للمؤمنين، وهو أنهم يأخذون ما يأتيهم من ربّهم مستسلمين للحكمة الإلهية فيه، ولا يدعوهم خفاء الحكمة من ذلك إلى الاستهزاء كما يفعل الكافرون: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾. فالمؤمن المؤهّل للخلافة في الأرض يتلقّى الأمر الإلهي بالتسليم والتنفيذ، والكافر يدعوه استهزاؤه بهذا الأمر إلى ترك الطاعة واتباع سبيل الإفساد.

وانظر إلى قوله تعالى الداعي إلى الإيمان باليوم الآخر: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾. وذِكْر اليوم الآخر متلائم مع قصة آدم عليه السلام، فآدم عليه السلام يمثّل بداية خلق البشر، واليوم الآخر يمثّل نهاية مصير البشر.

ويظهر في قصة آدم عليه السلام مع التعقيب عليها الصفات المؤهّلة للخلافة في الأرض، فقد ركّز السياق في هذه القصة على ميزة آدم على الملائكة بالعلم الذي علّمه الله إياه، مع التحذير من العداوة الأزلية لإبليس: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾، فقد حظي آدم عليه السلام بالعلم الذي يؤهّله للخلافة في الأرض، ولاحظ التحذير من العدوّ الأول للبشرية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾، فقد كانت هذه بداية قصة استخلاف البشر على الأرض، ولاحظ كيف جاء التعقيب داعياً إلى تلقّي هدى الله بالتسليم التامّ، ومبيّناً قدرة الله على البعث والحساب: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾. فأنت ترى أن السياق يدعو الأمة الإسلامية إلى التسليم لأوامر الله والمبادرة إلى تنفيذها، لأن هذا ما يبقيهم مؤهّلين للخلافة، وسيأتي كيف زال هذا الشرف عن بني إسرائيل لتنطّعهم وتردّدهم في أوامر الله، وقد كانت قصة البقرة أدلّ ما في السورة على ذلك.

رابعاً: ثم انتقل السياق إلى بيان أسباب زوال شرف الخلافة في الأرض عن بني إسرائيل، وأبرز هذه الأسباب هو عدم أخذهم الأوامر الإلهية على محمل الجدّ، واللافت للنظر أن السياق ابتدأ بفضحهم من الأصل، منذ زمن موسى عليه السلام، وكلما كان السياق يذكر نعمة أنعمها الله عليهم، كان يعقبها بذكر موقفٍ مخزٍ لهم إزاء هذه النعمة، وستجد أن عِصيَّ التأديب الإلهي ما زالت تضرب ظهورهم منذ ذلك الوقت إلى زمن النبيّ ﷺ.

ابتدأ الحديث عن بني إسرائيل بأمرهم بذات الصفات المذكورة أول السورة، وهي الصفات المؤهّلة للخلافة، لكنهم لم يلتزموا بها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾، فقد أمرهم السياق بالإيمان بجميع الكتب وبجميع الرسل الذين خُتموا بسيّدنا محمد ﷺ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإحسان إلى الناس، والإيمان باليوم الآخر. وقد ذكر السياق هذه الصفات لبيان نكول بني إسرائيل عنها، فقد كانوا أول كافر بالنبيّ ﷺ وبالقرآن في المدينة المنورة.

ثم انتقل السياق إلى عرض نِعَم الله على أسلافهم، كيف كان موقفهم من هذه النِّعَم، فقد كانت أول وأكبر نعمة عليهم: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وقد أعقبها السياق بذكر أكبر معصية لهم: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾. وعبادتهم العجل أمر دالّ على انعدام إيمانهم بالغيب، فهم يبادرون إلى عبادة إله يرونه بأعينهم، ويتركون عبادة الخالق سبحانه؛ لأنهم لا يرونه.

وهذه نعمة أخرى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾، وفتح لهم باب التوبة من عبادة العجل فأمرهم بقتل أنفسهم وهو أحد أساليب التأديب الإلهي، وفي المقابل انظر إلى هذا الموقف: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وطلبهم رؤية الله جهرة دالّ على انعدام إيمانهم بالغيب كما لا يخفى، ولاحظ ذكر قدرة الله على الإحياء بعد الإماتة.

وبعد أن ذكر السياق نعمة تظليلهم بالغمام، وإنزال المَنِّ والسلوى، عرض السياق

موقفهم المخزي إزاء أمر الله لهم بدخول القرية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، ولاحظ ذكر التأديب الإلهي حينما أنزل عليهم الرجز.

وبعدما عرض السياق نعمة تفجّر الماء من الحجر باستسقاء موسى عليه السلام، عرض موقفهم المشين حينما فَضَّلوا على نعمة المَنّ والسلوى التي تأتيهم من الغيب، فضّلوا قائمةً من الأطعمة يريدون رؤيتها تخرج من الأرض بأعينهم. وانظر إلى هذا الأمر الإلهي بأخذ أوامر الله على محمل الجدّ والحزم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وانظر ماذا كان موقفهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾، وذكرهم السياق بأحد أساليب التأديب الإلهي حينما خالفوا أمره في يوم السبت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

إن عدم إيمانهم بالغيب حرمهم من الوفاء بالعهود والمواثيق بينهم وبين الله تعالى، وهوّن عليهم الاستخفاف بالأوامر الإلهية والنكول عنها، ممّا أدّى إلى زوال شرف الخلافة في الأرض عنهم.

وانتقل السياق إلى قصة البقرة، وأعتقد أنها تحوي أحد عجائب الأسلوب المعجز للقصص القرآني، فقد قدّم السياق ذكر أمرهم بذبح البقرة على موضوع القتيل، واللافت للنظر أن السياق ابتدأ القصة بهذه العبارة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ﴾ وأعتقد أن المقصود من تصدير القصة بهذه العبارة بيان سهولة ويسر هذا الأمر الذي أمروا به، فكل ما هو مطلوب ذبح بقرة، ثم عرض السياق كيفية تنطّعهم وتردّدهم في الأمر البسيط، وكأن السياق يقول: إذا كان بنو إسرائيل تردّدوا وتنطّعوا وأعادوا سؤال نبيّهم حول هذا الأمر اليسير ثلاث مرات، كيف سيكونون مؤهّلين لشرف الخلافة الكبرى في الأرض وما تستلزمه هذه الخلافة من الصفات الجليلة، وفي رأيي أن هذا الملحظ كان أحد أسباب تسمية السورة بهذه القصة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾، ولاحظ أولاً: كيف ظنّوا بنبيّهم سوءاً فقالوا بوقاحة: أتتخذنا هزواً؟ ولاحظ ثانياً: سؤالهم الوقح ثلاث مرات: ادْعُ لنا ربَّك؟ وكأنَّ الله تعالى ربُّ موسى عليه السلام فقط وهم لا يعترفون به، ولاحظ ثالثاً: التمادي في التنطّع والتلكّؤ والتردّد فقد سألوا عن صفاتها ولونها أيضاً، ولاحظ رابعاً: قوله تعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ . . .

إن هذا القِسْم من القصة يؤكّد ما سبق من أخذهم الأوامر الإلهية حتى لو كانت يسيرة على محمل الهزء والاستخفاف، وما ذلك إلا لانعدام إيمانهم بالغيب، وفي ذلك تربية للأمة الإسلامية المأمورة بالتسليم لهدي الله والمبادرة إلى تنفيذه، حتى لو خفيت عليهم الحكمة منه كما مرّ عند آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ...﴾ [البقرة: ٢٦].

أما القسم الثاني المتمّم للقصة، فنجد فيه بيان قدرة الله على إحياء هذا القتيل، وفي ذلك إشارة لقدرته تعالى على البعث والحساب: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، إن عرض قدرة الله تعالى على الإحياء أمام أعينهم فيه أجلُّ موعظة لهم، لأنهم لو كانوا يوقنون باليوم الآخر وما فيه من الحساب لما توانوا عن تنفيذ أوامر الله تعالى، وفي ذلك تربية للمؤمنين الذين يدفعهم إيمانهم بالغيب ويقينهم بالآخرة إلى المبادرة إلى تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه.

ولقد عقب السياق على القصة ببيان قساوة قلوب بني إسرائيل التي تزيد على قساوة الحجارة، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم إن لم يكن قد انعدم.

وبعد هذه القصة التي خُتم بها فضحُ أسلافهم، انتقل السياق إلى فضح بني إسرائيل

المعاصرين للنبيّ ﷺ، ولبيان أنهم ما زالوا على نفس العقيدة والشاكلة، فكان لا بد من التحذير منهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فهم يمتنعون عن الإيمان ببعثة النبيّ ﷺ مع علمهم بصدقه؛ حسداً من عند أنفسهم.

وقد عرض السياق جهل عوامّهم، وكذب وافتراء علمائهم بتحريفهم الكتاب، وانظر ضعف إيمانهم وجهلهم: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وهم ما زالوا يعرضون عن أوامر الله بدل الالتزام بها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

وانظر كيف يمتنعون عن الإيمان بالقرآن مع علمهم بصدقه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فهم يدّعون ظاهراً الإيمان بكتاب موسى والحقيقة إن أعمالهم تدلّ على غير ذلك، فهل تأمرهم التوراة بقتل الأنبياء وعبادة العجل؟!

ولقد بيّن السياق السبب الأكبر لتصرفاتهم هذه، وهو أنهم قوم مادّيون وإيمانهم بالغيب وبالآخرة قليل أو منعدم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومن تصرفاتهم المخزية التي حدّثنا السياق بها: عداوتهم للملائكة وخصوصاً جبريل عليه السلام، وتفضيلهم اتّباع ما تتلوه الشياطين من السحر والكذب على كتاب ربّهم، وقلّة

أدبهم مع النبيّ ﷺ حتى أُمر المؤمنون بالحذر من الوقوع بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

وفي خلال سياق فضح هؤلاء اليهود المعاصرين تجد السياق يذكر المؤمنين بالصفات المذكرة أول السورة ويدعوهم للالتزام بها، وأن لا يقعوا بما وقع به هؤلاء، فقد أمرهم بالتسليم للحكمة المرادة من النسخ، وأن لا يكون ذلك باباً للشَّكّ: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾، وانظر هذا التحذير: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾، وانظر هذا الأمر الذي يذكّر بالصفات المذكورة أول السورة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ولم يقتصر السياق على التحذير من اليهود فقط، بل حذّر أيضاً من النصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾، فموقف اليهود والنصارى من الأمة الإسلامية المؤهّلة للخلافة في الأرض واحد.

فأنت ترى أن السياق يركّز على بيان أسباب زوال شرف الخلافة عن أهل الكتاب بعدما غيّروا وبدّلوا، وقد كان الدافع لهم على ذلك انعدام إيمانهم بالغيب وبالآخرة، ويأمر المؤمنين بالثبات على الصفات التي ارتضاها الله لخلفائه في الأرض، والذي يدفعهم لذلك إيمانهم بالغيب ويقينهم بالآخرة، وهذا محور قد دلّت عليه قصة البقرة مع التعقيب الإلهي عليها أبلغ الدلالة.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام، وتجد فيها استسلامه التامّ لأوامر الله تعالى، وأن من يستحقّون الانتساب إليه هم فقط من التزم بالصفات المؤهّلة للخلافة: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ

عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، وانظر هذا القول لسيِّدنا إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ ولاحظ قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وهذا متناسب مع الصفات المذكورة أول السورة، وانظر هذه الدعوة منه عليه السلام الدالة على اختصاص الأمة الإسلامية بالانتماء له: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾، وانظر كيف كان إبراهيم عليه السلام مستسلما لأمر ربّه، وموصياً أولاده بذلك: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾. فالسياق يعرض هذه القصة ليبيّن للمؤمنين أن الاستسلام لأوامر الله هي صفة الأنبياء، فعليهم الالتزام بها ولا ينكلوا عنها كما صنع بنو إسرائيل.

ثم عقب السياق بالرّدّ على اليهود والنصارى الزاعمين زوراً وكذباً انتماءهم الديني لإبراهيم عليه السلام، ومبيّناً أن الأمة الإسلامية هم فقط من نال هذا الشرف: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

خامساً: وبعد أن فضحت السورة بني إسرائيل وبيّنت أن من أهمّ أسباب زوال شرف الخلافة عنهم إنما هو عدم إيمانهم بالغيب الذي دفعهم إلى عدم استسلامهم لأوامر الله، انتقل السياق إلى ذكر عدد من الأوامر والتوجيهات للأمة الإسلامية آمراً إياهم بالالتزام بها وأخذها على محمل التسليم والجدّ والهمّة، فكان أول أمر الالتزام بتحويل القبلة إلى البيت

الحرام، بلا التفات إلى عدم تسليم السفهاء ـ وهم اليهود ـ لهذا الأمر الإلهي؛ لأنهم لم يدركوا الحكمة المرادة منه: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

فقد امتازت الأمة الإسلامية بقِبْلتها التي ارتضاها الله لها، بينما أراد اليهود أن يبقى المسلمون تابعين لهم في استقبال بيت المقدس، ومعلوم أن ذكر الصلاة متناسق مع الصفات المذكورة أول السورة للمؤهّلين لخلافة الأرض، ثم إن الصلاة من أبرز مظاهر عبادة الله بالغيب وإن لم يَرَهُ المؤمنون.

وأعاد السياق تذكير المؤمنين بالصفات التي ارتضاها لهم، من ضمنها اليقين باليوم الآخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾، وهذه الآيات تبيّن أن الابتلاء سُنَّة الاصطفاء، وتربّي المؤمنين على الصبر والثبات، وأن لا يهنوا ولا يضعفوا، فهم على الحق.

ومن الأوامر والتوجيهات للأمة الإسلامية أيضاً: عدم التحرّج من السعي بين الصفا والمروة، والتحذير من الشرك، ومن اتباع خطوات العدوّ الأزلي للبشرية ـ أعني الشيطان ـ والتزام ما أحلّ الله من الطعام، واجتناب ما حرمه، ومن الأوامر التي تحفظ المجتمع أيضاً القصاص في القتل: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، وحفظ الوصية، وبيان أحكام الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾، ومقاتلة أعداء الله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ

أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، والتفصيل في أحكام الحجّ والعمرة: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾. وتحريم الزواج من المشركات، واعتزال النساء في المحيض، وحفظ الأيمان، والتفصيل في أحكام الطلاق، وأحكام الرضاع، والإنفاق في سبيل الله، وترك الربا، والتفصيل في أحكام الدَّين، فهذه جملة من الأحكام التي تميّز المجتمع الإسلامي وتحفظه على الصعيد الداخلي والخارجي.

والمتأمّل في سياق هذه الأحكام يدرك أن الذي يدعو المؤمنين إلى الالتزام بها إنما هو الإيمان بالغيب واليقين بالآخرة، وهي التي يكون فيها الجزاء الجزيل لمن التزم بهذه الأحكام.

واللافت للنظر أنك تجد في ثنايا عرض هذه الأحكام تحذيراً ممن تهاونوا بأوامر الله حتى زال عنهم شرف الخلافة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

وقد أسهم القصص القرآني أيضاً في بيان أهمّ أسباب زوال الخلافة عن بني إسرائيل، فمن ذلك خوفهم من الموت لقلّة إيمانهم بالآخرة وعدم استعدادهم لها: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾، وانظر هذه القصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ

بِالظَّالِمِينَ﴾، وهم مع ذلك جادلوا نبيّهم في أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وخالفوا أمره وشربوا من النهر، وجبنوا عن القتال إلا فئة قليلة منهم. . وفي ذلك تربية لأمة الإسلام على التسليم لأوامر الله والأخذ بها على محمل الجدّ والهمّة والعزيمة.

وقد بيّن السياق للمؤمنين عظمة الله عز وجل الذي ارتضاهم خلفاء في الأرض، وذلك يدعوهم إلى الالتزام بأوامره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ولاحظ وصف الله عز وجل بالحيّ القيوم، فهو لا يموت وقائم على أعمال العباد وقادر على بعثهم يوم القيامة لمجازاتهم عليها، وهذا متناسق مع جوّ السياق الدالّ على قدرة الله على البعث من ناحية، ومن ناحية أخرى متناسق مع أمر المؤمنين باليقين بالآخرة في أول السورة، ومن ناحية ثالثة متناسق مع القصص التي تدلّ على قدرة الله على الخلق والبعث، كما جاء في قصة آدم عليه السلام، وكما سيأتي في باقي القصص.

وليكتمل التناسق عرض السياق قصصاً أخرى دالّة على قدرة الله على البعث والحساب، فانظر إلى قصة إبراهيم الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾، وانظر هذه القصة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ﴾ [بعض الآية: ٢٥٩]، وانظر إلى القصة الثانية لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

وبعد ذلك كلّه انظر إلى هذا الأمر للأمة الإسلامية في أواخر السورة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾. فأنت ترى أن السياق السورة يربّي المؤمنين على الالتزام بأوامر الله والثبات على الصفات التي ارتضاها لهم والتي

أهمّها : اليقين بالآخرة، وذلك متناسق مع قصة البقرة مع التعقيب عليها اللذين أفادا زوال هذه الصفات عن بني إسرائيل مع رؤيتهم قدرة الله على البعث عياناً.

سادساً: بقيت الخاتمة التي تجد فيها إعادة التذكير بعظمة الله تعالى الذي ارتضى الأمة الإسلامية خلفاء في الأرض، وأعاد تذكيرهم بالصفات التي تبقيهم مؤهّلين للخلافة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

والمتأمّل في هذه الآيات يظهر له جلياً تناسقها مع مفتتح السورة الذي أمر المؤمنين بالصفات ذاتها، وكأن المؤمنين التزموا بالصفات التي ذكرها الله أول السورة والتي تمثّل المنهج المرتضى لخلافة الأرض، حتى عرضت الخاتمة موقفهم المعلن عن إيمانهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، معتمدين على إيمانهم بالغيب ويقينهم بالآخرة، فهم قد فهموا الغاية المقصودة من هذه السورة، والتزموا بمنهج الله أفضل التزام، فاستحقّوا بكل جدارة أن يكونوا هم فقط المؤهّلين لخلافة الله في الأرض، بعد زوال هذا الشرف عن بني إسرائيل، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسمها أبلغ الدلالة.



سورة البقرة

سورة بيان منهج خلافة الله في الأرض بين مَنْ أضاعوه ومن أقاموه

الموضوع الأول: (الآيات ١-٥)

المقدمة التي تبين صفات المستحقين لخلافة الله في الأرض، لالتزامهم بالمنهج الذي ارتضاه الله للخلافة:

- افتتحت السورة ببيان صفاتهم، فهم الذين يؤمنون بالقرآن ويتبعون هداه.
- وهم يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، فهم يقيمون تعاليم دينهم.
- وهم يؤمنون بما أُنْزل على النبي ﷺ وما أُنْزل من قبله من الكتب، وبالآخرة هم يوقنون.
- ومدحتهم المقدمة حين بينت أنهم على هدى من ربهم وأنهم المفلحون.

الموضوع الثاني: (الآيات ٦-٢٠)

بيان «العدو الخارجي» لأمة الإسلام المؤهلة للخلافة في الأرض. وهم الكافرون. و«العدو الداخلي» وهم المنافقون:

- بعد بيان صفات المستحقين للخلافة عند الله في الأرض، انتقل السياق إلى تحذيرهم من عدوهم الخارجي وهم الكافرون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ثم حذرهم من عدوهم الداخلي وهم المنافقون: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبيّن صفاتهم، فهم يخادعون الله والذين آمنوا، وهم في قلوبهم مرض، وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأض قالوا: إنما نحن مصلحون، وبيّن أنهم اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.
- إن تحذير أمة الإسلام المؤهلة للخلافة في الأرض فيه تربية وإعداد لهم لأخذ الحيطة والحذر من الأعداء الذين يريدون إخراجهم من مظلة الخلافة عن الله في الأرض.

الموضوع الثالث: الآيات: (٢١-٣٩)

دعوة الناس للقيام بالمهمة التي خلقوا من أجلها وهي خلافة الأرض وفق المنهج الرباني:

- بعد بيان صفات المؤهلين للخلافة في الأرض وبعد تحذيرهم من أعدائهم، انتقل السياق إلى دعوة الناس للقيام بواجبهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ فهم مأمورون بعبادة خالقهم.
- وهم مأمورون باتّباع هدى الله دون أن يجدوا منه حرجاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.
- وهم مأمورون بالإيمان باليوم الآخر: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.
- وقد عرض السياق قصة آدم عليه السلام وفيها بيان أن الله علمه الأسماء كلها ليجعله مؤهلاً للخلافة في الأرض.
- وقد بينت القصة العداوة الأزلية بين إبليس وبين آدم عليه السلام وبنيه، إذ يداوم إبليس على إخراج الناس عن منهج الله في خلافة الأرض.
- إن دعوة الناس للقيام بواجبهم مع تحذيرهم من عدوهم الأزلي فيه أبلغ تمهيد لما سيأتي من بيان نكول بني إسرائيل عن الخلافة عن الله في الأرض.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٠-١٤١)

بيان أسباب زوال شرف الخلافة عن بني إسرائيل القدامى منهم والمعاصرين للنبي ﷺ، مع تحذير لأمة الإسلام من الوقوع في تلك الأسباب:

- ابتدأ السياق ببيان أن الله قد أمرهم بالوفاء بعهد الله، لكنهم كانوا ينقضون عهد الله في كل مرة، فقد أمرهم بالإيمان بالقرآن المصدق لما معهم، وأن لا يكونوا أول كافر به، لكنهم كانوا أول كافر به.
- وأمرهم بالصلاة والزكاة لكنهم لم يلتزموا بها.
- ثم فصل السياق في عرض أسباب نكول بني إسرائيل القدامى عن الخلافة في الأرض، فقد كانوا يقابلون نِعَم الله عليهم بالكفران والتكذيب والاستهزاء.
- فقد نجاهم الله من آل فرعون ثم واعد موسى لينزل عليه الهدى، فإذا بهم يعبدون العجل في غيابه.
- ومما يدل على عدم إيمانهم بالغيب أنهم قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.
- وقد أمروا بدخول القرية سجداً فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم.
- وقد أخذ الله عليهم الميثاق بأخذ ما آتاهم من الهدى بقوة ورفع فوقهم الطور تهديداً لهم، ثم تولّوا من بعد ذلك.
- وقد أمرهم نبيهم بذبح بقرة، وهو أمر سهل يسير، فراجعوه في هذا الأمر ثلاث مرات، حتى ذبحوها وما كادوا يفعلون.

■ وقد أحيا الله القتيل أمام أعينهم ليكون ذلك آية على بعثهم وحسابهم، لكن إيمانهم بالآخرة كان منعدماً.

■ ثم انتقل السياق إلى بيان أسباب نكول بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ عن شرف الخلافة في الأرض، فهم ما زالوا على شاكلة أسلافهم يحرفون الكلم من بعد ما عقلوه.

■ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾.

■ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

■ وهم لضعف إيمانهم بالغيب يودّ أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر، وقد اتخذوا جبريل عليه السلام عدواً.

■ وقد بيّن السياق أن النصارى أيضاً قد زال عنهم شرف الخلافة كما زال عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

■ بيّنت قصة إبراهيم أنه كان موحّداً مسلماً لله تعالى داعياً إياه أن يبعث في ذريته رسولاً منهم، وقد كان سيدنا محمد ﷺ هو جواب الدعوة.

■ وقد أمر السياق بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أُنزل على أنبيائهم وما أنزل على النبي ﷺ لكنهم آمنوا بما أنزل عليهم وكفروا بما وراءه.

■ بيّنت السورة أن يعقوب عليه السلام حال احتضاره أوصى بنيه بعبادة الله وحده، وعدم الشرك به، وأن الله اصطفى لهم الدين فلا يموتنّ إلا وهم مسلمون، وفي هذا أبلغ رَدّ على بني إسرائيل الذين كفروا وكذبوا بالنبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن.

■ كل هذه الأسباب تبيّن نكول بني إسرائيل عن شرف الخلافة عن الله في الأرض، وتحذّر المؤمنين من الوقوع فيها لئلا يزول هذا الشرف عنهم أيضاً.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١٤٢-٢٨٢)
توجيهات وأحكام لأمة الإسلام الذين اصطفاهم الله لخلافة الأرض، مع التحذير من التهاون بها:

- بعد بيان نكول شرف الخلافة عن بني إسرائيل لعدم التزامهم بأوامر الله، انتقل السياق إلى أمر المؤمنين بأحكامٍ تمثّل المنهج الذي ارتضاه لخلافة الأرض.
- فقد ميّزت سورة البقرة أمة الإسلام عن باقي الأمم بالتوجّه في الصلاة إلى الكعبة، وهو البيت الذي بناه أبو الأنبياء، دون الالتفات إلى اعتراض السفهاء من بني إسرائيل.
- أمرهم بالسياق بالاستعانة بالصبر والصلاة، وبيّن لهم كثيراً من الأحكام وأمرهم بأخذها مأخذ الجدّ في التطبيق، حتى لا يكونوا كبني إسرائيل الذين استهانوا بأحكام الله ونكلوا عنها.
- فقد أمرهم بالقصاص في القتلى، وبحفظ الوصية وبصيام رمضان كما كُتِب على الذين من قبلهم، وأمرهم بمجاهدة أعداء الله بلا جبن ولا نكول.
- وفصّل في أحكام الحج والعمرة، وبين أحكام الطلاق وفصّل في أحكام الدَّين.
- وقد بيّن السياق أن الذي يدفع أمة الإسلام إلى الالتزام بأحكام الله هو إيمانهم بالغيب ويقينهم بالآخرة التي فيها الثواب والعقاب.
- أسهم القصص القرآني المعروض في هذه السورة في تقرير حقيقة قدرة الله على البعث والجزاء، ليرسخ في قلوب المؤمنين هذه الحقيقة فيلتزموا بأحكام الله على أكمل وجه.
- كما ترى في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وكما ترى في قصة إبراهيم مع الذي ادعى أنه يحيي ويميت، وكما في قصته مع الطيور الأربعة التي أحياها الله، وكما في قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها.
- بعد ذلك كله أمر السياق المؤمنين بالاستعداد ليوم الحساب الذي يوقنون به، ليلتزموا بأحكام الله، ويبقوا مؤهلين لخلافة الأرض.

الموضوع السادس: (الآيات: ٢٨٣-٢٨٦)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير بعظمة الله الخالق الذي له ما في السماوات والأرض، والذي ارتضى الأمة الإسلامية خلفاء في الأرض.
- بيّنت التزام أمة الإسلام بالصفات المذكورة أول السورة، فهم آمنوا بالله ورسوله ﷺ وملائكته وكتبه ورسله جميعاً، لا يفرّقون بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا.
- في هذا تعريض ببني إسرائيل الذين آمنوا بما أنزل إليهم وكفروا بما وراءه من الرسل والكتب، وعادوا الملائكة، وقالوا سمعنا وعصينا، حتى زال عنهم شرف الخلافة في الأرض.
- وبيّنت الخاتمة أن أمة الإسلام مؤمنة بالغيب موقنة بالآخرة، وهم مبتهلون إلى ربهم ويدعونه أن يبقيهم تحت ظلّ شرف الخلافة عنه في الأرض، وبذلك التقى البدء والختم في هذه السورة على المحور المذكور.

سورة آل عمران

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «آل عمران» لورود ذكر اصطفائهم على العالمين فيها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾، وقد فصّل السياق في ذكر قصة آل عمران من البداية على نحو لا تجده في سورة أخرى، ليكون في ذلك أبلغ رَدّ وأوضح حجّة على أهل الكتاب المغالين في شأن عيسى وأمّه عليهما السلام، فاسم السورة دالّ على اصطفاء الله لأهل التوحيد والصلاح.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المقصد الأول لهذه السورة هو إثبات الوحدانية لله عز وجل، وقد سمّيت بآل عمران؛ لأن فيها ذكر اصطفاء آل عمران على نحو لم ينزل في سورة غيرها مثله، وقد جعل الله هذا الاصطفاء دليلاً على اصطفاء أمة محمد ﷺ، وقد كشفت السورة عمّا التبس على أهل الكتابَيْن في شأن عيسى عليه السلام، فالسورة تبيّن معالم الاصطفاء ومعارجه وهي: البذل والعطاء لله والاستسلام له، وتلقّي كل ما يأتي منه بالقبول والطاعة، والتبتل والدعاء له، والتوحيد والإخلاص له سبحانه، وقد ذكرت أيضاً أموراً مُعِينة على هذا الاصطفاء، مثل: العلم، وموالاة المؤمنين والتحذير من موالاة غيرهم والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير، وحبّ الآخرة، وهذه كلها أمور مبثوثة في السورة بشكل واضح[1].

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد سور القرآن**، ص ٣٩، المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ١٠١، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان اصطفاء الله لأمة النبيّ ﷺ أمة التوحيد الخالص من خلال بيان اصطفاء الله لآل عمران، ومعالجة ما نتج عن موقف الناس تجاه اصطفاء أمة التوحيد من حقد، إنْ كان على صعيد أهل الكتاب، أو على صعيد المشركين. وإنما اختير اسم «آل عمران» لأن في بيان اصطفائهم على العالمين تبرئة لأكثر شخصية أثيرت حولها فرية الشرك، أعني عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان الاصطفاء الخاص لآل عمران والاصطفاء العام لأمة الإسلام، وما نتج عنه من مواقف الأمم الأخرى.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة «آل عمران» وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات كبيرة: مقدّمة تبيّن اصطفاء أمة التوحيد وموقف الكافرين من ذلك، ثم معالجة معركة أمة التوحيد المصطفاة مع أهل الكتاب، ثم معالجة معركة أمة التوحيد المصطفاة مع المشركين، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

= والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٢، ص ٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ١، ص ٣٥٧، ٣٥٨، ورضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، ج ٣، ص ١٠٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣، ص ١٤٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٢٧، ود. محمد عناية الله، **البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران**، ص ٦٣٥ - ٦٣٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن**، ص ٣٥-٤٧.

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١ -١٨، ومعركة أمة التوحيد مع أهل الكتاب: ١٩ -١١٥، والمعركة مع المشركين: ١١٦ - ١٧٨، والخاتمة: ١٧٩ - ٢٠٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور دالة على اصطفاء أمة التوحيد: أ) فهي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر «الإسلام»: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: ١٩، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: ٨٥، وهما عبارتان لم تتكررا في القرآن، ب) هي مع سورة البقرة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر «اصطفى»: آل عمران: ٣٣، ٤٢ (مرتين)، والبقرة: ١٣٠، ١٣٢، ٢٤٧، ولكن آل عمران تميزت بأنها الوحيدة التي ذكر فيها الجذر «محص» الدال على الاصطفاء: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: ١٤١، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾: ١٥٤، ج) قوله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾: ٣١، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، د) وكذلك قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: ١١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بمعالجة موقف أهل الكتاب: أ) فقوله تعالى ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾: ٢٠، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ =

أولاً: جاءت المقدّمة تقرّر وحدانية الله عز وجل وتبيّن اصطفاء الأمة الإسلامية الموحّدة، وهو خير افتتاح؛ لأنه يبرز الحقيقة التي من أجلها اصطفى الله أمة التوحيد: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾، وأعتقد أن ذِكْر قدرة الله عز وجل بعد ذلك على تصوير الناس في الأرحام كيف يشاء، ملائم لما بيّنته السورة حين الكلام عن آل عمران من خلق عيسى عليه السلام في رحم أمّه بلا أب، واستجابة دعوة زكريا عليه السلام حينما رزقه الله بيحيى وقد كان قد بلغ من الكبر عتياً، وامرأته عاقر.

ولاحظ اصطفاء أمة النبيّ ﷺ الموحِّدة بالكتاب، واصطفاء أهل العلم الراسخين منهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾.

وقد بيّنت المقدّمة موقف الكافرين من أمة التوحيد المصطفاة وهوّنت من شأنهم، من خلال الإشارة إلى موقعة بدر الكبرى التي أيّد الله بها المؤمنين بنصره: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝١٣﴾.

ثم انتقل السياق إلى بيان أن الاصطفاء في ميزان الله مختلف عن ميزان البشر، فليس للشهوات المختلفة من النساء وحبّ البنين والمال اعتبار عند الله، إنما الاصطفاء في ميزانه تعالى يكون بالتقوى والعمل الصالح: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ

= بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: ٦٤، وكذلك قوله ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾: ٨٣، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بمعالجة موقف الكافرين والتهوين من شأنهم: أ) قوله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: ذكر هنا فقط بهذه الصيغة: ١٢، وقريب منها في سورة الأنفال: ٣٦، ب) وقوله ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: ١٤١ ذكر هنا فقط، ج) وكذلك قوله ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾: ١٩٦، ١٩٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

ولاحظ كيف قرّر السياق حقيقة التوحيد بأبلغ العبارات وأكثرها صدًى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

فأنت تلاحظ أن السياق في المقدّمة يركّز على بيان اصطفاء الأمة الإسلامية الموحّدة بقيادة المصطفى ﷺ، وموقف الكافرين الحاقدين من ذلك، مع تحديد أسباب ذلك الاصطفاء، وفي ذلك إعدادٌ للمؤمنين الموحّدين لبدء المعركة العقدية مع أهل الكتاب.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بيان موقف أهل الكتاب من أمة التوحيد المصطفاة، فبيّنت حسدهم وحقدهم، وخروجهم من ظلّ الاصطفاء الرباني بعدما كفروا بآيات الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾. ولاحظ كيف أعاد السياق تقرير حقيقة أن الدين المصطفى عند الله هو الإسلام وحده فقط، وأن ما دفع أهل الكتاب لأخذ موقف معادٍ من أمة التوحيد إنما هو حسدهم وحقدهم.

ثم انتقل السياق إلى بيان أن الاصطفاء أمر بيد الله وحده، بعدما بيّن في المقدّمة أسباب الاصطفاء في ميزانه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾، وذلك ملائم لتوجيه عدد من التوجيهات للأمة المصطفاة عند الله، فقد حذّرتهم من موالاة

الكافرين وبيان أن ليس بيدهم من الأمر شيء: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

وأمرتهم بطاعة القائد المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾. وذلك تهيئة لما سيذكره السياق من استئصال فرية الشرك والتحريف العَقَدي عند أهل الكتاب من الجذور.

ثم ابتدأ السياق بعرض قصة عيسى عليه السلام من أصلها، ليكون في ذلك أشدّ البيان والوضوح على سبب اصطفاء آل عمران على العالمين، ومن ناحية أخرى في ذلك أبلغ ردّ على أهل الكتاب المغالين في عقيدتهم: فبيّن السياق أنَّ أمَّ مريم (امرأة عمران) كانت مؤمنة بالله، متبتّلة إليه أن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعاءها وبيّن أنها جديرة بالاصطفاء الرباني بسبب إيمانها وتبتُّلها، وكافأها بأن كَفَّل ابنتها نبياً كريماً: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وقد كان من الملائم جداً ذكر اصطفاء زكريا وابنه يحيى عليه السلام، وذلك للتشابه الواضح بين خلق عيسى عليه السلام بلا أب، وإكرام زكريا عليه السلام بيحيى مع كونه كبيراً في السِّنّ وامرأته عاقر: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى بيان اصطفاء مريم عليها السلام بمعجزة عظيمة من الله، وقد أمرها الله بما يؤهّلها لذلك الاصطفاء: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾، فلاحظ أولاً كيف قرّر السياق أن مريم عليها السلام كانت طاهرة صالحة عابدة قانتة لربها عز وجل، وفي ذلك رَدّ لأيّ فرية قد تخطر في البال حول ما سيأتي عن ذكر عيسى عليه السلام، ولاحظ ثانياً بيان أن النبيّ ﷺ لم يكن حاضراً وقتئذٍ وأن ذلك من أنباء الغيب يوحيها الله إليه، ليكون في ذلك تلقين لأمة التوحيد المصطفاة حجّة الدفاع عن مبدأ التوحيد المستفاد من هذه القصة.

ثم انتقل السياق إلى عرض أهمّ حدث في القصة، وهو ما يتعلّق بعيسى عليه السلام، وبيان أنه ليس إلا عبداً من عباد الله، اصطفاه الله وعلّمه الكتاب والحكمة، وجعله رسولاً إلى بني إسرائيل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، وتتمّة لما يتعلّق بموضوع عيسى وتبرئته من تهمة الشرك، عرض السياق كيف أنجاه الله من كيد الماكرين: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾، ولا يخفى ما في ذلك من رد فرية شبهة حول عيسى عليه السلام فيما يتعلّق بموضوع قَتْله أو صَلْبه.

وبعد أن فصَّل السياق في الأسباب الحقيقية لاصطفاء آل عمران، عاد السياق لتلقين الحجّة لأمة التوحيد المصطفاة ضدّ شبهات أهل الكتاب: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾، فالسورة تدعوهم إلى الدخول في مظلّة الاصطفاء الرباني، فيكونوا من أهل التوحيد، ولكنهم تولّوا، وأمة التوحيد أعلنت استسلامها لله عز وجل، وبقيت تحت مظلّة الاصطفاء الرباني.

وردّ السياق شبهات كثيرة من أهل الكتاب تجاه أمة التوحيد، كالفريات المتعلّقة بإبراهيم عليه السلام، فبيّن السياق أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين، وأن أولى الناس به إنما هم أمة التوحيد بقيادة المصطفى ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾، وبيّن السياق سبب خروج أهل الكتاب من مظلّة الاصطفاء الرباني: فهم يكفرون بآيات الله، ويلبسون الحقّ بالباطل، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويلوون ألسنتهم بالكتاب، وانظر إلى قوله تعالى الذي حكم منذ الأزل باصطفاء النبيّ المصطفى ﷺ ودين الإسلام، وبيّن موقف الناس من ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، وانظر قوله تعالى المؤكّد لهذه الحقيقة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقبل الانتقال إلى الجبهة الأخرى من المعركة ـ أعني موقف المشركين تجاه أمة التوحيد ـ أمرت السورة المؤمنين بعدد من الأوامر لتهيئتهم لخوض تلك المعركة: فأمرتهم بالنفقة في سبيل الله، وأداء العبادات كالحج، وتحريم موالاة الكافرين من أهل الكتاب، وتقوى الله حقّ تقاته، والاعتصام بدينه الذي اصطفاه لهم وعدم التفرّق، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، وبيان خطورة المنافقين، كل ذلك مصحوب بتهوين شأن الكافرين وبيان أسباب خروجهم عن مظلّة الاصطفاء الرباني، وانظر هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾. فأنت تلاحظ أن دلالات اسم السورة «آل عمران» وما يعبّر عنه من بيان الأسباب التي اصطفاهم بها على العالمين، مترابط أشدّ الترابط مع بيان صفات الأمة الموحّدة المصطفاة، ومع التحذير من موقف أهل الكتاب المغالين في عقيدتهم مغالاةً أخرجتهم من مظلّة الاصطفاء الرباني.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى بيان موقف المشركين من أمة التوحيد المصطفاة، وذلك من خلال عرض مواقف من غزوة أُحُد، مع التعقيب عليها بتوجيهات تبقي المؤمنين في مظلّة الاصطفاء الرباني، وأول توجيه تراه أن السياق سمّى الانسحاب من المعركة فشلاً: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، ومن ذلك أيضاً بيان معيّة الله في المعركة للمتقين الصابرين: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾. ومن العجيب أن السورة في سياق الحديث عن المعركة ذكرت تحريم الربا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وتناسب ذلك فيما أرى واضح، فكيف ينتصر في المعركة من يأكل الربا وقد أعلن الله الحرب على آكل الربا في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ومن التوجيهات المذكورة لأمة التوحيد المصطفاة أيضاً: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، والتوبة من الذنوب وعدم الإصرار عليها.

ولاحظ كيف يرفع السياق الروح المعنوية والنفسية لدى المؤمنين، بعدما ما أصابهم من القرح في معركة أُحد، مُثبّتاً أن الله ناصرهم إذا تحقّق فيهم الإيمان: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ولاحظ أيضاً كيف ذكر السياق أن الابتلاء سُنَّة الاصطفاء: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. ولاحظ أيضاً كيف يثبّت السياق المؤمنين ببيان حال الذين اصطفاهم الله في الأمم السابقة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

ومن التوجيهات المذكورة في سياق الحديث عن معركة أُحد أيضاً التحذير من موالاة الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾، والتحذير من كيد المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾، والثقة بنصر الله والثقة بالقائد المصطفى ﷺ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾، والتحذير من كيد الشيطان: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾. وغير ذلك من التوجيهات الكثيرة التي تبقي المؤمنين في ظلّ الاصطفاء الرباني، كما اصطفى آل عمران الذين سمّيت السورة باسمهم.

رابعاً: بقيت الخاتمة وفيها تلخيص لكل ما سبق، فقرّرت أن الابتلاء لأجل الاصطفاء سُنَّة إلهية ماضية إلى يوم الدين: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ

مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾، وانظر قوله تعالى المحذّر من كيد أهل الكتاب والمشركين الحاسدين لما أكرمنا الله به من الاصطفاء: ﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وأعادت التحذير من الموقف المعادي لأهل الكتاب، الذين أخرجهم كفرُهم ومغالاتهم العقدية من مظلّة الاصطفاء الرباني: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وأكّدت أن الابتلاء سُنَّة الاصطفاء: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

وهوّنت من شأن الكافرين المعادين: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾. وخُتمت السورة بآية جامعة تبقي مَن يلتزم بما فيها تحت مظلّة الاصطفاء الرباني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كونه أدلّ ما في السورة على سُنَّة الله في اصطفاء أهل التوحيد والدفاع عنهم ضدّ المعادين والمغالين، فكان بحقّ قميناً وحقيقاً بأن تسمّى السورة به.

سورة آل عمران: سورة بيان الاصطفاء الخاص لآل عمران والاصطفاء العام لأمة الإسلام وموقف الأمم الأخرى من ذلك

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٨)

المقدمة التي تبين اصطفاء أمة التوحيد وتعرض بإيجاز موقف الكافرين من ذلك:

- افتتحت السورة ببيان أن الله خصَّ أمة التوحيد بالكتاب الخالد: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- ويؤيد ذلك أيضاً قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.
- هوّنت المقدمة من شأن الكافرين المعادين لأمة التوحيد المصطفاة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وقد ذكرتهم بهزيمتهم في بدر.
- وبيّنت أن معيار الاصطفاء عند الله ليس بالشهوات والمال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة بل بالتقوى والعمل الصالح.

الموضوع الثاني (الآيات: ١٩-١١٥)

معالجة معركة أمة التوحيد المصطفاة مع أهل الكتاب.

- بعد بيان اصطفاء الله لأمة التوحيد، انتقل السياق إلى التفصيل في عرض موقف الأمم من ذلك فابتدأ بأهل الكتاب وبيّن أن الذي أخرجهم من مظلة الاصطفاء الرباني إنما هو حسدهم وبغيهم وكفرهم بآيات الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.
- حذّر السياق المؤمنين من موالاتهم: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- وأمر المؤمنين بطاعة القائد المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.
- عرض قصة اصطفاء آل عمران من الأصل، وفي ذلك ردّ على أيّ فرية متعلّق بمريم وعيسى عليهما السلام.
- بيّنت القصة أن امرأة عمران كانت عابدة متبلتة له أن يحفظ ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم.
- وبيّنت أن الله اصطفى مريم بمعجزة عظيمة تكريماً لها فحملت بعيسى عليه السلام بلا زوج.
- وقد اصطفاه الله وجعله رسولاً إلى بني إسرائيل مؤيداً بالمعجزات الباهرات، وفي ذلك ردّ لأيّ فرية حوله وحول أمه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.
- ثم لقّن السياق أمة التوحيد الحجة ضد فريات أهل الكتاب: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.
- وقد ردّ السياق كثيراً من فريات أهل الكتاب المتعلقة بإبراهيم عليه السلام، ببيان أنه كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١٦-١٧٨)

معالجة معركة أمة التوحيد مع المشركين:

- ثم انتقل السياق لمعالجة موقف المشركين من أمة التوحيد المصطفاة، فعرض بعض أحداث معركة أُحد مع توجيهات عدّة تُبقي المؤمنين في مظلّة الاصطفاء الرباني.
- فقد سمى السياق الانسحاب من المعركة فشلاً، وبيّن معيَّة الله في المعركة للمتقين الصابرين: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.
- وقد حرم السياق الربا في وسط الكلام عن المعركة لأن آكل الربا قد أعلن الله عليه الحرب فلا يمكن أن ينتصر.
- وقد رفع الروح المعنوية والنفسية للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾، وحذّر من موالاة الكافرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.
- وقد أمرهم بالثقة بالله وبنصر الله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وحذّرهم من كيد الشيطان: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات ١٧٩-٢٠٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت تقرير أن الاصطفاء سُنّة إلهية ماضية إلى يوم الدين: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.
- وأعادت التحذير من الموقف المعادي لأهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.
- وقد أعادت التهوين من شأن الكافرين المعادين: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بيان اصطفاء الله لأمة التوحيد، ختمت بآية جامعة مانعة تبقي من التزم بها تحت مظلة الاصطفاء الرباني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

سورة النساء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيانها لكثير من الأحكام الخاصة بالنساء، وهي أحكام شاملة للناحية الاجتماعية كأحكام اليتامى من النساء، وأحكام الزواج والطلاق وبيان اللواتي يحلّ للرجل الزواج منهنَّ واللواتي يحرمن، كما وأن هذه الأحكام شملت الناحية المالية أيضاً، فقد فصّلت في أحكام الميراث، وجعلت للنساء نصيباً مفروضاً منه، وبيّنت بعض أحكام المهر، ففي تسمية السورة بهنّ حثٌّ على إيتائهنّ حقوقهنّ التي كتب الله لهنّ، وهي حقوق كان يلحقها الجور في الجاهلية إن لم تكن معدومة أصلاً، فقد كانت النساء أكثر الفئات استضعافاً في الجاهلية، فجاء الإسلام وجعل لهنّ سورة خاصة باسمهنّ؛ لإنصافهنّ.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تعرض لموضوع النساء كرمز للمستضعفين، وتدعو إلى نصرة المستضعفين كاليتامى وحفظ حقوقهنّ، فالسورة تركّز على القضايا ذات الأثر الهامّ في البناء المجتمعي، ولذلك أمرت بالاستقرار الداخلي القائم على الأسرة، والاستقرار الخارجي

بحفظ شخصية الأمة، فهي تمحو من المجتمع الإسلامي ملامح المجتمع الجاهلي، وتعرّفه بأعدائه الراصدين حوله والمتميعين فيه، فحرمت أكل حقوق الأيتام، والجور على الضعاف والنساء، وأبدلت هذه الملامح بمعالم المنهج الرباني الداعي إلى الإنصاف والإصلاح لهذه الفئات المستضعفة، وأكثر هذه الفئات افتقاراً لهذا النساء، ولذلك سميت السورة بهنّ[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الالتزام بما جاء في شرع الله من الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيّما الفئات المستضعفة، مع التحذير من العدوّ الداخلي المتمثّل بالمنافقين، والخارجي المتمثّل بأهل الكتاب والمشركين، لحقدهم على الهدى الرباني الذي حظي به المؤمنون، ولما كانت النساء هي الفئة الأكثر استضعافاً، سميت السورة بهنّ للدعوة إلى الإحسان والعدل إليهنّ. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى إقامة الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لا سيّما المستضعفين، مع التحذير من حقد الأعداء في الداخل والخارج.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تدعو إلى تقوى الله والإحسان وإيتاء الفئات المستضعفة في المجتمع حقوقها، ثانياً: التفصيل في عرض بعض الأحكام المالية والاجتماعية الخاصة بالنساء، وثالثاً: الدعوة إلى تحقيق العدل والإحسان في داخل المجتمع المؤمن لاسيّما النساء، مع التحذير من العدوّ الداخلي والخارجي، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ١٣٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج٢، ص ٢٠٤، ٢٠٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ١، ص ٥٥٤- ٥٧١، ورضا، **تفسير المنار**، ج ٦، ص ٨٢- ٨٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٤، ص ٢١٢- ٢١٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٢، ص ٢، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٧، ود. حجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ص ٤٢- ٥٣، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٤٨- ٥٥، وأ.د إبراهيم خليفة، **اسم السورة يمثل روحها العام**، ص ١٨- ٣٥.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، وبيان أحكام النساء: ١١- ٣٥، والدعوة إلى الإحسان مع التحذير من العدو: ٣٦- ١٦٢، والخاتمة: ١٦٣- ١٧٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى تدعو إلى الإحسان وتحذر من=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة دعوة إلى تقوى الله تعالى، والإحسان إلى الفئات

= الإساءة، أ) فهي أكثر سورة ذكرت فيها عبارة (وكفى بالله . .) وإليك التفصيل: قوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ لم يتكرر إلا في هذه السورة: ٦، ٨٦، ولم يذكر مرة أخرى إلا في سورة الأحزاب: ٣٩، وقوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ لم يتكرر إلا هنا أيضاً: ٧٩، ١٦٦، وقد ذكر في سور أخرى ولكن مرة في كل سورة، وهي أكثر سورة تكرر فيها قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: ٨١، ١٣٢، ١٧١، وقد ذكرت في سورة الأحزاب مرتين: ٣، ٤٨، والإسراء مرة: ٦٥، وقوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾: ٤٥، لم يتكرر في القرآن بهذه الصيغة، وانظر قريباً منه في سورة الفرقان: ٣١، وقوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾: ٧٠ لم يتكرر كذلك، ب) ثانياً: هي أكثر سورة ذكرت فيها عبارة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ...﴾ وإليك بعض التفصيل: فقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذكر هنا سبع مرات: ٢٣، ٩٦، ١٠٠، ١٠٦، ١١٠، ١٢٩، ١٥٢، والثامنة: ٢٥ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتبعتها سورة البقرة إذ ذكرت هذه العبارة فيها سبع مرات، وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ذكر هنا سبع مرات: ١١، ١٧، ٢٤، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠، والثامنة: ٢٦ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وتبعتها سورة التوبة إذ ذكرت فيها هذه العبارة ست مرات، وقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ لم يذكر إلا هنا: ٨٥، وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: ١ ذكر هنا وفي سورة الأحزاب: ٥٢، بصيغة قريبة، وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ ذكر هنا: ٣٤، وفي سور أربع: الحج: ٦٢، ولقمان: ٣٠، وسبأ: ٢٣، وغافر: ١٢، بصيغة الرفع لا النصب، ووصف الله بكونه ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ تكرر في ثلاث سورة فقط، هنا: ١٦، ٦٤، والبقرة: ٣٧، ٥٤، ١٢٨، ١٦٠، والتوبة: ١٠٤، ١١٨، ج) بإمكانك أن تضيف أنها السورة الوحيدة التي تكررت فيها العبارة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ٤٩، ٧٧ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، ولم تذكر هذه العبارة مرة أخرى إلا في سورة الإسراء: ٧١ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، ثانياً: ومنها أمور تدعو المجتمع المسلم إلى الإحسان والعدل، أ) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «اليتامى»: ٢، ٣، ٦، ٨، ١٠، ٣٦، وتبعتها سورة البقرة بأربع مرات، ب) هي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «التوبة»: ١٧، ١٨، ٩٢، ج) هي الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة «السفهاء» وأريد بها المعنى الحقيقي كونهم فئة مستضعفة لخفّة عقولهم: ٥، د) والوحيدة التي تكررت فيها كلمة «المستضعفين»: ٧٥، ٩٧، ٩٨ (وهذه عن الرجال والنساء)، ١٢٧ (عن الوِلْدان)، هـ) والوحيدة التي فيها قوله ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾: ٩، وقريب منه في سورة البقرة: ٢٦٦، وقوله ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: ٢٨، و) هي وسورة الأنعام أكثر سورتين ذكر فيهما مشتقات الفعل «وصّى» العائد على الله، في النساء ثلاث مرات: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾: ١١، ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: ١٢، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ...﴾: ١٣١، وفي الأنعام ثلاث أيضاً: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، والرابعة في سياق النفي ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾: ١٤٤، ز) هي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكرر فيهما فعل الأمر «آتوا»، في النساء ثلاث مرات: ٢ (عن اليتامى)، ٤ (عن النساء)، ٧٧ (عن الزكاة)، وفي البقرة ثلاث أيضاً: ٤٣، ٨٣، ١١٠ (كلها عن الزكاة)، ح) هي وسورة النحل أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «حسنة»، وذلك أربع مرات في كل واحدة: ٤٠، ٧٨، ٧٩، ٨٥، وفي النحل: ٣٠، ٤١، ١٢٢، ١٢٥، ط) هي إحدى السور الخمس التي تكررت فيها كلمة «أحسن» بصيغة أفعل التفضيل: ٥٩، ٨٦، ١٢٥، وثلاث مرات في كل من السور: النحل، الإسراء، العنكبوت، الزمر، ي) هي إحدى السور الثلاث التي تكرر فيها المصدر «إحسان»: ٣٦، ٦٢، وفي البقرة: ٨٣و ١٧٨، ٢٢٩، والرحمن: ٦٠ (مرتين)، ك) هي الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «تعدلوا»: ٣، ١٢٩(عن النساء)، ١٣٥ (عن المجتمع)، كما أن قوله ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾: ٥٨ لم يتكرر بالصيغة ذاتها، =

المستضعفة في المجمع بشكل موجز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾، وافتتاح السورة بالدعوة إلى تقوى الله خير مفتتح، لأنه إذا تحقّق التقوى في المجتمع سيتحقّق ما ينشأ عنه من الإحسان والعدل، ولاحظ بيان فضل النساء، إذ لولاهنّ لما وجد النسل البشري، وهذا متلائم مع اسم السورة، وداعٍ إلى الإحسان إليهنّ، وقد ذكرت المقدّمة اليتامى من النساء لكونهنّ أشدّ فئات المجتمع استضعافاً، ولاحظ الأمر بالإحسان والعدل لليتامى بإيتائهم حقوقهم.

ثم أمرت المقدّمة بحفظ حقوق السفهاء كونهم فئة مستضعفة لخفّة عقولهم، وأمرت بإيتاء اليتيم ماله بمجرّد إيناس الرشد منه، وأمرت بالإحسان لمن يحضر قسمة مال المتوفّى من أولي القربى واليتامى والمساكين، وحذّرت من الإساءة وعدم الالتزام بالإحسان والعدل، مذكّرة بخوف الإنسان على ذريته الضعيفة بعد موته.

فالمقدّمة كما ترى تدعو إلى الإحسان والعدل بشكل موجز قبل التفصيل، مع التركيز على النساء؛ كونهنّ أضعف فئات المجتمع.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض الأحكام المتعلّقة بالنساء، وكلها أحكام تدعو إلى الإحسان والعدل، وقد ابتدأ السياق بالأحكام المالية الخاصة بهنّ، لكونها أكثر الحقوق عرضة للإساءة والحرمان، ففصّل السياق في موضوع الميراث، وحدّد أصحاب الفروض من الرجال والنساء بقدر لا مجال للزيادة أو النقصان فيه، وراعى في ذلك مختلف الحالات كموت الزوج أو الزوجة أو الأب... وختم ذلك بقوله محذّراً من

= وقريب منه في سورة الشورى: ١٥، ثالثاً: ومنها أمور تحذّر من العدّو الداخلي والخارجي: فقوله ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾: ٤٥، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وكذلك قوله ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾: ١٠١، وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾: ١٤٠، وقوله ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾: ١٤١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الإساءة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى بيان الأحكام الاجتماعية المتعلّقة بعلاقة الرجال مع النساء، فحذّر من الفاحشة وأمر بحبس من تثبت عليهنّ الفاحشة بالبيوت، وأمر بإيذاء اللذَيْن يأتيانها من الرجال. وعقب ذلك بالحثّ على المسارعة إلى التوبة.

وأمر السياق بالإحسان والعدل إلى النساء في المعاشرة بالمعروف، حتى لو كرههنّ الرجال، فعسى أن يكره الرجال شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وبيّن للرجال عدم جواز أخذ شيء من المهر بعد الطلاق، وحرّم عليهم ما نكح آباؤهم من قبْل، وفصّل في بيان المحرّمات من النساء على الرجال، وبيّن أن الرجال قوامون على النساء بما فضّلهم الله من قوّة الجسم والقدرة على مشاقّ العمل ولإنفاقهم عليهنّ، وبيّن حكم المرأة الناشز وأمر زوجها بالوعظ، ثم الهجر في المضجع، ثم الضرب دون أن يبغي عليها سبيلاً، فإن الله كان علياً كبيراً، وإن لم يُجْدِ ذلك نفعاً فيُلجأ للتحكيم. ومن اللافت أن السياق حذّر من الأعداء الذين يحسدون المجتمع المؤمن على ما حظوا به من الهدى الرباني: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾. وهذا يؤكّد المحور المذكور.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى الدعوة لتحقيق الإحسان والعدل في المجتمع الإيماني، لاسيّما في الفئات المستضعفة فيه ومنها النساء، مع التحذير من المنافقين وهم العدوّ الداخلي، وأهل الكتاب والمشركين وهم العدوّ الخارجي، وبيان حقدهم على الهدى الرباني الذي حظي به المؤمنون: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾، والأمر بالتوحيد هو رأس الدِّيْن، ولاحظ الأمر بالإحسان للوالدين وذوي القربى وغيرهم مما يحقّق التكافل الاجتماعي.

ثم حذّر السياق من البخل والبخلاء، ومن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهؤلاء هم المنافقون، وقد بيّن السياق مصيرهم إذ سيودّون يوم القيامة لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً، وقد أمر السياق المؤمنين بالإحسان في أداء العبادة، فنهتهم عن الصلاة وهم سكارى ـ قبل تحريم الخمر ـ وأمرهم بالاغتسال من الجنابة، وبيّن حكم التيمم.

ثم انتقل السياق إلى التحذير من العدوّ الخارجي الحاقد الحاسد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾، فهم يحسدوننا على ما منَّ الله علينا من الإحسان والعدل، وقد بيّن السياق أنهم كانوا قد أمروا بذلك ولكنهم حرّفوا الكَلِم عن مواضعه، حتى استحقّوا اللعن من الله.

ثم عاد السياق إلى أمر المؤمنين بالإحسان والعدل، فأمرهم بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وانظر هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾، فطاعة أولي الأمر إذا أمروا بالمعروف أبرز مظاهر الإحسان والعدل.

ومن الآيات المحذّرة من المنافقين قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، وإنما أمروا بتحكيم الرسول ﷺ لكونه حكماً بالإحسان والعدل.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض أحكام القتال، وهي أحكام متعلّقة بالإحسان والعدل أيضاً: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾، فعلى المؤمن أن يقاتل لنصرة المستضعفين من إخوته المؤمنين رجالاً ونساءً، وقد حذّر السياق من المنافقين المتقاعسين عن القتال والمتنصّلين منه والمخالفين لأحكام الله فيه، ومن الأحكام التي فصّل فيها السياق حكم المعاهدين

وأصحاب الهدنة، فقد أمر السياق بعدم قتالهم طالما حفظوا عهودهم، وهذا من الإحسان والعدل حتى مع الأعداء.

وبمناسبة الحديث عن القتال، بيّن السياق حكم من يقتل أخاه المؤمن متعمّداً، فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وبيّن السياق حكم القاتل أخاه المؤمن خطأً، وحرّم السياق على المقاتلين قتل مَنْ يُلْقي السلام من الناس دون بيّنة، وانظر هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾، فأيّ حكم أحسن وأعدل من حكم الله؟ وقد فصّل السياق في حكم صلاة الخوف، وهذا من باب الأمر بالإحسان في العبادة.

وقد حذّر السياق من مشاقة الرسول ﷺ من بعد ما تبيّن الهدى، وحذّر من اتّباع سبيل غير المؤمنين، وبيّن أنه تعالى لا يغفر لمن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وحذّر من الشيطان المَريد الذي توعّد بني آدم بالإغواء والإضلال، وبذلك يبرز الفرق بين أولياء الرحمن الآمرين بالعدل والإحسان، وأولياء الشيطان الصادّين عن سبيل الله، ولكي يكتمل الترغيب والترهيب، عرض السياق مصير الفريقين يوم القيامة.

كان هذا فيما يتعلّق بأحكام المجتمع بمختلف فئاته، مع الأمر بالحفاظ على المجتمع من العدوّ الخارجي الحاقد، ثم عاد السياق إلى التفصيل ببعض أحكام النساء كونهنّ أكثر فئات المجتمع استضعافاً، فقد حذّر السياق من حرمان يتامى النساء من حقوقهنّ، وأمر بالإحسان للمستضعفين من الولدان والقسط لليتامى، وبيّن أنه لا جناح على المرأة أن تصلح بينها وبين زوجها إن خافت منه نشوزاً أو إعراضاً، وأمر الرجال بالعدل بين الأزواج قدر المستطاع، ويلاحظ كثرة الدعوة إلى تقوى الله، للتحذير من الإساءة للمستضعفين من النساء واليتامى.

وقبل الانتقال إلى الخاتمة أعاد السياق التحذير من العدوّ الداخلي، وبيّن السياق أن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، ثم حذّر السياق

من العدوّ الخارجي، فأمرت المؤمنين بعدم اتخاذ الكافرين أولياء، وبيّنت نكول أهل الكتاب عن الهدى الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، فأخذوا الربا وقد نهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وفي بيان ذلك دعوة للمجتمع المسلم إلى الالتزام بما أنزل على نبيّهم ﷺ من الهدى.

فهذا القسم الأكبر من السورة كما ترى يأمر المؤمنين بتحقيق الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيّما النساء، ويحذّرهم من حقد وحسد أعدائهم في الداخل والخارج.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أمرت المؤمنين بالتزام الهدى الذي أنزل على نبيّهم ﷺ مع بيان أنه ذات الهدى المنزل على الأنبياء والرسل قبله، وحذّرت من الكفر به أو الصّدّ عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

وأعادت دعوة أهل الكتاب إلى الانتهاء عمّا حرفوه من الكتاب والغلوّ في الدين، وبيّنت مصير من التزم بما جاءه من هدى ربّه، ومن استنكفوا واستكبروا عنه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾، وكما افتتحت السورة بدعوة الناس إلى تقوى الله والأمر بالإحسان والعدل للمستضعفين لاسيّما النساء منهم، ختمت بدعوتهم إلى التزام البرهان والنور الذي جاءهم من الله، وبيّنت حكم الكلالة وما فيه من الإحسان والعدل سيّما النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.
وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ وألطف الدلالة.

سورة النساء

سورة الدعوة إلى إقامة الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لا سيّما المستضعفين، مع التحذير من حقد الأعداء في الداخل والخارج

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تدعو إلى تقوى الله والإحسان للفئات المستضعفة في المجتمع وإيتائها حقوقها:

- افتتحت السورة بالأمر بتقوى الله، وبيان فضل النساء اللاتي ينشأ النسل من أرحامهنّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.
- ثم أمرت المقدّمة بالإحسان إلى اليتامى بإيتائهم أموالهم، وأكّدت على العدل والإحسان ليتامى النساء كونهنّ أشدّ الفئات استضعافاً.
- وأمرت بالعدل والإحسان للسفهاء المستضعفين لخفّة عقولهم، وكذلك بالإحسان لمن حضر قسمة الميراث ومن أولي القربى واليتامى والمساكين.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٣٥)

التفصيل في عرض بعض الأحكام المالية والاجتماعية الخاصة بالنساء:

- فصّل السياق في موضوع الميراث، وحدّد لكل وارث نصيبه، وجعل للنساء منه نصيباً مفروضاً، وختم أحكام الميراث بالتحذير من الإساءة فيه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.
- ثم فصّل السياق في بعض الأحكام الاجتماعية الخاصة بالنساء، فحذّر من الفاحشة، وأمر بحبس من تثبت عليها الفاحشة في البيوت، وأمر بالعدل والإحسان إلى النساء في المعاشرة بالمعروف، وبيّن عدم جواز أخذ شيء من المهر بعد الطلاق، وفصّل في بيان المحرمات من النساء على الرجال، وبيّن حكم المرأة الناشز.
- وحذّر السياق من الأعداء الحاقدين الحاسدين: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٦-١٦٢)

الدعوة إلى تحقيق العدل والإحسان داخل المجتمع المؤمن لا سيّما النساء، مع التحذير من العدوّ الداخلي والخارجي:

- ابتدأت هذه الأحكام بالأمر بالتوحيد وهو رأس الدين، ثم تبعه أحكام لتحقيق العدل والإحسان: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾.
- حذّر السياق من البخل، ومن المرائين وبيّن أنهم هم المنافقون وأنهم العدوّ الداخلي.
- ثم حذّر من العدوّ الخارجي وهم أهل الكتاب: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾.
- ثم أمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وطاعة أولي الأمر، وبيّن بعض أحكام القتال وما يتعلق بها من العدل والإحسان كنصرة المستضعفين من الرجال والنساء.
- وحذّر من مشاقة الرسول واتّباع غير سبيل المؤمنين، وفصّل في بعض أحكام النساء، فحذّر من حرمان يتامى النساء حقوقَهنّ، وأمر الرجال بالعدل بين الأزواج قدر المستطاع.
- وأعاد التحذير من العدوّ الداخلي (المنافقين)، وبيّن أنهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، وبيّن نكول بني إسرائيل عن الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام، وبيّن أنهم كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٦٣-١٧٦)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت أمر المؤمنين بالتزام الهدى الذي جاء به النبيُّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾.
- وأعادت التحذير من أهل الكتاب الذين حرّفوا كتابهم وغالوا في دينهم: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى تقوى الله وإقامة العدل في المجتمع المؤمن لا سيّما النساء والمستضعفين، ختمت ببيان حكم الكلالة وما فيه من العدل والإحسان للنساء.

سورة المائدة

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «المائدة» لذكر قصة المائدة التي طلبها الحواريون من سيّدنا عيسى عليه السلام، لتكون معجزة مادية محسوسة دالة على صدقه في نبوته، فاستجاب الله لهم وأنزل المائدة وتوعّد من يكفر بعد ذلك بالعذاب الأليم، فاسم السورة يحذّر من الكفر بعد الإيمان، إذ نزول المائدة على بني إسرائيل كان بمثابة عقد بينهم وبين الله تعالى ينبغي أن يثبتوا بموجبه على الإيمان والتوحيد.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن من مقاصد السورة الوفاء بما دلّ عليه ميثاق العقل من توحيد لله شكراً على نعمه ودفعاً لنقمه، والأمر بالتزام التشريع الإلهي الذي يهدف لإقامة المجتمع المسلم مع بيان دوره في الأرض وموقفه تجاه أعدائه، وإبطال الجاهلية بمختلف صورها، وذكروا أن قصة المائدة بدلالتها على التوحيد وإبطال العقائد الزائغة حول عيسى عليه السلام، وبدلالتها على أن من خالف الأمر الإلهي بعدما رأى المعجزة فقد عرّض نفسه للعذاب،

ولمناسبتها لموضوع الأطعمة، كانت هي الأجدر لتسمية السورة[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: أمر الأمة الإسلامية بالالتزام بالعقود التي ألزمهم الله بها، والتي أجلُّها التزام عقيدة التوحيد، والتحذير من التهاون بهذه العقود أو إضاعتها كما حصل من اليهود والنصارى، وإنما اختير اسم «المائدة» لهذه السورة لأن أبرز دلالات قصة المائدة مع التعقيب عليها بيان أن إجابة طلب قوم عيسى عليه السلام لمعجزة مادية دالة على صدقه، كانت بمثابة عقد موثّق بين الله وبينهم على عدم الكفر بعدها، ولكن منهم مَن عاد إلى الكفر والشرك بعد ذلك كما بيّن التعقيب. فهذه القصة مع التعقيب الإلهي عليها أدلّ ما في السورة على التحذير من الوقوع بنقض العقود مع الله والتي أجلّها التزام عقيدة التوحيد. وقد تميّزت هذه السورة عن السور التي تشاركها بأسمائها في موضوع القصص القرآني بأنها **سورة دعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله تعالى**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات قصة المائدة التي سمّيت السورة باسمها، فمعظم السياق في السورة يخاطب المؤمنين بأوامر ونواهٍ يعتبر كل منها بمثابة عقد بينهم وبين الله، فواجبٌ عليهم الوفاء بها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أولاً: مقدّمة تأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله والمتمثّلة بجملة من الأحكام والتوجيهات الربانية لهم، ثانياً: بيان لوجوب المفاصلة العقدية بين الأمة الإسلامية المأمورة بالتزامها لعقودها مع الله، وبين أهل الكتاب وأهل الجاهلية الذين نقضوا هذه العقود ولم يلتزموا بها، ثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ١٧٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٢، ص ٣٨٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٢، ص ٨٢٥- ٨٣٠، ورضا، **تفسير المنار**، ج ٧، ص ٢٠٠- ٢٠٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٦، ص ٦٩ - ٧٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٢، ص ٢٨٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٧١- ٧٦، ود. حجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ص ١١٥- ١٣١، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٨٣- ٨٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٥٧- ٦٨.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ١١، والمفاصلة بين أمة الإسلام وأهل الكتاب والجاهليين: ١٢- ١٠٨، والخاتمة: ١٠٩- ١٢٠. ويجب أن أنوه إلى أن لفظة «العقود» الواردة في السورة تعني: « كل ضوابط الحياة التي=

أولاً: المقدّمة، وقد افتتحت بنداء للمؤمنين يأمرهم بالالتزام بالعقود التي ألزمهم الله بها، ثم عرض السياق بعضاً من هذه الأوامر والنواهي التي يعتبر كل منها بمثابة عقد بين المؤمنين وربّهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾، ولاحظ أن النداء بـ (يا أيها الذين آمنوا) يعطي دلالة التزامهم بعقد التوحيد، فالتوحيد أساس الإيمان، ومما يلفت النظر أن معظم الأوامر والنواهي في المقدّمة مما يتعلّق بالطعام، وهذا متلائم مع اسم السورة «المائدة»، بالإضافة إلى كونها عقوداً يجب الوفاء بها. فلا يأكل المؤمن إلا مما أحلّه الله له، ويجتنب كل ما حرمه الله من مأكل ومشرب، ومن الأوامر والنواهي المذكورة في المقدّمة: حفظ شعائر الله، وتحريم القتال في الشهر الحرام، وتحريم الصيد على المُحْرِم، وبيان المحرَّمات من اللحوم، وتحليل الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب، والتفصيل في أحكام

= قررها الله »، سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٢، ص ٨٣٥، فهي تشمل الجانب العقدي بدءاً من التوحيد، وانتهاءً بالجانب العملي وما يحتويه من أوامر ونواه. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بأمر المؤمنين بالتزام العقود بينهم وبين الله: أ) فهي أكثر سورة في القرآن جاء فيها النداء بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، إذ ذكر فيها هذا النداء شاملاً الأوامر والنواهي الإلهية للمؤمنين ستّ عشرة مرة، وقد أشار لذلك الغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٧١، ب) وقد ذكرت فيها عبارة ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ خطاباً للأمة الإسلامية مرتين: ٢، ٨، ولم تذكر هذه العبارة في حقّ المؤمنين في سورة أخرى، ج) هي أكثر سورة تكررت فيها مشتقات الجذر «حكم» على صيغة الفعل: ففعل الأمر «احكم» العائد إلى النبيّ ﷺ ذكر فيها أربع مرات: ٤٢ (مرتين)، ٤٨، ٤٩، والفعل المضارع «يحكم» العائد إلى الأمر بتطبيق حكم الله ذكر سبع مرات، منها ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، د) ذكر فيها الوضوء بتفصيل لم يتكرر: ٦، هـ) وكذلك حكم المحاربة: ٣٣، ٣٤، وحكم السرقة: ٣٨، ٣٧، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان نكول اليهود والنصارى عن العقود التي بينهم وبين الله: أ) فعبارة ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ قد جاءت وصفاً لليهود مرة واحدة: ١٣، ووصفاً للنصارى مرة واحدة: ١٤، ولم تذكر هذه العبارة في سورة أخرى من القرآن، ب) نكول بني إسرائيل عن قتال أهل القرية التي أمروا بدخولها لم يذكر إلا هنا: ٣٣، ٣٤، ج) وكذلك قوله تعالى عنهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾: ٤١، ٤٢، د) قوله تعالى عن النصارى ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٧، ٧٢، هـ) كذلك قوله ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾: ٧٣، وقريب منه في سورة النساء: ١٧١، هـ) وكذلك قول اليهود والنصارى ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾: ١٨، لم يذكر إلا هنا. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الوضوء والتيمم، وحفظ الشهادات، وانظر قوله تعالى الآمر بالتزام هذه الأحكام: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞﴾، فكل هذه الأوامر والنواهي بمثابة عقود بين المؤمنين وبين ربّهم يجب عليهم الوفاء بها. ولا يخفى أن هذه العقود أساسها التوحيد، فإذا انعدم التوحيد لم يعد لها فائدة، وهذا وجه الترابط ـ فيما أرى ـ بين دلالة قصة المائدة على نقض بني إسرائيل عقدهم مع الله بالتزام التوحيد، وبين هذه المقدّمة الداعية لالتزام العقود مع الله، والتي أساسها التوحيد.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان وجوب المفاصلة العقدية بين الأمة الإسلامية المأمورة بالتزام عقودها مع الله، وبين اليهود والنصارى والجاهليين الذين نقضوا هذه العقود، فابتدأ السياق باليهود: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞﴾، وثنّى بالنصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞﴾، فموقف هاتين الأمّتين من عقودهما مع الله واحد، وهو النقض والترك والإهمال.

وفي خلال عرض مواقف اليهود والنصارى من عقودهم مع الله، يدعوهم السياق إلى ترك باطلهم واتباع الهدى الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞﴾. وقد عرض السياق موقف اليهود والنصارى

من العقد الأكبر بينهم وبين الله، أعني عقد التوحيد: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى جانب من العرض القصصي لموقف مخزٍ لبني إسرائيل تجاه عقدٍ بينهم وبين ربّهم يتعلّق بالقتال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فقد أحجموا عن القتال حينما أمرهم ربّهم به: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، فكان جزاء نقضهم لهذا العقد أن حرّم الله عليهم تلك الأرض المقدّسة.

وأعقب السياق قصة بني إسرائيل بعرض قصة ابنَيْ آدم، وفيها نقضٌ لعقد تحريم القتل بغير حقّ، فقد أقدم القاتل على قتل أخيه حينما كان مأموراً بالإحجام عن ذلك، وبذلك تكتمل الصورة التناسقية بين القصتَيْن: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1]. فقصة بني إسرائيل إحجام في موضع الإقدام، وقصة

---

(١) ذكر الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة لطيفةً من لطائف الآية الأولى في هذه القصة، وهي: أن حرف القاف تكرر فيها تسع مرات، والآية سطر ونصف، ومع ذلك يقرؤها الإنسان بسلاسة تامة دون أن يحسّ بثقلٍ لحرف القاف المكرر، وذلك أمر يعجز عنه البشر، ينظر: **شواهد في الإعجاز القرآني**، ص ٩٢.

ابنَيْ آدم إقدام في موضع الإحجام، وكلاهما مخالف للعقد مع الله فيما يتعلّق بموضوع القتل.

وانظر كيف عقّب السياق مخاطباً بني إسرائيل الذين كانوا كثيراً ما يقدمون على قتل أنبياءهم، وهم مأمورون بالإحجام عن ذلك: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾. فالسياق كما ترى يعرض نكول بني إسرائيل عن عقودهم مع الله، فكلما أخذ الله عليهم عهداً بمثابة عقد بينهم وبينه، خالفوا هذا العقد ونكلوا عنه.

وقد ذكر السياق أمراً للمؤمنين متعلّق بموضوع القتل، وهو بيان حَدّ المحاربة، وأعقبه بحَدّ السرقة وهي قد تكون دافعاً للقتل إذا فوجئ السارق. وأمر المؤمنين بالتزام بحفظ هذه العقود والتزام التقوى.

وانتقل السياق إلى ذكر موقف المنافقين من عقد الإيمان بالله، فهم يسارعون في الكفر، وإلى ذكر موقف اليهود من حفظ عقود الله في التوراة، فهم سمّاعون للكذب، ويحرّفون الكَلِم عن مواضعه، وأكّالون للسحت، ولا يقبلون بحكم التوراة فكيف يقبلون بحكم النبيّ ﷺ ؟ ثم انتقل السياق إلى عرض موقف النصارى من حفظ عقود الله في الإنجيل، وبيّن أن مَن لم يحكم بما أنزل الله فهو الكافر والظالم والفاسق.

ثم أعقب ذلك بأمر المؤمنين بالتزام عقود الله في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد حذّر السياق أكثر من مرة من موالاة اليهود والنصارى بعدما بيّن نقضهم لعقودهم مع الله، وبيّن لهم الموالاة الحقيقية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وقد ذكر السياق بعض مواقف أهل الكتاب من التزام المؤمنين بالعقود، فهم يتخذون الصلاة هزواً

ولعباً، ويظهرون الإيمان ويخفون الكفر، ويسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت، ويقولون عن الله أقوالاً تظهر كفرهم، كقولهم: يد الله مغلولة، ويشركون بالله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾. ولا يخفى الترابط بين هاتين الآيتين وبين قصة المائدة مع التعقيب الإلهي عليها من تبرئة عيسى وأمّه عليهما السلام من فرية الشرك.

وبعد أن قرّر السياق وجوب المفاصلة العقدية بين أمة الإسلام وبين أهل الكتاب، ذكر عدداً من الأوامر والنواهي والتوجيهات للأمة الإسلامية آمراً إياهم بحفظها والالتزام بها، فأعاد التذكير بأكل الحلال من الطيبات، وحفظ الأيمان وبيان كفارتها، والأمر باجتناب عادات الجاهليين، فحرّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وأعاد التذكير بتحريم صيد البرّ على المُحْرِم، وأحلّ صيد البحر، وعظّم من شأن الكعبة وشعائر الله، وحذّر من عقائد الجاهليين الباطلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. وأمر بحفظ شهادة الوصية وغلّظ على من كتمها أو حرّفها.

فأنت ترى أن معظم سياق السورة يركّز على أمر الأمة الإسلامية بحفظ عقودها مع الله تعالى بدءاً من التوحيد وانتهاءً بالأحكام العملية التعبّدية، مع التحذير مما وقع به أهل الكتاب والجاهليون من نقض هذه العقود التي أمرهم الله بها، والتي أجلّها عقد التوحيد. وذلك متناسق مع قصة المائدة التالية والتي أهمّ دلالاتها بيان نقض بني إسرائيل لعقد التوحيد وهو أهمّ عقد مع الله.

ثالثاً: بقيت الخاتمة وهي عبارة عن مشهد أخروي يعرض جانباً من نِعَم الله تعالى على سيّدنا عيسى عليه السلام، ويركّز السياق في هذه الخاتمة على إبطال دعوى بني إسرائيل

بإلهية عيسى وأمّه عليهما السلام، وهم بذلك نقضوا أهمّ عقد بين الله والبشر، أعني عقد التوحيد: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾، فهذه المعجزات أيّد الله بها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، ولولا أن أكرمه الله بها لما كان له أن يأتي بأحدها.

وقد أسهم العرض القصصي أيضاً في بيان نقض بني إسرائيل لعقد التوحيد، فعرضت قصة المائدة طلب بني إسرائيل لمعجزة مادية محسوسة يرونها بأعينهم، حتى تطمئنّ قلوبهم للإيمان: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾، ولاحظ أن الذي طلب هذه المعجزة المادية هم الحواريون، وهم خلاصة بني إسرائيل وصفوتهم(١)، فكان طلبهم هذا بمثابة عقد بينهم وبين الله تعالى على الإيمان والتصديق، ولقد أجاب الله طلبهم ورتّب على من يكفر بعده عقوبة شديدة: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾، وهكذا اكتمل العقد بين الله تعالى وبني إسرائيل، ونزّل عليهم مائدة رأوها بأعينهم ولم يعد لهم حجّة.

---

(١) يقول سيّد قطب رحمه الله: «إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى، فآمنوا وأشهدهم عيسى على أنفسهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة.. فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا خارقة واحدة بعد إسلامهم.. وهذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام، وحواريي محمد ﷺ». **في ظلال القرآن**، ج ٢، ص ٩٩٨. بتصرف.

لكن هل التزموا بالوفاء بهذا العقد؟ إن التعقيب الإلهي على هذه القصة يجيب على هذا السؤال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، فهم قد خانوا عقد الإيمان والتوحيد وأشركوا عيسى وأمّه عليهما السلام مع الله تعالى، وقد برّأ الله عبده ورسوله من هذه الخيانة، إذ إنها حصلت بعد رفعه من بينهم. فالدلالة السياقية لهذه القصة مع التعقيب الإلهي عليها يبرز لنا عدم وفاء بني إسرائيل لأهمّ عقد بينهم وبين الله تعالى، وهو عقد التوحيد الذي ينبني عليه ما سواه من العقود بين الله والبشر، ولذلك اختصّت هذه القصة بتسمية السورة بها.

ثم ختمت السورة بتعقيب إلهي على قول عيسى عليه السلام يبشر من التزم بعقوده مع الله تعالى ووفى بها، ومقرّراً لمبدأ التوحيد، إذ إن الله وحده سبحانه مالك السماوات والأرض وما فيهن: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾، فهذا الختام المبيّن لعظمة الله تعالى والداعي للالتزام الصادق بعقوده يتلاءم مع مفتتح السورة الذي أمر المؤمنين بوفاء عقودهم مع الله. فالتقى الختام والبدء على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة المائدة

سورة دعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١١)

المقدّمة التي تأمر المؤمنين بالوفاء بعقودهم مع الله تعالى:

- افتتحت السورة بنداء للمؤمنين يأمرهم بالوفاء بالعقود التي ألزمهم الله بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.
- وبيّنت بعض أنواع الحلال والحرام من الأطعمة ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾.
- وأمرتهم بحفظ شعائر الله وحرمت القتال في الأشهر الحرم، وفصّلت في أحكام الوضوء والتيمم، وأمرت بحفظ الشهادات، وهذه كلها بمثابة عقود بينهم وبين خالقهم سبحانه وتعالى، يجب أن يوفوا بها: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٢-١٠٨)

بيان وجوب المفاصلة العقدية بين المؤمنين الملتزمين بعقودهم مع الله، وبين أهل الكتاب وأهل الجاهلية الناقضين لهذه العقود:

- بيّن السياق نقض اليهود لعقودهم مع الله تعالى، فبعدما أخذ الله ميثاقهم وبعث منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم بالصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل، إذا بهم ينقضون ميثاقهم إلى أن استحقوا لعنة الله، وجعل قلوبهم قاسية، وبيّن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ونَسُوا حظاً مما ذكروا به.
- وبيّن السياق نقض النصارى لعقودهم مع الله تعالى، فهم أيضاً نسوا حظاً مما ذكروا به، حتى أغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.
- وقد أمر السياق الأمتين المذكورتين باتباع الرسول ﷺ الذي يبيّن لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب.
- وبيّن السياق كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وبيّن جهل الأمتين حينما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه.

- عرض السياق قصة موسى عليه السلام مع قومه حينما أمرهم بقتال أهل القرية، لكنهم نقضوا العهد وأحجموا في موقع الإقدام.
- في المقابل عرض السياق قصة بني آدم وهي تعرض إقدام القاتل على القتل في موضع الإحجام.
- عقّب السياق على القصتين بتحريم القتل بلا سبب على بني إسرائيل الذين كانوا هم أكثر الأمم إقداماً على قتل الأنبياء.
- حذّر السياق من المنافقين المسارعين إلى الكفر ونقض عقد الإيمان.
- ثم أمر السياق المؤمنين بالوفاء بعقودهم مع الله التي أمرهم بها في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.
- حذّر السياق أكثر من مرة من موالاة اليهود والنصارى بعدما تبيّن نقضهم لعقودهم مع الله، وأمرهم بالموالاة الحقيقية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.
- أعاد السياق بيان كُفْر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وبيّن براءة عيسى من هذه الفرية، وبيّن أنه كان يدعو إلى التوحيد.

- ذكر السياق عدداً من الأوامر والنواهي والتوجيهات للأمة الإسلامية آمراً إياهم بحفظها والوفاء بها، فأمر بأكل الحلال من الطيبات وحفظ الأيمان وبيّن كفارتها، واجتناب عادات الجاهلين؛ فحرّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وحرّم صيد البَرّ على المُحْرِم، وعظّم من شأن الكعبة وشعائر الله، وأمر بحفظ شهادة الوصية وغلّظ على مَنْ كتمها أو حرّفها.
- كل هذه الأوامر والنواهي تعتبر عقوداً بين أمة الإسلام وبين خالقهم سبحانه، ينبغي عليهم الالتزام بها حتى لا يصير حالهم كحال أهل الكتاب أو الجاهليين الذين نقضوا عقودهم مع الله تعالى.

الموضوع الثالث: (الآيات ١٠٩-١٢٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- عرضت مشهداً أخروياً يبيّن براءة عيسى وأمّه من فرية إشراكهما مع الله بالعبادة، وذلك حين نقض النصارى أهمّ عقد بينهم وبين الله، وهو عقد التوحيد، فاتخذوا عيسى وأمّه إلهين من دون الله.
- عرضت إجابة الله لدعاء عيسى عليه السلام أن ينزل مائدة من السماء كما طلب الحواريون وكان نزولها بمثابة عقد بينهم وبينه تعالى على أن لا يعودوا إلى الكفر والشرك: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.
- وقد بيّن التعقيب على القصة أن النصارى نقضوا هذا العقد وأشركوا عيسى وأمّه مع الله تعالى بالعبادة.
- وكما افتتحت السورة بأمر المؤمنين بالتزام عقودهم مع الله، ختمت ببشارة المؤمنين الصادقين الملتزمين بهذه العقود، وأهمّها عقد التوحيد: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

سورة الأنعام

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حديثها عن بعض أحكام الله فيما يتعلّق بالأنعام، وبيانها أن ما كان يدّعيه الجاهليون من أحكام الأنعام إنما هو جهل محض قادهم إليه شِركهم بالله تعالى، ففي تسمية السورة بالأنعام إشارة إلى أن الله هو خالقها وهو الذي سخّرها للإنسان، وبالتالي فهو وحده المشرّع للأحكام المتعلّقة بها، وأيّ تشريع من البشر فيها من دون الله إنما هو مظهر من مظاهر الشرك والجهل، لأنه اعتداء على حقّ الله في شرعه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها،

فذكروا أن السورة تعرض حقيقة التوحيد في مجال الكون وفطرة النفس البشرية ومشاهد القيامة، مما يثبت كمال القدرة وشمول العلم والتفرّد بالخلق لله وحده، فالله هو الخالق الرازق المالك صاحب القدرة والحكم والقهر، والعليم بالغيب والأسرار، وهذه خصائص الإلهية التي لا ينازعه فيها أحد، وبذلك يعتبر الجاهليون بمزاولتهم التحليل والتحريم في الذبائح والأنعام من أهمّ القضايا التي تعالجها السورة، ولذلك سمّيت بهذا الاسم[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان دلالة الآيات الكونية والآيات القرآنية على شمول علم الله تعالى وكمال قدرته، فله وحده الحكم والتشريع، ولما كان افتراء المشركين فيما يتعلّق بأحكام الأنعام بأهوائهم وضلالهم أدلّ ما في السورة على إعراضهم عن آيات الله بنوعَيْها، سمّيت السورة بالأنعام للتأكيد على أن الحكم والتشريع من حقّ الخالق فقط. فاسم السورة يعبّر عن المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان اختصاص الله تعالى بالحكم والتشريع لأنه الرَّبُّ الإله الخالق ذو القدرة المطلقة والعلم الشامل**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام: أولها مقدّمة تبيّن بإيجاز دلالة الآيات الكونية والقرآنية على تفرّد الله بالإلهية، وثانيها: التفصيل في بيان دلالة الآيات بنوعيها على كمال قدرة الله وشمول علمه وتفرّده بالحكم، وثالثها: عرض قصصي يؤكّد تفرّده تعالى بالإلهية والحكم، مع تعقيب ببيان موقف المكذبين، ورابعها: التفصيل في عرض افتراءاتهم بالهوى والضلال على أحكام الله، وأهمّها ما يتعلّق بالأنعام،

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ٢٠٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٢، ٥٧٨، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٢، ١٠١٥- ١٠٢٩، ورضا، **تفسير المنار**، ج ٨، ٢١٧- ٢٣٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٧، ص ١٢٣- ١٢٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٢، ص ٣٩٦- ٣٩٩، وأحمد عطا عمر، **تفسير سورة الأنعام**، ص ٩- ١٤، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٩١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٦٩- ٧٨.

وخامسها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة إثبات أن الله تعالى وحده له الإلهية، وقد نطقت بذلك آياته الكونية والقرآنية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، ودلالة الآيات القرآنية والكونية على الله: ١١- ٧٣، والعرض القصصي: ٧٤- ١١٧، وبيان افتراءاتهم: ١١٨- ١٥٤، والخاتمة: ١٥٥- ١٦٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى تثبت تفرّده بالإلهية والحكم والتشريع، أ) فهي الوحيدة التي اختصت بقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: ١، ب) هي وسورتا المائدة ويوسف فقط اللواتي تكرر فيهن المصدر «حكم» بدون إضافة لضمير: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: ٥٧، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: ٦٢، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: ٨٩، والمائدة: ٤٣، ٥٠ (مرتين)، ويوسف: ٢٢، ٤٠، ٦٧، ج) تقدم في الحديث عن سورة النساء أنها مع سورة الأنعام أكثر سورتين تكرر فيهما الفعل «وصّى» المنسوب إلى الله، د) هي أكثر سورة تكرر فيها ذكر «الأجل» مع الفعل «قضى»: ٢ (مرتين)، ٦٠، هـ) هي الوحيدة التي تكررت فيها «الحُجَّة» المنسوبة لله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: ٨٣، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾: ١٤٩، ز) هي إحدى السور الأربع اللواتي تكرر فيهن المصدر «الغيب» بأكثر عدد: ٥٠، ٥٩، ٧٣، وباقي السور: هود، يوسف (لكنها امتازت عن السور الأربع بذكر كلمة «غيابت» مرتين)، سبأ، ثلاث مرات في كل منها، ح) هي الوحيدة التي فيها قوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ٧٥، وهذه العبارة عن الله ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾: ٧٣ لم تتكرر، والوحيدة التي ذكر فيها الاسم الجليل «القاهر» بصيغة اسم الفاعل: ١٨، ٦١، والوحيدة التي فيها قوله ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: ١٩، وكذلك قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: ٣٨، وكذلك قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾: ١٦٢، وهي الوحيدة التي فيها وصف الله بأنه ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾: ٩٥، وأنه ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾: ٩٦، إذ لم تذكر صيغة اسم الفاعل «فالق» في موضع آخر، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالكافرين تدل على إعراضهم عن آيات الله واتّباعهم الهوى، أ) فهي أكثر سورة تكرر فيها الفعل الماضي «كذّب» دون إضافة لضمير: ٢١، ٦٦، ١٤٨، ١٥٧، ب) هي أكثر سورة تكرر فيها الفعل الماضي «افترى»: ٢١، ٩٣، ١٤٤، وأكثر سورة تكرر فيها الفعل المضارع «يفترون»: ٢٤، ١١٢، ١٣٧، ١٣٨، وهي الوحيدة التي ذكر فيها المصدر «افتراء»: ١٣٨، ١٤٠، ج) هي إحدى السور السبع التي تكرر فيها الفعل الماضي «ضلّ»: ٢٤، ٩٤، وباقي السور: النساء، المائدة، يونس، النحل، الإسراء، النجم، د) قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾: ٥٦، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وكذلك قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: ١٥٠، وقوله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ١١٩، هـ) وقوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾: ١٩، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾: ١٥٠، و) هي الوحيدة التي تكرر فيها وصف الكفار بأنهم «يعدلون» بربهم: ١، ١٥٠، والوحيدة التي وصفتهم بأنهم «يصدفون» عن آياته: ٤٦، ١٥٧ (ثلاث مرات)، والوحيدة التي تكرر فيها الفعل المضارع «يستهزؤون»: ٥، ١٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾، ولاحظ بيان أن الكافرين يساوون مع الله آلهة أخرى بالعبادة مع كونه هو وحده الخالق، وفي ذلك إشارة إلى بيان أن افتراءهم على أحكام الله ـ وأهمّها في هذه السورة الأنعام ـ إنما هو صورة من صور الشرك، ولاحظ إعراضهم عن الآيات القرآنية بعد أن لم تكفهم الآيات الكونية.

وقد بيّنت المقدّمة مدى تكذيبهم، إذ لو نزل عليهم القرآن على شكل كتاب من السماء ولمسوه بأيديهم، لقالوا؛ هذا سحر مبين، ومن فرياتهم أنهم طلبوا أن ينزل مع الرسول مَلَك يشهد له، وقد رَدَّ السياق عليهم بأن الملائكة إنما تنزل بأمر الله، وستُنْزل بهم العذاب إن أصرّوا على سخريتهم واستهزائهم.

فالمقدّمة إذاً تثبت أن الله وحده له حقّ الإلهية، وبالتالي فله وحده حقّ الحكم في ما خلق، وليس للبشر أن يتدخلوا في ذلك من دونه.

ثانياً: ثم انتقل السياق بعد المقدّمة الموجزة، إلى التفصيل في دلالة الآيات بنوعيها على تفرّد الله تعالى بالإلهية والحكم ببيان كمال قدرته وشمول علمه، فأمرت السورة المكذّبين بالسير في الأرض لينظروا عاقبة المكذّبين قبلهم، وأمرتهم بالإجابة عمّن له ما في السماوات والأرض، وبيّنت أن الله وحده هو الخالق والمالك، وله ما سكن في الليل والنهار، وانظر هذه الآية: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، فهو وحده الخالق الرازق ولا وليّ غيره.

وقد بيّنت السورة موقف المكذّبين من آيات الله القرآنية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، وانظر قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾، وقد عرضت مصير المكذّبين يوم القيامة إذ سيندمون ويتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ويكونوا من المؤمنين.

ومن الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى وشمول علمه والمهدّدة للمكذّبين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، فكما أنه هو الخالق، فهو القادر على إنزال العذاب على المكذّبين بآيات الله بنوعَيْها. ومن الآيات الدالة على علمه تعالى وقدرته بيان أنه عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وبيان أنه الذي يتوفّى الأنفس بالليل ويبعثها في النهار، وهو القاهر في عباده، فلا وليّ لهم من دونه.

إن التفصيل في عرض دلالة الآيات على كمال قدرة الله وشمول علمه يؤكّد تفرّده تعالى بحقّ الإلهية والحاكمية، وفي ذلك أبلغ رَدّ لما سيأتي من التفصيل في عرض افتراءاتهم على أحكام الله تعالى، وأهمّها ما يتعلق بالأنعام.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد تفرّد الله تعالى بالإلهية والحكم، فعرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، إذ كان العرب يزعمون انتماءهم الديني إليه، فجاءت هذه القصة لترّد عليهم: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾، ولاحظ أن الله ملأ قلبه يقيناً بما أراه من الآيات الكونية، وأكرمه بآيات الوحي، وفي هذا توبيخ للمكذّبين بهذه الآيات كما تقدّم، ولاحظ استدراجه لعقول قومه ليسوقهم إلى التوحيد، فأبطل كون الكوكب إلهاً، وكذلك القمر، وكذلك الشمس، ثم صرخ فيهم مبيناً تبرّأه مما يشركون، وتوجيهه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً.

وقد بيّن السياق محاجّة قومه له، وقد رَدّ عليهم بأنه لا يخاف من آلهتهم لأنه لا تملك ضراً ولا نفعاً، بل هو يخاف خالقه فاطر السماوات والأرض، وختم السياق القصة ببيان ما أكرمه من الذرية الصالحة، إذ جعل منهم الأنبياء، ولاحظ بماذا ختمت قصته: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، فقد

أرسلهم الله بالآيات ليحكموا بين الناس بما أراد الله، ولاحظ تهديد الكافرين المعرضين عن الآيات، والذين يفترون عليه في أحكامه.

وانتقل السياق إلى الرّدّ على أهل الكتاب، كونهم يخفون كثيراً مما أُنزل عليهم، ويغيّرون أحكام الله وفق أهوائهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾. فهذا يؤكّد أن الله وحده هو مرسل الرسل جميعاً، لبيان تفرّده بالإلهية والحكم في خلقه.

وقد أعقب السياق هذا العرض القصصي بما يدل على إلهيته وكمال قدرته وشمول علمه، ليوبّخهم على شركهم، فبيّن أنه تعالى فالق الحَبّ والنوى، وفالق الإصباح، وهو الذي جعل النجوم ليهتدي بها الناس، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به الجنات، ثم انظر ماذا كان موقفهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

رابعاً: ثم انتقل السياق بعد تقرير أن الإلهية والحكم لله وحده، إلى التفصيل في افتراء المشركين على أحكام الله تعالى، وأهمّها ما يتعلّق بالأنعام: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾، فقد ابتدأ السياق بتذكيرهم بأن الله هو الخالق الحكيم، وهو وحده المشرّع، ولاحظ بيان أن افتراء المشركين على أحكامه تعالى إنما هو ضلال وهوى وجهل واعتداء.

واللافت للنظر أنه في وسط الحديث عن أحكام الأنعام، عرض السياق مدى الغواية المشتركة بين الجنّ والإنس، فقد كانت الجنّ توحي للإنس بوساوس الشرك والكفر، والإنس يطيعونهم، وهم بذلك خرجوا عن شرع الله حتى استحقّوا العذاب: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، إن هذا العرض

يضيف سبباً آخر لافتراء المشركين بالهوى والضلال على أحكام الله، وهو استجابتهم لوساوس الجنّ المغوية.

ثم عرض السياق بعضاً من مظاهر اعتداءاتهم الباطلة على حكم الله، فجعلوا لله نصيباً من الأنعام، ولشركائهم نصيباً آخر، وجعلوا بعض الأنعام حِجْراً لا يطعمها إلا مَن يشاؤون، وأحلُّوا لذكورهم ما في بطون الأنعام وحرّموها على إناثهم، وإن كان ميتة فهم فيه سواء، وبعد هذا العرض انتقل السياق إلى رَدّ أهوائهم وتقريعهم عليها، ببيان أن الله هو منشئ الجنات المعروشات وغير المعروشات، وهو منشئ الأشجار بمختلف الطعوم، وهو خالق الأنعام وجاعلها للناس حمولة وفرشاً، وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم الله وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان الذي يرسل جنوده لإغواء البشر كما تقدم.

وبيّن أن الله أحلَّ من الأنعام ثمانية أزواج، اثنين من كلٍّ من الضأن والمعز والإبل والبقر، ثم سألهم ليسخر من جهلهم وليردعهم عنه: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (بعض الآية: ١٤٣)، ثم أمر السياق النبيَّ ﷺ ببيان أنه لا يجد فيما أوحي إليه من الخالق الحكيم سبحانه محرّماً من الأنعام إلا ما كان ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو ما أُهلَّ لغير الله به، ولكي يكتمل الترهيب عرض السياق ما جوزي به اليهود حينما افتروا على أحكام الله تعالى، فقد حرم الله عليهم كل ذي ظفر، وحرم عليهم شحوم البقر والغنم إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، وبيّن أن ذلك إنما هو جزاء بغيهم على أحكام الله.

وبعد هذا التفصيل المتعلق بأحكام الأنعام، انتقل السياق إلى بيان ما أحلّه الله وحرمه من الأمور العقدية والأحكام الاجتماعية، فأمر المؤمنين بعدم الشرك بالله شيئاً، وبالإحسان إلى الوالدين، وبعدم قتل الأولاد من الفقر، وعدم القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبعدم القرب من مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط، واتّباع صراط الله المستقيم، وعدم اتّباع سبل الغواية فيضلّوا عن صراطه.

إن هذا التفصيل كما لا يخفى يؤكّد أن الله وحده هو الإله الخالق، وبالتالي فله وحده حقّ التشريع والحكم في كل ما يتعلق بحياة البشر الذين خلقهم الله، وأن أيَّ تدخُّل من

البشر في أحكام الله بغير إذنه إنما هو افتراء وجهل وضلال واعتداء، وموصل في النهاية إلى أن يكون صورة من صور الشرك بالخالق الحكيم. ومن أجل ذلك سمّيت السورة بالأنعام لأنها تشير إلى مدى الجهل والضلال الذي كان عليه المشركون، وإلى مدى حكمة الله في تشريعه، وإلى اختصاصه وحده بحقّ الحكم لأنه وحده المختصّ بحقّ الإلهية.

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الأمر باتباع شرع الله، وبيان أن ما سواه ضلال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وأعادت التذكير بوجوب الإيمان بآيات الله القرآنية، وعدم الإعراض عنها كما أعرض السابقون: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

وببيان أن دين النبيّ ﷺ إنما هو دين إبراهيم عليه السلام من قَبْل، وهو الدين القائم على توحيد الله في العبادة والتوجّه إليه بما خلق من الذبائح: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

وكما افتتحت السور ببيان دلالة الآيات الكونية والقرآنية على تفرّد الله بالإلهية والحكم، ختمت ببيان أنه وحده الخالق للبشر والمدبّر لشؤون حياتهم، مع الترغيب باتباع حكمه والترهيب من الإعراض عنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الأنعام

سورة بيان اختصاص الله بالحكم والتشريع لأنه الرَّبُّ الإله الخالق ذو القدرة المطلقة والعلم الشامل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تبيّن بإيجاز دلالة الآيات الكونية والآيات القرآنية على تفرّد الله بالإلهية:

- افتتحت السورة ببيان أن الله وحده هو رَبّ العالمين، فهو خالق السماوات والأرض.
- وبيّنت أنه هو الذي خلق البشر من طين، وأنه تعالى يعلم السر والجهر، فهو وحده المتفرّد بالإلهية.
- وبيّنت دلالة الآيات القرآنية على تفرّده بالإلهية: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٧٣)

التفصيل في بيان دلالة الآيات بنوعيها على كمال قدرة الله وشمول علمه وتفرّده بالحكم:

- بيّن السياق أن الله هو الخالق الرازق: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فلا وليَّ غيره.
- وبيّن موقف الكافرين المعرضين عن دلالة الآيات القرآنية على الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.
- وبيّن تفرّده تعالى بالحكم والتصرف في خلقه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.
- وبيّن أن الله عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه هو الذي يتوفّى الأنفس بالليل ويبعثها في النهار، وأنه هو القاهر فوق عباده.
- إن عرض دلالة هذه الآيات على كمال قدرة الله وشموله ليؤكِّدُ تفرُّدَه بالحكم والتشريع، وأهمّ ذلك في هذه السورة حكمه في الأنعام التي خلقها.

الموضوع الثالث: (الآيات ٧٤-١١٧)

عرضٌ قصصي يؤكّد تفرّد الله تعالى بالإلهية والحكم، مع تعقيب ببيان موقف المكذبين:

- عرض السياق قصة إبراهيم ليردّ على كفار قريش الذين يزعمون انتماءهم الديني له، فبينت القصة نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، لينبذ عبادة الأصنام، وعرضت كيف أراه الله ملكوت السموات والأرض فملأ قلبه يقيناً.
- وبيّنت كيف استدرج عقول قومه فأبطل بالحجة عبادة الكواكب والقمر والشمس، ثم تبرأ من شركهم وأعلن توجّهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، وعرضت أن آلهتم لا تملك ضراً ولا نفعاً، بل الضر والنفع في يد الخالق سبحانه وتعالى.
- ثم هدّد السياق المكذّبين بحقائق الوحي، وردّ على أهل الكتاب الذين يخفون كثيراً مما أنزل عليهم.
- وأعقب السياق بما يؤكّد ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام من تفرّد الله بالإلهية والحكم، فبيّن أن الله خالق الحَبّ والنوى، وفالق الإصباح، وأنه هو الذي جعل النجوم ليهتدي بها الناس، وأنزل من السماء ماء فأخرج به الجنات، ثم كان موقف الكافرين أنهم أشركوا بهذا الخالق: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١١٨-١٥٤)

التفصيل في عرض افتراءات المشركين بالهوى والضلال على أحكام الله، وأهمّها ما يتعلق بالأنعام:

- ذكر السياق أن الله هو الخالق الحكيم، فهو وحده المشرع: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.
- ثم بيّن دور الجنّ في إغواء الإنس بوساوسهم، وعرض بعضاً من مظاهر اعتداءاتهم على حكم الله بالباطل، إذ جعلوا لله نصيباً من الأنعام ولشركائهم نصيب آخر، وجعلوا بعضها حِجْراً، وأحلّوا ما في بطون الأنعام لذكورهم وحرّموه على إناثهم، وإن كان ميتة فهم فيه سواء.
- وقد رَدّ السياق عليهم ببيان أن الله هو الخالق ذو القدرة الإلهية المطلقة، فهو الذي أنشأ الجنات المعروشات وغير المعروشات، وهو الذي أنشأ الأشجار ذات الأطعمة المختلفة.
- وكما هو الخالق فهو الرازق، الذي خلق الأنعام وجعلها حمولة وفرشاً، وقد أمر العباد بالأكل مما رزقهم الله دون اتباع خطوات الشيطان.
- ثم بيّن حكمه الله تعالى في الأنعام، فقد أحلّ منها ثمانية أزواج، اثنين من كل من الضأن والمعز والإبل والبقر، ولم يحرّم من الأنعام

إلا ما كان ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو ما أُهِلَّ لغير الله به.

- وبعد بيان حكمه الله في الأنعام، انتقل السياق لبيان حكمه في الأمور العقدية والاجتماعية، فأمر بعدم الشرك بالله، والإحسان إلى الوالدين، وبعدم قتل الأولاد خوفاً من الفقر، وعدم قرب مال اليتيم وإيفاء الكيل والميزان واتباع صراط الله وعدم اتباع سبل الغواية.
- هذا التفصيل في عرض الأحكام يؤكّد تفرّد الله تعالى بالحكم والتشريع كونه الخالق ذا القدرة المطلقة والعلم الشامل.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١٥٥-١٦٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت الأمر باتباع شرع الله، وبيان أن ما سواه ضلال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.
- وأعادت التذكير بوجوب الإيمان بآيات الله القرآنية، وعدم الإعراض عنها كما أعرض السابقون: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.
- وبيّنت أن دين إبراهيم عليه السلام هو دين التوحيد في العبادة والتوجّه بالذبائح: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان دلالة الآيات الكونية والقرآنية على تفرّده تعالى بالإلهية والحكم، ختمت ببيان أنه وحده خالق البشر ومدبّر شؤون حياتهم مع الترغيب باتباع حكمه والترهيب من الإعراض عنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

سورة الأعراف

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور: «عُرف الديك والفرس والدابة وغيرها: منبت الشعر والريش من العنق، وأعْرَفَ الفرسُ: طال عرفُه، وعرف الأرض: ما ارتفع منها، والجمع: أعراف، والأعراف في اللغة: جمع عُرف وهو كل عالٍ مرتفع، قال الزجّاج: الأعراف: أعالي السور»[١]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود على أرجح الأقوال إلى وصف حال من تساوت حسناتهم وسيئاتهم يوم القيامة، إذ يوقفون على أعالي سور بين الجنة والنار، ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته، فاسم السورة يدلّ على قدرة الله على البعث والحساب وجزاء المؤمن وجزاء الكافر يوم القيامة[٢].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصودها إنذار مَنْ أعرض عمّا دعا إليه الكتاب في السورة الماضية ـ الأنعام ـ من التوحيد والاجتماع على الخير، وتحذيره بقوارع الدارين، وأدلّ ما فيها على هذا

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٠، ص ١١٣.

(٢) من المفسّرين الذين اعتمدوا هذا القول: الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، م ٥، ص ٣٥٢٢. والزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج ٢، ص ١٠٣، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٢، ص ٢٩٨.

المقصد أمر الأعراف، فإن اعتقاده يتضمّن الإشراف على الجنة والنار والوقوف على حقيقة ما فيهما، وهذا المحور متمثّل في موضوعات السورة، إذ تعرض مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، وموقف المؤمنين والمكذّبين من الأقوام تجاهها[١].

ويمكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله تعالى وتعظيمها من خلال عرض مسيرة العقيدة التي جاءت بها هذه الآيات عن طريق الرسل في التاريخ البشري، والتحذير من بأس الله في الدنيا والآخرة لمن كذّب بها واستكبر عنها. وقد اختير اسم «الأعراف» لهذه السورة لأنه أدلّ ما في السورة على حقيقة وقوع بأس الله في المكذّبين والمستكبرين عن آيات الله التي جاء بها الرسل، ونجاة المؤمنين بالرسل والآيات وأمانهم من بأسه تعالى، ثم إن أهل الأعراف أكثر الناس خوفاً من بأس الله في ذلك الموقف العصيب. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي عرضتها مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، والتحذير من العقوبة الدنيوية والأخروية لمن كذب بها**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وإليك بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تدعو إلى الإيمان بما تحذّر به آيات القرآن العظيم من الحساب في اليوم الآخر، ثانياً: عرض قصصي لمسيرة العقيدة التي جاء بها الرسل منذ آدم إلى موسى مع بني إسرائيل، مع بيان عاقبة المؤمنين وعاقبة المكذّبين بهذه الآيات، ثالثاً: تعقيب بذكر أدلة عقلية على عقيدة التوحيد ومحذّرة من الكفر

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ٤٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٣، ص ٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٣، ص ١٢٤٤، ورضا، **تفسير المنار**، ج ٨، ص ٢٧٤٨، و ج ٩، ص ٣٣٤٤، وما بعدها، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٨، ص ٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٣، ص ١، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١، ص ٤٠٢، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ١٠٩، ود. شحاتة، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، ج ١، ص ٩١.

بآيات الله ومن والشرك، رابعاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[(١)].

أولاً: جاءت مقدّمة السورة داعية إلى الإيمان بالقرآن المنزل على النبيّ ﷺ، كونه آخر الآيات التي أنزلها الله على الأنبياء والرسل: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾، ومحذّرة من عقوبة من لم يؤمن بآيات الله يوم القيامة، واللافت للنظر أنك تجد قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ المحذّر من بأس الله، وتجد فيها أيضاً أن سبب الخسران في يوم القيامة هو: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ وهذا يؤكّد المحور المذكور، فإنه يحذّر من بأس الله في المكذّبين الذين سيبيّن مشهدُ الأعراف حقيقة وقوع بأس الله بهم.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مسيرة عقيدة التوحيد، فابتدأ السياق بقصّة آدم عليه السلام، وهي قصّة منسجمة تماماً مع التحذير من العقوبة الأخروية، لأنه عليه السلام يمثّل البداية للبشر، ويوم القيامة يمثّل نهاية مطافهم، من أجل ذلك عُرِض مشهد الأعراف الذي

---

(١) المقدّمة شملتها الآيات: ١ - ١٠، والعرض القصصي لمسيرة التوحيد: ١١ ـ ١٧١، والتعقيب بذكر أدلة التوحيد: ١٧٢ -١٩٨، والخاتمة: ١٩٩ - ٢٠٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: سورة الأعراف أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (بأسنا) بالضمير العائد على الله تعالى، انظر الآيات: ٤، ٥، ٩٧، ٩٨. وانظر الآيتيْن: ٩٤، ١٦٥ اللتين تفيدان التحذير من بأس الله أيضاً، ثانياً: هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (آياتنا) وعبارة (كذبوا بآياتنا)، انظر الآيات: ٣٦، ٤٠، ٦٤، ٧٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٤٦، ١٤٧، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٢. وانظر الآيتيْن: ٣٧ ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، و٥١ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، ٩ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾، ثالثاً: هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (استكبروا)، انظر الآيات: ٣٦، ٤٠، ٧٥، ٧٦، ٨٨، ١٣٣، ولاحظ الآيات: ١٣ ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ١٤٦ ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ٢٠٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾. رابعاً: هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (رسالات) العائدة على الله، انظر الآيات: ٦٢، ٦٨، ٩٣، ١٤٤ وانظر الآية: ٧٩ (رسالة ربي)، خامساً: بإمكانك أن تضيف أنها الوحيدة التي ذكرت فيها (ألواح موسى) التي فصل الله فيها آياته وأحكامه: ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤. وكل ذلك يؤكد المحور المذكور. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وسيأتي بيان مزيد من لطائفها عند الحديث عن سورة الإسراء إن شاء الله تعالى.

يبيّن حقيقة وقوع بأس الله يوم القيامة بمن استكبر عن آياته، ونجاة المؤمنين بهذه الآيات، قبل التفصيل في عرض مسيرة العقيدة بذكر نوح عليه السلام بداية وإلى موسى عليه السلام نهاية، واللافت أنك تجد في القصّة تركيزاً على تكبُّر إبليس عن الأمر الإلهي بتفصيل لا تجده في سورة أخرى من القرآن، ولاحظ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾، وذلك ملائم لمحور السورة، فإبليس أول المتكبّرين، وهو أكبر داعٍ إلى التكبّر عن آيات الله. وسيبيّن مشهد الأعراف مصير هؤلاء المتكبّرين.

ولاحظ في التعقيب على القصّة قوله تعالى المحذر من الاستكبار عن آيات الله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، وفيه تصريح بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله ورسله وعدم التكبر عنها.

ثم انتقل السياق إلى مشهد أخروي يبرز حقيقة وقوع بأس الله في المكذّبين والمستكبرين عن آياته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾، وحقيقة أمان المؤمنين من بأس الله تعالى، وأن الذي نجّاهم إيمانهم بآيات الله ورسله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ويأتي مشهد الأعراف ليؤكّد هذه الحقيقة بأجلى صورة، فلاحظ قوله تعالى عن المستكبرين والكافرين: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ولاحظ كيف حاق بهم بأس الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ

﴿هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، بينما نجا أهلُ الأعراف من بأس الله؛ بسبب إيمانهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

فإذاً، اسم السورة «الأعراف» ودلالاته يطلعنا على حقيقة وقوع بأس الله في المكذّبين والمستكبرين عن آيات الله ورسله، ونجاة المؤمنين من ذلك البأس. فلننظر مدى الترابط بين ذلك وباقي موضوعات السورة.

ثم انتقل السياق إلى ذكر بعض الأدلة العقلية على التوحيد، وفي ذكر هذه الأدلة مزيد دعوة إلى تعظيم الآيات التي أنزلها الخالق العظيم على رسله عليهم السلام، فالله الذي يغشي الليلَ النهارَ، وسخّر الشمس والقمر والنجوم، وأرسل الرياح بُشْراً، وأنزل من السماء ماء فأحيا به بلدة ميتاً، كذلك يخرج الموتى، وتتناسب هذه الأدلة مع دلالات اسم السورة من جهتَيْن: فالتوحيد هو الأصل الأعظم الذي تدعو إليه رسل الله وآياته، وقد بيّن مشهد الأعراف مصير من آمن وكذب بالآيات والرسل، ثم إن ذكر قدرة الله على إحياء الموتى يثبت حقيقة مشهد الأعراف الأخروي.

ثم انتقل سياق السورة إلى قصة نوح عليه السلام، فتجد فيها الدعوة إلى الإيمان برسالات الله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ثم لاحظ التركيز على موقف الملأ المتكبّرين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ وتجد فيها التحذير من بأس الله الذي حاق بالمكذبين، ونجاة المؤمنين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾. وقد فصّل مشهد الأعراف حقيقة وقوع بأس الله في المتكبّرين يوم القيامة، ونجاة المؤمنين في ذلك اليوم.

ثم تأتي قصة هود عليه السلام، فتجد فيها الدعوة إلى الإيمان: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾، وتجد فيها التركيز على موقف الملأ المتكبرين أيضاً: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، وتجد فيها أيضاً أن بأس الله قد حاق بالمكذّبين، ونجاة المؤمنين: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم تأتي قصة صالح عليه السلام، فتجد فيها أيضاً بيان موقف المستكبرين عن آيات الله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾، وتجد بأس الله قد حاق بهم بسبب تكذيبهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم تأتي قصة لوط عليه السلام، فتجد فيها أيضاً عرض موقفهم المتكبّر: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وتجد فيها نجاة المؤمنين، وبأس الله قد نزل بالمجرمين: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم تأتي قصة شعيب عليه السلام، فتجد فيها الدعوة إلى الإيمان بآيات الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾، وتجد فيها موقف المستكبرين: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وتجد فيها بأس الله ومكره قد حاق بهم بسبب كفرهم برسالات الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

فأنت تلاحظ أن كل هذه القصص حَوَت تركيزاً على الدعوة إلى الإيمان بآيات الله ورسالاته، وحَوَت تركيزاً على موقف المستكبرين والمكذّبين وبيان كيف حاق بهم بأس الله، وتركيزاً على نجاة المؤمنين من ذلك البأس، وذلك متناسق أشدّ التناسق مع مشهد «الأعراف» الذي أكّد كل ذلك في اليوم الآخر بالتفصيل.

ثم يأتي التعقيب الإلهي على هذه القصص محذّراً من بأس الله ومكره لمن كذّب، ومُثْبِتاً قانوناً ربانياً يقي المؤمن من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا

بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

ثم تأتي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد امتازت قصته في هذه السورة بعدَّة أمورٍ تؤيّد المحور الذي ذكرته، وتتلاءم مع اسم السورة «الأعراف» بدلالاته المذكورة:

فقد عرضت الموقف المستكبر لفرعون وملئه: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾، ومن ذلك أنها فصّلت في عرض الآيات التسع التي أيّد الله بها موسى عليه السلام ولا تجد ذلك في سورة أخرى من القرآن، وعرضت الموقف المستكبر لفرعون وملئه منها: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، وانظر ماذا كان سبب غرقهم: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾. فالتركيز على موقف المستكبرين والمكذّبين مهيمن على سياق القصة.

أما فيما يتعلق بقصة موسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل فتجد فيها أموراً قد انفردت هذه السورة بعرضها، وهي متناسقة مع المحور المذكور ودلالات اسم السورة، فمن ذلك: ذكر طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام آلهة يعبدونها بعدما مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فكان هذا المشهد عرضاً لموقفهم من آيات الله مع فرعون وقومه التي رأوها بأمّ أعينهم، ثم كانت النتيجة أنهم أرادوا عبادة إلهٍ غيره! ولم يكد موسى عليه السلام يفارقهم حتى اتخذوا العجل إلهاً من بعده، وانظر كيف نزل بهم بأس الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ومن ذلك طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل، واصطفاء موسى سبعين رجلاً لميقات الله، فأخذتهم الرجفة ، وبمقارنة بسيطة بين هذه الأمرين نجد أن موسى عليه السلام قد قال حينما أفاق: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما بنو

إسرائيل فقد أصروا على الكفر حتى يروا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة، فشتان بين مقولة موسى عليه السلام، وبين موقف قومه.

ومن ذلك التركيز على أهمية الإيمان برسالات الله إلى موسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى في المتكبّرين والمكذّبين بتلك الآيات: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفي سياق ذلك تأتي دعوة إلى الإيمان برسالة سيّدنا محمد ﷺ كونه يمثّل نهاية العرض التاريخي لمسيرة العقيدة التي جاءت بها آيات الله المنزلة على رسله، فانظر قوله تعالى المؤكّد لمحور السورة المذكور: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

كما وأن الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ مؤكّد لما ذكرته المقدّمة من الدعوة إلى الإيمان بالقرآن والتحذير من العقاب يوم القيامة لمن كفر.

ومن ذلك التفصيل في مخالفتهم يوم السبت وإنكارهم على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فهذا أيضاً موقف مشين لبني إسرائيل من آيات الله تعالى، ثم تجد أن الله قد أنزل بهم بأسه فمسخهم قردة وخنازير. فأنت تجد أن السياق يركّز على المواقف المشينة لبني إسرائيل بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا، لكنهم أصرّوا على الاستكبار والكفر، وفي

كل مرة ينالون قسطاً من بأس الله. ولا يخفى ترابط ذلك مع اسم السورة «الأعراف» ودلالاته المذكورة.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى التحذير العام لبني آدم من الشرك والدعوة إلى نبذه والالتزام بالتوحيد أصل الرسالات الإلهية، مع ذكر مصير أحد الذين اتّبعوا هواهم وانسلخوا من آيات الله، فقد حاق به بأس الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

ثم عاد السياق إلى التأكيد على حقيقة الحساب الأخروي، مع ذكر أدلة عقلية تثبت هذه الحقيقة، وتجد في سياق الحديث عن ذلك قوله تعالى المحذر من مكر الله وبأسه: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من الشرك بالله عز وجل، باعتباره أكبر مظاهر التكذيب بآيات الله، والتذكير بالتحذّير من الشيطان وأعوانه، وتختم السورة بتعظيم آيات الله وبيان أنه ليس للنبيّ ﷺ أيّ دور فيها سوى التلقّي عن الله عز وجل، والتحذير من التكذيب والاستكبار عن رسالته ﷺ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

هكذا تجد بعد التطواف في مواضيع السورة كلها أنها جاءت متضمّنة لموضوعَيْن يمثّلان محور السورة: تعظيم آيات الله التي عرضتها مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، والدعوة إلى الإيمان بها وبيان نجاة مَن آمن، والتحذير من بأس الله لمن كذب بها واستكبر عنها. وهما موضوعان قد جلّاهما مشهد الأعراف الذي سمّيت السورة باسمه أيّما تجلية. ولذلك سمّيت السورة به للدلالة على المحور المذكور.

سورة الأعراف

سورة الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي عرضتها مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، مع التحذير من العقوبة الدنيوية والأخروية لمن كذّب بها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تدعو إلى الإيمان بما تحذّر به آيات القرآن من الحساب في اليوم الآخر:

- افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي أنزلها على النبي ﷺ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.
- ثم دعت إلى الإيمان بما تحذّر به آيات الله من الحساب الأخروي: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات ١١-١٧١)

عرضٌ قصصي لمسيرة العقيدة التي جاءت بها آيات الله المنزلة على الرسل من لدن آدم إلى موسى عليهما السلام مع بيان عاقبة المؤمنين والمكذّبين بها:

- ابتدأ عرض مسيرة العقيدة منذ بداية قصة خلق أبي البشر، فقد خلق الله آدم وأسجد له ملائكته، وعرضت القصة تكبّر إبليس عن الأمر الإلهي وتوعّده إغواء بني آدم.
- وقد عقب السياق بعد نزول آدم من الجنة بالدعوة إلى الإيمان بالله التي يوحيها إلى رسله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥﴾.
- عرض مشهد الأعراف حقيقة وقوع بأس الله بالذين كذبوا بآيات الله وجحدوا بها فكانوا من أهل النار، وعرض نجاة الذين آمنوا من بأسه تعالى فكانوا من أهل الجنة، فكان هذا المشهد حلقة الوصل بين عرض بدء خلق الإنسان، وبين عرض المصير الأخروي لبني آدم قبل تكملة عرض مسيرة العقيدة.

■ ثم تابع السياق عرض مسيرة العقيدة، فعرضت دعوة نوح عليه السلام قومه بآيات الله، لكنهم كذبوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

■ ثم عرض قصة هود عليه السلام الذي أبلغ قومه رسالات ربّه، لكنهم كذبوه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

■ ثم قصة صالح عليه السلام الذي أيّده الله بآية الناقة، لكنهم كذبوه وعقروا الناقة، فأهلكهم الله وأنجاه ومن آمن معه.

■ ثم قصة لوط الذي حذّر قومه من إتيان الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، لكنهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

■ ثم قصة شعيب الذي جاء قومه ببينة من ربهم، لكنهم كذبوه فأهلكم الله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

■ ثم عرض قصة موسى عليه السلام الذي أيّده الله بتسع آيات قد فصّل السياق في عرضها على نحو لا يوجد في سورة أخرى، وعرض موقف فرعون وقومه الذين أغرقهم الله بأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين.

■ ثم عرض السياق طلب بني إسرائيل من موسى آلهة من دون الله، بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا.

■ وعرض السياق عبادتهم للعجل، وفصّل في موضوع السبت على نحو لا يوجد في سورة أخرى، ليؤكّد بذلك حقيقة وقوع بأس الله بالمكذّبين والمتلاعبين بآيات الله وأحكامه.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧٢-١٩٨)

تعقيب على عرض مسيرة العقيدة التاريخية بذكر أدلة عقلية تؤكّد عقيدة التوحيد وتحذّر من الكفر بها:

■ فالله هو الذي أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا.

■ عرض السياق مصير الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، فكان مثله مثل الكلب.

■ دعا السياق إلى التفكّر في ملكوت السماوات والأرض.

■ وبيّن موقف بعض الناس إذ يجعلون لله شركاء فيما يؤتيهم الله من الذرية، فتعالى الله عما يشركون.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٩٩-٢٠٦)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من إبليس، إذ هو العدوّ الأول الذي يدعو بني آدم إلى الكفر بآيات الله.
- وردت على فريات المكذبين من أمة النبيّ ﷺ حول القرآن.
- وأمرت بتوقير آيات الله والإنصات عند قراءتها كما أمرت المقدّمة بتوقير آيات الله.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى اتّباع الهدى الذي جاءت به آيات الله، ختمت ببيان أن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله ويسبحونه، وهي بذلك تدعو البشر إلى أن يكونوا كالملائكة في الإيمان وطاعة الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾.

سورة الأنفال

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «النون والفاء واللام: أصل صحيح يدلّ على عطاء وإعطاء، منه النافلة: عطية الطوع من حيث لا تجب، ومنه نافلة الصلاة. . . ومن الباب: النَّفَل: الغُنْم، والجمع: أنفال، وذلك أن الإمام يُنفِّل المحاربين، أي يعطيهم ما غنموه»[١]، فوصف الغنائم بالأنفال يدلّ على أنها عطية وزيادة من الله للمسلمين، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فمن المعلوم أن هذه السورة نزلت تعقيباً على غزوة بدر التي كان من أحداثها أن غنِمَ المسلمون بعض الغنائم من المشركين، وقد ذكر الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة أن تسمية الغنائم بالأنفال فيه إشارة إلى أن الهدف الحقيقي من قتال الأعداء إنما هو لرفع كلمة الله، فإذا حدث أن غنم المسلمون شيئاً بعد أن يحقّقوا هذا الهدف، فإن هذه الغنائم زيادة رزقهم الله إياها[٢].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٠٣٩.

(٢) أ. د عودة، **شواهد في الإعجاز القرآني**، ص ٩٤- ٩٧، وقد ذكر لفتة جميلة أخرى، وهي أن السياق كرر كلمة «الأنفال» وليس بينهما إلا كلمة «قل»، والعهد في القرآن أن لا يكرر الكلمة المسؤول عنها، بل يعيد عليها بضمير مناسب، كقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وذلك لأن إعادة الضمير على الكلمة المسؤول عنها يدلّ على أنها أشياء ثابتة، فالأهلّة هي الأهلّة، والمحيض هو المحيض، لكن في إعادة كلمة الأنفال دلالة على أن الأنفال عرضة للتغير من=

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن بدء هذه السورة بالأنفال التي هي نتيجة معركة بدر، فيه تربية نفسية للمؤمنين بأن المبدأ أهمّ من العرض الدنيوي الزائل، فاسم السورة يحذّر من أن يتحوّل قتال المسلم من إعلاء كلمة الله إلى طلب المغانم الرخيصة، ومن جهة أخرى تطمئن السورة المؤمنين إلى أن القتال الخالص لله سيؤدي في النهاية إلى الأنفال التي هي الزيادة، فالاهتمام بالأصول يؤدي إلى تحصيل الفروع، ومن مقاصد هذه السورة أنها تعطي مبررات تقرير إلهية الله في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس، فحديث السورة عن غزوة بدر الكبرى التي جعلها الله فرقاناً في مجرى التاريخ البشري، لا يجوز معه الاختلاف على الغنائم القليلة في تلك الوقعة، فسياق السورة يسجّل أن هذه المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره، له وفي سبيله، ومن ثم تجريد المسلمين من الأنفال، وتقرير أنها لله وللرسول، حتى إذا ردّها عليهم كان ذلك منّا منه وفضلاً[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله وطاعة الله ورسوله ﷺ، وبأن تكون النية في ذلك صادقة لوجه الله تعالى فقط، وذلك لأن مقاليد الأمور كلها بيده تعالى يقلّبها كيف يشاء، وإنما سمّيت السورة بالأنفال؛ لأن الدلالات اللفظية والسياقية لهذه الكلمة مِنْ جعلها لله وللرسول، ثم ردّها على المؤمنين امتناناً من الله، أدلّ ما في السورة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التعبئة النفسية والمادية السليمة للجهاد**.

= حيث الزمان والمكان والكمية، ولو أعاد السياق على الأنفال بضمير: هي، لتوُهِّم أن الإجابة كانت عن أنفال معركة بدر فقط. ولكان لنا أن نسأل: فما حكم أنفال أُحُد أو حُنين مثلاً؟

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٢٧٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٣، ص ١٨١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٣، ص ١٤٤٠- ١٤٦٩، ورضا، **تفسير المنار**، ج ١٠، ص ٩٢- ١١٧، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٩، ص ٢٤٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٣، ص ١٣٢، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٨٥- ٤٨٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٨٦- ٩٢، ونوفل، د. أحمد، **الحرب النفسية من منظور إسلامي**، ط١، دار الفرقان، عمّان، ٢٠٠٤، ص ٩٢- ١٠١.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أولها: مقدّمة تحوي توجيهاً للمؤمنين فيما يتعلق بموضوع الأنفال مع بيان الصفات التي يجب أن يتحلّوا بها، وثانيها: التربية على التعبئة النفسية والمادية للجهاد من خلال بيان بعض مِنَنِ الله تعالى على المؤمنين في معركة بدر الدالة على كمال قدرته المطلقة، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، والتعبئة النفسية والمادية للجهاد: ٥- ٦٣، والخاتمة: ٦٤- ٧٥. ومن لطائف هذه السورة أن محورها ومحور سورة التوبة التي تليها يعطيان صورة متكاملة، فسورة الأنفال محورها التعبئة النفسية والمادية للجهاد مع صدق النية، دون التفات إلى عرض الدنيا، وسيأتي أن محور سورة التوبة التربية على اعتماد الجهاد سبيلاً للحفاظ على الدين ونشره، مع الدعوة إلى التوبة من المخالفات التي وقعت من بعض المؤمنين والمحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب فيما يتعلق بالجهاد، وإليك بعض أوجه التناسق بين السورتين: أولاً: ذكرت مشتقات الجذر «نصر» المتعلق بدين الإسلام في السورتين ثماني مرات في كل منهما: انظر الآيات التالية في سورة الأنفال: ١٠ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ٢٦ ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾، ٤٠ ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، ٦٢ ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾، ٧٢ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾، ٧٤ ﴿ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وانظر في سورة التوبة: ١٤ ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ٢٥ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ٤٠ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، ٧٤ ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ١٠٠ ﴿الأنصار﴾، ١١٦ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ١١٧ ﴿الأنصار﴾، ثانياً: ذكرت مشتقات الجذر «ولي» في سورة الأنفال ثلاث عشرة مرة، بينما في سورة التوبة ذكرت خمس عشرة مرة، وفيما يلي بعض التفصيل: أ) جاء في الآيتين: ١٥، ١٦، من سورة الأنفال قوله تعالى ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، و﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، وانظر الآية ٢٥ من سورة التوبة عما حصل في غزوة حنين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، ب) انظر الآية ٤٠ من سورة الأنفال ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، وانظر الآية ٥١ من سورة التوبة ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، والآية ١١٦ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ج) ذُكرت كلمة «أولياء» في السورتين مرتين في كل منهما، انظر الآية ٧٢ في سورة الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وانظر الآية ٧١ في سورة التوبة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وانظر الآية ٧٣ في سورة الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، وانظر الآية ٢٣ في سورة التوبة ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ﴾، وثالثاً: خذ هذه الأمثلة على التناسق فيما يتعلق بالأموال: أ) انظر الآية ٢٨ في سورة الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وانظر الآية ٢٤ في سورة التوبة ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾، ب) انظر الآية ٧٢ في سورة الأنفال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وانظر الآية ٢٠ في سورة التوبة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، ج) انظر الآية ٣٦ في سورة الأنفال حول تصيير أموال الكافرين حسرة وخسارة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾، وانظر الآية ٦٩ في سورة التوبة حول الموضوع نفسه =

أولاً: جاء في المقدّمة سؤال يحوي عتاباً وتوجيهاً للمؤمنين حول موضوع الأنفال، إذ لم يكن من المفترض فيهم أن يقاتلوا مع رسول الله من أجل هذه الأنفال، ولذلك رفعها الله من أيديهم وجعلها في يد الله ورسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾، ولاحظ أن السياق بعد أن رفع حكم الأنفال إلى الله ورسوله ﷺ، قد أمرهم بتقوى الله وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول ﷺ، وكل ذلك بمثابة تعبئة نفسية للمؤمنين، فما ينبغي للمؤمن أن يسأل عن العَرَض الزائل، بل ينبغي له أن يتحلّى بهذا الصفات ويكِلُ أمرَه إلى مولاه ذي القدرة المطلقة، ولاحظ الأمر بالإنفاق الذي هو بمثابة تعبئة مادية للجهاد، فما من حرب إلا وهي بحاجة لأموال من أجل تجهيز الجيش، ولاحظ أيضاً وعدهم بالرزق الكريم من لدن الله تعالى، فالمنفق إنما ينفق ابتغاء الأجر والثواب من الله فقط، ولا يلتفت إلى عَرَض الدنيا.

فأنت تلاحظ إذاً أن هذه المقدّمة قد أوجزت الحديث عن محور السورة الذي دلّ عليه اسم الأنفال.

= ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا...﴾، ورابعاً: مشتقات «نفق» العائدة على الأموال في سورة الأنفال ذكرت خمس مرات، انظر منها الآية ٦٠ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، وذكرت هذه المشتقات في سورة التوبة عشر مرات، انظر منها الآية ١٢١ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾، وخامساً: اسم الله تعالى «العزيز» ذكر في سورة الأنفال أربع مرات: ١٠ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٤٩ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٦٣ ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٦٧ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفي سورة التوبة ذكر مرتين: ٤٠ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٧١ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وسادساً: جاء الأمر ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سورة الأنفال ثلاث مرات: ١، ٢٠، ٤٦، وانظر الآية ٧١ في سورة التوبة ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وسابعاً: وصف المنافقين بأنهم في قلوبهم مرض جاء مرة في سورة الأنفال: ٤٩، ومرة في سورة التوبة: ١٢٥، وثامناً: انظر الآية ٣٢ في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾، وانظر الآية ٣٣ في سورة التوبة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، وتاسعاً: كلمة «الباطل» جاءت مرة في سورة الأنفال: ٨، ومرة في سورة التوبة: ٣٤. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وإذا راجعت هذه المواضع في سياق السورتين ستجد أنها جاءت على نحو يناسب المحور المذكور ودلالات اسم كل سورة منهما.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى زيادة البيان في تربية المؤمنين على التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله، وبشرط أن تكون النية خالصة له تعالى، وقد كان أول توجيه لهم معاتبتهم على كراهية بعضهم القتال في المعركة، وتفضيلهم لغنيمة قافلة أبي سفيان: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾، ولاحظ التحذير من تفضيل عَرَض الدنيا على القتال، فالله تعالى بحكمته أراد أن تتحوّل الظروف من غنيمة القافلة إلى المواجهة العسكرية لقريش، فلا ينبغي للمؤمن الجدال في ذلك، علماً بأن الله قد وعدهم بالنصر. وكل ذلك كما ترى تعبئة نفسية للجهاد.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض ما امتنّ الله به على المؤمنين في تلك المعركة، فقد استجاب الله لاستغاثتهم وأمدّهم بألف من الملائكة، وغشّاهم النعاسَ وجعلهم أمنة من لدنه، وأنزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم وأمدّهم بالنصر، فالمعركة إذاً «بجملتها من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره، له وفي سبيله»[1]، وإذ كان الأمر كذلك فَلِمَ تسألون عن الأنفال إذاً؟

ومن الأوامر التي تعبّئ المؤمنين نفسياً للقتال تحريم الهروب من المعركة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾.

ومن الأمور التي تصبّ في تعبئة المؤمنين للقتال نفسياً أيضاً تهوين شأن الكافرين: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾، ولاحظ ذكر معيّة الله للمؤمنين، التي تملأ نفوسهم اطمئنانًا؛ لأن الله ذا القدرة المطلقة معهم.

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٣، ص ١٤٦٤.

وانظر إلى هذا الأمر الخاص بالمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وانظر إلى هذا الامتنان الإلهي عليهم الذي يبيّن كمال قدرة الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾، ولاحظ ذكر رزقهم الطيبات، ولاحظ التحذير من أن يوقع حبّ المال والدنيا في الخيانة، ولاحظ التحذير من فتنة الأموال والأولاد، ألا يرتبط ذلك مع التحذير من الانشغال بالأنفال عن أن تكون النية خالصة لوجه الله تعالى؟

وانظر إلى هذا التهوين من شأن الكافرين والمتعلّق بالأموال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، فهم يعتمدون على أموالهم في نيّتهم السيئة وهي الصّدّ عن سبيل الله، ولاحظ كمال القدرة الإلهية في تصيير هذه الأموال وبالاً وحسرة عليهم، ولاحظ كمال قدرته تعالى في حشرهم إلى جهنم يوم القيامة، إن هذا كلّه يحذّر المؤمنين من الركون إلى الأموال والعَرَض الزائل، ومن أن تكون النية لأيّ شيء سوى وجه الله، بالإضافة إلى ما فيه من تعبئة نفسية ومادية تحثّهم على الجهاد والإنفاق في سبيله.

والآن بعد هذه الأوامر المعبّئة لنفسية المؤمنين مادياً ومعنوياً، انتقل السياق إلى التفصيل في حكم الأنفال الذي رفعه إلى الله ورسوله ﷺ أول السورة: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فبعد أن رجعت النية إلى مسارها الصحيح، وأصبحت نفسية المؤمنين معبّأة تعبئة صحيحة، امتنّ الله بردّ الأنفال عليهم، ولاحظ إعادة التذكير بالإيمان وبطاعة الرسول ﷺ، فلا ينبغي

أن تكون هذه الأنفال هدفاً لكم، إنما هي مجرّد جزاء عاجل بسيط لا يعدل شيئاً أمام الجزاء الأخروي الآجل لمن آمن وصَلُحت نيته.

ومن الأمور التي تبيّن كمال القدرة الإلهية في تسيير الأمور والظروف حسب مشيئته تعالى، أن أرى اللهُ رسولَه ﷺ جيشَ العدوّ في منامه قليلاً، فبشّر أصحابه بذلك ورفع معنوياتهم، وقد أرى اللهُ المؤمنين عدوَّهم قليلا أيضاً في بداية المعركة، وانظر إلى هذا الأمر الذي يرفع معنوية الجندي المؤمن عالياً في السماء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾، فذكر المؤمن لربّه في تلك الموقف العصيبة يجعله مطمئناً بأن الله ذا القوّة والقدرة المطلقة معه، ولاحظ التحذير من التنازع المؤدي للفشل، والأمر بالطاعة التامة لله ولرسوله ﷺ.

وقبل الانتقال للخاتمة بيّن السياق أن الكافرين قد جعلوا من الشيطان ولياً لهم، فكانت النتيجة أنه نكص على عقبيه وتبرّأ منهم، وحذّر السياق من المنافقين ذوي القلوب المريضة، وأمر المؤمنين بعدم الالتفات إليهم، والتوكّل على الله، وذكر السياق شيئاً من أحكام السَّلْم، فللمؤمنين أن يجنحوا للسلم شريطة أن يكون العدوّ هو من يطلب ذلك.

وانظر إلى هذا الأمر الإلهي المعبّر عن محور السورة ودلالات اسمها بأبلغ صورة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.

فأنت ترى أن هذا القسم الأكبر من السورة يحوي عرضاً مفصّلاً لمحور السورة من عدّة جوانب، فهو يعبّئ المؤمنين نفسياً ومادياً، ويبرز لهم كمال القدرة الإلهية في توجيه الأمور والظروف حسب إرادته الحكيمة، وبالتالي يجب الاعتماد عليه وحده، دون الالتفات إلى عرضٍ زائلٍ يغير النية كالأنفال، كما وأنه يهوّن من شأن الكافرين. وكل ذلك مترابط أشدّ الترابط مع دلالات اسم السورة.

ثالثاً: بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أعادت التذكير بالتعبئة النفسية والمادية للجهاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾، وحذّرت من الركون إلى شيء من عَرَض الدنيا مما قد يغيّر النية فلا يجعلها خالصة لوجه الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وانظر إلى هذا الامتنان الإلهي على المؤمنين المتقين: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾، فقد أعاد لهم الأنفال التي اختلفوا عليها، لكن بعد أن صحّحت نيّاتهم، وكملت تعبئتهم النفسية والمادية.

وكما افتتحت السورة ببيان صفات المؤمنين بعد أن عاتبتهم على طلبهم الأنفال، ختمت السورة أيضاً بذكر صفات المؤمنين، «ولاحظ أن آخر السورة الكريمة عاد للحديث عن صفات المؤمنين، ولكنه جعل للإيمان علامات ومؤشرات أخرى أرقى من هذه في الرتبة وأشدّ في التطبيق: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾، وكأن السورة الكريمة تلفتنا إلى أن التربية قد آتت ثمراتها وأُكُلها الطيب، فهاهم المؤمنون قد علت درجاتهم من مجرد إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله، إلى الهجرة والجهاد والإيواء والنصرة، ولاحظ كيف تناغم وتناسق أول السورة مع آخرها»(١). وهكذا التقى البدء والختام على محور التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله دون التفات إلى عرض الدنيا، وهو ما دلّ عليه اسم السورة، وتناسق معه أكمل التناسق.



---

(١) نوفل، د. أحمد، **الحرب النفسية من منظور إسلامي**، ص ٩٣.

سورة الأنفال

سورة التعبئة النفسية والمادية السليمة للجهاد

الموضوع الأول: (الآيات ١-٤)

المقدّمة التي تعالج موضوع الأنفال وتبيّن الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون:

- افتتحت السورة بالأمر بتصحيح نية القتال بأن تكون خالصة لله دون الالتفات إلى عَرَض الدنيا: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾.
- ثم أمرت المؤمنين بتقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول ﷺ، وفي ذلك تعبئة نفسية للجهاد.
- وبيّنت أن المؤمنين الذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم، وتزيدهم آيات الله إيماناً وعليه يتوكلون، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، والأمر بالنفقة بمثابة تعبئة مادية للجهاد.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٢٥-٦٣)

التعبئة النفسية والمادية للجهاد من خلال بيان بعض مِنَن الله تعالى على المؤمنين في معركة بدر:

- ابتدأت بمعاتبة بعض المؤمنين الكارهين للقتال: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.
- ومما يعبّئ نفسية المؤمنين أن الله قد وعدهم إحدى الطائفتين، إما القافلة أو الحرب، وقد عاتبهم السياق على تفضيلهم القافلة على القتال.
- ومما يعبّئ نفسية المؤمنين أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾.
- ومن ذلك تهوين شأن الكافرين: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾.
- ومن ذلك الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.
- ومنه التحذير من خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات.

■ ومما يعبّئ المؤمنين مادياً للقتال التحذير من فتنة المال والأولاد: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

■ وقد بيّنت السورة أن الأموال التي ينفقها الكافرون للصد عن سبيل الله ستكون حسرة عليهم ثم يغلبون.

■ بعد هذه الأوامر التي تعبّئ المؤمنين نفسياً ومادياً للقتال تعبئة سليمة، بيّنت السورة حكم الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

■ وقد أمرت السورة المؤمنين بذكر الله تعالى حالة الحرب، وبالثبات على الحق وطاعة الله والرسول ﷺ وبعدم التنازع، وحذّرتهم من كيد الشيطان.

■ ومما يعبّئ المؤمنين مادياً للقتال قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٦٤-٧٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بالتعبئة المادية والنفسية للقتال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾.

■ وقد حذّرت من الركون إلى الدنيا لأنها تغيّر النية السليمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون، ختمت بتذكيرهم بهذه الصفات لكن برتبة أرقى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

سورة التوبة

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «التاء والواو والباء كلمة واحدة تدلّ على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي: رجع عنه»[1]، وقد أكّد الإمام ابن منظور رحمه الله ذلك حيث قال: «التوبة: الرجوع من الذنب. . وتاب إلى الله يتوب توباً وتوبة ومتاباً: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة. . وتاب الله عليه: وفّقه لها»[2]، وأما أهمّ الدلالات السياقية لاسم السورة فهي دعوة المؤمنين إلى التوبة من المخالفات التي حصلت من بعضهم في غزوتَيْ حُنين وتبوك.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تتناول موضوع التوبة من جميع جوانبه ولكافة الأطراف، فقد تضمّنت توبة الله تعالى على النبيّ ﷺ والمهاجرين والأنصار، وجاء فيها دعوةٌ للمقصّرين بالتوبة والرجوع عن التقصير، وفتحت مجالاً للتوبة لغير المؤمنين لعلهم يتركون مخالفاتهم، كما وأن هذه السورة قد تضمّنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٧٥.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٢، ص ٢٤٤. بتصرف.

الأمم في الأرض، وتضمّنت تصنيفاً ووصفاً دقيقاً للمجتمع المسلم يبرز ما وقع منهم من أعمال غير منسجمة مع المنهج الرباني، وكل ذلك دلّ عليه اسم السورة «التوبة»[(١)].

لكني لاحظت أن الموضوع الرئيسي الذي يتعلق بالدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة هو الجهاد، فمن الممكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية الأمة الإسلامية على اعتمادِ الجهادِ سبيلاً للحفاظ على الدين ونشره في الأرض، وذلك من خلال بيان بعض مخالفات المسلمين التي تستوجب التوبة في غزوتَيْ حُنين وتبوك، وبيان مخالفات تستوجب التوبة حصلت من المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب، والتحذير من أعمال تستوجب التوبة حصلت من المشركين وأهل الكتاب. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى التوبة من المخالفات المتعلّقة بالجهاد الذي ينبغي أن يتخذ سبيلاً للدفاع عن الدين ونشره**.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى خمسة موضوعات رئيسية، أولها: مقدّمة تدعو إلى المفاصلة العقدية بين الأمة المسلمة والمشركين، مع التحذير من أعمال المشركين التي تستوجب التوبة، وثانيها: توجيهات تربوية للأمة المسلمة مع ذكر بعض مخالفات تستوجب التوبة في غزوة حنين، وثالثها: التحذير من أعمال تستوجب التوبة لأهل الكتاب والمشركين، ورابعها: توجيهات تربوية للأمة الإسلامية مع ذكر بعض مخالفاتهم ومخالفات المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب في غزوة تبوك، وخامسها: خاتمة مؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٢٩٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٣، ص ٢٥٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٣، ص ١٥٦٤ - ١٥٧٠، ورضا، **تفسير المنار**، ج ١١، ص ٧٢- ١٠٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٠، ص ٩٩، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٣، ص ١٩٠ و ١٩١، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ٥١٥- ٥١٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٩٤ - ١٠٠.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٥، والتوجيهات للأمة المسلمة مع ذكر مخالفات يوم حنين: ١٦- ٢٨، والتحذير من أهل الكتاب والمشركين: ٢٩- ٣٧، والتوجيهات التربوية للأمة المسلمة مع ذكر مخالفات غزوة =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة توجيهات عدّة للأمة المسلمة تدعوها إلى المفاصلة العقدية بينها وبين المشركين، وتدعو المشركين إلى التوبة والإيمان بالله، وإلا فإن الحرب معلنة من المسلمين عليهم: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾، فالمقدّمة تربّي الأمة الإسلامية على مبدأ جهاد أعداء الله إذا أصرّوا على كفرهم ولم يتوبوا إلى خالقهم، وقد بيّنت المقدّمة كذلك بعض الأسباب الداعية إلى المفاصلة بين المسلمين والمشركين وضرورة قتالهم إن أصرّوا على كفرهم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

= تبوك: ٣٨- ١١٠، والخاتمة: ١١١- ١٢٩. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: ما ذكره مؤلفو التفسير الموضوعي والباحثان عيسى ومحمود من أن سورة التوبة أكثر سورة في القرآن تكرر فيها مشتقات الجذر «توب»، وذلك سبع عشر مرة، ينظر: المصدران السابقان في ذات الصفحات المشار إليها، وإليك بعض تفصيلات هذا التكرار: سورة التوبة والبقرة أكثر سورتين في القرآن نُسبت فيها التوبة إلى الله تعالى، وقد كان ذلك عشر مرات لكل منهما، ولكن سورة التوبة امتازت بكونها أكثر سورة في القرآن نسبت فيها التوبة إلى البشر، وذلك سبع مرات ولأصناف مختلفة من البشر: ثلاث مرات عن المشركين: ٣، ٥، ١١، ومرتان عن المؤمنين: ١١٢، ١١٨، ومرتان عن المنافقين: ٧٤، ١٢٦، وثانياً: سورة التوبة أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «جهد»، وكان ذلك عشر مرات، وإليك التفصيل: جاء فعل الأمر بصيغة الجمع «جاهِدوا» في سورة التوبة مرتين: ٤١، ٨٦، ولم يتكرر هذا الفعل بهذه الصيغة في القرآن إلا في هذه السورة، وسورتا التوبة والأنفال أكثر سورتين في القرآن تكرر فيهما الفعل الماضي بصيغة الجمع «جاهَدوا» في سياق مدح المجاهدين، وذلك ثلاث مرات، انظر الآيات من سورة التوبة: ١٦، ٢٠، ٨٨، لكن سورة التوبة امتازت بمرة رابعة بصيغة المفرد «جاهَد»: ١٩، وقد جاء فيها أمر النبيّ ﷺ بالجهاد «جاهِد» مرة واحدة: ٧٣، وقد اشتركت في ذلك مع سورتي التحريم والفرقان، وقد جاء فيها ذمّ المنافقين لتركهم الجهاد مرتين: ٤٤، ٨١، وقد جاء فيها المصدر «جهاد» مرة واحدة: ٢٤، وثالثاً: سورة التوبة أكثر سورة في القرآن تكرر فيها فعل الأمر للمؤمنين بصيغة الجمع «قاتِلوا»، وذلك خمس مرات: ١٢، ١٤، ٣٦، ١٢٣ (عن قتال الكفار والمشركين)، ٢٩ (عن قتال أهل الكتاب)، ورابعاً: سورة التوبة أكثر سورة تكرر فيها مشتقات الجذر «ضيق» في سياق ذم ترك الجهاد، وذلك ثلاث مرات: ٢٥ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، ١١٨ ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، ١١٨ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾، فهم إذا كانوا لا يقيمون اعتباراً لآيات الله تعالى، فكيف سيكون عندهم احترام لمعاهداتهم مع المؤمنين؟ ولاحظ دعوتهم إلى التوبة وإقامة الصلاة، التي تجعلهم إخواننا في الدين إن التزموا بها.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى توجيهات تربوية للأمة الإسلامية، تبرز لهم أن دينهم وحده هو الحقّ، وأن السبيل للدفاع عنه ونشره هو الجهاد، وتدعوهم إلى التوبة من المخالفات التي وقعت من بعضهم في غزوة حُنين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾، فعمارة مساجد الله إنما تكون حسب المنهج الذي ارتضاه، وأين سدانة البيت وسقاية الحجيج التي كان يقوم بها المشركون من الإيمان بالله والجهاد في سبيله: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقبل الانتقال إلى ذكر مخالفات بعض المسلمين في غزوة حنين، ذكر السياق توجيهات تربوية عدّة متعلّقة بموضوع الجهاد أيضاً، فقد بيّن السياق أن مَن آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله هم أصحاب الدرجة العظمى عند الله، وحذّر من موالاة الكفار حتى لو كانوا من الآباء أو الإخوان، وحذّر أيضاً من تفضيل الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر والأموال على حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله، وهذه توجيهات بمثابة تهيئة لذكر مخالفات غزوة حنين.

ثم انتقل السياق إلى ما يتعلّق بغزوة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾، فهذه المخالفة المذكورة تقع في صميم

العقيدة، وهي متّسقة مع التوجيهات المذكورة قبلها، وذلك أنه قد حصل اعتماد على الكثرة من دون الله، وكادت أن تؤدي للهزيمة لولا لطف الله، ولكن باب التوبة مازال مفتوحاً: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾.

فأنت تلاحظ أن هذه التوجيهات تربّي المؤمنين على اعتماد الجهاد في سبيل الله سبيلاً للدفاع عن الدين ونشره في الأرض، وتدعوهم إلى التوبة من المخالفات التي وقعت منهم فيما يتعلّق بهذا الموضوع، وذلك متلائم مع دلالات اسم السورة كما لا يخفى.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى أمر آخر خطير فيما يتعلّق بموضوع التربية، وهو بيان المخالفات التي وقعت من أهل الكتاب وبعض المشركين تستوجب عليهم التوبة إلى الله، فيجب على المؤمنين الحذر منها، مع بيان وجوب جهادهم إن هم أصرّوا على كفرهم: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، فالدفاع عن دين الله ونشره إنما يكون بجهاد هؤلاء حتى تكون الكلمة العليا لدين الله، فإما أن يتوب أهل الكتاب إلى الله ويؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

أما الأعمال والمعتقدات الباطلة التي وقع فيها أهل الكتاب، فهي أنهم أولاً زعموا أن عُزَيراً وعيسى ابن مريم أبناء لله تعالى، وثانياً: أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يطيعونهم في الباطل طاعة عمياء، وثالثاً: أنهم يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره، ورابعاً: أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم ـ وهم الصفوة ـ يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة ولا يؤدّون حقّ الله فيها، ولاحظ أن هذه المخالفات متّسقة مع التوجيهات السابقة للمؤمنين، إذ حذّرتهم من تفضيل القرابة والأموال على حبّ الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله.

وأما العمل الذي ذكره السياق وحذّر المؤمنين منه فيما يتعلّق بالمشركين، فهو أنهم يتلاعبون في تقديم وتأخير الأشهر الحرم؛ ليبيحوا لأنفسهم القتال، وذلك ظلم يجب الحذر منه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ

كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾، ولاحظ الدعوة إلى قتالهم كافة كما يقاتلون هم المؤمنين كافة، وهذا متّسق مع محور السورة الداعي إلى الجهاد للحفاظ على الدين ونشره.

رابعاً: ثم انتقل السياق إلى الموضوع الأكثر خطورة فيما يتعلّق بموضوع التربية على الجهاد، وهو بيان بعض مخالفات المسلمين في غزوة تبوك، وبيان مخالفات المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب، ويلاحظ أن هذا الموضوع قد أخذ الحجم الأكبر من السورة، وذلك لتعدّد مخالفات المسلمين في تلك الغزوة ذات الظروف العسيرة، ولتعدّد وخطورة مخالفات المنافقين والأعراب فيها، ولا يخفى أن المنافقين بمثابة عدوّ داخلي يجب التحذير منه.

وقد قدّم السياق ذكر المخالفة الأولى للمؤمنين اهتماماً بشأنهم، وهي تثاقل بعضهم عن النهوض للقتال في غزوة العُسْرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾، ولاحظ إعادة التذكير بعدم تفضيل الدنيا على الجهاد، وانظر قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

ثم شرع السياق بعرض تفصيلي لمخالفات المحسوبين على المسلمين من المنافقين والأعراب، وقد ابتدأ ذلك بعتاب النبيّ الكريم ﷺ على قبول أعذارهم الكاذبة، فقد كانت أولى مخالفاتهم هي تذرّعهم بالأعذار الكاذبة حتى لا يخرجوا إلى القتال، وقد بيّتوا نيّة السوء تجاه النبيّ ﷺ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾، وكرهوا تقديم النفقات لتجهيز الجيش، وكانوا يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات، وتلفّظوا بألفاظ في حقّ النبيّ ﷺ تنمّ عن عدم إيمانهم: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾، وهم على استعداد أن يحلفوا بالله كاذبين ليرضوا الرسول ﷺ والمؤمنين، والله أحقّ أن يرضوه، وهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وقد حذّر السياق من موالاتهم، وأَمَر بأن تكون

الموالاة للمؤمنين فقط: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

وانظر إلى هذا الأمر المنسجم مع محور السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾، ومن الأوامر الداعية إلى المفاصلة بين المؤمنين وبين هؤلاء المنافقين النهي عن الاستغفار لهم: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾، ولم يكن الأعراب بأقلّ سوءاً من المنافقين: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾، فهم أيضاً يكرهون الخروج للقتال ويؤثرون راحة الحياة الدنيا، وانظر قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾، ولم يغفِل السياقُ إنصافَ الأعراب المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويتخذون ما ينفقون قربة عند الله وصلوات الرسول ﷺ.

فأنت ترى أن هذا القسم الأكبر من السورة يدعو المؤمنين إلى التوبة من المخالفات التي وقعت منهم في غزوة تبوك، ويحذّرهم من الأعمال التي قام بها المنافقون والأعراب، وهذا منسجم مع محور السورة ودلالات اسمها كما لا يخفى.

خامساً: بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيداً لما سبق، فقد أعادت التذكير بمحور السورة الداعي إلى التزام منهج الجهاد للحفاظ على دين الله ونشره: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾، ولاحظ أن أول صفة للمؤمنين هي وصفهم بالتائبين، لينسجم ذلك مع دلالات اسم السورة، ولاحظ

أيضاً أن صفاتهم المذكورة تقابل بصورة عكسية ما قام به المنافقون والأعراب من المخالفات.

وقد أعادت الخاتمة التذكير بالمفاصلة العقدية بين المؤمنين والمشركين، ونهت عن الاستغفار لهم حتى لو كانوا أولي قربى، وجاء في ختام السورة امتنان من الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين الذين وقع من بعضهم مخالفات في غزوة تبوك تستوجب التوبة: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، وأعادت التذكير بأخذ الحيطة والحذر من المنافقين والأعراب المتنصّلين من الجهاد في سبيل الله.

وكما افتتحت السورة ببراءة اللهِ ورسولِه ﷺ من المشركين الحائدين عن منهج الله، وأمرِ المؤمنين بالتزام منهج الجهاد للحفاظ على الدين، ختمت كذلك بالتحذير من المنافقين والأعراب المتنصّلين من الجهاد في سبيل الله، وأمرت المؤمنين بموالاة الله ورسوله ﷺ والالتزام بالمنهج الرباني: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور السورة الداعي إلى التزام الجهاد في سبيل الله والتوبة من المخالفات المتعلّقة به، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة التوبة

سورة الدعوة إلى التوبة من المخالفات المتعلقة بالجهاد الذي ينبغي أن يتخذ سبيلاً للدفاع عن الدين ونشره

الموضوع الأول: (الآيات ١-١٥)

المقدّمة التي تدعو إلى المفاصلة العقدية بين أمة الإسلام وبين المشركين:

- افتتحت السورة بإعلان براءة الله ورسوله من المشركين.
- وجاء فيها تربية للمؤمنين على مبدأ جهاد أعداء الله إن أصرّوا على كفرهم، ولم يتوبوا إلى خالقهم: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٦-٢٨)

توجيهات تربوية للمؤمنين مع ذكر بعض مخالفات غزوة حنين:

- دعت السورة إلى اعتماد مبدأ الجهاد لنشر الدين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.
- وبيّنت أن الجهاد في سبيل الله أعظم عند الله من سقاية الحاجّ وسدانة البيت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.
- أما فيما يتعلّق بغزوة حنين فقد بيّن السياق أن الذي نصر المسلمين في ذلك اليوم هو الله، وليس كثرتهم التي أعجبتهم.
- وقد بقي الباب مفتوحاً للتوبة من تلك المخالفات: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٩-٣٧)

التحذير من أعمال تستوجب التوبة متعلّقة بأهل الكتاب والمشركين:

- دعت السورة إلى قتالهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.
- بيّن السياق زيف عقائد اليهود والنصارى حينما زعموا أن عُزَيراً وعيسى ابن مريم أبناء الله تعالى، وبيّن أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله.
- وبيّن السياق أن المشركين يتلاعبون في تقديم الأشهر الحرم وتأخيرها ليبيحوا لأنفسهم القتال، وقد أمرت السورة بقتالهم كافة كما هم يقاتلون المؤمنين كافة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٨-١١٠).

توجيهات تربوية للمؤمنين مع ذكر بعض مخالفاتهم ومخالفات المنافقين والأعراب في غزوة تبوك:

- حذّر السياق المؤمنين من التثاقل عن النفير في سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.
- وحذّر من تفضيل الدنيا ومتاعها على الجهاد.
- وعاتب النبيّ ﷺ على قبول أعذار المنافقين الكاذبة عن القتال.
- وبيّن أنهم كرهوا تقديم النفقات لتجهيز الجيش، وكانوا يلمزون المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات، وتلفظّوا بألفاظ في حقّ النبيّ ﷺ تنمّ على عدم إيمانهم.
- أمر السياق بجهاد الكفار والمنافقين إذا لم يتوبوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.
- وبيّن أن مِن الأعراب مَن يكرهون أيضاً الخروج للقتال، ويؤثرون راحة الدنيا وأنهم أشد كفراً ونفاقاً.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١١١-١٢٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير بالدعوة إلى اعتماد الجهاد منهجاً للحفاظ على دين الله ونشره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.
- وأعادت التذكير بالمفاصلة العقدية بين المؤمنين والمشركين.
- وفيها امتنان من الله على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين الذين وقع منهم مخالفات في غزوة تبوك: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾... ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾.

- وكما افتتحت السورة ببيان براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين الحائدين عن منهج الله، وأمر المؤمنين بالتزام الجهاد للحفاظ على الدين، ختمت بدعوة المؤمنين إلى موالاة الله ورسوله ﷺ وأن لا يكونوا كالمشركين الصادّين عن دين الله، أو كالمنافقين المتنصّلين من نصرة دينه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

سورة يونس

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «يونس» لورود الإشارة إلى قومه عليه السلام، ولا يخفى أن من دلالة هذه الإشارة بيان نجاة قوم يونس عليه السلام من العذاب بسبب إيمانهم قبل فوات الأوان بنزول العذاب بهم، فاسم السورة يدلّ على أن الإيمان بالله في الوقت المناسب يحمي المؤمن من عذاب الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

لقد اعتمد عدد من المفسّرين والكاتبين على الآية التي ورد فيها ذكر سيّدنا يونس عليه السلام في الربط بين دلالاتها وبين موضوعات السورة، فذكروا أنها مترابطة مع موضوعات السورة من أكثر من ناحية: أولها بيان غاية ما يفيده الإيمان من كشف العذاب، وبيان الضرر الناتج عن تأخيره، ومن ناحية أخرى فيها رَدّ على اضطراب تصوّر الجاهليين لحقيقة العبودية والألوهية من خلال بيان دور الفطرة عند مواجهة الخطر، ومن ناحية ثالثة تملأ الآية المذكورة النفوس بالتوجّس والتوقّع لبأس الله في كل لحظة، ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة، ومن ناحية رابعة فيها إثبات صدق القرآن، فإن مَن كَشَف العذاب عن قوم يونس لما آمنوا، هو الذي أنزل القرآن المتفرّد بالبرهان المعجز الدّالّ على صدقه[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٣١٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٣، ص ٤١١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٣، ص ١٧٤٥ -١٧٥٢، ورضا، **تفسير المنار**، ج ١١، ص ٤٢٣٣- ٤٢٤٧، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١١، ص ٧٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ١٥٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن**، ص ١٠٢ -١٠٧.

الإيمان بالله المنجي من عذابه في الدنيا والآخرة قبل فوات الوقت، والتحذير من التكذيب والتغافل والتلهّي عنه، فإن الوقت إذا فات فقد عرّض مَن لم يؤمن نفسه للعذاب الدنيوي والأخروي من الله عزّ وجلّ. ولا أدلّ على هذا المحور من دلالة الآية التي ذكر فيها إيمان قوم يونس عليه السلام قبل فوات الوقت، ولذلك سمّيت السورة باسمه . ولم تسمَّ السورة بـ (قوم يونس) لأنه لولا دعوته إياهم لما آمنوا، فهو الأجدر بالتسمية وإن لم تذكر قصته في السورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من التلهّي عن الإيمان بالله تعالى، لأن الإيمان به ينجي المؤمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة «يونس»، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى أربعة موضوعات كبيرة: المقدّمة، وفيها دعوة إلى الإيمان قبل فوات الأوان، ثم محاجّة للكافرين والمشركين لعلهم يغتنمون الفرصة فيؤمنوا قبل فوات الأوان، ثم قصتان تثبتان محور السورة؛ أولهما لنوح، وثانيهما لموسى عليهما السلام، وخاتمة تؤكّد ما سبق[1].

---

(١) المقدّمة شملتها الآيات: ١-١٢، ومحاجّة الكافرين والمشركين: ١٣ - ٧٠، والقصتان: ٧١- ٧٣ (قصة نوح عليه السلام)، و ٧٥ - ٩٣ (قصة موسى عليه السلام) ، والخاتمة: ٩٤ - ١٠٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق ببيان أن الإيمان بالله هو المنجي: أ) فقوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾: ٢، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾: ٩، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ج) وكذلك قوله ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: ١٠٣، د) هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «ضرّ» في سياق بيان أن الله وحده بيده الضّرّ: ١٢ (٣ مرات)، ١٨، ٢١، ٤٩، ١٠٦، ١٠٧، هـ) وهي كذلك أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «نفع» في سياق بيان أن الله وحده بيده النفع: ١٨، ٤٩، ٩٨، ١٠٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالتحذير من التلهّي عن الإيمان: أ) فهي أكثر سورة بعد سورة الأعراف ذكر فيهما اسم الفاعل «غافلون أو غافلين»: ٧، ٩، ٢٩، وانظر الأعراف: ١٧٩، ١٣٦، ١٤٦، ١٧٢، ٢٠٥، ب) هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات «عجل» الدال على التحذير من تعجّل العقوبة قبل الإيمان: ١١(مرتين)، ٥٠، ٥١، ج) هي أكثر سورة ذكرت فيها عبارة ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: ٧، ١١، ١٥، د) وهي من أكثر السور التي تكررت فيها كلمة (الناس) وذلك ثلاث عشرة مرة، كما وأنها مع سورة الحج أكثر سورتين تكررت فيهما عبارة (يا أيها الناس): ٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٧، وفي الحج: ١، ٥، ٤٩، ٧٣، هـ) كما وأنها أكثر سورة في القرآن=

أولاً: جاءت المقدّمة داعية إلى الإيمان بالله من خلال بعض الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾، وبيّنت المقدّمة أن الله وعد بجزاء الناس حسب أعمالهم يوم يجمعهم ليوم القيامة، وفي ذلك دعوة لهم ليؤمنوا قبل فوات الأوان، ثم بيّن السياق موقف الغافلين وجزاءهم، وموقف المؤمنين وجزاءهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾، ولاحظ وصف الكافرين بأنهم لا يرجون لقاء الله، وكيف كان سبب غفلتهم هو الاطمئنان إلى الحياة الدنيا، وكيف وصف المؤمنين بأنهم كانوا يعملون الصالحات، حتى دخلوا دار السلام بسبب إيمانهم واستعدادهم.

فالمقدّمة كما ترى تؤكّد أهمية وجوب الإيمان وإدراك الوقت قبل فواته بالتغافل عنه بالحياة الدنيا.

= جاء فيها عبارة (الحياة الدنيا) وذلك ستّ مرات، وأرى أن ذلك يوحي بأن التغافل عن حقيقة الإيمان ولقاء الله بسبب الحياة الدنيا أمر يقع فيه غالب الناس، و) وهي الوحيدة التي ذكر فيها السؤال الإنكاري (آلآن): فقال عن المستعجلين بالعذاب ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾: ٥١، وقال عن فرعون ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: ٩١، ز) وهذه السورة أيضاً أكثر سورة في القرآن بعد البقرة تكررت فيها كلمة (الحق)، في البقرة: ١٩ مرة، ويونس: ١٧ مرة، وأرى أن ذلك يوحي بأن الإيمان أمر حقّ لا مرية فيه ولا ينبغي التغافل عنه، وقد تكرر فيها حرف التنبيه «ألا» ثلاث مرات: ٥٥، ٦٢، ٦٦، وهو مناسب لتنبيه الغافلين. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. ومن اللطيف أيضاً أنه ذُكر في هذه السورة ثلاثةٌ من الأنبياء: نوح، وموسى، ويونس عليهم السلام، وهم جميعاً قد نجّاهم الله من الغرق، وانظر قوله تعالى في الآيتين: ٢٢، الدال على قدرته تعالى على الإنجاء من الغرق، وانظر قوله تعالى في الآية ٩٠، الدال على قدرته على الإغراق.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى ذكر عدد من المحاجّات مع أهل الكافرين والمشركين، تؤكّد على أهمية تدارك الوقت فيؤمنوا قبل أن ينقضي الوقت فيتعرّضوا للعذاب، وقد بيّن السياق إهلاك القرون المكذّبة من قَبْل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، وانظر قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾. فلاحظ تكرار عبارة (الذين لا يرجون لقاءنا) الدالّة على كمال غفلتهم، ولاحظ التهديد بنزول العذاب إذا فات الوقت في عبارة (فانتظروا إني معكم من المنتظرين).

ثم عرض السياق إلى أهمية الإيمان الفطري الموجود بداخل نفوس البشر، فهم يتذكّرونه وقت الشِّدّة، ثم إذا زالت عنهم غفلوا عنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ولاحظ أن السياق قد بيّن أن سبب تغافلهم عن الإيمان الفطري إنما هو متاع الحياة الدنيا. وأعتقد أن عرض هذا المَثَل متلائم مع اسم السورة، فشتّان بين موقف يونس عليه السلام الذي ذهب لدعوة قومه إلى الإيمان حين أنجاه الله من الغرق، وبين موقف هؤلاء الذين أعرضوا عن الإيمان حين أنجاهم الله من الغرق.

وانظر إلى هذا المَثَل الذي يبيّن قصر الحياة الدنيا وهوانها على الله، فلا ينبغي التغافل بها عن الإيمان: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد ذكر السياق أيضاً بعض الأدلة الدالة على وجود الله تعالى والتي يدركها الناس بفطرتهم، لكنهم يغفلون عنها: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾. وقد بيّن السياق أيضاً أن الله وحده هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو وحده الذي يهدي إلى الحقّ، ولا يملك الشركاء الذين يعبدهم الناس شيئاً من ذلك، وهذا يؤكّد ضرورة المسارعة إلى الإيمان بالله الواحد القادر، وعدم التغافل عن الإيمان به.

ومن الآيات التي تبيّن أن عذاب الله غير مأمون، فهو قد يقع بالكافرين في أية لحظة، فلا ينبغي التغافل عنه، لأنه لا فائدة من الإيمان إذا فات الوقت: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

وفي المقابل عرض السياق موقف المؤمنين الذين حفظهم إيمانهم من عذاب الله، وحقّق لهم السلامة في الدارَيْن: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

فأنت ترى أن هذه المحاجّات التي ذكرها السياق إنما يقصد منها الدعوة إلى ضرورة تدارك الوقت والإيمان، وعدم التغافل عنه قبل أن يقع العذاب، وهذا مترابط أشدّ الترابط مع الآية التي ذكرت تدارك قوم يونس للوقت فآمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصتَيْن تؤكّدان هذه الحقيقة: فقصة نوح عليه السلام تبيّن تغافل قومه عن الإيمان بالرغم من طول مكثه بينهم، حتى نزل بهم العذاب فأغرقهم الله، هذا من حيث التناسب مع المحور العام، ومن ناحية أخرى تتناسق هذه القصة مع ذكر نجاة موسى عليه السلام وقومه من الغرق، وإغراق فرعون المكذّب، وقد نجّى الله يونس عليه السلام ـ الذي سمّيت السورة باسمه ـ من الغرق أيضاً. فاختيار القصص المعروضة في هذه السورة كان لحكمة بالغة.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾،

لاحظ قوله تعالى (إن كان كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله) الذي يبيّن تغافل قومه عن الإيمان بالرغم من مكثه بينهم تسع مئة وخمسين عاماً. ولاحظ كيف تحدّى نوح عليه السلام قومه جميعاً، وذلك لتيقّنه بأن إيمانه سيحميه من بأسهم.

وانظر كيف حفظ الإيمان نوحاً عليه السلام ومن معه من العذاب، وانظر عاقبة المكذّبين الذين فاتهم الوقت ولم يؤمنوا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقصة موسى عليه السلام تؤكّد محور السورة أيضاً، فانظر كيف أنجى الله المؤمنين: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾، ومن اللطيف أن سياق القصة قد عرض أن الذي منع قوم فرعون من الإيمان هو تلهّيهم بالحياة الدنيا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾. وانظر كيف كان عاقبة فرعون الذي فاته الوقت ولم يؤمن: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾. ولم تعرض سورة أخرى حالة فرعون حين الغرق، ولم تعرض سورة أخرى قول الله له «آلآن وقد عصيت قَبْلُ وكنت من المفسدين»، وهذا مؤكد للمحور المذكّور، ثم إن هذا القول متّسق مع قوله تعالى عن الغافلين: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لما سبق من سياق السورة، فلاحظ التعقيب على قصة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ

لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾، هذا التعقيب يوحي بضرورة تدارك الوقت والإيمان قبل أن يقع العذاب، ولما كان قوم يونس هم المثال الوحيد للذين نفعهم إيمانُهم فرفع عنهم عذابَ الله، كان موقفهم هذا هو المحور الذي تدور عليه السورة، ولذلك اختير اسم «يونس» لهذه السورة الكريمة.

وقد ذكّرت الخاتمة بضرورة إيقاظ الإيمان الفطري في نفوس البشر قبل فوات الوقت حتى يكونوا من أهل النجاة، وإلا نزل بهم العذاب: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وانظر كيف ختمت السورة بالدعوة إلى الإيمان وتدارك الوقت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، وهكذا التقى ختام السورة مع مفتتحها على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة يونس

سورة التحذير من التلهّي عن الإيمان بالله تعالى، لأن الإيمان هو الذي ينجي المؤمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدّمة التي تدعو إلى الإيمان بالله قبل فوات الأوان:

- افتتحت السورة ببيان أن بعثة النبيّ ﷺ ليست أمراً بدعاً، بل هذه سُنّة الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾.
- وحذّرت من الغفلة عن اليوم الآخر الذي فيه الثواب والعقاب: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.
- وعرضت بعض مظاهر عظمة الله تعالى، وهي مظاهر يغفل الإنسان عن دلالتها على الخالق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.
- وبيّنت أن الذين لا يرجون لقاء الله وتغافلوا بالدنيا عن الإيمان بآيات الله مأواهم النار.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٧٠)

محاجّة الكافرين والمشركين مع دعوتهم إلى الإيمان قبل فوات الأوان:

- برأ السياق النبيّ ﷺ من أيّ فرية متعلقة بالقرآن الذي أنزله الله عليه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ﴾.
- وقد دعا السياق إلى إيقاظ الإيمان الفطري وعدم التغافل عنه، فالله هو الذي ينجي المضطرين حينما يدعونه مخلصين خوفاً من الغرق إذا كانوا في الفُلْك، لكن منهم من يبغي في الأرض بغير الحق بعد أن أنجاه الله.
- وقد حذّر السياق من التلهّي بالحياة الدنيا عن الإيمان، وبيّن أن الله قادر على جعل الأرض حصيداً بعدما أخذت زخرفها وازّينت.
- وبيّن أن الله هو الذي يرزق الناس من السماء والأرض، ويخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ، فكيف يغفل الإنسان عن خالقه ورازقه: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.
- وبيّن أن الله وحده يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو وحده الذي يهدي إلى الحقّ، وأما الشركاء الذين يعبدونهم لا يملكون من ذلك شيئاً.
- وبيّن أن عذاب الله غير مأمون فهو قد يأتي ليلاً أو نهاراً، وحينها سيخسر الذين كانوا يستعجلون عذاب الله.
- وفي المقابل فإن أولياء الله المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٧١-٩٣)

قصتان لنوح وموسى عليهما السلام تثبتان أن الإيمان يحقّق النجاة من عذاب الله، وأن مَنْ لم يؤمن يعرض نفسه لعذاب الله المهلك:

- عرضت قصة نوح عليه السلام اعتماده على الإيمان بربّه وعدم خوفه من أيّ شيء غير الله تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.
- وبيّنت نجاة نوح عليه السلام لإيمانه: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.
- وبيّنت هلاك قومه الكافرين: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.
- وعرضت قصة موسى عليه السلام غفلة قوم فرعون عن الإيمان: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.
- وبيّنت موقف القلّة المؤمنة مع موسى الذين اعتمدوا على إيمانهم لينجيهم الله من العذاب: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.
- وبيّنت أن الذي ألهى فرعون وملأه عن الإيمان إنما هو الحياة الدنيا وزينتها وأموالها.
- وعرضت لحظة غرق فرعون الذي غفل عن الإيمان حتى قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٩٤-١٠٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله وبيان أن العذاب الأليم سيقع بالكافرين.
- وبيّنت أن إيمان قوم يونس عليه السلام هو الذي أنجاهم من عذاب الخزي في الدنيا والآخرة، ومتّعهم الله إلى حين.
- وقد أعادت الدعوة إلى النظر في آيات الله في السماوات والأرض لاستجاشة الإيمان الفطري في القلوب.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان قبل فوات الأوان، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

سورة هود

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «هود» لورود قصته عليه السلام فيها، التي يدعو فيها قومه إلى أجلّ حقيقة في الإيمان، ألا وهي توحيد الله عزّ وجلّ بالعبودية ونبذ الشرك، لكن السياق ميّز هذه القصة عن غيرها من القصص الواردة في السورة ببيان جانب الحزم والجزم في المفاصلة بين رابطة الأخوّة ورابطة العقيدة، مما جعلها قمينة باسم السورة دون غيرها كما سيأتي بيانه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن قصة هود في هذه السورة امتازت بعدّة أمورٍ منها: التفصيل في البشارة والنذارة بالعاجل والآجل، والعناية الإلهية بكلّ دابّة، وهذا أحد الأمور التي بيّنها هود لقومه، وهو دالّ على التوحيد والقدرة على البعث، فالسورة تحوي ثلاث قطاعات متميّزة: الأول يتضمّن حقائق العقيدة في مقدمة السورة، والثاني يتضمّن حركة هذه الحقيقة في التاريخ، والثالث يتضمّن التعقيب على هذه الحركة، ولا يخفى أن قصة عليه هود عليه السلام فيها الدعوة الخالدة إلى التوحيد، والعلاقة بين القِيَم الإيمانية وحقيقة الاتصال بطبيعة الكون كما هو مذكور في قصته، وموقف المفاصلة الأخير بينه وبين قومه حين تحدّاهم جميعاً بأن

يكيدوه، متيقّناً أن الله سينجيه من كيدهم[(١)].

ومن الممكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بالله وبرسالاته وبيان موقف ومصير المكذّبين بذلك. وإنما اختير اسم «هود» لهذه السورة دون غيره من الأنبياء المذكورين فيها لأكثر من أمرٍ، فأولاً: لأن قصته عرضت مدى تعمّق الشرك في قلوب قومه على نحوٍ لا تجده في باقي قصص السورة، وثانياً: لأن فيها إبراز الموقف الحازم الجازم في فصل هودٍ عليه السلام بين العطف الفطري في قلبه وبين الدعوة إلى التوحيد، إذ برز فيها قوة خطابه مع قومه على نحو لا تجده في باقي قصص السورة، فكانت قصته أوقع أثراً وهولاً في نفوس المكذّبين لسيّدنا محمد ﷺ، وثالثاً: لأن قصته في هذه السورة هي الأكثر تناسقاً مع سياق السورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة المفاصلة بين العطف الفطري في قلب الداعية وبين القوّة في الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات السياقية لقصة هود عليه السلام الذي سمّيت السورة باسمه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة موضوعات رئيسية: مقدّمة تعرض موقف المكذّبين من قريش لدين الله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ مع تثبيت له على دعوة التوحيد، وقصص يبيّن موقف الأقوام السابقة من دعوة التوحيد، وخاتمة مؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٣٣٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٣، ص ٤٩٨، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ١٨٤٤، و ١٩٠١ -١٩٠٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١١، ص ٣١١، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٣، ص ٤٤٦، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ١٥٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٠٨- ١١٣.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٢٤، والقصص: قصة نوح ٢٥- ٤٨، وقصة هود ٥٠-٦٠، وقصة صالح ٦١-٦٨، وقصة إبراهيم ولوط ٦٩-٨٣، وقصة شعيب ٨٤-٩٥، وإشارة إلى قصة موسى ٩٦-٩٩ عليهم السلام جميعاً، والخاتمة: ١٠٠-١٢٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بقصة هود خاصة في هذه السورة: أ) فقوله عليه السلام ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾: ٥٠، لم يتكرر في القرآن، ب) وكذلك قوله ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾: ٥٢، ج) وقوله ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: ٥٦ هنا فقط بهذه الصيغة، د) وهذه السورة لم تذكر براءة نبيّ باللفظ =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرض لموقف المكذّبين المعاصرين للنبيّ ﷺ، مع ردّ لشبهاتهم التي يتذرّعون بها لكي لا يؤمنوا، فذكر السياق المقولة الموحدة للأنبياء جميعاً وبيّنت موقف هؤلاء المكذّبين منها: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، ومن الملاحظ أن دعوة النبيّ ﷺ إلى الاستغفار والتوبة وبيان آثارهما الحميدة، أمر مشترك مع دعوة هود لقومه حينما قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾.

ثم انتقلت المقدّمة إلى بيان موقف المكذّبين المعاصرين للنبيّ ﷺ من دعوته: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

وانتقل السياق إلى ذكر عدد من الأدلة العقلية على وجود الله تعالى مع بيان موقف المكذّبين منها: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾، فالذي خلق السماوات والأرض قادر على بعث الأموات، ومن اللطيف أن قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا...﴾ قد جاء في دعوة هود

= الصريح من الشرك والإفساد إلا هوداً عليه السلام ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾: ٣٥، ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾: ٥٤، هـ) وقول قومه الدال صراحة على شركهم ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾: ٥٤، كذلك لم يتكرر في القرآن، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان ترابط قصته مع مقدّمة السورة وخاتمتها، أ) فانظر في المقدّمة قوله تعالى ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾: ٣، وانظر في قصة هود ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾: ٥٨، ب) وانظر قوله تعالى في المقدمة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾: ٤، وقوله تعالى فيها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾: ٦، وانظر قول هود ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾: ٥٦، ج) وانظر قوله تعالى في الخاتمة ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾: ١٠٢، وقوله تعالى فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾: ١٠٣، وانظر في قصة هود ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾: ٦٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

لقومه أيضاً: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾.

ومن الأمور المذكورة في مقدّمة السورة بيان مصير المكذّبين يوم القيامة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾، ولاحظ التناسق بين هذه الآية وبين التعقيب على قصة هود عليه السلام: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾.

فالمقدّمة التي تعرض موقف المكذّبين مع الرّدّ عليهم، وتدعو النبيّ ﷺ إلى الدعوة إلى التوحيد دون التفات إلى افتراءاتهم الباطلة، متناسقة تماماً مع الدلالات السياقية لقصة هود عليه السلام الذي سمّيت السورة باسمه كما سيأتي بيانه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض عدد من القصص تبيّن تكذيب الأقوام وما حلّ بهم من العذاب، فكانت أولَ قصةٍ قصةُ نوح عليه السلام، لكن التركيز في عرض هذه القصة كان على إبراز مدى تكبّر قوم نوح في تكذيبه دون أن يبرز مدى كفرهم وشركهم، فلم يلفت السياق إلى كفرهم إلا بآية واحدة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلِۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾، واللافت للنظر أن أسلوب نوح عليه السلام في دعوته في هذه القصة كان شديد التلطف، فانظر قوله عليه السلام: (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةٗ مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾، حتى في تهديده بنزول العذاب، جعل الأمر معلّقاً بمشيئة الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وقد تكررت منه لفظة (يا قوم) في هذه القصة ثلاث مرات.

أما القسم الثاني من قصته عليه السلام فقد كان حول إبراز أن الرابطة العقدية أقوى من الرابطة النَّسَبية، وبالتالي تجب المفاصلة بين هاتين الرابطتين ولم ينفع ابنَ نوح نسبُه شيئاً:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. وأعتقد أن مناداة نوح عليه السلام لربّه في شأن هذا الابن الكافر قد أضفى على القصة شيئاً من اللطف والعطف الفطري عند نوح عليه السلام، وهذا أمر مشترك مع قصة إبراهيم عليه السلام كما سيأتي، لكن لا تجد مثل هذا التلطّف والعطف في قصة هود عليه السلام، مما جعلها أدلّ هذه القصص على المحور المذكور.

فقصة نوح عليه السلام متناسقة مع المحور العام للسورة من حيث إبراز مدى التكبّر الذي دفع قومه إلى التكذيب، ومن حيث وجوب تفضيل الرابطة العقيدية على الرابطة النسبية. ولم تُسَمّ السورة باسم نوح عليه السلام؛ لأن قصة هود التالية كانت هي الأكثر صراحة في إبراز الحقيقة الأولى في الدين، ألا وهي التوحيد، وإليك بيان ذلك:

ثم انتقل السياق إلى قصة هود عليه السلام، ويلاحظ في هذه القصة مدى القوة في دعوته قومه إلى التوحيد: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فلاحظ قوله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وذلك بلا شكّ دالّ على مدى عناد قومه وتكبّرهم على الحقّ، ويلاحظ فيها إبراز مدى شرك قومهم حتى اعتقدوا أن آلهتهم لها أثر في الوجود: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾، وهذا التفصيل في عرض الشرك لا تجده في باقي قصص السورة على هذا النحو.

ويلاحظ فيها أيضاً الموقف الفاصل الحازم في التبرّؤ من الشرك، والتوكّل على الله وحده، فانظر قوله عليه السلام: (إني بريء مما تشركون)، وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾، ويلاحظ فيها التعقيب الإلهي المخيف والمهدّد للمكذّبين على

هذه القصة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾. فلاحظ أن السياق قد ذكر العقوبة الدنيوية والأخروية لعادٍ، مما يضفي على القصة جوّ الحزم والجزم.

إن الصرامة والحزم في مواجهة هود عليه السلام لقومه المشركين المفترين، مع بيان قوّة توكّله ويقينه بالله حتى تحدّى وحده قومه جميعاً، والتعقيب الإلهي المهدّد على هذه القصة، كل ذلك جعل هذه القصة هي الأجدر بتسمية السورة من أيّ قصة أخرى ذكرت فيها، وتسميتها بهذه القصة ذات الدلالات المذكورة أوقع أثراً وهولاً في نفوس المكذّبين لدعوة نبيّنا ﷺ. ثم أعتقد أن ما جاء في قصة نوح عليه السلام من سؤاله ربَّه عز وجل حول موضوع هلاك الابن، والرّدّ الإلهي الجازم لذلك السؤال، قد أضفى على قصة نوح عليه السلام جوّ الملاطفة والعطف الفطري حول موضوع المفاصلة بين العقيدة والنسب، ولذلك كانت قصة هود ذات الدلالات الجازمة حول الفصل بين رابطة الأخوّة ورابطة العقيدة هي الأجدر في تسمية السورة.

وانتقل السياق إلى قصة ثمود عليه السلام، ويلاحظ فيها التلطّف في الدعوة، إذ لم يبرز السياق شركهم إلا في آية واحدة: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ثم انتقل السياق إلى بيان أن الذي أنزل عليهم العذاب هو مخالفتهم أمر نبيّهم في عدم التعرّض للناقة بسوء: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾، ولم يكن التعقيب الإلهي على قصته عليه السلام بذات الحدّة والصرامة في التعقيب على قصة هود السابقة، بل اقتصر التعقيب على الدنيا دون التعرّض للآخرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾. فهذه القصة متناسقة مع المحور العام للسورة، لكن ليس بالصراحة والصرامة الواردة في قصة هود عليه السلام.

أما قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام فيظهر فيها التلطّف والعطف على القوم المكذّبين أيضاً، فانظر قول إبراهيم عليه السلام مراجعاً الملائكة في شأن قوم لوط، بعدما بشّروه وامرأته بإسحاق: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾، ثم عرض السياق إهلاك قوم لوط عليه السلام من خلال تعقيب على القصة مهدّد للمكذّبين، ولكنه مقصور على الدنيا دون التعرّض للآخرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾. فالقصة أيضاً متناسقة مع محور السورة، لكن ليس بالصراحة والصرامة الواردة في قصة هود عليه السلام.

وقصة شعيب عليه السلام كذلك ذكرت تصريح قومه بالشرك في آية واحدة فقط: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾، ثم انتقل السياق إلى عرض تكبّرهم الذي دعاهم إلى التكذيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾، واقتصر التعقيب الإلهي على القصة على العقوبة الدنيوية دون أن يتعرّض للآخرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

ويظهر التلطّف في دعوة شعيب عليه السلام لقومه في هذه القصة من خلال عباراته اللطيفة، كقوله ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، وكقوله ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، وقد تكررت لفظة (يا قوم) في قصته ستّ مرات. فسياق هذه القصة أيضاً لم يكن بالحزم والفصل الجازم الذي تراه في قصة هود عليه السلام.

وانتقل السياق إلى إشارة إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون، واللافت أن التعقيب الإلهي على هذه القصة اقتصر على العقوبة الأخروية دون الدنيوية: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾. فهي متّسقة مع المحور العام للسورة، دون إبراز النواحي التي امتازت بها قصة هود.

ثالثاً: وجاءت خاتمة السورة وهي تحوي تأكيد محور السورة مع تناسق واضح بينها وبين قصة هود عليه السلام، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال قوله تعالى الذي ينفي أيّ أثر في الوجود للآلهة المزعومة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾، وذلك متّسق مع زعم قوم هود عليه السلام أن آلهتهم قد اعترته بسوء، وانظر قوله تعالى المبين لشدّة العقاب الإلهي: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، وهو أيضاً متّسق مع وصف عذاب قوم هود بأنه عذاب غليظ، وانظر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾، المتّسق مع قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، وانظر كيف ختمت السورة بقوله تعالى الداعي إلى الإيمان والتوحيد: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، المتّسق مع قول هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾. وهكذا التقت خاتمة السورة ومقدّمتها على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة هود

سورة المفاصلة بين العطف البشري في قلب الداعية، وبين القوة في الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٢٤)

المقدّمة التي تعرض موقف المشركين من قريش المكذّبين بدين الله، وبرسوله ﷺ وتثبّت النبيّ ﷺ على دعوة التوحيد:

- افتتحت السورة ببيان موقف المكذّبين من القرآن الحكيم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.
- وعرضت موقفهم من الآيات الكونية الدالة على التوحيد: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.
- وهم مع ذلك يكذبون بقدرة الله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.
- وقد دعت النبيَّ ﷺ إلى الثبات على دعوة التوحيد دون أن يلتفت لافتراءاتهم الباطلة: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٢٥-٩٩)

قصص يبيّن موقف الأقوام السابقة من دعوة التوحيد:

- ثم عرض السياق قصصاً لأنبياء سابقين يبرز موقف الأقوام من دعوة التوحيد، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام: ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾.
- وعرضت القصة موقف قومه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.
- يلاحظ أن القصة لم تذكر شيئاً عن شرك قومه، ويلاحظ أنها عرضت جانباً من العطف الفطري في قلب نوح على ابنه الذي مات كافراً.
- ثم عرض السياق قصة هود عليه السلام، ويلاحظ فيها القوة في الدعوة إلى التوحيد: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾.
- وقد بيّنت مدى تعمّق الشرك في قلوب قومه على نحو لم يذكر في قصة أخرى في السورة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾.
- وعرضت مدى ثباته على دعوة التوحيد: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ وقد عرضت القصة العقوبة الدنيوية والأخروية لقومه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذه الأمور التي اختصّت بها قصته تؤكّد أن اسمه هو الجدير ليكون اسماً للسورة.
- ثم عرض السياق قصة صالح عليه السلام، ولم تبيّن شرك قومه إلا في آية واحدة: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

■ بيّنت القصة أن الذي أنزل عليهم العذاب هو مخالفة أمر نبيّهم في عدم التعرّض للناقة بسوء، ولم تذكر القصة سوى العقوبة الدنيوية فقط.

■ ثم عرض قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، وقد ظهر فيها العطف الفطري في قلب إبراهيم على قوم لوط: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

■ وقد عرضت أنه نُهي عن ذلك: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾.

■ وقد عرضت القصة إهلاك قوم لوط في الدنيا دون التعرّض للآخرة.

■ ثم عرض قصة شعيب عليه السلام وقد صرحت بشرك قومه بآية واحدة فقط: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾.

■ وبيّنت أن الذي دعاهم إلى التكذيب هو تكبّرهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ﴾.

■ وعرض السياق إشارة إلى موسى وهارون عليهما السلام، ركز السياق فيهما على العقوبة الأخروية لفرعون وقومه أكثر من العقوبة الدنيوية: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ﴾، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠٠-١٢٣)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال نفي أيّ أثر في الوجود للآلهة المزعومة: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾.

■ وأمرت النبيّ ﷺ بفصل العطف البشري على قومه عن القوة في الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾.

■ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

■ وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالثبات على دعوة التوحيد، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

سورة يوسف

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة بسورة «يوسف»؛ لأنها حوت أطول قصة في القرآن عن شخصية واحدة ألا وهو يوسف عليه السلام في سورة واحدة، فكان التفصيل الوارد في سياق عرض هذه القصة دليلاً على أن القصص القرآني هو أحسن القصص، وذلك دالّ على كمال علم الله بأحداث الغيب. ومن أهمّ الدلالات السياقية لاسم السورة بيان قدرة الله التامّة على توجيه أحداث الغيب حسب إرادته العليمة الحكيمة، كما سيأتي بيانه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها سمّيت باسمه؛ لأنها حوت معظم قصته عليه السلام، ولم تتكرّر ـ كقصة ـ في مكان آخر من القرآن، وأن من دلالات سياق قصته بيان تمام علم مُنْزل هذا القرآن بالغيب والشهادة، وشمول قدرته قولاً وفعلاً، وفيها دلالة على عناية الله بأحبابه وتهيئة الظروف لهم بالفرج بعد الشِّدّة، وفيها دلالة التأكيد على توحيد الألوهية والربوبية والحاكمية لله تعالى، وكل ذلك فيه تثبيت لقلب النبيّ ﷺ مما كان يلاقيه في المرحلة المَكّيّة من شدّة عناد قومه، وتصديق له بأنه لا يمكن له الإتيان بمثل هذه القصة التي تمثّل أنموذجاً كاملاً لمنهج الإسلام في الأداء الفني القصصي إلا من طريق الوحي[(١)].

---

(١) ينظر: المهايمي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣٥٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤ ، ص ٣، وقطب، في ظلال=

ومن الممكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تثبيت قلب النبيّ ﷺ والتسرية عنه وتصديقه مما يلاقيه من قومه، من خلال عرض قصة يوسف التي أهمّ دلالاتها ـ فيما أعتقد ـ بيان علم الله التامّ بالغيب مع قدرته التامّة على توجيه أحداثه حسب إرادته العليمة الحكيمة، فكما هو قادر على تحقيق الفَرَج ليوسف وأبيه عليهما السلام، فهو قادر على تحقيق النصر والفَرَج لسيّدنا محمد ﷺ، وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان قدرة الله على تحقيق الفَرَج والنصر من خلال بيان كمال قدرته على توجيه أحداث الغيب حسبما أراد**، وإليك بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات رئيسية: مقدّمة تبيّن فضل القرآن وأن القصص الذي حواه هو أحسن القصص، ثم عرض لقصة يوسف عليه السلام بالتفصيل تبرز كمال قدرة الله على توجيه الأحداث الغيبية حسبما أراد، ثم خاتمة تحوي توجيهات خاصة بالنبيّ ﷺ تبيّن موقفه من قومه، وموقف قومه منه ﷺ[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ثلاث آيات تبيّن صدق النبيّ ﷺ فيما يُبلِّغه عن ربّه

= القرآن، ج ٤، ص ١٩٤٩ - ١٩٦٨، و أ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٣، ص ٥٠٥، والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ١٣٢- ١٤٠، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ١٧٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ١١٤، ود. حسن باجودة، **الوحدة الموضوعية في سورة يوسف**، ص ٥٨ -٧٢، ود. أحمد نوفل، **سورة يوسف: دراسة تحليلية**، ص ٢٨، و ٨٥- ١٢٥.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٣، وقصة يوسف عليه السلام: ٤ - ١٠١، والخاتمة: ١٠٢- ١١١. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بتثبيت النبيّ ﷺ: أ) فقوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: ٣، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الأعراف: ١٠٢، وهود: ١٢٠، وطه: ٩٩، ب) قوله ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾: ٧، ذكر هنا فقط، ج) وكذلك قوله ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾: ١٠٨، د) وقوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾: ١١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان علم الله التام بالغيب وتسيير أحداثه كما يشاء: أ) فسورة يوسف أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات لفظة (الغيب)، انظر الآيات: ٥٢، ٨١، ١٠٢، والآيتيْن: ١٠، ١٥ ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ ولاحظ التاء المفتوحة لا المغلقة، مما يزيد التعمّق في الغيب، ب) قوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: ١٥، ذكر هنا فقط، ج) وكذلك قوله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٢١، د) وقوله ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾: ٥٠، هـ) وقوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾: ٥٢، هـ) وقوله ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾: ٦٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

عزّ وجلّ، فهو قد كان غافلاً عن الأحداث التي ستذكرها السورة بالتفصيل عن قصة يوسف عليه السلام، فثبت إذاً أن إخباره ﷺ عن هذه القصة إنما هو بوحي من ربّ العالمين: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝﴾، وفي ذلك تثبيت لقلب النبيّ ﷺ، ولاحظ قوله تعالى (لعلكم تعقلون) أي: إن هذا الكتاب «من شأنه أن ينبه عقل من قرأه، ولكن فريقاً من الناس لا ينتبهون ولا يعقلون، لا لأن القرآن لا يستطيع أن يوقظ العقل ويهديه، لا ولكن لأنهم هم عطّلوا عقولهم ومَلَكاتهم ومواهبهم»[1]، وقد كانت قصة يوسف التالية أدلّ مثال على أن القصص القرآني هو أحسن القصص حقاً، فهي أطول قصة في القرآن تدور أحداثها حول شخصية واحدة في سورة واحدة، وتبرز مدى العلم الإلهي بدقائق الغيب، وتحكمه المطلق بها وكمال قدرته على توجيهها حيث أراد، وفيما يلي بيان ذلك:

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة يوسف بالتفصيل، والذي لفت نظري خلال قراءة أحداث هذه القصة، أن سياق القصة جميعه مبنيّ على أحداث متعمّقة في الغيب، أعني أنك خلال قراءتك للقصة يسجد قلبك تعظيماً لمن أحاط بكل شيء علماً وأخبرنا بهذه الأحداث المتعمّقة في الغيب، فإن معظم أحداثها قد غاب حتى عن الشخصيات في القصة، وفيما يلي بيان لبعض ذلك:

تبدأ القصة برؤيا، والرؤيا بحدّ ذاتها من عالم الغيب، وأيّ رؤيا؟ إنها رؤيا لطفل، مما يزيد الحدث تعمّقاً في الغيب، لكن هذه الرؤيا كانت هي منشأ القصة ومحور أحداثها، وقد أخبر بها يوسف أباه فاستبشر له بالمستقبل المتألّق. وهذا الحدث ـ إخبار يوسف لأبيه بالرؤيا ـ قد غاب عن إخوته.

وانتقل السياق إلى عرض تغيّظ إخوة يوسف عليه لكونه أحبّ إلى أبيهم منهم، حتى اتفقوا على إلقائه في الجُبّ، وهذا حدث قد غاب عن يوسف وأبيه.

---

(١) د. نوفل، تفسير سورة يوسف، ص ٢٣٣، وقد ذكر أن الحروف المقطعة أول السورة (الر) تشكل نصف حروف كلمة (الرؤيا) التي هي قلب موضوعات هذه السورة، ص ٢٢٤.

ثم انتقل السياق إلى عرض إلحاح الإخوة على أبيهم لينفذّوا خطتهم، وحينما استطاعوا تنفيذها وألقوه في الجُبّ قد أصبح يوسف بالنسبة إليهم من عالم الغيب، فلا يدرون ما حصل له، وقد أكّد هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾. وانظر كيف حفظ الله يوسف عليه السلام في الجُبّ، إن ذلك يدلّ على توجيهه تعالى لأحداث الغيب حسب إرادته.

ولاحظ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، كيف وصف السيارة بلفظ النكرة المفيدة للعموم، وهي هنا تدلّ على زيادة التعمّق في الغيب، وهذا حدث آخر من الأحداث الغيبية التي وجّهها الله؛ لتحقيق الفرج ليوسف عليه السلام.

واللطيف أن السياق قد أخبر حتى عن الثمن الذي بِيْعَ به يوسف، ممّا يؤكّد تمام إحاطة الله بدقائق أحداث القصة الغيبية: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى عرض الحدث الذي حصل بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام، وهو حدث غاب عن كل الشخصيات في القصة ما عداهما، وممّا يؤكّد تعمّق هذا الحدث في الغيب: تغليقها الأبواب، وممّا يؤكّد توجيه الله تعالى للأحداث حسب إرادته: عرض استباقهما الباب، وقدّها قميصَ يوسف، واستدلال الشاهد بهذا القميص على براءة يوسف عليه السلام. فأنت ترى أن عرض الحدث بكل هذه التفاصيل يطلعك على مدى علم الله التامّ بأحداث الغيب وتوجيهه لها حيث شاء بحكمته وعلمه، حتى يتحقّق الفرج ليوسف عليه السلام.

ثم انتقل السياق إلى عرض مقولة النسوة في المدينة، وهو أمر قد غاب عن امرأة العزيز إلى أن انتشر فسمعت به، فهيّأت لهنّ مكيدة قد غاب مغزى امرأة العزيز منها عن النسوة وعن يوسف أيضاً. وانظر كيف أطلعنا الله على هذا الكلام في نفس يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فسبحان من سمع كلام قلب يوسف فأخبرنا به.

وانظر إلى معجزات يوسف عليه السلام التي حصلت معه داخل السجن، وهي تبرز الجانب الغيبي لأحداث القصة أيضا: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، فهو يخبر عن الطعام الذي يأتيهم من الغيب.

وانظر كيف عبّر لهما رؤييهما وهما من عالم الغيب أيضاً: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

ثم انتقل السياق إلى أمر غيبي آخر وهو رؤيا الملك وتعبير يوسف لها، فكان ذلك حدثاً غيبياً من الأحداث التي وجهها الله تعالى لتحقيق الفرج لنبيه عليه السلام: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾. واللافت للنظر أن السياق قد عرض تمنّع يوسف عليه السلام عن الخروج إلا بعد أن تثبت براءته أمام الجميع، ولاحظ قول امرأة العزيز المعترفة أمام الملك، وهو أمر قد غاب عن يوسف: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

فهي صدقت في غيبة يوسف بينما كذبت أمام زوجها وقد كان يوسف حاضراً. ثم إن هذا الحدث ـ كيد امرأة العزيز والنسوة ضد يوسف ـ أمر قد غاب من قبل عن الملك، فأنت ترى أن كل أحداث القصة موجهة من العليم الحكيم سبحانه.

ثم انتقل السياق إلى عرض مشاهد من القصة وقد أصبح يوسف مسؤولاً على خزائن الأرض، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، فقد جاء بهم الله من عالم الغيب، وقد غاب عنهم أن العزيز هو أخوهم يوسف، ولاحظ أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ فقد غاب

عنهم أن بضاعتهم ردّت إليهم، إلى أن اكتشفوا ذلك حينما فتحوا متاعهم. ولما نجحوا في أخذ أخيهم في الرحلة الثانية أصبح أمره بالنسبة ليعقوب عليه السلام من عالم الغيب.

وحينما وصل الإخوة إلى مصر في المرة الثانية، آوى يوسف إليه أخاه وأخبره بحقيقة الأمر، وهذا أمر قد غاب عن الإخوة، ثم غاب عنهم أيضاً أنه جعل السقاية في رحل أخيه حتى يتسنّى له أن يأخذه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾. فأنت ترى أن معظم أحداث القصة يجري بتقدير الله وعلى نحوٍ يغيب حتى عن بعض شخصيات القصة، ويحقّق مشيئة الله تعالى، فسبحان العليم الحكيم الخبير.

وأخبرنا السياق عن مناجاةٍ بين الإخوة غابت عن يوسف وعن يعقوب عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ولاحظ كيف أخبرنا السياق تولّي يعقوب عليه السلام عن أبنائه حينما أخبروه ما حصل مع ابنه الصغير، وقال قولاً غاب عن أبنائه، وجعل شكواه أمراً بينه وبين ربّه تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

وانتقل السياق إلى الرحلة الثالثة لإخوة يوسف عليه السلام إلى مصر، وقد أخبرنا سياق هذه الرحلة عن معجزتين من عالم الغيب اختصّ بهما يوسف ويعقوب عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾.

ثم ختمت القصة بعرض المشهد الذي تحققت فيه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام من عالم الغيب، وقد أشار فيها يوسف عليه السلام إلى فضل الله؛ إذ جعل جميع الأحداث الغيبية في هذه القصة تتجه نحو تحقيق الخير للجميع: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ

وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

ثالثاً: ثم جاءت الخاتمة وهي تحوي تعقيبات على القصة متناسقة أشدّ التناسق معها، وفيها تثبيت وتصديق للنبيّ ﷺ وتسرية عنه مما يلاقيه في دعوته من قومه، ولاحظ أول تعقيب على القصة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، إنه يؤكّد ما برز في سياق القصة من قدرة الله تعالى على توجيه الأمور الغيبية حسب حكمته، وأنّى للنبيّ ﷺ أن يعلم ذلك بالتفصيل الوارد في القصة إلا عن طريق الوحي؟

ثم أعقب السياق بذكر عدد من التوجيهات المسرّية عن النبيّ ﷺ مما يلاقيه من عناد قومه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، وكأن السياق يقول: بعدما بيّنّا للناس في قصة يوسف من علمنا الكامل بالغيب ولطف تقديرنا له، لم يبق لهم حجة لعدم الإيمان، فلا تلم نفسك على مَن لم يؤمن بعد ذلك. فإن وعد الله لك بالنصر سيتحقّق كما تحقّق الفرج ليوسف عليه السلام، ثم انظر كم يتلاءم هذا التعقيب مع ما ورد في القصة من قول يوسف عليه السلام، والذي يبيّن أن الشرك أمرٌ يقع فيه أكثر الناس: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ولاحظ في قول يوسف عليه السلام السابق كيف حذّر من الكفر بالآخرة، وهذا متّسق مع قوله تعالى في الخاتمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾.

أما قوله تعالى مثبّتاً النبيّ ﷺ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾، فلا يخفى ترابطه مع ما جاء في سياق قصة يوسف عليه السلام من تحقّق الفرج ليعقوب عليه السلام باجتماعه مع ابنه بعد طول غياب، ومع مصير يوسف إلى حكم مصر بعد أن ألقي في الجُبّ، وكل ذلك عائد إلى الأحداث الغيبية التي وجّهها الله بعلمه وحكمته حسبما شاء وأراد.

وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ وهو متناسق أشدّ التناسق مع ما فصّلته قصة يوسف من علم الله الكامل بأمور الغيب وتوجيهه لها حسبما أراد. وهكذا تلتقي الخاتمة مع المقدّمة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أجمل دلالة.



سورة يوسف

سورة بيان قدرة الله على تحقيق الفرج والنصر من خلال بيان كمال قدرته على توجيه أحداث الغيب حسبما أراد

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣)

المقدّمة التي تبيّن صدق النبيّ ﷺ فيما يبلغه عن ربّه عزّ وجلّ، من خلال بيان أن ما يوحى إليه من القصص. وأبرزها قصة يوسف. هو أحسن القصص:

- ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾، فالله الذي يوحي إليك هو القادر على تحقيق الفرج والنصر لك كما حقق الفرج والنصر ليوسف عليه السلام، كما ستعرضه هذه القصة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٤-١٠١)

عرض قصة يوسف عليه السلام بتفصيل يبرز كمال قدرة الله على توجيه أحداث الغيب حسبما أراد:

- ابتدأت القصة بقصّ يوسف على أبيه رؤياه، والرؤيا من عالم الغيب، وهذا الحدث قد غاب عن إخوة يوسف.
- تآمر الأخوة على يوسف وأبيه، ولم يعلم يوسف وأبوه بهذه المؤامرة، وقد أفلح الإخوة في اصطحاب يوسف معهم، وألقوه في غيابة الجُبّ، وأصبح بالنسبة إليهم في عالم الغيب.
- ساق الله له سيّارة فأخرجوه وأسرُّوه بضاعة.
- ساق الله له العزيز ليشتريه ويأخذه لامرأته.
- وحين همّت بالفاحشة جعلها الله تقدُّ قميص يوسف من دُبُر؛ ليكون هذا دليل براءته.
- هيّأ الله له حَكَماً من أهلها؛ ليثبت براءة يوسف من تهمة الفاحشة.
- حفظه الله من كيد امرأة العزيز حين دعت النسوة في المدينة، فاستجاب الله دعاءه فسُجن حتى حين.

- عبّر للفتيين رؤييهما في السجن، وكان ذلك سبباً لخروجه من السجن بعد حين.
- رأى الملك رؤياه، وتذكّر حينها صاحب يوسف في السجن أمر يوسف، فاستفتاه في رؤيا الملك.
- كان تعبير يوسف للرؤيا بعد أن غفل عن تعبيرها الملأ، سبباً لحرص الملك على إخراجه من السجن.
- لم يقبل يوسف الخروج حتى تعترف امرأة العزيز مع النسوة بفعلتهن.
- بعدما تحقّقت له البراءة على أتمّ وجه، جعله الملك على خزائن الأرض؛ ليكون هذا سبباً لاجتماعه بإخوته.
- طلب منهم في الرحلة الأولى أن يأتوا بأخٍ منهم من أبيهم ليزدادوا كَيْلَ بعير.
- كاد الله له في رحلتهم الثانية بأن جعل يوسف السقاية في رحل أخيه ليتسنّى له أخذه منهم.
- بيّن لهم في رحلتهم الثالثة أنه أخوهم، وأعطاهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم، فارتدّ بصيراً.
- جاؤوا جميعاً مع أبيهم في الرحلة الرابعة وقد تحقق الفرج للجميع، ورفع أبويه على العرش، وخرّ الأخوة ليوسف سجداً، وتحققت رؤياه بعد أن وجّه الله أحداث الغيب حسبما أراد.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠٢-١١١)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- حوت الخاتمة تثبيتاً وتصديقاً للنبيّ ﷺ وتسرية عنه، ببيان قدرة الله على تحقيق الفرج والنصر له كما حقق الفرج ليوسف من قَبْل.
- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.
- ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان صدق النبيّ ﷺ فيما يوحي إليه ربّه، ختمت بالتأكيد على الموضوع ذاته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

سورة الرعد

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن ظاهرة الرعد الكونية المعروفة، التي تكون مصاحبة للبرق، وينتج عنهما هطول الغيث رحمة للعباد، وسياق السورة أخبر عن الرعد بأنه أحد المخلوقات التي تسبّح بحمد الله تعالى، وأنه قد يكون جندياً من جنوده إذ قد يكون صاعقة يصيب الله بها من يشاء، وإخبار السورة عن الرعد تدلّ على أنه ظاهرة كونية دالّة على رحمة الله تعالى، كما أنها دالّة على قدرته تعالى على العقاب، فاسم السورة يدعو إلى الإيمان بخالق الرعد سبحانه وتعالى والخوف من عقابه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات الكون وآفاقه، وتقرّب لمدارك البشر شيئاً من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه، وفي السورة عرض لصور متقابلة من المشاهد الطبيعية من سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، ثم تطّرد هذه التقابلات لتنسجم مع التقابل المعنوي، فيتقابل الاستعلاء على العرش مع تسخير الظواهر الكونية، ويتقابل الخوف مع الطمع بشأن البرق والرعد، وتتقابل دعوة الحقّ لله، مع دعوة الباطل للشركاء، فتسمية السورة بالرعد ذي الصوت المرعب المصاحب لنزول الغيث، يشبه القرآن الذي هو حقّ في نفسه، الذي في اتّباعه فيه خير الناس[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٣٧٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص ١١٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٠٣٩- ٢٠٤١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٣، ص ٧٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان الدلالة الساطعة للآيات الكونية والآيات القرآنية على قدرة الله تعالى، ولما كان الرعد هو أكثر الآيات الكونية المذكورة في السورة سطوعاً في الدلالة على رحمة الله تعالى وعقابه، سميت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان الدلالة الساطعة للآيات الكونية والآيات القرآنية على قدرة الله تعالى**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها مقدّمة تعرض بإيجاز الدلالة الواضحة للآيات القرآنية والكونية على قدرة الله تعالى، وثانيها عرض موقف الكافرين ودعوتهم إلى الإيمان والتوحيد من خلال عرض بعض الآيات الكونية الساطعة الدلالة على قدرة لله، وثالثها دعوة الكافرين للإيمان والتوحيد من خلال بيان سطوع دلالة الآيات القرآنية الدالّة على قدرة الله تعالى، مع بيان مصير الفريقين يوم القيامة، ورابعها الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

= **التفسير الموضوعي**، م ٣، ص ٥٦٣- ٥٦٧، ومحمد قطب، **دراسات قرآنية**، ص ١٥٢، ومحمد بن سعد الدبل، **النظم القرآني في سورة الرعد**، ص ١١٧- ١٢١. ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ١٨٩، ١٩٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٢١- ١٢٧.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، والدعوة إلى الإيمان من خلال الآيات الكونية: ٥- ١٧، ومن خلال الآيات القرآنية: ١٨- ٣٦، والخاتمة: ٣٧- ٤٢، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بسطوع دلالة الآيات القرآنية على قدرة الله تعالى، أ) فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ١، دون ذكر وصف للكتاب لم يتكرر في القرآن على هذا النحو، وكأن دلالتها ساطعة كآية الرعد وليست بحاجة إلى وصف، وانظر قريباً منه في سورة الحجر: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾: ١، وانظر أيضاً في سورة النمل: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: ١، وسورة **الرعد** الوحيدة المختصة بقوله﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾: ١، إذ لم يتكرر بذات الصيغة، وبإمكانك أن تضيف أن سورة الرعد الوحيدة التي اختصت بعبارة: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: ٣٨، علماً بأنه في القرآن آيات تدل على هذا المعنى بصيغ مختلفة، كما وأن سورة الرعد الوحيدة المختصة بعبارة: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ٣٩ بهذه=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان سطوع دلالة الآيات القرآنية والآيات الكونية على قدرة الله تعالى بشكل موجز: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾، فلاحظ الإشارة إلى الآيات القرآنية بـ «تلك» المفيد للتعظيم، وبيان أنها الحقّ من الله، فهي

= الصيغة، بينما ذكرت عبارة ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في سورة آل عمران: ٧، والزخرف: ٤، كما وأن سورة الرعد الوحيدة المختصة بعبارة ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: ٤٣، وهي عبارات متلائمة تماماً مع علم الله التام بقدر الماء الهاطل من السماء المصحوب بالرعد، وبإمكانك أن تضيف أيضاً أنها وسورة آل عمران أكثر سورتين تكرر فيهما ذكر الحساب المنسوب لله تعالى، انظر في سورة الرعد: ١٨، ٢١، ٤٠، ٤١، وآل عمران: ١٩، ٢٧، ٣٧، ١٩٩، ب) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: ٣١، ج) والوحيدة المختصة بعبارة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: ٣٧، ثانياً: ومنها ما هو متعلق بسطوع دلالة الآيات الكونية على الله تعالى، أ) فهي الوحيدة التي اختصت بذكر أن الرعد يسبّح بحمد ربّه، وذلك في الآية: ١٣التي اختير منها اسم السورة، علماً بأن رقم السورة: ١٣، وهي في الجزء: ١٣، ولم يذكر الرعد في موضع آخر إلا في سورة البقرة: ١٩، وهما السورتان الوحيدتان المختصتان بذكر الصواعق، ب) وهي الوحيدة المختصة بقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾: ٤، ولا تخفى علاقتها بالماء الهاطل من السماء المصحوب بالرعد، ج) وهي واحدة من السور التي تكرر فيها ذكر «الماء» دون إضافة لضمير بأكبر عدد: ٤، ١٤، ١٧، وانظر سورة البقرة: ٢٢، ٧٤، ١٦٤، وهود: ٧، ٤٣، ٤٤، د) وهي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ۝١٥﴾: ١٥، وهي مشابهة لتسبيح الرعد، وانظر قريباً منها في سورة النحل: ٣٩، والحج: ١٨، ثالثاً: ومنها ما هو متعلق ببيان موقف الكافرين، أ) فهي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عنهم: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ٥، والتعجب منهم مناسب لموقفهم بعد سطوع دلالة الآيات على الله، ب) وهي واحدة من السور التي تكرر فيها تشبيه الكافر بالأعمى: ١٦، ١٩، وانظر في سورة البقرة: ١٨، ١٧١، والأنعام: ١٠٤، ٥٠، والمائدة: ٧١ (مرتين)، والحج: ٤٦ (مرتين)، وفصلت: ١٧، ٤٤، ج) وهي الوحيدة التي تكرر فيها قول الكافرين: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: ٧، ٢٧، وكأنهم لم يكتفوا بما في هذه السورة من الآيات الساطعة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ساطعة الدلالة على عظمة الله، ولاحظ الجمع بين الآيات القرآنية والكونية بقوله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، ولاحظ ذكر الأنهار، وبيان أن الشجر يسقى بماء واحد، وكلها آيات كونية دالّة على الله، ومتعلقة بالرعد الذي يصاحب هطول الغيث من السماء.

ثانياً: وبعد هذا البيان الموجز لدلالة الآيات بنوعيها على قدرة الله تعالى، انتقل السياق إلى عرض موقف الكافرين العجيب من هذه الآيات بالرغم من سطوع دلالتها، ثم دعوتهم إلى الإيمان من خلال مزيد التفصيل في عرض مظاهر كونية أخرى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾، وحقاً إن موقفهم لعجيب، إذ لم تكفهم آية إخراج الزرع من الأرض للدلالة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ، وذكرها مناسب لعلم الله الحفيظ بقدر الماء الهاطل من السماء المصحوب بالرعد: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾، وقد أكد هذا ذكر آيتي البرق والرعد بعدها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾، فكما هو عالم بما في الأرحام، وبالناس مهما اختلفت أحوالهم، فهو عالم أيضاً بقدر الماء الهاطل من السحاب الثقال المصحوبة بالبرق والرعد، وعالم بمجادلة أهل الباطل في الله.

ولاحظ بيان أن الرعد يسبّح بحمد الله تعالى، كما أنه جندي من جنود الله، فهو يبشّر بالخير أحياناً، وقد يكون صاعقة يصيب الله بها من يشاء أحياناً أخرى، فذكر الرعد في هذا السياق أشدّ دلالة على الله وأكثر ترهيباً للكافرين من البرق، ولذلك اختصّ الرعد باسم السورة دون البرق، يؤكّد ذلك ما يصحبه من الصوت الهادر كما لا يخفى.

واللافت للنظر أن السياق يدعو إلى التوحيد بذِكْر مثَلَيْن متعلّقين بالماء أيضاً: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾، فالواجب على العاقل الذي يرى بعينيه الماء الذي ينزله الله من السماء، أن يخصّ الله وحده بالعبادة، لا أن يعبد ما لا يملك نفعاً ولا ضرًّا.

وانظر هذا المثل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ ذكر أن الله هو الذي ينزل الماء الذي يبشّر به الرعد، ولاحظ ذكر أن الماء يسيل بقدر الأودية، وهذا يدلّ على علم الله الحفيظ، وأعتقد أن هذا المَثَل المتعلّق بظاهرة الغيث الكونية، مترابط مع الآيات القرآنية، فهي الحقّ الذي يثبت في الأرض وينفع الناس، ومجادلة أهل الباطل هي الزبد الذي يذهب جفاء.

فسياق السورة كما ترى يدعو إلى التوحيد من خلال عرض الآيات الكونية الدالّة على قدرة الله، والمتعلّقة باسم السورة تعلّقاً ظاهراً.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى الدعوة إلى التوحيد من خلال النوع الثاني من الآيات، وهو الآيات القرآنية، فابتدأت بذكر موقف الناس ومصيرهم من هذه الآيات: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾، وعرضت مصير المؤمنين الذين يعملون بما جاء فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾، وعرضت مصير الكافرين الذين أعرضوا عنها رغم سطوع دلالتها على الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾.

وانظر هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾، أي: لو كان من شأن القرآن أن يسيّر الجبال ويقطّع الأرض ويكلّم الموتى فيتّعظوا، لكان

هذا القرآن كفيلاً بذلك، ولكن شأنه أن يدلّ على الله بما فيه من الترغيب والترهيب كما أراده الله، وهو بذلك يشبه آية الرعد في الدلالة على رحمة الله وعقابه، ولاحظ ذكر القارعة، وهي تذكرنا بالرعد الذي قد يكون صاعقة أو قارعة تصيب الكافرين.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات القرآنية، إذ بيّنت موقف أهل الكتاب منها: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾، وقد أزالت الفريات المثارة حول الرسول ﷺ، فبيّنت أنهم من البشر يتزوّجون ويكون لهم ذرية، وبذلك تبقى حجة الآيات القرآنية ساطعة.

وكما افتتحت السورة ببيان أن أكثر الناس لا يؤمنون بالرغم من دلالة الآيات القرآنية والكونية على قدرة الله تعالى، ختمت بدعوة الناس إلى النظر في عاقبة المكذّبين من قبلهم، وببيان أن الله عالم بمكر المكذّبين المصرّين على اتّهام الرسول ﷺ المؤيّد بالآيات القرآنية الساطعة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون الرعد أبرز الآيات الكونية المذكورة في السورة دلالة على قدرة الله، وأكثرها ترهيباً للكافرين[1].

(١) قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ له تفسيران، أحدهما لغويّ يدلّ على ما يُنقص اللهُ من أرض المشركين بفتح المسلمين لها، كما قال الزمخشري في **الكشاف** ج، ٢، ص، ٥١٤، والثاني علميّ يدلّ على حقيقة انبعاج الأرض عند الاستواء قليلاً وتبطحها عند القطبين نتيجة دورانها حول محورها، الذي ينشأ عنه قوة ضغط مركزية تدفع عند خطّ الاستواء بقوّة أقلّ من قوّتها عند محور دوران الأرض، أو أنها تشير إلى انكماش الأرض من جميع أطرافها باستمرار عن طريق ما تفقده من هباءات الغبار والكثير من الغازات الخفيفة المنطلقة من فوهات البراكين عبر ملايين السنين. وهو قول أ. د زغلول النجار على موقع اليوتيوب الالكتروني، وقد ذكر أوجهاً أخرى. وبذلك نستطيع أن نعتبر الآية مشيرة إلى آية كونية أخرى دالّة دلالة ساطعة على الله تعالى.

سورة الرعد

سورة بيان الدلالة الساطعة للآيات الكونية والآيات القرآنية على قدرة الله تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تعرض بإيجاز الدلالة الواضحة للآيات القرآنية والآيات الكونية على قدرة الله تعالى:

■ افتتحت السورة ببيان دلالة آيات القرآن على قدرة الله تعالى الذي أنزل هذه الآيات: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

■ ثم أعقبت المقدّمة ذلك ببيان دلالة آيات الكون على الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٧)

عرض موقف الكافرين ودعوتهم إلى الإيمان من خلال ذكر بعض الآيات الكونية الساطعة الدلالة على قدرة الله تعالى:

■ عرض السياق موقف الكافرين العجيب من الكفر بالله تعالى رغم سطوع دلالة آياته: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾.

■ ثم عرض السياق بعض مظاهر علم الله الحفيظ في الكون، ليدعو الكافرين إلى الإيمان بالله الخالق العظيم.

■ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

■ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

■ إن عرض هذه المظاهر متلائم مع علم الله التامّ بكميات الماء الهاطل من السماء المصحوب بالبرق والرعد، وكيفية تصريفه في البلاد والعباد.

■ ثم ذكر السياق مثلَيْن يدعوان إلى توحيد الله عزّ وجلّ متعلّقَيْن بالماء أيضاً: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

■ وشبّه المثل الثاني آيات الحقّ التي ينزلها الله بما يمكث في الأرض مما ينفع الناس، وشبّه الباطل بالزبد الذي يذهب جفاءً مما يحمله السيل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٨-٣٦)

دعوة الكافرين إلى الإيمان والتوحيد من خلال بيان سطوع دلالة الآيات القرآنية على قدرة الله تعالى:

■ عرض السياق مصير الكافرين بهذه الآيات: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

■ وعرض مصير المؤمنين بها العاملين بما جاء فيها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

■ ثم بيّن السياق دلالة الآيات القرآنية الساطعة على الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٧-٤٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال الآيات القرآنية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن أكثر الناس لا يؤمنون بالرغم من دلالة الآيات القرآنية والآيات الكونية على قدرة الله تعالى، ختمت بدعوة الناس إلى النظر في عاقبة المكذّبين وبيان أن الله عالمٌ بمكر المكذّبين بالآيات الساطعة التي أيّد الله بها رسوله ﷺ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

سورة إبراهيم

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «إبراهيم» لأنها تعرض جانباً من قصته عليه السلام يبرز فيه توحيده لله عزّ وجلّ، ودعاؤه لله أن يجنّبه وبَنِيْه عبادة الأصنام، ودعاؤه لله أن يجعل ذريته مقيمين للصلاة، ويبرز شكره وحمده لله تعالى على أن وهب له على الكِبَر إسماعيل وإسحاق، فالدلالة السياقية لهذه القصة تدلّ على أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ، فاسم السورة يدعو إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في التوحيد والشكر لله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة ومقصودها هو التوحيد، وأن قصة إبراهيم أدلّ ما فيها على ذلك، وذكروا أن ما جاء في سياق قصته عليه السلام في السورة من نبذ الشرك والأصنام، والدعاء بإقامة الصلاة وصلاح الذرية، وإظهار الشكر لله على نعمه، إنما هي معانٍ تناولتها

السورة بشكل واضح. وتسمية السورة بأبي الأنبياء المبارك الشاكر الأوّاه المنيب «إبراهيم» عليه السلام، قد أضفى على السورة ظلالاً من هذه الصفات، وفي السورة حقيقتان متناسقتان مع هذه الظلال: أولهما حقيقة وحدة الرسالة والرسل ووحدة دعوتهم وموقفهم في مواجهة الجاهلية المكذّبة على مدى الأزمان، وثانيهما حقيقة نعمة الله على البشر ومقابلة الناس لها بالجحود والكفران بدل الشكر(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ، من خلال بيان أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر، ومن خلال بيان موقف الكافرين ومصيرهم في الدنيا والآخرة، وإنما اختير اسم «إبراهيم» لهذه السورة؛ لأن قصته عليه السلام المذكورة فيها أدلّ ما في السورة على هذا المحور، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجد في تسمية السورة بـ «إبراهيم» أبلغ رَدّ على المشركين في قريش الذين كانوا يزعمون كذباً انتماءهم الديني له عليه السلام.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الاقتداء بدعوة الأنبياء جميعاً وهي التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات سياق قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة التي سمّيت باسمه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام، أولها: مقدّمة تدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ وشكره على نعمه، وثانيها: بيان أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر وعرض موقف الأمم من ذلك ومصيرهم الدنيوي والأخروي، وثالثها: مَثَلان يبيّنان حال الموحّدين وحال المشركين مع تعقيب يدعو إلى التوحيد والشكر، ورابعها: قصة إبراهيم

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٣٨٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص ١٦٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٠٧٧ -٢٠٨٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٣، ص ١٧٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٤، ص ١-٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ١٩٣، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ٢٩٥- ٢٩٨، ووادي، ومهنا، من **دلالات أسماء السور**، ص ١٢٨ -١٣٣.

الموحّد الشاكر، وخامسها: خاتمة تؤكّد ما سبق[١].

أولاً: جاءت المقدّمة داعية إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وبيان وجوب شكره على نعمه التي من أجلّها إرسال الرسل ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ② ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ③ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ④ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ⑤﴾، فانظر أولاً كيف بيّن السياق أن معنى النور هو اتّباع صراط الله مالك السماوات والأرض، وانظر ثانياً الأمر

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وبيان دعوة الأنبياء الواحدة: ٦- ٢٣، والمَثَلان مع التعقيب: ٢٤- ٣٤، وقصة إبراهيم عليه السلام: ٣٥- ٤١، والخاتمة: ٤٢- ٥٢. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالدعوة إلى التوحيد والشكر: أ)فهي من أكثر السور التي ذُكر فيها مشتقات الجذر (شكر)، انظر الآيات: ٧ (شكرتم)، ٣٧ (يشكرون)، ٥ (شكور)، ب) قوله تعالى ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾: ٧، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الزمر: ٧، ج) وكذلك قوله ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: ١٠، د) وكذلك ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾: ١٢، يقابله حسرة الكافرين يوم القيامة ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾: ٢١، هـ) وتشبيه كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة ذكر هنا فقط: ٢٤، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بموقف الكافرين وبيان مصيرهم: أ) فقوله تعالى عنهم ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾: ٩، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ب) وكذلك قول الشيطان يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾: ٢٢، ج) وكذلك قوله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ㉘﴾: ٢٨، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة البقرة: ٢١١، د) وتشبيه كلمة الشرك بالشجرة الخبيثة لم يذكر إلا هنا: ٢٦، هـ) وقد ذُكر فيها أيضاً مشتقات الجذر (كفر) بصيغ مختلفة، انظر الآيات: ٧ (كفرتم)، ٢٢ (كفرتُ)، ١٣، ١٨ (كفروا)، ٨ (إن تكفروا)، ٢٨ (كفراً)، ٢ (الكافرين)، ٣٤ (كفّار). ثالثاً: ومنها أمور مختصة بإبراهيم عليه السلام: أ) فقوله ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ㉟ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾: ٣٥، ٣٦، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾: ٣٩، ج) وقوله ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾: ٤٠، وأما قوله ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾: ٣٧، فقد ذكر هنا وفي سورة البقرة لكن دون ذكر الشكر ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: ١٢٦. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الموجَّه إلى موسى عليه السلام بإخراج قومه من الظلمات إلى النور، وهي نفس الغاية التي أنزل من أجلها الكتاب على سيّدنا محمد ﷺ، فالغاية من دعوة الأنبياء واحدة. ولاحظ بيان أن الذي يتّعظ بآيات الله هم كل صَبّار شكور، وهذا يؤكّد المحور المذكور.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التأكيد على أن توحيد الله تعالى وشكره هو دعوة الأنبياء جميعاً، فانظر قول موسى عليه السلام لقومه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾، وانظر الدعوة الموحّدة للأنبياء في التاريخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

وانظر كيف كانت عاقبة الكافرين في الدنيا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

فأنت ترى أن التركيز في السياق على وحدة دعوة الأنبياء جميعاً مع بيان موقف الكافرين ومصيرهم، وفي ذلك تهديد لكفار قريش الذين يزعمون الانتماء الديني إلى إبراهيم عليه السلام.

ولقد كان من المناسب ذكر موقف ومصير العدوّ الأول للبشرية، الذي طالما أشركه الناس في طاعته مع الله تعالى، وطالما صدَّ الناس عن شكر ربهم سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى ذكر مَثَل كلمة التوحيد، ومثل كلمة الشرك والكفر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، وفي ذلك دعوةٌ لالتزام منهج التوحيد فإن ثماره لا تأتي إلا بخير، ونبذ الشرك والكفر فإنهما لا يأتيان إلا بِشرّ.

ويؤكّد ذلك التعقيب على هذَيْن المَثلين بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾. ولاحظ التهديد في ذكر مصير من كفر بنعمة الله وجحدها: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾. وانظر الأمر الموجَّه للفئة الأخرى من الناس وهم من التزموا بمنهج التوحيد: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾. وهو أمر متناسق مع ما سيأتي في قصة إبراهيم عليه السلام من الدعاء بالتزام عبادة الله تعالى وحده وإقامة الصلاة. ومعلوم أن إقامة الصلاة والإنفاق سرًّا وجهراً يعتبران من المظاهر العملية لشكر الله.

وذكر السياق عدداً من نِعَم الله تعالى على البشر، وهي نِعَم تستوجب الشكر، فالله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات، وسخّر الفلك في البحر، وسخّر الأنهار، وسخّر الشمس والقمر، وسخّر الليل والنهار، وانظر هذه النعمة التي تجد صداها في قلب كل إنسان: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾. فالواجب على الإنسان أن يكون موحّداً لربّه شاكراً لنعمائه، لا أن يكون كفوراً أو مشركاً.

رابعاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام، الموحّد الشاكر، وفي ذلك توجيه إلى وجوب اتخاذه عليه السلام قدوة للبشر، لا أن يكونوا ظلومين كفّارين كما جاء الوصف في الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، ولاحظ كيف تبرّأ عليه السلام ممن حاد عن درب التوحيد، وكيف بيّن أن من ينتسبون إليه حقيقة هم أهل التوحيد فقط.

وعرضت القصة شكر إبراهيم عليه السلام على نعِمَ الله، ودعاءه بإقامة الصلاة، وهي الجانب العملي التطبيقي لعقيدة التوحيد والشكر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾. وهي دعوة متناسقة مع ما سبق من سياق السورة من دعوة المؤمنين إلى التزام مبدأ التوحيد والشكر، لا الجحود والكفر، ولاحظ دعوته بالمغفرة لكل من التزم الإيمان بالتوحيد إلى يوم القيامة، ألا فجزاه الله ونبيّنا محمداً ﷺ خيراً عن كل فردٍ منهم.

خامساً: بقيت الخاتمة، وتجد فيها التأكيد على ما سبق من وجوب التزام التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ، وذلك ببيان مصير الظالمين الذين قابلوا نعمة الله عليهم بالجحود والكفران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

وانظر كيف أكّدت الخاتمة حقيقة انتصار الله لأهل التوحيد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾، وحقيقة انتصار الله لأهل التوحيد مذكورة أول السورة[(١)].

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد، ختمت كذلك بالدعوة إلى التوحيد: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾، وهكذا التقت المقدّمة والخاتمة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

---

(١) ينظر الآيات: ١٣- ١٧.

سورة إبراهيم

سورة الدعوة إلى الاقتداء بدعوة الأنبياء جميعاً وهي التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تدعو إلى توحيد الله وشكره على نعمه:

- افتتحت السورة ببيان أن الغاية من إنزال القرآن هي دعوة الناس إلى التوحيد وشكر الله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾.
- وحذّرت الكافرين الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الإيمان بالله وشكره.
- وبيّنت أن دعوة موسى عليه السلام أيضاً كانت تقوم على توحيد الله وشكره: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٢٣)

بيان أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر، وعرض موقف الأمم الأخرى من ذلك ومصيرهم الدنيوي والأخروي:

- ذكر السياق قول موسى عليه السلام داعياً قومه لشكر الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾.
- ثم بيّن السياق أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر لله عز وجل: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.
- وبيّن السياق عاقبة الكافرين في الدنيا فذكر قول الله لأنبيائه ورسله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾.
- وبيّن عاقبة الكافرين في الآخرة: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٤-٣٤)

مَثَلان يبينان حال الموحّدين الشاكرين وحال المشركين مع تعقيب يدعو إلى التوحيد والشكر:

- بيّن السياق أن المؤمنين الشاكرين كالشجرة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.
- وبيّن السياق أن المشركين كالشجرة المقطوعة لا خير فيها: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.
- ثم عقّب السياق على المثلَيْن بتهديد من كفر بنعمة الله وجحدها: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.
- ثم دعا المؤمنين للعمل الصالح الذي هو مظهر عملي لشكر الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.
- ثم ذكر السياق بعضاً من الظواهر الكونية التي تستوجب شكر الخالق المنعم، فالله خالق السماوات والأرض وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات، وهو الذي سخّر الفلك في البحر، وسخّر الأنهار، وسخّر الشمس والقمر، والليل والنهار: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٥-٤١)

قصة إبراهيم الموحّد الشاكر الذي ينبغي أن يقتدي به المؤمنون لأنه أبو الأنبياء:

- بيّنت القصة أنه كان موحّداً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.
- وأنه كان شاكراً لنِعَم الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.
- وأنه يعمل العمل الصالح الذي هو مظهر شكره لخالقه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾.
- وأنه يحبّ المؤمنين ويدعو لهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

الموضوع الخامس: (الآيات: ٤٢-٥٢)

الخاتمة التي تؤكّد ما سبق:

- أعادت التذكير بمصير الظالمين الذين قابلوا نعمة الله بالجحود والنكران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾.
- وأعادت التحذير من عدم الإيمان بدعوة الأنبياء: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.
- وأعادت التذكير بانتصار الله لأهل التوحيد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.
- وكما افتتحت بالدعوة إلى التوحيد والشكر، ختمت ببيان أن أولي الألباب هم من يستجيبون لهذه الدعوة: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

سورة الحِجْر

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الحاء والجيم والراء أصل مطّرد، وهو المنع والإحاطة على الشيء»[(١)]، وبناءً على ذلك يكون من أهمّ الدلالات اللغوية لوصف ثمود بأنهم أصحاب الحِجْر: المبالغة في الحفظ والمنعة والأمان، وكأنهم ظنوا أن بيوتهم التي نحتوها في الجبال ستحفظهم وتمنعهم وتكون أماناً لهم من عذاب الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم سورة «الحجر» ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للآيات الواضحة الدالّة على الله، وقصة الحجر تدلّ على ذلك، فقد أتتهم آيات واضحة فأعرضوا عنها حتى حاق بهم العذاب، وذكروا أن من مقاصد هذه السورة أيضاً إبراز طبيعة المكذّبين بهذا الدين، ودوافعهم الأصيلة للتكذيب، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظرهم، واستدلوا على ذلك بما تحويه السورة من صور متعدّدة لإهلاك المكذّبين، بالإضافة إلى ما فيها من إنذار ملفَّعٍ بظلّ من التهويل يزيد جوّها رهبة وتوقّعاً للمصير، وبما تحويه من آيات كونية تبرز عظمة الله تعالى وقدرته، وبما فيها من عرض بعض مشاهد يوم القيامة، وقصة الحجر تمثّل أنموذجاً من المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين[(٢)].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٢٩٧.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٣٩٤، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص ١٩٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢١٢١- ٢١٢٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٤، ص ٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، =

ويمكن أن ينبني على ما سبق من الأقوال بالقول بأن محور السورة هو: بيان أنه لا حافظ ولا مؤمِّن للكافرين والمكذّبين من بأس الله تعالى، وإنما الحفظ والأمان في الدنيا والآخرة يكون لأوليائه تعالى الذين التزموا بمنهجه المحفوظ، وإنما سمّيت هذه السورة بـ «الحِجْر» لأن الدلالات اللفظية والسياقية لهذه القصة مع التعقيب الإلهي عليها أدلّ ما في السورة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله، وأن الحفظ إنما يكون بالتزام منهج الله المحفوظ.**

وبتأمّل موضوعات السورة تظهر أوجه العلاقة بينها وبين دلالات اسم السورة، وذلك بأنك تجد دلالة موضوع الحفظ بصوره المختلفة من أول السورة إلى آخرها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: مقدّمة تهدّد المكذّبين ببيان أن لا حافظ لهم من بأس الله، وأن الحفظ والأمان باتّباع منهجه، ثم عرض قصصي متنوّع يبرز حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه، مع بيان وقوع العذاب بالمكذّبين الذين لم يحفظهم منه شيء، وخاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

= **التفسير الموضوعي**، م ٤، ص ٩٥ و ٩٦. ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٣٣٣- ٣٣٥، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٢٥، والعرض القصصي شمل كلًا مما يلي: قصة آدم مع تعقيب: ٢٦- ٥٠، وقصة إبراهيم ولوط: ٥١- ٧٧ عليهم السلام جميعاً، وإشارة إلى أصحاب الأيكة: ٧٨ و٧٩، وإشارة إلى أصحاب الحجر: ٨٠ - ٨٤، والخاتمة: ٨٥- ٩٩. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها وسورة الأنبياء الوحيدتان اللتان تكرر فيهما نسبة الحفظ إلى الله، لكن في الحجر كان التعبير صريحاً في ذلك: ٩ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾، ١٧ ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، بينما في الأنبياء: ٣٢ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾، ٨٢ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾، وبإمكانك أن تضيف أنها أكثر سورة تكررت فيها كلمة «معلوم» للدلالة على كمال علم الله تعالى: ٤ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾، ٢١ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾، ٣٨ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾، وثانياً: ومما يدل على حفظ الله تعالى لمن التزم بمنهجه في هذه السورة أ): قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: ٤٢، لم يذكر إلا هنا وفي الإسراء: ٦٥، وقريب منه في سورة النحل: ٩٩، ب) وكذلك قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾: ٩٥، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في البقرة: ١٣٧، وفي الزمر: ٣٦، وثالثاً: ومما يدل على أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله في هذه السورة أ): قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾: ٤، لم يذكر إلا =

أولاً: جاء في المقدّمة بيان مهدّد للكافرين يثبت أنه لن يحفظهم من بأس الله شيء، إلا إذا تابوا وآمنوا والتزموا منهج الله تعالى المتمثّل في القرآن: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ

= هنا بهذه الصيغة، ب) وقوله ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾: ٨، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الأنعام: ٨، ج) وقوله تعالى عن أصحاب الحجر: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: ٨٤، وقد ذُكرت هذه العبارة في سورة الزمر: ٥٠، وغافر: ٨٢ ولكنها كانت فيهما جزءاً من آية وليس آية كاملة كما في الحجر، ورابعاً: لم تتكرر لفظة (آمنين) إلا في هذه السورة وقد كان ذلك في موضعَيْن، واللافت للنظر أن الموضعَيْن جاءا بصورة تقابلية: فقال عن أصحاب الجنة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: ٤٦، وقال عن أصحاب الحجر: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾: ٨٢. ينظر: عبد الباقي: **المعجم المفهرس**، وكأن السورة تقول: إن الذي حفظ السماء وحفظ كتابه هو القادر على أن ينزل على المكذبين عذاباً لا حافظ لهم منه، وأن الأمان إنما يكون باتباع منهجه تعالى، وأن من حاد عن منهجه لا أمان له، وذلك يؤكد المحور المذكور.
ويلاحظ أمر آخر: وهو أن محور هذه السورة قريب جداً من محور سورة الكهف، فالمحور في سورة الكهف حول حفظ من لاذ بالله كأصحاب الكهف، وأما سورة الحجر فمحورها بيان أن لا حفظ لمن نأى عنه تعالى كأصحاب الحجر، فالسورتان تعطيان صورتَيْن متقابلتَيْن، وإليك بعض أوجه التناسق بين السورتين على نحو يؤكد المحور الخاص لكل سورة منهما: أولاً: ذكر الكتاب في أول آية منهما، ثانياً: مشتقات الجذر «حكم» جاء مرة في الحجر: ٢٥، ومرة في الكهف: ٢٦، وثالثاً: عبارة «سنة الأولين» ذكرت مرة في الحجر: ١٣، ومرة في الكهف: ٥٥، ورابعاً: كلمة «الرياح» ذكرت مرة في الحجر: ٢٢، ومرة في الكهف: ٤٥، وخامساً: كلمة «الإنسان» ذكرت مرة في الحجر: ٢٦، ومرة في الكهف: ٥٤، وسادساً: كلمة «الجانّ» مرة في الحجر: ٢٧، و«الجنّ» مرة في الكهف: ٥٠، وسابعاً: مشتقات الجذر «هلك» ذكرت مرة في الحجر: ٤، ومرتين في الكهف في نفس الآية: ٥٩، وثامناً: كلمة «بشر» ذكرت مرتين في الحجر: ٢٨، ٣٣، ومرة في الكهف: ١١٠، وتاسعاً: كلمة «إبليس» ذكرت مرتين في الحجر: ٣١، ٣٢، ومرة في الكهف: ٥٠، وعاشراً: انظر الآية ٢٢ في الحجر ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وانظر الآية ٤٥ في الكهف ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وأحد عشر: انظر الآية ٨٥ في الحجر ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وانظر الآية ٢٦ من سورة الكهف ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ والآية ٥١ ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وثاني عشر: انظر الآية ١٩ في الحجر ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، وانظر الآية ٤٧ في الكهف ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾، وثالث عشر: انظر الآية ٤٩ في الحجر ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾، وانظر الآية ٥٨ في الكهف ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾، ورابع عشر: انظر الآية ٨٨ في الحجر ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وانظر الآية ٢٨ في الكهف ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، وخامس عشر: انظر الآية ٩٦ في الحجر الذي يدل على أن لا حفظ للمشركين ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾، وانظر الآية ١٤ الذي يدل على حفظ الموحّدين ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾. وإذا تأمّلت الآيات المذكورة في سياق السورتين سيظهر لك أنها جاءت بصيغ متلائمة مع المحور المذكور لكل سورة منهما.
وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾، ولاحظ تحسُّر الكافرين على عدم إسلامهم، إذ لو أسلموا لدخلوا في حفظ الله، ولاحظ أيضاً الآيتين الأخيرتين، اللتين تشيران إلى أنه لا حافظ للكافر من بأس الله، وتشيران إلى علم الله الحفيظ.

ثم انتقل السياق إلى عرض شبهة لكفار قريش تبرز أنهم ظنوا أنفسهم في حفظ من عذاب الله، وذلك يتلاءم مع ظنّ أصحاب الحجر أنهم ستحفظهم بيوتهم المنيعة من بأس الله: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾، فهم طلبوا نزول الملائكة لتعذّبهم، فكان الرّدّ الإلهي بيان أن الملائكة إنما هم يتنزلون بأمر ربهم، ولو أمرها بإنزال العذاب عليهم فلن يجد الكافرون من عذابه حافظاً، ولن تكون لهم مهلة، ولاحظ أيضاً بيان أن الله تعالى قد حفظ كتابه، وفي ذلك ـ فيما أرى ـ دلالتان: أولهما أن الحفظ من بأس الله إنما يكون بالتزام بما جاء في هذا الكتاب المحفوظ، والثانية الإشارة إلى أن القادر على حفظ كتابه، قادر على إنزال العذاب على الكافرين ولن يجدوا من دونه حافظاً.

ثم أشارت المقدّمة إلى بعض مظاهر قدرة الله في الكون، وهي أيضاً تدلّ على علم الله الحفيظ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾، فهذه إشارة إلى حفظ السماء الدنيا من الإنس والشياطين، وانظر الإشارة إلى علم الله الحفيظ في الأرض وفي الرزق وفي المقادير: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ۝٢٢ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾.

فأنت ترى أن المقدّمة بإشاراتها المتعدّدة إلى علم الله الحفيظ في السماء والأرض والبشر والرزق والقرآن، تعطي دلالةً بأن الحفظ إنما يكون بالتزام منهجه تعالى، وأن من حاد عنه فكفر وكذب لا حافظ له من بأس الله، وذلك متّسق تمام الاتساق مع دلالات قصة أصحاب الحجر المكذّبين بآيات الله، فلم يكن لهم حافظٌ يحفظهم من بأسه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي يثبت حفظ الله لأوليائه، ويثبت أن لا حافظ لمن كفر وكذّب، فكانت أول قصةٍ قصة أبي البشر آدم عليه السلام، وذلك لأن فيها تحذيراً من كيد الشيطان الذي يريد أن يترك الناسُ منهج الله فيخرجوا من حفظه، واللطيف أن ذكر خلقه من صلصال من حمأٍ مسنون قد تكرر ثلاث مرات، وأعتقد أن ذلك إشارة إلى ضعف التكوين الجسمي للإنسان، وهو مع ذلك إذا التزم بمنهج الله حفظه من أيّ سوء، فكان ذلك أدلّ على حفظ الله لهذا المخلوق الضعيف، والله أعلم.

ولاحظ حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه من عدوّهم الأول: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ولاحظ التعقيب على القصة الدالّ على علم الله الحفيظ أيضاً: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾، وأعتقد أن التفصيل في عدّة أبواب جهنم، مع بيان أن لكل منها جزءاً مقسوماً محدّداً، لزيادة الدلالة على علم الله، ولاحظ حفظ المؤمنين في الجنات، فهم آمنون سالمون لا يتعبون ولا يخرجون منها. فقصة آدم مع التعقيب عليها مترابطة تماماً مع محور السورة ودلالات اسمها.

ثم انتقل السياق إلى قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، ولم تخل القصة من دلالات الحفظ أيضاً: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟

بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾، فلاحظ قول الملائكة: سلاماً، أي: أنت محفوظ من أن يمسك منّا سوء، وقد أكّدوا ذلك بقولهم: لا توجل. أما البشارة بالغلام العليم فأعتقد أنها تدلّ على حفظ الله أيضاً، فالله سيحفظ هذا الجنين الذي سيكون في رحم أمّه حتى لو كانت عجوزاً وبعلها شيخ كبير.

ثم انتقل السياق إلى قصة لوط عليه السلام مع قومه، وهي تحوي أحد أوجه الإعجاز الفني في القصص القرآني، وذلك أن السياق قدّم إخبار الملائكة لوطاً عليه السلام بمهمّتهم التي جاؤوا من أجلها على مجيء قومه[1]: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وقد كان ذلك التقديم متلائماً مع محور السورة الدالّ على أنه لا حافظ للكافرين والمكذّبين من بأس الله، هذا أولاً، وثانياً: إن هذا التقديم متناسب مع ما جاء في مقدّمة السورة من طلب المشركين إنزال الملائكة بالعذاب، فكان تقديم ذكر مهمّة الملائكة في قصة لوط أدلّ على قدرة الله على إنزال الملائكة بالعذاب، وفي ذلك تهويل أشدّ للمشركين، فهذا التقديم يطلعنا على أحد قواعد المنهج القرآني في عرض القصص وهو أنه يقدّم في العرض القصصي الحدث الأنسب للسياق ولمحور السورة.

ثم لاحظ أيضاً قول الملائكة للوط عليه السلام حينما أنكرهم: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، وهو يحوي إشارة إلى حفظه من المخاوف أيضاً، وحتى في إهلاك القوم آية على علم الله الحفيظ: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾، فآثار قريتهم المهلكة في طريق ثابت يسلكه الناس، وكأنها محفوظة من أن تندرس حتى تبقى آية للمؤمنين.

---

(١) بينما في سورة هود كان ترتيب الأحداث مغايراً، فقد قدم السياق في سورة هود مجيء قوم لوط على إخبار الملائكة لوطاً عليه السلام بمهمّتهم، ينظر الآيات: ٧٧- ٨١، وذلك لأن التركيز كان في سياق تلك السورة على مدى شناعة موقف قوم لوط من دعوته، بينما الترتيب الذي جاء في سورة الحجر يدل على المسارعة في الحفظ.

ثم انتقل السياق إلى إشارة إلى أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾، وأعتقد أن السياق ذكر هذه الإشارة ليدلّنا على أن أصحاب الأيكة ظنّوا أنهم محفوظون في رغد عيشهم وما فيه من شجر كثير مجتمع، لكن ذلك لم يحفظهم من بأس الله، وقد كانت آثارهم وآثار قرية قوم لوط عليه السلام في طريق يؤمّها الناس في سفرهم.

وأما الإشارة إلى أصحاب الحِجر، فقد كانت أدلّ ما في السورة على محورها الذي يبيّن أنه لا حافظ من بأس الله، وذلك أنهم ظنوا أن بيوتهم المنحوتة في الصخر ستحفظهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى: وآتيناهم آياتنا، فقد كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى منهج الله مؤيّداً بمعجزة الناقة التي خرجت من الصخر، وهي معجزة متلائمة مع ما حذقوه من نحت الصخور والجبال، لكنهم أعرضوا عنها فلم يكن لهم حافظ من بأس الله.

فأنت تلاحظ أن القصص المذكور في هذه السورة يبرز جانبين اثنين: أولهما حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه، وثانيهما بيان أن لا حافظ للمكذّبين والكافرين من بأس الله، وذلك يتلاءم تماماً مع الدلالات السياقية واللغوية لاسم السورة.

ثالثاً: وأما الخاتمة فهي تحوي تلخيصاً لما سبق، فأعادت التذكير ببعض مظاهر علم الله الحفيظ في السماوات والأرض، وحفظ القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾، وأعادت التذكير بأن التزام منهج الله يحفظ المؤمنين، وأن من حاد عنه لا حفظ له: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان حفظ الرسالة المتمثّلة بالقرآن، ختمت السورة ببيان حفظ

صاحب الرسالة ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾. وهكذا التقى الختام والبدء على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة بدلالاته اللغوية والسياقية أبلغ الدلالة.



سورة الحِجْر

سورة بيان أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله، وأن الحفظ إنما يكون بالتزام منهج الله المحفوظ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٢٥)

المقدّمة التي تهدّد المكذّبين ببيان أنه لا حافظ لهم من بأس الله، وأن الحفظ يكون لمن اتّبع منهج الله:

- افتتحت السورة ببيان أن الكافرين سيتحسرون على عدم إيمانهم بآيات القرآن المبين: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.
- وبيّنت أنه لا حافظ لهم من بأس الله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.
- وقالت رَدًّا على طلبهم نزول ملائكة العذاب عليهم: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.
- وكما بيّنت أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله، بيّنت أن الله حفظ آياته التي هي منهج الله للبشر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٢٦-٨٤)

عرض قصصي يبرز حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه، مع بيان وقوع العذاب بالمكذّبين الذين لم يحفظهم شيء من العذاب:

- بيّنت قصة آدم عليه السلام أن الله خلقه من صلصال من حمأ مسنون، ومع ضعف تكوينه الجسمي فقد حفظ الله الملتزمين بمنهج الله من أيّ سوء، وحذّرت القصة من توعّد إبليس بالغواية ليخرج بني آدم عن حفظ الله.
- بيّنت قصة إبراهيم عليه السلام أنه محفوظ من أن يمسّه سوء: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾.
- وبيّنت أن الله سيحفظ هذا الجنين في رحم أمّه رغم أنها كانت عقيماً وبعلُها شيخ كبير.
- وبيّنت قصة لوط أن الله سيحفظه من كيد قومه: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾.
- وبيّنت إهلاك قومه في سبيل مقيم، وكأنه محفوظ من أن يندرس ليبقى آية للناس: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾.

■ ظنّ أصحاب الأيكة أن رغد عيشهم سيحفظهم من بأس الله، لكن الله انتقم منهم وقد كان موقع إهلاكهم في سبيل مقيم أيضاً مثل موقع إهلاك قوم لوط.

■ وظنّ أصحاب الحِجْر أن بيوتهم التي ينحتونها من الجبال ستؤمّنهم من بأس الله بعد أن كذبوا بآياته، ولكنها لم تنفعهم شيئاً، وقد أخذتهم الصحية مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٨٥-٩٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بمظاهر علم الله الحفيظ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾.

■ وأعادت بيان أن الله حافظٌ للقرآن الكريم الذي هو منهج الله للبشر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

■ وأعادت التذكير بأن التزام منهج الله يحفظ المؤمنين، وأن مَن حاد عنه لا حفظ له: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان حفظ الله للقرآن الذي هو منهج البشر، ختمت ببيان حفظ صاحب الرسالة ﷺ، وأمرته بالتزام منهج الله حتى يأتيه اليقين: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

سورة النحل

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن النحل، الحشرة المعروفة، فقد أخبرت السورة أن الله تعالى أوحى إلى النحل اتخاذ مكان معيشتها من الجبال أو الشجر أو مما يعرشه البشر من النبات، وأوحى إليها كيفية إنتاج العسل من أكلها من كل الثمرات، وسلوكها في ذلك مختلف السبل، حتى يكون شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، فإخبار السورة عن هذه الحقيقة يدل على أن النحل من أعجب آيات الله في خلقه الدالة عليه، فهي بالتزامها وحي ربّها أنتجت شراباً شافياً، والوحي إليها يشبه وحي الله إلى الأنبياء لتبليغ الهدى للناس، فالعسل شفاء للأبدان، والوحي حياة للأرواح، ولكن مِن الناس مَن يعرض عن وحي ربّه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الدلالة على أن الله تعالى تامّ القدرة والعلم، منزّه عن شوائب النقص، وأدل ما فيها على هذا أمر النحل، مما ذكر من شأنها من دقّة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمورها واختلاف ألوان أعسالها، وهذا أمر يدل على أهمية الوحي الإلهي الذي إذا التزم البشر به وصلوا إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي السورة حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير وتوجيههما إلى آيات الله التي تتجلّى فيها عظمة الخلق وعظمة النعمة وعظمة العلم والتدبير، وقد كان النحل أدلّ هذه الآيات

المذكورة في السورة على ذلك[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد والشكر من خلال بيان ما سخّره الله من الآيات الكونية للإنسان الدالّة على المنعِم سبحانه وتعالى، ومن خلال ما يؤازرها من آيات الوحي التي يوحيها الله تعالى إلى الأنبياء لهداية الناس. ولما كانت آية النحل التي أوحى إليها ربّها مكان معيشتها وسبل تحصيل رزقها وما تنتجه من شراب فيه شفاء للناس، أكثر الآيات الكونية المذكورة في السورة دلالة على المنعِم سبحانه، وأكثرها مشابهة لآيات الوحي على الأنبياء، سمّيت السورة بها للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان ما سخَّره الله من الآيات الكونية للإنسان الدالة على المنعِم سبحانه، وما يؤازرها من آيات الوحي الداعية إلى الهدى، فالآيات الكونية فيها حياة الأبدان، وآيات الوحي فيها حياة الأرواح.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة موضوعات، أولاً: مقدّمة تبرز دلالة آيات الوحي المنزلة على الأنبياء، ودلالة الآيات الكونية على المنعِم سبحانه بشكل موجز، ثانياً: التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية المسخَّرة للإنسان وموقف البشر منها، ثالثاً: التفصيل في عرض موقفهم من آيات الوحي مع بيان مصير الفريقين يوم القيامة، رابعاً: الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية وآيات الوحي بشكل مشترك، خامساً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[٢].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٤٠٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص ٢٤٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢١٥٨، ٢١٥٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٤، ص ٩٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٤، ص ١٣٣، ١٣٤، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٢٠٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ١٩٩، ٢٠٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٣٤- ١٣٨.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٩، والآيات الكونية: ١٠- ٢٣، وآيات الوحي: ٢٤- ٤٧، والدعوة إلى التوحيد من خلالهما معاً: ٤٨- ١١١، والخاتمة: ١١٢- ١٢٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الآيات التي يوحيها الله لأنبيائه، والآيات الكونية التي سخّرها الله للإنسان، تدلّان على الله دلالة تدعو إلى توحيده وشكره، لأنه هو وحده الخالق المنعِم: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ② خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

= الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بتسخير الآيات الكونية للإنسان، أ) فلم يُذكر في القرآن أن الله تعالى أوحى إلى شيء غير البشر والملائكة إلا النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾: ٦٨، و السماء: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ فصلت: ١٢، والأرض: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ الزلزلة: ٥، ب) هي أكثر سورة تكررت فيها عبارة «جعل لكم» العائدة على الله، وذلك ثمان مرات: ٧٢ (مرتين)، ٧٨، ٨٠ (مرتين)، ٨١ (ثلاث مرات)، ج) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «نعمة» دون إضافة لضمير، وذلك ستّ مرات: ١٨، ٥٣، ٧١، ٧٢، ٨٣، ١١٤، وبإمكانك أن تضيف (نعمته عليكم): ٨١، و﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: ١١٢، ولم تتكرر (بأنعم) في القرآن، و(شاكراً لأنعمه): ١٢١، وكذلك (لأنعمه) لم تتكرر، د) هي أكثر سورة تكرر فيها الفعل الماضي «خلق» دون إضافة لضمير، وذلك أربع مرات: ٣، ٤، ٤٨، ٨١، كما وأنها الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «يخلق» المنسوب لله دون الإضافة لضمير، وذلك مرتان: ٨، ١٧، ولم تتكرر هذه العبارة بهذه الصيغة في موقع آخر: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا﴾: ٥، هـ) هي وسورة إبراهيم أكثر سورتين في القرآن تكرر فيهما مشتقات الفعل «سخّر» العائد على الله تعالى وذلك أربع مرات في سورة النحل: ١٢(مرتين)، ١٤، ٧٩، وأربع في سورة إبراهيم: ٣٢ (مرتين)، ٣٣ (مرتين)، ولا يخفى أن سورة النحل ذُكر فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام، و) هي وسورة الحج أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «الأنعام» بعد سورة الأنعام، ففي سورة النحل ثلاث مرات: ٥، ٦٦، ٨٠، وكذلك في سورة الحج: ٢٨، ٣٠، ٣٤، وفي سورة الأنعام ستّ مرات: ١٣٦، ١٣٨ (ثلاث مرات)، ١٣٩، ١٤٢، ثانياً: ومنها ما يتعلق بآيات الوحي، أ) فهي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما كلمة «الروح» العائدة على الوحي بواسطة جبريل عليه السلام، انظر في سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: ٢، و﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾: ١٠٢، وانظر في سورة البقرة: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: ٨٧، ٢٥٣، ولكن لاحظ اختصاصهما بعيسى عليه السلام، ب) هي إحدى السور الثلاث التي اشتركت بعبارة «لسان عربي» لوصف القرآن: انظر في سورة النحل: ١٠٣، والشعراء: ١٩٥، والأحقاف: ١٢، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بالدعوة إلى الشكر: إذ لم تتكرر هذه العبارة في القرآن: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: ١١٤، وكذلك وصف إبراهيم عليه السلام بـ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾: ١٢١، ولم تتكرر عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إلا في سورة النحل: ١٤، ٧٨، وفي المائدة: ٦، ٨٩، علماً بأن رقم سورة النحل: ١٦، ورقم المائدة: ٥، والفرق بينهما: ١١، وفي سورة البقرة: ٥٢، ٥٦، ١٨٤، علماً بأن رقم سورة النحل: ١٦، ورقم البقرة: ٢، والفرق بينهما: ١٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾، فلاحظ أن أمر الله تعالى بإهلاك المكذّبين مرتبط بنزول آيات الوحي على الأنبياء، فإذا أصرّ المكذّبون على شركهم وكفرهم فقد استحقّوا العذاب، وكأن إرسال الرسل بالآيات إعذار بعد الإنذار، ولاحظ ذكر نعمة الإيجاد من الله للإنسان وهي أكبر نعمة، وكذلك تسخير الأنعام له لتسهل أمور حياته، ولكن من البشر من يكون خصيماً مبيناً لله تعالى، فيُعرض عن دلالة هذه الآيات الكونية، ويعرض عن هداية الرسل، ويشرك بالله تعالى.

فهذا التقديم الموجز لدلالة الآيات الكونية وآيات الوحي على الله تعالى، يشبه تماماً آية النحل كونها أعجب آيات الله الكونية المذكورة في السورة، وأكثرها شبهاً بآيات الوحي المنزلة على الأنبياء لهداية الناس كما سيأتي بيانه.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية التي سخّرها الله تعالى للإنسان، والتي من المفترض أن تقوده إلى الإيمان بالله وشكره وإخلاص العبودية له وحده: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾، ولاحظ تكرار الضمير «لكم»، وقد تكرر بشكل لافت بعدد يزيد عن الخمس عشرة مرة، كلها تفيد توجيه النظر إلى نِعَم المنعِم سبحانه على الإنسان، فمقدّمة السورة ذكرت نعمة الإيجاد، وهنا ابتدأ التفصيل بنعمة الإمداد.

وقد ذكر السياق من مظاهر نِعَم الله على الإنسان أيضاً تسخير البحر وما فيه من لحم السمك الطري، وما فيه من الحلية التي يستخرجها الإنسان، وتسخيره للفُلْك، هذا في البحر، وأما في الأرض فقد ألقى الله فيها رواسي لئلا تميد بالإنسان، وفي السماء سخّر الله له النجوم ليهتدي بها، وانظر قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم ذكر السياق موقف الإنسان من هذه الآيات الكونية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فبعد أن رأى الإنسان بعينيه كل هذه النعم من الله تعالى، إذا هو يشرك به ما لا يخلق شيئاً.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض موقف الإنسان من آيات الوحي، بعد أن فصل في عرض موقفه من الآيات الكونية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾، فكُفْر الإنسان بآيات الله الكونية والقرآنية إنما هو مكرٌ منه، يستحقّ بذلك أن يعاقب بمثل مكره فيأتيه العقاب من الله من حيث لا يشعر.

ولكي يكتمل الترهيب والترغيب، عرض السياق مصير الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، فقال عن الكافرين المشركين: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وقال عن المؤمنين بآيات الله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقد ذكر السياق أن الوحي إلى الأنبياء سُنَّة الله في خلقه، كما أنه من سُنَّته إهلاك المكذّبين الماكرين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾، فالله وحده هو الذي يوحي للأنبياء جميعاً، وهو وحده خالق الكون ومسخّره للإنسان، وهو وحده القادر على إهلاك المكذّبين.

فسياق السورة كما ترى يدعو إلى الإيمان بالله تعالى وشكره وإخلاص العبادة له وحده، من خلال آياته الكونية التي سخّرها للبشر لتحيا بها أبدانهم، وآيات الوحي على الأنبياء التي جعلها هدًى فتحيا بها أرواحهم، وهذا أشبه ما يكون بحديث السورة عن النحل كما سيأتي.

رابعاً: ثم أكّد السياق على الدعوة إلى الإيمان والتوحيد والشكر لله بأسلوب مزدوج بذكر نوعَي الآيات على نحو يصعب الفصل بينهما، فانظر مثلاً قوله تعالى عن الآيات الكونية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾، ولاحظ بيان أن كل المخلوقات تسجد لله تعالى، وتخافه وتفعل ما يأمرها به، ولا تستكبر كما يستكبر الإنسان، ولا يخفى علاقة ذلك بما سيأتي من أن النحل إحدى هذه المخلوقات المطيعة لوحي ربها.

وانظر موقف الإنسان من آيات الوحي الإلهي على الأنبياء: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾، ولاحظ التأكيد بالقسم، وبيان أن إنزال الكتاب على النبيّ ﷺ ليس إلا بياناً وهدى ورحمة، وهذا يشابه ما ينتج عن الوحي الإلهي للنحل إذ ينتج منه شراب فيه شفاء للناس.

ثم عاد السياق إلى المظاهر الكونية التي سخّرها الله للإنسان لتدلّه على الله، فأعاد التذكير بالأنعام التي يسقي الله الإنسان مما في بطونها لبناً خالصاً سائغاً، وأعاد التذكير بذكر ثمرات النخيل والأعناب، وفصّل بعرض آية النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، ولاحظ التفصيلَ ببيان أنها تقوم بذلك بوحي من الله، وهذا لم يذكر صراحة لغيرها من الحشرات، وأنَّ الله جعل مما يعرش الإنسان بيوتاً لها، ليكون ذلك أدعى لهم للإيمان، فهم يرون هذه الآية العجيبة

بقربهم، ولاحظ ذكر العسل الذي فيه شفاء للناس، فهذه فائدة للإنسان لا ينكرها عاقل، فكما أن النحل حينما اتبعت هدى وحي خالقها سبحانه أخرجت شراباً فيه شفاء للناس، كذلك الإنسان إذا اتبع وحي خالقه سبحانه تحقّق الخير له ولغيره.

إن الحديث عن النحل في هذا السياق جمع بين الآيات التي يوحيها الله لأنبيائه والآيات الكونية التي سخّرها للإنسان في دلالتها على الله تعالى، ولذلك اختيرت لتكون اسماً السورة، وقد أكّد ذلك قوله (وأوحى ربك) أي: إن ربك الذي يوحي إليك يا محمد ﷺ بآيات القرآن، هو من يوحي إلى النحل لتكون آية عجيبة دالّة على الله[(١)].

وكما جاء في سورة الرعد مثّلان متعلّقان بدلالة اسم تلك السورة بشكل واضح، جاء في سورة النحل مثلان متعلّقان بدلالة اسمها: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، إنهما مثلان يصوّران حالة من تحرّر من قيود الجهل والعمى، وآمن بالخالق المنعِم واتبع ما جاءه من هدى آيات الوحي، فتحقّق الخير له ولغيره، في مقابل حالة المكذّب الذي قيّد نفسه بالجهل والضلالة والإصرار على الكفر، فحرم نفسه من كل خير، وهما متعلّقان بآية النحل من حيث إنها باتباعها ما أوحى الله إليها، كانت أعظم آية مذكورة في هذه السورة دلالة على الله، وأنتجت شراباً فيه خير وشفاء للناس، فشابهت صورة من آمن واتبع الهدى من الله.

والعجيب أن السورة ذكرت من آيات الله الكونية ما يتعلّق بآية النحل أيضاً، فكما أخبرت سابقاً عن أماكن بيوت النحل، وبيّن كيف سهّل الله لها ظروف معيشتها، فصّلت في

---

(١) ذكر أ. د محمد راتب النابلسي أموراً عديدة تدل على أن النحل آية عظمى من الآيات الدالة على الله، فمن ذلك أن الضمير في قوله تعالى (أن اتخذي، ثم كلي، فاسلكي) يدل على حقيقة علمية تؤكد أن العاملات من النحل وحدهن اللواتي يصنعن العسل، وأما الذكور فدورهنّ تلقيح الملكات، ودور الملكات أن تبيض البيوض، وأن النحل يصنع أقراص الشمع بشكل سداسي تنعدم فيه الفراغات البينية، بأسلوب يعجز عن تقليده كبار المهندسين، وقد أثبتت بحوث ودراسات وتجارب عديدة أن للعسل آثاراً علاجية في مختلف أجهزة الإنسان. ينظر للتفصيل: أ.د محمد النابلسي، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الآفاق**، ص ٣٨٥- ٣٩٥.

عرض ما سخّره الله من الظواهر الكونية لتكون بيوتاً للبشر، وما سخّره لتسهيل ظروف معيشتهم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف البشر من الآيات القرآنية مرة أخرى، والرّدّ عليهم لتبقى دلالة آيات الوحي ظاهرة بلا لبسٍ كدلالة الآيات الكونية على الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾، فلم يعد هنالك من شكّ في أن منزل القرآن هو خالق الأكوان.

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وشكره، وحذّرت من الكفر بأنعمه الدالّة عليه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

وكما أوحى الله إلى النحل لتأكل من كل الثمرات لتنتج العسل، أمر الإنسان بالأكل من الحلال الطيب الذي سخّره الله له ليتحقّق له الخير، وبيّن ما حرم عليه من الخبائث: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

وقد دعت المشركين إلى الإيمان والتوحيد والشكر، من خلال بيان أن إبراهيم عليه السلام ـ الذي يزعمون انتسابهم الديني إليه ـ كان موحّداً لله شاكراً له: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وكما افتتحت السورة بتوعّد المشركين المعرضين عن الآيات القرآنية بعد أن لم تكفهم الآيات الكونية في الدلالة على المنعِم سبحانه، ختمت بدعوة النبيّ ﷺ إلى الصبر على تكذيب قومه ودعوتهم بالتي هي أحسن، مع بيان أن الله سيحفظ المؤمنين المتقين الذين اتبعوا هدى ربهم وأحسنوا لأنفسهم ولغيرهم: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، لكون النحل أعجب الآيات الكونية المذكورة فيها، وأقربها شبهاً لآيات الوحي على الأنبياء، فكانت آية عظمى في الدلالة على المنعِم سبحانه وتعالى والحثّ على اتباع هداه.



سورة النحل

سورة بيان ما يسخره الله من الآيات الكونية الدالة على المنعِم سبحانه وما يؤازرها من آيات الوحي الداعية إلى الهدى، فالآيات الكونية فيها حياة الأبدان، والآيات القرآنية فيها حياة الأرواح

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدّمة التي تبرز بإيجاز دلالة آيات الوحي ودلالة آيات الكون على المنعِم سبحانه:

- افتتحت السورة بتهديد المكذّبين بآيات الوحي على الأنبياء والتي هي بمثابة إعذار بالإنذار: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.
- ثم عرضت بعض الآيات الكونية الدالة على المنعِم سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ وهو الذي خلق الإنسان من نطفة، وهو خالق الأنعام ومُسخِّرُها للإنسان.
- فالله هو الخالق المنعِم وهو منزل آيات الهدى، فينبغي على الإنسان أن يكون مؤمناً شاكراً لا كافراً معرضاً.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٣)

التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية المُسخَّرة للإنسان، وموقف البشر منها:

- ثم عرض السياق عدداً من الآيات الكونية التي تُيسِّر حياة الإنسان، فينبغي أن يشكر خالقه عليها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾، وأنبت به الزرع والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات.
- والله الذي سخّر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، ثم أعقب ذكر هذه النعم بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾.
- وعرض السياق موقف الإنسان من هذه النعم، إذ أشرك بالله خالقه والمنعم عليه ما لا يضرّ ولا ينفع: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًۭٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾.
- إن عرض هذه النعم التي بها حياة الناس تدعو إلى الإيمان بالخالق المنعِم سبحانه وتعالى والتوجّه إليه وحده بالعبادة.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٤-٤٧)

التفصيل في عرض موقف الناس من آيات الوحي مع بيان مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة:

- بعد التفصيل في آيات الكون، انتقل السياق إلى التفصيل في عرض مصير المكذّبين بآيات الوحي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾.
- وبيّن السياق مصير المؤمنين بآيات الوحي العاملين بما جاء فيها: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾.
- وقد أكّد السياق أن الوحي للأنبياء سُنّة الله في خلقه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾.
- وأكّد أيضاً أن من سُنّة الله إهلاك المكذّبين: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.
- إن الإيمان بهدى الله الذي يوحيه إلى أنبيائه عليهم السلام فيه حياة الأرواح، كما أن الآيات الكونية فيها حياة الأبدان.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٨-١١١)

الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية والآيات القرآنية بشكل مزدوج:

- فمن الآيات الكونية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾.
- ومن آيات الوحي قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾.
- ومن الآيات الكونية آية النحل، وهي أكثر آيات الكون شبهاً لآيات الوحي وما تأتي به من الهدى والخير والشفاء: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾، فكأن آية النحل توحي أن من اتبع هدى الله وحي الخالق تحقّق له ولغيره الخير، كالنحل حين اتبعت وحي خالقها أخرجت العسل الذي فيه الشفاء.
- ثم عرض السياق مَثَلين يصوّران حالة من تحرّر من قيود الجهل وآمن بالخالق فتحققت له ولغيره الخير، وحالة من كذب وقيّد نفسه بالكفر والجهل حتى حرم نفسه وغيره من الخير.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١١٢-١٢٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- ذكرت مثلاً للمعرضين عن هدى المنعم وآياته: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.
- في المقابل عرضت موقف إبراهيم عليه السلام الشاكر لنِعَم ربّه المتبع هداه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بتوعّد المشركين المعرضين عن هدى وحي المنعِم ونِعَمه، ختمت بدعوة النبيّ ﷺ بالصبر على تكذيب قومه، وبيان أن الله سيحفظ المؤمنين المتقين المتبعين هدى ربهم: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

سورة الإسراء

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

ذكر الإمام ابن فارس ووافقه الأصفهاني وابن منظور رحمهم الله جميعاً أن السُّرى هو السير ليلاً[(١)]، فاسم السورة يشير إلى رحلة الإسراء ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى التي أكرم الله تعالى بها عبده محمداً ﷺ، وجعلها ميّزة له ولأمته على سائر الأمم. وخاصة أمة بني إسرائيل المذكورون بعد هذه المعجزة مباشرة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية، كالبعث والجزاء، وتأييد النبيّ ﷺ بالمعجزات الكافية الدالة على صدقه، بالإضافة إلى أنها تضمّ موضوعات حول قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه، وقد برزت شخصية الرسول ﷺ كمحور جامع لكل ما ذكر، مع بيان موقف قومه منه وموقفهم من القرآن الكريم، وذكروا أن هذه السورة بموضوعاتها ودلالات اسمها يمكن أن تكون توجيهاً تفصيلياً للمؤمنين لإخراجهم من الظلم الذي وقع عليهم من العُلُوّ الإسرائيلي في الأرض المباركة، فكما أن فيها طمأنة للنبيّ ﷺ بأن قومه إذا استفزوه من الأرض فإن هلاكهم قد حلّ، كذلك فيها طمأنة للمؤمنين بأن استفزاز بني إسرائيل للمؤمنين من أرضهم المباركة سيهلكهم[(٢)].

---

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ص ٥١٣، والأصفهاني، **المفردات**، ص ٤٠٨، وابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ١٧٩.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٤٢٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص ٣٢٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٢٠٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٥، ص ٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير** =

ولكني بعد مراجعة السورة أميل إلى ما توصّل إليه الدكتور أحمد نوفل الذي يرى أن محور السورة هو: تربية أمة نبيّ الإسراء ﷺ والقرآن على اتباع الدستور الإلهي الذي سيمكنهم من الانتصار على أمة إسرائيل، ولما كانت أمة نبيّ الإسراء ﷺ والقرآن أكثر الأمم إيماناً بآيات الله تعالى، وأكثرها التزاماً بالدستور الإلهي، ولما كانت أمة إسرائيل أكثر الأمم تكذيباً لهذه الآيات، وأكثرها خروجاً عن الدستور الإلهي، سمّيت السورة باسم معجزة الإسراء إلى المسجد الأقصى المبارك، كونها أحد الآيات التي يؤمن بها المؤمنون وكونها أكثرها ارتباطاً بنصرهم على أمة إسرائيل[1]. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان انتصار أمة الإسراء والقرآن على أمة إسرائيل والتوراة، طالما التزمت أمة الإسراء بالدستور القرآني**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور للسورة وبين دلالات اسمها، فيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن فضل نبيّ الإسراء ﷺ وبيان القضاء الإلهي بنصر أمته ﷺ على أمة إسرائيل، وثانيها: بيان موقف قوم نبيّ الإسراء ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم، ومن حقائق الدين الإلهي، يتخلّلها الدستور الأخلاقي لأمة نبيّ الإسراء ﷺ، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[2].

= **الموضوعي**، م ٤، ص ٢١٠، والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ١٤١- ١٤٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٢١٧، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٩٥- ٩٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ١٣٩- ١٤٦.

(١) ينظر: د. أحمد نوفل، **تفسير سورة الإسراء: دراسة تحليلية موضوعية**، ص ١٦٥ و ١٦٦.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٨ ، وبيان موقف قومه ﷺ : ٩- ٢٢، والدستور الأخلاقي للمؤمنين: ٢٣- ٣٩، ثم عودة إلى بيان موقف قومه ﷺ من بعثته: ٤٠ - ٩٨، والخاتمة: ٩٩- ١١١. ومن لطائف هذه السورة أنها تشترك مع سورة الأعراف في المحور، فقد ذكرتُ سابقاً أن محور سورة الأعراف يدل على التحذير من بأس الله في الدنيا والآخرة لمن كذّب بها واستكبر عنها. وقد اختير اسم «الأعراف» لهذه السورة لأنه أدل ما في السورة على حقيقة وقوع بأس الله في المكذبين والمستكبرين عن آيات الله التي جاء بها الرسل، وقد كانت هذه السورة أكثر السور القرآنية حديثاً عن المواقف المخزية لبني إسرائيل تجاه آيات الله تعالى وتجاه نبيهم موسى عليه السلام، فهم أكثر الناس خروجاً عن الدستور الإلهي، بينما سورة الإسراء يدور محورها حول التربية على الالتزام بالدستور الإلهي ليتحقق لهم النصر على أمة إسرائيل، وفيما يلي بعض جوانب التناسق بين السورتين:
أولاً: سورة الأعراف أكثر سورة ذكرت فيها لفظة «آيات» مضافة إلى الله، وهي أكثر سورة عرضت مواقف بني =

أولاً: افتتحت المقدّمة بتسبيح الله تعالى الذي أسرى بعبده ﷺ وأكرمه بهذه الرحلة العجيبة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا

= إسرائيل من هذه الآيات، وأخصّ بالذكر منها قوله تعالى عنهم في الآية ١٤٦: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، وسورة الإسراء أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها لفظة «القرآن» في سياق دعوة أمة الإسراء والقرآن إلى الالتزام به، وثانياً: جاء في الآيتين: ٢ و٣ من سورة الأعراف قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ... ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وانظر الآية الثانية من سورة الإسراء ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولكنهم لم يتبعوا هداه، وثالثاً: انظر الآية الأخيرة من سورة الأعراف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾، وانظر أواخر سورة الإسراء عن تواضع المؤمنين وتذلّلهم لله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، وبالإمكان ربط ذلك أيضاً بالآية ١٦١ من سورة الأعراف التي أمر فيها بنو إسرائيل بالسجود تذلّلاً لله عند دخول القرية فاستكبروا، ورابعاً: ذكرت قصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف وجاء فيها قوله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: ٥٩، وانظر الآيتين ٢و٣ من سورة الإسراء ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ علماً بأن إعراب «ذرية» منادى منصوب، وخامساً: انظر الآية ١٦١ من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وقد ذكرت سورة الإسراء أن أكثر مظاهر هذا الأذان تجلية سيكون بالنصر الأكبر لأمة نبيّ الإسراء عليهم، وسادساً: أعتقد ـ فيما أرى ـ أن ما جاء في الآية ١٣٤ من سورة الأعراف من طلب موسى عليه السلام رؤية ربه، وبيان أن ذلك لن يكون له في الدنيا، مرتبط مع إكرام الله سيدنا محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، ففي ذلك ميزة لنبيّ أمة الإسراء على نبيّ أمة إسرائيل، أضف إلى ذلك بيان أن الله أخذ بني إسرائيل بالرجفة حينما طلبوا رؤية الله جهرة كما في الآية ١٥٥ من سورة الأعراف، بينما أمة نبيّ الإسراء ليسوا بحاجة إلى طلب آية واحدة بعدما آمنوا، وسابعاً: عرضت الآيتان ١٣٨ و ١٤٨ طلب بني إسرائيل آلهة ليعبدوها، ثم عبادتهم العجل، وقد أمرت أمة الإسراء في سورة الإسراء بالتزام التوحيد أكثر من مرة: ٢٢و٢٣ وغيرها، وثامناً: أمرَ نبيُّ أمة إسرائيل قومه بالصبر والصلاة في سورة الأعراف فكان ردّهم ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾: ١٢٩، بينما أمة الإسراء مأمورة بإقامة الصلوات وخصوصاً صلاة الفجر في الآية ٧٨ من سورة الإسراء ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾، وتاسعاً: جاء في الآيات ١٣٠- ١٣٣ من سورة الأعراف عرض تفصيلي للآيات التسع التي أيّد الله بها موسى عليه السلام، وانظر الآية ١٠١ من سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، وعاشراً: انظر الآية ١٥٩ من سورة الأعراف ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وانظر الآية ١٠٧ من سورة الإسراء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، وأحد عشر: انظر الآية ١٨٠ من سورة الأعراف ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وانظر الآية ١١٠ من سورة الإسراء ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وثاني عشر: انظر الآية قبل الأخيرة من سورة الأعراف ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، وانظر الآية قبل الأخيرة من سورة الإسراء ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾. وإذا تأملت هذه المواضع المذكورة في سياق السورتين ستجد أنها جاءت على نحو متلائم مع المحور المذكور لكل منهما. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾، وافتتاح هذه السورة بذكر هذه الرحلة إلى المسجد الأقصى متلائم تماماً مع المحور المذكور للسورة، فهي تدل على فضله ﷺ ومكانته عند ربّه عزّ وجلّ حتى خصّه بهذه الرحلة، وأيضاً فيها ذكر الأقصى وهو قلب الأرض المباركة التي سيتمّ فيها الانتصار لأمته ﷺ على أمة إسرائيل إن شاء الله.

ثم بيّنت المقدّمة القضاء الإلهي بانتصار أمة نبيّ الإسراء ﷺ على أمة إسرائيل، وذلك لعلمه تعالى بأن الصراع بين الأمتين كائن لا محالة: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، ولاحظ ذكر النبيّ موسى وهو أعظم أنبيائهم، مما يتلاءم مع ذكر نبيّ الإسلام ﷺ، ولاحظ أيضاً ذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب، والذي كان أهمّ أحكامه لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دون الله وكيلاً، ولكنهم اتخذوا كل شيء وكيلاً من دون الله تعالى. ولم يقيموا لكتابهم اعتباراً فحرّفوه، ولاحظ ذكر أن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً، مما يفيد تقريعاً لأمة إسرائيل المستكبرين عن عبادة الله تعالى كما أمر، وهم أجحد الخلق لنِعَم الله تعالى عليهم.

ثم انتقلت المقدّمة لبيان أن أمة إسرائيل ستفسد في الأرض مرتين، وفي كل مرة سيسلّط الله عليهم عباداً له أولي بأس شديد يسومونهم سوء العذاب، وهؤلاء العباد من أمة نبيّ الإسراء ﷺ على الرأي الأرجح والذي ينبغي أن يُعتمد: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾، فالمرة الأولى كانت في الأرض التي ابتدأت منها رحلة الإسراء، وهي الجزيرة العربية، وإفسادهم فيها كان تجاه نبينا ﷺ وأمته، فقد كانوا أول كافر به، وكانوا يتآمرون مع المشركين ضدّ النبيّ ﷺ والمؤمنين، وهل حادثة الأحزاب إلا من تأليبهم المشركين على المدينة؟ ومعلوم ما حصل من تأديب المؤمنين لبني النضير وبني قريظة وخيبر، فقد أمكنهم الله من أراضيهم، وقد أمكنهم من رقاب بني قريظة فقتلوا المحاربين منهم، وسَبَوا النساء والأطفال، وأجلى الله يهود خيبر عن أرض الجزيرة.

أما الإفساد الثاني فهو ما نراه اليوم، فما من إفساد في العالم إلا واليهود من ورائه، ولا يخفى على أحد أن مبدأ فسادهم في هذا الزمن كان باحتلال الأرض التي أُسري بالنبيّ ﷺ إليها، وهي الأرض التي سيدخلها العباد أولو البأس الشديد من أمة نبيّ الإسراء ﷺ ويسوءوا فيها وجوه المحتلين، ويحرّروا المسجد الأقصى من دنسهم، ونسأل الله أن يكون هذا اليوم قريباً، وأن نكون من هؤلاء العباد[1]. ثم دعاهم السياق إلى العودة إلى الإيمان والالتزام بالدستور الإلهي، ولكنهم لن يعودوا، وقد جعل الله جهنم للكافرين حصيراً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان موقف قوم نبيّ الإسراء ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم، ومن حقائق الدين الإلهي، وقد تخلّل ذلك ذكر الدستور الأخلاقي لأمة نبيّ الإسراء ﷺ، والذي إذا التزموا به سيتحقّق لهم النصر على أمة إسرائيل، وأعتقد ـ فيما أرى ـ أن ذكر موقف قوم النبيّ ﷺ من هذه القضايا مشابه لموقف بني إسرائيل منها، وفي ذلك تربية لأمة نبيّ الإسراء ﷺ بالحذر من الوقوع بما وقع من أمة بني إسرائيل، ولعلّ سائلاً يسأل: إن السورة تعرض موقف قوم النبيّ ﷺ، ولم تذكر موقف بني إسرائيل صراحة، فلم تحمل موقف قومه ﷺ على موقف بني إسرائيل؟ والجواب أن منهج القرآن أعظم من ذلك، فقد أخبرنا في أول السورة بوعده بنصر أمة الإسلام على أمة اليهود، وأعاد ذكر ذلك آخر السورة، وقد عرض فيما بين المقدّمة والخاتمة موقف كفار قريش، وترك لك أن تدرك علاقة بني إسرائيل المذكورين أول السورة وآخرها بموقف قوم النبيّ ﷺ، وبذلك يكون المنهج القرآني قد حقّق هدفين بأسلوب واحد.

كانت أول القضايا التي عرض السياق موقف قوم النبي ﷺ منها هي الآخرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾، ولاحظ افتتاح عرض موقفهم ببيان فضل القرآن، الذي جعله الله هدى للمؤمنين، وهذا يتلاءم مع ما جاء في مقدّمة السورة عن كتاب موسى عليه السلام الذي نبذه قومه وحرّفوه، فالتزام أمة القرآن بما جاء فيه سيحقّق لهم

---

(١) ينظر للتوسع: د. أحمد، **تفسير سورة الإسراء**، ص ١٥٣- ١٩٧. والشعراوي، تفسير الشعراوي ج١٤، ص٨٣٥٧.

النصر على أمة التوراة التي لم تلتزم بما جاء فيها، أما كون الآخرة أول القضايا المعروضة فلا يخفى أن أمة إسرائيل لا تقيم للآخرة اعتباراً، وإن آمنوا بها فهم يعتقدون أن لهم عند الله الحسنى. وإن عذبهم في النار فسيكون عذابهم أياماً معدودات، وبِمَ تفسّر تهافتهم على حبّ الدنيا حتى يودّ أحدهم أن يُعمّر ألف سنة؟!

وقد استدلّ السياق على إثبات حقيقة الآخرة بآيتي الليل والنهار، فإن الذي جعلهما آيتين قادر على خلق اليوم الآخر ليحاسب فيه الناس، وتقديم ذكر الليل متلائم مع الإسراء الذي كان قد حصل ليلاً.

وقد استدلّ السياق على إثبات حقيقة اليوم الآخر أيضاً بقدرة الله تعالى على إهلاك المفسدين، ثم بعثهم للحساب: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ۝١٧﴾، ولا يخفى على أحد أن اليهود اليوم يسخّرون المترفين في العالم لغايات الفسق، وذكر تدمير الفاسقين المفسدين متلائم مع التدمير الذي سيحصل لليهود المذكور في المقدّمة.

ثم انتقل السياق إلى ذكر أوامر وتوجيهات متعدّدة لأمة نبيّ الإسراء ﷺ تعتبر دستوراً أخلاقياً إلهياً، إذا التزموا به تحقّق لهم النصر على أمة إسرائيل، وستجد أن هذه الأخلاق كان بنو إسرائيل قد أمروا بها لكنهم لم يلتزموا بها، بل على العكس التزموا بترك ما فيها من أوامر، وارتكاب ما فيها من نواهٍ، وإليكم بيان ذلك:

كان أول أمر للمؤمنين أن لا يجعلوا مع الله إلهاً آخر، وأن لا يعبدوا إلا الله، والإحسان إلى الوالدين، ومعلوم أن أول طلب طلبه بنو إسرائيل بعد أن أنجاهم من فرعون كان أن يجعل لهم موسى آلهة يعبدونها، ولا يخفى أنه لما غاب عنهم عبدوا العجل، ومعلوم كذلك ما صنعه إخوة يوسف بوالدهم يعقوب. فلاحظ التناسق بين أول أمر للمؤمنين وأول جريمة لبني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، ولاحظ التناسق أيضاً بين أول أمر وبين ما صنعه إخوة يوسف وهم الأصل الأول لبني إسرائيل.

والأمر الثاني كان بإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم من الصدقات، وقد خالف أحبار اليهود ورهبان النصارى ذلك ـ كما أخبرتنا سورة التوبة ـ وأكلوا أموال الناس

بالباطل وكنزوا الذهب والفضة وما أنفقوها في سبيل الله[١]. وفي سياق ما يتعلق بالأموال حذّرت السورة من التبذير والبخل، فقد نُهي المؤمن عن أن يجعل يده مغلولة إلى عنقه، وقد وصفَ اليهودُ - لفرط بخلهم - إلهَهُم وخالقهم والذي امتنَّ عليهم بنِعَم عظيمة جليلة، وصفوه بأن يده مغلولة، غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا[٢].

والأمر الثالث كان بتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، وقد أخبرتنا سورة البقرة أن الله عهد إلى بني إسرائيل أن لا يسفكوا دماءهم، وأن لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وقد خالفوا ذلك فقتلوا فريقاً منهم، وأخرجوا فريقاً من ديارهم[٣].

وحذّر السياق من الزنا، وأكل مال اليتيم، والوزن بالقسطاس المستقيم، وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾، وما نشاهده اليوم من وقوف اليهود وراء شبكات الدعارة في العالم، وما نشاهده اليوم من تكبّرهم في الأرض، وما نشاهده من بخسهم الناسَ حقوقَهم، يطلعنا على مدى مخالفتهم لأوامر الله تعالى.

فأنت تلاحظ أن السياق يربّي أمة نبيّ الإسراء ﷺ على الالتزام بالدستور الأخلاقي الإلهي الذي كان قد أمر أمة إسرائيل به فلم يلتزموا، فمتى التزمت أمة الإسراء بهذا الدستور وحافظت عليه وتمثّلته في حياتها، عاد لها النصر على تلك الأمة.

ثم عاد السياق إلى بيان موقف قوم النبي ﷺ من القرآن العظيم، الذي كان بنو إسرائيل أول كافر به: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾، وأعاد ذكر موقفهم من حقيقة اليوم الآخر: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا

---

(١) انظر الآيتين: ٣٤، ٣٥، من سورة التوبة.

(٢) انظر الآية: ٦٤، من سورة المائدة.

(٣) انظر الآيات: ٨٤ -٨٦، من سورة البقرة.

لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

وفي سياق الحديث عن الآخرة ناسب ذكر قصة آدم عليه السلام مع إبليس، وفيها يبرز تكبّر إبليس على الأمر الإلهي له بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾، ولاحظ أن السياق قد ذكر من أساليب الشيطان في إغواء بني آدم استخدام الأموال والأولاد، مما يتلاءم مع قوله تعالى عن أمة إسرائيل أول السورة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾، فالشيطان وهذه الأمة مشتركان في منهج الإضلال والخروج عن الدستور الإلهي.

وانظر إلى هذه المواقف من قوم النبيّ ﷺ تجاهه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، ولاحظ أن محاولة المشركين لفتنة النبيّ ﷺ عما أوحي إليه، ومحاولتهم إخراجه من أرضه ﷺ تشابه موقف بني إسرائيل من أنبيائهم، فهم معروفون بتكذيبهم الأنبياء آناً وبقتلهم آناً آخر كما أخبرت بذلك سورة البقرة[1].

---

(١) انظر الآيتين: ٦١، ٩١، من سورة البقرة.

فلم يبق من شَكٍّ في أن السياق حينما أبرز موقف قوم النبيّ ﷺ منه ومن القرآن الكريم ومن حقائق الدين التي يدعو إليها، أكّد بذلك أيضاً موقف أمة إسرائيل من أنبيائهم ومن كتابهم ومن حقائق دينهم، وفي ذلك تربية لأمة نبيّ الإسراء على الالتزام بالدستور الإلهي، ليتحقّق لهم النصر على أمة بني إسرائيل.

ثالثاً: بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أعادت التذكير بإثبات حقيقة التوحيد وما يترتّب عليها من الإيمان باليوم الآخر، وهذه أهمّ قاعدة في الدستور الإلهي: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾، ولاحظ أن ذكر قتر الإنسان مناسب لما هو معلوم عن طبيعة البخل التي وُسِم بها اليهود.

وأعادت الخاتمة كذلك ذكر بيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾، وأعتقد أن ذكر الآيات التسع، ثم التعقيب بسؤال بني إسرائيل عنها متلائم مع محور السورة تماماً، فهو يبرز مدى خروج هؤلاء عن الدستور الإلهي بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا، والتي كان أعظمها فضلاً عليهم إنجاءَهم من فرعون، ولا يخفى الترابط بين ذكر وعد الآخرة التي فيها النصر لأمة الإسراء عليهم مع ما ذكر في مقدّمة السورة.

وأعادت التذكير بالالتزام بمنهج الله المتمثّل بالقرآن، وأنه هو سبيل النصر: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾، ولاحظ أن ذكر الإيمان بآيات الله، والسجود له تعالى والبكاء والخشوع له تعالى، يحوي

تقريعاً لأمة إسرائيل الذين أخبرت سور القرآن عنهم بتمرّدهم على أمر الله لهم بالإيمان بآياته، وبتكبّرهم عن السجود له والتذلّل والخشوع له سبحانه، ولاحظ إعادة ذكر وعد الله بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل متناسب مع الوعد المذكور أول السورة.

وكما افتتحت السورة بذكر تسبيح الله تعالى وذكر عبودية النبيّ ﷺ ، ختمت بذكر الصلاة التي هي مظهر عبودية الإنسان لربّه، وختمت بحمد الله تعالى، وكأن النصر المذكور أول السورة لأمة الإسراء قد تحقّق، وها هم يحمدون الله تعالى عليه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾، «أَلَا ما أروع هذه الآية وتاليتها لتكون ختاماً لهذه السورة الجليلة المباركة المليئة الزاخرة الحاشدة، المستشرفة مستقبل الأمة والعالم، وأن تردَّكَ آيتا الختام إلى مقام العبودية في أروع تجلياته: الصلاة... ثم التوسّط المنسجم مع ما مرَّ من التوسّط في موضوع الإنفاق، فالتوسّط روح هذا الدين وروح هذه الأمة ... أَلَا ما أجمل اصطفاف هذه الأرقام ١١١ وكأنها جند في جيش فتح بيت المقدس.. أَلَا ما أجمل أن تقرّ في كل الأرض كلمة التوحيد، وتندحر كلمة الشرك والكفر التي كان يريد نشرها هؤلاء المفسدون.. . أَلَا ما أروع التكبير قبل النصر للتعبئة، وبعد النصر للعيد الكبير، الذي من شعائره التكبير»[1].

وهكذا التقى البدء والختام على محور نصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل، وهو ما دلّ عليه اسم السورة «الإسراء» أبلغ دلالة وتناسق معه أجمل تناسق، وبشّر بالنصر الكبير الذي يملأ قلوب المؤمنين فرحاً بنصر الله قريباً إن شاء الله.



(١) د. أحمد، تفسير سورة الإسراء، ص ٤٧٣- ٤٧٨. بتصرف.

سورة الإسراء

سورة بيان انتصار أمة الإسراء والقرآن على أمة إسرائيل والتوراة إذا التزمت أمة الإسراء بالدستور القرآني

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدّمة التي تبين فضل نبيّ الإسراء ﷺ، وفيها بيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل:

- افتتحت السورة بذكر حادثة الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾، وهي بمثابة ميزة له ﷺ ولأمته، وفيها تحديد المكان الذي ستنتصر فيه أمته على أمة التوراة.
- بيّنت المقدّمة أن أمة إسرائيل ستفسد في الأرض مرتين، وأنه في المرة الآخرة سيبعث الله عليهم عباداً أولي بأس شديد من أمة الإسراء يسوؤون وجوههم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٩٨)

بيان موقف قوم نبيّ الإسراء ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم ومن حقائق الدين الإلهي، يتخلل ذلك الدستور الأخلاقي الذي أمرت أمة الإسراء به:

- كان موقف المشركين مشابهاً لموقف بني إسرائيل من حقائق الدين الذي أنزل على أنبيائهم وعلى نبينا ﷺ.
- افتتح السياق الحديث عن موقف المشركين ببيان فضل القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۝٩﴾.
- وقد هدّد السياق الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهي من أجلِّ حقائق الدين: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٠﴾، وقد كان بنو إسرائيل أول كافر في المدينة بالقرآن، وهم أقلّ الناس إيماناً بالآخرة.
- بيّن السياق عقوبة فسوق المترفين، وأن فسوقهم يؤدي لهلاك الأمم، وبنو إسرائيل الآن هم من يسخّرون المترفين لغايات الفسق.
- ثم عرض السياق دستوراً قرآنياً لأمة الإسراء، إذا التزمت به سيتحقّق لها النصر على أمة إسرائيل، وقد كان بنو إسرائيل قد أمروا بهذا الدستور المنزل على أنبيائهم لكنهم نكلوا عنه.

■ يتمثّل هذا الدستور الإلهي بأمر المؤمنين أن لا يجعلوا مع الله إلهاً آخر، وبالوالدين إحساناً، وإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم، وحرم عليهم قتل الأولاد خشية الفقر، وحرم الزنا وأكل مال اليتيم وأمر بالوزن بالقسطاس المستقيم.

■ ثم عاد السياق إلى بيان موقف المشركين من القرآن العظيم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ وأعاد ذكر موقفهم من حقيقة الآخرة ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾.

■ وقد حذّر السياق من إبليس الذي يستخدم خيله وأتباعه ويشارك الناس في تسخير الأموال والأولاد للإفساد، وهذا مشابه لبني إسرائيل الذين يستخدمون أموالهم وبنيهم للغاية ذاتها، كما قال في المقدّمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

■ إن السياق حين يعرض موقف المشركين المشابه لموقف بني إسرائيل من حقائق الدين، إنما يحذّر المؤمنين من عدم التزام الدستور القرآني لأن الالتزام به هو الذي يحقّق النصر لأمة الإسراء.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٩٩-١١١)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بعقيدة التوحيد وما يترتّب عليها من الإيمان باليوم الآخر، وهما أمران نكل عنهما بنو إسرائيل مع أنهما أهمّ قواعد الدستور الإلهي: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

■ وأعادت التذكير بالقضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

■ وأعادت التذكير بالالتزام بالقرآن: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

■ وكما افتتحت السورة بتسبيح الله وذكر عبودية النبيّ ﷺ، وببيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل، ختمت بذكر الصلاة التي هي أبرز مظهر لعبادة الإنسان لربّه، وختمت بحمد الله وبالتكبير وكأن النصر لأمة الإسراء قد تحقّق: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

سورة الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الكهف: الغار في الجبل، وجمعه: كهوف»[(١)]، وزاد الإمام ابن منظور: «الكهف كالمغارة في الجبل، إلا أنه أوسع منها، فإذا صغر فهو غارٌ . . ويقال: فلان كهف فلان: أي ملجأ . . ويقال: فلان كهف أهل الرِّيَب: إذا كانوا يلوذون به فيكون وَزَراً وملجأً لهم»[(٢)]، فالدلالة اللفظية للكهف تفيد بأنه مكان يجد فيه الإنسان الحماية من المخاوف، وقد أكّدت الدلالة السياقية لاسم السورة ذلك، حين لجأ الفتية إلى الله جزعين إليه، فألهمهم اللجوء إلى الكهف فكان ملجأ وأماناً لهم. وكانت قصتهم آية دالّة على قدرة الله على تأمين من التجأ إليه من شتّى المخاوف.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والباحثين أوجهاً من الربط بين اسم سورة «الكهف» ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن قصة أصحاب الكهف دليل على إحدى فوائد الإيمان وهي الأمن الكلي من المخاوف، وهذا دليل على أن القرآن جدير بأن يوصف بالقيّم؛ لأنه يقصّ قصص أخبار قوم قد فُضِّلوا في زمانهم بحفظ الله إياهم من شتّى المخاوف، وتأمين الله وحمايته لأهل الكهف مترابط مع محور السورة الذي يدور حول العواصم من الفتن المختلفة كالدنيا

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩١٢.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٣، ص ١٢٥. بتصرف.

والشيطان، بالإضافة إلى أن موضوع تحقيق الأمان والحماية مبنيّ على موالاة الله تعالى والاعتصام بكتابه، وهذا أمر مشترك بين موضوعات السورة، كما وأن السورة فيها تصحيح العقيدة ومنهج النظر والفكر والقِيَم بميزان العقيدة، فالسورة تفرق بين قوّة المصرِّف لهذا الكون (وهو الله)، وبين الطبيعة أو الأسباب، وهو أمر يظهر من خلال بيان حقيقة الدنيا، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وقصة ذي القرنين، فالأولى تدعو إلى العلم، والثانية تدعو إلى الجهاد، وهما أمران لا بُدّ من توافرها في الشخصية الإسلامية[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن من لجأ إلى الله واعتمد عليه واتّبع منهجه، هداهُ الله وحماه وحفظه من شتّى أنواع الفتن والمخاوف، وحقّق له الأمن في الدنيا والآخرة، عَلِم ذلك أم لم يعلم، لأن لطف الله وحسن تدبيره لا يتوقّف على اللطف الظاهر فحسب، بل هناك لطف وتدبير خفيّ أيضاً، وإنما سمّيت هذه السورة باسم «الكهف» لأن هذا الاسم بدلالاته اللغوية والسياقية أدلّ ما في السورة على المحور المذكور[٢].

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن مَن لجأ إلى الله حفظه الله من شتّى المخاوف والفتن.

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ١، ص ٤٣٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص ٤٤١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٢٥٧ و ٢٢٥٨، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٤، ٢٨٣- ٢٨٨، والندوي، **المدخل إلى الدراسات القرآنية وتأملات في سورة الكهف**، ص ١١٠ وما بعدها، وأ. د فضل، **قصص القرآن الكريم**، ص ٧٧، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ١٣٣- ١٣٥، وعبد الحميد طهماز، **العواصم من الفتن في سورة الكهف**، ص ٣٥- ٤٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ١٤٧- ١٥٣.

(٢) أقول: لعل ذلك يُظهر أحد أوجه التعليل لبيان النبيّ ﷺ أن هذه السورة تقي المؤمن من فتنة الدجال، بالإضافة إلى ندبه ﷺ لقراءتها في كل جمعة، وكأن المؤمن حين يقرؤها كل أسبوع يجدّد التجاءه إلى الله ليحفظه من شتى أنواع الفتن، ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها أكثر سورة في القرآن جاء فيها مشتقات الجذر (لدن)، فقد جاءت تلك المشتقات في السورة أربع مرات، ثلاث منها منسوبة إلى الله: ٢، ١٠، ٦٥، والرابعة: ٧٦ ﴿مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، وثانياً: هذه السورة وسورة الجنّ أكثر السور في القرآن تكرر فيهما مشتقات الجذر (رشد)، لكن الكهف تميزت بنسبة الرشد إلى الله في ثلاث مواضع من أربعة: ١٠، ١٧، ٢٤، والرابعة: ٦٦ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، بينما سورة الجنّ نُسب فيها الرشد إلى الله في موضع واحد من أربعة، وثالثاً: سورتا الكهف والجنّ هما الوحيدتان في القرآن اللتان جاء فيهما لفظة (ملتحداً)، وذلك في الكهف: ٢٧ ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، وفي الجنّ: ٢٢ ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، ورابعاً: سورتا الكهف والأنعام أكثر سورتَيْن ـ بعد الأعراف ـ =

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات رئيسية: مقدّمة داعية إلى التزام منهج الله المتمثّل في القرآن مع بيان مصير المؤمن وتهديد الكافر، ثم عرض قصصي يظهر بعض مظاهر اللطف والتدبير الإلهي في الظاهر والباطن لمن التجأ إليه واتّبع منهجه، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[(١)].

أولاً: جاء في المقدّمة بيان فضل القرآن العظيم ووصفه بالقَيّم وغير ذي عِوَج، وبيّنت مصير المؤمنين وهدّدت الكافرين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾، فهذا القرآن يمثّل المنهج الرباني، فمن اتّبعه نال الأمن والسعادة الدائمَيْن يوم القيامة، وقد هدّدت المقدّمة الكافرين المشركين، والشرك أعظم مظاهر

= أضيف فيها لفظة (رحمة) إلى الله، وكان ذلك في ستة مواضع في الأنعام، والكهف: ١٠، ١٨، ٥٨، ٦٥، ٨٢، ٩٨، بينما في الأعراف كان ذلك في سبعة مواضع، وخامساً: سورة الكهف أكثر سورة في القرآن جاء فيها مشتقات الجذر (رفق): ١٦، ٢٩، ٣١، وسادساً: هذه السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها لفظة (الولاية)، وقد كانت منسوبة إلى الله تعالى: ٤٤، وسابعاً: هذه أكثر سورة في القرآن جاء فيها مشتقات الجذر (نسي)، وذلك في ستّة مواضع نسب فيها النسيان للبشر على مختلف مستوياتهم: ٢٤، ٥٧، ٦١، ٦٣ (مرتان)، ٧٣، وثامناً: نُسب العلم إلى الله في هذه السورة تصريحاً سبع مرات: ١٢، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٦٥، ٦٦، أما تلميحاً فقد كان ذلك في أكثر من عشرة مواضع، أذكر منها: ١٣، ٢٤، ٢٦، ٩١، ١٠٩، وقد نُفي العلم عن البشر في هذه السورة تصريحاً في ثلاثة مواضع: ٥، ٢٢، ٢١، وتلميحاً في أكثر من خمسة عشر موضعاً أذكر منها: ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٤٨، ٦٨، ٨٢، ١٠٢، ١٠٤. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وتاسعاً: يلاحظ خلال القصص المذكور في القصة كثرة ضمير العظمة بنون الجمع العائد على الله: (فضربنا، وربطنا، جعلنا لأحدهما، قلنا للملائكة، مكّنّا له، وآتيناه..) وذلك يتلاءم مع بيان كمال القدرة الإلهية، وكأن السورة تقول: إن من تولّى الله واعتمد عليه والتجأ إليه سيجعل الله له من لدنه رشداً ورحمة ومرفقاً، لأن الله تعالى علمه تامّ مطلق وكذلك قدرته، والبشر يجهلون وينسون فهم بحاجة دائمة إلى اللجوء إلى مولاهم ليحميهم من شتى الفتن والمخاوف في الدارَيْن. والله أعلم.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٨، والعرض القصصي شمل كلًّا مما يلي: قصة أصحاب الكهف مع التعقيب: ٩- ٣١، وقصة صاحب الجنتين مع تعقيب مشير إلى قصة آدم عليه السلام مع إبليس: ٣٢- ٥٩، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح: ٦٠- ٨٢، وقصة ذي القرنين: ٨٣- ٩٨، والخاتمة: ٩٩- ١١٠.

الخروج عن منهج الله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾، فمن ادّعى أن لله ولداً فقد أقحم نفسه في الجهل، وارتكب كذباً عظيماً، وأعتقد أن تهديد هؤلاء ببيان أن الله سيجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً متلائم مع اسم السورة ومحورها، فهم لن يجدوا أيّ ملجأ يحميهم من بأس الله يوم القيامة، فقد قرّرت المقدّمة أن المؤمن المتّبع لمنهج الله مُبشَّر بالأمن من الله، وأن الكافر لا مأمن له.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي متنوّع لبيان أوجهٍ من لطف الله في تأمين أوليائه ومَن لزم منهجه من كل المخاوف، فكانت أول قصة قصة أصحاب الكهف، وقد سبق العرض التفصيلي للقصة تلخيص شائق[1]: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾، وهذا التلخيص الشائق يؤكّد محور السورة، فهم ملتزمون بمنهج الله وقد لجؤوا إليه، فحماهم وكفاهم المخاوف وأمّنهم في الكهف، وقصتهم دالّة على قدرة الله على البعث للحساب.

ثم ابتدأ العرض التفصيلي للقصة: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾، ولاحظ كيف أن التزامهم بمنهج الله زادهم هدًى، وقد كان إلهامهم بدخول الكهف لطفاً إلهياً ظاهراً بهم، وأما اللطف الإلهي الذي خفي عنهم خلال مدّة نومهم، فيبرز من خلال بيان السياق بأن الشمس تزاور

---

(١) أشار لذلك سيد قطب رحمه الله في: **التصوير الفني في القرآن**، ص ١٤٨.

عن كهفهم إذا طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا غربت، وأنت تحسبهم أيقاظاً لو اطلعت عليهم وهم في الحقيقة رقود، فهذه بعض أوجه لطف الله الخفي بهم وهم لا يعلمون به.

ثم انتقل السياق إلى أمر آخر غاية في الأهمية، وهو الدلالة على قدرته تعالى على البعث: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾، فهذه الآية إحدى المواضع التي تدلّ على ضآلة علم الإنسان، فهم غفلوا عن مدّة لبثهم الطويلة، وأعتقد أنّ أمرهم الرسولَ بالتلطّف متلائم مع ما بيّنته القصة من آثار لطف الله بهم.

ثم انتقل السياق إلى تعقيب إلهي يبرز قلّة علم البشر أيضاً، ويبرز كمال علم الله المطلق: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾، وعرض التعقيب كذلك مدى اختلاف البشر في عدد أصحاب الكهف، وفي مدّة لبثهم، وبيّن للنبيّ ﷺ بأنه لا يحدث شيء في الكون إلا بمشيئة الله، وأمره بذكر الله حال النسيان، وأن يلجأ إليه دائماً: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾، وبيّن أن علم الله مطلق: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾، ولاحظ الدعوة إلى عدم موالاة أحد سوى الله تعالى، لأنه وحده القادر على تأمين من يلوذ به؛ لكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى ولطفه الظاهر والباطن، ولا شريك له.

ثم أمر السياق النبيَّ ﷺ بتلاوة وتبليغ القرآن الذي هو منهج الله للبشر: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾، وبيّن السياق مصير موقف الناس من اتّباع هذا المنهج أو عدمه، فالكافرون في نار جهنم، والمؤمنون قد حفظ الله لهم أعمالهم وحقّق لهم الأمان والسعادة الدائمين يوم القيامة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ

كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾، وأعتقد أن وصف حال الكافرين في النار وقد أحاط بهم سرادقها، متلائم مع الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة، فالكهف الضيق الذي لجأ إليه المؤمنون قد أصبح رحباً برحمة الله، بينما النار الهائلة الحجم تحيط بالكافرين وتضيق عليهم بعذاب الله.

فأنت ترى أن قصة الكهف مع التعقيب الإلهي عليها تدلّ أشدّ الدلالة على أن من لزم منهج الله واعتمد عليه ولجأ إليه، فسيحميه الله من كل مخاوفه دنيا وأخرى، فإن علم الله مطلق ولطفه ظاهر وخفيّ وقدرته مطلقة، بينما الكافر الذي حاد عن منهج الله لا أمان له لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم انتقل السياق إلى قصة صاحب الجنتيْن، وهي تبرز لنا أنه قد فُتِن بجنّتيه حتى حاد عن منهج الله، فكاد أن ينكر الآخرة، بل لقد وصل به الأمر إلى الشرك بالله كما بين السياق، ولم يجد له ملجأ ينصره من بأس الله الذي أحاط بجنّتيه، بينما صاحبه الذي التزم بمنهج الله حفظه الله من أيّ سوء: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ ولاحظ كثرة ضمير الجمع بنون العظمة العائد على الله، فهو ذو القدرة المطلقة، لكن صاحب الجنتين افتتن بهما حتى أنستاه المنعِم، بينما صاحبه المؤمن التزم بمنهج ربّه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

فهو يدعو صاحبه إلى الرجوع إلى منهج ربّه الذي أنعم عليه، وحذّره من تولّي المال

والولد بدلاً من الله عزّ وجلّ، وانظر ماذا كانت نتيجة اعتماده على الدنيا وغفلته عن ربّه عزّ وجلّ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾، وقد حفظ الله المؤمن من أيّ سوء.

ثم عقب السياق ببيان حقيقة الدنيا وهوانها على الله، وحذّر من الافتتان بالمال والولد، فقصة صاحب الجنتين مع التعقيب الإلهي عليها يحذّران من اللجوء والاعتماد على أيّ وليّ من دون الله تعالى، لأنه لا يحمي من بأس الله شيء. وبذلك يكتمل التناسق بين قصة أصحاب الكهف التي تعطي أنموذجاً للجوء إلى الله، مع بيان العاقبة الحسنى له، وبين قصة ذي الجنتين التي تعطي أنموذجاً للتولّي عنه، مع بيان العاقبة السوأى له.

وانتقل السياق إلى عرض مشهد أخروي يبرز تمام قدرة الله وتمام علمه المطلق: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾، فالخلق سيعرضون على الله ولن يجد أحد منهم ملجأ من دونه، ولاحظ تمام علم الله حين بيّن السياق أن الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويؤكّد ذلك تقديم الصغيرة على الكبيرة، كل ذلك يتلاءم مع محور السورة الداعي إلى اللجوء إلى الله ذي القدرة والعلم المطلق والاعتماد عليه.

وعلى عادة السياق في أكثر من موضع، ربط بين ذكر الآخرة وبين قصة آدم عليه السلام، لأن قصته عليه السلام تمثّل بداية البشر، واليوم الآخر يمثّل النهاية، واللافت للنظر أن السياق حذّر من تولّي الشيطان وذريته من دون الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾، ولاحظ بيان مدى حمق من اعتمد على شريك جاهل عديم القدرة، من دون الله العليم القدير: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم

﴿مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾، فهم لن يجدوا ملجأ يصرف عنهم عذاب الله.

ثم عاد السياق إلى التذكير بالتزام منهج الله المتمثّل في القرآن، مع بيان أن لا ملجأ يحمي من حاد عنه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾، فهذا التعقيب متلائم تماماً مع محور السورة ومع الدلالات السياقية واللفظية لاسم السورة.

ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، ومن وجهة نظري أرى أنها تتلاءم مع محور السورة ومع دلالات اسمها من أكثر من ناحية، فهي أولاً: تبرز قصور علم البشر حتى لو كان نبياً، كما سيظهر من نسيان موسى عليه السلام وعده أكثر من مرة، ومن رَدّ الأمور التي قام بها الصالح إلى أمر الله آخر القصة، وهي ثانياً: تبيّن لبني إسرائيل الذين زعموا جهلاً وكذباً أن لله ولداً كما جاء في أول السورة، تبيّن لهم أن أعلم أنبيائهم يتعلّم على يدي عبد صالح من عباد الله لم يُذكر اسمُه، فكيف يخوضون فيما ليس لهم به علم ولا لآبائهم؟ وهي ثالثاً: تمثّل أحد أوجه لطف الله الخفي فيمن احتمى به ولزم منهجه، وهي رابعاً: تبرز تمام القدرة والعلم الإلهي..

تبدأ القصة بذكر نسيان موسى عليه السلام وفتاه للحوت، وذلك يشير إلى قصور علم البشر: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾، وتؤكّد القصة ذلك ببيان العبد الصالح لموسى عليه السلام أنه لن يصبر على ما لم يحط به خبراً: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، ولاحظ ضمير العظمة العائد على الله، وكذلك نسبة العلم والتعليم والرحمة إليه، ولاحظ أن التزام هذا العبد بمنهج الله قد أوصله إلى مرحلة جعلته سبباً من أسباب لطف الله الخفي.

وأما أحداث القصة، فيبرز من خرق العبد للسفينة لطفُ الله الخفي بالمساكين، فهم لم يعلموا بذلك، ويبرز من قتله الغلامَ لطفُ الله الخفي بوالدَي الغلام المؤمنَيْن، ويبرز من إقامته الجدارَ لطفُ الله بالغلامَين اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً، وهذه الأحداث تبرز قصور علم موسى عليه السلام عن الحكمة منها إلى أن أنبأه العبد الصالح بها، واللافت للنظر أن العبد الصالح نسب أفعاله إلى الله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(بعض الآية: ٨٢)، ولم يفتتن بعلمه كما افتتن صاحب الجنتين بجنتيه.

فأنت ترى أن هذه القصة بأحداثها تبرز كمال علم الله وقدرته، وتبرز بعض مظاهر لطف الله الخفي وحسن تدبيره لحماية مَن التزم بمنهجه من شتى المخاوف والفتن.

بقيت قصة ذي القرنين، وهي أيضاً تتلاءم مع محور السورة ودلالات اسمها من أكثر من جانب، فهي تبرز بعض مظاهر كمال علم الله وقدرته، وتبرز بعض مظاهر لطف الله الظاهر بمن التجأ إليه، وذلك يتمثّل بما قام به ذو القرنين من الأعمال، وتبرز قصور علم البشر عن تفاصيل هذه القصة حتى أعلمهم الله بها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾، ولاحظ أولاً: كثرة ضمير العظمة العائد على الله، ولاحظ ثانياً: نسبة تمكين ذي القرنين في الأرض وإيتائه أسباب الملك إلى الله تعالى، وما ذلك إلا لكونه التزم بمنهج الله وبلغ درجة من الصلاح أهّلَتْه لذلك، ولاحظ ثالثاً: كيف جعله الله سبباً من أسباب لطفه الظاهر بمن آمن من ذلك القوم، فقد سلّطه الله على الظالمين، وجعله فرجاً للمؤمنين.

أما الحدث الثاني المتعلّق بمروره على قوم لم يكن لهم من دون الشمس ستر، فأعتقد أنه مسوق لبيان تمام القدرة الإلهية، وذلك يتجلّى من ربط هذا الحدث مع ما جاء في قصة أصحاب الكهف، حيث بيّنت قدرة الله في جعل الشمس تزّاور عن كهفهم إذا طلعت، وجعلها تقرضهم ذات الشمال إذا غربت، وذلك طيلة مدّة لبثهم، وليكتمل التناسق في عرض بعض مظاهر قدرة الله، بيّن هذا الحدث في قصة ذي القرنين قدرة الله في أنه لم يجعل

لهؤلاء القوم من دون الشمس ستراً، فكما هو قادر على حفظ الفتية المؤمنين من الشمس، فهو قادر أيضاً على أن لا يجعل لهؤلاء القوم ما يحفظهم منها، ولاحظ تمام علم المطلق في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾[1].

والحدث الثالث فقد كان أيضاً من مظاهر لطف الله بالبشر، فقد كان الردم الذي بناه ذو القرنين بين يأجوج ومأجوج وبين هؤلاء القوم حماية لهم من شرّ يأجوج ومأجوج حتى يحين وعد الله، واللافت للنظر أن ذا القرنين لم يكتف ببناء سَدّ، بل رأى أن الردم هو الأنسب لزيادة الحماية فالردم أكبر من السَّدّ، فكان ذلك أظهر للطف الله عزّ وجلّ وحمايته للضعفاء، واللافت للنظر أيضاً أن ذا القرنين نسب ذلك الفعل لربه عزّ وجلّ، ولم يفتتن في ملكه وسلطانه كما افتتن صاحب الجنتين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝٩٨﴾. فقصة ذي القرنين مترابطة أشدّ الترابط بالدلالات اللغوية والسياقية لاسم السورة ومحورها.

ثالثاً: أما الخاتمة فهي تحوي تلخيصاً لكل ما سبق، فهي تؤكّد قدرة الله تعالى التامة على البعث ومجازاة من حاد عن المنهج: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾، وهي تؤكّد حفظ الله وحمايته لأوليائه الملتزمين بمنهجه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾، وكما افتتحت السورة ببيان فضل القرآن القيم الغير ذي عوج والذي يمثّل منهج الله للبشر، ختمت السورة ببيان كمال علم مُنزِل هذا القرآن والدعوة إلى التزام منهجه والالتجاء إليه وحده ليتحقّق لهم الأمن والأمان في الدنيا والآخرة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾، وهكذا التقى مفتتح السورة وختمها على المحور الذي دلّت عليه أبلغ الدلالة قصة الكهف بدلالاتها اللغوية والسياقية والتي سمّيت السورة باسمها.

---

(١) ذكر سيّد قطب رحمه الله لفتة أخرى، وهي التناسق في العرض القرآني بين الشمس المكشوفة التي لا يسترها عن القوم ساتر، وبين كشف الله لما في ضمير ذي القرنين، ينظر: **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٢٩٢. وهي لفتة ظريفة تؤكّد أيضاً كمال علم الله المطلق.

سورة الكهف

سورة بيان أن من التجأ إلى الله حفظه الله من شتى المخاوف والفتن

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدّمة التي تدعو إلى التزام منهج الله المتمثّل بالقرآن والذي فيه الحفظ، مع بيان مصير المؤمن وتهديد الكافر:

- افتتحت السورة بحمد الله على إنزال القرآن غير العوج، ودعت إلى التزام ما فيه ليحفظ المؤمنون به أنفسهم من المخاوف والفتن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.
- وحذّرت المقدّمة من الشرك؛ لأنه أعظم مظاهر الخروج عن منهج الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.
- وبيّنت أن الله سيجعل الأرض يوم القيامة صعيداً جُرُزاً، فلن يجد المكذّب بآيات الله ملجأ يحميه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٩٩)

عرض قصصي متنوّع لبيان أوجهٍ من لطف الله في الظاهر والباطن لمن التجأ إليه واتبع منهجه:

- بيّنت قصة أصحاب الكهف أنهم فتية ملتزمون بمنهج الله، وقد لجؤوا إلى الله فألهمهم اللجوء إلى الكهف ليحفظهم من فتنة قومهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾، فهذا لطف ظاهر.
- وأما اللطف الإلهي الخفي بهم فهو أن الله جعلهم ينامون لمدة ثلاث مئة وتسع سنين، وجعل الشمس طوال هذه الفترة تزاور عن كهفهم إذا طلعت، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال.
- وبيّنت قصة صاحب الجنتين كيف افتتن بهما حتى أنساه المنعِم سبحانه وأشرك به، وكاد ينكر الآخرة، وبيّنت القصة كيف أحاط العذاب بجنتيه حتى أصبح يقول: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.
- وقد حفظ الله المؤمن الملتزم بمنهج الله من أيّ سوء.

■ وقد حذّر السياق من اتخاذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله، لأنه فسق عن أمر ربه ويريد إغواء بني آدم بصدهم عن سبيل الله.

■ بيّنت قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ثلاثة مظاهر من لطف الله الخفي لحماية الملتزمين بمنهجه من المخاوف، فقد خرق العبد الصالح السفينة ليكون هذا من اللطف الإلهي الخفي بالمساكين.

■ وقد قتل الغلام ليكون هذا لطفاً إلهياً بوالدَيْه المؤمنين.

■ وقد أقام الجدار ليكون هذا لطفاً بالغلامَيْن اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً.

■ وبينت قصة ذي القرنين بعض مظاهر لطف الله الظاهر بالمؤمنين، فقد قال ذو القرنين عند بلوغه القوم مغربَ الشمس: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

■ وقد بنى الردم للقوم الضعفاء ليحفظهم الله من شرّ يأجوج ومأجوج: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٩٩-١١٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ بيّنت جزاء مصير من لم يلتزم بمنهج الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

■ وبيّنت جزاء ومصير المؤمنين الملتزمين بمنهج الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن القرآن الذي يمثّل منهج الله للبشر غير ذي عوج، ختمت بالدعوة إلى التزام هذا المنهج ليتحقق للمؤمن الأمن والنجاة في الدنيا والآخرة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

سورة مريم

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «مريم» لذكر قصتها عليها السلام فيها، والتي تعرض كيف اصطفاها الله لمعجزة حملها بعيسى عليه السلام بلا زوج، وبراءتها من أيّ فرية متعلقة بهذا الشأن، ويبرز من سياق هذه القصة كمال رحمة الله بمريم وابنها عليهما السلام، وكمال علم الله تعالى وقدرته المطلقة، فهو الإله الخالق الواهب المتفرد في هذا الوجود، وهو منزَّه عن الصاحبة والولد.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة يقوم على التوحيد، وأن من الموضوعات البارزة فيها: الرحمة الظاهرة من إفاضة النعم على البشر، وبيان قدرة الله تعالى على البعث وهي قضية ناتجة عن محور التوحيد، واستدلوا على أن تسمية السورة باسم «مريم» هو الأجدر؛ بسبب ما جاء في قصتها من مظاهر تمام قدرة الله وشمول علمه عزّ وجلّ، واسم السورة جعل جوّها مَعْرِضاً للانفعالات النفسية، وقصة مريم خاصة تظهر هذه الانفعالات بشكل لافت، كما وأن ظلال الرحمة والرضا والاتصال بالله مهيمنة على السورة، ومما يدل على ذلك فاصلة الألف في معظم آيها(١).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٤، ص٥١٤، وقطب، **في ظلال**=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد وما يترتّب عليه من وجوب الإيمان باليوم الآخر، من خلال عرض بعض مظاهر كمال رحمة الله تعالى وكمال قدرته وشمول علمه في سياق القصص القرآني المذكور في السورة، وهي مظاهر دالّة على توحيد الله تعالى فلا ندَّ ولا صاحبة ولا وَلَد له تعالى، وهو وحده القادر على بعث الناس للحساب، وإنما اختير اسم «مريم» لهذه السورة؛ لأن قصتها الواردة فيها أدل ما في السورة على المحور المذكور.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تنزيه الله عن الصاحبة والولد والشريك، بل هو وحده الخالق الواهب القادر**.

والمتأمّل في موضوعات السورة يجد فيها كلها دلالات كمال رحمة الله، وشمول علمه وكمال قدرته، مما يوجب توحيده وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك، ويوجب الإيمان بيوم الحساب الناتج عن هذا التوحيد، وفيما يلي بيان بعض أوجه الربط بين الدلالات السياقية لاسم السورة «مريم» وبين موضوعاتها:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تعرِضُ قصةَ زكريا عليه السلام وتثبت رحمة الله وكمال قدرته، فهو الخالق الواهب القادر، وثانياً: قصص قرآني يشمل كلًّا من: مريم مع تعقيب على قصتها، وإبراهيم، وإشارات إلى موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام جميعاً، وكلها تؤكّد المحور المذكور، ثالثاً: تعقيب على هذا القصص، ورابعاً: خاتمة تؤكّد ما سبق[1].

= **القرآن**، ج ٤، ص ٢٢٩٩- ٢٣٠١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٦، ص ٥٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٤، ص ٤٠٦- ٤٠٨. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٢٤١، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ١٤٥- ١٤٨، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٥، وقصة مريم: ١٦- ٣٣، والتعقيب عليها: ٣٤- ٤٠، وقصة إبراهيم: ٤١- ٥٠، والإشارات إلى الأنبياء: ٥١- ٥٨، والتعقيب على القصص: ٥٩- ٨٧، الخاتمة: ٨٨- ٩٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: اسم «الرحمن» تكرر فيها ستّ عشرة مرة، وهي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها هذا الاسم الجليل، وثانياً: هي أكثر سورة في القرآن جاءت فيها مشتقات الجذر «وهب» العائد على الله تعالى، ينظر الآيات: ٥، ١٩، ٤٩، ٥٠، ٥٣. ثالثاً: ومنها أمور تُنزِّه الله تعالى عن الشريك والولد: أ) فقول عيسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي=

أولاً: افتتحت السورة بذكر قصة زكريا عليه السلام، ويبرز فيها جلياً مظاهر كمال العلم

= ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: ٣٠، لم يتكرر في القرآن، ب) وقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُۥٓ﴾: ٣٥، وقوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: ٩٢، لم يتكررا بالصيغة ذاتها، وقريب منهما في الإسراء: ١١١، والفرقان: ٢، ج) وكذلك قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾: ٨١، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وقريب منه في الفرقان: ٣، ويس: ٧٤، رابعاً: ومن لطائف هذه السورة أنها مع سورة آل عمران تعطيان صورة متقابلة متكاملة، فقد ذكرتُ أن محور سورة آل عمران هو اصطفاء أمة التوحيد من خلال بيان أسباب اصطفاء آل عمران، وسورة مريم محورها مذكور أعلاه، وإليكم بعض أوجه التناسق بين السورتين وهو ما يؤكّد هذه الحقيقة: أولاً: جاء في الآية الثالثة من سورة آل عمران قوله تعالى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، وفي سورة مريم جاءت عبارة ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ خمس مرات: ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦، وثانياً: آخر آية في سورة آل عمران جاء النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفي ختام سورة مريم جاءت العبارة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وثالثاً: انظر الآية ٢٠ من سورة آل عمران ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾، والآية ١٠٣ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وانظر الآية ٧٦ من سورة مريم وكأنها تتمّم الآيتين السابقتين ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، ورابعاً: جاءت عبارة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مرتين في سورة آل عمران: ١٠٩، ١٢٩، وانظر الآية ٦٥ من سورة مريم ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وخامساً: انظر الآية ٨٣ في سورة آل عمران ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، وانظر الآية ٩٣ في سورة مريم ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وسادساً: انظر الآيتين ١٠ و ١١٦ في سورة آل عمران اللتين اشتركتا بنفس العبارة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾، وانظر الآيات ٧٧ - ٨٠ من سورة مريم ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، وسابعاً: في الآية ٦ من سورة آل عمران جاءت العبارة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وفي سورة مريم جاءت أمثلة عملية على هذه الحقيقة كخلق يحيى وعيسى وإسحاق عليهم السلام بالرغم من صعوبة الظروف أو انعدامها، وثامناً: انظر قوله تعالى في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾، وانظر الآية ٩٨ من سورة مريم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ...﴾، وتاسعاً: انظر قوله تعالى في الآية ١٥١ من سورة آل عمران ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وانظر الآية ٧٢ من سورة مريم ﴿...وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، وعاشراً: ذكرت مريم في سورة آل عمران ٧مرات: ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٥ (مرتين)، وذكرت مريم في سورة مريم ٣ مرات: ١٦، ٢٧، ٣٤، وأحد عشر: ذكر عيسى عليه السلام في سورة مريم خمس مرات، واحدة منها فقط ذكر مع نسبته لأمه «عيسى ابن مريم» وذلك في الآية: ٤٥، ولم يذكر عيسى عليه السلام في سورة مريم إلا مرة واحدة وبنسبته إلى أمه: ٣٤، وثاني عشر: ذكر نوح عليه السلام في سورة آل عمران مرة واحدة: ٣٣، وكذلك الأمر في سورة مريم: ٥٨، وثالث عشر: ذكر موسى عليه السلام في سورة آل عمران مرة واحدة: ٨٤، وكذلك في سورة مريم: ٥١، ورابع عشر: ذكر آدم عليه السلام في سورة آل عمران مرتين: ٣٣، ٥٩، وفي سورة مريم مرة واحدة: ٥٨، وخامس عشر: ذكرت كلمة «المتقين» في سورة آل عمران أربع مرات: ٧٦ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ١١٥، ١٣٣ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ١٣٨، وفي سورة مريم ذكرت هذه الكلمة مرتين: ٨٥ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، ٩٧ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وانظر الآية ٦٣ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، وسادس عشر: ذكر إبراهيم عليه السلام في سورة آل عمران ٧ مرات: ٣٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٨، وذكر في سورة مريم ٣ مرات: ٤١، ٤٦، ٥٨، وسابع عشر: =

والرحمة والقدرة الإلهية، فقد سمع الله قول زكريا عليه السلام الخفي: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝﴾، ولاحظ لفظة (رحمت) بالتاء المفتوحة لا المغلقة، وهي تدلّ على اتساع تلك الرحمة وانتشارها، ومما يدل على كمال قدرة الله عزّ وجلّ أن الله استجاب دعاءه ووهبه يحيى عليه السلام بالرغم من كِبَر زكريا في السّنّ وامرأته عاقر: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝﴾، ولاحظ قوله تعالى الدالّ على قدرته على البعث: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً).

فمظاهر الرحمة وكمال القدرة هذه دعت زكريا عليه السلام إلى أن يأمر قومه بتسبيح الله القادر على كل شيء: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾، وقد تكررت الإشارة إلى قدرة الله تعالى على البعث أيضاً في سياق ذكر يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝﴾.

فأنت ترى أن السياق يركّز في قصة زكريا عليه السلام على كمال رحمة الله تعالى وكمال قدرته على الخلق والبعث، مما يوجب توحيده كونه وحده القادر على ذلك، فهو سبحانه الخالق الواهب، ويوجب الإيمان باليوم الآخر الذي فيه الحساب. وفيما يلي بيان تناسق ذلك مع دلالات قصة مريم عليها السلام:

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصص لعدد من الشخصيات، يظهر فيها كلها كمال الرحمة والقدرة الإلهية، وبيان أنه تعالى الخالق الواهب، وقد كانت قصة مريم أولى هذه

= أضيفت كلمة «رحمة» إلى الله في سورة آل عمران أربع مرات: ٨، ١٠٧، ١٥٧، ١٥٩، وفي سورة مريم مرتين: ٢، ٢١، وثامن عشر: ذكرت «الجنة» بالإفراد في سورة آل عمران ٣ مرات: ١٣٣ ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، ١٤٢، ١٨٥، وفي سورة مريم ذكرت مرتين: ٦٠، ٦٣ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝﴾، وذكرت «الجنات» بالجمع في سورة آل عمران ٣ مرات: ١٥، ١٣٦، ١٩٥ ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، وفي سورة مريم ذكرت مرة واحدة: ٦١ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، وتاسع عشر: ذكرت «جهنم» في سورة آل عمران ٣ مرات: ١٢ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، ١٦٢، ١٩٧، وفي سورة مريم ذكرت مرتين: ٦٨ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، ٨٦. ولا يخفى أن سورة آل عمران مدنية وسورة مريم مكية، وإذا تأملت المواضع المذكورة في سياق السورتين، ستجد أن كلًّا منها قد جاء بصيغ تناسب المحور المذكور لكلتا السورتين. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

القصص، ويدل على كمال علم الله تعالى وقدرته ورحمته في هذه القصة عدّة أمور، أولاً: أن السياق أخبر عن مكان وقوع أحداث القصة، إذ كانت مريم قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، واتخذت من دونهم حجاباً، وقد كان من الممكن أن تبدأ القصة بقول جبريل حين تمثّل لها رجلاً سوياً: إنما أنا رسول ربك. . . ، فالإخبار عن موقع مريم المنتبذ عن أهلها مع تحديد جهته بالشرق، يدل على كمال علم الله تعالى.

وثانياً: يدل على كمال قدرته تعالى أن جعل مريم تحمل بعيسى من غير زوج: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾، ولاحظ العبارة المكررة في قصة مريم وقصة زكريا التي سبقتها: (كذلك قال ربك هو عليّ هيّن)، وهي دالّة على كمال قدرة الله على الخلق والبعث.

وثالثاً ورابعاً: إكرام الله تعالى مريمَ بكرامتَيْن خاصتين بها تدلان على قدرة الله ورحمته: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ﴾.

وخامساً: أنطق الله تعالى عيسى ابن مريم وهو في المهد بقولٍ يوجب توحيد الله كونه القادر على كل شيء، ويوجب تنزيهه عن الشريك والزوجة والولد: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾، ولاحظ أول كلمة قالها: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ فما هو إلا عبد لله أكرمه بالرسالة وجعله نبياً، ولاحظ ذكر كونه باراً بوالدته، فكيف يكون إلهاً مَن كانت له أمّ؟ ولاحظ تكرار عبارة ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ في قصته وقصة يحيى عليه السلام، الدالة على كمال قدرة الله تعالى على البعث. ومن ناحية أخرى تنفي هذه العبارة الإلهية عن عيسى عليه السلام، لأن الإله لا يموت. فأنت ترى أن أبرز دلالة لهذه القصة نفي الصاحبة والولد والشريك عن الله تعالى، بل هو الخالق الواهب القادر.

ثم جاء تعقيب إلهي على هذه القصة يقرّر حقيقة توحيد الله عزّ وجلّ القادر على كل شيء، ومن ذلك بعث الناس للحساب، ويقرّع هذا التعقيب مَن اختلف في هذه الحقيقة فغيّر وبدّل: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾. واللافت للنظر أن الفاصلة تبدلّت من الألف إلى النون، وذلك للفت الانتباه إلى تبرئة عيسى عليه السلام مما دار حوله وحول أمّه من الفريات الباطلة[1].

فأنت ترى أن قصة مريم بدلالاتها المتعددةِ على كمال رحمة الله وقدرته وعلمه، الداعيةِ إلى توحيد الله وتنزيهه والإيمان بالبعث، هي الأجدر بتسمية السورة باسمها.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام، وتجد فيها دعوته أباه للتوحيد: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾، ولاحظ تكرار لفظة (يا أبت) أربع مرات، وتكرار لفظة (الرحمن) مرتَيْن، وذلك منسجم مع جوّ الرحمة في السورة، وتجد في القصة كذلك بعض مظاهر كمال رحمة الله تعالى وقدرته: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾، فالقصة منسجمة تماماً مع محور القصة ودلالات السياقية لاسمها «مريم». من حيث بيان أن الله هو الخالق الواهب المنزّه عن الشريك.

ثم انتقل السياق إلى ذكر إشارات إلى بعض الأنبياء، هم موسى وهارون: ﴿وَٱذْكُرْ فِى

---

(١) قد أشار سيّد قطب رحمه الله لذلك: **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٣٠٠.

ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، وذكر موسى عليه السلام وهارون عليهما السلام متلائم ـ فيما أرى ـ مع الدعوة إلى التوحيد، بالإضافة إلى إبراز مظاهر رحمة الله تعالى، فموسى وهارون أُرسلا إلى من قال: أنا ربكم الأعلى، أعني فرعون، وذكر هارون أيضاً يذكّرنا بعبادة بني إسرائيل للعجل، حينما استخلفه أخوه موسى عليهم. فالإشارة إليهما منسجمة مع محور السورة.

أما الإشارة إلى إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾، فهي تبرز بعض مظاهر رحمة الله تعالى، ومن ناحية أخرى هي منسجمة مع محور السورة كذلك، لأن الصلاة والزكاة هي الجانب العملي التطبيقي لتوحيد الله وشكره[1].

وأما الإشارة إلى إدريس عليه السلام فقد جاءت منسجمة أيضاً مع جوّ الرحمة في السورة، واللافت للنظر أن الإشارات إلى الأنبياء ختمت بذكر أن الأنبياء الذين أنعم الله عليهم جميعاً ومن اجتبى من ذرياتهم كانوا جميعاً موحّدين شاكرين لله عزّ وجلّ على نعمه ورحمته وكمال قدرته: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾. وأعتقد أن ذكر السجدة في هذه السورة متلائم مع ذكر الساجدين شكراً لله على نعمه ورحمته، وكأن الساجد حينئذ يكون في معيّة الساجدين قبله من الأنبياء والصالحين من ذرياتهم[2].

---

(١) من اللافت للنظر أن هذه الإشارة لإسماعيل عليه السلام متلائمة تماماً مع قصة أبيه عليه السلام في سورة إبراهيم حينما قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ فقد استجاب الله دعوته فجعل ابنه إسماعيل مقيماً للصلاة آمراً أهلَه بها، واستجاب الله دعوته كذلك حيث كان أمرُ إسماعيل أهلَه بالزكاة أحد مظاهر شكر الله تعالى على ما رزقهم من الثمرات. فسبحان من يقصّ علينا أحسن القصص.

(٢) ومن اللافت للنظر أيضاً أن مريم عليها السلام التي سمّيت السورة باسمها، قد أمرت هي أيضاً بالسجود شكراً لله=

ثالثاً: ثم جاء تعقيب إلهي على ذلك القصص مقرّر لحقيقة التوحيد وبيان كمال قدرة الله تعالى وشمول علمه رحمته، ومهدّد للكافرين والمشركين الذين حادوا عن جادّة الأنبياء الموحدين: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾، ولا يغفل السياق بيان قدرة الله تعالى على البعث والحساب كما أثبتت القصص السابقة قدرته تعالى على الخلق أول مرة، كما في قصة زكريا ومريم وإبراهيم عليهم السلام: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧﴾. وانظر إلى قوله تعالى المهدّد للكافرين، والمؤكّد قدرة الله على البعث والحساب، والمبيّن شمول رحمته تعالى للمتقين: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ۝٧٢﴾.

وقد أكّد هذه الحقيقة أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ۝٨٤ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾. فالسياق يدعو إلى وجوب توحيد الله والإيمان بالبعث في اليوم الذي سيرحم الله فيه عباده المؤمنين، ويهدّد المشركين والكافرين ببيان العذاب الذي سيحيق بهم في ذلك اليوم. وقد دلّ سياق قصة مريم التي سمّيت السورة باسمها على هذه الحقائق أشدّ الدلالة.

رابعاً: وختمت السورة بذكر أعظم فرية افتراها الإنسان على ربّه عزّ وجلّ، وهي ادّعاء أن لله تعالى ولداً، وقد ردّها السياق من خلال بيان القدرة الكاملة لله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

= تعالى على نعمته ورحمته وكمال قدرته، وذلك في السورة التي سمّيت بـ «آل عمران» الذين تنتسب مريم إليهم: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾.

فَرْدًا﴾، وذِكْر هذه الفرية متّسق تماماً مع قصة مريم التي بيّنت براءتها وابنها من أيّ فرية تدور حول إشراكهما في الإلهية. ومتّسق مع باقي القصص التي تثبت أن الله وحده الخالق الواهب القادر، فكما بيّن السياق في تلك القصص كمال قدرة الله وشمول رحمته وعلمه، وهي أمور لا يملك منها عيسى وأمّه شيئاً ولا حتى أحد من الخلق، ثبت أنه تعالى هو وحده المستحقّ للعبادة بلا شراكة من صاحبة أو ولد، وكذلك هنا في ختام السورة جاء الرَّدّ على هذه الفرية بنفس الأسلوب.

وكما افتتحت السورة بذكر رحمة الله وكمال قدرته، ختمت كذلك بذكر رحمة الله وكمال قدرته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

وهكذا التقى افتتاح هذه السورة مع ختامها على حقيقة التوحيد، الذي دلّت عليه قصة «مريم» التي سمّيت السورة باسمها أبلغ الدلالة.



سورة مريم

سورة تنزيه الله عن الصاحبة والولد والشريك، بل هو وحده الخالق الواهب القادر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٥)

المقدّمة التي تثبت أن الله وحده الخالق الواهب القادر:

- افتتحت السورة ببيان أن الله سمع نداء زكريا عليه السلام الخفي، وأنه قد أجاب دعاءه بأن بشّره بغلام اسمه يحيى لم يجعل له من قبل سمياً.
- وقد كان زكريا عليه السلام حينها قد بلغ من الكِبَر عتياً، وامرأته عاقر: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.
- وأثبتت قصته أيضاً قدرة الله على البعث كما هو قادر على الخلق: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٦-٥٨)

قصص قرآني متعدّد يثبت رحمة الله وكمال قدرته، وأنه وحده الخالق الواهب:

- بيّنت قصة مريم عليها السلام أن الله مُنزَّه عن الصاحبة والولد، وأثبتت أنه وحده الواهب القادر الخالق، فقد أرسل جبريل إلى مريم ليهب لها غلاماً زكياً دون زوج: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.
- ومن مظاهر قدرة الله أن الله أكرمها بأن جعل تحتها سرياً، وجعل النخلة تساقط عليها رطباً جنياً.
- وقد أنطق اللهُ عيسى عليه السلام في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.
- وكذلك قصة إبراهيم عليه السلام تدعو إلى التوحيد وتنفي الشريك عن الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾.
- ومما يثبت أن الله هو الخالق الواهب في هذه القصة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.
- وقد أشار السياق إلى بعض الأنبياء مؤكداً أن الله هو الواهب، فقد جعل موسى عليه السلام مخلصاً وأرسله مؤيداً بأخيه هارون عليه السلام.
- وقد جعل إسماعيل عليه السلام نبياً، ومدحه بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وقد جعل الله إدريس صديقاً نبياً ورفعه مكاناً علياً.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٩-٨٧)

تعقيب على القصص يقرّر حقيقة التوحيد، ويهدّد الكافرين الذين حادوا عن جادّة الأنبياء:

- ثم عقب السياق بالنعي على الكافرين الذين حادوا عن دعوة الأنبياء: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.
- وردّ السياق على مَن زعم عدم قدرة الله على البعث: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾﴾.
- ومما يؤكّد كمال قدرته تعالى على البعث والجزاء بيان مصير المتقين ومصير المجرمين يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨٨-٩٨)

الخاتمة التي تؤكّد تنزيه الله تعالى عن الصاحبة والولد والشريك:

- ردّت على مَن زعم أن الله قد اتخذ ولداً: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بذكر رحمة الله وكمال قدرته للتأكيد على أنه وحده الإله القادر، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾.

سورة طه

﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة من حرفَي اللغة العربية المذكورين أولها، وهما حرفا الطاء والهاء، وقد لا نقف على حقيقة معناهما، لكن من الممكن إدراك بعض مدلولاتهما، فقد قيل إنهما حرفان يشيران إلى إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الأحرف، ومع ذلك يعجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وقيل بالإضافة إلى ما سبق: إن السور التي ذكر حرف (الطاء) في أولها، كلها تضمّ قصة موسى عليه السلام بتفصيل، وكأن الطاء في هذه السورة إشارة إلى الطور، والهاء إشارة إلى هارون عليه السلام[1]، أقول: بعد تتبعي للكلمات التي ذُكر في أولها هذان الحرفان في هذه السورة، وجدتُ أنه من الممكن أيضاً اعتبار حرف الطاء إشارة إلى طغيان الإنسان إذا أعرض عن هدى الوحي، واعتبار الهاء إشارة إلى الهدى الذي جاء به الوحي إلى الإنسان، وسأذكر تفصيل ذلك مبيّناً تناسبه مع محور السورة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الإعلام بإمهال المدعوين والحلم عنهم والترفّق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، وفي هذا زيادة في شرف داعيهم ﷺ، وذكروا أن

---

(١) ينظر شيء من التفصيل حول حروف فواتح السور: د. أحمد نوفل، **تفسير سورة القصص، دراسة تحليلية موضوعية**، ص ١١- ٢٨.

السورة تبيّن وظيفة النبيّ ﷺ وحدود تكاليفه، فليست رسالتُه شقوةً كتبت عليه ولا عناءً، إنما هي التذكرة والدعوة والتبشير والإنذار، وقد تضمّنت قصة موسى عليه السلام رعاية الله له ولقومه، وكذلك تضمّنت قصة آدم عليه السلام رعاية الله له بعد خطيئته، وكما بيّنت السورة نصر سيّدنا موسى على معانديه، فهي بذلك تعرِّض بنصرة سيّدنا محمد ﷺ على معانديه، والسورة يظلّها ظلّ علوي جليل يخلعه تجلّي الرحمن على الوادي المقدّس على عبده موسى، وهو الظلّ الذي يخلعه تجلّي القيوم في موقف الحشر العظيم، هذا الظلّ يجعل جوّ الرحمة سائداً في موضوعات السورة كلها[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الرسالة الإلهية للبشر ليست سبباً لشقاء الرسول أو المرسل إليهم، بل هي سبيل الهدى، وأن مَن يُعرِض عن هدى الرسالة الإلهية يعرّض نفسه للطغيان والشقاء. ولما كان ـ من وجهة نظري ـ حرف الطاء يشير إلى طغيان الإنسان إذا أعرض عن هدى الله، وحرف الهاء يشير إلى هدى الله، ذُكرا في أول السورة وجُعل منهما اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وكأن (طه) تشير إلى طغيان البشر في مقابل هدى الله.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان طغيان من أعرض عن هدى الله**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٣و ٤، وقد اعتبر حرف الطاء الذي هو من حروف الاستعلاء مشيراً إلى قوة أمره ﷺ وانتشاره، والهاء الذي مخرجه أقصى الحلق من الجوف مشيراً إلى اشتهار أمره ﷺ، وذكر وجوهاً أخرى، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٣٢٦ و ٢٣٢٧، وقد اعتبر حرفي الطاء والهاء يدلان على إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الأحرف، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٦، ص ١٨١- ١٨٣، ورأيه في (طه) كرأي سيد قطب، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٤، ص ٤٨٥- ٤٩٥، وقد اعتبروا (طه) نداء للنبيّ ﷺ، وحنان اللحام، **أضواء وتأملات في سورة طه**، ص ١١- ١٩. وقد اعتبرت (طه) نداء للنبيّ ﷺ، وعطية زاهدة، **فواتح السور والحروف السبعة**، ص ٨٠، وقد اعتبر حرف الطاء مشيراً إلى القَسَم بجبل الطور الذي أقسم الله به وجعل له سورة خاصة، والهاء مشيراً إلى القَسَم بالهدى نظراً لتكرر ذكره في السورة. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولها: مقدّمة تبيّن أن القرآن تذكرة ورحمة للنبيّ ﷺ وللمؤمنين وليس سبباً للشقاء، وثانيها: قصة إرسال موسى عليه السلام بالهدى إلى فرعون الذي طغى، وقصته مع قومه من بني إسرائيل، وثالثها: تعقيب إلهي على القصة يعرض شقاء المكذّبين وسعادة المؤمنين يوم القيامة، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الرسالة الإلهية ليست سبباً لشقاء الرسول أو

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٨، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون: ٩- ٧٩، وقصته مع قومه: ٨٠- ٩٨، والتعقيب على القصة: ٩٩- ١٢٩، والخاتمة: ١٣٠- ١٣٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بحرف الطاء، فهذه السورة هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر (طغى) بصيغة الفعل، وإليك التفصيل: أ) لم يتكرر الفعل الماضي (طغى) في القرآن إلا في سورتي طه: ٢٤، ٤٣، والنازعات: ١٧، ٣٧، ب) لم تذكر عبارة (لا تطغوا) في القرآن إلا في ثلاث سور طه: ٨١، هود: ١١٢، الرحمن: ٨، ج) لم يذكر الفعل المضارع (يطغى) إلا في سورتي طه: ٤٥، والعلق: ٦، وبإمكانك أن تضيف أيضاً أن هذه السورة مع سورة مريم هما السورتان الوحيدتان اللتان ذكر فيهما عبارة ﴿ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، طه: ٨٠، ومريم: ٥٢، والتفصيل في تحديد موقع المناجاة يؤكّد كون الوحي الإلهي هدى للناس، ثم إن سورة طه هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر (طرق)، وذلك ثلاث مرات، منها مرتان تؤكّدان شقاء من أعرض عن هدى الوحي: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: ٦٣، و ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: ١٠٤، ومرة تؤكّد أن الرسالة الإلهية سبب السعادة وليست للشقاء: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾: ٧٧، ومن اللطيف أن عبارة (طلوع الشمس) لم تذكر إلا في سورتي طه: ١٣٠، و ق: ٣٩، وكذلك عبارة ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ لم تذكر إلا في سورتي طه: ١٢١، والأعراف: ٢٢، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بحرف الهاء، أ) فهذه السورة هي أكثر سورة ذكر فيها الفعل الماضي (هدى) وذلك ثلاث مرات، منها مرتان تنسب الهدى لله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾: ٥٠، و ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾: ١٢٢، والثالثة تنفي الهدى عن فرعون: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾: ٧٩، ب) هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها الفعل الماضي (اهتدى): ٨٢، ١٣٥، ج) لم تذكر كلمة (هداي) في القرآن إلا في سورتي طه: ١٢٣، والبقرة: ٣٨، وهما في سياق الحديث عن هبوط آدم عليه السلام من الجنة، وبإمكانك أن تضيف أن هذه السورة هي أكثر سورة ذكر فيها (هارون) عليه السلام: ٣٠، ٧٠، ٩٠، ٩٢، وذلك يؤكّد أن الرسالة الإلهية هدى من الله، وأن من يعرض عنها يتعرض للطغيان، وهي السورة الوحيدة التي وصف فيها المعرِض عن الله بالفعل (هوى)، طه: ٨١، ولم يذكر هذا الفعل مرة أخرى إلا في سورة النجم: ١، وهي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها عبارة ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لوصف المهتدين: ٥٤، ١٢٨، ومن اللطيف أنها السورة الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة ﴿وَأَهُشُّ﴾: ١٨، و ﴿هَمْسًا﴾: ١٠٨، و﴿هَضْمًا﴾: ١١٢. وهي متناسقة مع حرف الهاء في اسم السورة، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

المرسل إليهم، بل هي سبيل الهداية والسعادة: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾، فالقرآن لم ينزل ليكون سبباً لشقاء النبيّ ﷺ، بل إنه نزل بالهدى ليكون تذكرة لمن يخشى، ولاحظ ذكر بعض صفات الله تعالى للتأكيد على أن وحيه هو الهدى، فإذا كان هدى الله هو الرحمة والتذكرة، فقد ثبت أن من يعرض عن هدى الله يعرّض نفسه للطغيان والشقاء، وهذا ما يشير إليه الحرفان الطاء والهاء، والله أعلم، فحرف الطاء يشير إلى طغيان البشر إذا أعرضوا عن هدى خالق البشر، وهو ما يشير إليه حرف الهاء.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام الذي أُرسل بالهدى إلى فرعون الذي طغى، وهي تبتدئ من مشهد المناجاة في الوادي المقدّس طوى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾، ولاحظ بدء عرض قصته عليه السلام من مشهد المناجاة، للتأكيد على أن إرسال الأنبياء هو سبيل الهدى والسعادة، وكأن السياق يقول: إن من أنزل القرآن عليك يا محمد (ﷺ) وجعله هدى للناس وسبيل سعادتهم، هو من أرسل موسى ليحقّق الهدى والسعادة ويرفع الشقاء عن بني إسرائيل، ولو آمن فرعون لكان ممن تحقّق له ذلك، ويلاحظ أيضاً أن هذا المشهد هو الأطول في القرآن فيما يتعلق بالمناجاة، وذلك يضفي جوّ الرحمة على السورة، ويزيد من التأكيد على المحور المذكور.

ثم انتقل السياق إلى مشهد مقابلة موسى وهارون لفرعون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾، ولاحظ وصف فرعون بالطغيان، ليتناسب

ذلك مع ما سيأتي من إصراره على طغيانه حتى نزل به الشقاء، ولاحظ قول موسى ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾، وهو قول يعبّر عن محور السورة بوضوح تامّ، وقد بيّن السياق إصرار فرعون على طغيانه، حتى ادعى أن ما جاء به موسى هو مجرّد سحر، وقد هدّد بقتل السحرة لما آمنوا بصورة شنيعة.

ومن اللطيف أن السياق في هذه السورة قد فصل في كلام السحرة المؤمنين بعد تهديد فرعون لهم ما لم يذكر في سورة أخرى، وقد كان قولهم يؤكّد حقيقة أن السعادة الأبدية لمن اتبع الهدى من الله، وأن الطغيان والشقاء لمن أصرّ على إعراضه عن الهدى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾، ثم بيّن السياق كيف كان إرسال موسى عليه السلام رحمة لبني إسرائيل، فقد رفع الله عنهم الشقاء، وأهلك عدوّهم الطاغي.

ثم انتقل السياق إلى عرض أحداث حصلت مع موسى بعد النجاة من فرعون وقومه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾، ولاحظ أن السياق اعتبر الإعراض عن هدى الوحي طغياناً يستحقّ الغضب من الله، وأن من يحلل عليه غضب الله فقد هوى، وأن اتباع الوحي والتوبة والعمل الصالح سبيل الاهتداء.

وأما الحدث الأهمّ الذي عرضه السياق والذي يؤكّد حقيقة أن الإعراض عن هدى الوحي يعرّض الإنسان للطغيان، فقد كان عبادة بني إسرائيل للعجل، وقد فصّلت هذه السورة في عرض هذا الحدث ما لم يفصل في سورة أخرى، وبيّن السياق أن هارون قد دعاهم إلى اتباع هدى موسى[1]، لكنهم أعرضوا عنه حتى استحقّوا الغضب من الله، وقد

(١) من اللطيف أن عبارة ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ جاءت في هذه السورة متصلة مع ذكر حرف النداء، بينما في سورة الأعراف جاءت منفصلة ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾، والاستعطاف بذكر حرف النداء مع الرسم المتصل في سورة طه متلائم مع جوّ الرحمة السائد فيها. والجمع بين العبارتين يكون بالقول بأن هارون عليه السلام قد قال هذه العبارة مرتين بهاتين الصورتين، وقد أثبت القرآن في كل سورة الصورة الملائمة لها.

بيّن السياق كيف أن السامريَّ المعرض عن الهدى الذي جاء به موسى قد أضلّ قومه وعرّضهم للطغيان فعبدوا العجل: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾، ولاحظ أن إعراضه وطغيانه قد ألحق به الشقاء في الدنيا والآخرة. إن التفصيل في عرض هذا الحدث ليؤكّد المحور المذكور للسورة ودلالة اسمها عليه.

ثالثاً: ثم ذكر السياق تعقيباً إلهياً على هذه القصة يؤكّد محور السورة، وذلك ببيان شقاء من يعرض عن هدى الوحي ويبيّن سعادة من اتبع الهدى في يوم القيامة: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢﴾، وأما مصير المؤمنين: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾.

وقد جاء في هذا التعقيب بيان لما حصل مع آدم عليه السلام حين كان في الجنة، وبيّن أن نزوله من الجنة كان بسبب أكله من الشجرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾، وقد بيّن السياق بعد ذلك أن الله تعالى سينزل الوحي على الأنبياء ليحقّق السعادة لمن آمن، ويحقّق الشقاء لمن أعرض: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

فموضوعات السورة كما ترى تدور حول محور واحد، وهو بيان أن من يتبع هدى الوحي فله السعادة، وأن من يعرض عن هدى الوحي يعرّض نفسه للطغيان والشقاء، وهو ما يشير إليه الحرفان: طه. والله أعلم.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الوحي الإلهي ليس سبباً لشقاء النبيّ ﷺ ومَنْ آمن مِنْ أمته: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان أن هدى الرسالة الإلهية للناس هو سبيل السعادة، وأن مَن أعرض عنه فقد عرّض نفسه للطغيان، ختمت بتهديد ضمني بوقوع الهلاك على من أعرض عن الهدى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾، ولاحظ ذكر كلمة (الصراط) و (اهتدى) اللتين تشيران إلى أن من اتبع الهدى فهو على صراط سوي، فهما منسجمتان مع حرفي الطاء والهاء أول السورة. وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة طه

سورة بيان طغيان من أعرض عن هدى الله عزّ وجلّ

الموضوع الأول: (الآيات: ١- ٨)

المقدّمة التي تبيّن أن القرآن تذكرة ورحمة للنبيّ ﷺ وللمؤمنين، وليس سبباً للشقاء:

- أشار الحرفان (طه) اللذان جُعل منهما اسماً للسورة إلى طغيان البشر إذا هم أعرضوا عن هدى خالق البشر سبحانه وتعالى.
- وبيّنت المقدّمة أن القرآن الذي هو وحي الله والذي فيه الهدى ليس سبباً للشقاء، بل هو تذكرة ورحمة: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾.
- فإذا ثبت أن هدى الله هو الرحمة والتذكرة فقد ثبت أيضاً أن من أعرض عنه عرّض نفسه للطغيان والشقاء.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩- ٩٨)

قصة إرسال موسى عليه السلام بالهدى إلى فرعون الذي طغى، ثم قصته عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل:

- عرض السياق مشهد مناجاة الله تعالى لموسى عليه السلام في الوادي المقدّس طوى، وهذا أطول مشهد متعلق بالمناجاة في القرآن، مما يؤكد أن الوحي من الله للأنبياء هو الهدى وسبيل الرحمة: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾.
- ثم عرض السياق مقابلة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون الذي طغى، وقد أصرّ على إعراضه عن الهدى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾.
- بيّن السياق موقف السحرة الذين آمنوا واتبعوا الهدى، ونالوا بذلك السعادة الأبدية: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾.
- ثم عرض السياق قصة موسى عليه السلام مع قومه بعد الخروج من مصر، وقد بيّن السياق تحذير الله إياهم من الطغيان بإعراضهم عن الهدى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾.
- وعرض السياق طغيان بني إسرائيل حينما أطاعوا السامري المعرض عن الهدى، فعبدوا العجل الذي أخرجه لهم، ولم يلتفتوا إلى تحذير هارون عليه السلام المتكرر طالباً منهم التزام الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام.

الموضوع الثالث (الآيات: ٩٩-١٢٩)

تعقيب إلهي على القصة يعرض شقاء المكذّبين وسعادة المؤمنين يوم القيامة:

- عرض السياق مصير المكذّبين بالهدى يوم القيامة: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.
- وعرض مصير المؤمنين المتبعين للهدى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.
- وبيّن السياق أن سبب هبوط آدم وزوجه من الجنة أنهما خالفا أمر الله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.
- وقد عقب السياق على القصة ببيان أن الشقاء لمن أعرض عن هدى الله، والسعادة لمن التزم به: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٣٠-١٣٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير بأن الوحي الإلهي ليس سبباً لشقاء النبيّ ﷺ، ولا لمن آمن من أمته: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن هدى الوحي إلى الناس هو سبيل السعادة، وأن من أعرض عنه فقد عرّض نفسه للطغيان، ختمت بتهديد ضمني بوقوع الهلاك على من أعرض عن الهدى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

سورة الأنبياء

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن عدد من الأنبياء تعرض فيه مدى كفاحهم في دعوة أقوامهم بالحجج العقلية، وإنذارهم بالدار الآخرة، ومدى صبرهم على الأذى، ومدى حكمتهم في الحكم بين الناس بهدى الله، فاسم السورة ـ وإن لم يذكر صراحة فيها ـ يشير إلى مهمة الأنبياء ويرغب في اتباعهم واتخاذهم قدوة للوصول إلى الفلاح.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة استعراض لطبيعة الدعوة والمدعوّين، فهي تدل على أن اتباع طريق الأنبياء يخرج الناس من غفلتهم عن الآخرة، ويوصلهم إلى الرفعة في الدارين، كما وتعرض السورة النواميس الكبرى في الكون، وتربط العقيدة بهذا الحقّ الذي قامت عليه السماوات والأرض، فهي بذلك توجّه أنظار الناس إلى وحدة الخالق المدبّر للكون والمالك الذي لا شريك له، وهي معانٍ تتجلّى في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال إقامة الأدلة والحجج العقلية على صفات الإلهية من خلقٍ وبعثٍ ومُلكٍ وكمالِ قدرةٍ وشمولِ علمٍ لله تعالى وحده، ولما كان الأنبياء هم الذين ينذرون الأقوام

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد سور القرآن**، ص ٦٨، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٦٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٣٦٤- ٢٣٦٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٧، ص ٦، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٢، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٢٥٣- ٢٥٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٥٤- ١٥٩.

بالآخرة، وهم الذين يدعون إلى التوحيد بمختلف الأدلة، وهم أكثر الناس صبراً وحكمة، سمّيت السورة بهم للدلالة على المحور المذكور وللترغيب بالاقتداء بهم. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة **بيان جهد الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالآخرة بالحكمة والصبر وإقامة الأدلة والحجج، وما يؤازرُ دعوتَهم من دلائل عظمة الله في خلقه**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها: مقدّمة تعرض موقف الرسل بإنذار الناس بالآخرة، وموقف الأقوام بالتكذيب مع بيان مصيرهم، وثانيها: مؤازرة دور الأنبياء بإثبات أن الله وحده هو الإله المعبود بحقّ بالأدلة العقلية، من خلال عرض لبعض مظاهر عظمته في الكون، مع بيان موقف المكذبين من ذلك ومصيرهم، وثالثها: عرض قصصي يدعو إلى التوحيد بالأدلة العقلية، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٥، وعرض الأدلة العقلية: ١٦- ٤٧، والعرض القصصي: ٤٨- ٩٤، والخاتمة: ٩٥- ١١٢. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، فقد كثرت فيها الأدلة العقلية الداعية إلى التوحيد، من ذلك: أ) قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ٤، وقوله ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾: ١١٠، لم يتكررا في القرآن بالصيغة ذاتها، وانظر قريباً منهما في سورة الرعد: ١٠، ٣٣، وطه: ٧، ب) وكذلك قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾: ١٦، لم يذكر في موضع آخر إلا في سورة الدخان: ٣٨ (السماوات) بدلاً من (السماء)، علماً بأنهما تشتركان في قوله في سورة الأنبياء: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: ١، وفي سورة الدخان ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: ٩، ج) قوله ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾: ١٧، لم يتكرر، والسورة كذلك اختصت بوصف المكذّبين بوصفهم بأنهم: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾: ٣، فلم يتكرر بهذه الصيغة، د) وكذلك قوله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: ١٨، وقريب منه في سورة سبأ: ٤٨، والإسراء: ٨١، هـ) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «آلهة» لدحض الشرك، وإليك التفصيل: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾: ٢١، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: ٢٢، وقوله ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: ٢٤، وقريب منه في سور الكهف: ١٥، وقوله ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾: ٤٣، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾: ٩٩، و) قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾: ٣٠، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: ٣٠، وقريب منه في سورة النور: ٤٥، ز) قوله ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: ٤٢، لم يتكرر، ح) وكذلك قوله ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: ١٠٤، وقريب منه في سورة الزمر: ٦٧، ط) قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ٦٩، لم يتكرر كذلك. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرض لإنذار الأنبياء أقوامهم بالآخرة، وهي من أدلّ الدلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ولكن الأقوام لاهون عنها، ومكذّبون بأنبيائهم: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾، فالأنبياء ينذرون أقوامهم بالآخرة، ولكن المكذّبين منشغلون عنها باللعب واللهو، ولاحظ بيان النبيّ أن الله يعلم القول في السماء والأرض، وفي ذلك دليل على تفرّده بالإلهية، ولاحظ تردّد الأقوام في شبهاتهم بتكرار «بل» ثلاث مرات في قولهم.

ثم بيّنت المقدّمة طبيعة الأنبياء للردّ على الشبهات السابقة، فما هم إلا رجال يوحي الله إليهم بالهدى، ومن ضمن الهدى الذي أوحي إليهم أن الله سيهلك المكذّبين وينجي المؤمنين، فمقدّمة السورة تعرض بشكل موجز مهمة الأنبياء الذين يدعون أقوامهم بالأدلة والحجج، ولكن المكذّبين يصرّون على اللهو واللعب حتى استحقّوا العذاب.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض الأدلة العقيلة والحجج الباهرة لإثبات تفرّد الله تعالى بصفات الإلهية، وهو بذلك يؤازر دور الأنبياء الذين يدعون إلى التوحيد بمختلف الأدلة والحجج: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾، فالله وحده هو الخالق، وهو الحقّ وكل ما عُبِد من دونه باطل، والملائكة عباد له مسبِّحون له، فليسوا آلهة كما يزعم المشركون، ولاحظ بيان أنه لا أحد له القدرة على النشور سوى الذي خلقهم أول مرة، فهو وحده إله الكون.

ومن الأدلة العقلية التي أيّد الله بها سيّدنا محمداً ﷺ قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾،

فهو ﷺ يدعو قومه بالحقّ الذي أرسله الله به والأنبياء من قبله، ولكن أكثر الأقوام معرضون عن الحق.

وانظر هذين الدليلين: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾، فمن يستطيع أن ينكر الخالق العظيم الحكيم بعد هذا البيان، إلا من عاند واستكبر عن الحقّ، وقد عرض السياق من الأدلة أيضاً أن الله هو الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً، وهو الذي خلق الليل والنهار، وهو الذي يكلأ الخلق بالليل والنهار، وهو المحيي المميت، ولكن المكذّبين يُعرِضون عن هذه الآيات وينكرون الآخرة، ولذلك عرض السياق مصيرهم يوم القيامة ليكون ذلك أبلغ ردّ عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد ما تقدّم من إقامة الأدلة والحجج على تفرّد الله بالإلهية، وقد ابتدأ السياق بقصة إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون كذباً انتماءهم الديني إليه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، إن محاورته مع قومه تؤكّد ما سبق من بيان أن الآلهة التي يعبدها المشركون لا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا تمنعهم من بأس الله، وبذلك يثبت أن الله وحده فاطر السماوات والأرض هو المستحقّ للعبادة.

ولكي يؤكّد السياق ذلك، عرض كيف حطّم إبراهيم أصنامهم التي لم تدفع عن نفسها شيئاً، في مقابل أن ربَّ إبراهيم أنقذه من النار وجعلها برداً وسلاماً عليه، وفوق ذلك أكرمه بذرية صالحة وجعلهم أئمّة يهدون بأمره ووحيه، وهذا أبلغ دليل عقلي على تفرّده تعالى بصفات الإلهية، ومما يؤكّد ذلك أيضاً بيان أن الله تعالى أنجى لوطاً من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وكذلك أنجى نوحاً من الطوفان الذي أغرق الكافرين.

ومما يؤكّد كمال قدرته سبحانه أنه سخّر لداود الجبال والطير يسبحن معه لله، وسخر

لسليمان الريح والشياطين، وقد كشف الضّرّ عن أيوب، وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده، وأدخل إسماعيل وإدريس وذا الكفل في رحمته أيضاً وجعلهم من الصالحين، وأنجى يونس من بطن الحوت حينما ناداه في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ووهب لزكريا يحيى وأصلح له زوجه، وخلق عيسى في رحم مريم بلا أب، كل ذلك يؤكّد تفرّد الله تعالى بصفات الإلهية كما لا يخفى، ولذلك اختير من عرض قصصهم عليهم السلام جميعاً ليكون اسماً السورة ليدل على المحور المذكور.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من الآخرة التي يُنْذرُ بها الأنبياء بذكر بعض علاماتها: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

وأعادت التأكيد على بطلان الشرك بالأدلة العقلية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وأعادت التأكيد على تفرّد الله تعالى بصفات الإلهية من خلال الأدلة العقلية أيضاً، مع التأكيد على فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان غفلة الناس عن الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، وبيانها تفرّد الله بصفات الإلهية، ختمت بالتحذير من الآخرة التي يحذّر بها سيّدنا محمد ﷺ قومه، مع التأكيد على تفرّد الله بصفات الإلهية: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الأنبياء

سورة بيان جهد الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالآخرة بالحكمة والصبر وإقامة الأدلة والحجج، وما يؤازر دعوة الأنبياء من دلائل عظمة الله في خلقه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٥)

المقدّمة التي تعرض موقف الرسل بإنذار الناس بالآخرة، وتعرض موقف الأقوام بالتكذيب مع بيان مصيرهم:

- افتتحت السورة بالتحذير من الآخرة وبيان غفلة الناس عنها: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.
- وبيّنت المقدّمة دعوة النبيّ صلى الله عليه والسلام قومه بالأدلة العقلية بالإضافة إلى الترهيب بالآخرة: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤﴾.
- وبيّنت المقدّمة الموقف المتشابه للأقوام، إذ هم يتهمون النبيّ ﷺ بالسحر، وأن ما ينذر به قومه إنما هي أضغاث أحلام أو كلام مفترى أو شِعْر.
- وقد بيّنت أيضاً طبيعة الأنبياء عليهم السلام، فهم رجال يوحي الله إليهم، ومن ضمن هذا الوحي أن الله سيهلك المكذّبين: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾.

الموضوع الثاني (الآيات: ١٦-٤٧)

إثبات أن الله هو المعبود بحقّ بالأدلة العقلية في مظاهر عظمته تعالى في الكون، مع بيان موقف المكذّبين ومصيرهم:

- إن ذكر هذه الأدلة يؤازر دعوة الأنبياء إلى الله بمختلف الأدلة.
- ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٧﴾.
- ومنها بيان تفرّده تعالى بالقدرة على البعث والنشور: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾.
- ومنها بيان عظمة الله تعالى في خلقه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾.
- ومنها أنه هو الذي جعل السماء سقفاً ومحفوظاً، وهو الذي خلق الليل والنهار، وهو الذي يكلأ الخلق، وهو المحيي والمميت.
- ومما يؤازر دعوة الأنبياء وإنذارهم بالآخرة أن السياق عرض مصير المكذّبين بذلك اليوم: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٨-٩٤)

عرض قصصي يدعو إلى التوحيد بالأدلة العقلية:

- كانت أولى هذه القصص قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي حاور قومه المشركين بالأدلة العقلية: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾، ثم قال: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾.
- ثم برزت قدرة الله في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار، وقد أكرمه الله بذرية صالحة أئمة يهدون بأمر الله ووحيه.
- وقد برزت قدرة الله في إنجاء لوط عليه السلام ومَنْ آمن معه مِن القرية التي كانت تعمل الخبائث.
- وكذلك في إنجاء نوح وأهله من الكرب العظيم، وفي تسخير الجبال والطير لداود يسبحن معه، وفي تسخير الرياح والشياطين لسليمان وفي كشف الضّرّ عن أيوب، وفي إدخال إسماعيل وإدريس وذي الكفل في رحمة الله، وفي إنجاء يونس من بطن الحوت، وقد وهب الله لزكريا يحيى وأصلح له زوجه، وقد خلق الله عيسى في رحم مريم بلا زوج، عليهم السلام جميعاً.
- إن عرض هذه القصص ليؤكّد تفرّد الله تعالى بصفات الإلهية، ولذلك اختير اسم السورة من قصصهم.

الموضوع الرابع: الآيات (٩٥-١١٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، فقالت عن فتح يأجوج ومأجوج المؤذن بقرب الآخرة: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾.
- وأعادت التأكيد على بطلان الشرك بالأدلة العقلية، فبيّنت أن الأصنام لا تحمي من نار جهنم يوم القيامة: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾.
- وأعادت التأكيد على فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان غفلة الناس عن الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، ختمت بالتحذير من الآخرة التي ينذر بها سيدنا محمد ﷺ قومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

سورة الحج

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس بالحج، ليكون الحج مظهراً من مظاهر العبادة الدالة على التوحيد، وإلى بيان منافع الحج وبعض أحكامه، وفي ذلك رَدّ على المشركين الذين جعلوا المسجد الحرام مكاناً للشرك بدلاً من أن يكون مكاناً لعبادة الله وحده.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن موضوعات هذه السورة كلها هي موضوعات التوحيد الأساسية، كإثبات البعث، وإنكار الشرك وعرض مشاهد من يوم القيامة، وعرض بعض الآيات الكونية المبثوثة في الكون، وفي ذلك بيان لقدرة الله تعالى وحكمته في تشريعه، فشرعُهُ الحجَّ يحوي عدّة معانٍ منها: الإخلاص في القصد، والتعظيم والاستسلام لله، والمجاهدة لأداء المناسك، وهي

معانٍ بارزة في موضوعات السورة، أكّد ذلك ظلّ السورة وهو ظلال القوة والشدة والرهبة والعِبَر، لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان قدرته تعالى على البعث والخلق بالبراهين العقلية، وبيان مصير المؤمنين ومصير المجادلين في الله يوم القيامة، ولما كان الحج أبرز مظهر من مظاهر التوحيد في الأرض، وأكثرها مشابهة للبعث يوم القيامة، سمّيت السورة به، للدلالة على المحور المذكور، ولعلّ ذلك يطلعنا على سِرّ اختصاصها بسجدتين.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة إثبات قدرة الله على الخلق والبعث بالبراهين العقلية، مما يثبت التوحيد له سبحانه، والحج أبرز مظهر للتوحيد وأشبهها بالبعث.**

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام: أولها: مقدّمة تعرض بعض أهوال يوم القيامة للدلالة على قدرته تعالى على البعث، وثانيها: بيان مصير المجادلين في الله والمشركين به ومصير المؤمنين يوم القيامة مع عرض الأدلة على الوحدانية، وثالثها: بيان اعتداء المشركين في المسجد الحرام إذ جعلوه مكاناً للشرك بدلاً من أن يكون مكاناً للتوحيد، ورابعها: الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بالقتال إزاء جرائم المشركين مع عرض أدلة كمال القدرة الإلهية، وخامسها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق(٢).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٤٠، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ١٢٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٧، ١٧٩- ١٨٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٧٦، ٧٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٢٥٩، ٢٦٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ١٦١- ١٦٥.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٧، وبيان مصير المجادلين والمؤمنين: ٨- ٢٤، وبيان اعتداءات المشركين: ٢٥- ٣٧، والإذن بقتالهم: ٣٨- ٧٢، والخاتمة: ٧٣- ٧٨. وقد تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى تثبت كمال قدرته على الخلق والبعث والأدلة العقلية على ذلك، أ) فقوله تعالى ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾: ١، ذكر هنا فقط، وكذلك قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾: ٧، وقريب منه في سورة النحل: ٣٨، وقوله ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرض لبعض مشاهد يوم القيامة لإثبات قدرته تعالى على البعث، وفي ذلك تهديد لمن يجادل في الله بغير علم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾، وأعتقد أن ذكر المرضعة والحامل فيه إشارة إلى قدرته على الخلق أيضاً، وأعتقد أيضاً أن ذكر الشيطان مناسب لاسم السورة، لما هو معروف من رجم الشيطان في الجمرات وهو اقتداء بإبراهيم عليه السلام الذي سيأتي ذكره، كأن في ذلك إشارة إلى أنه ينبغي على الإنسان أن يرجم الشيطان لا أن يتولّاه.

ثم بيّنت المقدّمة قدرة الله تعالى على الخلق بالبراهين العقلية، إذ هو الذي خلق الناس من

= ﴿ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾: ٥، وقريب منه في سورة طه: ٥٥، ب) وكذلك وصف المضغة بـ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: ٥، هنا فقط، ج) وكذلك قوله عن آلهتهم ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾: ٧٣، د) قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ذكر هنا: ٦٢، وفي سورة لقمان: ٣٠ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، ولكن سورة الحج تميّزت بقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: ٦، هـ) قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة: ١، وقريب منه في سورة الرعد: ١٥، والنحل: ٤٩، علماً بأن عبارة (ألم تر) ذكرت في ثلاث سور بأكبر عدد، الحج: ١٨، ٦٣، ٦٥، والبقرة، وإبراهيم، ثلاث مرات في كل منها، بينما في النساء ذكرت خمس مرات ولكنها كلها عن الحديث عن أهل الكتاب والكافرين، و) قوله ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: ٤٧، لم يتكرر، ز) هي مع سورة يونس أكثر سورتين تكرر فيهما النداء (يا أيها الناس): ١، ٥، ٤٩، ٧٣، وفي سورة يونس: ٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٧، ح) بإمكانك أن تضيف أنها الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «شعائر»: ٣٢، ٣٦، وهي أكثر سورة تكررت فيها مشتقات «نسك»: ٦٧ (مرتين)، ٣٤، والنسك والشعائر متعلقان باسم السورة كما لا يخفى، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان موقف المشركين المجادلين في الله تعالى: أ) فقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ذكر هنا: ٨، وفي سورة لقمان: ٢٠، بالصيغة ذاتها، ولكن سورة الحج تميّزت بقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: ٣، علماً بأن عبارة «بغير علم» ذكرت في سورة الحج في الآيتين السابقتين، وفي سورة الأنعام: ١٠٠، ١١٩، ١٤٠، ١٤٤، وفي سورة لقمان: ٦، ٢٠، ولم تتكرر في سورة أخرى، ب) قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: ١١، ذكر هنا فقط، ج) وكذلك قوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾: ٣١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

تراب، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، فهو تعالى المبدئ كما أنه هو المعيد، ومن دلائل قدرته أنه أنزل من السماء ماءً فتنبت به الأرض من كل زوج بهيج.

فمقدّمة السورة كما ترى تثبت قدرة الله على الخلق والبعث بالأدلة العقلية، وهذا متعلق بالحج كونه أبرز مظهرٍ دالٍّ على التوحيد، وأبرز مظهر مشابهة لبعث الخلق يوم القيامة.

ثانياً: وبعد عرض تلك الأدلة، انتقل السياق إلى عرض موقف الإنسان، فهو يجادل في الله خالقه، ويشرك معه غيره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾، ولاحظ أن السياق ركّز على العقوبة الأخروية، وفي ذلك زيادة تأكيد على القدرة على البعث والجزاء.

وبسبب وضوح دلائل قدرة الله تعالى على الخلق والبعث والجزاء في القرآن، وأبرزها ما جاء في هذه السورة، بيّنت هذه السورة لطوائف البشر جميعها قدرة الله تعالى على حسابهم جميعاً يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

وانظر قوله تعالى الداعي إلى التوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

ثم فصّل السياق في عرض مصير الكافرين بربّهم يوم القيامة بصورة مفزعة، إذ سيُصبُّ فوق رؤوسهم الحميم، فيصهر به ما في بطونهم وجلودهم، ولهم مقامع من حديد، وفوق ذلك كله يزجرون بقول الملائكة لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وأما المؤمنون ففي الجنات يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، فهذه أنعم صورة للمؤمنين في مقابل أبأس صورة للكافرين. ولا يخفى أن التفصيل في عرض مصير الفريقين دالّ على قدرته تعالى على البعث والجزاء.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض اعتداءات المشركين في المسجد الحرام، فهم جعلوه أبرز مكان للشرك في الأرض، والله يريد بحكمته أن يجعله أبرز مكان للتوحيد في الأرض بفرض الحج كما أراد الله له حينما أمر إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، ثم فصّل السياق في عرض منافع الحج، وبيان بعض أحكامه، وأمر بتعظيم شعائر الله ونبذ الشرك: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

وأعتقد أن بيان مجيء الناس من كل فَجّ عميق يؤكّد مشابهة الحج للبعث يوم القيامة، ولذلك اختصّت السورة بهذا الاسم، ثم إن في تسميتها بالحج فيه أبلغ زجر للمشركين الذين جعلوا المسجد الحرام مكاناً للشرك، والله يريد أن يجعله أبرز مكان للتوحيد بفريضة الحج كما تقدّم، فاسم السورة جمع الدلالة على الأمرين: التوحيد والبعث.

رابعاً: وبمناسبة الحديث عن اعتداء المشركين في المسجد الحرام، انتقل السياق إلى الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بقتال مَن كان يعتدي عليهم في ذلك المسجد: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾، وقد بيّن السياق أن سبب الإذن لهم لأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا: ربنا الله، وهذا مرتبط بما تقدّم، إذ لم يكتفِ المشركون بجعل البيت الحرام مكاناً للشرك، بل منعوا أهل التوحيد من إقامة دين الله فيه، ولاحظ وعد المؤمنين بالنصر، لأنهم إذا مُكّن لهم في الأرض سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا هو دين التوحيد.

وكما حذّرت المقدّمة من اتباع الشيطان بغير هدى ولا كتاب منير، أعاد السياق هنا التحذير منه مرة أخرى، فما من نبيّ إلا ويتمنّى هداية قومه، ويحاول الشيطان أن يلقي في عقول المدعوّين وساوسه، فيُحْكِم الله آياته في عقول المؤمنين، ويبطل الله منها وساوس الشيطان فيزدادوا إيماناً، ويجعل الله وساوس الشيطان فتنة في عقول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فيزدادوا كفراً[(١)]. والتحذير من الشيطان مناسب لاسم السورة من حيث إن الشيطان يرجم في الحج كما تقدّم.

ولكي يؤكّد السياق قدرة الله تعالى على نصرة المؤمنين المستضعفين، عرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في كونه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد بيّنت قدرة الله وحده على الخلق كما بيّنت المقدّمة قدرته وحده على البعث، وفي ذلك دعوة إلى التوحيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

وأعادت تهديد المشركين، وأمرت المؤمنين بعبادة الله وحده وإقامة شعائر دينه: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر الأدلة على قدرته تعالى على الخلق والبعث لإثبات التوحيد لله، وهما أمران أكثر ما يكونان مشابهة لفريضة الحج، ختمت بدعوة المؤمنين إلى الجهاد دفاعاً عن دين الله مع بيان أن دينَهم ـ دينَ التوحيد ـ هو دينُ أبيهم إبراهيم عليه السلام من

(١) هذا خلاصة تفسير د. أحمد نوفل لهذه الآية، وقد أشار إلى علاقتها بذكر الشيطان في مقدمة السورة، ينظر للزيادة: د. أحمد، **قراءة في آية**: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، ص ١٥٠- ١٦٢.

قَبْل، الذي أمره الله بأن يؤذّن في الناس بالحج: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون الحج أبرز مظاهر التوحيد وأشبهها بالبعث.



سورة الحج

سورة إثبات قدرة الله تعالى على الخلق والبعث بالبراهين العقلية مما يثبت التوحيد له سبحانه، والحج أبرز مظهر للتوحيد في الأرض وأشبهها بالبعث

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تعرض بعض أهوال يوم القيامة للدلالة على قدرة الله تعالى على البعث:

- افتتحت السورة بعرض بعض أهوال يوم القيامة، مثبتة بذلك قدرة الله على البعث، ومهدّدة المجادلين بآيات الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ﴾.
- وأكّدت المقدّمة قدرة الله على البعث بالبراهين العقلية، فهو الذي خلق الناس من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مُخلَّقة وغير مخلقة فهو المبدئ المعيد سبحانه.
- ومن الأدلة على قدرته تعالى على البعث أنه أنزل من السماء ماءً فتنبت به الأرض من كل زوج بهيج، فهو كذلك قادر على بعض الموتى.
- فالمقدّمة تثبت التوحيد لله عزّ وجلّ؛ لأنه وحده القادر على الخلق والبعث.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٢٤)

بيان مصير المجادلين في الله والمشركين به، وبيان مصير المؤمنين يوم القيامة، مع عرض الأدلة على الوحدانية:

- بعد بيان قدرة الله على البعث والخلق، عرض السياق موقف الإنسان الذي يجادل في الله خالقه ويشرك معه غيره: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ⁨٨⁩﴾، ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ⁨١٢⁩﴾.
- ومما يدعو إلى التوحيد قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.
- وقد فصّل السياق في عرض مصير الكافرين بربهم يوم القيامة، إذ سَيُصبُّ فوق رؤوسهم الحميم، فيصهر به ما في بطونهم وجلودهم، ولهم مقامع من حديد، وتزجرهم الملائكة.
- بينما المؤمنون في الجنات يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٥-٣٧)

بيان اعتداء المشركين في المسجد الحرام إذ جعلوه مكاناً للشرك بدلاً من أن يكون مكاناً للتوحيد:

- عرض السياق اعتداءات المشركين في المسجد الحرام إذ جعلوه أبرز مكان للشرك في الأرض: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.
- وقد أراد الله بحكمته أن يجعل المسجد الحرام أبرز مكان للتوحيد، وذلك حين أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.
- وأمر أمة الإسلام بتعظيم شعائر الله التي فرضها في ذلك المسجد: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٨-٧٢)

الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بالقتال إزاء جرائم المشركين، مع عرض أدلة كمال القدرة الإلهية:

- بعد عرض اعتداءات المشركين في المسجد الحرام، انتقل السياق إلى الإذن للمؤمنين بقتال من كان يعتدي عليهم في ذلك المسجد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.
- وعرض السياق قدرة الله على نصر عباده: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.
- وأكّد ذلك بعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، فهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير.

الموضوع الخامس: (الآيات: ٧٣-٧٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله تعالى على الخلق والبعث وإثبات الوحدانية له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.
- وأعادت تهديد المشركين وذكّرتهم بقدرة الله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.
- وأمرت المؤمنين بعبادة الواحد الأحد وفعل الخير ليفلحوا يوم بعثهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بإثبات التوحيد لله ببيان قدرته على الخلق والبعث، وهما متعلقان بالحج كونه من أبرز مظهر للتوحيد وأشبهها بالبعث، ختمت بدعوة المؤمنين لنصرة دينهم الذي هو دين إبراهيم عليه السلام الذي أمره الله أن يؤذّن في الناس بالحج: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

سورة المؤمنون

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيان بعض صفات المؤمنين في مقدّمتها، وبيان أنهم ـ لا غيرهم ـ هم المفلحون، ووصف المؤمنين بصيغة اسم الفاعل وبجمع المذكّر السالم، يدلّ على تمكّن صفة الإيمان فيهم، وعلى أثر هذا الإيمان الظاهر في سلوكياتهم الذاتية والاجتماعية التي تُرضي الله تعالى فاستحقّوا الفلاح، ولا يخفى أن تسمية السورة باسمهم فيه من الترغيب بالاقتداء بهم ما فيه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة هي سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته، فالسورة تعرض دلائل الإيمان في النفس البشرية وفي الآفاق، وتعرض حقيقة الإيمان كما عرضها الرسل الكرام عليهم السلام، وتبيّن موقف المشركين من الرسول ﷺ للتحذير منه، وهي بذلك تقرّر اختصاص المؤمنين بالفلاح، ولأجل ذلك سمّيت باسمهم[1].

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد سور القرآن**، ص ٧١، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٥٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ١٨٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ٢٤٥٢، ٢٤٥٣، وابن عاشور، **التحرير** =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض مظاهر عظمة الله تعالى خالق الأكوان ومرسل الأنبياء بآيات الوحي، ولما كان بيان صفات المؤمنين بهذا الخالق العظيم فيه من الترغيب بالإيمان بالله ما فيه، جاء اسم السورة مشيراً إليهم مدحاً لهم وإشادةً بهم، ومعبّراً عن المحور المذكور.

وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة بيان فلاح المؤمنين بالله العظيم في الدنيا والآخرة، وبيان خسارة الكافرين بالله العظيم في الدنيا والآخرة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن فلاح المؤمنين بالله العظيم وصفاتهم وجزاءهم، وثانيها: عرض بعض مظاهر عظمة الله ـ الذي آمن به المؤمنون ـ في خلق الإنسان والكون، وثالثها: عرض قصصي يدعو إلى التوحيد ويبيّن فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء وخسارة الكافرين، ورابعها: تعقيب ببيان موقف المؤمنين بالله وبيان فلاحهم، وبيان موقف الكافرين وبيان خسارتهم، وخامسها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= والتنوير، ج ١٨، ص ٦، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ١٢٢، والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ٢٢٥- ٢٢٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٢٦٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٦٦- ١٧٠.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١١، وعرض مظاهر عظمة الله في خلقه: ١٢- ٢٢، والعرض القصصي: ٢٣- ٥٦، والتعقيب عليه: ٥٧- ٩٢، والخاتمة: ٩٣- ١١٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة تبين عظمة خلق الله تعالى الذي آمن به المؤمنون: أ) فهي أكثر السور تفصيلاً في عرض مراحل خلق الجنين في رحم أمه: ١٢- ١٤، وقريب منها جداً في سورة الحج: ٥، وقريب منها في سورة غافر: ٦٧، ب) انظر قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ٢١، وقارن بما في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: ٦٦، ج) هي الوحيدة التي وصفت السماوات بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: ١٧، والوحيدة التي فيها قوله ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾: ١٧، والوحيدة التي فيها قوله ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: ٧١، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالمؤمنين المفلحين: أ) فهي الوحيدة التي فيها قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: ١، وقوله ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾: ٢، ب) والوحيدة التي وصفتهم بأنهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: ٣، وقريب منها في=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرضٌ لصفات المؤمنين بالله العظيم، مع بيان شرف جزائهم، ليكون ذلك تأكيداً لفلاحهم وترغيباً بالاقتداء بهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾، ولاحظ تقديم صفة الخشوع في الصلاة، الذي يطلعك على مدى أثر الإيمان في قلوبهم، ولاحظ وصفَ مصيرهم بصيغة اسم الفاعل «الوارثون» لزيادة التأكيد على حصول الثواب لهم، وتخصيصَ ذكر الفردوس، وهي المنزلة العليا من الجنة، ولم تذكر إلا هنا وفي سورة الكهف.

ثانياً: وبعد عرض صفات المؤمنين الداعية للإيمان، انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر عظمة هذا الإله العظيم الذي آمن به المؤمنون، وهي مظاهر في خلق الإنسان وفي

= سورة الفرقان: ٧٢، والقصص: ٥٥، ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾: ١٠، ١١، فلم تذكر «الوارثون» في موقع آخر، ولم تذكر «الفردوس» إلا هنا وسورة الكهف: ١٠٧، د) هي وسورة المعارج الوحيدتان اللتان اختصتا بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾: المؤمنون: ٥، والمعارج: ٢٩، والوحيدتان اللتان اختصتا بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾: ٨، والمعارج: ٣٢، هـ) اشتركت مع سورتي آل عمران والأنبياء بقوله ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: المؤمنون: ٦١، وآل عمران: ١١٤، والأنبياء: ٩٠، ولكنها اختصت وحدها بقوله ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾: ٦١، و) والوحيدة التي امتازت بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾: ٥٧، وقريب منها في سورة الأنبياء: ٢٨ ولكن عن الملائكة، والوحيدة التي امتازت بقوله ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بهذه الصيغة: ١١١، وقريب منها التوبة: ٢٠، والنور: ٥٢، والحشر: ٢٠، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بالكافرين الخاسرين: أ) فهي وسورة القصص الوحيدتان اللتان اختصتا بقوله ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ المؤمنون: ١١٧، والقصص: ٣٧ ولكنها على لسان البشر وليست إخباراً من الله، ب) هي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «غمرة» لوصفهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾: ٥٤، و﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا﴾: ٦٣، ج) والوحيدة التي تكررت فيها مشتقات «جأر» لوصفهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾: ٦٤، ٦٥، ولم تذكر مشتقات هذا الجذر في موقع آخر إلا في النحل: ٥٣، د) والوحيدة التي اختصت بقوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾: ٧٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الآفاق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، ولاحظ التفصيل في عرض مراحل نموّ الجنين في رحم أمّه، إن في ذلك زيادةً في بيان عظمة الخالق العظيم، ولاحظ بيان قدرته تعالى على البعث، فكما هو قادر على خلق الإنسان ولم يَكُ شيئاً، قادر على بعثه للحساب.

ومن مظاهر عظمة الله تعالى في الآفاق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾، وقد فصّل السياق في تعداد نِعَم الله على الإنسان، فذكر نعمة إنبات الزيتون ذي المنافع الكثيرة، ونعمة الأنعام، والتفصيل يدل على عظمة الخالق كما لا يخفى.

ثالثاً: وبعد عرض مظاهر عظمة الله تعالى في الكون الداعية إلى التوحيد، انتقل السياق إلى عرض قصصي يدعو إلى التوحيد من خلال آيات الوحي التي أنزلها على الأنبياء، وبذلك تجتمع الآيات الكونية وآيات الوحي التي أرسل بها الأنبياء على الدعوة إلى الإيمان بالله العظيم، وقد بيّن هذا العرض القصصي فلاح المؤمنين بنجاتهم من عذاب الله، وخسارة الكافرين الذين حاق بهم العذاب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ولاحظ قوله (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، وهو ملخّص دعوة الأنبياء جميعاً، ولاحظ عرض موقف قومه المكذّبين الذي يقابل عرض صفات المؤمنين في المقدّمة، وقد بيّن السياق كيف أهلك قوم نوح، وكيف نجّى الله نوحاً عليه السلام ومن آمن معه في الفلك، وبذلك يجتمع الترغيب بذكر صفات المؤمنين، والترهيب بعرض مصير المكذّبين.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف قوم آخرين، وهم على الأرجح عادٌ؛ لأنهم عادةً يُذكرون في القرآن بعد قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ

ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾، ولاحظ وحدة الدعوة بين نوح وهود عليهما السلام، والتفصيل في عرض تكذيبهم، وقد بيّن السياق أيضاً نتيجة تكذيبهم، إذ أهلكهم الله بالصيحة فجعلهم غثاءً.

ثم أعقب السياق بذكر قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه، وقد بيّن السياق أنهم كانوا مستكبرين عالين، ونتيجة تكذيبهم أنهم كانوا من المهلكين، وعرض موقف فرعون الذي ادعى الإلهية في الأرض، وبيان إهلاكه وملئه يدعو إلى توحيد الله بلا شكّ، وفيه بيان أنه تعالى ذو القدرة المطلقة، ثم ذكر السياق مريم وأمّه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، وبيان أن الله آواهما إلى الربوة التي فيها القرار والماء المعين، دلالة على أنهما من البشر، وليس لأحدهما حقّ الإلهية، وقد أكّد ذلك أمر الرسل جميعاً بالأكل من الطيبات، فهم جميعاً من البشر، يحتاجون ما يحتاج البشر من المأكل والمشرب والمأوى، وبذلك يتأكّد تفرّد الله تعالى بالإلهية.

فسياق السورة كما ترى يدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ من خلال بيان عظمة الله تعالى الذي آمن به المؤمنون، وذلك من خلال آياته الكونية، ومن خلال آيات الوحي التي أنزلها على الأنبياء عليهم السلام، وبيان فلاح المؤمنين وخسارة الكافرين.

رابعاً: ثم عاد سياق السورة إلى الترغيب مرة أخرى، وأعاد ذكر بعض صفات المؤمنين بالله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ولاحظ ذكر الخشية التي تدعوهم إلى الخشوع في الصلاة كما ذكر في المقدّمة، ولاحظ بيان مسارعتهم إلى الخيرات حتى استحقّوا الفردوس المذكورة في المقدّمة، فالمؤمنون بالله العظيم هم المفلحون.

وأعاد السياق عرض موقف المكذّبين ليجتمع الترهيب مع الترغيب: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ

مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، ولاحظ أن سبب إهلاكهم هو استكبارهم عن آيات الله تعالى ونكوصهم عنها.

ومن أجل زيادة التوبيخ عليهم، ذكر السياق عدّة استفهامات لبيان أنه لم يكن لهم صارف عن الإيمان سوى عنادهم واستكبارهم: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾، ولاحظ تكرارَ السؤال بـ (أم) التي تفيد التقرير، والتأكيدَ على صدقه ﷺ، وتأكيد ضلالهم بـ (إنّ) المؤكّدة.

وبعد ذكر موقفهم من الآيات القرآنية، انتقل السياق إلى ذكر موقفهم من الآيات الكونية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾، ولاحظ تكرار الضمير (هو) ثلاث مرات، التي يقابلها الأسئلة الثلاثة التالية: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، وبذلك يثبت قطعاً أن الله تعالى وحده المستحقّ للعبادة، وثبت أن الكافرين بالله العظيم هم الخاسرون.

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت تثبيت النبيّ ﷺ والمؤمنين معه ببيان قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين مما يؤكّد خسارتهم: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وقد أعادت ذكر موقف المكذّبين من الآيات القرآنية وبيان مصيرهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

وأعادت التأكيد على عظمة الله تعالى الذي يؤمن به المؤمنون وقدرته المطلقة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر صفات المؤمنين وبيان فلاحهم للترغيب بالاقتداء بهم، ختمت ببيان خسارة المشركين والكافرين للتحذير من الاقتداء بهم: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة المؤمنون

سورة بيان فلاح المؤمنين بالله العظيم في الدنيا والآخرة، وبيان خسارة الكافرين بالله العظيم في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١١)

المقدّمة التي تبيّن فلاح المؤمنين وصفاتهم وجزاءهم:

- افتتحت السورة بإقرار حقيقة فلاح المؤمنين بالله العظيم وعرض صفاتهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.
- وقد أكّدت فلاحهم ببيان مصيرهم في الآخرة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٢-٢٢)

عرض بعض مظاهر عظمة الله تعالى - الذي آمن به المؤمنون - في خلق الإنسان والكون:

- بيّن السياق مظاهر عظمة الله في خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾، وهي أكثر السور تفصيلاً في مراحل نشوء الجنين لزيادة الدلالة على عظمة الله تعالى.
- وعرض السياق مظاهر عظمة الله في آفاق الكون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾.
- وهو الذي أنزل من السماء ماء فأنشأ به الجنات من النخيل والأعناب وهو الذي أنبت شجرة الزيتون ذات المنافع الكثيرة، وهو خالق الأنعام.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٣-٥٦)

عرض قصصي يدعو إلى التوحيد ويبيّن فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء وخسارة الكافرين:

- عرض السياق قصة نوح عليه السلام مع قومه، وقد برزت عظمة الله في إهلاك المكذبين الخاسرين، وقد برز فلاح المؤمنين في إنجائهم من الغرق.
- ثم عرض قصة عاد وقد بيّن السياق كيف أهلك الله عاداً بالصيحة فجعلهم غثاءً.
- ثم عرض قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه المستكبرين العالين، وبيّن نتيجة استكبارهم عن الحق إذ كانوا من المُهْلكين، وبذلك بطل ادعاء فرعون الإلهية في الأرض.
- وقد برزت عظمة الله تعالى في جعل عيسى ابن مريم عليهما السلام آية للعالمين، إذ آواهما الله إلى ربوة ذات قرار ومعين، فثبت بذلك أن الله وحده المتفرد بصفات الإلهية، وأن المفلحين من آمنوا به واتبعوا هداه، وأن الخاسرين من كفروا وأعرضوا.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٥٧-٩٢)

تعقيب ببيان موقف المؤمنين بالله وبيان فلاحهم، وبيان موقف الكافرين وخسرانهم:

- أعاد السياق التأكيد على بيان فلاح المؤمنين بالله العظيم وذكر صفاتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.
- وقد بيّن السياق فلاحهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.
- ثم عرض السياق موقف الكافرين: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.
- ثم بيّن خسارتهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.
- وبيّن السياق أن سبب خسارتهم إعراضهم عن آيات الله القرآنية: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.
- وإعراضهم عن آيات الله الكونية: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

الموضوع الخامس: (الآيات: ٩٣- ١١٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله على إهلاك المكذّبين الخاسرين: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.
- وأكّدت خسارتهم بإعراضهم عن آيات القرآن: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.
- وأعادت التأكيد على عظمة الله تعالى الذي آمن به المؤمنون: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان فلاح المؤمنين بالله العظيم، ختمت ببيان خسارة الكافرين بالله العظيم: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

سورة النور

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، وضرب محسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين.. فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وسمّى الله نفسه نوراً من حيث إنه هو المنوِّر، قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»[(١)]، فالدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة تفيد أن الله تعالى هو منوِّر السماوات والأرض، بمعنى أنه تعالى «مدبّر أمرِ مَن فيهما وما فيهما على أحكم نسق وأبدع نظام، ومن أعظم التنوير: تنويره لنا ـ معشر المكلَّفين ـ وتدبيره لكثير من أمور محيانا ومماتنا بشريعته الغراء»[(٢)]، وكأن المقصود من هذه الآية أن يستمدّ المجتمع المسلم نور حياته من المنهج الذي أبدعه مبدع السماوات والأرض.

---

(١) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٨٢٧، ٨٢٨. بتصرف.

(٢) أ.د إبراهيم عبد الرحمن خليفة، **اسم السورة يمثل روحها العام**، بحث مستلّ من حولية كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ص ٣٦.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المحور الذي تدور حوله هو التربية التي تشتدّ في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقُّ إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة، التي تصل القلب بنور الله، ففي السورة من الآداب والأخلاق النفسية والاجتماعية للفرد وللجماعة ما ينير القلب، وينير الحياة، ويربطها بذلك النور الكوني الكبير الشامل، ومعظم هذه الآداب والأخلاق مرتبط بالعلاقات الاجتماعية بين الذكر والأنثى، لأنها أمور تتدخل فيها الأهواء والمصالح، كما وأن السورة تبرز أن من أعرض عن نور الهدى الرباني هم في سراب وظلام دامس[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المجتمع الإيماني المسلم على اتباع التشريع الإلهي المنير، حتى يكون مجتمعاً نورانياً منسجماً مع الكون الذي أبدعه الله على أحسن صورة، وبذلك يكون المؤمنون يستمدّون نور حياتهم من نور خالق السماوات والأرض. ولما كان وصف الله تعالى بأنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وبأنه ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، اشتُقَّ من ذلك اسمٌ للسورة ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تربية المجتمع المسلم على أن يستمدَّ نور حياته من نور منوِّر السماوات والأرض.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تذكر حدوداً متعلّقة بجريمة الزنا، لتربية المؤمنين على شناعة هذه الجريمة، ثانياً: تعقيب ببيان براءة السيدة عائشة من الإفك، مع توجيهات وتحذيرات تربوية للتنفير من الفاحشة، ثالثاً: بيان مَثَل نور خالق

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٢٢٩، ٢٦٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٤، ص ٢٤٨٥، ٢٤٨٦، ٢٥١٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ٢٣٣، ٢٣٠- ٢٣٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ١٦٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٢٧٣- ٢٨٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٧١- ١٧٧، وأ.د خليفة، **اسم السورة يمثل روحها العام**، ص ٣٦- ٤٠.

السماوات والأرض والدعوة إلى التزام شرعه المنير، وأن من يعرض عنه هو في ظلام، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكرٌ لبعض الحدود المتعلقة بجريمة الزنا، وذلك من أجل زيادة التشنيع على مرتكب هذه الجريمة، فيكون ذلك أدعى لتربية المؤمنين على النفور منها، ومن المعلوم أن جريمة الزنا غالباً ما تحصل في الظلام، وكأن السياق يحذّر منها لأنها

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، والتعقيب مع التحذير من الفاحشة: ١١- ٣٤، وبيان نور خالق السماوات والأرض: ٣٥- ٥٧، والخاتمة: ٥٨- ٦٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى وبآياته: أ) هي السورة الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها وصف آيات الله بـ «مبيّنات»، وهو وصف يجعلها كالمنيرة للناس: ١٦، ٣٤، ب) كذلك هي بعد سورة البقرة أكثر سورتين في القرآن ذكرت فيهما عبارة «يبين الله لكم الآيات»، بتعبيرات متقاربة تدل على المعنى ذاته، انظر في سورة النور: ١٨، ٥٨، ٥٩، ٦١، وفي سورة البقرة: ١٨٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٤٢، ٢٦٦، ج) هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «نور»، وذلك سبع مرات كلها متعلقة بالله تعالى: ٣٥ (خمس مرات)، ٤٠ (مرتين)، وتبعها في تكرار هذه الكلمة سورة المائدة، وذلك أربع مرات لكن عن الكتب السماوية: ١٥، ١٦، ٤٤، ٤٦، د) هي أكثر سورة في القرآن ذكر فيها حرف الامتناع «لولا» في سياق التربية، وذلك سبع مرات، منها أربع متعلقة بالله تعالى بعبارة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾: ١٠، ١٤ مع إضافة قوله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، ٢٠، ٢١، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالمجتمع الإيماني المسلم: أ) ذكر فيها حرف الامتناع «لولا» ثلاث مرات في سياق تربية المجتمع: ١٢ ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، ١٣ ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾، ١٦ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ﴾، ب) هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «بيوت» المتعلقة بالمؤمنين، وذلك ثلاث عشرة مرة: ٢٧ (مرتين)، ٢٩، ٦١ (عشر مرات)، ومن اللطيف أنها وصفت المساجد بالبيوت أيضاً ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: ٣٦، وكأن السورة تشير إلى ضرورة جعل بيوت المؤمنين منيرة بذكر الله مثل المساجد، ج) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها مشتقات الجذر «عفّ»، مرة عن الرجال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾: ٣٣، ومرة عن النساء: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾: ٦٠، د) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها كلمتَي «الزانية والزاني» وذلك مرة لكل منهما في الآية: ٢، ومرتين لكل منهما في الآية: ٣، واختصاص سورة النور بهذا للتحذير من هذه الجريمة التي تُخرج عن نور الشرع الإلهي، هـ) بإمكانك أن تضيف كذلك أنها السورة الوحيدة التي ذكر فيها المصدر «البغاء»: ٣٣، للتحذير منه، و) هي بعد سورة النساء أكثر سورتين ذكرت فيهما مشتقات الجذر «حصن» لوصف النساء المؤمنات: انظر كلمة (المحصنات) في سورة النور: ٤، ٢٣، وانظر المصدر «تحصُّناً»: ٣٣، وانظر (المحصنات) في سورة النساء: ٢٤، ٢٥ (ثلاث مرات)، وانظر الفعل «أُحصِنّ»: ٢٥، ز) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها مشتقات الجذر «استأذن» في سياق التربية للدخول على البيوت: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: ٥٨، و﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ٥٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

تخرج مرتكبها من نور التشريع الإلهي: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى هو الذي أنزل هذه السورة وفرضها على المؤمنين، ليدلّ على أنه ينير حياة المؤمنين، كما أنه ينير السماوات والأرض، ولاحظ قوله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾، ليكون ذلك أدعى إلى النفور من هذه الجريمة، وقد أكّد هذا المعنى قوله ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ذكرت المقدّمة حدَّ القاذف للمحصنات المؤمنات الغافلات دون أربعة شهود، كما وذكرت قضاء الله في موضوع الملاعنة بين الأزواج إذا اتهم أحدهما الآخر بهذه الجريمة، وختم الحديث عن الحدود بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، وحذف جواب الشرط ليتفكّر العقل في كل جواب منسجم مع السياق.

إن افتتاح هذه السورة ببيان حكم الله في تلك الجريمة التي تحدث في الظلام أو الخفاء، يطلعنا على أن الله تعالى يريد من المجتمع المؤمن أن يكون نورانياً ملتزماً بأحكام منوّر السماوات والأرض وخالقهما. وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب متعلّق بموضوع اتّهام السيدة عائشة رضي الله عنها بجريمة الزنا، وبيان أن هذا إفك وأنها بريئة من ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾، فبما أن المقدّمة حذّرت من الزنا واعتبرته أمراً موجباً للحدّ، كان لا بد من تبرئة أمّ المؤمنين من هذه الفرية، ليبقى المجتمع الإيماني نورانياً، ولاحظ التربية في وجوب إحسان الظن قبل نقل الفرية بدون تحقّق.

وقد أعاد السياق التحذير من الخوض في الأعراض بدون بيّنة، لا سيما إذا كان العِرض المتّهم هو عرض الرسول القائد ﷺ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى تحذيرات وتوجيهات تربوية للمؤمنين تنفرهم من الفاحشة، وهي غالباً ما ترتكب في الظلام، وتخرج مرتكبها عن نور الشرع الإلهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾، وقد حذر السياق أيضاً من اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر.

وبعد التحذير جاءت التوجيهات التي تمنع حدوث الفاحشة من الأصل، فقد حذّر السياق أن يدخل المؤمن بيت غيره إلا بعد الاستئناس والسلام على أهل البيت، ومنع من دخول البيوت إذا لم يؤذن له، وحتى لو كان البيت خالياً من أهله فلا يدخله حتى يؤذن له بإذن مسبق، وأباح دخول البيوت غير المسكونة. ولا يخفى أن تربية المؤمنين على آداب الاستئذان هذه تحفظ المجتمع من وقوع الفاحشة سيّما عند ضعفاء النفوس.

وأمر السياق المؤمنين بغضّ البصر وحفظ الفروج، وأعاد الأمر للمؤمنات، وبيّن بعض أحكام لباسهنّ وأمرهنّ بالحشمة، وحدّد للمرأة مَن يجوز لها أن تبدي زينتها أمامه، وختم تلك التوجيهات بقوله: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (بعض الآية: ٣١)، فإذا التزم المجتمع بتلك التوجيهات، وأعقب ذلك بالتوبة عما مضى، أصبح مجتمعاً نظيفاً يستمدّ نور حياته من خالق السماوات والأرض.

ثم بيّن السياق الطريق الشرعي للشهوة الجنسية، فأمر المجتمع بتسهيل أمور الزواج الشرعي، وعدم اعتبار الفقر مانعاً منه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾، وأمر السياق الرجال الذين لا يتمكّنون من الزواج لقلّة ذات اليد بالاستعفاف حتى يغنيهم الله من فضله، ونهى عن إكراه الفتيات على البغاء كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وختمت تلك التوجيهات بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، ولاحظ تكرار وصف الآيات بالمبيّنات، وكأنها تشير إلى أن منزل هذه السورة هو خالق السماوات والأرض ومنوِّرهما، ويريد من المؤمنين أن يستمدّوا نور حياتهم منه.

ثالثاً: جاء في وسط السورة بيان مثل نور الله عزّ وجلّ، وكأن المقصود من موقع هذا

المثل أن يضيء أركان السورة من أولها إلى آخرها: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾﴾، فهو سبحانه خالق السماوات والأرض ومبدعهما على أحسن نظام وأتقن صورة، ولاحظ قوله ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ الدال على أنه يريد بشرعه المنير أن يكون المؤمنون من المستمدّين لهذا النور.

وأعقب السياق هذا المثل بذكر الذين يهديهم الله إلى نوره، وذكر من المواقع أطهرها وهي بيوت الله التي فيها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويخافون اليوم الآخر، وبيّن أن أولئك سيجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله.

ولكي تكتمل المقارنة، ذكر السياق مثل المعرضين عن نور الشرع الإلهي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾، ولاحظ وصف أعمالهم بالسراب، لأنهم ليسوا على الحقّ في شيء، فليس لهم أيّ أجر، ولاحظ وصفهم بأنهم في الظلمات في مقابل المؤمنين الذين يعيشون بنور الله تعالى.

ومن أجل التأكيد على أن المجتمع الإيماني إذا التزم بالتشريع المنير كان منسجماً مع الكون الذي أبدعه الله في أحسن صورة، ذكر السياق أن كل من في السماوات والأرض والطير يسبّح ويصلّي لله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وبيان أنهم يسبّحون ويصلّون منسجم مع وصف الرجال بأنهم لا تلهيهم مشاغل الحياة عن الذكر والصلاة، وذكر السياق من صفات الله تعالى أيضاً أنه هو الذي يزجي السحاب حتى ينزل منه الغيث، وهو الذي يقلّب الليل والنهار، وهو الذي خلق كل دابة من ماء، وختم هذه الصفات بقوله: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾، ليدل على أنه يريد أن يهدي لنوره من يلتزم بشرعه المنير.

وبيّن السياق صنفاً ثانياً من الناس المعرضين عن نور الله تعالى، وهم المنافقون: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، ولاحظ بيان أنهم حرموا أنفسهم من النور؛ لأنهم يعرضون عن حكم الله ورسوله ﷺ.

وقبل الخاتمة أعاد السياق بيان أن المؤمنين الملتزمين بشرع الله المنير هم الذين ارتضاهم خالق السماوات والأرض للخلافة في الأرض: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾، ولاحظ إعادة الأمر بالصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ، حتى يبقوا في النور الإلهي ولا يخرجوا عنه.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر توجيهات تحمي المجتمع من وقوع الفاحشة، فأمرت بتربية الأطفال وما ملكت اليمين على الاستئذان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ (بعض الآية: ٥٨)، وأمرت القواعد من النساء بعدم التبرّج، وحدّدت البيوت التي يجوز الأكل مع أهلها، وأمرت بإلقاء تحية السلام عند الدخول ليبقى المجتمع طاهراً سالماً من مظاهر الفاحشة ودواعيها.

وأعادت أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ، وعدم الانصراف عنه إلا بعد استئذانه، وأمرت بتوقير النبيّ ﷺ وعدم دعائه كما يدعون بعضهم بعضاً، وذلك للحفاظ على مكانة النبيّ ﷺ في قلوب المؤمنين، كما حافظ عليها حين بين براءة زوجه عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي أنزل هذه السورة وفرضها هو منوّر السماوات والأرض، وأراد من المؤمنين أن يلتزموا بما جاء فيها من الشرع المنير؛ لأنه من العليم الخبير، ختمت ببيان أنه تعالى يعلم مَن يلتزم بشرع الله فيبقى في النور، ومن يعرض عنه فيحرم نفسه من النور، وأنه سيجازي الجميع بأعمالهم يوم القيامة: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة ألطف الدلالة.

سورة النور

سورة تربية المجتمع المسلم على أن يستمدّ نور حياته من نور منوِّر السموات والأرض سبحانه وتعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تحذّر من جريمة الزنا وتبيّن حدودها كونها تخرج من نور الشرع الإلهي:

- افتتحت السورة ببيان أن الذي أنْزل هذه السورة وفرضها هو الخالق الحكيم سبحانه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
- ثم حدّدت حكم الزانية والزاني بالجلد مئة جلدة.
- وبينّت حكم القاذف للمحصنات الغافلات بلا شهود، وبيّنت حكم الله في موضوع الملاعنة بين الأزواج إذا اتّهم أحدهما الآخر بهذه الجريمة.
- إن افتتاح السورة بالتحذير من هذه الجريمة المُخْرِجة عن نور الشرع الإلهي يؤكّد محور السورة الدال على استمداد المجتمع المسلم نور حياته من نور خالق السماوات والأرض.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٣٤)

تعقيب ببيان براءة السيدة عائشة من حادثة الإفك، مع تحذيرات تربوية تحذّر من الفاحشة:

- بيّن السياق أن ما اختُلِق حول السيدة عائشة من الكذب إنما هو إفك هي بريئة منه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- وأعاد التحذير من الخوض في الأعراض دون بيّنة: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.
- وبذلك تزول الفريات عن بيت النبّوة الذي يستمدّ نوره من نور خالق السماوات والأرض.
- ثم حذّر السياق من الفاحشة بتحذيرات تربوية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.
- وقد حذّر السياق من أن يدخل المؤمن بيت غيره إلا بعد الاستئناس والسلام على أهل البيت، ومَنَع من أن يدخل البيت إذا لم يؤذن له، حتى لو كان البيت خالياً إلا بإذن مسبق، فآداب الاستئذان هذه تحفظ المجتمع من وقوع الفاحشة سيّما عند ضعفاء النفوس.
- وأمر السياق الرجال والنساء بغضّ البصر وحفظ الفروج، وبيّن أحكام اللباس للنساء، وأمرهن بالحشمة، وأمر بتسهيل أمور الزواج الشرعي وعدم اعتبار الفقر مانعاً له، وأمر الرجال الفقراء بالاستعفاف، ونهى عن إكراه الفتيات المؤمنات على البغاء كما كان يحصل في الجاهلية، ثم ختم هذه التوجيهات بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات ٣٥-٥٧)

بيان مثل نور خالق السماوات والأرض والدعوة إلى التزام شرعه المنير، وبيان أن مَن يعرض عنه هو في ظلام:

- جاء في وسط السورة بيان مثل نور خالق السماوات والأرض سبحانه ليضيء بذلك السورة كلها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.
- ثم ذكر السياق الذين يهديهم الله لنوره، وبيّن أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.
- ثم عرض السياق مَثل المعرضين عن نور الشرع الإلهي: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ﴾.
- وبيّن السياق أن كل مَنْ في السماوات والأرض والطير يسبّح ويصلّي لله تعالى، وذلك منسجم مع ذكر المؤمنين المسبحين والمصلّين لله تعالى، وبذلك ينسجم نور المجتمع المؤمن مع نور الكون.
- وذكر السياق المنافقين المعرضين عن نور الشرع الإلهي فوجب التحذير منهم.
- وبيّن كذلك أن المؤمنين الملتزمين بالشرع الإلهي المنير هم الذين ارتضاهم خالق السماوات والأرض لخلافة الأرض.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٥٨-٦٤)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت ذكر توجيهات تحمي المجتمع من وقوع الفاحشة، فأمرت بتربية الأطفال وما ملكت اليمين على الاستئذان، وأمرت القواعد من النساء بعدم التبرّج، وحدّدت البيوت التي يجوز للمؤمن أن يأكل مع أهلها، وأمرت بإلقاء تحية السلام عند الدخول، ليبقى المجتمع طاهراً سليماً من مظاهر الفاحشة.
- وأعادت أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ وتوقيره للحفاظ على مكانته في قلوب المؤمنين.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي أنزل هذه السورة وفرضها هو مُنوِّر السماوات والأرض، ختمت ببيان أنه يعلم من التزم بشرعه المنير فيبقى في النور، ومَنْ أعرض عنه فحرم نفسه من النور: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

سورة الفرقان

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والراء والقاف: أُصَيل صحيح يدلّ على تمييز وتزييل بين شيئين»[1]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «.. وفرقتُ بين شيئين: فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة»[2]، فقد سمي القرآن فرقاناً «لأنه الفارق بين كل ملتبس، فلا يَدَعُ خفاءً إلا بيّنه، ولا باطلاً إلا نفاه ومحقه، فيه انتظام الحياة الأولى والأخرى، فكان دالًّا على علم مُنزله»[3]. فاسم السورة يدلّ على أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو إزالة كل لبس متعلّق بعناصر عملية اتصال السماء بأهل الأرض، وهي المرسِل سبحانه، والرسول ﷺ، والرسالة، فتقوم بذلك الحجّة على البشر جميعاً، وتبيّن السورة موقف العنصر الرابع وهم المرسَل إليهم من العناصر الثلاثة، فالسورة تحوي إنذاراً عاماً للمكلّفين بما له سبحانه من القدرة الشاملة والعلم التامّ الذي دلّ هذا الفرقان على بعضه، والسورة أيضاً تحوي إيناساً للرسول ﷺ وتسرية عنه وعن المؤمنين، وتصف المعركة العنيفة بين الحقّ والباطل[4].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٤٣.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٦٣٣. بتصرف.

(٣) البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٤) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٧٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٢٩١، وقطب، **في ظلال**=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال الرّدّ على شبهات المكذّبين المتعلّقة بالمرسِل سبحانه، أو الرسول ﷺ، أو الرسالة ـ القرآن ـ وبذلك يثبت أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل، ولما كان وصف القرآن بالفرقان معبّراً عن المحور المذكور أبلغ تعبير، جُعل اسماً للسورة.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، الأول: مقدّمة تبيّن عظمة مُنزل الفرقان، وتعرض وتدحض بعض فريات المشركين، والثاني: الرّدّ على فريات المكذّبين حول الرسول ﷺ والقرآن مع بيان مصيرهم يوم القيامة، والثالث: تعقيب بذكر مظاهر أخرى لعظمة مُنزل الفرقان سبحانه، والرابع: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= **القرآن**، ج ٥، ص ٢٥٤٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ٣١٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٢٦٤، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٢٧٩- ٢٨٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٧٨- ١٨٥.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٦، والرّدّ على شبهات المشركين: ٧- ٤٤، والتعقيب عليها: ٤٥- ٦٢، والخاتمة: ٦٣- ٧٧. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى: أ) فهي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «تبارك» العائدة على الله تعالى: ١، ١٠، ٦١، ب) هي الوحيدة في القرآن التي جاءت فيها هذه العبارة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾: ٢، بذكر الخلق والتقدير مع العموم، وقريب منها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: الأعلى: ٢، ٣، وباقي المرات التي ذُكر فيها الفعل «قدّر» في القرآن كان مخصوصاً بمفعول به معين، ج) هي وسورة طه الوحيدتان اللتان ذكرتا أن الله يعلم السّرّ بدون تخصيص: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الفرقان: ٦، و﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ طه: ٧، د) هي أكثر سورة بعد سورتي مريم والزخرف تكراراً للاسم الجليل «الرحمن»: ٢٦، ٥٩، ٦٠ (مرتين)، ٦٣، بينما ذكر في مريم ستّ عشرة مرة، وفي الزخرف سبع مرات، هـ) هي وسورة الحج الوحيدتان اللتان ذكر فيهما اسم الفاعل «هادي» العائد على الله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الفرقان: ٣١، و﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الحج: ٥٤، و) هي الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾: ٣٣، ولم تذكر مشتقات «فسر» ـ المتلائمة مع اسم السورة ـ مرة أخرى، ز) والوحيدة التي جاءت فيها هذه العبارة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾: ٥٨، إذ لم تُكرر «الحي الذي لا يموت» بذات الصيغة، ثانياً: منها أمور متعلقة بالمشركين =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكرٌ لعدد من مظاهر عظمة منزل الفرقان سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾، ولاحظ بيان كون الفرقان نذيراً للعالمين، فمن شأنه أن يفرق بين الحقّ والباطل إلى يوم القيامة، ولاحظ الإشارة إلى أن ملك السماوات والأرض لله تعالى، للتأكيد على أن الذي أنزل الفرقان هو خالق الأكوان سبحانه، فهو وحده المستحقّ للعبادة.

وبعد عرض بعض مظاهر قدرة خالق الأكوان ومنزل الفرقان، انتقل السياق إلى دحض شبهات المشركين المتعلّقة بالله تعالى، وبالرسول ﷺ، وبالقرآن: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾، فقد بيّن السياق أن العبادة لله وحده، لأنه القادر على الخلق والبعث، ولاحظ الرّدّ على إدّعاء الكافرين بأن الرسول ﷺ اكتتب القرآن

= المكذّبين: أ) فهي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «زور»: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾: ٤، ومرة للنهي عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾: ٧٢، ب) هي وسورة الإسراء الوحيدتان اللتان ذكرتا اتهام المشركين الباطل للنبيّ ﷺ بأنه «مسحور»: الفرقان: ٨، والإسراء: ٤٧، ج) هي وسورة الأعراف الوحيدتان اللتان تكرر فيهما وصف الكافرين بالعتوّ: الفرقان: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: ٢١، والأعراف: عن ثمود ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: ٧٧، وعن بني إسرائيل ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾: ١٦٦، علماً بأن ثمود قد ذكروا في سورة الفرقان: ٣٨، وقد ذُكر فيها أن موسى أوتي الكتاب وجعل الله معه أخاه هارون وزيراً: ٣٥، د) هي وسورة الجاثية الوحيدتان اللتان اختصتا بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: الفرقان: ٤٣، والجاثية: ٢٣ ﴿أَفَرَءَيْتَ...﴾، علماً بأن رقم سورة الفرقان: ٢٥، ورقم سورة الجاثية: ٤٥، هـ) هي الوحيدة التي وصفت الكافر بقوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾: ٥٥، و) والوحيدة التي تكرر فيها الثبور لوصف عذاب الكافرين: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾: ١٣، ١٤، ز) والوحيدة التي وصف فيها مصير الكافرين في جهنم بقوله ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: ٦٦، وذلك ملائم لإقامتهم على الباطل، كما وأنها الوحيدة التي وصفت مصير المؤمنين في الجنة بقوله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: ٧٦، وهو ملائم لإقامتهم على الحق، وانظر أيضاً ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: ٢٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

من غيره بأن الذي أنزل هذا القرآن هو عالم السِّرّ في السماوات والأرض، ولو اكتتب النبيُّ ﷺ القرآن سِرًّا ـ وحاشاه أن يفعل ـ لعلم الله هذا السِّرَّ، فإذاً لم يبقَ شكٌّ في أن منزل الفرقان إنما هو الله تعالى العليم الخبير.

ثانياً: ثم انتقل السياق بعد أن أثبتت المقدمة أن القرآن من عند الله، إلى الرَّدّ على شبهات المكذّبين المتعلّقة بالرسول ﷺ وبالقرآن الكريم، مع بيان مصير المكذبين يوم القيامة، وبذلك يتحقّق أن الفرقان نذير للعالمين: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ۝١٠﴾، ولاحظ الرَّدّ عليهم من خلال بيان أن الذي أرسل النبيّ ﷺ هو القادر على فعل ما يشاء، وفي هذا أبلغُ رَدٍّ على كذبهم، وأثبتُ دليلٍ على صدق الرسول ﷺ.

وقد ذكر السياق مصير هؤلاء المكذّبين يوم القيامة، ليكون هذا الفرقان نذيراً للعالمين: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ۝١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ۝١٤﴾، فهم يكذّبون بالساعة ليفعلوا ما يشاؤون دون أن يقيموا وزناً لحساب، وبيان مصيرهم في ذلك اليوم الذي كذبوه أبلغ رَدّ عليهم، وقد بيّن السياق أيضاً مصير المؤمنين، فهم في جنة الخلد لهم فيها ما يشاؤون خالدين، وعرضُ مصير الفريقين يؤكّد دلالة اسم السورة، في التفريق بين أهل الحقّ وأهل الباطل.

ومن أساليب الرَّدّ على شبهات المكذّبين وتثبيت النبيّ ﷺ بيان حسرة الكافر يوم القيامة: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ۝٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾، ولاحظ أنه يتحسّر؛ لأنه لم يتخذ مع الرسول

سبيلاً، ولم يؤمن بما جاء في الفرقان الذي أوحي إلى الرسول ﷺ، ولاحظ تثبيتَ النبيّ ﷺ بعد شكواه من موقف قومه المعرضين، ببيان أن التكذيب سُنَّة الأقوام قبله، وقولَه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الذي فيه من التحنّن والتلطّف بالنبيّ ﷺ ما فيه. ولزيادة تثبيته ﷺ، بيّن السياق موقف بعض الأقوام التي سبقت كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وأصحاب الرس، وكلًّا ضرب الله له الأمثال، وكلًّا تبَّرهم تتبيراً؛ نتيجة تكذيبهم.

فسياق السورة كما ترى يقوم على رَدّ شبهات المكذّبين وبيان مصيرهم في الدنيا والآخرة، وتثبيت النبيّ ﷺ ومن معه، وهذا ما دلّ عليه وصف القرآن بالفرقان الذي يفرق بين الحقّ والباطل، وبذلك يتحقّق كونه نذيراً للعالمين.

ثالثاً: ثم أعاد السياق عرض مظاهر أخرى لزيادة الدلالة على عظمة منزل هذا الفرقان سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾، ولاحظ ربط الآيات الكونية بآيات الوحي المنزلة على الأنبياء، للتأكيد على أن خالق الأكوان هو من يرسل الأنبياء ويؤيّدهم بآيات الوحي للدعوة إلى توحيده.

وبعد بيان مظاهر عظمة الله تعالى، أعاد السياق التحذير من الشرك كونه أعظم مظاهر الباطل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، ولاحظ كيف يثبّت الله رسوله ﷺ على الحقّ ببيان أنه لا يسأل الناس أجراً على دعوته، بل اعتبر أجره في الدنيا هو أن يتخذ الناس إلى ربهم سبيلاً، ولاحظ دعوته إلى التوكّل على الحيّ الذي لا يموت، الخبير بذنوب عباده، للدلالة على أنه المستحقّ للعبادة وحده.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما فصّل السياق سابقاً في موقف أهل الباطل وبيّن مصيرهم في الدنيا والآخرة، بيّنت الخاتمة موقف أهل الحقّ وبيّنت مصيرهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، فهم اتعظوا بما جاء في هذا الفرقان من النذارة فاستعاذوا بالله من جهنم، وقد بيّنت الخاتمة من صفاتهم أيضاً أنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس إلا بالحقّ، ولا يزنون، وأنهم يسارعون إلى التوبة من ذنوبهم، ولا يشهدون الزور.

وكما بيّن سياق السورة سابقاً موقف أهل الباطل من الرسول ﷺ ورسالته، بيّنت الخاتمة موقف أهل الحقّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾، فهم لإيمانهم بالقدرة المطلقة لمنزل هذا الفرقان، يسألونه أن يهب لهم ذرية تَقَرُّ بها أعينهم، وأن يجعلهم للمتقين إماماً، وبذلك يجتمع إيمانهم بمنزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، ولاحظ بيان مصيرهم في مقابل بيان مصير أهل الباطل فيما سبق، وبذلك تكتمل التفرقة بين أهل الحقّ والباطل.

وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر عظمة مُنزل الفرقان الذي جعله نذيراً للعالمين، وكان منها أن له ملك السماوات والأرض، فهو غنيّ عن العالمين، ختمت ببيان أنه لا يعبأ بالبشر إلا لدعاء أهل الحقّ له، وأنه قادر على تعذيب أهل الباطل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام على بيان أن القرآن فرقان بين الحق والباطل، وأن منزل القرآن هو خالق الأكوان، وهذا هو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الفرقان

سورة بيان أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تبيّن عظمة مُنزِل الفرقان سبحانه وتعالى، وتعرض وتدحض بعض شبهات المشركين:

- افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى منزل الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.
- وقد ردّت على بعض فريات المشركين وباطلهم، فمنها ما هو متعلق بالله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.
- ومنها ما هو متعلق بالرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾.
- ومنها ما هو متعلق بالرسالة: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.
- إن عرض هذه الفريات وردّها تمهيد لما سيأتي من التفصيل في الرّدّ على هذه الشبهات، ليتأكّد بذلك أن القرآن فرقان بين الحق والباطل.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٤٤)

الرّدّ على فريات المشركين حول الرسول ﷺ والقرآن مع بيان مصيرهم يوم القيامة:

- ذكر السياق عدداً من فريات المشركين حول الرسول ﷺ مع الرّدّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وطلبوا أن يُنزَّل عليه مَلَك ينذر معه، أو يُلقى إليه كنز، أو تكون له جنّة، واتهموه بأنه مسحور، وقد ردّ عليهم بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾.
- وقد بيّن السياق مصير المكذّبين يوم القيامة، فقال عنهم حين سيدخلون النار يوم القيامة: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.
- ومِنْ باطلهم أنهم أعرضوا عن القرآن وهجروه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾، وقد جاء الرّدّ عليهم مُخففاً عنه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات ٤٥-٦٢)

تعقيب على الفريات بذكر مظاهر أخرى لعظمة منزل القرآن سبحانه:

- من ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.
- ومن ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.
- إن عرض مظاهر عظمة مُنْزل الفرقان سبحانه وتعالى فيه أبلغ رَدّ على فريات المكذّبين حول القرآن أو الرسول ﷺ كما جاء في المقدّمة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٦٣-٧٧)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- بعد عرض فريات المكذبين المشركين والرَّدّ عليها، بيّنت الخاتمة صفات المؤمنين المتقين، ليتمَّ بذلك بيانُ أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل.
- فعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض هوناً، ويعرضون عن الجاهلين، ويبيتون لربهم سجّداً وقياماً، ويستعيذون به من عذاب جهنم، ولا يسرفون ولا يقترون في إنفاقهم.
- وبيّنت الخاتمة موقف المؤمنين من الرسول ﷺ ورسالته بعد بيان موقف المكذّبين من ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان عظمة منزل هذا القرآن الذي جعله نذيراً للعالمين، وأنه له ملك السماوات والأرض فهو غنيّ عن العالمين، ختمت ببيان أنه لا يعبأ بالبشر إلا لدعاء أهل الحقّ له سبحانه، وأنه قادر على تعذيب أهل الباطل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾.

سورة الشعراء

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية إلى وصف حال الشعراء، الذين هم أفصح الناس، فالكافرون منهم مع ما أُوتُوه من الفصاحة يهيمون في الحياة بلا هدف، وهم كاذبون مدّعون، يخالف قولهم فعلهم، وهم فوق ذلك يغوون ضعفاء النفوس إذ يُسْحَرون بفصاحتهم، وقد كان من المفترض أن يكون هؤلاء الشعراء أول من يؤمن ببلاغة القرآن المعجِزة، ولكن الذين آمنوا منهم بالقرآن وبالإسلام، سخّروا فصاحتهم لخدمة الدين فانتصروا بعدما غلبوا، ففي تسمية السورة بـ «الشعراء» تعريض بمن كفر ببلاغة القرآن منهم واتبع هواه ولم تنفعه فصاحته، ومدح لمن آمن منهم وسخّر فصاحته للدين.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تبين أن منهج النبيّ ﷺ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء، وغير منهج الشِّعر أصلاً، فالقرآن يستقيم على نهج واضح ويدعو لغاية محدّدة، والرسول ﷺ لا يقول قولاً ينقضه غداً، بينما الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلّبة، تتحكّم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير كيفما كانت، فالسورة تؤكّد أن القرآن بَيِّنٌ بياناً معجزاً دالاً على أنه من عند الله، وفي ذلك أبلغ رَدّ على من اتّهم النبيّ ﷺ بأنه شاعر، في حين أن الشعراء هم من يوظّفون الكلمة للتأثير على الآخرين بغير وجه حقّ غالباً[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٨٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٣٤٤، وقطب، **في ظلال**=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال المذكورة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية، وآيات الوحي التي أيّد بها الأنبياء والمرسلين، الواضحة الحجة البيّنة الدلالة عليه سبحانه، مع بيان موقف الأقوام المكذّبين السابقين ومصيرهم، ولما كان عرض موقف الشعراء الذين كان من المفترض أن تقودهم فصاحتهم إلى أن يكونوا أول المؤمنين ببلاغة القرآن المعجزة، فيسخّروا فصاحتهم لخدمة الدين بدلاً من تسخيرها للتأثير على الناس بغير وجه حقّ، لما كان عرض موقفهم يدل على التشابه بينهم وبين موقف الأقوام المكذّبين بآيات الرسل البينات، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور.

وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة بيان الحجة الواضحة البينة للآيات التي أيّد الله بها أنبياءه ورسله، وللآيات القرآنية المنزلة على سيّدنا محمد ﷺ، التي يفترض أن يؤمن الناس ـ وعلى رأسهم الشعراء ـ بها لبلاغتها وحجّتها المعجزة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تبيّن موقف المكذّبين من آيات الله تعالى بالرغم من حجّتها البيّنة المعجزة، وعرض قصصي يبرز موقف الأقوام من آيات الوحي البينة الحجّة التي أيّد الله بها أنبياءه ورسله، والخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= **القرآن**، ج ٥، ٢٥٨٣، ٢٦٢١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ٩٠، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٣٢٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٢٨٥، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٨٥- ١٩١.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٩، والعرض القصصي: ١٠- ١٩١، والخاتمة: ١٩٢- ٢٢٧، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي أكثر سورة في القرآن جاء فيها الوصف «مبين» لآيات الله تعالى: فقال عن القرآن ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: ٢، وعن موسى عليه السلام ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾: ٣٠، و ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: ٣٢، وعن نوح عليه السلام ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: ١١٥، وعن القرآن مرة أخرى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾: ١٩٥، ثانياً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت في عبارة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ بعد إهلاك المكذّبين بآيات الله البينات، وذلك ثماني مرات: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠، ثالثاً: هي الوحيدة التي فيها قوله ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ١٩٧، والوحيدة التي فيها قوله ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾: ١٩٣، وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: ١٩٦، =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن آيات الله تعالى واضحة الحجّة بيّنة الدلالة، ومع ذلك يكذّب بها المكذّبون حتى استحقّوا العذاب: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾، فلاحظ وصف الكتاب بالمبين، وبيان إعراضهم عن كل آية مُحْدَثة من الرحمن دالّة عليه سبحانه، وتهديدهم بنزول العذاب إذا أصرّوا على تكذيبهم، ولاحظ بيان أنه تعالى هو الذي أنبت في الأرض من كل زوج كريم، وبذلك تجتمع الآيات الكونية مع الآيات القرآنية على الدلالة عليه سبحانه.

فالمقدّمة كما ترى تثبت أن آيات القرآن واضحة الحجة، بيّنة الدلالة، يفترض من الشعراء الذين هم أفصح الناس أن يكونوا أول من يؤمن لبلاغة القرآن المعجزة، فيدافعوا عن الدين، بدلاً من تسخير فصاحتهم في الباطل.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد أن آيات الوحي التي أيّد الله بها رسله وأنبياءه السابقين، كانت أيضاً واضحة الحجة بيّنة الدلالة، فبذلك يثبت أن مرسل الرسل

= وقوله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩﴾: ١٩٨، ١٩٩، وقوله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾: ٢١٠، ٢١١، رابعاً: انظر قوله تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: ٥، وانظر قريباً منه في سورة الأنبياء: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: ٢، خامساً: وانظر قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ١٩٢، وانظر قريباً منه في سورة السجدة: ٢، والواقعة: ٨٠، والحاقة: ٤٣، سادساً: هي وسورة القمر السورتان الوحيدتان اللتان تكررت فيهما كلمة «كذبت» عن الأقوام: فانظر في سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ١٠٥، وانظر عن عادٍ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ١٢٣، وانظر عن ثمود ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ١٤١، وعن قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ١٦٠، وانظر في سورة القمر عن قوم نوح ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: ٩، وعن عادٍ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨﴾: ١٨، وعن ثمود ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾: ٢٣، وعن قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾: ٣٣، سابعاً: هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الاسمين الجليلين «العزيز الرحيم»، وذلك بتكرار العبارة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تسع مرات: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١، ٢١٧، واسم «العزيز» ملائم لبيان إهلاك المكذّبين بآيات الله البينات، و«الرحيم» ملائم لإرسال الرسل بالآيات البينات لهداية الناس. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

جميعاً هو إله واحد سبحانه، وفي عرض موقف الأقوام المكذّبين بهذه الآيات البينات حتى أهلكهم الله، يثبت أن الشعراء المكذّبين ببلاغة القرآن المعجزة مستحقّون للعذاب أيضاً، وقد كانت أول قصة معروضة هي قصة موسى عليه السلام، وذلك لعدّة أمور منها: أنه أُيّد بمعجزات محسوسة بالإضافة إلى تأييده بآيات الوحي، ثم إن عرض قصته أبرز شرك فرعون وقومه، ولم يذكر شرك الأقوام في القصص الأخرى بشكل صريح، إلا في قصة إبراهيم عليه السلام، ولذلك عُرضت بعد قصة موسى مباشرة: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ أن التركيز كان على أن الله تعالى سيطلق لسان موسى عليه السلام بالحجة البيّنة، وسيؤيّده بأخيه هارون، ليتفق ذلك مع وصف آيات القرآن في المقدّمة بأنها بيّنة، ولم يذكر شيئاً عن العصا واليد، إذ المقصود بالمقام الأول إثبات أن حجة الأنبياء والرسل بيّنة واضحة.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾، لاحظ طول هذه المحاججة التي لم تتكرر في القرآن على هذا النحو، وأن موسى عليه السلام دحض بما أيّده الله من الحجة الواضحة فريات فرعون حتى ألجأه إلى الاستبداد بقوّته، بعد أن أفحمَ موسى عليه السلام فرياته.

ثم عرض السياق موقف فرعون وملئه من آيتي العصا واليد، حتى أشاروا عليه بإرجائه وأخيه إلى موعد محدّد لمواجهتهما، ثم عرض السياق موقف السحرة الذين آمنوا لهاتين الآيتين البينتين: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، فموقف هؤلاء المؤمنين السحرة الحاذقين في السحر مشابه لموقف من آمن ببلاغة القرآن المعجزة من الشعراء الحاذقين في الفصاحة، فكلا الفريقين سَخَّر موهبته من خدمة الدين بعدما آمن.

ثم عرض السياق مصير فرعون وملئه المكذّبين، إذ أصرّوا على التكذيب وعلى ملاحقة موسى عليه السلام ومن آمن معه، ومن اللطيف أن هذه السورة هي الوحيدة التي عرضت هذا التصرف من فرعون: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾، وفيه مزيد تأكيد على تكذيبه بالرغم من الآيات البينات التي أُيِّد بها موسى، ثم كان مصير تكذيبهم أن الله أغرق فرعون وقومه، وأنجى موسى ومن آمن معه أجمعين. فهذه أول قصة تعرض موقف المكذّبين بالآيات البينات التي أيّد الله بها رسله وتبيّن مصيرهم.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، ولاحظ طول المحاججة أيضاً، ولاحظ أن إبراهيم عليه السلام دحض شبهات قومه بما أيّده الله من الحجة والبرهان، ثم عرض السياق مصير المشركين يوم القيامة، وفي ذلك تعريض بمن أصرّ على الشرك من قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾. فقصة إبراهيم عليه السلام كما ترى أيضاً تعرض موقف المكذّبين والمشركين ومصيرهم بعدما أصرّوا على التكذيب بالحجة والبرهان الذي أيّده الله به.

ثم عرض السياق قصة نوح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، ولاحظ إصرارهم على التكبّر بالرغم من حجة نوح وبرهانه الساطع، وقد عرض السياق أيضاً أنهم هدّدوه بالرجم إن لم ينتهِ عن دعوته، حتى اضطُرّ إلى دعاء الله بالنصر، فأنجاه الله ومن آمن معه في الفُلْك المشحون، وأغرقَ بعدُ الباقين.

ثم عرض قصة هود عليه السلام مع عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، ويلاحظ فيها أيضاً إصرار القوم على التكذيب بالرغم من سطوع الحجة والبرهان.

ثم عرض قصة صالح عليه السلام مع ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾، وقد عرض السياق إصرارهم على التكذيب حتى بعدما رأوا آية الناقة، فعقروها فأصبحوا نادمين، فأخذهم العذاب.

ثم عرض قصة لوط عليه السلام مع قومه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾،

وبيّن السياق أن عاقبة تكذيبهم بالحجة والبرهان الذي أُيِّد به لوط عليه السلام كانت أن أرسل الله عليهم الحجارة كالمطر.

ثم عرض في الختام قصة شعيب مع أصحاب الأيكة: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦﴾، ثم عرض السياق نتيجة تكذيبهم بأن أخذهم عذاب يوم الظُّلّة.

فهذا العرض القصصي كما ترى يعرض موقف الأقوام المصرّين على التكذيب بالرغم مما أيّد الله به أنبياءه ورسله من الحجة والبرهان، ويبيّن عاقبة تكذيبهم، وفي ذلك أبلغ دعوة لقوم النبيّ ﷺ وعلى رأسهم الشعراء الذين هم أفصح الناس، ليؤمنوا لبلاغة القرآن المعجزة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت تهديد المكذّبين الكافرين بالقرآن بالرغم من حجته وبرهانه وبلاغته المعجزة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٠٢﴾.

وأكّدت على أنه ليس لأحد سبيل على هذا القرآن، حتى لو كان من الشياطين، بل هو محفوظ بحفظ مُنزله سبحانه، فينبغي أن تكون العبادة له وحده: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان حجة القرآن وبرهانه الساطع وبلاغته المعجزة مع تهديد المصرّين على التكذيب بالعذاب، ختمت ببيان موقف الشعراء الذين ينبغي أن تقودهم

فصاحتهم إلى أن يكونوا أول من يؤمن ببلاغة القرآن المعجزة، فيسخِّروا فصاحتهم للدين، بدلاً من أن يكذبوا به ويسخّروا فصاحتهم للباطل، وأن مَن يكذب منهم مع ما أوتي من فصاحة بالقرآن العظيم، فهو من الظالمين المستحقّين للعذاب: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الشعراء

سورة بيان الحجة الواضحة البينة للآيات التي أيّد الله بها أنبياءه ورسله، وللآيات القرآنية المنزلة على سيّدنا محمد ﷺ، التي يُفْترض أن يؤمن الناس ــ وعلى رأسهم الشعراء ــ بها لبلاغتها وحجتها المعجزة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدّمة التي تبيّن موقف المكذّبين بآيات الله بالرغم من حجتها البينة المعجزة:

- افتتحت السورة ببيان أن آيات الله بيّنة الحجة: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.
- وهدّدت المكذّبين بآيات الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾.
- وأيّدت حجة الآيات القرآنية بذكر عظمة الآيات الكونية الدالة على الخالق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾.
- فوضوح حجة وبلاغة آيات القرآن يفترض أن تقود الناس ـ وعلى رأسهم الشعراء لأنهم أبلغ الناس ـ للإيمان بهذه الآيات.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-١٩١)

عرضٌ قصصي يبرز موقف الأقوام من آيات الوحي البينة الحجة التي أيّد الله بها أنبياءه ورسله:

- ابتدأ السياق بعرض قصة موسى عليه السلام لأنه أُيِّد بمعجزات محسوسة بالإضافة إلى تأييده بآيات الوحي، وقد برز شرك قومه بوضوح، ولم يذكر شرك الأقوام في القصص التالية سوى قصة إبراهيم عليه السلام، ولذلك ذُكِرت بعد قصة موسى مباشرة.
- ابتدأ عرض القصة من مشهد المناجاة الذي برز فيه أن الله سيؤيّد رسوله بالحجة البينة وبأخيه هارون عليه السلام.
- ثم عرض السياق محاجة طويلة بين موسى عليه السلام وفرعون، أُفحِم فيها فرعون حتى استبد بقوته.
- وعرض السياق إيمان السحرة الحاذقين بالسحر، ليتلاءم موقفهم مع مَن آمن مِن الشعراء الحاذقين بالشعر، والذين سخروا فصاحتهم للدين كما سيأتي آخر السورة.

■ ثم عرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وبرز فيها محاجة طويلة بينه وبينهم، أفحمَ فيها إبراهيمُ عليه السلام قومَه بما أيّده الله من الحجة والبرهان.

■ ثم عرض قصة نوح عليه السلام مع قومه، وبرز فيها إصرارهم على الكفر رغم حجة نوح عليه السلام وبرهانه، وقد كان مصيرهم أن أغرقوا إلا مَن آمن منهم.

■ ثم عرض قصة هود عليه السلام مع عاد، ويلاحظ فيها إصرارهم على التكذيب بالرغم من سطوح الحجة والبرهان.

■ ثم عرض قصة صالح عليه السلام مع ثمود، وبرز فيها إصرارهم على التكذيب حتى بعدما رأوا آية الناقة.

■ ثم عرض قصة لوط عليه السلام مع قومه، الذين أصرّوا على تكذيب لوط عليه السلام وما أُيِّدَ به من الحجة والبرهان.

■ ثم عرض قصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة، وهم كذلك كذبوا شعيباً عليه السلام رغم حجته وبرهانه.

الموضوع الثالث: الآيات: (١٩٢-٢٢٧)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التأكيد على بلاغة القرآن وحجته المعجزة، كما أيّد الله رسله السابقين بالحجة والبرهان: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

■ وأكّدت حفظ الله تعالى لهذا القرآن ذي الحجة والبرهان الساطع: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان حجة القرآن المعجزة مع تهديد المصرّين على التكذيب بالعذاب، ختمت ببيان موقف الشعراء الذين ينبغي أن تقودهم فصاحتهم إلى أن يكونوا أول المؤمنين ببلاغة القرآن، مع تهديد المكذّبين منهم بالعذاب: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

سورة النمل

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة بسورة «النمل» لذكر قصة سليمان عليه السلام حينما سار بجنوده ومرَّ على وادي النمل، فخافت نملة أن يحطم سليمان عليه السلام وجنوده النمل وهم لا يشعرون، فحذّرت النمل وأمرتهم بدخول مساكنهم، فسمع سليمان عليه السلام كلامها وشكر الله على أن أشهده إعجازه في أحد آيات خلقه. فالقصة تدلّ على إعجاز الله في آيةٍ من آيات الخلق، وتعرض أنموذج شكرٍ لله واعتراف بنعمته مقابل هذه الآية. فاسم السورة يدلّ على أنه ينبغي أن يكون الإنسان شاكراً لله على أنْ جعله مؤمناً بآياته المعجزة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً في الربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة إظهار العلم والحكمة التي ألهمها الله لمخلوقاته فكانت آياتٍ تبرز وحدانيته في الخلق، وذكروا أن من مقاصدها أيضاً الاهتمام بنواحي العقيدة من توحيد العبادة لله، والإيمان بالآخرة، وأن الغيب لله لا يعلمه سواه، والدعوة إلى شكر أنْعُم الله على البشر، وذكروا أن قصة النمل تحوي دلالات تؤكّد هذه المقاصد، فهي تبرز هداية الله التي أودعها في مخلوقاته، التي تجلّت في قول النملة من حسن التدبير وصحة السياسة وحسن التعبير وبلاغة التأدية عن ذلك القصد، وتعرض موقف

سليمان عليه السلام الشاكر لله على نعمه(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية والكونية، من خلال عرض نماذج إيمان وشكر، ونماذج جحود وكفر لهذه الآيات، مع ذكر مصير نماذج الكافرين، وإنما اختير اسم «النمل» لهذه السورة لأن دلالات قصة النمل السياقية فيها أدلّ ما في السورة على إعجاز الله حتى في أحد أضعف مخلوقاته، فكانت آية دالّة عليه، و لأن من دلالاتها عرض موقف الإيمان والشكر إزاء هذه الآية.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى أن يكون موقف الإنسان من آيات القرآن ومن الآيات التي تبرز وحدانية الله في الخلق موقف الإيمان والشكر، لا الجحود والكفر**.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط الوثيق بينها وبين الدلالات السياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى أربعة موضوعات رئيسية: مقدّمة داعية إلى الإيمان بآيات الله القرآنية وما تحويه من أصول الإيمان، ثم عرض قصصي لنماذج إيمان وشكر، ونماذج جحود وكفر إزاء آيات الله، ثم تعقيب إلهي على هذه القصص يدعو إلى الإيمان من خلال ذكر بعض الآيات الكونية، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق(٢).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٩٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٤٠٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٦٢٤- ٢٦٣٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٩، ص ٢١٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٤١٧ و ٤١٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٢٩١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ١٩٢- ١٩٦.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، والعرض القصصي شمل كلًّا من الأنبياء التالين: موسى: ٧- ١٤، سليمان بن داود: ١٥- ٤٤، صالح: ٤٥- ٥٣، لوط: ٥٤- ٥٨ عليهم السلام جميعاً، والتعقيب الإلهي على هذه القصص: ٥٩- ٨١، والخاتمة: ٨٢- ٩٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تعرض نماذج الإيمان والشكر: أ) فقول داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ١٥، لم يتكرر في القرآن، ب) وأما هذا الدعاء: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ لم يذكر في القرآن إلا هنا: ١٩، وفي سورة الأحقاف: ١٥، ج) عرض إسلام ملكة سبأ لله ربّ العالمين جاء هنا فقط: ٤٤، د) وكذلك قول سليمان ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾: ٤٠، هـ) سورة النمل وسورة الزمر أكثر =

أولاً: جاءت المقدّمة مبيّنة فضل القرآن العظيم، وما تدعو إليه آياته من أصول الإيمان: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، فآيات الله القرآنية تحوي هدى وتبشيراً للمؤمنين، وتدعوهم إلى الإيمان بالآخرة والقيام بما ينبني على الإيمان من صلاة وزكاة. ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾، الذي يدل على أن مصدر الآيات المنزلة على سيدنا محمد ﷺ هو الله تعالى، وهو ذاته من أرسل موسى عليه السلام بآيات بيّنات إلى فرعون كما سيأتي، وهو ذاته من ألهم النملة الهدى والحكمة حينما أنقذت قومها، فكما أن الآيات القرآنية تدعو إلى الإيمان به، كذلك تدعو آيات الله في خلقه والتي أكثرها دلالة على إعجازه في هذه السورة آية النمل التي سمّيت السورة باسمها. فالمقدّمة تدعو إلى الإيمان بالآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرضٍ قصصي متنوّع يعرض نماذج مختلفة لمواقف البشر إزاء آيات الله تعالى، فكان أولها فرعون وقومه الذين رأوا تسع آيات باهرات لكنهم جحدوا

= سورتين تكررت فيهما عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ١٥، ٥٩، ٩٣، والزمر: ٢٩، ٧٤، ٧٥، ثانياً: ومنها أمور تعرض نماذج الجحود والكفر: أ) فقوله تعالى عن فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾: ١٤، لم يتكرر بهذه الصيغة، علماً بأن وصف آيات موسى بـ ﴿مُبْصِرَةً﴾ لم يذكر إلا هنا كذلك: ١٣، ب) وقوله تعالى عن المفسدين من ثمود ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾: ٤٩، لم يتكرر، ج) وأما قول قوم لوط ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: ٥٦، فلم يذكر في موضع آخر إلا في سورة الأعراف: ٨٢، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بآيات الله الداعية إلى الإيمان والشكر: أ) فلم يذكر كلام النملة إلا هنا: ١٨، ب)وكذلك كلام الهدهد: ٢٢- ٢٦، ج) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: ٨٢، د) وانظر تكرار الاستفهام التقريري ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ﴾ ﴿أَمَّن يُجِيبُ﴾ خمس مرات، وكذلك تكرار السؤال التقريري ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خمس مرات أيضاً وذلك في سياق عرض الآيات الكونية: ٦٠- ٦٤، وبإمكانك أن تضيف أن لفظة ﴿يُوزَعُونَ﴾ الدالة على الترتيب والانضباط، لم ترد إلا في هذه السورة وسورة فصلت، ففي النمل: ١٧ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن جنود سليمان باختلاف أجناسهم، و٨٣ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، بينما في فصلت: ١٩ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، والآيتان في سورة النمل متلائمتان مع ما هو معلوم عن الانضباط والترتيب في مملكة النمل. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بها وقد استيقنتها أنفسهم: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢﴾، فهذا المشهد القصصي فصّل في عرض آيتي العصا واليد اللتَيْن أيّد الله بهما رسوله، لأنهما أول آيتين سيراهما فرعون، ويفهم منه أن فرعون لن يكتفي بآيتين، فبيّن السياق أن مجموع الآيات سيكون تسع آيات خلال الفترة التي سيمكث فيها موسى عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان في مصر.

وانظر ماذا كان موقف فرعون وقومه من هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾، ولاحظ أولاً وصف الآيات بأنها مبصرة، أي: لا مجال للشك في دلالتها على الله تعالى الذي أيّد رسوله بها، وثانياً كيف كان موقفهم الجحود والكفر بدلاً من الإيمان والشكر، مع أن نفوسهم مستيقنة من دلالة تلك الآيات على الله، وثالثاً الدعوة إلى النظر في عاقبتهم، وفي ذلك رسالة تهديد لكفار قريش الذين لم يؤمنوا بآيات الله.

ثم انتقل السياق إلى عرض أنموذجٍ ذي موقف مختلف تماماً إزاء آيات الله في خلقه، وهو يتمثّل في موقف داود وسليمان الشاكرين لله على نعمه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾، ثم انتقل السياق إلى عرض موقف سليمان عليه السلام حينما رأى آيةً من إعجاز الله في خلق النمل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٩﴾، ولاحظ أولاً: التناسق في وصف حشر الجنّ والإنس والطير

لسليمان عليه السلام بقوله: فهم يوزعون، الدال على كمال الانضباط والترتيب بالرغم من الكثرة، ولا يخفى تناسق ذلك مع ما في مملكة النمل من الانضباط والترتيب، ولاحظ قوله تعالى أواخر السورة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، فهم سيوقفون منضبطين مرتّبين.

وثانياً: قول النملة الدال على أن خالقها قد ألهمها الهدى والحكمة وحُسْن السياسة، فهي قد أنقذت قومها حين حذّرتهم من الخطر بأبلغ تعبير[1]، فكانت بتصرفها الملهَم هذا آيةً دالة على إعجاز الله في خلقه، وثالثاً: موقف سليمان عليه السلام المبادر لشكر ربّه عزّ وجلّ حينما أطلعه على هذه الآية العجيبة، وأما العبارة ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ فلم ترد إلا في هذه السورة وفي سورة الأحقاف، وذلك في سياق عرض موقف الشاكرين من البشر. إذاً فقد كان هذا موقف الشكر الأول من سليمان عليه السلام، وهو مقابل لموقف الجحود والكفر بآيات الله الذي

---

(١) ذكر الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي بعض أوجه البلاغة في قول النملة هذه، فهي أحسّت بوجود سليمان عليه السلام، وبادرت بالإخبار فنادت ﴿يا﴾، ونبّهت ﴿أَيُّهَا﴾، وخصّصت النداء ﴿ٱلنَّمْلُ﴾، وأمرت ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾، وخصصت ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾، ونهت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، وأكّدت (نون التوكيد)، ونصحت وبالغت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، وبيّنت بالتخصيص ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾، وبالتعميم ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾، وأعذرت سليمان وجنوده حين نفت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقد ذكر الأستاذ الدكتور صبري الدمرداش أوجهاً متعددة من أوجه الإعجاز العلمي المستنبطة من هذه الآية، ولعل أقرب شيء من كلامه إلى موضوع دراستي هو أن هذه السورة سميت بـ «النمل» بصيغة الجمع لا الإفراد، مع أن السياق القرآني ذكر كلاماً عن نملة واحدة، وذلك لأن النمل مجتمع متكامل لا يمكنه العيش بشكل منفرد، بينما سمّيت سورة «البقرة» بالإفراد لأن البقرة من الممكن أن تعيش منفردة، ولا يشترط أن تكون في مجتمع خاص بجنسها كما في النمل. ينظر كلام أ.د فاضل وكلام أ.د صبري على موقع: youtube الالكتروني.

أقول: وكذلك قول سليمان عليه السلام تبرزُ فيه البلاغةُ القرآنية معاني الشكر لله في كل لفظة، فهو تبسم فرحاً بأن أطلعه الله هذه الآية حتى شرع في الضحك، ثم نادى ﴿ربّ﴾ ونداؤه دليل إيمانه بخالق هذه الآية، ودعا قائلاً: ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي: «اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجَناني وخواطري وخلجاتي وكلماتي وعباراتي وأعمالي وتوجهاتي، اجمعني كلي» على ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ فنسب النعمة لصاحبها، ولم يكتف بذلك بل أكد حينما قال: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾، ولم ينس ذكر والدَيْه اللذَيْن كانا سبب وجوده، وشكر الوالدين من شكر الله، وبين أن نعمة الله شملته ووالديه ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، ثم طلب طلباً يعتبر جانباً عملياً تطبيقياً للشكر والعرفان بالجميل ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ وجعل العمل الصالح مشروطاً برضا الله ﴿تَرْضَىٰهُ﴾، وتواضع لله راجياً رحمته، مع كونه نبياً وملكاً ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فكل كلامه شكر في شكر. والكلام المقتبس بين الإشارتين حول معنى «أوزعني» لسيد قطب رحمه الله، **في ظلال القرآن**، ج٥، ص ٢٦٣٧.

المتمثّل في فرعون في القصة السابقة. فهذا المشهد القصصي يدعو إلى الإيمان بأحد آيات الله الدالة على إعجازه في الخلق، وأن يكون موقف الإنسان منها موقف الإيمان والشكر، كما كان موقف سليمان عليه السلام، لا الجحود والكفر كما كان موقف فرعون وملئه.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف شكر آخر لسليمان عليه السلام إزاء آية أخرى من آيات الله في خلقه، وذلك حينما أنبأه الهدهد بنبأ ملكة سبأ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾، فهذه آية أخرى من آيات الله في خلقه، فقد أنكر هذا الهدهد فعل قوم سبأ المشركين بفطرته المؤمنة التي فطره الله عليها، وأدرك أيضاً أن سبب إغوائهم هو الشيطان، وأدرك أيضاً أن الله يخرج الخَبْءَ في السماوات والأرض، ويعلم ما يخفي الناس وما يعلنون، فانظر ماذا كان موقف سليمان من هذه الآية: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، ولا يخفى أن موقفه هذا دالّ على شكر الله أيضاً، فقد بادر بدعوتهم إلى الإيمان والتوحيد. فهذا موقف شكر ثانٍ لسليمان عليه السلام في هذه السورة إزاء آيات الله في خلقه.

وقد يسأل سائل: لِمَ لَمْ تسمَّ السورة باسم «الهدهد» مع أن قول الهدهد دالّ على التوحيد بالألفاظ الصريحة، بينما قول النملة كان فقط تحذيراً لقومها؟ أعتقد أن النمل آية دالّة على إعجاز الله في خلقه أكثر من آية الهدهد، ويظهر ذلك من عدّة أمور أولها: أن النملة التي حذرت قومها غير معرَّفة بـ (أل) التعريف، فهذا دليل صريح على أن كل فرد في مملكة النمل قد أُلْهم في فطرته الحكمة والهدى من الله للحفاظ على حياته، بينما لا تجد دلالة ذلك في سياق حديث السورة عن الهدهد، لأن قول سليمان عليه السلام: ما لي لا أرى الهدهد؟ أفاد أن هذا الهدهد معروف تحديداً لديه بدليل (أل) التعريف. ولا أقصد أن

الهداهد غير ملهمة الحكمة والهدى من الله في فطرتها، لكن السياق لم يذكر ذلك صراحة كما ذكره في آية النمل.

وثانياً: النمل أضعف وأصغر حجماً من الهدهد، فدلالة إعجاز الله في خلق النمل أغربُ وأعجب، وثالثاً: تجد في موقف سليمان عليه السلام المبادرة إلى الشكر لله في إطلاعه على هذه الآية، بدليل فاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، وهذا أدعى إلى الاقتداء به في الإيمان والشكر، بينما قال بعدما سمع كلام الهدهد: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فموقفه من قول النملة أكثر دلالة على الشكر، ورابعاً: لقد أخبرنا السياق في بداية الحديث عن قصة سليمان أنه قد عُلِّم منطق الطير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، بينما لم يخبرنا عن أنه قد عُلّم منطق النمل أيضاً، فكانت آية النمل لدى القارئ أكثر عجباً، هذا ما ظهر لي، والله أعلم.

أما فيما يتعلق بموقف سليمان عليه السلام من آية الهدهد، فقد برز موقفه الشاكر من خلال المسارعة إلى دعوة سبأ إلى الإيمان، وبرز أيضاً في افتتاح كتابه بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وبرز أيضاً بردّه لهدية ملكة سبأ مع بيانه أن ما آتاهُ اللهُ خير من هديتهم، وانظر قوله حينما أتاه الذي عنده علم من الكتاب بالعرش: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، فسياق القصة يعرض شكر سليمان على آيات الله في خلقه التي أراهُ إياها من أول القصة لآخرها، ويبرز شكره عليه السلام أيضاً في آخر القصة من خلال قول الملكة بعد أن آمنت بآيات الله التي رأتها بأعينها: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾. وهكذا كانت قصة سليمان عليه السلام في هذه السورة تعرض أنموذج الإيمان بآيات الله والشكر له في مقابل أنموذج فرعون وقومه المكذّبين قبلها، وفي مقابل أنموذج قوم ثمود وقوم لوط المكذّبين بعدها. وقد كان أدلّ ما في قصته على موقف الشكر آية النمل التي سمّيت السورة باسمها.

ثم انتقل السياق إلى بيان موقف ثمود، الذين آثروا الغدر والمكر على الإيمان والشكر،

فانظر ماذا كان موقفهم من نبيهم صالح عليه السلام الذي أيّده الله بآية الناقة: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وعرض السياق موقف قوم لوط أيضاً الذين آثروا شهوة الرجال المخالفة لفطرتهم على شهوة النساء التي أباحها الله وجعلها نعمة منسجمة مع فطرة البشر: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾، فانظر ماذا كان موقفهم من هذه النعمة، وماذا كان مصيرهم: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾. فهاتان القصتان تعرضان أنموذجين من الجحود والكفر إزاء آيات الله في خلقه، في مقابل أنموذج الإيمان والشكر في المواقف المتعدّدة في قصة سليمان عليه السلام.

ثالثاً: ثم عقب السياق على القصص المذكورة بذكر بعض الآيات الكونية الدالة على الله، والداعية إلى الإيمان بها وشكر الله عليها: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾، ولاحظ افتتاح هذا التعقيب بأمر الرسول ﷺ بحمد الله تعالى، وثانياً:

تكرار الاستفهام التقريري ﴿أَمَّنْ...﴾ خمس مرات، وثالثاً: تكرار السؤال التقريري ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خمس مرات أيضاً.

فلا شَكّ في أن السياق يدعو إلى الإيمان بهذه الآيات واتخاذ موقف الشكر لله منها، وانظر قوله تعالى المؤكّد لذلك: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. ولاحظ التناسق في المقابلة بين موقف أكثر الناس، وبين موقف سليمان عليه الشاكر لله على أن أطلعه على عدد من آياته في خلقه، كان أكثرها دلالة آية النمل التي سمّيت السورة باسمها.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق من سياق السورة، وقد ابتدأت هذه الخاتمة بذكر آية من آيات الله تدعو إلى اليقين بآياته تعالى، وهي متناسقة مع ما ذكر في قصة سليمان عليه السلام من سماع كلام النملة والهدهد: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾، ولم تَخْلُ الخاتمة كذلك من التذكير ببعض آيات الله في خلقه الداعية إلى الإيمان والشكر: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية، ودعت في سياقها إلى اتخاذ موقف الإيمان والشكر من آيات الله الكونية، ختمت كذلك بنفس الدعوة: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وهكذا الْتَأَمَ شمل مفتتح السورة وختامها على محور الدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية والكونية والشكر عليها، وهو المحور الذي دلّت عليه آية النمل التي سمّيت السورة باسمها أبلغ الدلالة.

سورة النمل

سورة الدعوة إلى أن يكون موقف الإنسان من آيات القرآن والآيات التي تُبرز وحدانية الله في خلقه موقف الإيمان والشكر، لا الجحود والكفر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تدعو إلى الإيمان بآيات القرآن التي فيها أصول الإيمان:

- افتتحت السورة ببيان فضل آيات القرآن الكريم: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.
- ثم ذكرت أصول الإيمان التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.
- وحذّرت من الكفر بهذه الآيات، وما فيها من أصول الإيمان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾.
- وبينت أن الذي أنزل القرآن على سيدنا محمد ﷺ هو مَن أرسل سيدنا موسى عليه السلام بتسع آيات إلى فرعون.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٥٨)

عرضٌ قصصي لنماذج إيمان وشكر ونماذج جحود وكفر إزاء آيات الله:

- عرضت قصة موسى عليه السلام موقف قومه من الآيات التسع المبصرة التي أُرْسل بها موسى عليه السلام إليهم، فكان موقفهم موقف جحود وكفر: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾.
- ثم عرض السياق موقف داود وسليمان عليهما السلام مِنْ نِعَم الله عليهما: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٥﴾، وفي عَرْض موقفهما دعوة إلى الاقتداء بهما فيكون موقف الإنسان موقف الإيمان والشكر.
- وعرض السياق مبادرة سليمان عليه السلام إلى إعلان إيمانه وشكره حين أطْلعه الله على إحدى آياته تعالى في خلقه وهي آية النمل.
- وقد كان موقفه كذلك من آية الهدهد، إذ تمثّل شكر سليمان عليه السلام لله عملياً بأن بادر بإرسال الهدهد بكتابٍ لسبأ يدعوهم فيه للإيمان.
- وكذلك كان موقفه موقف الشاكر حين رأى عرش الملكة مستقراً عنده.
- كان في النهاية موقفُ ملكة سبأ موقفَ الإيمان والشكر بعدما رأت من الآيات التي أيَّد الله بها سليمانَ ما رأت: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.
- ثم عرض السياق موقف ثمود الذين آثروا الغدر والمكر على الإيمان والشكر، فقد عرض السياق مؤامرتهم على قتل نبيهم صالح عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩﴾، وقد كانت عاقبة مكرهم أن دمرهم الله أجمعين.
- وكذلك كان موقف قوم لوط عليه السلام، الذين آثروا شهوة الرجال المخالفة للفطرة على شهوة النساء التي أباحها الله وجعلها منسجمة مع الفطرة، ولكنهم مكروا أيضاً وأرادوا إخراج آل لوط من قريتهم لأنهم أناس يتطهرون، فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٩-٨١)

تعقيب على القصص بذكر بعض الآيات الكونية التي تبرز وحدانية الله في الخلق، وتدعو إلى الإيمان والشكر:

- عرض السياق هذه الآيات عن طريق أسئلة تقرر الإنسان بوجوب الإيمان والشكر لله الخالق العظيم.
- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.
- ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.
- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.
- ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.
- ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨٢-٩٣)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- ذكرت آية تدعو إلى اليقين بآيات الله قبل فوات الأوان: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.
- وأعادت التذكير ببعض الآيات التي تبرز وحدانية الله في خلقه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.
- ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

سورة القصص

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام، وبين والد المرأتين اللتين سقى لهما أغنامهما، إذ قصّ موسى عليه القصص التي حدثت معه حين مكّن الله له العيش والترعرع في بيت فرعون مع أنه أحد الإسرائيليين، وحين قتل من الأقباط نفساً، فنصحه أحد الناس بالخروج من مصر، وحين قابل المرأتين وسقى لهما، وحين جمعه الله بأبيهما، إلى أن طمأن والدُ المرأتين موسى عليه السلام وزوَّجه إحدى ابنتيه. فاسم السورة يدلّ على مدى اللطف الذي أحاط اللهُ به عبده موسى عليه السلام في أحداث هذه القصص، وهو لطف يدلّ على أن الله بيده الملك والتدبير.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقِيَم، فقرّرت أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله الحقّ، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له، فهي تبرز الصراع بين قوة الحقّ وقوة الباطل المتوهّمة، وتبيّن أن العاقبة لأهل الحقّ والخير، لأن قوة الله معهم، والقصص هو أفضل وسيلة لإبراز هذا الصراع، كما وأن السورة بالإضافة إلى

القصص تلفت الأنظار إلى آيات الله في كونه، وفي مصارع الغابرين، وفي مشاهد القيامة، لتؤكّد سُنَّة الله التي لا تتخلّف ولا تتبدّل، وهي أن قوة الله هي الغالبة[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله هو الخالق، وله الحكم والتدبير في الدنيا والآخرة، وأن إرادته وحده هي النافذة، ولما كانت المشاهد القصصية المعروضة من قصة موسى عليه السلام في هذه السورة هي أدلّ ما فيها على المحور المذكور، جُعل منها اسماً للسورة للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن الله وحده بيده الحكم والتدبير في الدنيا والآخرة، وأن إرادته وحده هي النافذة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولاً: مقدّمة تعرض موجزاً لقصة موسى ببيان الظروف التي كانت سائدة في مصر قبل ولادته، ثانياً: عرض قصصي تفصيلي لقصته يبيّن تدبير الله لتحقيق حكمه بجعل المستضعفين أئمة، وإلحاق الهلاك بفرعون وهامان وجنودهما، ثالثاً: تعقيب بدعوة المكذّبين إلى الإيمان من خلال بيان أن مصدر رسالة موسى ومحمد عليهما السلام واحد، هو الله الخالق المدبّر، مع بيان مصير المكذّبين يوم القيامة، وعرض قصة قارون التي تؤكّد ذلك، رابعاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج٢، ص ١١١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٤٦٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٦٧٣- ٢٦٧٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٠، ص ٦٢، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٥٠٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٢٩٧، ود. نوفل، **تفسير سورة القصص**: دراسة **تحليلية موضوعية**، ص ٤٠- ٥١، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٢٥٧ - ٢٥٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ١٩٧- ٢٠٥.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٦، وعرض قصة موسى بالتفصيل: ٧- ٤٣، والتعقيب: ٤٤- ٨٢، والخاتمة: ٨٣- ٨٨، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي كلها تؤكّد أن الله هو الخالق المدّبر، وله الحكم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك: أ) فقد امتازت بعرض مشاهد من قصة موسى عليه السلام لم تذكر في موضع آخر، وتأمل سياقها يدل على المحور المذكور، فقد فصلت في الواقع المرير الذي كانت عليه مصر قبل ولادة موسى: ٤- ٦، وقد فصّلت في كيفية وصول موسى إلى بيت فرعون وتحريم المراضع عليه: ٩- ١٢، وفصّلت في موضوع قتله القبطي: ١٥- ٢١، =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة موجز مشوق لبداية القصة، إذ بيّنت الواقع المرير الذي فرضه فرعون على مصر: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾، ولاحظ التأكيد على أن منزل هذه القصص في القرآن هو الله الذي أرسل موسى عليه السلام، فمصدر رسالتهما واحد، ولاحظ بيان إرادة الله أن يجعل المستضعفين أئمة، ويري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من الهلاك، إن الإفصاح عن نتيجة القصة منذ بدايتها يدل أعظم الدلالة على أن الله هو الخالق المالك المدبّر، فبيده مقاليد الأمور، وإرادته هي النافذة، وهو المحور الذي تدور عليه أحداث هذه القصص كما سيأتي.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض تفصيلي لتحقّق إرادة الله، وهو عرض يثبت أن الله يخلق ما يشاء ويختار، ولا يعجل لعجلة أحد، فابتدأ عرض الأحداث منذ ولادة موسى:

= وهروبه من مَدْيَنَ انتهاء إلى لقاء والد المرأتين: ٢٣- ٢٨، ب) هي الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «نُمكّن» العائد على الله: ٦، ٥٧، ولم يذكر هذا الفعل بهذه الصيغة في موضع آخر إلا في سورة الأنعام: ٦، ج) قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾: لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة: ٦٨، وقريب منه في سورة الأحزاب: ٣٦، د) قوله تعالى ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ هنا فقط: ٧، وقريب منه في سورة سبأ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾: ١، هـ) هي إحدى السور الثلاث اللاتي تكررت فيهن نسبة الحكم لله وحده، انظر في القصص: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: ٧٠، ٨٨ ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وانظر في الأنعام: ٥٧ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ﴾، و ٦٢ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وفي يوسف: ٤٠، ٦٧ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ﴾، و) والوحيدة التي فيها قوله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ٧١، ٧٢ عن النهار بذات الصيغة، ز) قوله ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴾: ٨٣، لم يتكرر، ح) وكذلك ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾: ٨٨، وقريب منه في سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧، ط) وكذلك قوله عن المستضعفين الدال على حكمه تعالى في الدنيا ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: ٥، وكذلك قوله عن المتكبرين الدال على حكمه في الآخرة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾: ٤١، وقوله ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: ٤٢، ي) وبإمكانك أن تضيف أنها الوحيدة التي فصّلت في عرض قصة قارون: ٧٦- ٨٢، ولا تخفى دلالتها على المحور المذكور. وينظر للزيادة حول المفردات التي تفردت بها هذه السورة: د. نوفل، **تفسير سورة القصص**، ص ٨٠- ٩٦. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾، ولاحظ التأكيد على أن الله سيردّه إليها، فالسياق يعطي النتيجة مرة أخرى قبل التفصيل، ثم فصّل في كيفية وصول موسى إلى بيت فرعون، إذ هيّأ الله امرأة فرعون لتطلب أن يكون قرَّة عينٍ لها وله، وهيّأ أخت موسى التي قصّت أثره حتى أقنعت أهل بيت فرعون بأهل بيت يكفلونه لهم بعد أن حرم الله عليه المراضع.

ثم انتقل السياق إلى عرض حدث آخر، وهو قتل موسى رجلاً قبطياً دون عمد: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾، وفصّل السياق أيضاً في كيفية خروجه هارباً إلى مَدْيَنَ، فقد هيّأ الله له رجلاً ينصحه بالخروج بعد أن علم أن الملأ من قوم فرعون يأتمرون به ليقتلوه.

وفي مَدْيَنَ فصّل السياق بأحداث أخرى تؤكّد مدى اللطف والرعاية التي أحاط الله بها عبده موسى، وذلك يؤكّد أنه الخالق المدبّر وبيده الحكم، فقد سقى للمرأتين أغنامهما، وكان هذا سبباً في دعوة أبيهما إياه ليجزيه أجره، وكان هذا سبباً في زواجه من إحداهما، على أن يأجره ثماني حجج: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٢٨﴾.

ثم انتقل السياق إلى مرحلة النبوّة، فلما آنس من جانب الطور ناراً، نودي منها بوحي الله إليه بالذهاب إلى فرعون، وهو ذو الخطر الأكبر عليه، ولكن الله بحكمته سيهيّئ له من أسباب الحفظ واللطف ما يحقّق على يديه إرادته كما ذكر في المقدّمة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٣٧﴾، ثم بيّن السياق أن فرعون استكبر هو وجنوده في الأرض، حتى أخذهم الله فنبذهم في اليمّ، فقد كان اليمّ مرة سبباً لتحقيق إرادة الله بنجاة موسى، وكان مرة أخرى سبباً لتحقيق إرادته في إهلاك فرعون، وهذا كلّه يؤكّد المحور المذكور.

ومن اللافت للنظر أن السياق ركّز في عرض هلاك فرعون وجنوده على المصير الأخروي: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾، فإذا كانت الأحداث التفصيلية في القصص السابقة تؤكّد أن الله له الحكم والتدبير في الدنيا، فهذه الخاتمة تؤكّد أن له الحكم والتدبير في الآخرة.

ثالثاً: وبعد هذا العرض القصصي التفصيلي، انتقل السياق إلى دعوة المكذّبين إلى الإيمان من خلال بيان أن الذي أرسل موسى الذي قُصّت عليهم قصصه، هو الذي أرسل محمداً ﷺ بالحق، وهو الله الخالق المدبّر: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ومن الشبهات التي أثاروها ادّعاؤهم أنهم إذا آمنوا سيُتخطّفون من أرضهم، وكأن الأحداث القصصية السابقة الدالة على أن الله بيده الأمر والحكم لم تكفهم، فردَّ الله عليهم بأنه قد مكّن لهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، رزقاً من لدنه تعالى، وفي ذلك أبلغ دعوة لهم للإيمان بالخالق الرازق، ولكي يكتمل الترهيب مع الترغيب، عرض السياق مصير المكذّبين يوم القيامة، وهو عرض يؤكّد أن الله بيده الحكم والأمر في الدارين: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾. فلن تنفعهم آلهتهم شيئاً يوم القيامة، إذا أصرّوا على الشرك والتكذيب، كما لن ينفع فرعون قومَه شيئاً في ذلك اليوم، إذ أصرّوا على الشرك والتكذيب.

ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فذكّرهم بأنه لا إله سيأتيهم بضياء إن جعل الله عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، كما أنه لا إله سيأتيهم بليل إن جعل الله عليهم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، فالله

وحده إذاً هو المستحقّ للعبادة، فهو الخالق المدبّر الحكيم.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة قارون، وهي قصة متعلقة بالطغيان الاقتصادي في مقابل الطغيان السياسي لقصة فرعون، فكما استكبر فرعون عن الإيمان بالله الخالق المدبّر معتمداً على ملكه وجنوده، كذلك استكبر قارون معتمداً على ماله وكنوزه: ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ولكن جوابه كان أنه أوتي هذا المال بعلمه وذكائه، وغفل عن الخالق الرازق، حتى استحقّ أن يخسف الله به وبداره الأرض. فسياق السورة كما ترى يبرز محوراً واحداً جامعاً لكل موضوعاتها، ألا وهو بيان أن الله وحده هو الخالق المدبّر الحكيم في الدنيا والآخرة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الله هو الخالق المدبّر الحكيم في الدنيا والآخرة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقد أعادت أمر النبيّ ﷺ بالصبر على دعوته، مع بيان أن الله سيردّه إلى بلده التي أُخْرج منها، كما ردّ موسى لأمّه من قبْل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

وكما افتتحت ببيان أن الله بيده الخلق والأمر والحكم من خلال التفصيل في عرض قصص موسى مع فرعون، ختمت بالتأكيد على أنه بيده الخلق والأمر والحكم في الآخرة أيضاً، فلا إله غيره مستحقّ للعبادة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة القصص

سورة بيان أن الله وحده بيده الحكم والتدبير في الدنيا والآخرة، وأن إرادته وحده هي النافذة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تعرض الظروف التي كانت سائدة في مصر قبل ولادة موسى عليه السلام:

- افتتحت السورة ببيان أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.
- ثم بيّنت أن الله الذي بيده الحكم والتدبير قد أراد أن يغيّر هذا الواقع المرير: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٤٣)

عرضٌ قصصي تفصيلي لقصة موسى عليه السلام يبيّن تدبير الله لتحقيق إرادته الحكيمة بجعل المستضعفين أئمة:

- حفظ الله موسى عليه السلام - الذي سيكون سبباً لتحقيق إرادة الله - من فرعون الذي كان يقتل بني إسرائيل.
- فقد أوحى الله لأمّ موسى بأن ترضعه وتلقه في اليَمّ، فوصل إلى بيت فرعون الذي هو صاحب الخطر الأكبر عليه، لكن الله حفظه بأن ألقى في قلب امرأة فرعون حُبّ موسى عليه السلام، فأمرت الجنود بعدم قتله.
- وحرّم الله عليه المراضع حتى جاءت أخته لتدلّهم على أهل بيت يكفلونه لهم، فردّه الله إلى أمّه بعد أن أصبح فؤادها فارغاً.
- قتل موسى عليه السلام رجلاً قبطياً بغير قصد، فهيأ الله له رجلاً ينصحه بالخروج من مصر، لأن ملأ فرعون يأتمرون به ليقتلوه.
- بقيت إرادة الله تحميه وتحفظه حتى بعد وصوله إلى مدين، فجعله الله يسقي للمرأتين أغنامهما عند الماء.
- كانت سقايته للأغنام سبباً لجَعْل أبيهما يرسل إحداهما ليجزيه أجر سقايته.
- ولما رجع موسى عليه السلام مع والد المرأتين وقَصّ عليه القصص قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وزوّجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج أو عشراً.
- ولما سار موسى عليه السلام بأهله بعد قضاء الأجل نودي من جانب الطور، وأوحى الله إليه بالذهاب إلى فرعون، وهو ذو التهديد الأكبر عليه، لكن الله سيحفظ رسوله كما حفظه وهو رضيع.
- فلما جاء موسى عليه السلام فرعون بالبينات قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى، فأخذه الله وجنوده فنبذهم في اليَمّ، وأتبعهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين.
- وبذلك تتحقق إرادة الله بإهلاك المفسدين، وإنجاء بني إسرائيل ليكونوا أئمة في الأرض بعد إهلاك فرعون وجنوده.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٤-٨٢)

تعقيب على تلك القصص يدعو المكذّبين إلى الإيمان ببيان أن الله الخالق الحكم المدبّر هو من أرسل موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام:

- عرض السياق تكذيب قوم النبيّ ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.
- وقد ادّعى المشركون أنهم إذا آمنوا سيُتخطّفون من أرضهم، وقد ردّ السياق عليهم بأن الله مكّن لهم حرماً آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه تعالى.
- فالذي دبّر لموسى عليه السلام أسباب حفظه من الهلاك، هو الذي سيحفظ عباده المؤمنين من الهلاك.
- عرض السياق مصير المكذّبين في الآخرة، ليؤكّد أن الله بيده الحكم والتدبير في الآخرة كما في الدنيا.
- وعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فهو سبحانه خالق الليل والنهار، ولو جعل أحدهما سرمداً إلى يوم القيامة فلا إله سواه يأتي بليل أو ضياء.
- وقد عرض السياق قصة إهلاك قارون الذي تغافل بماله وكنوزه عن الله الخالق المدبِّر الرازق، حتى خسف الله به وبداره الأرض ولم تنفعه نصيحة قومه.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨٣-٨٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير بأن الله هو الخالق المدبّر الحكيم في الدنيا والآخرة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.
- وقد بيّنت للنبيّ ﷺ أن الله تعالى سيردّه إلى بلده التي أخرج منها كما ردّ موسى عليه السلام إلى أمه، وكما حقّق على يديه الفرج لبني إسرائيل.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله بيده الحكم والأمر والتدبير في عرض قصص موسى عليه السلام، ختمت ببيان أنه وحده بيده الحكم والأمر يوم القيامة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

سورة العنكبوت

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى تمثيلها الذين اتخذوا من دون الله أولياء ببيت العنكبوت اتخذت بيتاً، فكما أن بيت العنكبوت لا يقي من الحَرّ أو البرد شيئاً، ولا يصمد أمام أيّ أذى من ريح أو إنسان، فهو أوهن البيوت، فكذلك لا يغني الأولياءُ من دون الله شيئاً من بأسه، لأنهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعاً، فاسم السورة يشير إلى هوان الباطل وأهله عند الله تعالى.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محورها يدور حول الإيمان وتثبيته وقت الابتلاء والشدائد والمحن، فالإنسان معرّض لأنواع كثيرة منها، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان فقط، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف، ولذلك تعرض السورة ما يصوّر ألواناً من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان، ثم تربط بين الحقّ في دعوات الرسل والحقّ الذي خلق السماوات والأرض، وتعقب عليها بالكشف عن القوى المرصودة في وجه الحقّ، مع التهوين من شأنها، لأن مثل العنكبوت يشير إلى ضعف العلاقات في المجتمعات القائمة على غير

الدين، لأن الرابط فيها مصلحيّ غالباً، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والثبات على الحقّ، من خلال بيان قدرة الله على الخلق والبعث وإهلاك أهل الباطل، وبيان هوان الباطل وأهله عند الله مهما علا أهل الباطل وتجبّروا، ولما كان تشبيه اتخاذ أهل الباطل أولياء من دون الله ببيت العنكبوت مشيراً إلى هوان الباطل وأهله مهما علا وكبر، سمّيت السورة بالعنكبوت للدلالة على المحور المذكور.

وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة بيان هوان الباطل وأهله مهما علوا وتجبّروا، عند الله الحقّ المقتدر.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تدعو إلى الصبر على الإيمان بالرغم من فتنة الباطل، ثانياً: بيان محاولة أهل الباطل دائبين على فتنة أهل الإيمان مع عرض قصصي يؤكّد ذلك، ثالثاً: تعقيب يبيّن هوان الباطل وأهله عند الله، مع بيان أن الله هو الحقّ، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ١٢٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ص ٥٣٣- ٥٣٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٢٧١٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٠، ص ٢٠٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٥، ص ٥٨٠، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٣٠٥، ٣٠٦، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٠٦- ٢٠٩.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، وبيان فتنة أهل الباطل: ٨- ٤٠، والتعقيب: ٤١- ٥٥، والخاتمة: ٥٦- ٦٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تحذر من الافتتان بالباطل وأهله: فقد ذكرت فيها مشتقات الجذر «فتن» ثلاث مرات، والتفصيل: قوله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾: ٢، لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾: ٣، لم يتكرر بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الأنعام: ٥٣، وكذلك قوله ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾: ١٠، لم يتكرر، ب) هي أكثر سورة بعد سورة التوبة ذكرت فيها مشتقات الجذر «جهد»: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾: ٦، لم يتكرر، وكذلك ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾: ٦٩، وأما قوله ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾: ٨، فقد ذكر هنا، وفي سورة لقمان: ١٥ ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾، ج) لم يتكرر المصدر «الباطل» في سور القرآن إلا في ثلاث سور، هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: ٥٢، لم يتكرر بذات السياق، و=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الابتلاء من سنن الله تعالى لتمييز أهل الحقّ من أهل الباطل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾، وافتتاح السورة بذكر هذه السُّنة يدعو المؤمنين إلى الثبات في مقابل فتنة أهل الباطل، أكّد هذا بيان المقدّمة أن الله سيجزي المؤمنين الثابتين على الحقّ أحسن الذي كانوا يعملون، وفي ذلك تهوين **لا** يخفى من شأن الباطل وأهله عند الله كما سيأتي في آية العنكبوت.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد السنة المذكورة، فعرض المحاولة الدائبة لأهل الباطل أن يفتنوا أهل الحقّ عن الإيمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾، فلا يجوز الرضوخ لأهل الباطل حتى مع الوالدَيْن، ولاحظ بيان أن الذين يرضخون لإيذاء أهل الباطل ويتركون الإيمان هم منافقون، في حين أن المؤمنين هم الثابتون مهما لاقوا من الفتن.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد إصرار أهل الباطل على باطلهم، حتى استحقّوا العذاب من الله، مع بيان أن الله أنجى الذين آمنوا، فقد عرض مصير قوم نوح عليه

= ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾: ٦٧، ذكر هنا وفي سورة النحل: ٧٢ ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، وانظر سورة البقرة: ٤٢، ١٨٨، والإسراء: ٨١ (مرتين)، د) هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر «الأوثان» في سياق بيان بطلان الشرك: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: ١٧، و: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ٢٥، ولم تذكر الأوثان في سورة أخرى إلا في سورة الحج: ٣٠، فقط، ثانياً: ومنها أمور تثبت أن الله هو الحق لكمال قدرته: أ) فقد تكررت فيها مشتقات «حق» مرتين: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: ٦٨، وقد تكرر ذلك في سور أخرى، و﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾: ٦٨، ولم تتكرر ﴿كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقريب منها: الأنعام: ٥، ٦٦، و﴿ق﴾: ٥، ب) قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾: ١٩، لم يتكرر بذات الصيغة، وكذلك قوله ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾: ٢٠، وكذلك ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: ٢٠، وقريب منه في سورة النجم: ٤٧، ج) قوله ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾: ٤٠، هنا فقط، وقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: ٢١، هنا فقط بهذه الصيغة، وكذلك قوله ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾: ٦٤، وقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ٦٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

السلام بعد أن لم تكفهم ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة، ثم أنجاه الله وأصحاب السفينة، ثم عرض قصة إبراهيم مع قومه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ بيانه أن عبادة الله وحده هي الحق، وأن عبادة الأوثان هي الباطل، وقد بيّن هوان شأن آلهتهم كونها لا تملك الرزق، بينما الرزق عند الله.

ومن اللافت للنظر أن السياق فَصَل قصة إبراهيم بقولٍ من الله يحذّر المشركين من الإصرار على باطلهم وزعمهم أنهم ينتمون دينياً لإبراهيم عليه السلام، وفَصْل القصةِ أمرٌ نادر جدًّا في القرآن، ولكن من منهج القرآن في عرض قصصه أنه يفصل ـ في مواضع معدودة ـ بكلام يؤكّد حقيقة محورية في السورة: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، فهذا الفصل يلفت نظر المشركين ببيان أنهم على الباطل، وأن الله هو الحقّ لكمال قدرته على الخلق والبعث.

ثم عاد السياق لقصة إبراهيم، وعرض أن جواب قومه لم يكن سوى أن قالوا: اقتلوه أو حرّقوه، فأنجاه الله من النار، وفي ذلك بيان بطلان شركهم، وإثبات أن الله هو الحقّ، ثم انتقل السياق إلى قصة لوط مع قومه، إذ أصرّوا على باطلهم في إتيان الرجال وقطع السبيل وإتيانهم في ناديهم المنكر، وطلبوا من لوط عليه السلام أن يأتيهم بعذاب الله، فأنجاه الله وأهلك قومه ومعهم امرأته.

ثم عرض السياق قصة شعيب مع مَدْيَن، الذين أخذتهم الرجفة لـمّا أصرّوا على التكذيب، وكذلك ذكر عاداً وثمود وقارون وفرعون وهامان، وفصّل السياق في عرض نوع العقوبة النازلة على كل واحد منهم. إن هذا العرض يؤكّد بلا شكّ حقيقة أن الله هو الحقّ، وأن اتباع أهل الباطل باطلهم أوردهم مورد الهلاك.

ثالثاً: ثم عقب السياق على تلك القصص بضرب مثل الباطل والحقّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ

ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فأهل الباطل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، سواء كانوا آلهة كالمشركين، أو سلطاناً أو جاهاً يتكبّرون به على الناس، أو أيّ صورة من صور الاعتماد على غير الله، إنما هم كالعنكبوت التي اتخذت بيتاً من الخيوط، لا يقيها من برد أو حَرّ، ولا يحميها من العابثين، وهذا مترابط تماماً مع العرض القصصي السابق، إذ لم تغنِ عنهم آلهتهم ولا سلطانهم ولا جاههم ولا أموالهم شيئاً حينما جاءهم العذاب.

ولاحظ في المقابل بيان أن الله هو الحقّ، هو العزيز الحكيم، العليم بكل شيء، القادر على كل شيء، ومن ذلك قدرته على إهلاك أهل الباطل، من هنا ندرك شيئاً من حكمة اختيار اسم هذه السورة، لأنه أدلّ ما فيها على المحور الذي تدور حوله موضوعاتها.

وقبل الانتقال إلى الخاتمة، أعاد السياق بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، مع أمر النبيّ ﷺ بإنذار الناس بما يوحي إليه ربّه، وفي ذلك تأكيد على أن مرسل النبيّ ﷺ والأنبياء من قبله هو الله الحقّ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾، وردّ السياق على فريات المكذّبين الجاحدين في آيات الله تعالى، من خلال بيان خسران المؤمنين بالباطل والكافرين بالله الحقّ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت تحذير المؤمنين من الافتتان بالباطل وأهله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. فإن خافوا على أنفسهم من سلطان أهل الباطل، فليرتحلوا في أرض الله الواسعة إلى مكان آمن يقيمون في عبادتهم لله الحقّ.

وقد أعادت التأكيد على أن الله هو الإله الحقّ بذكر بعض مظاهر إلهيته في الكون وفي العباد: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وكما افتتحت بدعوة المؤمنين المستضعفين الذين كانوا يُفتنون عن دينهم في مكة إلى المجاهدة في الصبر على الحقّ، ختمت بدعوة أهل الباطل المتكبّرين في مكة إلى الإيمان بالإله الحقّ الذي مكّن لهم حَرَماً آمناً، مع التأكيد على دعوة المؤمنين على الثبات إن أصرّ أهل الباطل على باطلهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾. وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، وأكثرها تهويناً من شأن الباطل وأهله.



سورة العنكبوت

سورة بيان هوان الباطل وأهله - مهما علو وتجبروا - عند الله الحق المقتدر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تدعو إلى الصبر على الإيمان رغم فتنة الباطل:

- افتتحت السورة ببيان أن الابتلاء بالفتن من سنن الله ليتميز أهل الحق من أهل الباطل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾.
- ودعت المقدّمة أهل الحق إلى الثبات مقابل فتنة أهل الباطل، وعرضت مصير المؤمنين الصابرين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.
- إن بيان جزاء المؤمنين الصابرين فيه تهوين لا يخفى من شأن أهل الباطل مهما علوا وتجبروا.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٤٠)

بيان محاولة أهل الباطل دائبين على فتنة أهل الإيمان مع عرض قصصي يؤكّد ذلك:

- عرض السياق تجبّر أهل الباطل ومحاولتهم فتنة أهل الإيمان عن الحق، فحذّر من الرضوخ للفتنة حتى لو كانت من الوالدَيْن: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾.
- واعتبر الذين يرضخون لفتنة أهل الباطل منافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.
- ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾.
- ثم عرض السياق إصرار أهل الباطل على باطلهم، فبيّنت قصة نوح عليه السلام أن قومه لم تكفهم ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون مما يؤكّد هوانَ أهل الباطل عند الله، وقد أنجى الله نوحاً عليه السلام والمؤمنين في السفينة.
- وعرضت قصة إبراهيم عليه السلام إصرار قومه على الباطل حين قال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١٧﴾.
- وقد فصّل السياق القصة بما يؤكّد أن الله هو الحقّ المقتدر: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١٩﴾
- ثم عاد السياق إلى القصة وبيّن بطلان باطلهم حين أنجى الله نبيه من النار.
- وعرض السياق قصة لوط عليه السلام التي تبرز إصرار قومه على باطلهم حين طلبوا منه أن يأتيهم بعذاب الله، فكانت النتيجة أن الله أنجى لوطاً عليه السلام وأهلك قومه.
- وعرض قصة شعيب عليه السلام مع قومه المصرّين على التكذيب حتى أخذتهم الرجفة، وذكر السياق أنواع العقوبات التي لحقت بعادٍ وثمود وفرعون وهامان.
- إن هذه القصص تؤكّد هوان المصرّين على الباطل عند الله الحقّ المقتدر سبحانه وتعالى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤١-٥٥)

تعقيب على القصص يؤكّد هوان الباطل وأهله عند الله:

- عقب السياق بضرب مثل الباطل وأهله عند الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾، فأهل الباطل مهما علوا وتجبروا، فهم عند الله كبيت العنكبوت لا يقي من حرّ ولا برد.
- في المقابل بيّن السياق أن الله هو الحقّ المقتدر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.
- وقد أعاد السياق ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى ببيان أنه خالق السماوات والأرض بالحق.
- وأكّد حقيقة هوان أهل الباطل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٥٦-٦٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من الافتتان بالباطل وأهله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾.
- وأعادت التأكيد على أن الله هو الإله الحق المقتدر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بدعوة المؤمنين المستضعفين إلى المجاهدة في الصبر على الحقّ، ختمت السورة بالأمر ذاته: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

سورة الروم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها في مقدّمتها عن حادثة هزيمة الروم أمام الفرس قبل هجرة المسلمين إلى المدينة، وهي حادثة أفرحت المشركين في قريش؛ لأن الفرس مشركون والروم أهل كتاب، فتفاءل مشركو قريش أنهم سيَغلِبون المسلمين كما غلبت الفرسُ الروم، ولكن الله أخبر أن الروم سيعودون للغلبة على الفرس في بضع سنين، وحينها سيفرح المؤمنون بنصر الله الذي ينصر من يشاء، وقد تحقّق وعده سبحانه، فاسم السورة يدلّ على صدق وعد الله؛ لأن بيده مقاليد الأمور.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها، وبين سنن الكون ونواميس الوجود، فكل ذلك مرتبط برباط وثيق خلاصته قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ فهو القادر على كل شيء، والقادر على نصر أوليائه، وخذلان أعدائه، فالسورة تتحدّث عن العوامل التي تحقّق الانتصار للمسلمين على كل الأمم وعلى رأسها الروم، كاليقين بقدرة الله تعالى وبالآخرة، وبجعل الدين منهاج الحياة، والصبر والصدقة، وقد تحدّثت أيضاً عن الأمراض المجتمعية التي تُبعد هذا النصر، كاتّباع الهوى، وشيوع الربا، والاعتداد بالرأي الخاص،

فالسورة تنطلق من وعد الله بنصر الروم إلى وعده بنصر أمة الإسلام[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله وحده بيده مقاليد الأمور ووعده لا يُخلف، ولما كان صدق وعده في نصر الروم بعد حادثة هزيمتهم دالًا على المحور المذكور، اشتُقَّ من هذه الحادثة اسم للسورة للدلالة على المحور المذكور، وعلى صدق وعده بالتكفّل بأمور الخلق ووعده ببعثهم يوم القيامة، فكأنما هو تدرّج من الوعد الأصغر إلى الوعد الأكبر. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان صدق وعد الله؛ لأنه وحده بيده مقاليد الأمور، فوَعْده لا يُخْلف.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات: أولها: مقدّمة فيها بيان أن وعد الله لا يُخلف؛ لأن بيده مقاليد الأمور، وثانيها: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض مظاهر عظمته تعالى في الدنيا والآخرة تثبت أن بيده مقاليد الأمور، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ١٣٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٥، ٥٨٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٢٧٥٤- ٢٧٥٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢١، ص ٤٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٣١١، ٣١٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢١١- ٢١٦.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ٧، وبيان مظاهر عظمته تعالى في الدنيا والآخرة: ٨- ٥٣، والخاتمة: ٥٤- ٦٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي السورة الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ على هذا النحو: ٤، ثانياً: هي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكرر فيهما المصدر «نصر» بدون إضافة إلى ضمير، انظر في سورة الروم الآية ٥: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾، والآية: ٤٧: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي جملة لم تتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وانظر في سورة البقرة الآية ٢١٤: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، ولكن لاحظ أن المصدر «نصر» الأول فيها جاء على لسان البشر، ثالثاً: هي إحدى السور الأربع اللواتي تكررت فيها عبارة «وعد الله»: انظر في سورة الروم الآية ٦: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، والآية ٦٠: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ولاحظ أنهما متعلقتان بالدنيا لا بالآخرة، وانظر في سورة يونس: ٤، ٥٥، وهما عن الآخرة، وفي سورة لقمان: ٩، ٣٣، وهما عن الآخرة أيضاً، وفي سورة غافر: ٥٥، ٧٧، وهما =

أولاً: جاء في المقدّمة ذكر حادثة هزيمة الروم أمام الفرس، مع وعد من الله تعالى بأنهم سيعودون إلى النصر على الفرس في بضع سنين: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، ولاحظ أن إخبار الله تعالى بالنصر للروم دليل على أنه بيده مقاليد الأمور، وقد أثبت التاريخ صدق وعده سبحانه، ولاحظ التأكيدَ بقوله ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، وقلّةَ علم الناس، فهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ويغفلون عن الآخرة لأنها غيب، بينما الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة، وإخباره بنصر الروم دليل على ذلك، وذكر الآخرة دليل على وعده الأكبر ببعث الناس فيها لحسابهم، وهو وعد أعظم بكثير من الوعد بنصر الروم.

= متعلقتان بالدنيا، رابعاً: هي وسورة يونس الوحيدتان اللتان تكرر فيهما وصف الله بأنه: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، انظر الآية: ١١ في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والآية ٢٧: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وانظر الآية ٤ في سورة يونس: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والآية ٣٤ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ولكن لاحظ أن المرة الأولى كانت سؤالاً موجهاً للبشر وليست إخباراً من الله، خامساً: هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها عبارة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: ١٢، ١٤، ٥٥، وهي تدل على صدق وعده بالآخرة، وقد ذكرت هذه العبارة مرة واحدة في سورة غافر: ٤٦، وفي سورة الجاثية: ٢٧، ثم انظر قوله تعالى الموجود فقط في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾: ٢٥، الدال على وعده بالتكفل في شؤون الخلق، سادساً: هي الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ٢٧، وانظر قريباً منها في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ٦٠، سابعاً: هي أكثر سورة في القرآن تكررت فيها عبارة «ومن آياته» وذلك ستّ مرات متتالية وواحدة منفردة: ٢٠ -٢٥، ٤٦، ثامناً: هي الوحيدة التي ذكر فيها التسبيح متبوعاً مباشرة بالتحميد: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: ١٧، ١٨، وحصل ذلك قريباً منها في سورة القصص إذ ذكر التسبيح في الآية: ٦٨، والتحميد في الآية: ٧٠، وأيضاً في سورة الصافات: ١٨٠، ١٨٢، تاسعاً: هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها عبارة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، انظر الآيات: ٣٠، ٤٣، ولم تذكر هذه العبارة مرة أخرى إلا في سورة يونس: ١٠٥، عاشراً: انظر قوله تعالى في سورة الروم: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾: ٤٠، وانظر قريباً منه في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: ٣٤، وقوله ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: ٣٥، ولم يذكر السؤال عن الشركاء بمثل هذه الصيغة في موضع آخر في القرآن. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

فالمقدّمة إذاً تثبت أن الله تعالى بيده مقاليد الأمور، ووعده بنصر الروم دليل على ذلك، وتحقّق وعده يدل على صدق وعده بالآخرة أيضاً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التأكيد على أنه سبحانه بيده مقاليد الأمور، من خلال ذكر بعض مظاهر عظمته تعالى في الدنيا والآخرة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾، ولاحظ التركيز على ذكر القيامة، وذلك لأنها هي الوعد الأكبر من الله، ووعده لن يخلف، لكن الناس يكفرون بهذا الوعد لأنه غيب، ويغفلون عما في هذا الكون من دلائل صدق وعده سبحانه.

فانظر مثلاً قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾، ولاحظ بيان أن القادر على الخلق قادر على البعث، ولاحظ إبطال الشرك من خلال بيان عدم نفع الشركاء يوم القيامة، فالسياق كما ترى يدعو إلى التوحيد من خلال بيان أن الله بيده مقاليد الأمور، ووعده لا يُخلف، ولذلك هو المستحقّ للتسبيح والتحميد في الصباح والمساء، وفي العشي وفي الظهر، وفي كل زمان، وفي السماوات وفي الأرض، وفي كل مكان.

ثم فصّل السياق في تعداد عدد من مظاهر عظمته تعالى متعلقة بالإنسان وبالكون: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾، وفي عرض هذه الآيات تأكيد على قوله سابقاً: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (بعض الآية: ٨)، وما من شكّ أن خالق الإنسان والأكوان هو الذي بيده مقاليد الأمور، وقد ذكر السياق من آياته سبحانه أيضاً الليل والنهار، والبرق والغيث، وانظر هذه الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ

تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وقارن بينها وبين وعده تعالى بنصر الروم، وستجد أنها تحوي وعداً أعظم وأكبر بكثير من الوعد بنصرهم.

وفي ثنايا عرض مظاهر عظمة الله تعالى، كان السياق يدعو إلى توحيد الله بعد أن يعرض من الآيات ما يثبت أن بيده سبحانه مقاليد الأمور: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾، وذكر أيضاً عدة توجيهات متعلقة بالرزق الذي هو بيد الله وحده: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وما من شكّ أن الرزق وعد من الله لا يُخلف، وهو أعظم بكثير من الوعد بنصر الروم، ولاحظ أن السياق يدعو إلى الزكاة والصدقة بدلاً من الربا، ليربّي نفوس المؤمنين على تحرّي المال الحلال بدلاً من المال الحرام؛ لأن الله وحده بيده الرزق.

فسياق السورة كما ترى يدل على صدق وعد الله تعالى بيوم القيامة، وصدق وعده برزق الخلق، وهما يدلّان على أنه بيده مقاليد الخلق والأمر، وقد دل على ذلك أيضاً وعده الغيبي بنصر الروم.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بوعده الغيبي الأكبر بيوم القيامة: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بالإخبار عن وعد الله الغيبي بنصر الروم ليدل على أنه تعالى بيده مقاليد الأمور، ختمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال وعده الغيبي بنصر أهل الإيمان: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الروم

سورة بيان صدق وعد الله لأنه وحده بيده مقاليد الأمور فوعده لا يُخْلف

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تبيّن أن وعد الله لا يخلف، لأن بيده مقاليد الأمور:

■ افتتحت السورة بذكر حادثة هزيمة الروم أمام الفرس، وبذكر وعد الله أنه سينصرهم على الفرس في بضع سنين: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

■ وقد بيّنت صدق تحقّق وعد الله لأنه بيده مقاليد الحكم: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

■ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾.

■ وعرضت في المقابل قصور علم البشر وجهلهم الذي قادهم إلى تكذيب وعد الله بمحاسبتهم في الآخرة: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٥٣)

بيان بعض مظاهر عظمة الله تعالى في الدنيا والآخرة تثبت أنه بيده مقاليد الأمور:

■ ذكر السياق أن الله بيده مقاليد الأمور في الدنيا والآخرة: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾.

■ وبيّن إعراض الناس عن وعد الله بالحساب في اليوم الآخر: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾.

■ ومن مظاهر كونه تعالى مالك مقاليد الأمور أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، وأنه الذي خلق الناس من تراب ثم إذا هم بشر ينتشرون، وجعل من أنفسهم أزواجاً وأنه خالق السماوات والأرض، وأنه جعل في الناس اختلافاً بالألسنة والألوان، ومن آياته تعالى الليل والنهار والبرق والغيث.

■ ومما يؤكّد أنه بيده مقاليد الأمور أنه وعد بتحقّق اليوم الآخر: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ۝٢٥﴾.

■ ومما يؤكّد أنه بيده مقاليد الأمور بيان أنه هو الذي فطر الناس، وأنه وعد بالتكفّل في رزقهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

■ إن بيان صدق وعد الله بالتكفّل بالخلق وشؤون حياتهم وبيان صدق وعده بمحاسبتهم في الآخرة لَهُوَ وعد أكبر بكثير من وعده بنصر الروم على الفرس، فكأنما هو تدرّج من الوعد الأصغر إلى الوعد الأكبر.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٤-٦٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بصدق الوعي الغيبي الأكبر ببعث الناس ليوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة بالإخبار عن صدق وعد الله بنصر الروم على الفرس لأنه تعالى بيده مقاليد الأمور، ختمت ببيان صدق وعده بنصر أهل الإيمان: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

سورة لقمان

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «لقمان» لذكر قصته فيها، والتي ذُكرت فيها وصاياه الحكيمة لابنه، إذ يأمر ابنه بعدم الإشراك بالله تعالى، ويبّن له فيها كمال علم الله في السماوات والأرض، وأمره بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر وعدم التكبّر، فاسم السورة يشير إلى ضرورة الاقتداء به وتنفيذ وصاياه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن قصته تضمّنت فضيلة الحكمة، وذمّ الشرك، والأمر بالأخلاق الحميدة، والنهي عن الأخلاق الذميمة، فدلالة هذه القصة على حكمة القرآن وحكمة مُنزِله سبحانه ظاهرة، فالسورة بمجملها تهدف إلى تعريف المسلم بما يوصله للحكمة كالتوحيد والاستقامة والتفكّر في الخلق، وتعرّفه أيضاً بموانع الاستقامة كاتّباع الشيطان والاغترار بالدنيا والاعوجاج الأخلاقي. فمقصود هذه السورة مخاطبة الفطرة البشرية وإيقاظها من الغفلة، من خلال التفكّر في الكون الكبير بسمائه وأرضه وليله ونهاره. . ، وما فيه من آيات دالة على الله، وقد كانت شخصية لقمان أحد أساليب السورة لإيقاظ الفطرة[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ١٤٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٢٧٨٠- ٢٧٨٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٢١، ومحمد قطب، **دراسات قرآنية**، ص ١٩٦، ود. علي حسن العريض، **فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان**، ص ٦١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢١٧ - ٢٢٣.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى اتخاذ القرار الحكيم بالإيمان والشكر لله عزّ وجلّ، من خلال بيان بعض آثار حكمته تعالى في كونه، وأن مَن كفر حرم نفسه من الحكمة، وإنما اختير اسم «لقمان» لهذه السورة؛ لأن الدلالات السياقية لقصته في هذه السورة أدلّ ما فيها على هذا المحور. فاسم السورة يشير إلى المحور.

وقد تميّزت بأنها **سورة الدعوة إلى اتخاذ القرار الحكيم بالإيمان، وأن من كفر حرم نفسه من الحكمة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط الوثيق بينها وبين دلالات قصة لقمان، فالحكمة بارزة في سياق السورة من أوّلها إلى آخرها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى مقدّمة تبيّن موقف المؤمنين والمستكبرين من بعض مظاهر حكمة الله في كونه، ثم قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه بوصايا حكيمة أهمّها التوحيد والشكر لله تعالى، ثم تعقيب على القصة ببيان موقف الناس من آثار حكمة الله في الكون، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١١، وقصة لقمان: ١٢- ١٩، والتعقيب عليها: ٢٠- ٣٢، الخاتمة: ٣٣ و٣٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تدعو إلى الإيمان والشكر من خلال بيان مظاهر حكمة الله: أ) فقد تكرر فيها مشتقات الجذر «شكر» خمس مرات: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾: ١٢، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾: ١٤، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: ٣١، علماً بأن فعل الأمر «اشكر» ذكر هنا فقط، وأن سورة لقمان هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الفعل «يشكر» ولم يذكر في موضع آخر إلا في سورة النمل: ٤٠، ب) قوله ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: ١١، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة فاطر: ٤٠، والأحقاف: ٤، ج) قوله ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: ١٦، ذكر هنا وقريب منه في سورة الأنبياء: ٤٧، علماً بأن رقم سورة لقمان: ٣١، د) قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: ٢٧، ذكر هنا وفي سورة الكهف بصيغة قريبة: ١٠٩، هـ) قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾: ٣٤، ذكر هنا وفي سورة الأنعام بصيغة قريبة: ٥٩، ثانياً: ومنها أمور تحذّر من حرمان النفس من اتخاذ قرار الإيمان: أ) فقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ٦، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ب) وكذلك قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: ٢٠، وفي سورة الحج: ٨ فقط، ج) وصف الشرك بالظلم العظيم ذكر هنا فقط: ١٣، د) كذلك قوله ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ=

أولاً: جاء في المقدّمة وصف القرآن بأنه الكتاب الحكيم، وبيّنت موقف الناس من هذا القرآن، فمنهم من اتخذ قراره الحكيم فآمن: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾. ومنهم من حرم نفسه من هذا القرار الحكيم فاستكبر، واستغنى عن القرآن الحكيم بلَهْوِ الحديث: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾. وقبل الانتقال إلى ذكر بعض آثار حكمة الله في كونه، قرر السياق مفازة المؤمنين من لَدُن الله العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

ثم انتقل السياق إلى عرض بعض آثار حكمة الله في كونه، مع دعوة إلى الإيمان ببيان أن من أعرض فهو ظالم لنفسه؛ لأنه حرمها من اتخاذ قرار الإيمان الحكيم: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فأنت ترى أن المقدّمة تدعو إلى وجوب الإيمان من خلال بيان بعض آثار حكمة الله في خلق الكون، وتحذّر من الاستكبار عن الإيمان، وهذا متّسق مع قصة لقمان التالية.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه، فانظر ماذا كانت أول هذه الوصايا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾، لقد أمره بالشكر والتوحيد لله عزّ وجلّ، وهذا لبُّ الحكمة وأساسها، وهي وصية متناسقة مع آثار حكمة الله في المقدّمة، وقد حذّره من أن يحرم نفسه من الحكمة ويظلمها حينما بيّن له أن الشرك لظلم عظيم، وعلى عادة القرآن ربط لقمان عبادة الله مع طاعة الوالدَيْن، ولم تَخْلُ الوصية من اتخاذ الحكمة في معاملتهما حتى لو كانا مشركَيْن:

= خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾: ٣٢، هـ) وقد وُصف عذاب مَن حرم نفسه من اتخاذ قرار الإيمان الحكيم بأربعة أوصاف: «مهين»: ٦، «أليم»: ٧، «السعير»: ٢١، «غليظ»: ٢٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ثم بيّن لقمان لابنه علم الله التامّ بتفاصيل ودقائق هذا الكون، والعلم والحكمة متصلان: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾، وبعد أن عرّف لقمان ابنه بالجانب النظري لقرار الإيمان الحكيم، أمره بالجانب العملي التطبيقي له: ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾، فعبادة الله، ومكارم الأخلاق التي أمره بها، والنهي عن سَيّئها من تمام الحكمة. ولاحظ أنه حذّره من التكبّر، وهذا متناسق مع ما ذكرته المقدّمة من موقف المستكبرين. فقصة لقمان بدلالاتها المتّسقة مع محور السورة هي الأجدر بالتسمية؛ لأنها تحوي أنموذجاً واقعياً على اتخاذ قرار الإيمان الحكيم، والتحذير من حرمان النفس منه[1].

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب على قصة لقمان يعيد فيها ذكر بعض آثار حكمة الله تعالى في الخلق، مع بيان موقف الناس من ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾، فهؤلاء فريق ولّوا الشيطانَ زمامَ عقولهم، فجادلوا في الإيمان بالله بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، وحرموا أنفسهم من اتخاذ قرار الإيمان الحكيم. وانظر الفريق الثاني الذين كان موقفهم غايةً في الحكمة: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) يقول الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنّا: «ولم تسمَّ السورة بالحكمة، ولكن سميت بـ «لقمان» وهو رمز الحكمة، وذلك للدلالة على أهمية الحكمة المتمثلة بالإنسان أكثر من الحكمة المجردة الموجودة في بطون الكتب». من **دلالات أسماء السور**، ص ٢١٧. وهو كلام لطيف.

وانظر قوله تعالى المعبّر عن بعض حكمة الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

وقبل الختام أعاد السياق ذكر موقف آخر للناس من مظاهر حكمة الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾، فقد نجّى الله هؤلاء إلى البرّ لحكمة بالغة، وهي إظهار موقف الناس من تلك النعمة، فمنهم من التزم الحكمة وكان مقتصداً ثابتاً على إيمانه في البرّ كما كان في البحر، ومنهم غدّار كفور حرم نفسه من الحكمة وعاد إلى كفره وشركه بعد أن كان مخلِصاً لله وحده في دعائه في البحر.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تدعو إلى رأس الحكمة: تقوى الله، والاستعداد ليوم الحساب، والتحذير من الاغترار بالدنيا ومن الشيطان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾، وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر علم الله وحكمته، ختمت كذلك بذكر بعض مظاهر علم الله وحكمته، والعلم والحكمة متصلان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾، وأعتقد أن قوله تعالى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ داعٍ إلى اتخاذ قرار الإيمان الحكيم قبل فوات الأوان، أكّد ذلك تكرار عبارة ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ فالإنسان لا يدري ما سيحصل معه في غده، ولا يدري بأيّ أرض سيموت، وهذا داعٍ إلى اتخاذ قرار الإيمان الحكيم قبل فوات الأوان، وهكذا التقى بدء السورة مع ختمها حول بيان أن الحكيم من آمن وشكر، والمحروم من أشرك وكفر، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أحكم الدلالة.



سورة لقمان

سورة الدعوة إلى اتخاذ القرار الحكيم بالإيمان، وأن مَنْ كفر حرم نفسه من الحكمة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١١)

المقدّمة التي تبيّن موقف المؤمنين والمستكبرين من بعض مظاهر حكمة الله في كَوْنه:

- افتتحت السورة ببيان أن القرآن الحكيم من لَدُن الحكيم سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.
- ثم عرضت موقف المؤمنين الذين اتخذوا قرار الإيمان الحكيم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.
- ثم عرضت موقف المستكبرين الذين حرموا أنفسهم من الحكمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾.
- وعرضت المقدّمة بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خَلْقِ كَونه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٢-١٩)

قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه بوصايا حكيمة أهمّها الإيمان والتوحيد والشكر لله:

- ثم عرض السياق قصة لقمان مع ابنه يدعوه فيها إلى الإيمان والتوحيد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾.
- ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.
- ومن وصاياه الحكيمة أنه دعا ابنه إلى الإحسان للوالدَيْن، وقد بيّن له تمام علم الله وكمال رحمته، فهو عليم بكل الخفايا في السماوات والأرض.
- وأمر ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونهاه عن التكبّر: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٠-٣٢)

بيان موقف الناس من آثار حكمة الله في الكون:

- عرض السياق بعض آثار حكمة الله في خلق الكون: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.
- ثم عرض موقف المستكبرين المحرومين من الحكمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾.
- ثم عرض موقف المؤمنين الذين اتخذوا قرار الإيمان الحكيم: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.
- ومن أبرز الآيات الداعية إلى الإيمان والمبينة كمال علم الله تعالى وتمام علمه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.
- وقد عرض السياق موقف الإنسان حين يتعرّض للشدائد مثل الغرق، فمنهم مَن يلتزم بقرار الإيمان الحكيم إذا أنجاه الله إلى البرّ فيبقى مؤمناً، ومنهم من يغدر عهده فيعود للكفر ويحرم نفسه من الحكمة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٣-٣٤)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- دعت الخاتمة إلى التزام رأس الحكمة، وهو تقوى الله والاستعداد لليوم الآخر.
- وحذّرت من أنْ يغترّ الإنسان بالحياة الدنيا وبوساوس الشيطان فيحرم نفسه من الإيمان.
- وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر علم الله وحكمته، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

سورة السجدة

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيانها موقف المؤمنين بآيات الله، فهم إذا ذُكّروا بها خرّوا سجّداً، وسبّحوا بحمد ربّهم، وهم لا يستكبرون عن الإيمان، وهم أيضاً تتجافى جنوبهم عن المضاجع داعين ربّهم خوفاً من عقابه، وطمعاً في رحمته، فاسم السورة يشير إلى أن سجودهم علامة إيمانهم بربّهم وخوفهم من يوم القيامة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تخاطب القلب البشري لتقرير عقيدة الدينونة لله الأحد الصمد، خالق الكون والناس ومدبّر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، والتصديق برسالة النبيّ ﷺ والاعتقاد بالبعث والجزاء، فهي تقدّم براهين على هذه العقيدة من مشاهد الكون، ومن نشأة الإنسان، ومشاهد يوم القيامة، وبيان جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فاسم السورة الذي هو دليل الإيمان بعظمة الله والخضوع له، والطمع في ثوابه وحسن جزائه، يدلّ على تكريم المؤمنين بتلك العقيدة التي تقرّرها السورة[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ١٤٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٤٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٨٠٢، ٢٨٠٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢١، ص ٢٠٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٤٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٣١٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٢٤- ٢٢٩.

التوحيد من خلال بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله، وأهمّها البعث والحساب والجزاء، ولما كان سجود المؤمنين بآيات ربهم لله دليلاً على إيمانهم به وخوفهم من عذابه يوم القيامة وطمعهم في رحمته، سمّيت السورة بالسجدة للدلالة على المحور المذكور وللترغيب فيه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان عظمة خالق الكون ومدبّر أمر السماوات والأرض وما فيهما ومَن فيهما، الذي يسجد لعظمته المؤمنون خوفاً وطمعاً**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة موضوعات: مقدّمة تؤكّد على أن الله الخالق المدبّر العليم هو الذي أنزل الكتاب على نبيّه ﷺ، ثم عرض لموقف الكافرين بكمال قدرة الله تعالى، وموقف المؤمنين بذلك، وبيان مصير الفريقين يوم القيامة، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الله هو الخالق العليم المدبّر لشؤون السماوات

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٩، وعرض موقف الكافرين والمؤمنين: ١٠- ٢٥، والخاتمة: ٢٦- ٣٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وكلها أمور تؤكّد كمال قدرته على الخلق والبعث والحساب بعد الإنذار: أ) فقوله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ٢، لم يذكر بهذه الصيغة إلا هنا، وقريب منه في سورة الشعراء: ١٩٢، والواقعة: ٨٠، والحاقة: ٤٣، ب) هي إحدى السور الخمس اللواتي اشتركن في بيان أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام بعبارات متقاربة: السجدة: ٤، والأعراف: ٥٤، ويونس: ٣، والفرقان: ٥٩، وفصلت: ٩- ١٢، ج) قوله ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: ٥، هنا فقط بهذا التفصيل، د) وقوله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: ٧، هنا فقط، وكذلك ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: ١١، وكذلك وصف يوم القيامة بـ «يوم الفتح» المشير إلى زوال الحواجز فيه عن رؤية الحقائق التي تستوجب السجود لله: ٢٨، ٢٩و وقد أشار لهذه النقطة الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا ص: ٢٢٧، هـ) قوله تعالى عن المؤمنين ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: ١٩، هنا فقط بالجمع، وانظر بالإفراد في سورة النجم: ١٥، والنازعات: ٤١، و) وقد ذكر فيها «العذاب» مضافاً أربع مرات: ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: ١٤، ولم يذكر في موضع آخر إلا في سورة يونس: ٥٢، و﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: ٢٠، وقد ذكر في مواضع أخرى متعدّدة، و﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: ٢١، لم يذكر إلا هنا، و﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: ٢١، ولم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الزمر: ٢٦، والقلم: ٣٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

والأرض، وهو الذي أنزل الكتاب على نبيّه ﷺ ليدعو إلى الإيمان: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾، فبعد هذا التعريف بالخالق، ينبغي على الإنسان الإيمان به واتباع الحقّ الذي أُنزل على رسوله ﷺ، والسجود لعظمته تعالى خوفاً وطمعاً.

وقد فصّلت المقدّمة أيضاً في بيان مظاهر أخرى لعظمة الله تعالى، فهو عالم الغيب والشهادة، وقد أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، وكما هو قادر على خلقه أول مرة، فهر قادر على بعثه بعد أن يتوفاه مَلَك الموت الموكّل به.

ثانياً: وبعد هذا التعريف بالخالق القادر، انتقل السياق إلى عرض موقف الكافرين بقدرة الله تعالى، والتي أبرزها القدرة على البعث: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾، فهؤلاء الكافرون لعدم إيمانهم بكمال قدرة الخالق العظيم، يمتنعون عن الإيمان به والسجود لعظمته، وقد عرض السياق مصيرهم يوم القيامة ليؤكّد كمال قدرته تعالى على البعث والجزاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾.

ولكي يجتمع الترغيب مع الترهيب، عرض السياق موقف المؤمنين بالله تعالى وبآياته، وبيّن مصيرهم يوم القيامة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾. فسجودهم لخالقهم دليل إيمانهم بكمال قدرته، ولذلك هم يدعونه خوفاً من عقابه، وطمعاً في رحمته يوم القيامة، ولا يستكبرون عن السجود والإيمان له تعالى كما يستكبر المكذّبون، ولعل هذا يطلعنا على شيء من حكمة اختيار اسم السورة، وقد سمّيت بالسجدة بدلاً من السجود،

وكأنها تدل على أن سجدة واحدة بقلب مخلص الإيمان بالخالق كافية لأن تكون علامة على الإيمان بكمال قدرة الخالق العظيم، والله أعلم.

وكما عرض السياق موقف المؤمنين من أمة سيّدنا محمد ﷺ وجزاءهم، عرضت موقف المؤمنين من أمة موسى عليه السلام وبيّنت جزاءهم أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾، فيقينهم بآيات الله أهّلهم لأن يكونوا أئمة يهدون بأمر الله لما صبروا، وذلك علامة إيمانهم، وبذلك يتأكّد أن الخالق القادر هو مرسل الرسل جميعاً.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بعرض مظاهر دالّة على كمال قدرة الله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان أن منزل القرآن على النبيّ ﷺ هو الله الخالق القادر، وأكّدت ذلك بعرض مظاهر قدرته على الخلق والبعث، ختمت ببيان قدرة الله على البعث بعرض حسرة الكافرين في ذلك اليوم بسبب عدم إيمانهم، مع أمر النبيّ ﷺ بالصبر على الدعوة لأنه على الحقّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون السجدة علامة إيمان العبد بكمال قدرة خالقه، والخوف من عقابه والطمع في رحمته.



سورة السجدة

سورة بيان عظمة الله خالق الكون ومدبِّر أمر السماوات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما، الذي يسجد لعظمته المؤمنون خوفاً وطمعاً

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدّمة التي تؤكّد أن الله الخالق المدبّر لشؤون السماوات والأرض، هو الذي أنزل الكتاب على نبيه ﷺ ليدعو إلى الإيمان:

- افتتحت السورة ببيان أن الله الذي أنزل هذا القرآن، هو خالق الأكوان سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾.
- ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.
- وبيّنت المقدّمة من مظاهر عظمته تعالى أنه عالم الغيب والشهادة، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٥)

عرض موقف الكافرين بكمال قدرة الله تعالى وموقف المؤمنين بذلك، وبيان مصير الفريقين يوم القيامة:

- بعد بيان عظمة الله الخالق، انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين بكمال قدرة خالقهم سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾.
- وبيّن مصيرهم يوم القيامة: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾.
- ثم بيّنت موقف المؤمنين بكمال قدرة خالقهم ليجتمع الترغيب والترهيب: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾.
- وبيّن مصيرهم يوم القيامة: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧﴾.
- وعرض موقف المؤمنين من أمة سيدنا موسى عليه السلام كما عرض موقف المؤمنين من أمة سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٦-٣٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير ببعض مظاهر عظمة الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله مُنْزل القرآن هو خالق الأكوان، ختمت ببيان حسرة الكافرين على عدم إيمانهم بدعوة النبيّ ﷺ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

سورة الأحزاب

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

الدلالة اللغوية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الحاء والزاي والباء أصل واحد وهو تجمّع الشيء، فمن ذلك الحزب: الجماعة من الناس»[1]، وقد أكّد كلامه الإمام الأصفهاني رحمه الله حينما قال: «الحزب: جماعة في غِلَظ ـ كثرة ـ، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ (بعض الآية ٢٢): عبارة عن المجتمعين لمحاربة النبيّ ﷺ»[2]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله «حزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه . . . وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب»[3]، فوصف جيش العدوّ بالأحزاب يدلّ على كثرة عدده واتحاد هدفه، أما الدلالات السياقية لاسم السورة فلا يخفى أنها تدلّ على تجمّع جنود قريش وغطفان من جهة، ويهود بني قريظة من جهة أخرى، على المدينة المنورة لاستئصال شأفة المسلمين، وقد كانت هذه الغزوة أشدّ غزوة وأخطرها على المؤمنين.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين محور هذه السورة وموضوعاتها

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٢٦١.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٢٦١.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ١٠٢. بتصرف.

ودلالات اسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة الحَثّ على الصدق والإخلاص في التوجّه إلى الخالق عزّ وجلّ، دون التفات للخلائق، ومن مقاصدها كذلك ربط ما ذكر فيها من أحداث بالأصل الكبير ألا وهو العقيدة في الله والاستسلام لقدره، وفي السورة إعادة لتنظيم المجتمع المسلم حسب المنهج الإلهي، وفيها ترسيخ لمكانة النبيّ ﷺ كمصدر تشريع وكأسوة للمؤمنين، وفيها تنبيه على خطر المنافقين والمتخاذلين، وأدل ما في السورة على هذه الموضوعات الرئيسية غزوة الأحزاب مع التعقيب الإلهي عليها، ولذلك سمّيت السورة باسم هذه الغزوة[(١)].

ولكني لاحظت أن موضوع التوجيهات الخاصة بالنبيّ ﷺ، والتوجيهات الربانية للمؤمنين تجاه النبيّ ﷺ قد استحوذ على معظم حجم السورة، فمن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على الطاعة التامّة والثقة المطلقة بالنبيّ القائد ﷺ، من خلال بيان فضله وبعض حقوقه ﷺ على المؤمنين، إن كان في الرخاء أو الشدة، وإن كان بين المجتمع المسلم عموماً أو فيما يخصّ أهل بيته ﷺ. وإنما اختير اسم الأحزاب لهذه السورة؛ لأنها مع التعقيب الإلهي عليها تعبّر عن أهمّ حقوق النبيّ ﷺ على المؤمنين، وهو الطاعة والثقة في أشدّ الظروف وأحلكها، فكانت هذه التسمية تعبيراً عن الامتحان العسير الذي أبرز صدق الصادقين من المؤمنين، وتخاذل المنافقين المتنصّلين. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان فضل المصطفى ﷺ وحقوقه في الظروف العسيرة والظروف الاعتيادية**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى أربعة موضوعات رئيسية، أولها: مقدّمة تحوي توجيهات للنبيّ ﷺ وللمؤمنين من ورائه، وتبرز فضله ﷺ وبعض حقوقه، وثانيها: تربية

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ١٥٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج٦، ٦٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج٥، ص٢٨١٧- ٢٨٢٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢١، ص٢٤٧، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م٦، ص ٦٤- ٦٦، وعبد الحميد طهماز، **النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب**، ص٦- ١٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٥٣٧- ٥٤٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٣٠- ٢٣٧.

للمجتمع المسلم على الطاعة والثقة بالنبيّ القائد ﷺ في الظروف القتالية الصعبة، مع بيان تخاذل المنافقين وذلك في الحديث عن غزوة الأحزاب، وثالثها: توجيهات لأهل بيت النبيّ ﷺ وللمجتمع المسلم للقيام بواجباتهم تجاه النبيّ ﷺ في الظروف العادية، ورابعها: خاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

أولاً: جاءت المقدّمة تحوي توجيهات للنبيّ ﷺ وللمؤمنين من خلفه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾، ولا يخفى أن تقوى الله والمفاصلة بين المؤمنين وبين الكافرين والمنافقين، واتباع التوجيه الرباني، والتوكّل على الله، هي أسباب النصر مهما تعسّرت الظروف، فهذه المقدّمة بتوجيهاتها السامية تدعو المؤمنين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ إلى الالتزام بها حتى يتحقّق لهم النصر، كما تحقّق يوم الأحزاب.

وقد بيّن السياق السبب في ضرورة المفاصلة بين المؤمنين وبين الكافرين والمنافقين حينما بيّن أن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، فـ «الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٨، وتربية المؤمنين في الظروف القتالية الصعبة: ٩ - ٢٧، والتوجيهات لأهل بيته ﷺ وللمجتمع المسلم في الظروف العادية: ٢٨ - ٥٩، والخاتمة: ٦٠ - ٧٣. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها لفظة «النبي» العائدة على سيدنا محمد ﷺ، وقد كان ذلك خمس عشرة مرة، منها خمس نداءات للنبي ﷺ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: ١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩، وهي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها هذا النداء، وفيها أيضاً سبع نداءات للمؤمنين بـ «يا أيها الذين آمنوا»: ٩، ٤١، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٦٩، ٧٠، وثانياً: هي أكثر سورة عاد فيها مشتقات الجذر «صدق» على المؤمنين، وقد كان ذلك سبع مرات أيضاً: ٨ ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، ٢٣ ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، ٢٤ ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، ٣٥ ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾، وانظر الآية ٢٢ ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، وثالثاً: وهي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «أذى» المحذّرة من إيذاء النبي ﷺ أو أهل بيته، وقد تكرر ذلك سبع مرات أيضاً: ٤٨ ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، ٥٣ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، ٥٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، ٥٨ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ٥٩ ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، ٦٩ ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾، رابعاً: هي الوحيدة التي امتازت ببيان أن النبي ﷺ أسوة حسنة للمؤمنين ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ٢١، وقد ذكرت سورة الممتحنة أن إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه أسوة حسنة أيضاً: ٤، ٦، خامساً: هي الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: ٥٦. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

من أفق واحد، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد»[1]، وأعتقد أن هذا البيان متعلّق أيضاً بما لحقه من بيان أن الزوجة المظاهر منها غير الأمّ، وأن الأدعياء غير الأبناء، فالمعتقد والزوجة، والأمّ، والأدعياء، والأبناء، كلها أمور فردية لا مثنوية بينها، فلا يمكن أن يكون الرجل مؤمناً ومنافقاً أو كافراً في ذات الوقت، ولا يمكن أن تكون الزوجة والأمّ شيئاً واحداً، وكذلك الأدعياء والأبناء.

ولذلك ينسب الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين، فإن لم يُعلم آباؤهم فهم إخواننا في الدين وموالينا، وذكر هذه التوجيهات في مقدّمة السورة متلائم مع ما سيأتي من الحقوق الأسرية الخاصة بالنبي ﷺ.

ثم انتقل السياق إلى بيان فضل النبيّ ﷺ على المؤمنين، وما نتج عن ذلك من تفضيل أزواجه عليهم أيضاً: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، إن ذكر هذا الفضل للنبيّ ﷺ، والدعوة إلى الإيمان الصادق به، يبرز لنا بعض حقوقه ﷺ على المجتمع المؤمن، وفي ذلك تهيئة لذكر أهمّ هذه الحقوق، وهو الثبات على صدق الإيمان والثقة به في أعسر الظروف كما سيأتي في غزوة الأحزاب، ولاحظ أن التقرير في هذه المقدّمة قد جاء على نحو حازم جازم وكأنه بيان عسكريّ، فانظر الأوامر التالية: (اتَّقِ الله، اتّبع ما يوحى، توكّل على الله، ادعوهم لآبائهم)، ولاحظ أسلوب التقرير مع التوكيد: (إن الله كان عليماً حكيماً، إن الله كان بما تعملون خبيراً، النبي أولى بالمؤمنين . .) وأعتقد أن هذا الحزم والجزم متلائم مع شدّة ظروف غزوة الأحزاب وحالك أحوالها. فدلالة اسم السورة منسجمة مع أسلوب التعبير أيضاً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى الموضوع الأهمّ في السورة، وهو تربية المؤمنين على الثبات

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٢٨١٩.

في صدق الإيمان والثقة بالنبيّ القائد ﷺ، فقد كانت غزوة الأحزاب التي سمّيت هذه السورة باسمها أصعب ابتلاء تعرّض له المؤمنون، فظهر فيه صدق الصادقين، وتخاذل المنافقين، وقد ابتدأ السياق عرض أحداث هذه الغزوة من نتيجتها النهائية، فكان في ذلك مزيد امتنان من الله على المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾، ولاحظ وصف حال المؤمنين في تلك الموقعة، فقد بلغت القلوب الحناجر، ودخل الظن إلى القلوب، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، كل ذلك يطلعنا على هول هذه الموقعة وشدّة ظروفها.

وقد عرض السياق موقف المنافقين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾، فهم يكذبون الله ورسوله ﷺ، ويتنصّلون من القتال معتذرين بالأعذار الكاذبة، وقد كانوا عاهدوا الله من قَبْل لا يولّون الأدبار، وكان عهد الله مسؤولاً، وهم جبناء إذا جاء الخوف، وإذا ذهب الخوف أعملوا في المؤمنين ألسنتهم السليطة، وهم يتمنّون في تلك الموقعة لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عما حصل للمؤمنين.

وانظر ماذا كانت نتيجة أعمالهم القبيحة ونياتهم السيئة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (بعض الآية ١٩)، إن عرض موقف المنافقين هذا يبرز لنا من ناحية مدى شدّة تلك الغزوة، ومن ناحية أخرى يربّي المؤمنين على الثقة والصدق في الإيمان، وأن لا يكونوا مثل هؤلاء.

ثم عرض السياق موقف المؤمنين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾، ولاحظ ابتداء الكلام عنهم ببيان فضل النبيّ القائد ﷺ، ولاحظ أن الظنون لم تتمكّن من قلوب المؤمنين، فسرعان ما أبطل اليقين في قلوبهم هذا الظن، وقالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادتهم شدّة الغزوة إلا إيماناً وتسليماً، وما بدّلوا تبديلاً. فأنت ترى أن السياق يركّز على تربية المؤمنين على أداء أهمّ حقّ من حقوق النبيّ ﷺ ألا وهو الثبات على الثقة والإيمان الصادق به ﷺ حتى في أحلك الظروف، وهذا أعظم مقصد في السورة، ولذلك سمّيت السورة باسم هذه الغزوة المعبّرة عنه.

ثم عرض السياق نتيجة الموقعة، فقد رَدّ الله الكافرين ولم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، أما فيما يتعلق بيهود بني قريظة الناقضين للعهد، فقد بيّن السياق مصير غدرتهم، فقد مكّن الله المؤمنين منهم، فقتلوا فريقاً منهم وأسروا فريقاً، وقد أورث الله المؤمنين ديار يهود بني قريظة وأموالهم، وهذا متعلّق بما سيجيء من تربية نساء النبيّ ﷺ على عدم الإثقال عليه من طلب زيادة النفقة من الأموال التي غنمها المسلمون بعد القضاء على بني قريظة.

ثالثاً: وبعد أن انتهى الكلام عن حقوق النبيّ القائد ﷺ في الظروف العسيرة، انتقل إلى بيان حقوقه ﷺ في الظروف العادية، وكان أولها توجيه لأمهات المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، فنساء النبيّ ﷺ مأمورات بعدم تفضيل شيء من متاع الدنيا على الله ورسوله ﷺ، ثم بيّن السياق أن نساء النبيّ ﷺ بزواجهن من أشرف الخلق قد جعل الله لهنّ ميزة على باقي النساء، وذلك يستلزم منهنّ مزيد الطاعة لله ورسوله ﷺ، فقد بيّن السياق أن من يأتِ منهنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب، وفي المقابل من يقنت منهن لله وتعمل صالحاً يؤتها الله أجرها مرتين، وانظر إلى هذه الأوامر الإلهية لهنّ فيما يتعلّق بحقوق النبيّ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ

كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، ولاحظ أن المقصود من هذه الأوامر حفظ عِرض النبيّ ﷺ من أن يمسَّ بأدنى سوء، فهنّ مأمورات بعدم الخضوع بالقول، وأُمِرْنَ بالقول المعروف، والقرار في البيوت وعدم التبرّج، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، كل ذلك يؤهلهن لأن يُذهب الله عنهنّ الرجس ويطهرهنّ تطهيراً.

وقد بين السياق أن كل فرد في المجتمع الإسلامي ذكراً كان أو أنثى، مأمور بفضائل الأخلاق، وقد أعدَّ الله لمن التزم بذلك مغفرة وأجراً عظيماً، ومن الأخلاق الفاضلة الطاعة التامة لله ولرسوله ﷺ، ولذلك جاء هذا الأمر فيما يتعلق ببعض حقوق النبيّ ﷺ على المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾، وهذا الأمر ممهّد لعدم المجادلة فيما يتعلق بأمر الله رسوله ﷺ بالزواج من مُطلَّقة زيد بن حارثة، الذي كان قد تبنّاهُ النبيُّ ﷺ، فقد أراد الله إبطال حكم التبنّي، وقد اختصّ رسوله ﷺ بالقيام بهذه المهمّة، فأمره بالزواج من مُطلَّقة زيد، وحينئذ لن يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً وطلقوهنّ.

فأنت ترى أن السياق يركّز على تعريف المؤمنين بحقوق نبيهم ﷺ وتربيتهم على القيام بها، ولذلك بيّن السياق بعض مزايا هذا النبيّ الكريم ﷺ وعظيم فضله عند الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾، ولاحظ تكرار الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، والتوكل على الله، وهو أمر قد ذكر أول السورة، وتكرار هذا الأمر للنبيّ ﷺ وللمؤمنين من خلفه فيه مزيد حَثّ لهم على القيام به.

وبمناسبة الحديث عن العلاقات الأسرية الخاصة بالنبيّ ﷺ، بيّن السياق أن لا عِدَّة

للنساء المطلّقات قبل الدخول، وأتبَعَ ذلك ببيان ما يحلّ للنبيّ ﷺ من النساء، وهنَّ اللاتي آتاهنّ أجورهنّ ـ أزواجه التسع ـ وما ملكت يمينه، وبنات أعمامه وعماته، وبنات أخواله وخالاته، وأيّة امرأة وهبت نفسها للنبيّ ﷺ إن أراد أن يستنكحها بلا وليّ، وهذا أمر خاص به ﷺ فقط من دون المؤمنين، وقد جعل الله له مطلق الحرية في اللواتي يعرضن أنفسهنّ له ﷺ، فإن شاء ضَمّ إليه، وإن شاء أبى، وإن أراد أن يضمّ إليه امرأة قد أباها سابقاً فله ذلك، ثم حرم الله عليه استبدال أحد أزواجه بأخرى ولو أعجبه حسنها، وذلك لأن أزواجه ﷺ قد استحققن أن ينلن شرف الزواج منه ﷺ، وأن يكنَّ أمهات المؤمنين، فلا يزول عنهنّ هذا الشرف أبداً.

ثم انتقل السياق إلى أمر توجيهي آخر للمؤمنين يتعلق بحقوق النبيّ ﷺ ، فقد نهى القرآن المؤمنين عن دخول بيوت النبيّ ﷺ بلا إذن، وإذا أُذن لهم فلا يثقلوا عليه ﷺ بانتظار نضج الطعام، أو الاستئناس بالحديث بعد الطعام، ولكن إذا طعموا فلينتشروا، وقد حرم القرآن على المؤمنين أن يسألوا إحدى نساء النبيّ شيئاً من متاع الدنيا إلا من وراء حجاب، واستثنى السياق من ذلك المحارم من الرجال، وانظر إلى هذا التوجيه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (بعض الآية: ٥٣). ولاحظ المنهجية في القرآن في عرض الأوامر، إذ قد أخّر السياق الأمر الذي كان قد حدث في أحد بيوت النبيّ ﷺ، بعد أن بيّن بعض الأحكام الخاصة بأهل بيته ﷺ، وقد أمر السياق أيضاً نساء النبيّ ﷺ ونساء المؤمنين بأمر مشترك، وهو أن يدنين عليهن من جلابيبهن فلا يؤذين من ذي قلب مريض.

وانظر إلى هذا الأمر الذي ختمت به هذه التوجيهات، والمبيّن لفضل النبيّ المصطفى وعِظَم منزلته عند الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾. فأنت تلاحظ إذاً أن سياق السورة متعلق ببيان حقوق النبيّ المصطفى ﷺ على المؤمنين، في الرخاء والشدة، والتي كان أهمّها الثبات على الثقة وصدق الإيمان به في أشدّ الأحوال، وهو ما عبّر عنه اسم السورة أبلغ الدلالة.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق ذكره، فقد أعادت التحذير من تخاذل المنافقين المؤذين لرسول الله ﷺ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾، وأعادت التحذير من الكافرين المكذّبين بالساعة، مع بيان تحسّرهم على عدم طاعة الله ورسوله في يوم القيامة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾، وفي ذلك تربية للمؤمنين بلزوم طاعة الله ورسوله.

وأعادت تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من إيذاء النبيّ ﷺ، والأمر بطاعته طاعة تامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾، وأعتقد أن ذكر بني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام، متلائم مع ما ذكرته السورة عن غزوة الأحزاب التي ألّب فيها يهودُ بني قريظة قريشاً وغطفانَ على إيذاء النبيّ ﷺ والمؤمنين معه.

وقبل الختام بيّنت السورة تكريم الإنسان بأمانة العقل التي أشفق منها السماوات والأرض، وهي أمانة تقتضي منه أن يكون موالياً ومطيعاً كل الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، لا أن يظلم نفسه ويكون مع الذين يحادّون ويتآمرون على الله ورسوله ﷺ، وكما افتتحت السورة بأخذ الحيطة والحذر وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ، ختمت ببيان مصير كلا الفريقين: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ۝٧٣﴾.

وهكذا التقى البدء والختام كما هي العادة في هذا القرآن العظيم، على محور تربية المؤمنين على طاعة الله ورسوله ﷺ حتى في أحلك الظروف وأعسرها، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.

سورة الأحزاب

سورة بيان فضل المصطفى ﷺ وحقوقه في الظروف العسيرة والظروف الاعتيادية

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدّمة التي تحوي توجيهات للنبيّ ﷺ وتبيّن فضله وبعض حقوقه:

- افتتحت السورة بدعوة النبي ﷺ إلى المفاصلة بين أهل الإيمان والنبي على رأسهم، وبين أهل الكفر، حتى يتحقق النصر للمؤمنين مهما تعسرت الظروف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ① وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ② وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.
- ومما يؤكّد ضرورة المفاصلة بين المؤمنين والكافرين بيان المقدّمة أن ليس للإنسان في قلبه مكان إلا لمعتقد واحد: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، فالإنسان إما مؤمن أو كافر.
- وكذلك تجب المفاصلة بين الأبناء والأدعياء، فهما أمران مختلفان، وفي هذا تمهيد لما سيأتي من موضوع زيد رضي الله عنه مع النبي ﷺ.
- ومما يبيّن فضل النبي ﷺ وبعض حقوقه قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.
- وقد بيّنت المقدّمة أن الله أخذ من النبيين ميثاقهم ومن النبي ﷺ، وأمرت المؤمنين بالصدق في أداء هذا الميثاق: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑧﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٢٧)

تربية المؤمنين على الطاعة والثقة بالنبي ﷺ في الظروف العسيرة، وبيان تخاذل المنافقين، وذلك في الحديث عن غزوة الأحزاب:

- عرضت السورة مدى عُسْر هذه الموقعة على المجتمع في المدينة، إذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، ووصل الظن إلى القلوب، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.
- ثم عرضت موقف المنافقين، فهم يكذبون الله ورسوله ﷺ، ويتنصّلون من القتال معتذرين بالأعذار الكاذبة مع كونهم قد عاهدوا الله بأن لا يولّوا الأدبار، وهم جبناء إذا جاء الخوف، وألسنتهم سليطة على المؤمنين إذا ذهب الخوف، ونتيجة تخاذلهم هذا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، إن عرض مواقف المنافقين هذه يربّي المؤمنين على الحذر من أن يكونوا مثلهم.
- وأما موقف المؤمنين، فقد ابتدأ الحديث عنهم ببيان فضل النبي ﷺ، إذ هو أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وقد صدق المؤمنون الله ورسوله حينما رأوا الأحزاب، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وثبتوا مع النبي ﷺ في ذلك الموقف العسير، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً.
- ثم عرض السياق نتيجة الموقعة، فقد ردّ الله الكافرين لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، ثم مكّن الله المؤمنين من بني قريظة ففريقاً يقتلون ويأسرون فريقاً، وقد أورث الله المؤمنين ديار بني قريظة وأموالهم.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٨-٥٩)

بيان فضل النبيّ ﷺ وحقوقه في الظروف الاعتيادية:

- أمرت السورة نساء النبي ﷺ بأن لا يفضلن شيئاً من متاع الدنيا على الله ورسوله ﷺ.
- وبما أنهن أزواج أشرف الخلق ﷺ، فقد بيّنت السورة أنّ مَنْ يأت منهن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، ومن يقنت منهن لله ورسوله ﷺ وتعمل صالحاً يؤتها الله أجرها مرتين.
- وأمرت السورة نساء النبي ﷺ بعدم الخضوع بالقول، وأن يَقَرْن في بيوتهن ولا يتبرجن، وأن يُقِمْن الصلاة ويؤتين الزكاة ويُطِعْنَ الله ورسوله، وأن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.
- كل هذه الأوامر تحفظ عِرْض النبي ﷺ من أيّ سوء.
- وأمرت السورة المؤمنين والمؤمنات بطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.
- ومما يبيّن فضله ﷺ أن الله أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.
- وقد نهت السورة المؤمنين عن دخول بيوت النبي ﷺ بدون إذن، وأن لا يثقلوا عليه بانتظار نضج الطعام أو الاستئناس بالحديث، وإذا سألوا نساء النبي ﷺ متاعاً أن يسألوهن من وراء حجاب.
- وختمت هذه التوجيهات بأمر المؤمنين بالصلاة عليه ﷺ وبيان فضله عند ربه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٦٠-٧٣)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من المنافقين المتخاذلين والذين يؤذون رسول الله ﷺ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.
- وأعادت التحذير من الكافرين المكذّبين بالساعة وبيّنت حسرتهم يوم القيامة على عدم طاعتهم لله والرسول ﷺ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.
- وأعادت تحذير المؤمنين من إيذاء النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.
- وبيّنت مكانة العقل الذي جعله الله مناط التكليف، وأهمّ مقتضيات التكليف طاعة الله ورسوله ﷺ مهما كانت الظروف.
- وكما افتتحت السورة بالأمر بأخذ الحيطة وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ، ختمت ببيان مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾.

سورة سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «سبأ» لذكر قصة سبأ فيها، والتي من أهمّ دلالاتها أنهم أعرضوا عن شكر المنعم عزّ وجلّ حين جعل لهم جنتَيْن عن يمين وشمال، فكان نتيجة إعراضهم أن أبدلهم الله جنتين ذواتَيْ أُكُل خَمْطٍ، وكذلك أعرضوا عن شكر المنعِم عزّ وجلّ حينما قرّب مسافات سفرهم وجعلها آمنة، وطلبوا أن يباعد الله بين أسفارهم، فكان نتيجة إعراضهم أن مزّقهم الله في الأرض كل ممزّق. فاسم السورة يدلّ على أن جحود نِعَم المُنعِم والكفر بها أمر يؤدي إلى زوالها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر بعض المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة إثبات حقيقة البعث والجزاء، وذلك بذكر آيات عدّة من أوجه قدرة الله وإحاطة وشمول علمه، وقد كانت قصة سبأ المذكورة في السورة مع التعقيب عليها دليلاً واضحاً على قدرة الله تعالى من قلب المنحة إلى محنة،

وذلك لعدم شكرهم ولكفرهم، وبيان أن من أسباب زوال النعمة عنهم أيضاً أن اتّباعهم للشيطان قد أوصلهم إلى الشك بالآخرة، ففي عرض قصتهم تصحيح لبعض القِيَم المتعلقة بهذا الموضوع والتي أهمّها: بيان أن الإيمان والعمل الصالح هما قوام الحكم والجزاء عند الله، وليس الأموال والأولاد، وقد كانت قصتهم أنموذج جحود وكفر في مقابل قصة آل داود التي تمثّل الإيمان والشكر[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أنّ الإعراض عن المنعِم عزّ وجلّ وجحود نعمته أمر مؤدٍّ لزوال تلك النعم، وذلك لأن الله بيده مقاليد السماوات والأرض والرزق، فينبغي أن يكون موقف الناس من المنعِم سبحانه موقف الإيمان والتوحيد والحمد والشكر، لا موقف الإعراض والجحود والشرك والكفر، وليكتمل هذا المحور حذّرت السورة من الأمور المؤدّية إلى الإعراض عن المنعم وهي: الترف، الاستكبار، اتّباع الشيطان، وكل ذلك يؤدّي في النهاية إلى إنكار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب. وإنما سمّيت هذه السورة باسم «سبأ» لأن الدلالات السياقية لقصتهم مع التعقيب عليها أدلّ ما في السورة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من كفر نِعم المُنعِم سبحانه، وبيان الأسباب الداعية إلى كفر النعم وعواقبها**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن أن مقاليد السماوات والأرض والرزق بيد الله، مع تهديد للكافرين بذلك وللمنكرين للآخرة، وثانيها: عرض قصصي يعرض أنموذجَيْن متقابلَيْن إزاء نِعَم الله، فكانت قصة آل داود تمثل أنموذج الإيمان والشكر، وقصة سبأ تمثّل أنموذج الجحود والكفر، وثالثها: تعقيب إلهي على القصتين يؤكّد

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ١٦٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ١٤٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٨٨٨- ٢٩٠٢، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ١٦٧ و١٦٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٣٣٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٢٦٩- ٢٧٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٣٨- ٢٤١.

ما جاء في المقدّمة، ورابعها: خاتمة مؤكّدة لما سبق[١].

أولاً: جاءت المقدّمة مبيّنة أن الله عزّ وجلّ مالك مقاليد السماوات والأرض والرزق، فينبغي أن يكون موقف الإنسان من ذلك موقف الحمد والشكر له عزّ وجلّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ٩، والعرض القصصي لأنموذج الإيمان والشكر: ١٠- ١٤، ولأنموذج الجحود والكفر: ١٥-٢١، والتعقيب: ٢٢- ٤٥، والخاتمة: ٤٦- ٥٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تعطي صورة مقابلة لسورة النمل، فالحديث الذي جاء عن مملكة سبأ في سورة النمل يمثّل بداية هدايتهم إلى شكر المنعم عز وجل على يد سليمان عليه السلام، وما جاء في سورة سبأ يمثّل نهاية انحرافهم عن الإيمان و الشكر إلى الجحود والكفر، وقد ذكرتُ أن سورة سبأ اختير اسمها من موقف الجحود والكفر لنِعَم الله عز وجل، بينما سورة النمل اختير اسمها من موقف الإيمان والشكر على نِعَم الله عز وجل، فهما صورتان متقابلتان متكاملتان، ومن العجيب أن هاتَيْن السورتين قد اشتركتا في أمور عدَّة تؤكّد ذلك، فأولاً: لقد ذكر فيهما مشتقات الجذر (شكر) أربع مرات لكل منهما، انظر الآيات في سورة سبأ: ١٥، ١٣ مرتَيْن ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، ١٩، وانظر الآيات في سورة النمل: ١٩، ٤٠ مرتَيْن، ٧٣ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وثانياً: هما مشتركتان في عدد مرات ذكر مشتقات الجذر (حمد)، فانظر الآيات في سورة سبأ: ١ (مرتَيْن) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، و ٦ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، والآيات في سورة النمل: ١٥، ٥٩، ٩٣ جاءت عبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في كل موضع، وثالثاً: هما السورتان الوحيدتان في القرآن اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر (فزع)، إذ جاءت هذه المشتقات مرتَيْن في كل منهما، ففي سورة سبأ: ٢٣ ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ٥١ ﴿إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾، وفي سورة النمل: ٨٧ ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ٨٩ ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، ورابعاً: قد اشتركت السورتان في الاستفهام التقريري ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾، ففي سورة سبأ جاء هذا الاستفهام في الآية: ٢٤، وفي سورة النمل: ٦٤، وبإمكانك أن تضيف أن سورة سبأ تحدثت عن نهاية سبأ حينما أعرضوا عن الشكر، مما يتناسق مع حديثها عن نهاية مملكة سليمان عليه السلام حين قضى الله عليه الموت، وهذا متقابل مع سورة النمل التي تحدثت عن بداية هداية سبأ للشكر بعد إسلامهم مع سليمان عليه السلام، وعن حديثها عن بداية مملكة داود وسليمان حين قالا: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: النمل: ١٥، ومن العجيب أيضاً: أن سورة سبأ وسورة النحل أكثر سورتَيْن في القرآن ذُكر فيهما لفظة المصدر (رزق) وذلك في أربع مواضع لكل منهما، ومعلوم أن سورة النحل هي سورة النِّعم، وسورة سبأ تحذّر من بطر النعمة، انظر الآيات في سورة سبأ: ٤، ١٥، ٣٦، ٣٩، وفي سورة النحل: ٦٧، ٧١، ٧٣، ٧٥، وانظر قوله تعالى في سورة النحل الذي يحاكي ما حصل لسبأ: ، ومن العجيب أيضاً أن سورة سبأ قد انفردت من بين كل سور القرآن بذكر مشتقات الجذر الرباعي ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١١٣﴾، ومن العجيب أيضاً أن سورة سبأ قد انفردت من بين كل سور القرآن بذكر مشتقات الجذر الرباعي (مزّق) وهو يدل على زوال النعمة، انظر الآيات: ٧ (مرتين)، و ١٩ (مرتين). ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، وقد بين السياق أن لكمال قدرة الله عزّ وجلّ ولكمال علمه، قد جعل يوم القيامة ليحاسب فيه المحسن والمسيء، وهو يوم ينكره الكافرون ليتبطّروا بنعم الله في الدنيا بلا رقيب ولا حسيب: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾. وانظر كيف يجزي الله المؤمنين بالمغفرة والرزق الكريم الدائم، وما ذلك إلا لدوامهم على شكر نِعَم الله تعالى والعمل الصالح.

ولاحظ هذه الفرية الساخرة من الكافرين التي تحاكي ما حصل مع سبأ حينما بطروا نعمة ربّهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾، وقد كان الجواب على شبهتهم بالدعوة إلى النظر إلى مظاهر كمال قدرة الله وعلمه، مما يوجب أن يكون موقفهم موقف الحمد والشكر، لا الجحود والكفر: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾. فأنت تلاحظ أن المقدّمة تدعو إلى أن يكون موقف الإنسان من ربّه المنعِم ذي القدرة التامة والعلم المطلق موقف الحمد والشكر، لا أن يكون جاحداً منكراً. وبذلك تظهر العلاقة بين المقدّمة وبين دلالات قصة سبأ التي دلّت على مصير الجاحدين المنكرين.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي لأنموذجين متقابلين إزاء نِعَم الله تعالى، وكان أولهما أنموذج آل داود الذي يمثّل موقف الشكر: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ والعمل الصالح الذي كان يقوم به داود عليه السلام يمثل الجانب التطبيقي للشكر، وكذلك موقف ابنه سليمان عليه السلام: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا

نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾، لاحظ كيف سَخَّر سليمان عليه السلام جنوده للأعمال الصالحة التي تعتبر جانباً تطبيقياً لشكر المنعِم عزّ وجلّ، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، الممهّد لقصة سبأ الذين يعتبرون أنموذجاً على الكثيرين الذين جحدوا النعم.

وأعتقد أن ذكر الهيئة التي مات عليه سليمان عليه السلام يعطي أربع دلالات منسجمة مع محور السورة ودلالات اسمها، فأولاً: جانب غفلة الجنّ يمثّل قصور علمهم، وهو أمر مقابل لكثير من آيات السورة التي تمثّل كمال علم الله المطلق، فهو وحده قادر على منح النعم لمن يشاء، وثانياً: قصور علم الجنّ مع تسخيرهم التامّ لسليمان عليه السلام حتى آخر لحظة متناسب تماماً مع قول الملائكة أواخر السورة الذي ينعي على مَنْ عبد الجنّ من البشر: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ وثالثاً: يدل موت سليمان عليه السلام على أن مقاليد الأمور بيد الله وحده[1]. رابعاً: يتناسق الحديث عن نهاية مملكة سليمان عليه السلام بعد موته مع الحديث عن نهاية مملكة سبأ حينما أعرضوا عن الشكر.

وأما الأنموذج الثاني الذي يمثّل موقف الجحود والكفر، فهم سبأ الذين سمّيت السورة باسمهم، ليكون في ذلك عبرة للمؤمنين تحذّرهم من عدم الشكر: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ أن قصة آل داود السابقة عرضت موقفَيْن، الأول لداود والثاني لسليمان عليهما السلام، وهنا عرضت السورة

(١) يلاحظ في الحديث عن قصة آل داود عليه السلام في سورة سبأ أن التركيز كان على عرض أعمال الإنس والجن، وذلك يتناسب مع اسم السورة لأن سبأ من البشر، بينما كان التركيز في سورة النمل على العجماوات، أعني النمل والهدهد، وذلك يتناسب مع اسم السورة لأن النمل من العجماوات.

موقفَيْن سبأ، كان هذا أولهما، إذ بطروا نعمة الجنتين اللتين أنعم الله بهما عليهما، وأعرضوا عن شكر المنعِم وعن الاستغفار، فكانت العاقبة أن أُبدلت جنتاهما بجنتين ذواتي أُكُل خَمْطٍ، ولا ريب أن تسمية الجنتين ذواتي الأُكُل الخَمْط بـ «الجنتين» إنما هو للسخرية، ولاحظ أن السياق قد ذكر أن السبب في ذلك هو كفر المنعِم سبحانه، سواء كان المقصود بالكفر المعنى اللغوي أو الاصطلاحي.

وأما الموقف الثاني لهم فهو يدل على الجحود أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، فهم قد بطروا نعمة الأمن التي أنعمها الله عليهم حينما قرّب مسافات سفرهم، وطلبوا تطويل المسافات في السفر حتى كانت النتيجة أنهم قد مزّقوا كل ممزّق، ولاحظ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، الدال ـ فيما أرى ـ على أن موقف الإنسان ينبغي أن يكون صباراً حال الضراء، وشكوراً حال السراء.

وجاء في التعقيب ذكر بقية الأسباب التي دعتهم إلى بطر النعمة وجحودها: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾، فقد زيّن لهم إبليس بطر النعمة فأطاعوه، حتى وصل الأمر بهم إلى الشك بحقيقة الآخرة، وإنكار الآخرة أمر مشترك بين المتبطّرين كما لا يخفى، وذلك لأنهم يريدون التبطّر في النعم، وكأنه لا رقيب ولا حسيب عليهم. ولاحظ ذكر فريق من المؤمنين، مما يدل على أن الباقين كانوا كافرين.

إذاً فالأسباب التي تدعو إلى بطر وجحود النعمة المستنبطة من هذه القصة مع التعقيب هي: الإعراض والاستكبار عن المنعِم سبحانه، والترف وبطر النعمة، وتزيين إبليس، ثم بالنهاية إنكار الآخرة والكفر، ولذلك اختيرت هذه القصة لتكون اسماً للسورة، لأنها أدل ما في السورة على محورها الدال على أن الجحود للمنعِم الذي بيده مقاليد كل شيء أمر مؤدٍّ إلى زوال النعم.

ثالثاً: ثم ذكرت السورة تعقيباً إلهياً على هذا العرض القصصي، يعيد التذكير بأن الله

تعالى وحده بيده مقاليد كل شيء في الدنيا كما في الآخرة، فينبغي أن يكون موقف الإنسان تجاه ذلك موقف الإيمان والتوحيد والحمد والشكر: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وانظر قوله تعالى الدال على كمال القدرة الإلهية في يوم القيامة الذي ينكره المستكبرون المتبطرون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾، ولاحظ أن التلاوم بين المستكبرين والمستضعفين يذكّرنا بدور إبليس في إغواء سبأ، ولاحظ أنهم تكبّروا عن أعظم نعمة من نِعَم المنعِم عزّ وجلّ عليهم، ألا وهي نعمة الهدى المتمثّلة بالقرآن والكتب السماوية، ولاحظ أن تكبّرهم قادهم إلى المكر بالليل والنهار ليكفروا بالمنعم عزّ وجلّ ويشركوا به.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد دعت إلى أن يكون موقف الإنسان من المنعِم سبحانه موقف الإيمان والشكر: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وبيّنت كمال القدرة الإلهية في الآخرة التي ينكرها المتبطّرون: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾، فقد انتبهوا بعد فوات الأوان إلى الموقف الذي كان يجب أن يتخذوه من المنعم عزّ وجلّ.

وكما افتتحت السورة ببيان أن موقف الإنسان ينبغي أن يكون موقف الإيمان والتوحيد

والحمد والشكر للمنعِم عزّ وجلّ كونه بيده مقاليد كل شيء، ختمت السورة ببيان مصير من اتخذ بدلاً من ذلك موقف الجحود والكفر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾، وهو ختام يذكّرنا بما حصل مع سبأ الذين سمّيت السورة باسمهم، والذين دلّت قصتهم على محور السورة أبلغ الدلالة، وتناسقت مع موضوعاتها أبلغ التناسق.



سورة سبأ

سورة التحذير من كفر نِعَم المُنعِم سبحانه، وبيان الأسباب الداعية إلى كفر النعم وعواقبها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدّمة التي تبيّن أن مقاليد السماوات والأرض والرزق بيد الله، وتهدّد الكافرين بذلك والمنكرين للآخرة:

- افتتحت السورة ببيان استحقاق الله تعالى للحمد لأنه بيده مقاليد الدنيا والآخرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾.
- وهدّدت المقدّمة الكافرين المنكرين للآخرة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾.
- وبيّنت جزاء المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.
- كما وبيّنت مصير الكافرين في ذلك اليوم: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٠)

عرض قصصي يعرض أنموذجين لشكر نِعَم الله تعالى، ويعرض أنموذجاً لكفر نِعَم الله تعالى:

- عرض السياق موقف داود عليه السلام من تسخير الله له نعمة الحديد: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾، وقد تمثّل شكره عملياً إذ سخّر هذه النعمة في سبيل الله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾.
- وعرض السياق موقف سليمان عليه السلام من تسخير الله له الرياح والجنّ وعين القِطْر، فاستخدم هذه النعم في العمل الصالح أيضاً: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾.
- في المقابل عرض السياق قصة سبأ الذين كان لهم موقفَيْن دالّين على كفرهم بنِعَم المُنعِم سبحانه، حتى زالت عنهم هذه النعم، فقد أعرضوا عن شكر الله إذ أنعم عليهم بجنتين عن يمين وشمال، فأرسل الله عليهم سيل العرم وأبدلهم بجنتين ذواتي أكل خمط.
- وموقفهم الثاني أنهم طلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم بعد أن قرّب الله بينهم المسافات وجعلها آمنة، فظلموا أنفسهم، وجعلهم الله أحاديث ومزّقهم كل ممزّق، هذه عاقبة المعرضين عن شكر الله تعالى.
- وقد بيّنت القصة الأسباب التي جعلتهم يبطرون نِعَم الله تعالى وهي: الإعراض والاستكبار عن المنعِم سبحانه، والترف المؤدّي إلى البطر، واتّباع تزيين إبليس، ثم في النهاية إنكار الآخرة والكفر.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٢-٤٥)

تعقيب على القصص يؤكّد أن الله تعالى وحده بيده مقاليد كل شيء، فينبغي أن يكون موقف الإنسان الإيمان والتوحيد والشكر لا الجحود والكفر:

- فقال تعالى سائلاً المشركين: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.
- وقال تعالى داعياً إلى الإيمان والتوحيد: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.
- وقد بيّن التعقيب حسرة الكافرين المستكبرين عن آيات الله يوم القيامة، وأن الذي جعلهم يتحسّرون هو مكرهم بالليل والنهار وأمرهم المستضعفين بالكفر بآيات الله، بدلاً من الإيمان والشكر له سبحانه.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٦-٥٤)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير ببيان وجوب أن يكون موقف الإنسان موقف الإيمان والشكر: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.
- وبيّنت حسرة الكافرين يوم القيامة بعد أن فاتهم الوقت ولم يتخذوا موقف الإيمان وشكر المنعِم، فقالوا متحسّرين يوم القيامة: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان ما يجب أن يكون عليه موقف الإنسان من الإيمان والشكر والتوحيد لله تعالى، ختمت بذكر مَن اتخذ بدلاً مِن ذلك موقفَ الجحود والكفر، وخسروا كل الخسارة: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

سورة فاطر

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والطاء والراء، أصل صحيح يدلّ على فتح شيء وإبرازه»[1]، ويقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «. . . وفَطْرُ اللهِ الخلقَ: هو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال»[2]، فوصف الله تعالى بـ «فاطر السماوات والأرض» يدلّ على أنه سبحانه هو الذي أوجد هذا الكون وأبدعه، وصيغة اسم الفاعل تؤكّد ذلك؛ لأنها تفيد التمكّن.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة مقصودها إيقاظ القلب البشري من غفلته، بإيقاعات موحية تهزّه هزًّا، ليتأمّل عظمة هذا الكون وآيات الله المبثوثة في تضاعيفه، هذه الإيقاعات تجمعها الإشارة إلى يد القدرة المبدعة، فالسورة تثبت القدرة الكاملة لله تعالى، والتي يلزم منها قدرته على البعث، فالإيجاد من العدم أدلّ دليل على ذلك، وفي تسميتها بـ «فاطر» دلالة على ذلك[3].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٤٩.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ٦٤٠.

(٣) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ١٩٩، ٢٠٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٩١٨، وابن=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض صفات الله تعالى والتي أهمّها أنه هو المبدئ والمعيد، فهو الذي فطر الخلق أول مرة، وهو القادر على أن يعيده يوم القيامة. ولما كان اسم السورة «فاطر» يدلّ على أنه تعالى هو الذي فطر الخلق أول مرة، سمّيت به؛ للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن الله هو المبدئ الذي فطر الخلق أول مرة، وهو المعيد الذي سيعيده يوم القيامة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولاً: مقدّمة تدعو إلى التوحيد من خلال بعض الآيات الكونية والآيات القرآنية، وثانياً: بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الكون للدلالة على قدرته على البعث، وثالثاً: الدعوة إلى الإيمان من خلال آيات الوحي (القرآن) مع بيان مصير من يؤمن ومن يكفر بها يوم القيامة، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

= عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٢٤٧- ٢٤٩، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ٢٣٥، ٢٣٦. ومحمد قطب، **دراسات قرآنية**، ص ٢٢١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٣٣٥- ٣٣٩، د. عبد الفتاح محمود المثنى، **نظرية السياق القرآني**، ص ٣٤٩ وما بعدها. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٨، وبيان بعض مظاهر كمال قدرة الله: ٩- ٢٤، والدعوة إلى الإيمان بآيات القرآن: ٢٥- ٣٧، والخاتمة: ٣٨- ٤٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى، أ) هذه السورة من السور التي تكررت فيها عبارة «الحمد لله»، وذلك يدل على أنه تعالى مستحقّ الحمد لأنه موجد الخلق وباعثهم يوم القيامة: فاطر: ١، ٣٤ (على لسان المؤمنين في الجنة)، والأنعام: ١، ٤٥، والنمل: ١٥، ٥٩، ٩٣، والزمر: ٢٩، ٧٤، ٧٥، ب) هي أكثر سورة أضيفت فيها مشتقات الجذر «مَسْك» إلى الله تعالى، وكلها في سياق بيان كمال القدرة، وذلك أربع مرات: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: ٢، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: ٤١، وقد تلتها في ذلك سورة الملك فحصل فيها ذلك مرتين: ١٩، ٢١، ولم يتكرر ذلك في سورة أخرى، ج) هي من السور التي تكررت فيها عبارة «سُنة الله» الدالة على أنه تعالى هو مدبّر أمور الخلق: فاطر: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة دعوة إلى التوحيد من خلال عرض بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الكون، ومن خلال الدعوة بالآيات القرآنية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾، فالله وحده المستحقّ للحمد؛ لأنه هو الذي فطر الكون، كما أن له الحمد في الآخرة حين يبعث الخلق، ولاحظ الإشارة إلى التكوين الخلقي للملائكة، وذكرهم مناسب لبيان عظمة الله، فهم خلق عظيم من خلق الله، ولاحظ بيان أن الله تعالى بيده خزائن الرحمة والرزق، يفتح متى يشاء، ويمسك متى يشاء، إن افتتاح السورة بهذه

= تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ٤٣، بالتاء المفتوحة لزيادة الدلالة، الأحزاب: ٣٨، عن سنة الله في الأنبياء، ٦٢ (مرتين)، عن سنته في المنافقين، وكلها بالتاء المغلقة، الفتح: ٢٣ (مرتين)، عن سنته في الكافرين بالتاء المغلقة، وقد ذكرت عبارة «نعمت الله» في سورة فاطر أيضاً بالتاء المفتوحة: ٣، د) هي وسورة النساء الوحيدتان اللتان تكررت فيهما كلمة «العزة» لنسبتها لله تعالى: فاطر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾: ١٠، والنساء: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: ١٣٩، هـ) هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها ذِكْر الاسمين الجليلين «غفور شكور»: ٣٠، ٣٤، وذلك للدلالة على أنه تعالى بالإضافة إلى عظمته التي بيّنت هذه السورة بعض مظاهرها، فهو (غفور) لعباده (شكور) لمن أحسن منهم، ولم يُذكر هذان الاسمان مجتمعين بتقديم الغفور في موضع آخر إلا في سورة الشورى ومرة واحدة: ٢٣، وكذلك الاسمان الجليلان «خبير بصير» ذُكرا هنا: ٣١، وفي سورة الشورى: ٢٧، وفي سورة الإسراء: ١٧، ٣٠، ٩٦، ولم يُذكرا بتقديم الخبير في سورة أخرى، وكذلك الاسمان الجليلان «حليماً غفوراً»، ذكرا بتقديم الحليم هنا: ٤١، وفي الإسراء: ٤٤، فقط، ولم يجتمع الاسمان الجليلان «عليم قدير» بتقديم العليم إلا هنا: ٤٤، وفي سورة النحل: ٧٠، والروم: ٥٤، والشورى: ٥٠، و) هي من السور التي تكرر فيها النداء «يا أيها الناس» وكان المنادي هو الله تعالى وليس على لسان الرسول ﷺ، فاطر: ٣، ٥، ١٥، والنساء: ١، ١٣٣، ١٧٠، ١٧٣، ويونس: ٢٣، ٥٧، (ومرتان أُمر النبيّ ﷺ بالنداء: ١٠٤، ١٠٨)، والحج: ١، ٥، ٧٣، (ومرة أمر النبيّ ﷺ بالنداء: ٤٩)، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالخلق، أ) لم يذكر شيء في القرآن عن التكوين الخلقي للملائكة إلا هنا: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ﴾: ١، وقد أشار لهذه النقطة سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٩٢١، ب) كذلك لم يذكر شيء عن التكوين الداخلي للجبال إلا هنا: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: ٢٧، ومعلوم ما في هاتين الإشارتين من عظيم الدلالة على الخالق سبحانه، ج) لم تتكرر هذه العبارة في موقع آخر ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: ١٣، وهي تدل على عدم حيلة الشركاء في مقابل كمال قدرته تعالى. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الصفات الجليلة تدعو إلى التوحيد، لأن مَن له هذه الصفات ـ والتي أعظمها فطر السماوات والأرض ـ هو وحده المستحقّ للعبادة.

وبعد ذكر بعض الآيات الكونية، انتقل السياق إلى التحذير من الكفر بالآيات القرآنية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾، ولاحظ عبارة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، التي تؤكّد أن الله تعالى هو الفاطر المبدئ لهذا الكون، وهو المعيد لخلق هذا الكون في الآخرة، ولاحظ التحذير من الكفر، والاغترار بالحياة الدنيا أو بخطوات الشيطان، ومن ثمَّ الوقوع بالتكذيب بآيات هذا الخالق العظيم.

فالمقدّمة تدعو إلى عبادة الله وحده؛ لأنه هو فاطر الكون، وهو الذي يرسل الرسل ليؤمن الناس ويعبدوه.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد القدرة الإلهية على البعث من خلال ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في الكون، فالمقدّمة أثبتت أن الله هو المبدئ، وهنا سيثبت السياق أن الله هو المعيد: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾، فكما أنه قادر على إحياء الأرض بالماء بعد موتها، فهو سبحانه قادر على إحياء الموتى، وانظر هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾، ولاحظ بيان أن هذا كله على الله يسير، وهذا مرتبط باسم السورة، فإن الذي فطر السماوات والأرض وبيده خزائن الرحمة والرزق، لن يكون من العسير عليه خلق البشر من تراب، وبعثهم بعد موتهم.

وقد ذكر السياق من آيات الله للدلالة على قدرته على البعث أنه تعالى فصل بين البحرين العذب الفرات والبحر الملح الأجاج، ومن كلٍّ يستخرج الإنسان لحماً طريًّا، وأنه تعالى هو الذي يولج الليل في النهار، وهو الذي سخّر الشمس والقمر، وأعاد التذكير بأن الذي له هذه الصفات هو المستحقّ للعبادة، ولا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا

لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾، ولا تخفى العلاقة بين اسم السورة وبين ذكر هذه الصفات الجليلة لله تعالى.

ثالثاً: وبعد الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية، انتقل السياق إلى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال الآيات القرآنية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾، وبيان عاقبة المكذّبين متلائم مع بيان الصفات الجليلة لله تعالى، فهو قادر على إهلاك المكذّبين كما هو قادر على خلق السماوات والأرض، وانظر هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾، فالسياق كما ترى يدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ والإيمان بآياته، من خلال بيان مصير المؤمنين.

ولكي يؤكّد السياق على حقيقة أن الله تعالى هو المبدئ المعيد، عرض مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾، فهذا مصير المؤمنين، وانظر مصير الكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾، ولاحظ بيان أن الكافرين في النار مخلّدون بلا موت، وذلك يتلاءم مع اسم السورة من حيث إن الذي فطر الخلق وبدأه، هو الذي يعيد الخلق في يوم القيامة بعد موتهم، وهو القادر على أن يحرم هؤلاء من الموت فلا يرتاحون أبداً.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على أنه سبحانه هو المبدئ المعيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ

ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾، فكما هو قادر على جعل البشر يخلف بعضهم بعضاً، قادر على بعثهم يوم القيامة.

وقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية والآيات القرآنية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان أن تعالى هو الذي فطر السماوات والأرض فهو المبدئ، ختمت ببيان أن الله تعالى هو المعيد أيضاً: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة فاطر

سورة بيان أن الله هو المبدئ الذي فطر الخلق أول مرة، وهو المعيد الذي سيُعيد الخلق يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدّمة التي تدعو إلى التوحيد من خلال بعض آيات الله الكونية والقرآنية:

- افتتحت السورة بذكر بعض الآيات الكونية الدالة على أن الله هو الذي فطر الكون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.
- وبيّنت أنه وحده سبحانه بيده الرزق فهو وحده الخالق.
- ودعت إلى الإيمان بالآيات القرآنية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٢٤)

بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الكون للدلالة على قدرته على البعث:

- بعد أن أثبتت المقدّمة أنه تعالى هو المبدئ، انتقل السياق إلى بيان أنه هو المعيد، فهو يحيي الموتى، وقد بيّن السياق أن الله هو الذي خلق الناس من تراب ثم من نطفة ثم جعلهم أزواجاً فهو كذلك قادر على بعثهم وحسابهم.
- وذكر السياق من مظاهر قدرته تعالى أنه فَصَل بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وأنه يولج الليل في النهار، وهو الذي سخر الشمس والقمر، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، فالقادر على كل ذلك قادر على إعادة الخلق للحساب يوم القيامة.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٥-٣٧)

الدعوة إلى الإيمان بآيات القرآن مع بيان مصير من يؤمن ومصير من يكفر بها يوم القيامة، ليثبت بذلك أن الله تعالى هو المعيد كما أنه المبدئ:

- بيّن السياق أن الله تعالى قادر على إهلاك المكذّبين بالقرآن، كما أنه قادر على خلق السماوات والأرض، وهو كذلك قادر على مجازاة من آمن بالقرآن وتلا آياته وأقام الصلاة وأنفق في سبيل الله.
- ثم عرض السياق مصير مَن آمن يوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.
- وعرض مصير من كَذَّب: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾، وبذلك يثبت أن الله هو المعيد للخلق يوم القيامة، كما أنه هو المبدئ الذي خلقهم أول مرة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٨-٤٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على أن الله هو المبدئ المعيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.
- وبيّنت أنه قادر على بعث الناس ليوم القيامة كما أنه جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً.
- وأعادت ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله هو الذي فطر الخلق فهو المبدئ، ختمت ببيان أنه هو المعيد سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

سورة يس

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة من حرفَي اللغة العربية المذكورين أولها، وهما حرفا الياء والسين، وقد اختلف المفسّرون في دلالتهما، فمنهم من اعتبرهما نداءً للنبيّ ﷺ، ومنهم من اعتبرهما يشيران إلى إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الأحرف، أقول: بالإضافة إلى اعتبارهما مشيرين إلى إعجاز القرآن وبعد تتبعي للكلمات التي ذُكر في أولها هذان الحرفان في هذه السورة وجدتُ أنه من الممكن اعتبار حرف الياء مشيراً إلى يد القدرة الإلهية القادرة على كل شيء، وحرف السين مشيراً إلى تسبيح الله تعالى وكمال قدرته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث، وذلك أخذاً من قوله تعالى آخر السورة: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾، وسأذكر بيان ذلك إن شاء الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن الهدف الأول من هذه السورة بناء أسس العقيدة، فهي تتعرّض لطبيعة الوحي وإثبات صدق الرسالة، ولقضية الإلهية والوحدانية، والقضية التي يشتدّ عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور، والتأكيد عليها من خلال ذكر بعض المشاهد الكونية المتعددة، كإحياء الأرض بنزول الماء، وسلخ الليل من النهار، وحركة الشمس والقمر..

فإن كان الحرفان ﴿يسٓ﴾ يشيران إلى إعجاز القرآن فالترابط بين ما ذكر وبينهما واضح من حيث إن القادر على كل شيء هو من أرسل الرسول ﷺ وجعل القرآن معجزاً، وإن كان

الحرفان نداءً للنبيّ ﷺ فهما يؤكّدان أنه مرسل من الله تعالى[(١)].

ويمكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: عرضُ بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، وأهمّها قدرته على البعث والإحياء، مما يثبت أنه تعالى بيده ملكوت كل شيء وأنه سبحانه منزّه عن النقائص، وكأن ﴿يسٓ﴾ تعني أن الله بيده كل شيء وأنه سبحانه وتعالى منزّه عن النقص. وقد تميّزت هذه السورة سورة **إثبات أن الله بيده كل شيء وأنه سبحانه منزّه عن النقائص، وأدلّ شيء على ذلك قدرته على البعث والإحياء.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن أن مَن بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه منزّه عن النقص هو مَنْ أرسل النبيَّ ﷺ، وثانيها: قصة أصحاب القرية التي تثبت أن الرسل هداية للناس، وتثبت القدرة الإلهية على البعث، وثالثها: تعقيب إلهي يؤكّد قدرة الله تعالى على البعث، مع عرض لمصير المؤمنين والمكذّبين في ذلك اليوم، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٢٣٩- ٢٤٤، وذكر أن حرف الياء الذي هو من حروف النداء ومن حروف الجهر يدل على قوة النفخ في الصور لبعث الخلق، وحرف السين الذي هو من حروف الصفير يدل على صفير النفخ في الصور المشابه للصفير، واعتبر ﴿يسٓ﴾ نداءً للنبيّ ﷺ، وذكر وجوهاً أخرى، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٢٩٥٦، ٢٩٥٧، وذكر أن الحرفين يدلان على إعجاز القرآن، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٢، ص ٣٤٢- ٣٤٤، ورأيه كرأي سيّد، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص٢٩٣- ٢٩٥، ورأيهم في هذه السورة كرأي سيّد، ود. حسن باجودة، **تأملات في سورة يس**، ص ٧- ١٥. وقد رجح أن ﴿يسٓ﴾ من أسمائه ﷺ، وعطية زاهدة، **فواتح السور والحروف السبعة**، ص ٤٦- ٤٩، واعتبر ﴿يسٓ﴾ يشير إلى القسم باليقين والساعة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٢، وقصة أصحاب القرية: ١٣- ٢٧، والتعقيب عليها: ٢٨- ٧٦، والخاتمة: ٧٧- ٨٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بحرف الياء، إذ لم تتكرر إضافة اليد إلى الله تعالى في القرآن إلا في سورتين هما: يس، وآل عمران، وحصل ذلك مرة واحدة في كل من سورة المؤمنون والحديد والملك، ومن اللافت أن إضافة اليد إلى الله تعالى في سورة يس قد جاءت لإثبات كمال القدرة الإلهية على نحو يفوق ما جاء في السور الأخرى، وإليك التفصيل: انظر قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾: ٧١، إذ لم=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الله تعالى هو من أرسل النبيّ ﷺ لينذر قومه يوم البعث: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾، وكأن السياق يقول: وحقّ من بيده القدرة المطلقة وهو سبحانه مطلق القدرة ومنزّه عن النقص، إنك يا محمد ﷺ من المرسلين، ولاحظ وصف القرآن بالحكيم، لأنه يحذّر من يوم البعث، إذ تتجلّى فيه حكمة الله تعالى بإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، ولاحظ الإشارة إلى صورة عذاب المكذّب يوم القيامة، لأن سياق السورة كلّه عن يوم البعث.

= تذكر ﴿أَيْدِينَا﴾ بالجمع بالضمير العائد إلى الله إلا هنا، وانظر قوله ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: ٨٣، مع التسبيح وإضافة الواو والتاء للملك، بينما انظر في سورة آل عمران قوله ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: ٢٦، وقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾: ٧٣، إذ اقتصر السياق نسبة الخير والفضل فقط إلى اليد ودون ذكر التسبيح، وانظر قوله في سورة المؤمنون ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ٨٨، دون ذكر التسبيح، وانظر قوله في سورة الحديد ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ٢٩، إذ اقتصر على نسبة الفضل لليد ودون ذكر التسبيح، وانظر قوله في سورة الملك ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: ١، دون زيادة الواو والتاء إلى الملك، ومن هنا أرى أن الياء في أول سورة يس تشير إلى أن الله بيده القدرة المطلقة، ومن اللطيف أنه جاءت فيها كلمة اليد في حقّ البشر لإثبات عجزهم في مقابل بيان كمال القدرة الإلهية: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ٣٥، ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: ٣٦، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: ٤٥، ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ ٦٥، وثانياً: منها أمور متعلقة بحرف السين، أ) لم تتكرر إضافة كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلى الله وكانت الإضافة من الله ـ وليس على لسان البشر ـ إلا في ثماني سور: يس، يونس، النحل، الإسراء، الأنبياء، الروم، الصافات، الزمر، وقد امتازت آيتا سورة يس بأنهما جاءتا في سياق إثبات كمال القدرة الإلهية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: ٨٣، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: ٨٣، بينما آيات باقي السور جاء معظمها في سياق نفي الشرك فقط: يونس: ١٨، ٦٨ (لنفي الشرك)، النحل: ١، ٥٧ (لنفي الشرك)، الإسراء: ١ (للتنزيه والتعظيم)، ٤٣ (لنفي الشرك)، الأنبياء: ٢٢، ٢٦ (لنفي الشرك)، الروم: ١٧ (لبيان القدرة الإلهية)، ٤٠ (لنفي الشرك)، الصافات: ١٥٩ (لنفي الشرك)، ١٨٠ (للتنزيه والتعظيم)، الزمر: ٤، ٦٧ (لنفي الشرك). ومن هنا أرى أن حرف السين في سورة يس يشير إلى أنه سبحانه مطلق القدرة ومنزّه عن النقص، ب) ومن اللطيف أن هذه السورة امتازت بعدد من الكلمات متعلقة بحرف السين: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾: ٦٦، هنا فقط بهذه الصيغة، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ ٣٧، لم تذكر ﴿نَسْلَخُ﴾ إلا هنا، ولاحظ فيها بيان القدرة الإلهية، وكذلك (سابق) مع الليل والنهار: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: ٤٠، و ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: ٩، بينما ذكر السد مرة واحدة فقط في سورة الكهف: ٩٤، و ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾: ٢٥، ولم تذكر ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ مرة أخرى في القرآن. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وفي المقابل بيّنت المقدّمة أن إرسال النبيّ ﷺ رحمة لمن آمن وعمل ليوم البعث، وأكّدت ذلك بذكر كونه تعالى مقتدراً على بعث الموتى وحفظ أعمالهم جميعها: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾.

فالمقدّمة تبيّن أن الله تعالى مقتدر على كل شيء، ومن أبرز مظاهر كمال قدرته أنه سيبعث الموتى وسيجازيهم، وحرفا الياء والسين يشيران إلى القدرة كما تقدم.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى قصة أصحاب القرية، وهي تثبت أنه تعالى بحكمته يرسل الرسل ليحذّر الناس من يوم البعث، كما وأن القصة تؤكّد أن الله تعالى قادر على البعث، فانظر قول الرجل الذي جاء يدعو قومه إلى الإيمان بما جاء به الرسل الثلاثة: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾، ولاحظ قوله ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ الدال على أن الله الذي فطره أول مرة قادر على بعثه، وانظر قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، فقد نقل إلينا القرآن كلام هذا المؤمن ليؤكّد تحقّق النعيم له في يوم البعث جزاء إيمانه.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب على تلك القصة يؤكّد قدرته تعالى على البعث: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾، لاحظ أن السياق يستدلّ على قدرة الله على البعث بعرض بعض مظاهر كمال قدرته، فهو الذي يحيي الأرض بالغيث بعد موتها، ويخرج منها الحَبّ ويجعل فيها الجنات، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وانظر كيف نفت الآية قبل الأخيرة القدرة عن البشر، ثم أثبتت الآية الأخيرة القدرة التامة لله وحده، وقد ذكر السياق من مظاهر كمال قدرة الله تعالى آية الليل والنهار، وآية الشمس والقمر، وحمل ذرية آدم في الفُلك المشحون، وكلّها تؤكّد قدرته تعالى على البعث وتنزيهه عن النقائص كما لا يخفى.

ولكي يكتمل التأكيد على إثبات أن الله قادر على البعث، عرض السياق مصير المؤمنين والمكذّبين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

فأنت تلاحظ إذاً أن سياق السورة يؤكّد قدرة الله تعالى على البعث بمختلف الأساليب وشتى البراهين، فثبت بذلك أنه بيده ملكوت كل شيء، وأنه سبحانه منزّه عن النقائص. وهذا هو المحور الذي دلّ عليه الحرفان ﴿يسٓ﴾ كما تقدّم.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله للاستدلال بها على قدرته تعالى على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾، ولاحظ كلمة ﴿أَيْدِينَآ﴾ المتفقة مع حرف الياء أول السورة، وكثرة التعبير عن الله عزّ وجلّ بضمير العظمة، لزيادة التأكيد على المحور المذكور.

وأكّدت الخاتمة قدرة الله على البعث بدليل ماديّ محسوس لا يمكن للإنسان إنكاره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بحرفي الياء والسين المشيرين إلى أن الله بيده القدرة المطلقة وهو سبحانه منزّه عن النقص، ختمت بذكر بعض مظاهر قدرته للتأكيد على أنه قادر على بعث الخلق للحساب: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، ولاحظ عبارة ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ المتفقة مع حرفي الياء والسين أول السورة، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه الحرفان اللذان سمّيت السورة بهما أبلغ الدلالة.

سورة يس

سورة إثبات أن الله بيده ملكوت كل شيء، وأنه سبحانه منزه عن النقائص، وأدل ما في السورة على ذلك بيان قدرته على البعث والإحياء

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدّمة التي تبيّن أن مَن بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه منزه عن النقائص، هو مَن أرسل النبيَّ ﷺ:

■ افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾، وكأنه قال: وحقّ من بيده كل شيء وهو سبحانه منزّه عن النقص، وحقّ القرآن الحكيم، إنك يا محمد لمن المرسلين.

■ وقد أكّدت المقدّمة كمال قدرة الله تعالى وتنزيهه عن النقص من خلال بيان قدرته على بعث الأموات لمجازاتهم بأعمالهم التي حفظها لهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٢٧)

قصة أصحاب القرية التي تثبت أن الرسل هداية للناس وتثبت القدرة الإلهية على البعث:

■ أكّد قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ما جاء به الرسل الثلاثة في بيان قدرة الله على البعث: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢﴾.

■ وكذلك بيّن السياق مصير هذا المؤمن المؤكّد لقدرة الله على البعث والمجازاة: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٨-٧٦)

تعقيب على القصة يؤكّد أن الله بيده كل شيء، وهو قادر على البعث بدليل عرض مصير المؤمنين ومصير الكافرين في يوم القيامة:

- بيّن التعقيب قدرة الله على إهلاك القرون المكذّبة السابقة، وقدرتهم على بعثهم للحساب: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.
- وبيّن أن الله الذي أحيا الأرض الميتة وأخرج منها الحَبّ، وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّر فيها من العيون، كذلك هو قادر على إحياء الموتى.
- وذكر السياق من مظاهر كمال قدرته تعالى آية الليل والنهار، والشمس والقمر، وحمل ذرية آدم في الفُلْك المشحون، كل ذلك يثبت أن الله بيده كل شيء وأنه سبحانه منزّه عن النقائص.
- ومما يؤكّد قدرته تعالى على البعث عرض مصير المؤمنين يوم القيامة: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.
- وكذلك عرض مصير المكذّبين: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٧٧-٨٣)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله للاستدلال بها على قدرته على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.
- وأكّدت قدرة الله على البعث بدليل ماديّ محسوس، لا يمكن للإنسان إنكاره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بحرفي الياء والسين المشِيْرَين إلى أن الله بيده القدرة المطلقة وأنه سبحانه منزّه عن النقائص، ختمت بذكر المقصد ذاته: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

سورة الصافات

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «صفّ: الصاد والفاء يدلّ على أصل واحد، وهو استواءٌ في الشيء وتساوٍ بين شيئين في المقرّ»[١]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «قيل في ﴿الصافات﴾ و﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾.. أنهم مصطفّون في السماء يسبّحون الله تعالى، وذلك لأن لهم مراتبَ يقومون عليها صفوفاً كما يصطفّ المصلّون»[٢]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حالة الملائكة الكرام، إذ هم يصطفّون بانتظام وطاعة ترقّباً لأمر الله إليهم، أو أن تكون الإشارة إلى حالتهم في الاصطفاف للصلاة والتسبيح، وصيغة اسم الفاعل ﴿الصافات﴾ وتأكيد هذه الحالة بالمصدر ﴿صفاً﴾، دليل على توحّد القصد وكمال الطاعة والانضباط، فكل منهم قد علم مقامه الذي يصفّ فيه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة الكريمة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها نزلت تستهدف بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله، وبخاصة ما كان يتصوره المشركون من ادّعاء نَسَب بين الله تعالى وبين الجنّ، وزعمهم أن هذا النسب أنتج الملائكة وهم إناث، ومن ثَمَّ اتخذوهم آلهة، ففي تسمية هذه السورة بالصافات نفي لإلهية الملائكة، ونفي لادّعاء المشركين أنهم بنات الله، بل هم عباد مطيعون له سبحانه[٣].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٥٦٢.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٨، ص ٢٥٢. بتصرف.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ١٩١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٢٨٩، وقطب، **في ظلال**=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض الصفات الحقيقية للملائكة والجنّ التي تنفي الإلهية عنهم، وبيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى التي تثبت توحيد الإلهية له وحده سبحانه، ولما كان وصف الملائكة بالصافات أدلّ ما في السورة على توحيد الإلهية لله تعالى وكمال قدرته ونفي الإلهية عن الملائكة كونهم عباداً مطيعين لله، سمّيت السورة بهذا الوصف ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة نفي الإلهية عن الملائكة والجنّ وإثباتها لله الواحد من خلال بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى أربعة موضوعات: الأول: مقدّمة داعية إلى التوحيد من خلال ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، والثاني: بيان موقف الناس من موضوع يوم القيامة ومصيرهم فيه، فيوم القيامة هو الحقيقة الثانية في الإيمان بعد التوحيد والثالث: عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، والرابع: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

= **القرآن**، ج ٥، ص ٢٩٨٠- ٢٩٨٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٣، ص ٨١، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٣٤١و ٣٤٢. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٣٤٥، ود. محمد البهي، تفسير سورة الصافات، ص ٥- ٩. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، وبيان موقف الناس من يوم القيامة: ١١- ٧٤، والعرض القصصي: ٧٥- ١٤٨، والخاتمة: ١٤٩- ١٨٢. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدّة أمور تثبت المحور المذكور ودلالة اسمها عليه، وتفصيل ذلك: أولاً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «صفت»، فقد ذكرت ثلاث مرات وهي جميعها متعلقة بالملائكة: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾: ١، و ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾: ١٦٥، ثانياً: هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «زجر» فقد ذكرت ثلاث مرات، وهي متعلقة بالملائكة أيضاً: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾: ٢، و ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾: ١٩، وذلك حين ينفخ الملك في الصور، ثالثاً: هي أكثر سورة ذكرت فيها لفظة «المخلَصين» الدالة على التوحيد الخالص: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: ٤٠، ٧٤، ١٢٨، ١٦٠، و ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: ١٦٩، رابعاً: لم يتكرر جمع التسبيح مع عبارة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلا في هذه السورة: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ١٥٩، و ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ١٨٠، بينما ذكر التسبيح =

أولاً: جاء في المقدّمة وصف بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وهذه المظاهر تنفي الإلهية المزعومة للملائكة أو الجنّ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾، ولاحظ ذكر بعض مهامّ وصفات الملائكة، فاصطفافهم دليل على أنهم عباد مطيعون لله تعالى يترقّبون أمره، ووحدة صفّهم دليل وحدة هدفهم، وهم يزجرون الخارجين عن طاعة الله تعالى إما وقت الموت، أو يوم القيامة، وهم ذاكرون لله لا يغفلون عن ذكره، إن بيان صفات الملائكة هذه تطلعنا على كمال قدرة الله تعالى الذي جعل لملائكته هذه الصفات، وقد أكّد ذلك أن جواب القَسَم هو حقيقة أن الله هو الإله الواحد.

ولاحظ بيان أن الله تعالى ربّ السماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق، ولاحظ بيان حفظ الله تعالى السماء من أن يصلها الجِنّ وأن يستمعوا لأخبارها. فالمقدّمة إذاً كما ترى تنفي الإلهية المزعومة للملائكة أو الجنّ، وتثبتها لله تعالى القادر. وقد دلّ على هذا المحور وصفُ الملائكة بالصافات.

ثانياً: وبعد إثبات قضية التوحيد وهي القضية الأكبر في الإيمان، انتقل السياق إلى ما

= مع هذه العبارة مرة واحدة في كل من السور التالية: الأنعام: ١٠٠، الأنبياء: ٢٢، المؤمنون: ٩١، الزخرف: ٨٢، خامساً: لم يذكر اسم الفاعل مع التشديد «مسبِّح» إلا في هذه السورة، وقد ذكر مرتين، أحدهما متعلقة بيونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾: ١٤٣، والثانية متعلقة بالملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: ١٦٦، سادساً: لم يوصف قلب إبراهيم عليه السلام بـ «قلب سليم» الدال على كمال إخلاصه في توحيده إلا هنا: ٨٤، سابعاً: هي من أكثر السور التي ذكرت فيها لفظة «مُحضر» بصيغة اسم المفعول، فقد ذكرت فيها ثلاث مرات لكنها متعلقة بالإنس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: ١٢٧، و ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: ٥٧، والجنّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: ١٥٨، ومعلوم أن نائب الفاعل لكلمة «محضر» في هذه المواقع الثلاث عائد على الملائكة، وثامناً: لم يوصف من يحاول استراق السمع من الجنّ بـ «الشيطان المارد» إلا هنا: ٧، ولم توصف شجرة الزقوم بـ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ إلاهنا: ٦٥، وتاسعاً: ذكرت فيها كلمة «شجرة» ثلاث مرات لكنها متعلقة بشجرتين مختلفتين: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾: ٦٢، ٦٤، و﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: ١٤٦، وسياق ذكر الشجرات الثلاث يدل على كمال قدرة الله في الدنيا والآخرة، بينما ذكرت لفظة «شجرة» في سورة الأعراف أربع مرات، وكلها متعلقة بذات الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

يتعلّق بالقضية الثانية وهي الإيمان باليوم الآخر، فقد عرض السياق موقف الكافرين والمؤمنين بهذا اليوم، وبيّن مصير الفريقَيْن يوم القيامة، وقد ابتدأ السياق بموقف الكافرين لأن ذكرهم أنسب إلى ما سبق من إشراكهم الجنّ والملائكة مع الله تعالى في العبادة: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولاحظ وصف النفخة في الصور بالزجرة، ليتلاءم ذلك مع وصف الملائكة بالزاجرات، ويتلاءم ذلك أيضاً مع أمر الملائكة بحشر الذين ظلموا وأزواجهم، وأن يهدوهم إلى صراط الجحيم، وأن يوقِفوهم إنهم مسؤولون. وذلك كلّه فيه بيان طاعة الملائكة لأوامر الله عزّ وجلّ، ونفي الإلهية عنهم، وفيه بيان لكمال قدرة الله في الدنيا والآخرة كما لا يخفى.

وذكر السياق بيان أن الذي قادهم إلى مصيرهم هذا إنما هو الشرك بالله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

وانتقل السياق إلى بيان مصير الفريق الثاني، فريق المؤمنين: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، ولاحظ أن التفصيل في عرض ما أكرمهم الله به في الجنات أدلّ على بيان كمال قدرة الله عزّ وجلّ، وقبل الانتقال إلى العرض القصصي، أعاد السياق التأكيد على بيان مصير دعاة الشرك وأتباعهم في النار: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وأعتقد أن وصف طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين مناسب للردّ على ما ادّعاه المشركون من النَّسَب بين الجِنَّة وبين الله تعالى، ولا يخفى أن التفصيل في بيان مصيرهم أدلّ على قدرة الله عزّ وجلّ.

فيلاحظ إذاً أن التركيز في السياق على نفي ادّعاء إلهية أيّ من الملائكة أو الجِنّة، بل المستحقّ للعبودية هو الله الإله الواحد ذو القدرة المطلقة، وهذا هو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة، حينما زعم المشركون أن الملائكة تستحقّ العبادة لنسب بينها وبين الله تعالى.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد هذا المحور من خلال عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وتمام حكمته في اصطفاء من يشاء من الرسل، فاصطفاؤه للرسل لا يجعلهم آلهة يستحقّون العبادة، وكذلك الحال مع الملائكة التي اصطفاها لعبادته، وقد كانت أول قصةٍ قصةُ نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾، ولاحظ بيان قدرة الله تعالى في إنجاء نوح وأهله من الطوفان، وفي إغراق الآخرين، ولاحظ بيان اصطفاء نوح عليه السلام، أعتقد أن السياق ذكر ذلك ليثبت أن الاصطفاء من الله لا يعطي حقّ العبادة، فكما أن نوحاً عليه السلام هو مجرّد عبدٍ اصطفاه الله لأداء الرسالة، فكذلك الملائكة الكرام اصطفاهم الله لمهامّ خاصة بهم، قد ذكرت المقدّمة بعضها، وسيأتي ذكر بعضها أيضاً في الخاتمة.

وأما القصة الثانية فهي قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، ولاحظ وصفه عليه السلام بصاحب القلب السليم، ليدلّ ذلك على أنه قلب خالٍ من الشرك، ثم فصّل السياق في بيان إبطال إبراهيم إلهية أصنام قومه المزعومة، فقد كسّر آلهتهم وأراد قومه إلقاءه في الجحيم، وهنا برزت قدرة الله مرة أخرى فأنجاه الله وجعلهم الأسفلين.

ومن مظاهر كمال قدرة الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام بيان أن الله تعالى وهب له إسماعيل وإسحاق وجعلهما من الأنبياء، ومن مظاهر كمال طاعة إبراهيم لربّه أنه شرع في الاستجابة للرؤيا، فبادر هو وابنه إسماعيل إلى تنفيذها، وفداه الله بذبح عظيم، وأعتقد أن ذكر هذا الجانب من قصتهما عليهما السلام يتلاءم مع ما بيّنته مقدّمة السورة من طاعة الملائكة المطلقة.

ومن اللطيف أن القصة الثالثة كانت قصة موسى وهارون عليهما السلام، فما من شَكّ في أن ذكرهما يبرز كمال قدرة الله تعالى في إنجائهما وقومهما من الغرق، وإغراق فرعون وقومه، ثم إنها قصة مترابطة مع قصة نوح عليه السلام الذي نجّاه الله من الغرق أيضاً، وقد بيّن السياق أن الله اصطفاهما لأنهما من المحسنين.

وقصة إلياس عليه السلام تبرز أن عبادة قومه لبعل المزعوم إنما هي عبادة باطلة، لكن القوم كذبوا إلياس عليه السلام فهم محضرون للعذاب كما سيُحضر الداعون للشرك وأتباعهم. وقد بيّن السياق أن الله اصطفاه؛ لأنه من المحسنين أيضاً.

وتبرز قدرة الله تعالى أيضاً في قصة لوط عليه السلام مع قومه، فقد أنجاه الله وأهله إلا امرأته، فقد هلكت مع قومها، ومن اللطيف أيضاً ذكر قصة يونس التي تبرز قدرة الله في حفظه في بطن الحوت، وإنجائه من الغرق ونبذه إلى البرّ، وهذا مترابط مع قصة نوح وموسى عليهما السلام، وقد أنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى استعاد عافيته، وقد ذكر السياق قومه الذين آمنوا حين رجوعه إليهم وقد زاد عددهم عن المئة ألف، فمتّعهم الله إلى حين.

فالملاحظ إذاً أن عرض هذه القصص في هذه السورة يعطي دلالتين رئيسيتين: أحدهما بيان أن الله تعالى وحده المستحقّ للعبادة لأنه ذو القدرة المطلقة، والثانية أن اصطفاء الله لهؤلاء الرسل الكرام لا يعني استحقاقهم للعبودية، وكذلك الملائكة الذين اصطفاهم الله لا يعني ذلك استحقاقهم للعبودية. وبذلك يبرز ترابط هذه القصص مع دلالات اسم السورة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أعاد السياق دحض شبهة إشراك الملائكة في العبادة: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، فبعد أن بيّنت المقدّمة بعض مهامّ الملائكة الكرام وبعض صفاتهم، ناسب أن يذكّر في الخاتمة بإبطال إلهيتهم أو الزعم بأن بينهم وبين الله تعالى نسباً، وقد أعاد السياق في الخاتمة أيضاً دحض شبهة إشراك الجنّ في الإلهية أو النسب مع الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقد أعاد السياق ذكر بعض صفات الملائكة، وبذلك ينتفي أيّ ادّعاء لإلهيتهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾، ولاحظ التناسق بين المقدّمة والخاتمة في اشتراكهما في الصفات المذكورة للملائكة الكرام.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض صفات الملائكة الكرام التي ينتفي معها كونهم آلهة أو أن بينهم وبين الله تعالى نسباً، وكان من هذه الصفات زجرهم للعاصين، فتحقّق بذلك التوحيد الخالص لله عزّ وجلّ، ختمت السورة بذكر مهمّة الملائكة بإنزال العذاب على المشركين المكذّبين، وببيان التوحيد الخالص لله عزّ وجلّ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ۝١٧٩ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى التوحيد الخالص لله عزّ وجلّ، من خلال بيان بعض الصفات الحقيقية للملائكة والجنّ، وبيان بعض مظاهر كمال قدرة الله عزّ وجلّ، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الصافات

سورة نفي الإلهية عن الملائكة والجن وإثباتها لله الواحد من خلال بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تدعو إلى التوحيد من خلال ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وتذكر بعض الصفات الحقيقية للملائكة والجنّ:

- افتتحت السورة بالقسم بالملائكة الصافات صفاً، والزاجرات زجراً، والتاليات ذكراً، إن إله الخلق لواحد وهو ربّ السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق.
- ووصف الملائكة بالصافات يدل على كمال انتظامهم وطاعتهم وترقّبهم لأمر الله تعالى، وفي ذلك نفي لإلهيتهم.
- وبيّنت المقدّمة أن الله هو الذي زيّن السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظها من كل شيطان مارد، وبذلك تنتفي إلهية الجنّ لقصور قدرتهم.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٧٤)

بيان موقف الناس من موضوع يوم القيامة ومصيرهم فيه، فيوم القيامة هو الحقيقة الثانية في الإيمان بعد التوحيد:

- ظهرت مظاهر قدرة الله تعالى في اليوم الآخر من خلال الردّ على منكري الآخرة، إذ سيبعثهم الله بزجرة واحدة: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.
- وبيّن السياق مصير المشركين مع الله آلهة أخرى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.
- وبيّن السياق مصير المؤمنين الموحّدين المخلَصين: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾.
- وأعاد السياق عرض مصير المشركين مرة أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٧٥-١٤٨)

عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى:

- ظهرت قدرة الله في إنجاء نوح عليه السلام وأهله من الكرب العظيم، وإغراق الآخرين.
- وظهرت قدرته تعالى في جَعْل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وفي وَهْب الله له إسماعيل وإسحاق وجعلهما من الأنبياء عليهم السلام.
- وبرزت قدرته تعالى في جعل قوم إلياس عليه السلام المكذّبين من المُحضَرين للعذاب يوم القيامة.
- وبرزت في إنجاء يونس عليه السلام من بطن الحوت، وإنبات شجرة اليقطين عليه.
- هذه القصص تبرز مظاهر كمال قدرة وتثبت الإلهية لله وحده، وتدل على أن اصطفاء الله لهؤلاء الرسل لا يعني استحقاقهم للعبودية، وكذلك اصطفاء الله للملائكة لا يعني استحقاقهم للعبودية.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٤٩-١٨٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت دحض فرية إشراك الملائكة مع الله تعالى في العبادة: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.
- وأعادت دحض فرية إشراك الجنّة مع الله في العبادة: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.
- وأعادت ذكر بعض الصفات الحقيقية للملائكة، والتي تنفي عنهم الإلهية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بذكر بعض الصفات الحقيقية للملائكة والتي تنفي عنهم الإلهية، وكان منهم أنهم يزجرون العاصين، ختمت بذكر مهمّة للملائكة وهي إنزال العذاب بالمكذّبين، وبإثبات الإلهية لله عزّ وجلّ وحده: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

سورة ص

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى أحد حروف اللغة العربية المذكور أولها وهو حرف الصاد، وقد اختلف المفسّرون في المعنى المقصود من هذا الحرف، فمنهم من اعتبره إشارة إلى صدق وعد الله، أو إشارة إلى صدق النبيّ ﷺ، ومنهم من اعتبر أنه يشير إلى إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الحروف، أقول: بالإضافة إلى اعتبار هذا الحرف مشيراً إلى إعجاز القرآن وبعد تأمّلي لموضوعات السورة، وجدت أن حرف الصاد يشير إلى موضوع الصبر، وهو محور مشترك بين هذه الموضوعات، وسأذكر بيان ذلك إن شاء الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تعالج قضية التوحيد، وقضية الوحي إلى النبيّ ﷺ، وقضية الحساب في الآخرة، وفيها مواساة للرسول ﷺ وللمؤمنين ودعوتهم إلى الصبر، فقد ذُكر فيها من الأنبياء من ابتلوا وصبروا حتى سلّمهم الله، كما وإن فيها تهديداً وتوبيخاً للمشركين، وفيها بيان أن أولياء الله هم الغالبون وإن رُئي أنهم ضعفاء، فإن كان حرف الصاد يشير إلى القَسَم

بصدق وعد الله أو صدق النبيّ ﷺ، فالعلاقة بينه وبين ما ذُكر واضحة، وإن كان مشيراً إلى إعجاز القرآن فهو يدلّ على أن من جعل القرآن معجزاً، قادر على نصرة نبيّه ﷺ[1].

ولكنني أرى أن الصبر هو المحور الذي يجمع موضوعات السورة، فيمكن أن ينبني على ما سبق بالقول بأن محور السورة هو: تربية النبيّ ﷺ على الصبر والتذكير بالقرآن؛ لأنه على الحقّ، وذلك من خلال عرض نماذج لصبر الأنبياء على الابتلاء مع بيان حسن عاقبة صبرهم، ومن خلال بيان سوء عاقبة مَن يصبر على الباطل. ولما كان حرف الصاد يشير إلى الصبر، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تربية النبيّ ﷺ على الصبر وعلى التذكير بالقرآن؛ لأنه على الحقّ، كما يصبر قومه على الباطل**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفي ما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولاً: مقدّمة تحوي تربية للنبيّ ﷺ على الصبر والتذكير بالقرآن في مقابل صبر المشركين على ضلالهم، ثانياً: عرض قصصي يبرز تربية الله تعالى للأنبياء على الصبر على الابتلاء مع بيان جزاء صبرهم، ثالثاً: تعقيب

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٠١، وقد اعتبر حرف الصاد مشيراً إلى صدق النبيّ ﷺ، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٣٥٦، وقد اعتبره مشيراً إلى صدق وعد الله أو صدق النبيّ ﷺ، واستشهد على ذلك بما لحرف الصاد من صفات الهمس والصفير والاستعلاء، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٣٠٠٤- ٣٠٠٧، واعتبره مشيراً إلى إعجاز القرآن، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٣، ص ٢٠٢، ورأيه كرأي سيّد، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٤٣٧، ورأيهم كرأيهما. وقد ذكر د. أحمد نوفل في كتابه **تفسير سورة يوسف**، ص ٢٢٤، أن السور التي يكون حرف الصاد من حروف فواتحها يكثر فيها القصص والصبر والخصومة. وانظر أيضاً كتابه **تفسير سورة القصص**، ص ٢٢، ٢٣. وعطية زاهدة، **فواتح السور والحروف السبعة**، ص ٦٠- ٦٢، وقد اعتبر (ص) مشيراً إما إلى الصحف الأولى، لذكر القرآن بعد هذا الحرف، ولقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، وإما مشيراً إلى الصاخة لحديث هذه السورة عن بعض مشاهد ذلك اليوم. ود. أحمد سليمان الرقب، سورة (ص)، ص ٣٠٤- ٣٢٧، وقد رجّح أن (ص) من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

يبيّن جزاء الصابرين على الحقّ والصابرين على الباطل يوم القيامة، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة أمر للنبيّ ﷺ بالصبر على التذكير بالقرآن، وذلك لأنه على الحقّ، بينما المشركون يصبرون على باطلهم: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٧، والعرض القصصي: ١٧- ٤٨، والتعقيب: ٤٩- ٦٤، والخاتمة: ٦٥- ٨٨. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: ذكرت فيها مشتقات الجذر «صبر» ثلاث مرات: مرة في حقّ النبيّ ﷺ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: ١٧، ومنها في حقّ المشركين: ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾: ٦، ولم يستخدم الفعل ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ على الباطل في القرآن إلا هنا، ومرة في حقّ أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾: ٤٤، ولم تذكر كلمة ﴿صَابِرٗا﴾ بالنصب في القرآن إلا هنا وفي سورة الكهف: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾: ٦٩. ثانياً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «خصم»، وذلك أربع مرات: اثنتان في سياق تربية داود عليه السلام على الصبر: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾، ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: ٢١، ٢٢، وذكرت مرة حين لا ينفع الصبر: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾: ٦٤، ومرة في سياق تربية النبيّ ﷺ على الصبر على فريات المكذّبين: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾: ٦٩، ثالثاً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها كلمة «أواب» ولا تخفى علاقتها بالصبر على دوام الإياب إلى الله، وذلك أربع مرات: مرتين في حقّ داود عليه السلام؛ أولهما لمدحه والثانية لبيان جزاء صبره: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: ١٧، ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾: ١٩، ومرة في حقّ سليمان عليه السلام: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: ٣٠، ومرة في حق أيوب عليه السلام وبالعبارة ذاتها: ٤٤، رابعاً: هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «مآب» لبيان جزاء الصبر على الحقّ أو الباطل، مرتان في حقّ داود ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾: ٢٥، ومرة في حقّ ابنه سليمان وبالعبارة ذاتها: ٤٠، ومرة لبيان جزاء الصابرين على الحقّ: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾: ٣٠، ومرة لبيان جزاء الصابرين على الباطل: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾: ٤٤، خامساً: هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «أناب» الدالة على الصبر على التوبة، وذلك مرتان، مرة في حقّ داود: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾: ٢٤، ومرة في حقّ ابنه سليمان: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾: ٣٤، سادساً: هي أكثر سورة بعد سورة مريم ذكر فيها فعل الأمر «اذكر» وذلك أربع مرات: ١٧، ٤١، ٤٥، ٤٨ وذلك يؤكد الصبر على التذكير بالقرآن، وفي سورة مريم ذكر هذا الفعل خمس مرات، كما وإنها أكثر سورة بعد سورة الأنبياء ذكر فيها المصدر «ذِكْر» وذلك ستّ مرات: ١، ٨ (مرتان)، ٣٢، ٤٩، ٨٧، وبإمكانك أن تضيف كلمة «ذِكْرَى» المذكورة مرتين: ٤٣، ٤٦، وكلها تؤكّد أن القرآن ذكر للبشر والتذكير بالقرآن يقوم على الصبر، بينما سورة الأنبياء ذكر فيها المصدر «ذكر» ثماني مرات، وذكرت كلمة «ذكرى» فيها مرة واحدة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾، ولاحظ افتتاح السورة بالحرف (ص)، وكأنه يقول: اصبر يا رسول الله صبراً وذكّر بالقرآن الذي أُقسم أنه ذو ذكر، وأَمْر النبيّ ﷺ بالصبر والتذكير يتلاءم مع ما بيّنته المقدّمة من صبر المشركين على ضلالهم، فعلى النبيّ ﷺ أن يصبر على الحقّ كما يصبر قومه على الباطل.

وقد نقضت المقدّمة باطلهم ببيان أن الله تعالى بيده خزائن الرحمة، كما وأنه الذي أهلك من كذب قبلهم من الأقوام، وفي ذلك تأكيد على أن القرآن ذكر للناس، وقد أعادت المقدّمة أمر النبيّ ﷺ بالصبر في دعوته لقومه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي لبعض الأنبياء ابتلاهم الله من أجل تربيتهم على الصبر، وقد بيّن السياق حسن عاقبة صبرهم ليكون في ذلك تربية للنبيّ ﷺ على الصبر، وكان أول هؤلاء الأنبياء ذكراً داود عليه السلام ذا الأيد، ووصفه بهذا الوصف يدل على مدى صبره حتى استحقّ هذا الوصف، إذ ابتلاه الله برجلين تسورا محرابه فجأة وعرض أحدهما خصومته أمام داود، فحكم داود لصالحه قبل أن يستمع لقول الآخر، حينها أدرك داود أن هذه فتنة من الله ليربّيه على الصبر، فخرَّ راكعاً وأناب: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾، ولاحظ بيان عاقبة تربيته على الصبر، إذ جعله الله خليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحقّ.

وكما بيّنت هذه القصة أن الحكمة تقتضي أن لا يستوي الحقّ والباطل، ذكر السياق بعدها أن حكمة الله تقتضي أن لا يستوي المؤمن والفاجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾، ولاحظ وصف المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات حتى وصفوا بالتقوى، وما ذلك إلا لصبرهم على الحقّ، ووصف المفسدين في الأرض بالفجّار، وما ذلك إلا لصبرهم

على الباطل، ولاحظ التأكيد على أن القرآن ذكرى من أجل أن يصبر أولو الألباب على الحقّ كما يصبر الفجّار على الباطل.

ثم انتقل السياق إلى القصة الثانية وهي قصة سليمان عليه السلام، وقد عرض السياق أنه تعرّض لفتنتين من الله من أجل أن يربّيه على الصبر: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، فأول فتنة أن حُبّ الخير شغله عن ذكر الله، والفتنة الثانية أن الله ألقى على كرسيه جسداً ليبتليه، وهاتان الفتنتان من أجل تربيته على الصبر على ذكر الله كما هو ظاهر، وقد بيّن السياق عاقبة صبره إذ مكّن الله له في الأرض وسخّر له الريح والشياطين، وإن له عند الله لزلفى وحُسْن مآب.

ثم انتقل السياق إلى قصة أيوب عليه السلام، إذ ابتُلي بمسّ الشيطان له بنُصْب وعذاب، فصبر حتى عافاه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم رحمة منه تعالى، وذلك جزاء صبره عليه السلام، وأعقب السياق قصة أيوب بذكر بعض الأنبياء ووصفهم بأولي الأيدي والأبصار: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾، إن وصفهم بأولي الأيدي والأبصار، وبيان كونهم من المصطفين الأخيار يطلعنا على مدى الصبر الذي كانوا عليه حتى استحقّوا هذه الأوصاف الحميدة.

فهذا العرض القصصي كما ترى يعرض تربية الله تعالى لأنبيائه على الصبر حتى تتحقّق لهم العاقبة الحسنة، وفي ذلك تربية للنبيّ ﷺ على الصبر على الحقّ والتذكير بالقرآن، وبشارة له بحُسْن العاقبة. وهذا منسجم مع اسم السورة (ص) الدال على الصبر.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى بيان مصير الصابرين على الحقّ والصابرين على الباطل يوم القيامة: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾، ووصفهم بالمتقين يؤكّد صبرهم على الحقّ وعلى العمل

الصالح حتى استحقّوا هذا الوصف السامي. وانظر مصير الصابرين على الباطل: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾، فوصفهم بالطاغين يؤكّد أنهم صبروا على الباطل حتى استحقّوا مثل هذا الوصف، أضف إلى ذلك أن السياق قد بيّن أنهم كانوا متكبّرين أيضاً، إذ هم لا يرون معهم في النار الرجالَ المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، وما فائدة التخاصم حينها، فهم سيبقون في النار، سواء أصبروا أم لم يصبروا، وبيان تكبّرهم متلائم مع ما سيأتي في الخاتمة التي تبرز تكبّر إبليس عن أمر ربّه.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت دعوة النبيّ ﷺ إلى الصبر على تذكير قومه بالقرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾.

وقد بيّنت الخاتمة أن الذي دفع إبليس إلى عدم الاستجابة لأمر الله إنما هو تكبّره، وحين حُكم عليه باللعنة إلى يوم الدين، أصرَّ على الصبر على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾، ولاحظ وصف المؤمنين بالمخلَصين، وهو وصف يطلعك على مدى صبرهم على كيد إبليس. وذكر صبر إبليس على الإغواء بالباطل متلائم مع ما بيّنته المقدّمة من صبر المشركين على باطلهم، ومع ما بيّنت السورة من مصير الصابرين على الباطل.

وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالصبر على الحقّ والتذكير بالقرآن، ختمت بدعوة النبيّ ﷺ بالأمر ذاته: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾، فما عليه ﷺ إلا أن يصبر على تذكير قومه بهذا القرآن، وإن يصبر المكذّبون ـ وليس لهم إلا الصبر ـ فسيعلمون مصير من صبر على الحقّ ومصير من صبر على الباطل. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.

سورة ص

سورة تربية النبيّ ﷺ على الصبر على التذكير بالقرآن لأنه على الحق، كما يصبر قومه على الباطل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٧)

المقدمة التي تربّي النبيّ ﷺ على الصبر والتذكير بالقرآن، في مقابل صبر المشركين على ضلالهم:

- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، وكأنها تقول: اصبر يا محمد وذكّر بالقرآن الذي أُقْسِم أنه ذو ذِكْر.
- وبيّنت صبر المشركين على ضلالهم: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.
- وأعادت أمر النبيّ ﷺ بالصبر، مع المواساة بما سيأتي من القصص الدالة على صبر الأنبياء: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٤٨)

عرض قصصي يبرز تربية الله للأنبياء على الصبر على الابتلاء، ويبيّن جزاء صبرهم ليكون في ذلك تربية للنبيّ ﷺ على الصبر:

- عرض السياق قصة داود عليه السلام مع الرجلَيْن اللذين تسوَّرا عليه المحراب، فحكم لأحدهما قبل سماع حجة الثاني، حينها أدرك أن هذه فتنة من الله تعالى ليربّيه على الصبر: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وقد كانت عاقبة صبره أن جعله الله خليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحق.
- وعرض السياق قصة سليمان عليه السلام حين شغله حُبّ الخير عن ذكر الله تعالى، وحين ألقى الله على كرسيه جسداً، وقد كانت عاقبة صبره أن سَخَّر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بنّاء وغوّاص.
- وعرض قصة صبر أيوب عليه السلام على مسِّ الشيطان له بنُصْب وعذاب، فعافاه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم رحمة من الله تعالى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٩-٦٤)

تعقيب على القصص يبيّن جزاء الصابرين على الحقّ وجزاء الصابرين على الباطل يوم القيامة:

- فقد عرض السياق مصير المتقين الصابرين على العمل الصالح: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.
- وعرض مصير الطاغين الصابرين على الباطل: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٦٥-٨٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت دعوة النبيّ ﷺ إلى الصبر على تذكير قومه بالقرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.
- وحذّرت من توعّد إبليس بالصبر على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالصبر على الحقّ والتذكير بالقرآن، ختمت بذات الأمر مع تهديد الكافرين الذين سيعلمون مصير صبرهم على الباطل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

سورة الزُّمَر

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «الزاي والميم والراء أصلان: أحدهما يدلّ على قلّة الشيء، والآخر جنس من الأصوات، فالأول: الزَّمَرُ: قلّة الشعر، والزَّمِر: قليل الشعر، والأصل الآخر: الزَّمر والزّمار، صوت النعامة، وأما الزُّمرة: فالجماعة، وهي مشتقّة من هذا، لأنها إذا اجتمعت كانت لها جَلَبةٌ وزمارٌ»[1]، وقد أكّد الإمام الأصفهاني ذلك فقال: «﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ جمع: زُمرة، وهي الجماعة القليلة»[2]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف سوقِ المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار يوم القيامة، فمعنى « زمراً » في حق الكافرين كما يقول الإمام الآلوسي: «جماعات أفواجاً متفرقة بعضها في إثر بعض مترتّبة حسب ترتّب طبقاتهم في الضلالة والشرارة»، وفي حقّ المؤمنين المتقين: «جماعات مرتّبة حسب ترتّب طبقاتهم في الفضل»[3]، فاسم السورة يؤكّد قدرة الله على البعث والحساب والجزاء يوم القيامة.

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ٤٦٠.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ٣٨٣.

(٣) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ج ١٢، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن تسميتها بـ «الزمر» يشير إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة، وأن مقصودها الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، وغالب على كل شيء، وعلى ذلك دلّت تسميتها بالزمر؛ لأنها إشارة إلى أنه أَنزلَ كُلًّا من المحشورين دارَه المُعدّة له بعد الإعذار في الإنذار، بعد أن بيّنت أحوالاً شتّى لأفواج متباينة من الخلق في الدنيا، قوبلت كل زمرة بأخرى، وبذلك تكون السورة تعالج قضية التوحيد وتطبعه في النفوس[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: الدعوة إلى التوحيد من خلال عرض مقابلات بين بعض أحوال المؤمنين الموحّدين في الدنيا، وبين بعض أحوال الكافرين المكذّبين فيها، وبيان جزاء الفريقين في الآخرة. ولما كان مشهد الزمر الذي يبيّن الإهانة والتحقير للكافرين المتكبّرين، في مقابل الترحيب والتكريم للمتقين العاملين أدلّ ما في السورة على مصير كلا الفريقين، سُمّيت السورة به ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة عرض المقابلات بين أحوال المؤمنين الموحدين، وبين المشركين المكذّبين في الدنيا، ومن ثَمَّ الجزاء المهين للمشركين في مقابل الجزاء الأكرم للمؤمنين يوم القيامة**.

والمتأمّل في سياق السورة يجد الترابط الوثيق بين اسم السورة «الزمر» ودلالاته، وبين مقدّمة السورة وخاتمتها، وما بين المقدّمة والخاتمة من المقابلات الثمان لأحوال المؤمنين والكافرين، وفيما يلي بيان ذلك[(٢)]:

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج٢، ص ٢١٠، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٤١٢، قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٣٠٣٣، ٣٠٣٤، وابن عاشور، ، **التحرير والتنوير**، ج ٢٣، ص ٣١١، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٤٧٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، ص ٣٥٦، وذكر أن في السورة ثلاث عشرة مقابلة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١ -٧، والخاتمة في مشهد الزمر: ٦٧ ـ ٧٥. وفيما بين المقدّمة والخاتمة ثمان مقابلات بين أحوال المؤمنين والكافرين ومصير الفريقين في الآخرة. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد=

أولاً: في مقدّمة السورة تجد مقابلة بين النبيّ ﷺ المأمور بالتوحيد الخالص لله، وبين حال المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دون الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾. وقد ذكرت المقدّمة من الأدلة الداعية إلى توحيد الله عزّ وجلّ أنه هو الذي خلق السماوات والأرض بالحقّ، وأنه يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل، وسخّر الشمس والقمر. وذِكْر هذه الأدلة في المقدّمة فيه تشنيع على المشركين، وفيه زيادة تثبيت للمؤمنين الموحّدين.

وفي المقدّمة مقابلةٌ ثانية بين حال المؤمنين المأمورين بالشكر لله، وبين حال الكافرين الجاحدين: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. وهاتان المقابلتان تبيّنان بعض أحوال زمر المؤمنين وبعض أحوال زمر الكافرين في الدنيا، الذين عرض مشهد «الزمر» مصيرَهما يوم القيامة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عدد من المقابلات بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، وغالباً ما كان يعقب على تلك المقابلات بذكر مصير الفريقين يوم القيامة، وذلك متناسق مع مشهد «الزمر» الذي يعرض حقيقة مصير الفريقين في ذلك اليوم ويؤكّدها أشدّ التأكيد:

= من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: أنها تميّزت بذكر مقابلات بين حال الفريقين على نحوٍ لم يتكرر في القرآن: أ) انظر قوله تعالى ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾: ٧، ب) وقوله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: ٨، وقريب منه في سورة الروم: ٣٣، ج) وقوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ ٩، د) وقوله ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾: ١٤، ١٥، هـ) وقوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾: ٢٩، ثانياً: وردت في هذه السورة عبارة ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿دِينِى﴾ في حقّ النبيّ ﷺ ثلاث مرات: ٢، ١١، ١٤، وانظر الآية: ٣ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ ولم ترد هاتان اللفظتان ﴿مُخْلِصًا﴾ و﴿ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ في سورة أخرى من القرآن، وهذا يؤكّد المحور المذكور. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

فالمقابلة الأولى بين الكافر الجاحد لنعمة ربّه، وبين المؤمن العابد الراجي لرحمة ربّه: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾. ولاحظ قوله تعالى عن الكافر: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، وعن المؤمن: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. فقد ذكرت هذه المقابلة مصير الفريقين يوم القيامة، وهي حقيقةٌ أكّدها مشهد «الزمر» الذي سمّيت السورة به.

والمقابلة الثانية بين النبيّ ﷺ المأمور بالتوحيد الخالص وأتباعه الموحِّدين المبشَّرين، وبين المشركين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾. وكما في المقابلة الأولى تجد التعقيب على المقابلة بذكر مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

والمقابلة الثالثة بين حال المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام وللقرآن، وبين الكافرين القاسية قلوبهم: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾. ولاحظ التعقيب بذكر المصير الأخروي للكافرين: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

والمقابلة الرابعة في المَثل الذي يوضّح حال الموحّدين وحال المشركين: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ

مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والمقابلة الخامسة بين حال الكافرين المكذِّبين، وبين المؤمنين الصادقين المصدِّقين: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾. ولاحظ التعبير في قوله تعالى عن مصير الكافرين: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، المتّسق مع التعبير عن مصير الكافرين في مشهد الزمر آخر السورة: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾، ولاحظ أيضاً التعبير في قوله تعالى عن المؤمنين المصدّقين: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾، المتّسق مع التعبير عنهم في مشهد الزمر آخر السورة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾. فأنت ترى أن مشهد الزمر يؤكّد كل ما في هذه المقابلات من خلال عرض مصير الفريقين يوم القيامة، فهو الاسم الأجدر للسورة.

والمقابلة السادسة بين المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، وبين النبيّ ﷺ الموحِّد: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾، ولاحظ أيضاً التعقيب بذكر مصير المشركين الظالمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

والمقابلة السابعة بين المؤمنين الراجين لرحمة ربّهم والمتّبعين ما أنزله إليهم قبل فوات الأوان: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا

تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾، وبين الكافرين المستكبرين الذين فاتهم الأوان: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

ولاحظ التعقيب بذكر مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾. ولاحظ تكرار السؤال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقد بيّنتُ تناسقه مع مشهد الزمر في المقابلة الخامسة، ولاحظ أيضاً قوله تعالى عن مصير المؤمنين: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، ولا يخفى تناسقه مع التعبير عن مصير المؤمنين في مشهد الزمر آخر السورة.

وأما المقابلة الثامنة فهي بين المشركين الجاهلين، وبين النبيّ ﷺ المأمور بالتوحيد، وبذلك يلتقي آخر السورة بأولها: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثالثاً: الخاتمة، وهي تحوي المقابلة التاسعة في مشهد سَوْق الكافرين إلى جهنم زمراً، و سوق المتقين إلى الجنة زمراً: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يقابله قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾. وهو يحوي تأكيداً لكل تلك المقابلات التي ذكرها السياق بين بعض أحوال المؤمنين الموحّدين

العاملين الراجين رحمة ربّهم، وبين بعض أحوال الكافرين المكذّبين المشركين المتكبّرين في الدنيا، وما أعقب تلك المقابلات من ذكر مصير الفريقين يوم القيامة. فكونُ مشهد الزمر هو الأطول والأكثر تأكيداً لتلك الحقائق التي عبّرت عنها المقابلات المذكورة في السورة بين أحوال الفريقين، فقد استحقّ بذلك أن تُسمّى السورة باسمه ليدلّ على المحور المذكور أبلغ الدلالة.



سورة الزمر

سورة عرض المقابلات بين أحوال المؤمنين الموحّدين، وأحوال المشركين المكذّبين في الدنيا، والمقابلة بين مصير الفريقين في الآخرة

الموضوع الأول (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي فيها مقابلتان بين أحوال الفريقين في الدنيا:

- افتتحت السورة بعرض مقابلة بين النبيّ ﷺ المأمور بالتوحيد الخالص لله عز وجل، وبين المشركين الذين اتخذوا من دون الله أرباباً يعبدونهم من دونه.
- وعرضت المقدّمة مقابلة ثانية بين حال المؤمنين المأمورين بشكر الله، وبين حال الكافرين الجاحدين.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٦٦)

عرضٌ لثماني مقابلات بين أحوال الفريقين مع بيان الجزاء الأخروي لكليهما في أغلب هذه المقابلات:

- المقابلة الأولى: بين الكافر والجاحد لنعمة ربّه، وبين المؤمن الراجي لرحمة ربّه.
- والمقابلة الثانية: بين النبيّ ﷺ وأتباعه المأمورين بالتوحيد الخالص والمبشّرين، وبين المشركين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.
- المقابلة الثالثة: بين المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام وبين الكافرين القاسية قلوبهم.
- المقابلة الرابعة: مَثَلٌ يشبه المشركين برجل فيه شركاء متشاكسون، ويُشبّه المؤمنين برجل سلماً لرجل.
- المقابلة الخامسة: بين حال الكافرين المكذّبين وبين حال المؤمنين الصادقين المُصدِّقين.
- المقابلة السادسة: بين المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، وبين النبيّ ﷺ الموحِّد.

■ المقابلة السابعة: بين المؤمنين الراجين رحمة ربّهم قبل فوات الأوان، وبين الكافرين المستكبرين الذين فاتهم الأوان.

■ المقابلة الثامنة: بين المشركين الجاهلين، وبين النبيّ ﷺ المأمور بالتوحيد.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٦٧-٧٥)

الخاتمة التي فيها مشهد الزمر الذي يعرض مصير الفريقين يوم القيامة:

■ إذ يُسَاق الكافرون إلى جهنم زمراً في مشهد مهين، حتى إذا وصلوها يلومهم الخزنة على عدم اتباعهم الأنبياء والمرسلين.

■ ويساق المؤمنون إلى الجنة زمراً في مشهد مكرّم مشرّف، إذ سيستقبلهم خزنة الجنة بالتسليم والترحاب، وبذلك تلتقي مقدّمة السورة مع خاتمتها.

سورة غافر

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الغين والفاء والراء: عُظْم بابه الستر . . . فالغفر: الستر»[١]، ويقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمَسه العذاب»[٢]، فوصف الله تعالى بـ «غافر الذنب» يدلّ على أنه سبحانه دائم الغفران للمستغفرين، وأنه لا يؤاخذهم بذنوبهم، يؤكّد هذا صيغة اسم الفاعل.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الدلالة على عزّة الله الكاملة وعلمه الشامل، من خلال بيان تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفَيْن، ثم إن السورة تعالج قضية الحقّ والباطل، قضية الإيمان والكفر، وقضية العلوّ في الأرض والتجبّر بغير الحقّ، وفي ثنايا ذلك تعرض موقف المؤمنين ونصر الله لهم، فجوُّ السورة جَوّ المعركة بين الحقّ والباطل. وتسميتها بـ «غافر» تدّل على ذلك، فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء ولمن يشاء، ونصر المؤمنين وإهلاك

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٠١. بتصرف.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٠٩.

الكافرين، إلا كامل العزّة، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمّى غافراً إلا كامل العلم[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن صدّق وآمن في الدنيا والآخرة، وهو كذلك شديد العقاب ذو الطول في الدنيا والآخرة لمن كفر وكذب، ولما كان وصف الله تعالى بـ «غافر» أدعى للإيمان ويرغب به، اختير هذا الوصف ليكون اسماً للسورة وليعبِّر عن المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن الله غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب وذو الطول لمن كفر في الدنيا والآخرة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها مقدّمة تؤكّد أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب ذو الطول لمن كفر، وثانيها: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمن كفر يوم القيامة، مع عرض قصصي يؤكّد ذلك، وثالثها: تعقيب يدعو إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية والقرآنية مع التحذير من عاقبة التكذيب، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ٩٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج٦، ص ٤٨٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٣٠٦٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٤، ص ٧٧- ٨٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٦، ص ٥٢٧، ٥٢٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٣٦٣. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٩، وبيان أنه تعالى شديد العقاب لمن كفر في الآخرة: ١٠- ٢٢، وقصة موسى مع فرعون: ٢٣- ٥٤، والتعقيب: ٥٥- ٧٦، والخاتمة: ٧٧- ٨٥. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى أ) هي من السور التي ذُكر فيها الاسمان الجليلان ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ بتقديم العزيز: غافر: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾: ٢٠، وذِكْرُ هذين الاسمين هنا مناسب لبيان أنه تعالى عزيز بالنسبة لمن كفر فينتقم منه، وعليم بالنسبة لمن آمن فيغفر له، وباقي السور هي: الأنعام: ٩٦، والنمل: ٧٨، ويس: ٣٨، وفصلت: ١٢، والزخرف: ٩، ب) لم يوصف الله تعالى بأنه ﴿غَافِرِ﴾ بصيغة اسم الفاعل إلا هنا: ٢، وأما ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ فقد ذكرا فقط في غافر: ٤٢، وفي السورتين اللتين قبلها، (ص): ٦٦، الزمر: ٥، ج) وصف الله تعالى بـ ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ هنا فقط: ٣، د) هي من السور التي تكررت فيها عبارة «شديد العقاب»: ٣، ٢٢، وباقي السور: =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب ذو الطول لمن كفر: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾، ولاحظ تقديم غافر الذنب وقابل التوب، ليكون ذلك أدعى للإيمان وللترغيب به، فهو سبحانه يغفر ذنوب من آمن به وعمل صالحاً ويقبل توبته، وفي المقابل هو سبحانه شديد العقاب ذو الطول، أي: ذو القدرة على إنزال الانتقام بمن كفر[1]، ولاحظ بيان أن الله تعالى إليه المصير، لأنه في يوم القيامة يتجلّى غفرانه ورحمته للمؤمنين، ويتجلّى انتقامه وعقابه للكافرين.

= البقرة: ١٩٦، ٢١١، والمائدة: ٢، ٩٨، والأنفال: ١٣، ٢٥، ٤٨، ٥٢، هـ) وصفه تعالى بـ ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ هنا فقط: ٣، وهو يدل على قدرته من الانتقام من الكافرين، و) هي من السور التي ذكر فيها الاسمان الجليلان ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: ١٢، وباقي السور: النساء: ٣٤، والحج: ٦٢، ولقمان: ٣٠، وسبأ: ٢٣، ز) هي من السور التي ذكر فيها الاسمان الجليلان ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ غافر: ١٦، وباقي السور: السورتان اللتان قبلها: (ص): ٦٥، والزمر: ٤، ويوسف: ٣٩، والرعد: ١٦، وإبراهيم: ٤٨، ح) هي من السور التي تكرر فيها الاسمان ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بتقديم السميع: ٢٠، ٥٦، وباقي السور: النساء: ٥٨، ١٣٤، والحج: ٦١، ٧٥، ط) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها عبارة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الدالة على انتقامه من الكافرين: ٢١، ٢٢، وهي الوحيدة التي تكرر فيها نسبة «المقت» إلى الله تعالى تجاه الكافرين ليدل على غضبه عليهم: ١٠، ٣٥، ثانياً: ومنها أمور متعلقة باليوم الآخر، وهو اليوم الذي يتجلى فيه غفرانه تعالى لأهل الإيمان، وانتقامه من أهل الكفران، أ) فوصف يوم القيامة بـ ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ هنا فقط: ١٥، وكذلك وصفه بـ ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾: ٣٢، ووصفه بـ ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: ٥١، ب) وصفه بـ ﴿يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ذكر فقط هنا: ٢٧، وفي سورة (ص): ١٦، ٢٦، ٥٣، ثالثاً: منها أمور متعلقة بالكافرين الذين يُعرّضون أنفسهم للانتقام من الله تعالى، أ) لم يوصف الكافر بـ «مسرف» بصيغة المفرد إلا هنا: ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: ٢٨، و ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: ٣٤، وقد وُصف أهل النار فيها بـ «المسرفين» ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: ٤٣، وبذلك تكررت مشتقات «سرف» فيها ثلاث مرات، وهي مع سورة الأعراف أكثر سورتين حصل فيهما ذلك: ٣١ (مرتين)، ٨١، ب) هي السورة الوحيدة التي وصف فيها الكافر بـ ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: ٣٥، وهو وصف يؤكد استحقاقه للعقاب من الله، ج) هي السورة الوحيد التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: ٧٨، وقريب منها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الجاثية: ٢٧، وهي الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: ٨٥، رابعاً: بإمكانك أن تضيف أن هذه السورة مع سورة الزمر التي قبلها وسورة هود، هن أكثر السور اللواتي ذكرت فيها كلمة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالجمع، ولا تخفى علاقة السيئات باسم سورة غافر، وذلك ثلاث مرات في كل واحدة منهن: غافر: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: ٩، و ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا﴾: ٤٥، وانظر في الزمر: ٤٥، ٥١ (مرتين)، وفي هود: ١٠، ٧٨، ١١٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(١) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٤، ص ٨٠، وأعتقد أن هذا التفسير لقوله تعالى ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ متلائم مع قوله تعالى قبله ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، فهو أنسب من تفسيره بأنه ذو الإنعام.

وقد أكّدت المقدّمة بيان أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر، فأشارت إلى مصير المكذّبين السابقين: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝﴾، ولاحظ أن السياق بيّن مصيرهم في الدنيا والآخرة، ليؤكّد على المحور المذكور، وقد قدّم السياق تهديد الكافرين لمناسبة الواقع الذي نزلت فيه السورة، إذ كان الكفر هو السائد.

ومن أجل التأكيد على أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، عرضت المقدّمة قول ملائكة العرش المستغفرين للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝﴾، ولاحظ قولهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ فقدّموا الاستغفار على ذكر التوبة، ليتلاءم ذلك مع وصفه تعالى بغافر الذنب وقابل التوب.

فالمقدّمة كما ترى تدعو إلى التوحيد من خلال بيان أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب للمؤمنين، كما وأنه شديد العقاب وذو الطول للكافرين.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمن كفر يوم القيامة، وأكّد ذلك من خلال عرض قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝﴾، ولاحظ بيان أن سبب مقت الله لهم وعذابهم في جهنم إنما هو شركهم بالله عزّ وجلّ.

ولكي يؤكّد السياق الدعوة إلى التوحيد، حذّر من يوم القيامة وبيّن أن الملك فيه لله الواحد القهار، وليس لأحد غيره فيه تصرف: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ بيان أنه في ذلك اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، وأنه لا ظلم فيه، وذلك يتلاءم مع اسم السورة كما لا يخفى.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة موسى عليه السلام مع فرعون، واللافت للنظر أنها تؤكّد حقيقة أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر يوم القيامة على نحو لا تجده في سور أخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾، ولاحظ أن فرعون طلب قتل موسى، ليتلاءم ذلك مع قوله تعالى أول السورة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾، ثم إن هذا الموقف من فرعون هو الأقبح، وسيأتي بيان أنه سيعذب أشدّ العذاب يوم القيامة جزاءً لموقفه هذا، ولاحظ أن موسى استعاذ بالله من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

وقد عرض السياق موقف الرجل المؤمن من آل فرعون، ولم يذكر موقفه في سورة أخرى، وقد كان موقفه محذّراً من عقاب الله في اليوم الآخر أيضاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾، وانظر قوله أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾، إن أقواله هذه تؤكّد المحور المذكور بأبلغ صورة.

وأشدّ ما يلفت الانتباه في عرض هذه القصة أن السياق لم يذكر شيئاً عن العذاب الدنيوي لفرعون وقومه، بل كان التركيز على العذاب الأخروي: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾، ثم بيّن السياق كيف أن فرعون ومن معه يتحاجّون مع أهل النار، ويطلبون من خزنتها أن يخفّف عنهم ربُّهم يوماً من العذاب. إن عرض مصير فرعون وقومه، ومصير الكافرين في جهنم، يؤكّد بأبلغ صورة حقيقة أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر.

ثالثاً: وبعد عرض المصير المرعب للكافرين، أعقب السياق تلك القصة بالدعوة إلى

التوحيد من خلال الآيات القرآنية وبعض الآيات الكونية، وحذّر من عاقبة التكذيب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾، فقد قطع السياق الحجة على المجادلين في آيات الله، لأن الذي خلق السماوات والأرض هو من أنزل هذا القرآن، ففيم المجادلة إذاً؟!

وانظر هذه الدعوة الكريمة إلى التوحيد: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾، فكما أنه تعالى هو منزل القرآن، وهو الذي سخّر الليل والنهار للإنسان، وهو ذو فضل على الناس، فهو وحده إذاً المستحقّ للدعاء والعبادة، والعلاقة بين ذلك وبين اسم السورة واضحة.

وقد حذّر السياق قبل الخاتمة من التكذيب بآيات الله تعالى الكونية والقرآنية ببيان مصير المكذّبين يوم القيامة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾. فالسياق كما ترى يدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ ببيان أنه غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، كما وأنه شديد العقاب وذو الطول لمن كفر. وهذا هو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله القرآنية: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، ولاحظ قوله ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ الذي يؤكّد أن عقابه سيطول الكافرين.

وحذّرت من التكذيب بآيات الله الكونية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن منزل هذا القرآن هو غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وأنه شديد العقاب ذو الطول لمن كفر، ختمت بالتحذير من التكذيب بآيات الله من خلال بيان مصير المكذّبين، وأنهم لو آمنوا قبل العذاب لغفر الله لهم ولرحمهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة غافر

سورة بيان أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التَّوْب لِمَن آمن، وشديد العقاب وذو الطَّوْل لِمَنْ كفر، في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدّمة التي تؤكّد بإيجاز أن الله غافر الذنب وقابل التوبة لمن آمن، وشديد العقاب وذو الطول لمن كفر:

- افتتحت السورة ببيان أن الله العزيز العليم هو الذي أنزل هذا الكتاب، وأنه سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.
- وقد أكّدت أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمَنْ كفر في الدنيا والآخرة: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.
- وأكّدت على أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، فسجلت قول الملائكة حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٢)

الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر، مع عرض قصصي يؤكّد هذا:

- عرض السياق مشاهد أخروية تؤكّد حقيقة وقوع عقاب الله بمن كفر، فسجل السياق قول أهل النار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ۝١١﴾.
- وحذّر السياق من وقوع عقاب الله بمَن كفر في يوم القيامة، الذي يكون الملك فيه لله الواحد القهار: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.
- **أكدّت قصة موسى عليه السلام مع فرعون حقيقة أن** الله شديد العقاب وأنه ذو الطَّوْل لمن كفر، فقد سجلت قول الرجل المؤمن الذي حذّر قومه من عقاب الله في اليوم الآخر: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣﴾.
- وقد ختمت القصة ببيان المصير الأخروي لآل فرعون دون ذكر شيء عن عقوبتهم الدنيوية: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٣-٧٦)

تعقيب على قصة موسى عليه السلام مع فرعون يدعو إلى التوحيد من خلال آيات الله الكونية والقرآنية، مع تحذيرٍ من عاقبة التكذيب:

- ذكر السياق بعض مظاهر كمال قدرة الله في الكون ليثبت المحور المذكور: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.
- ومن ذلك أيضاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾.
- ثم حذّر السياق من عقاب الله الشديد الذي سيطول المكذّبين يوم القيامة: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٧٧-٨٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله القرآنية: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.
- وأعادت التحذير من التكذيب بآيات الله الكونية، فقال معقباً على ذكر نعمة الأنعام والفُلْك التي سخّرها الله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وأنه شديد العقاب، ذو الطول لمن كفر، ختمت بالتحذير من مصير الكافرين الذين سيطولهم عقاب الله تعالى، وبيان أنهم لو آمنوا وتابوا قبل العذاب لغفر الله لهم ولَرحِمَهم: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

سورة فصلت

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والصاد واللام: كلمة صحيحة تدلّ على تمييز الشيء من الشيء وإبانته عنه»[(١)]، فالمراد من وصف القرآن بأنه ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: «أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى، باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها، . . ومن كمال تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ»[(٢)]. فاسم السورة يدلّ على أن القرآن قد فصّلت فيه الحجج والبراهين ولم يَدَع مجالاً للشك أو الظن.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تبيّن أثر القرآن الكريم في حياة البشر بجميع تصوّراتها ومدركاتها، فهي تشير إلى أن القرآن هو دستور الحياة الإنسانية الكريمة، وهذا يدلّ على كمال علم مُنزل هذا القرآن، ويدلّ أيضاً على أن العلماء هم مَن حملهم إيمانهم بهذا القرآن على الاستقامة على طاعة الله، كما وأن السورة تبيّن قضية العقيدة بحقائقها الأساسية: الإلهية الواحدة، والحياة الآخرة، والوحي بالرسالة، والدعوة إلى الله وخُلُق الداعية، وعلى ذلك كلّه دلّ اسمها «فصلت» الذي وصف به آيات هذا القرآن[(٣)].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٤٧.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٤، ص ٢٣١. بتصرف.

(٣) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٥٤٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٣١٠٥، ٣١٠٦، وابن =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان عظمة الله تعالى مُنزل الآيات القرآنية، وخالق الآيات الكونية، وبذلك يتحقّق أن القرآن كتاب فصّلت فيه آيات الترغيب والترهيب، وأنه بشير ونذير للناس، ولما كان وصف آيات القرآن بأنها «فصّلت» من لدن مُنزلها معبّراً عن المحور المذكور، جُعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التفصيل في بيان عظمة الله تعالى مُنزل الآيات القرآنية، وخالق الآيات الكونية**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن عظمة مُنزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، وثانيها: بيان مصير المكذّبين ومصير المؤمنين في الدنيا والآخرة، وثالثها: إعادة التأكيد على عظمة منزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٤، ص ٢٢٨ - ٢٣١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٣٦٩- ٣٧٣، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٣، ٤. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٢، وبيان مصير المكذّبين والمؤمنين: ١٣- ٣٦، والتأكيد على عظمة الله: ٣٧- ٤٤، والخاتمة: ٤٥- ٥٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى وبالقرآن العظيم: أ) فهي الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها وصفُ القرآن بالمصدر «تنزيل»، والوحيدة التي اختصّ فيها هذا المصدر مع «الرحمن الرحيم»، ومع «حكيم حميد»: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ٢، و ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾: ٤٢، والتكرار مناسب للتفصيل الذي دلّ عليه اسم السورة، بينما ذكر المصدر «تنزيل» مع «رب العالمين» أربع مرات في القرآن: الشعراء: ١٩٢، السجدة: ٢، الواقعة: ٨٠، الحاقة: ٤٣، ومع «العزيز الحكيم» ثلاث مرات: الزمر: ١، الجاثية: ٢، والأحقاف: ٢، ب) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «عربي» لإثبات عروبة القرآن والنبي ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾: ٣، ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾: ٤٤، ج) والوحيدة التي تكررت فيها عبارة «فصّلت آياته»: ٣، ٤٤، وقد ذكرت هذه العبارة مرة أخرى فقط في سورة هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾: ١، د) والوحيدة التي وصف فيها القرآن بكونه «بشيراً ونذيراً»: ٤، والوحيدة التي وصف فيها القرآن بـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾: ٤١، وأنه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾: ٤٢، هـ) والوحيدة التي فصّلت في الأيام الستة لخلق السماوات والأرض: ٩-١٢، و) والوحيدة التي ذكر فيها قوله تعالى عن=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكرٌ لبعض مظاهر عظمة الله تعالى من خلال آياته القرآنية: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾، ولاحظ اختصاص الاسمين الجليلين «الرحمن الرحيم»، وهما متلائمان مع ما جاء من التفصيل في بيان عظمة الخالق في هذه السورة، وذلك رحمة من الله بالعالمين، ودعوة لهم لكي يؤمنوا بالله الواحد.

وقد عرضت المقدّمة عناد المكذّبين مع إثبات الحجة عليهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾، ولاحظ التفصيل في قولهم، فقد وصفوا قلوبهم وآذانهم وحالهم، وهو تفصيل ملائم لاسم السورة، فهي تعرض موقف المكذّبين بالتفصيل أيضاً.

ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر عظمة الله من خلال الآيات الكونية: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ

= الآيات الكونية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾: ٥٣، وقريب منها ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾: النمل: ٩٣، و) وهي من السور التي وُصف الله تعالى فيها بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: ٥٣، وباقي السور: المائدة: ١١٧، والحج: ١٧، والأحزاب: ٥٥، وسبأ: ٤٧، والمجادلة: ٦، والبروج: ٩، ز) وهي وسورة النساء الوحيدتان اللتان وُصف الله تعالى بهما بأنه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾: ٥٤، والنساء: ١٢٦، وثانياً: منها أمور متعلقة باليوم الآخر: أ) فهي أكثر السور تفصيلاً في شهادة الجوارح والجلود على المكذّبين يوم القيامة: ٢٠ - ٢٢، وقد ذكر ذلك بشكل موجز في سورتي النور: ٢٤، ويس: ٦٥، ب) هي الوحيدة التي وُصفت فيها جهنم بأنها ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾: ٢٨، وهو وصف ملائم للدار التي يكون فيها مَن يصرّ على الكفر بعد التفصيل الذي جاء في هذه السورة، وقريب منها: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: يونس: ٥٢، والسجدة: ١٤، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بالكافرين، فهي وسورة العنكبوت الوحيدتان اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر «جحد»: فصلت: ١٥، ٢٨، والعنكبوت: ٤٧، ٤٩، رابعاً: ومنها ما يتعلق بالمؤمنين: فهي وسورة الأحقاف الوحيدتان اللتان ذكرت فيها عبارة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، لكن سورة فصلت امتازت بزيادة التفصيل في بيان جزائهم: ٣٠ - ٣٥، وانظر سورة الأحقاف: ١٣، ١٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾، وقد فصلت السورة في عرض أحداث هذه الأيام الستة، ليكون ذلك أدعى للإيمان، والتفصيل متلائم مع دلالة اسم السورة كما لا يخفى، وبعد عرض مظاهر عظمة الله في الآيات الكونية والآيات القرآنية، يثبت بذلك أن خالق الأكوان هو مُنزل القرآن، وهو الذي فصّل فيه الآيات لدعوة الناس إلى التوحيد.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المكذّبين والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وبذلك يتحقّق وصف القرآن بأنه فصّلت آياته ليكون بشيراً ونذيراً: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، ولاحظ التفصيل في بيان أن الرسل قد جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وهذا متلائم مع ما جاء من التفصيل في هذه السورة من أساليب الدعوة إلى التوحيد، ولاحظ بيانَ عظمة الخالق الذي خلق عاداً بهذه القوّة، وذكرَ عذاب الآخرة مع عذاب الدنيا، وكل هذا التفصيل متلائم مع اسم السورة.

وقد ذكر السياق أيضاً مصير ثمود، إذ أخذتهم صاعقة العذاب الهون في الدنيا، ونجّى الله الذي آمنوا وكانوا يتقون، ثم أعقب السياق بعرض مصير المكذّبين في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، ولاحظ التفصيل في شهادة الجوارح والجلود، وانظر ماذا كان مصيرهم: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ولكي يكتمل التفصيل، عرض السياق مصير المؤمنين في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، وقد فصّل السياق في بيان صفاتهم، إذ كانوا يدعون إلى الله بالقول الحسن، ويعملون الصالحات، ويدفعون السيئة بالتي هي أحسن، ويصبرون على الدعوة، حتى استحقّوا هذا الثواب العظيم.

فالسورة كما ترى تفصّل في عرض عظمة الله مُنزل القرآن وخالق الأكوان، وتفصّل في عرض موقف المكذّبين وموقف المؤمنين، ومصير الفريقين في الدنيا والآخرة، وبذلك يتحقّق وصف القرآن بأنه «فصّلت آياته» وهو الوصف الذي اختير ليكون اسماً للسورة.

ثالثاً: ثم أعاد السياق عرض بعض مظاهر عظمة الله تعالى في آياته الكونية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾، وعرض بعض مظاهر عظمته تعالى في آياته القرآنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾، وبذلك يتأكّد أن منزل القرآن هو خالق الأكوان، فهو وحده المستحقّ للعبادة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على رحمة الله في إنزال آيات الوحي على الأنبياء لدعوة الناس للتوحيد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقد أعادت عرض بعض مظاهر عظمته تعالى في خلقه الداعية إلى التوحيد: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾، وفصّلت في عرض موقف الإنسان من النعماء والضراء.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية للتأكيد على أنه منزل القرآن، ختمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله الكونية للتأكيد على أنه خالق الأكوان: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة فصلت

سورة التفصيل في بيان عظمة الله تعالى مُنزِل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدّمة التي تبيّن عظمة منزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية:

- افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى من خلال آياته القرآنية: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾.
- ثم عرضت بعض مظاهر عظمته تعالى في آياته الكونية: ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.
- وعرضت بالتفصيل كيف خلق الله السماوات السبع وأوحى في كل سماء أمرها.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٣٦)

بيان مصير المكذّبين ومصير المؤمنين في الدنيا والآخرة:

- ثم عرض السياق مصير الفريقين في الدنيا والآخرة، ليتحقّق بذلك وصف القرآن بأنه فصّلت آياته، فعرض مصير عاد وثمود الذين كذبوا بالرسل التي جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم. هذا في الدنيا.
- وأما في الآخرة: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾، ثم فصّل السياق في شهادة سمعهم وأبصارهم عليهم بما كانوا يعملون.
- وأما مصير المؤمنين في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾.
- إن التفصيل في عرض مصير الفريقين يتلاءم مع عرض مظاهر عظمة منزل القرآن وخالق الأكوان، وبذلك يتحقّق أن القرآن كتاب فصّلت آياته.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٧-٤٤)

إعادة التأكيد على عظمة منزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية:

- فمن آياته الكونية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.
- ومن آياته القرآنية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٥-٥٤)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على رحمة الله في إنزال آيات الوحي للدعوة إلى التوحيد: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.
- وأعادت عرض بعض مظاهر عظمته تعالى في خلقه الدالة على كمال علمه: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية فثبت بذلك أنه منزل القرآن، ختمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال آياته الكونية فثبت بذلك أنه خالق الأكوان: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

سورة الشورى

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيانها ما يجب أن يكون عليه أمر المؤمنين، إذ تصفهم بأن أمرهم شورى بينهم، فليس لأحدهم استبداد في الرأي، بل هم يتشاورون فيما يعترضهم من الظروف، ثم يختارون من الآراء ما فيه الخير والصلاح، فاسم السورة يدلّ على حكمة المشرِّع سبحانه الذي أمر المؤمنين بأن يكون أمرهم شورى بينهم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المحور الرئيس لها هو إثبات الوحي والرسالة، وباقي موضوعاتها مسوقة لتقوية هذا المحور، فوحدانية الخالق، ووحدانية الرازق، ووحدانية المتصرّف، تؤكّد وحدة الوحي، ووحدة المنهج، ووحدة قيادة البشرية في ظلّ تلك العقيدة، ولذلك فهي تأمر المؤمنين بالاجتماع على هذا الدين، الذي روح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لمساواة العباد في الأحكام وفي عبوديتهم للشارع سبحانه(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٦، ص ٥٩٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٣١٣٧- ٣١٣٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٥، ص ٢٤، ٢٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٦٢. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٣٧٤،ود. الجابري، **أسماء السور لقرآنية**، ص ٥٤٩- ٥٥٣، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

الإيمان والاستجابة لشرع الله تعالى، من خلال بيان بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه وفي خلقه، ولما كانت الشورى هي أدلّ ما في السورة على حكمة الله في شرعه، وهي أكثر موضوعاتها تعلّقاً بحياة المؤمنين، سُمّيت السورة بها للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه وفي خلقه**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها: عرض لبعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه وفي خلقه بإيجاز، وثانيها: التفصيل في عرض لبعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه، وثالثها: التفصيل في عرض لبعض مظاهر حكمته في خلقه، مع الدعوة إلى الالتزام بشرعه الحكيم، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٢، وعرض مظاهر حكمته تعالى في شرعه: ١٣- ٢٦، وفي خلقه: ٢٧- ٤٦، والخاتمة: ٤٧- ٥٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تبين حكمة الله تعالى في شرعه والدعوة إلى التزامه، أ) فهي السورة الوحيدة التي تكررت فيها مشتقات الجذر «شرع»: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾: ١٣، و ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾: ٢١، ب) كثرت فيها مشتقات الجذر «وحي» وإليك التفصيل: قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ١، لم يتكرر، وكذلك ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾: ٥١، وهي مع سورة النساء أكثر سورتين تكرر فيهما الفعل الماضي «أوحينا» بصيغة الجمع: ٧، ١٣، ٥٢، وفي سورة النساء: ١٦٣ (٣ مرات)، ج) هي إحدى السور التي وصفت القرآن بأنه عربي، ولكنها تميّزت بذكر الفعل «أوحينا» مع ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: ٧، د) هي مع سورة النساء أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «وليّ»: ﴿وَٱلظَّـٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ٨، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾: ٩، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: ٢٨، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ٣١، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: ٤٤، وفي سورة النساء ستّ مرات: ٤٥، ٧٥، ٨٩، ١١٩، ١٢٣، ١٧٣، هـ) قوله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ هنا فقط بهذه الصيغة: ٤٧، وقريب منه في سورة الأنفال: ٢٤، وكذلك قوله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾: ١٦، وكذلك قوله ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: هنا فقط بهذه الصيغة: ١٠، وقوله ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: ٢٥، وقريب منها في سورة هود: ١١٢، والنحل: ١٢٥، والحج: ٦٧، والقصص: ٨٧، وكذلك قوله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: ١٥، هنا فقط بهذه الصيغة، وقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾: ١٧، وقوله ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾: ٢٤، وقوله ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: ٥٣. و) وصف الظالمين بقوله ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ١٦، كذلك لم يتكرر، ز) تكرر الفعل المضارع «يشاء» الدال على دوام تفرد الله تعالى بالمشيئة في ثلاث سور من القرآن بأكثر عدد وهنّ: =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرض موجز لبعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾، فخالق السماوات والأرض ومدبّر أمرها وحافظها من التفطّر، وهو الذي أوحى إليك وإلى الرسل من قبلك بالحكمة، وبذلك تجتمع آيات الوحي والآيات الكونية على الدلالة على حكمة الخالق سبحانه، فلا يجوز اتخاذ غيره ولياً.

وقد بيّنت المقدّمة أن الخالق الحكيم هو الذي أوحى إلى النبيّ ﷺ بالقرآن العربي لينذر يوم الجمع، وليكون حكماً بين الناس: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾، وقد أكّد ذلك ببيان أنه فاطر السماوات والأرض وبيده مقاليدهما، وهو بحكمته يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. فمقدّمة السورة كما ترى تدعو إلى الاستجابة لشرع الخالق العظيم سبحانه، وأدلّ ما في السورة على حكمة شرعه الشورى كما سيأتي.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه الحكيم: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾، فمنزل الوحي على الأنبياء والرسل واحد سبحانه، وينبغي أن يجمع شرعُه الناسَ ولا يتفرّقوا عنه، وأمر السياق النبيّ ﷺ والمؤمنين من بعده

= البقرة: ١٢ مرة، والشورى: ١١ مرة (٨، ١٢، ١٣، ١٩، ٢٧، ٢٩، ٤٩ ثلاث مرات، ٥٠، ٥١)، وآل عمران: ١٠ مرات، ولكن سورة الشورى تميّزت على البقرة وآل عمران بتكرار الفعل المجزوم «يشأ» العائد على الله تعالى مرتين: ٢٤، ٣٣، وهو فعل لم يذكر في السورتَيْن الأخريين، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مظاهر حكمته تعالى في خلقه: أ) فقد تكرر مشتقات الجذر «فطر» العائدة على الله فيها وسورتي الأنعام والروم فقط، الشورى: ٥، ١١، والأنعام: ١٤، ٧٩، والروم: ٣٠ (مرتين)، ب) وقوله ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: ذكر هنا: ١٢، وفي سورة الزمر: ٦٣، فقط، ومن اللطيف أن وصف يوم القيامة بـ «يوم الجمع» ذكر هنا: ٧، وفي سورة التغابن: ٩، فقط، وكذلك وصف مكة بـ «أمّ القرى» هنا: ٧، وفي سورة الأنعام: ٩٢، وهما عبارتان متفقتان مع اسم السورة من حيث دلالة الجمع، فالشورى تجمع الناس. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بالتزامه شرع الله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾، ولاحظ بيان أن التزام شرع الله الحكيم يؤدّي إلى العدل بين الناس.

وقد قرّع السياق المشركين الذين يتبعون أهواءهم، ويُعرِضون عن شرع الله الحكيم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾، ولاحظ أنه تعالى بحكمته لم يُعجِّل إليهم عذابهم، بل أجّلهم ليوم القيامة، ولكي لا يتطرّق الشك لأحد في آيات الله، بيّن السياق أن النبيَّ ﷺ ليس له دور إلا التلقّي عن الله ما يوحى إليه من الحكمة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾، فتوزيع أرزاق العباد من أعجب دلائل حكمة الله تعالى، فهو ينزل الرزق بقدر ما يشاء ليحفظهم من البغي، وهو بحكمته ينزل الغيث متى شاء وأين شاء، ولاحظ بيان قدرته على جمع الخلق بعد بثّهم في الأرض ليوم القيامة.

ومن الآيات التي ذكرها السياق أن الله تعالى بحكمته سخّر البحر لتجري فيه الفُلك، ثم بيّن أنه قادر على حفظ سلامتهم فيصلوا بأمان، وقادر على إغراقهم جزاء ذنوبهم، وكلّه يعود لمقتضى حكمته، ثم بيّن السياق أن رأس الحكمة اتباع شرع الله الحكيم وإيثار الآخرة على متاع الدنيا: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾، فهذه بعض مظاهر

حكمة الله في شرعه، وأهمّها الشورى؛ لأنها تجمع المؤمنين على الحقّ والخير والصلاح، وهي غالباً ما تكون في القرارات المتعلّقة بمصير الأمة، ولذلك سمّيت السورة بها؛ لأنها متعلّقة بالمؤمنين جميعاً، فينبغي تطبيقها للحفاظ على وحدة كلمتهم.

ولكي يكتمل عرض مظاهر حكمة الله، بيّن السياق مصير الظالمين المعرضين عن حكم الله يوم القيامة، وبيّن استهزاء المؤمنين بهم لأن الظالمين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأعتقد أن ذكر خسارة الأهل متعلّق باسم السورة، فكما كانت الشورى تجمع المؤمنين وأهليهم في الدنيا على الحقّ، حتى سلموا يوم القيامة من العذاب، كذلك كان الظالمون وأهلوهم يُعرِضون عن تطبيق شرع الله وأهمّه الشورى وتفرّقوا عنه، فاستحقّوا جميعاً العذاب يوم القيامة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الحكمة هي التزام شرع الله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

وأعادت عرض بعض مظاهر حكمة الله في خلقه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾. فهو بحكمته يهب الذرية لمن يشاء حسبما يشاء، وهذا متلائم مع ما بيّنه السياق سابقاً من حكمته تعالى في توزيع الرزق وتوزيع الغيث حسب حكمته تعالى.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الله العزيز الحكيم هو من يوحي إلى النبيّ ﷺ وإلى الذين من قبله بالشرع الحكيم، ختمت ببيان أن الله بحكمته يختار من الرسل من يشاء، وببيان أن ما أوحى إلى النبيّ ﷺ هو الحكمة، وكل الحكمة باتباعه: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الشورى

سورة بيان بعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه وفي خلقه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدّمة التي تعرض بعض مظاهر حكمة الله في شرعه وفي خلقه بإيجاز:

- افتتحت السورة ببيان حكمة الله الذي يوحي بالحكمة للنبي ﷺ وللأنبياء من قبله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.
- ثم بيّنت حكمته تعالى في خلقه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.
- وبيّنت أن الخالق العظيم هو مَن يوحي بالقرآن العربي للنبيّ ﷺ، ودعَت إلى التزام شرعه الحكيم: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٢٦)

التفصيل في عرض بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه الحكيم:

- ثم بيّن السياق أن ما يوحي به الله إلى نبيّه ﷺ هو الحكمة التي وصّى بها الأنبياء قبله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، فشرع الله يجمع الناس على الخير والصلاح.
- وقد أمر السياق النبيّ ﷺ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾.
- وقد قرّع السياق المشركين الذين يتبعون أهواءهم ويُعرِضون عن شرع الله الحكيم: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢١﴾.
- وبيّن أن النبيّ ﷺ ليس له إلا التلقّي عن خالقه تعالى، فليس من مجال للشك في آيات الله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٧-٤٦)

التفصيل في عرض مظاهر حكمته تعالى في خلقه، مع الدعوة إلى التزام شرعه الحكيم:

- بعد بيان حكمته تعالى في شَرْعه، انتقل السياق إلى بيان حكمته في خَلْقه، فهو الذي يقسم أرزاق العباد حسب حكمته، وينزل الغيث أين يشاء ومتى شاء وبالقدر الذي يشاء.
- ومن آياته أنه الذي خلق السماوات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة، وهو الذي سَخّر البحر لتجري فيه الفُلْك بأمره، وهو بحكمته قادر على حفظهم في البحر، كما أنه قادر على إغراقهم بذنوبهم.
- ثم أمر السياق بالتزام شرع الله الحكيم: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.
- ثم بيّن السياق مصير الظالمين المُعرِضين عن شرع الله، فبيّن أنهم سيخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة جزاء تفرقهم عن شرع الله.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٧-٥٣)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير بأن الحكمة هي التزام شرع الله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.
- وأعادت عرض مظاهر حكمته تعالى في خلقه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله الخالق الحكيم هو مَنْ يوحي إلى نبيّه ﷺ بالشرع الحكيم، ختمت ببيان أن ما يوحيه الله إلى نبيه ﷺ هو الحكمة وكل الحكمة باتباعه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

سورة الزخرف

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «الزخرف في اللغة: الزينة وكمال حُسْن الشيء. . . وبيت مُزخرَف، وزَخرفَ البيتَ زخرفةً: زيّنهُ وأكمله»[1]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان أن ما سخّره الله في هذه الدنيا من مقوّمات وأسباب الزخرف ينبغي أن تكون دالّة على رحمة الله داعية إلى الإيمان به وعبادته وحده، لا أن تكون سبباً في الكفر والشرك والكِبْر ونسيان الرحمن سبحانه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة سمّيت بهذا الاسم لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع بالزخرف، الذي ينخدع به الكثيرون مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للفجار والأبرار، لكنه لا يمنح الآخرة إلا للمتقين، فاسم السورة يحذّر من استغلال الشيطان لزخرف الدنيا للصّدّ عن سبيل الله، وهذا يتفق مع بيان السورة أن الذي يرفعُ الشأنَ حقيقةً هو الإيمان بالله وما ينتج عنه من النعيم المقيم في الآخرة، فلا بُدّ من إعلاء القِيَم الربانية في مقابل الصنم المادي، ويتفق مع ما فيها من تصحيح للانحرافات العقدية لدى الجاهليين[2].

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ٢٣. بتصرف.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٥١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٣، وقطب، **في ظلال**=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال بيان وضوح دلالة الآيات القرآنية والآيات الكونية المسخرة للإنسان الدالّة على رحمة الله به، ولما كان ما هيّأه الله من مقوّمات وأسباب الزخرف في الدنيا يفترض أن يكون دالاً على الرحمن سبحانه، لا أن يكون سبباً للكفر أو الإشراك به، سمّيت السورة به ليكون آية داعية إلى الإيمان والتوحيد لا الكفر والشرك، ولبيان أنه ليس معيار التفاضل عند الله، بل إن الإيمان والتقوى هو ذلك المعيار. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من الافتتان بزخرف الدنيا عن الرحمن سبحانه أو الإشراك به**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن دلالة الآيات القرآنية والكونية المسخّرة للإنسان على رحمة الله، وثانيها: نقض الشرك والدعوة إلى التوحيد من خلال بيان موقف الأقوام الذين أنساهم الزخرفُ الرحمنَ سبحانه، مع عرض قصصي يؤكّد هذا، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[١].

= القرآن، ج ٥، ص ٣١٧٤- ٣١٧٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٥، ص ١٥٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٩٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٣٧٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٤٢- ٢٤٧.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٤، والدعوة إلى التوحيد مع العرض القصصي: ١٥- ٧٨، والخاتمة: ٧٩- ٨٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بدلالة الآيات القرآنية على الرحمن سبحانه: أ) فقوله تعالى ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ لم يذكر بهذه الصيغة إلا هنا: ٢، وفي سورة الدخان: ٢، ب) هي إحدى السور التي وُصف فيها القرآن بأنه عربي: ٣، وانظر باقي السور: يوسف: ٢، طه: ١١٣، والزمر: ٢٨، وفصلت: ٣، والشورى: ٧، ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى لوصف القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾: ٤، ولك أن تضيف أن هذه السورة هي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها الاسم الجليل «الرحمن» بعد سورة مريم، وذلك سبع مرات، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بدلالة الآيات الكونية على الله تعالى الذي سخرها للإنسان: أ) فهي الوحيدة التي فيها قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: ١٠، وقد جاء نفس هذه الآية في سورة طه: ٥٣، لكن الفعل فيها «سلك» بدلاً من «جعل»، علماً بأن رقم سورة الزخرف: ٤٣، ب) اشتركت هي وسورة ﴿يس﴾ بوصف الله تعالى بأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: ١٢، وانظر في سورة ﴿يس﴾: ٣٦، علماً بأن بين=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الآيات القرآنية والآيات الكونية المسخّرة للإنسان، تدلّان على رحمة الله عزّ وجلّ، فينبغي أن تكون داعية إلى الإيمان والتوحيد: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾، فالقرآن أنزل بلغة العرب، فهو بيّن الدلالة على منزله سبحانه، ولاحظ رحمة الله إذ أرسل إليهم الرسول ﷺ ومعه آيات الوحي بالرغم من كونهم قوماً مسرفين، وهو وصف يدلّ على أن زخرف الدنيا أنساهم ربّهم حتى كفروا بآياته و أشركوا به.

وأما الآيات الكونية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا

= السورتين ثلاثة أجزاء، ج) هي الوحيدة التي اختصّت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ٨٢، وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾: ٨٤، وبقوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: ٨٥، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بموقف الكافرين والرَّدّ عليهم: أ) هي الوحيدة التي ذكر فيها قوله عن المشركين: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: ٥، للدلالة على أن زخرف الدنيا أنساهم الرحمن سبحانه، ب) وهي الوحيدة التي فيها قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ٢٩، إذ لم تتكرر «متعتُ» الدالة على أن زخرف الدنيا أنساهم الرحمن، ج) هي الوحيدة التي تكررت فيها عبارة «رحمة ربك»: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: ٣٢، و ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: ٣٢، وهما تدلان على أن رحمة الله وما عنده من الخير خير من الدنيا وزخرفها، د) والوحيدة التي فيها قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ إذ لم تتكرر«ينشأ في الحلية» المتعلقة باسم السورة للدلالة على تنزّه الله عن الشريك، هـ) والوحيدة التي فيها قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: ٣١، لظنهم أن الرسول لا بد أن يكون من أهل الزخرف، ولك أن تضيف أن سورة الزخرف وآل عمران الوحيدتان اللتان تكرر فيهما ذكر «الذهب»، فقال عن أهل الجنة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾: ٧١، وهو وصف لم يتكرر في القرآن، وقال فرعون لموسى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾: وهو لم يتكرر أيضاً، وانظر في سورة آل عمران: ١٤، ٩١، كما وأن سورة الزخرف الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عن الكافرين: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾: ٣٣، ولم تذكر المعارج مرة أخرى إلا في سورة المعارج منسوبة لله تعالى: ٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، فهم مع إيمانهم بوجود الله تعالى ويقرّون برحمته المتجلّية في آياته، إلا أنهم يشركون معه آلهة أخرى، وهذا من أعجب العجب، ولاحظ دعوتهم إلى ذكر المنعِم الذي أنعم عليهم بالأنعام، مما يدلّ على أن موقفهم يجب أن يكون موقف الإيمان والشكر، لا الشرك والكفر.

فمقدّمة السورة تدعو إلى التوحيد من خلال بيان رحمة الله تعالى المتجلية في آياته القرآنية، وما سخّره للإنسان من الآيات الكونية، فما هيّأه الله من أسباب الزخرف في الدنيا ينبغي أن يكون دالاً على رحمة الخالق سبحانه، وليس داعياً إلى الكفر أو الشرك.

ثانياً: وبعد أن بيّنت المقدّمة ذلك، انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين العجيب، إذ بعدما عاينوا آيات الله إذا هم يشركون به، وينسبون له البنات سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾، وزعموا أيضاً أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث، وعبدوهم من دون الله، وزعموا أن هذا هو هدى آبائهم ولن يغيّروه.

وانظر ماذا كان الرّدّ الإلهي عليهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ولاحظ تخصيص المترفين بالذكر، لأنهم أنساهم زخرفُ الدنيا الرحمنَ سبحانه، حتى ضلّوا عن السبيل، ولكي تكتمل إقامة الحجة عليهم، ذكر السياق الموقف الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، الذي يزعم العرب أنهم ينتسبون إليه في دينهم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فهو كان موحّداً مخلصاً لله تعالى، وهو ما أوصى عليه ذريته، ولاحظ أن متاع الدنيا وزخرفها هو الذي قاد الكفار إلى التكذيب بالرسول ﷺ مع أنه يدعوهم إلى الحقّ الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

ومما يؤكّد ذلك أنهم طلبوا أن ينزل القرآن على رجل عظيم من إحدى القريتين: مكة والطائف، «ولم يعلموا أنها ـ أي: الرسالة ـ رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلّي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية»[١].

ثم انتقل السياق إلى بيان مظهر آخر من مظاهر رحمة الله تعالى بالإنسان: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾، فلو شاء سبحانه أن يفتح على الكافرين أبواب الدنيا وزخرفها إلى درجة أن تكون سقف بيوتهم وأبوابها وسررهم من فضة، وأن تكون لهم معارج فخمة يظهرون عليها على الناس لفعل، ولكنه رحمة بالضعفاء الذين سيفتنون بهذا الزخرف إلى الكفر لم يفعل ذلك، وقسم معيشة الناس حسب حكمته، ليكون بعضهم لبعض سخرياً. فما هيّأه الله في هذه الدنيا من أسباب الزخرف، ينبغي أن يكون آية دالّة على رحمة الله تعالى داعياً إلى الإيمان به وشكره، لا أن يكون سبباً للكِبْر ثم الكفر بالرحمن أو الشرك به، وليس زخرف الدنيا هو معيار القرب من الله، بل هو التقوى، ولذلك خصّ المتقين بالدار الآخرة وما فيها من الزخرف الدائم، وهذا يطلعنا على حكمة اختيار اسم السورة، والله أعلم.

ثم حذّر السياق من استغلال الشيطان زخرفَ الدنيا ليُشغل الإنسان به عن ذكر ربّه تعالى، وينسيهم الرحمنَ ويصدّهم عن السبيل، ولن ينفع الإنسان يوم القيامة التبرؤ من الشيطان إذا مات على كفره وشركه.

ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه الذين أنساهم زخرفَ الدنيا الرحمنَ سبحانه، وكذبوا رسوله موسى حتى أغرقهم الله، ومما يؤكّد ذلك قول فرعون في هذه السورة الذي لم يتكرر في القرآن: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج ٢، ص ٣٧٢.

فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾، فموقف فرعون مشابه تماماً لموقف المشركين حينما طلبوا أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم، فهم يظنون أن معيار القرب لدى الله مرتبط بما يملكه العبد من الدنيا وزخرفها، ولذلك ادَّعى فرعون أن موسى كاذب؛ لأنه لا يملك شيئاً من زخرفها، ولاحظ أن قومه أطاعوه لخفّة عقولهم وتفضيلهم حبّ الدنيا وزخرفها على الهدى الذي جاء به موسى، إلى أن استحقّوا أن يغرق الله هؤلاء الجنود.

وبعد أن بيّنت قصة موسى عليه السلام مع فرعون أثر زخرف الدنيا على الكافرين حتى كذبوا برسل المنعِم سبحانه، انتقل السياق إلى بيان انحراف آخر لدى البشر وهو الشرك، فالله تعالى هو المنعِم، وبالتالي هو وحده المستحقّ للعبادة، وقد عرض السياق لإبطال الشرك حقيقة عيسى عليه السلام، كونه أكثر شخصية دارت حولها فريات الشرك: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، فقد ظنَّ المشركون ـ بجهلهم ـ أن عبادة الملائكة أقرب إلى الله من عبادة عيسى عليه السلام، لاعتقادهم أن بين الله تعالى وبين الملائكة نسباً، وبما أن السورة قد فنَّدت فريتهم في بدايتها، أكّدت تفنيدها هنا مرة أخرى ببيان بطلان إلهية عيسى عليه السلام فليست الملائكة آلهة، ولا عيسى كذلك.

وقد أعاد السياق التحذير من اتباع الشيطان مرة أخرى، فهو كما يستغل زخرف الدنيا لقيادة الإنسان إلى الكفر، فهو يستغل الشبهات والجهل لقيادته إلى الشرك، وكلاهما انحراف عظيم.

ولأجل أن يكتمل الترغيب والترهيب، عرض السياق مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فالمؤمنون في الجنة يطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب، وقد تحقّق لهم الزخرف الأخروي الأبدي، بينما المكذّبون المجرمون في عذاب جهنم خالدون، وما

حصل لهم ذلك إلا لأنهم ظلموا أنفسهم حينما تلهّوا بالدنيا وزخرفها عن الإيمان بالله وأشركوا معه آلهة أخرى.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد وبيان بطلان الشرك، والتحذير من أن تقودهم الدنيا وزخرفها إلى كفر المنعِم أو الإشراك به: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر الآيات القرآنية وما سخّره الله للإنسان من الآيات الكونية للإنسان لبيان دلالتها على الله، ختمت بالتحذير من التكذيب بهذه الآيات مع أنهم يقرّون بفضل الله عليهم، ولكنهم يكذّبون رسله ويشركون معه آلهة أخرى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الزخرف

سورة التحذير من الافتتان بزخرف الدنيا عن الرحمن سبحانه، أو أن يكون سبباً للشرك به سبحانه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٤)

المقدّمة التي تبيّن دلالة الآيات القرآنية والكونية المُسخَّرة للإنسان على رحمة الله:

- افتتحت السورة ببيان دلالة الآيات القرآنية على مُنْزلها سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.
- ثم بيّنت دلالة الآيات الكونية المُسخَّرة للإنسان على رحمة الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾، وبيّنت أنه هو الذي جعل الأرض مهداً للإنسان، وأنزل من السماء ماء فأنْشرَ به بلدة ميتاً، وخلق الأزواج كلها، وسَخَّر الفُلْك والأنعام.
- فالمقدّمة تدل على أن مُنْزل القرآن وخالق الأكوان واحد هو الرحمن الرحيم، فلا ينبغي التغافل بزخرف الدنيا عن الإيمان به أو الشرك به سبحانه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٥-٧٨)

نقض الشرك والدعوة إلى التوحيد، من خلال بيان موقف الأقوام الذين أنساهم الزخرفُ الرحمنَ سبحانه مع عرض قصصي يؤكّد هذا:

- بعد بيان نِعَم الله التي سخّرها للإنسان، عرض السياق موقف الإنسان الذي أشرك بربّه المُنعِم عليه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾، وزعموا أن الملائكة إناث، وعبدوهم من دون الله.
- وقد ردّ السياق عليهم ببيان موقف المترفين الذين أنساهم زخرفُ الدنيا خالقَهم سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾.
- ثم عرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه المشركين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾، وعقب بتحذير قوم النبيّ ﷺ من أن يقودهم زخرف الدنيا إلى الشرك: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩﴾.
- وبيّن السياق أنه من رحمة الله بالإنسان أن جعلهم متفاوتين في المعيشة، وأنه لو شاء لجعل للكافرين زخرفاً دنيوياً يُفْتَنون به هم وغيرهم عن الرحمن سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤

وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وبيّنت أن ذلك متاع الدنيا والآخرة عند الله للمتقين فقط.

- وحذّر السياق من الشيطان الذي يُشغِل الناس بزخرف الدنيا عن ذكر ربّهم.
- ثم عرضت قصة موسى عليه السلام مع فرعون الذي افتتن بزخرف الدنيا عن الإيمان بخالقه، وكَذَّب رسولَه فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.
- وبعد بيان أن الله الرحمن هو الخالق المنعِم سبحانه، فلا ينبغي التغافل بزخرف الدنيا عنه أو الإشراك به، بيّن السياق أن عيسى ابن مريم عليه السلام الذي هو أكثر شخصية أثيرت حولها فريات الشرك، إنما هو عبد من عباد الله لا يجوز إشراكه مع الله في العبادة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾، فهو ليس إلهاً وليست الملائكة التي عبدها المشركون آلهة كذلك.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٧٩-٨٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من الافتتان بالدنيا، وزخرفها والكفر بالرحمن المنعِم أو الإشراك به: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان دلالة الآيات القرآنية وما سَخّره الله من الآيات الكونية على الله المنعِم، ختمت بإبطال الشرك وبالتحذير من التكذيب بهذه الآيات: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

سورة الدخان

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن تهديد المشركين بآية الدخان، وهي إما أن تكون آية ناتجة عن دعاء النبيّ ﷺ على قريش بسنين عجاف، حتى أصبح أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد، وإما أن تكون لوناً من ألوان عذاب الكافرين يوم القيامة، وعلى كلا المعنيين تكون آية الدخان دالّة على قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين والبعث والجزاء[1].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة يدور حول تقرير حقيقة الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء، فهي تنذر بالهلاك لمن لم يقبل ما في القرآن من الخير والبركة والرحمة، وذلك بما فيها من

---

(١) من المفسرين الذين رجحوا أن الدخان آية ناتجة عن دعاء النبيّ ﷺ على قريش: الطبري، **جامع البيان**، ج ٩، ص ٧٣٤٠، والآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٣، ص ١١٦، ١١٧، ومن المفسرين الذين ذكروا الوجهين دون ترجيح: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ٢٦٥، ٢٦٦، والرازي، محمد بن عمر (ت: ٦٠٦ هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط ٣، ١٦ م، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥. ج ٢٧، ص ٢٤٣- ٢٤٥، ومن المفسرين الذين رجحوا القول الثاني: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ١٨٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٣٢١٢. وقد اعتمد القائلون بالقول الأول على رواية في **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، برقم: ١٢٤٨، و**صحيح مسلم**، باب صفات المنافقين، برقم: ٢٧٩٨.

وسائل لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال الإيمان، كالقصة ومشاهد القيامة ومصارع الغابرين ومشاهد الكون، وآية الدخان دالّة على ذلك على كلا المعنيين(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بما يدعو إليه النبيّ ﷺ وما أنزل عليه من القرآن من كمال قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين ـ بعد الإنذار بالآيات ـ والبعث ثم الحساب، ولما كانت آية الدخان (على المعنيين المذكورين) دالّة على المحور المذكور كونها تدلّ على إهلاك المكذّبين، سمّيت السورة بها للتحذير من التكذيب. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الإنذار بالآيات الدالة على قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين والبعث ليوم الحساب**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدمة تنذر المكذّبين بآية الدخان كونها دالة على قدرته تعالى على العذاب يوم القيامة، ثم عرض قصصي يؤكّد قدرة الله على إهلاك المكذّبين، مع تعقيب يؤكّد قدرته على البعث، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق(٢).

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٦٢، وقد ذكر المعنيين دون ترجيح، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ٣٢٠٦- ٣٢١٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٥، ص ٢٧٦- ٢٩٤، وقد رجح المعنى الأول، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ١٤٣، وقد رجحوا المعنى الأول. ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ١٦١، ١٦٢، وقد رجح المعنى الأول، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٦، والعرض القصصي مع التعقيب: ١٧- ٣٩، والخاتمة: ٤٠- ٥٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، أولاً: منها أمور تؤكّد ما يدعو إليه القرآن من كمال قدرة الله على إهلاك المكذّبين والبعث: أ) فقوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾: ٣، لم يذكر إلا هنا، ب) وقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾: ٣٨، هنا فقط بهذه الصيغة، وفي سورة الأنبياء: ١٦ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بدلاً من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ج) وفي المقابل قوله ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: ٩، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، د) وقوله ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ١٣، هنا فقط بهذه الصيغة، هـ) وقد تكررت فيها كلمة «مبين» خمس مرات: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هنا: ٢، وفي سورة الزخرف: ٢، فقط، ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ١٣، وفي سورة الزخرف: ٢٩، فقط، ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾: ١٠، هنا فقط، ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: ١٩، هنا فقط على لسان موسى وليس بوصف الله له، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾: ٣٣، وقريب منها في =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة دعوة إلى الإيمان بهذا القرآن وما فيه من الإخبار عن كمال قدرة الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾، فالذي أنزل القرآن هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما وهو الله القادر على البعث. ولاحظ قوله «إنا كنا منذرين» المؤكّد للمحور المذكور، وهو الإنذار بآية الدخان الدالة على إهلاك المكذّبين.

وقد بيّنت المقدّمة في المقابل موقف المكذّبين: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾، وفي هذا إثبات لقدرته تعالى على إهلاك المكذّبين أيضاً كما هو قادر على البعث، وبالإمكان إثبات ذلك سواء على المعنى الأول للدخان، فتكون استجابة الله لدعوة الرسول ﷺ عليهم حتى أصبحوا يرون ما بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من أثر الجهد والجوع، دليلاً على قدرته على الإهلاك بالبطشة الكبرى سواء في يوم بدر أو في يوم القيامة، بعد أن رفع عنهم آية الدخان هذه لعلهم يرجعون، أو أن يكون الدخان من علامات يوم القيامة، فهو دالّ على قدرته تعالى على الإهلاك والبعث، وهو عذاب مكشوف عنهم إلى ذلك اليوم، لعلهم يرجعون.

فالسياق الذي ذُكر فيه اسم السورة يدعو إلى الإيمان بعد التهديد بذكر الآية الدالة على قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين، وهذا أمر مشترك مع قصة موسى عليه السلام كما سيأتي.

= سورة الصافات: ١٠٦، و) قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾: ١٥، هنا فقط عن المكذّبين من أمة محمد ﷺ، وقريب منه في سورة الأعراف: ١٣٥، والزخرف: ٥٠، لكن عن قوم فرعون، ز) هي الوحيدة التي تكرر فيها نسبة «البطش» إلى الله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: ١٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالمكذّبين بالبعث: أ) فقولهم ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾: ٣٥، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الصافات: ٥٩، وقد تميّزت سورة الدخان بقوله عن أهل الجنة ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾: ٥٦، ب) وقولهم ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾: ٣٥، هنا فقط، ج) وقولهم ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: ٣٦، ذكر هنا وفي سورة الجاثية: ٢٥ ﴿ٱئۡتُواْ﴾ بدلاً من ﴿فَأۡتُواْ﴾. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، لاحظ قول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ المشابه لوصف آية الدخان، فالآيات التي أنذر بها موسى عليه السلام قومَه ودعاهم بها إلى الإيمان، مشابهة لآية الدخان التي أُنْذر بها قومُ النبيّ ﷺ ودُعوا بها إلى الإيمان، ولاحظ ذكر دعاء موسى عليهم، وهو مشابه لدعاء النبيّ ﷺ على قريش ـ على المعنى الأول للدخان ـ وقد استجاب الله لموسى وبشّره بالفرج وإهلاك المجرمين[1].

وأعتقد أن اختيار قصة موسى عليه السلام للعرض في هذه السورة مشابه أيضاً لسبب النزول المذكور من ناحية ثانية، وهي أن القرآن قد أخبرنا في سورتي الأعراف والزخرف أن الله ابتلى فرعون وقومه بسبع آيات، إلى أن قال الله تعالى عنهم في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾. والله أعلم.

ثم انتقل السياق إلى تعقيب يبيّن قدرة الله تعالى على البعث، بعد بيان قدرته على إهلاك المكذّبين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، ولاحظ الرَّدّ عليهم ببيان مصارع المكذّبين، وكما أن الله هو خالق السماوات والأرض

---

(١) قد أشار أ. د فضل عباس إلى التشابه بين سبب النزول المذكور ومشاهد قصة موسى هذه، واعتبر أن انتقام الله من المشركين بالبطشة الكبرى يوم بدر، مشابه لبطشه بإغراق فرعون وجنوده. ينظر: **قصص القرآن الكريم**، ص ٥٥٠.

بالحقّ، فهو القادر على بعث الجميع يوم القيامة. فسياق السورة كما ترى يؤكّد دلالة اسم السورة على قدرة الله على إهلاك المكذّبين والبعث ليوم الحساب.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، ببيان مصير المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾. وببيان مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾. ولاحظ وصف مصيرهم بالمقام الأمين، لأنهم لمّا آمنوا بالآيات الدالّة على قدرة الله على إهلاك المكذّبين ـ كآية الدخان ـ استعدّوا للقاء الله بالعمل الصالح فأمّنوا أنفسهم من العذاب، وجوزوا بالمقام الأمين يوم القيامة.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بما جاء في القرآن من بيان قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين والبعث ليوم القيامة، ختمت بأمر النبيّ ﷺ بالصبر على دعوة الناس بهذا القرآن، وأمرته بارتقاب إهلاك المكذّبين إن أصرّوا على تكذيبهم على المعنى الأول لآية الدخان، أو بارتقاب ما سيصيرون إليه يوم القيامة على المعنى الثاني: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الدخان

سورة الإنذار بالآيات الدالة على قدرته تعالى على إهلاك المكذبين والبعث يوم الحساب

الموضوع الأول (الآيات: ١-١٦)

المقدّمة الدالّة على أن الله مُنْزل القرآن، هو الذي يُنْذر الناس بآية الدخان الدالة على قدرته على إهلاك المكذّبين:

■ افتتحت السورة ببيان فضل هذا القرآن، وأن الذي أنزله هو خالق السماوات والأرض: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

■ ثم حذّرت من قدرة الله خالق الأكوان ومنزل القرآن على إهلاك الكافرين: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٣٩)

عرض قصصي يؤكّد قدرة الله على إهلاك المكذّبين، مع تعقيب يؤكّد قدرته تعالى على البعث:

■ عرض السياق قصة موسى عليه السلام الذي أنذر قومه بسلطان مبين: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩﴾، وهو وصف مشابه لآية الدخان.

■ ثم عرضت قوله عليه السلام حينما كذَّب قومُه الآيات التي أيّده الله بها: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢﴾، وأجابه الله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾، فعَرْض مصيرهم بعد التكذيب بالآيات البينات مشابه لسبب النزول المذكور للمعنى الأول لآية الدخان.

■ ثم عقب السياق على القصة بما يدلّ على قدرته تعالى على البعث، كما هو قادر على إهلاك المكذّبين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥﴾، وقد رَدّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٠-٥٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين والبعث يوم الحساب: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١﴾.
- وأعادت التأكيد على ذلك ببيان مصير المكذّبين: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥﴾.
- وبيّنت مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين، ختمت بأمر النبيّ ﷺ بارتقاب إهلاك المكذّبين - على المعنى الأول لآية الدخان - أو بارتقاب ما سيصيرون إليه يوم القيامة- على المعنى الثاني: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾.

سورة الجاثية

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الدلالة اللغوية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن منظور: «جثا يجثو ويَجْثي جُثُوًّا وجُثيًا، على فعول فيهما: جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها، والجاثي: القاعد، وفي التنزيل: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ (الجاثية: بعض الآية: ٢٨) قال مجاهد: مستوفِزين على الرُّكَب، قال أبو معاذ: المستوفِز: الذي رفع أَلْيَتَيْه ووضع ركبتيه»[١]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان حال الأمم يوم القيامة، إذ إنها ستجثو كل أمةٍ بين يدي ربّها الجبّار بكل خضوع واستسلام وخوف، وستحاسب كل أمة بعملها، وذلك يدلّ على قدرة الله على البعث والجزاء.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الدلالة على أن الله الذي أنزل هذا الكتاب وشرع هذا الشرع الذي هو غاية الاستقامة، هو العزيز والمختصّ بالكبرياء، فهي تدعم البناء العقلي للإيمان من خلال النظر في ملكوت السماوات والأرض، فمن المكلّفين من حكّم عقله فسمع وأطاع، ومنهم من تبع هواه فضلّ، وقد اقتضت حكمة الله أن يجمع الخلق ليوم الفصل ويدين عباده، فالسورة تصوّر جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية، وطريقتهم في مواجهتها، وكذلك تبيّن موقف أهل الكتاب، وفريق آخر لا يعرف حُكْماً يرجع إليه إلا هواه، وفريق ينكر الآخرة والبعث والحساب، ثم بيّنت حال أولئك كلهم يوم القيامة من خلال مشهد الجُثُوّ بين يدي الله[٢].

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٣، ص ٧٧.

(٢) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد سور القرآن**، ص ٩٧، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٦٥، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان عظمة الله تعالى وحكمته المتجلّية في الدنيا بآياته الكونية والقرآنية، وبيان موقف الأمم من تلك الحقيقة في الدنيا، وبيان عظمة الله وحكمته في الآخرة من خلال مشهد جُثُوّ تلك الأمم بين يدي ربّها ذي الكبرياء والعظمة، لتنال كل أمة جزاءها العادل، وإنما اختير من مشهد جُثُوّ الأمم يوم القيامة اسماً للسورة «الجاثية» لأن دلالته السياقية فيها أبلغ تعبير عن ذلك المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان الحساب الجماعي للأمم يوم القيامة بين يدي الله العظيم**.

وفيما يلي بيان مدى الترابط بين اسم السورة «الجاثية» ودلالاته، مع موضوعات السورة:

تحوي السورة مقدّمةً فيها أدلة عقلية على تعظيم الله ـ الذي ستجثو الأمم بين يديه يوم القيامة ـ وقدرته على البعث، ثم حديثاً عن خمسة أفرقة من الناس تجاه الإيمان بآيات الله، وهم: كل أفّاك أثيم، وأهل الكتاب، والأمة الإسلامية متمثّلة بالقيادة المحمدية، ثم كل من اتخذ إلهه هواه، والدهريون، ثم خاتمةً عُرض فيها مشهد جُثُوّ الأمم بين يدي ربها[1].

= والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٨٨، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٣٢١٩ و ٣٢٢٠، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٥، ص ٣٢٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ١٦٠، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٣٨٧. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) المقدّمة شملتها الآيات: ١ - ٦، والفريق الأول: ٧ - ١١، والفريق الثاني: ١٥، ١٦، والفريق الثالث: ١٧ - ١٩، والفريق الرابع: ٢٣، والفريق الخامس: ٢٤ -٢٦، والخاتمة: ٢٧ -٣٧. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان عظمته تعالى في الدنيا والآخرة: أ) فقد ذكر الاسمين الجليلين «العزيز الحكيم» في مقدّمتها وخاتمتها، وكأنهما يشيران إلى عزّته وحكمته تعالى دنيا وأخرى، ب) قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ٦، لم يذكر إلا هنا، وانظر أيضاً قوله ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾: ٢٣، ج) قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ٣٦، لم يتكرر في القرآن ذكر «ربّ» ثلاث مرات في نفس الآية، د) لم تنسب «الكبرياء» لله تعالى إلا هنا: ٣٧، ثانياً: ومنها ما يتعلق ببيان موقف الأمم المكذبة: أ) فقوله ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: ٧، لم يذكر في موضع آخر إلا في سورة الشعراء: ٢٢٢، بصيغة قريبة، ب) قوله ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: ٨، لم يذكر في موقع آخر إلا في سورة لقمان: ٨، بصيغة قريبة، ج) قوله ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: ٢٣، لم يذكر في موقع آخر إلا في سورة لقمان: ٤٣، بصيغة قريبة جداً، علماً بأن رقم سورة الجاثية: ٤٥، ولقمان: ٢٥، د) قوله ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: ٢٤، لم يذكر في موقع آخر إلا في سورة المؤمنون: ٣٧، وبصيغة قريبة، ولكن سورة الجاثية تميّزت بقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾: ٢٤، =

أولاً: تحوي مقدّمة السورة بعض الآيات الكونية والقرآنية الدالة على عظمته وحكمته في الدنيا: فذكرت أن منزل الكتاب هو الله العزيز الحكيم: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾، وانظر قوله تعالى الذي فيه تعظيم الله من خلال الآيات القرآنية: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾. أما الآيات الكونية التي تبيّن عظمة الله: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾، فانظر كيف افتتحت السورة ببيان حكمة وعظمة الله تعالى وحكمته الذي ستجثو الأمم بين يديه يوم القيامة لتنال منه جزاءها العادل.

ثانياً: ثم انتقل السياق لبيان حال الفريق الأول من الناس تجاه الإيمان بعظمة الله وحكمته، وهم كل أفّاك أثيم مستكبر عن آيات الله، وابتدأ السياق بهم لأنهم أكثر الأمم إثماً، وأعظمهم جرماً: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾. ولاحظ أن السياق قد ذكر المصير الأخروي لهذا الفريق، ولا يخفى ترابط ذلك مع مشهد جُثُوّ الأمم يوم القيامة الذي سمّيت السورة به، فهذا الفريق هو أحد الأمم الجاثية في ذلك الموقف.

وقبل الانتقال للفريق الثاني أعاد السياق ذكر آيات كونية تدلّ على عظمته تعالى، ثم أمرت المؤمنين المستضعفين بالغفران والصبر على المكذّبين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥﴾، والتناسق بين تلك الأدلّة وأمر المؤمنين واسم السورة واضح، فهو سبحانه مع عظمته يمهل لكن لا يهمل، ويصبِّر المؤمنين بأن هؤلاء المكذّبين سينالون جزاءهم في اليوم الذي سيجثون فيه بين يدي الله.

= فلم يتكرر، هـ) وقوله عنهم ﴿مَا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾: ٣٢، لم يتكرر كذلك. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وانتقل السياق إلى الفريق الثاني وهم أهل الكتاب: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ كيف ذكر سبحانه أنه سيقضي بينهم يوم القيامة، ولا يخفى ترابط ذلك مع اسم السورة ودلالاته، فأهل الكتاب أحد الأمم التي ستجثو بين يدي ربها يوم القيامة، لتنال جزاءها العادل.

أما الفريق الثالث فهم الأمة الإسلامية متمثّلة بقيادة سيّدنا محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ أن السورة أمرت النبيّ ﷺ باتّباع شرع الله تعالى، وبيّنت أن الله وليّ المؤمنين المتقين، وذلك متناسق مع مشهد جُثُوّ الأمم يوم القيامة، فالأمة الإسلامية إحدى الأمم الجاثية في ذلك الموقف، ثم يدخل الله من آمن وعمل صالحاً منهم في رحمته، ذلك هو الفوز المبين.

ولاحظ التعقيب على ذكر تلك الأفرقة الثلاثة بما يؤكّد حقيقة مشهد جُثُوّ الأمم يوم القيامة مع بيان عظمة الخالق سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى الفريق الرابع: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فكل من أنكر خالقه واتخذ هواه إلهاً داخلٌ تحت قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، وترابط هذا الفريق مع اسم السورة يعود إلى كون هذا الفريق أحد الأمم الجاثية بين يدي ربّها يوم القيامة لتنال منه جزاءها العادل.

بقي الفريق الخامس، وهم الدهريون المنكرون للحياة الآخرة: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، ولاحظ تعظيم الله تعالى في الآيات

القرآنية المتلوّة على هؤلاء، وانظر كيف كان الرَّدّ عليهم متناسقاً مع اسم السورة ودلالاته: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثالثاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق، وفيها بيان حال تلك الأفرقة جميعاً يوم القيامة في مشهد الجُثُوّ بين يدي الله «ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنَيْن، فريقين اثنين، يجمعان كل هذه الحشود: الذين آمنوا، والذين كفروا، فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله، وهذان هما الحزبان: حزب الله وحزب الشيطان، وما عدا ذلك من المِلَل والنِّحَل والأجناس والأمم فإليهما يعود»[1]، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، ثم يكون مصير فريق المؤمنين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾، وأما مصير فريق الكافرين: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾. فأنت ترى أن هذا المشهد الذي سمّيت السورة باسمه، هو أدلّ ما في السورة على المصير العادل لتلك الأمم، من الله العزيز الحكيم ذي الكبرياء. فلا ريب أنه كان الاسم الأجدر لها.

ولاحظ ختام السورة الذي يصف الله تعالى بصفات عظيمة متناسقة مع دلالات اسم السورة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾. ولاحظ كيف وصف ربّنا ذاته بلفظة «ربّ» ثلاث مرات في آية ولم يتكرر ذلك في آية أخرى من القرآن، فهذا ختام يبيّن عظمة الله تعالى وحكمته، وهكذا يلتقي ختام السورة مع مفتتحها الذي بيّن عظمة الله وحكمته، وفي ذلك أشدّ التناسق مع اسم السورة «الجاثية» ودلالاته، الدّالّ أبلغ دلالة على المحور المذكور.

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٥، ص ٣٢٣٣.

سورة الجاثية

سورة بيان الحساب الجماعي للأمم يوم القيامة بين يدي الله العظيم

الموضوع الأول (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تبيّن بعض مظاهر عظمة الله تعالى - الذي ستجثو الأمم بين يديه- من خلال آياته القرآنية والكونية:

- افتتحت السورة ببيان عظمة الله تعالى مُنْزل القرآن: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.
- وعرضت بعض مظاهر عظمته تعالى في آياته الكونية: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.
- ثم هدّدت الذين لا يؤمنون بالله العظيم بعد أن دلّت الآيات عليه سبحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٦)

بيان موقف فِرَق الناس تجاه الإيمان بآيات الله:

- بعد بيان مظاهر عظمة الله تعالى في القرآن وفي الأكوان، عرض السياق موقف الناس تجاه هذه الآيات:
- **أولاً**: كل أفَّاك أثيم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾.
- **ثانياً**: أهل الكتاب: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.
- **ثالثاً**: الأمة الإسلامية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾.
- **رابعاً**: من اتخذ إلهه هواه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾.

■ **خامساً**: الدهريون المنكرون للآخرة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٧-٣٧)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ عرضت الخاتمة مشهد جُثُوّ الأمم بين يدي الله العظيم يوم القيامة: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

■ ثم بيّنت مصير المؤمنين منهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

■ وبيّنت مصير الكافرين منهم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان عظمة الله تعالى الذي ستجثو الأمم بين يديه، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

سورة الأحقاف

﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الحاء والقاف والفاء: أصل واحد يدلّ على ميل الشيء وعوجه، .. ولهذا قيل للرمل المنحني: حِقْف، والجمع: أحقاف»[1]، وقال الإمام ابن منظور: «الحِقف من الرمل: المعوجُّ، .. والأحقاف: ديار عاد، واحدها: حِقْف، وهو المستطيل المشرف، وهي رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عادٌ تنزل بها»[2]. وقد ذكر سياق هذه السورة الكريمة أن هوداً عليه السلام دعا قومه الذين كانوا يقطنون في الجزيرة العربية قرب اليمن إلى الإيمان والتوحيد، ولكنهم آثروا الكفر والشرك حتى أهلكتهم الريح ودمّرت مساكنهم، فالملاحظ من الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة أن في ذكر موقع مساكنهم التي يعرفها العرب جيّداً، مزيداً من التهديد والترهيب لهم؛ لأنهم مشركون أيضاً، فهم معرّضون للعقوبة مثلهم إن أصرّوا على شركهم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين محور هذه السورة وموضوعاتها وبين

---

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٧٧، بتصرف.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ١٧٥. بتصرف.

اسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة معالجة قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود بكل ما فيه، والدعوة إلى الإيمان بالوحي وبالرسالة، وأن سيدنا محمداً ﷺ رسول سبقته الرسل، أوحي إليه القرآن مصدّقاً لما بين يديه من الكتب، وفي عرض قصة عادٍ الذين سكنوا بالأحقاف إشعار بأن إنذارات القرآن متحقّقة، وذلك يفيد التهديد لكفار قريش، كما أن في قصتهم دلالة على صدق قيام الساعة أيضاً، فإن القادر على إهلاكهم، قادر على بعثهم للحساب، وفي قصتهم دلالة على أن سيدنا هوداً عليه السلام نبيّ مُبلّغ عن الله كما أن سيدنا محمداً عليه السلام مُبلّغ عن الله أيضاً[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرسول ﷺ كونه أحد الرسل الذين أرسلهم الله للعالمين مبشّرين ومنذرين، فليس بِدْعاً من الرسل، وإنما سمّيت هذه السورة بـ «الأحقاف» لأن قصتهم المذكورة فيها مع التعقيب عليها، أدلّ ما في السورة على المحور المذكور، فهي تبيّن أن هوداً عليه السلام أحد الأنبياء الذين أرسلهم الله، وفيها أبلغ إنذار للكفار المعاصرين للنبيّ ﷺ الذين يعلمون جيّداً ما حصل مع أهل الأحقاف القريبين منهم. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن النبيّ ﷺ ليس بِدْعاً من الرسل، وأن ما يدعو إليه من التوحيد وما يحذّر به من الإهلاك ليس بِدْعاً من الأمر**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام رئيسية: مقدّمة تبرز بعض مظاهر حكمة الله تعالى وكمال قدرته المتفرّدة في الكون، مع النعي على المشركين، وثانياً: تصديق

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ٩٨، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٧٠، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ١١٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٢٥٢ و ٣٢٦٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ١٧٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٣٩٠،ود. شحاتة، **أهداف كل سورة**، ج ٢، ص ٢٠-٣٢، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٣٤٥- ٣٤٨، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

للنبيّ ﷺ وتصديق لرسالته، وثالثاً: عرض موقفَيْن متقابلين من قضية الإيمان بالله ورسالاته، أولهما: موقف أهل الأحقاف الذين كذّبوا نبيّهم عليه السلام وأصرّوا على الشرك، وثانيهما: موقف النفر من الجنّ الذين آمنوا وولّوا إلى قومهم منذرين، ورابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٦، وتصديق النبيّ ﷺ: ٧- ٢٠، وقصة الأحقاف: ٢١- ٢٨، والنفر من الجن: ٢٩- ٣٢، والخاتمة: ٣٣- ٣٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تعطي مع سورة هود صورتين متقابلتين متكاملتين، فسورة هود التي سمّيت باسم النبيّ تفيد الحزم والجزم والصرامة في الدعوة إلى التوحيد كما سبق، وسورة الأحقاف التي سمّيت باسم مكان معيشة القوم تفيد مزيد التهديد لكفار قريش ببيان ما حصل مع مَنْ كذب بدعوة التوحيد قريباً منهم، واللافت للنظر أن السورتين قد اشتركتا في عدد من الأمور متلائمة مع المحور الخاص لكل سورة تؤكّد هذه الحقيقة، فأولاً: جاء في مقدّمة السورتَيْن بيان حكمة منزل الكتاب سبحانه وتعالى، مع ذكر بعض مظاهر القدرة الإلهية في السماوات والأرض، مع تثبيتٍ للنبيّ ﷺ في دعوته، وقد اشتركت خاتمة السورتين أيضاً بذكر تثبيت النبيّ ﷺ، وبعض مظاهر القدرة الإلهية في السماوات والأرض، وقد جاء في آخر آية من سورة الأحقاف ذكر أولي العزم من الرسل، وهم جميعاً مذكورون في سورة هود ما عدا عيسى عليه السلام، وثانياً: جاءت مشتقات الجذر «فري» في سورة هود سبع مرات، وقد تكرر فيها السؤال التوبيخي ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مرتين: ١٣، ٣٥، بينما جاءت مشتقات هذا الجذر في سورة الأحقاف ثلاث مرات، وقد ذكر فيها هذا السؤال مرة واحدة: ٨، وثالثاً: ذكر موسى عليه السلام في سورة هود ثلاث مرات: ١٧ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، ٩٦، ١١٠، وفي سورة الأحقاف مرتين: ١٢ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، ٣٠ ﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، ورابعاً: ذكرت النار في سورة هود خمس مرات: ١٦، ١٧ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، ٩٨ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، ١٠٦، ١١٣، بينما في سورة الأحقاف مرتين: ٢٠، ٣٤ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وخامساً: ذكرت مشتقات الجذر «جرم» في سورة هود مرتين: ٥٢ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾، ١١٦، وفي سورة الأحقاف مرة واحدة: ٢٥ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وسادساً: ذكرت خسارة المكذبين باليوم الآخر في سورة هود مرتين: ٢١، ٢٢، وفي سورة الأحقاف مرة واحدة: ١٨، وسابعاً: ذكر اسم الفاعل «معجز» في سورة هود مرتين: ٢٠، ٣٣، وفي سورة الأحقاف مرة واحدة: ٣٢، وثامناً: جاء الفعل الماضي «حاق» مرة واحدة في كلتا السورتين، ففي سورة هود: ٨ ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وفي سورة الأحقاف: ٢٦ وبالجملة نفسها، وتاسعاً: جاءت لفظة «القرون» مرة واحدة في كلتا السورتين، ففي سورة هود: ١١٦، وفي سورة الأحقاف: ١٧، وأما عاشراً: فقد جاءت مشتقات الجذر «هلك» في سورة الأحقاف مرتين: ٢٧ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾، ٣٥ ﴿بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقد كان ذلك مناسباً لسياق تهديد كفار قريش في سورة الأحقاف، بينما في سورة هود مرة واحدة: ١١٧ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وذلك مناسب لسياق الدعوة إلى التوحيد. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وإذا تأملتَ المواضع المذكورة سابقاً في سياق السورتَيْن سيظهر لك أنها جاءت بصيغ تناسب المحور المذكور لكلتا السورتين.

أولاً: جاء في المقدّمة ذكر حكمة مُنزل الكتاب سبحانه، وذكر بعض مظاهر الآيات الكونية الدالة على عظمته سبحانه، مع بيان باطل المشركين: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾، فمن عبد إلهاً فليخبرنا ماذا خلق من هذا الكون العظيم؟ فافتتاح السورة بإثبات التوحيد لله عزّ وجلّ ودحض الشرك، أمرٌ متلائم مع دلالات قصة الأحقاف الذين شابهوا مشركي قريش في الشرك، حتى نزل بهم العذاب.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى تصديق النبيّ ﷺ وتصديق رسالته المتمثّلة بالقرآن الحكيم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾، ولاحظ قول الله تعالى عن النبيّ ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فهو ﷺ أحد الأنبياء الذين أرسلهم الله، كما أن هوداً عليه السلام الذي أرسل إلى الأحقاف أحد هؤلاء الأنبياء كذلك، وفي سياق تصديق النبيّ ﷺ الداعي إلى التوحيد وما يترتّب عليه من الإيمان بالآخرة، عرض السياق موقفَيْن متقابلين للبشر من هاتين القضيتين، فكان أولهما موقف المؤمن الشاكر: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾، وانظر ماذا كان مصيره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝١٦﴾، ولاحظ قوله ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ فنعيم المؤمنين محقّق، كما أن عقاب المنكرين محقّق كذلك.

والموقف الآخر هو موقف الكافر بالله تعالى وبالآخرة: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ

أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾، وانظر ماذا كان مصيره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ المتلائم مع قوله سابقاً ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾، وانظر قوله تعالى ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وهو من ناحية فيه رَدّ على من زعم أن الأمم الخالية لا بعث لها ولا حساب، وهو من ناحية أخرى منسجم مع محور السورة الذي يدعو المشركين إلى النظر فيمن أُهلِك من الكافرين قريباً منهم، وقد كان أهل الأحقاف أحد هؤلاء، ومن ناحية ثالثة يتلاءم ذكر الجنّ هنا مع ما سيأتي من ذكر موقف النفر المؤمنين من الجنّ آخر السورة.

فأنت ترى أن السياق يدعو الكفار والمشركين إلى النظر في عواقب الأمم المكذّبة السابقة قبلهم، وهم يعلمون عدداً من هذه الأمم، وذلك منسجم مع ما سيأتي من عرض قصة الأحقاف مع التعقيب عليها.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة الأحقاف، وهي تمثّل أنموذجاً تحذيرياً للمشركين، لأنها تبرز ماذا كان عاقبة كفرهم وشركهم: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وأول ما يفاجئك أن اسم النبيّ (هود) عليه السلام لم يذكر، وأعتقد أن سبب ذلك هو أن المقصود من عرض هذه القصة تحذير كفار قريش من أن يوصلهم كفرُهم وشركهم إلى ما وصلت إليه الأمم السابقة وهم يعلمون أمثلة متعدّدة على ذلك، فلذلك سمّيت السورة باسم مكان معيشة إحدى هذه الأمم التي يعرفونها، بينما في سورة هود التي سمّيت باسمه عليه السلام، ذكر اسمه؛ لأن دلالات أقواله المذكورة في تلك القصة هي الأدلّ على حقيقة التوحيد صراحة وحزماً وجزماً.

ومما يزيد ذلك تأكيداً قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ فهو أيضاً ليس بِدْعاً من الرسل، فقد كانت الأقوام تعلم أن سُنّة الله هي إرسال الأنبياء قبل وقوع العقاب.

وانظر ماذا كان مصير أهل الأحقاف المكذّبين: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وأعتقد أن إهلاكهم بالريح متلائم مع الدلالة اللفظية لاسم السورة، فكما أن الله جعل في الرياح قدرة على تحريك الكثبان الرملية من أماكنها، فقد جعل لها القدرة على إهلاك من كان يعيش بين هذه الكثبان، ولاحظ الإشارة إلى مساكنهم التي بقيت آية لغيرهم، وفي ذلك تحذير لكفار قريش الذين يعلمون حقيقة ما حصل في الأحقاف.

وقد كان التعقيب الإلهي على القصة أيضاً محذّراً للكفار من أن يؤول أمرهم إلى ما آلت إليه الأمم المكذّبة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الذي يؤكّد المحور المذكور للسورة، فإذاً قصة الأحقاف المذكورة في هذه السورة هي أدلّ ما فيها على أخذ العبرة والاتعاظ بما حَلّ بالأمم المكذّبة السابقة، ولذلك سمّيت السورة باسم مكان معيشتهم وليس باسم نبيّهم هود عليه السلام، ولا حتى بالاسم الذي اشتهروا به (عاد).

ثم انتقل السياق إلى ذكر موقف النفر من الجنّ، الذين آمنوا حين سماعهم قراءة القرآن، فكان ذكرهم بمثابة أنموذج الإيمان المقابل لأنموذج الكفر المتمثّل بأهل الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾، ولاحظ أنهم استشهدوا على صدق القرآن بصدق كتاب موسى عليه السلام، وهذا يؤكّد محور السورة الدالّ على أن النبيَّ ﷺ ليس بِدْعاً من

الرسل، ولاحظ أيضاً أنهم لم يكتفوا بمجرّد الإيمان، بل ولّوا إلى قومهم داعين إياهم إلى الإيمان بالنبيّ ﷺ وبالقرآن. فذكر هذه الحادثة متلائم مع قصة الأحقاف التي سمّيت السورة بها، كونها تعطي صورة مقابلة لها.

فإذا كان نفر الجنّ قد آمنوا حينما أدركوا أن النبيّ ﷺ ليس بِدْعاً من الرسل، فما بالُ الكفار من قريش وهم بشر لا يؤمنون بعد بيان السورة أن النبيّ ﷺ ليس بِدْعاً من الرسل؟

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فهي قد أعادت التذكير ببعض مظاهر قدرة الله في الخلق، الدالة على قدرته على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾، وأعادت التحذير للكفار ببيان المصير الأخروي لهم إن هم أصرّوا على كفرهم: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بدحض باطل المشركين وحذّرتهم من الإصرار عليه، ختمت كذلك بالتحذير ذاته وبيان أن النبيّ ﷺ ليس بِدْعاً من الرسل، وهو مأمور بالصبر مثلهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وهكذا يلتقي البدء والختام كما هي العادة في هذا القرآن المعجز على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الأحقاف

سورة بيان أن النبيّ ﷺ ليس بِدْعاً من الرسل، وأنّ ما يدعو إليه من التوحيد وما يحذّر به من الإهلاك ليس بِدْعاً من الأمر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تُبْرز بعض مظاهر حكمة الله تعالى وكمال قدرته وتنعي على المشركين بعد بيان هذه المظاهر:

- افتتحت السورة ببيان أن الكتاب المنزل على النبيّ ﷺ مِن خالق الأكوان سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.
- فهو سبحانه خالق الأكوان: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.
- ثم نعت المقدّمة على المشركين بعد بيان هذه المظاهر: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.
- فالمقدّمة تبرز أن القرآن الذي ينذر به النبيّ ﷺ قومه ليس بِدْعاً من الأمر، بل إن إرسال الرسل سُنَّة الله في الأرض.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٠)

تصديق النبيّ ﷺ وتصديق رسالته مما يؤكّد أنه ليس بِدْعاً من الرسل:

- فقد نفى السياق عنه ﷺ فرية اتهامه بالسحر ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.
- ونفى عنه ﷺ فرية افتراء القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾.
- ثم عرض السياق موقفَيْن متقابلين من قضية تصديق النبيّ ﷺ وتصديق رسالته، أولهما موقف المؤمن الشاكر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وقد بيّن السياق مصيره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝١٦﴾.
- وثانيهما موقف الكافر بالله تعالى وبالآخرة: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾، وقد بيّن السياق مصيره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢١-٣٢)

عرض موقفين من قضية الإيمان بالله ورسالاته:

- أولهما موقف أهل الأحقاف الذين كفروا برسالة هود عليه السلام ودعوته إياهم إلى التوحيد، حتى استحقّوا الإهلاك بالريح التي تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.
- وقد عقب السياق على القصة محذّراً الكافرين من أن يؤول أمرهم إلى ما آلت إليه الأمم المكذّبة ومنهم الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- والموقف الثاني موقف النفر من الجنّ الذين آمنوا برسالة سيدنا محمد ﷺ لما علموا أنه ليس بِدْعاً من الرسل: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٣-٣٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التذكير ببعض مظاهر قدرة الله مما يوجب الإيمان به وبرسالاته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.
- وأعادت تحذير الكافرين إنْ هم أصرّوا على كفرهم: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بتحذير الكافرين من الإصرار على الكفر بالرسول ﷺ، ختمت بتحذيرهم أيضاً مع بيان أنه ﷺ ليس بِدْعاً من الرسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

سورة محمد

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى نبيّ الإسلام سيّدنا محمد ﷺ، المرسل بالحقّ من الله تعالى، وما نتج عن بعثته من انقسام الناس لفريقين: منهم كافرون أضلّ الله أعمالهم في الدنيا وحرمهم الأجر في الآخرة، ومنهم مؤمنون هداهم الله فأصلح بالهم في الدنيا والآخرة. فاسم السورة يحثّ على الإيمان به ﷺ واتّباع دينه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو الصراع بين المؤمنين والكافرين، سواءً كان مادياً يسعّره الكافرون، أو خفياً يديره المنافقون، ولذلك تعرض السورة ملامح شخصيات أعداء الدين، وملامح شخصية المؤمنين المتبعين لمنهج النبيّ ﷺ، وذلك في صيغة هجوم أدبي على الكافرين، وتمجيد للمؤمنين، وبعثة سيّدنا محمد ﷺ بالرسالة من الله هو الذي نتج عنه هذا الصراع، وكان هو ﷺ قائد المؤمنين فيه وفق سياسة ربانية[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٧٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ١٤٨، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٢٧٨- ٣٢٨٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٢٢٥- ٢٢٩، ود. حسن محمد باجودة، **تأملات في سورة محمد ﷺ**، ص ١٧ -٢٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٣٩٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٣٠٧- ٣١١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٤٨- ٢٥٢.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيّدنا محمد ﷺ لينالوا الأجر في الدنيا والآخرة، وعرض موقف الكافرين والمنافقين ومصيرهم في الدنيا والآخرة، ولما كان نشوء الفريقين ناتجاً عن بعثة سيّدنا محمد ﷺ، جُعل اسمه الشريف ﷺ اسماً للسورة؛ للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيّدنا محمد ﷺ**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولاً: المقدّمة التي فيها عرض موقف الكافرين والمؤمنين وبيان جزائهم، ثانياً: عرضٌ لما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيّدنا محمد ﷺ، وعرضٌ لموقف الكافرين والمنافقين وجزاء الجميع يوم القيامة، ثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٣، وعرض ما يجب أن يكون عليه المؤمنون، وعرض موقف الكافرين والمنافقين: ٤- ٣٢، والخاتمة: ٣٣- ٣٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالمؤمنين، أ) فهي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «أعمال» التي هي أساس التصنيف والجزاء، وقد اختصّ منها فيما يتعلق بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: ٣٣، و﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: ٣٥، و﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: ٣٠، و﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ٤، وكلها لم تتكرر في القرآن بالصيغ ذاتها، ب) هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها «البال» منسوباً للمؤمنين: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: ٢، و﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾: ٥، ج) هي الوحيدة التي اختصّت بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ١١، فلم يتكرر بالصيغة ذاتها، وكذلك قوله ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: ٣، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالكافرين، أ) فقد ذكرت فيها كلمة «أعمال» المنسوبة لهم خمس مرات: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ١، ٨، و﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ٩، ٢٨، و﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ٣٢، ب) وهي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «حبط» المضاف لأعمالهم: ٩، ٢٨، ٣٢، ج) هي الوحيدة التي اختصّت بقوله تعالى عنهم: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾: ٨، وقوله ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: ١١، ووصفهم بأنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾: ٣، وبأنهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾: ٢٨، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بالمنافقين، أ) فقوله تعالى عنهم ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: ٢٤، ذكر هنا فقط، وكذلك قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: ٢٣، إذ لم يتكرر بالصيغة ذاتها، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وقد ذكر سيّد قطب لطيفة أخرى، وهي أن فواصل آي هذه السورة المنتهية بالميم جاءت وكأنها قذائف ثقيلة لإضفاء جوّ المعركة المستمرة بين المؤمنين والكافرين، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ٣٢٨٠، وقد ذكر الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا أن بيان هذه السورة أن أنهار الجنة خالية من الكدر والشوائب متناسب مع إخلاص المؤمنين في نصرة دينهم، من **دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٥٢.

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرض موجز لموقف الكافرين والمؤمنين بسيّدنا محمد ﷺ مع بيان جزاء الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾، فلاحظ بيان ضلال أعمال الكافرين وضياع الأجر عليهم، في مقابل قبول أعمال المؤمنين، وغفران ذنوبهم، وإصلاح بالهم، وذلك ناشئ عن العدل الإلهي، فالكافرون اتبعوا الباطل، والذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربّهم المنزل على النبيّ ﷺ. فمقدّمة السورة تعطي موجزاً عن محور السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بالنبيّ ﷺ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، فأهمّ واجبات المؤمنين نصرة الحقّ الذي جاء به نبيّهم ﷺ ومحاربة أعدائه، وقد بيّن السياق موقف الكافرين ومصيرهم لتهوين شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾.

ولكي يكتمل ترغيب المؤمنين بالقيام بواجبهم، وترهيب الكافرين لعلّهم يغيّرون موقفهم، عرض السياق مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن فريق آخر من الكافرين، وهم المنافقون، إذ عرضت السورة موقفهم وبيّنت مصيرهم لتحذير المؤمنين منهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨﴾.

وقد بيّن السياق أنهم يرتعشون فَرَقاً إذا أنزلت سورةٌ من القرآن تتحدّث عن القتال في سبيل الله، فهم يكرهون القتال خشية الموت حتى استحقّوا لعنة الله، وأن يعمي أبصارهم فلا يتدبّرون القرآن ولا يلتزمون بما جاء فيه من الأحكام، ولاحظ أن عرض موقفهم هذا يقابل أمر المؤمنين بقتال الكافرين في بداية السورة.

وقد بيّنت السورة مصيرهم أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد بيّن السياق أن من سُنَّة الله تمحيص الناس ليمتاز المؤمنون بالنبيّ ﷺ من الكافرين والمنافقين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾، فسياق السورة كما ترى يعرض ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيّدنا محمد ﷺ من المواقف والأحكام، ويبيّن موقف المنافقين المتهرّبين من ذلك، ويبيّن أنهم بتهرّبهم وكرههم للحقّ الذي جاء به سيّدنا محمد ﷺ أصبحوا هم والكافرون المكذّبون سواء.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت توجيه المؤمنين لما يجب أن يكونوا عليه لينالوا الأجر من الله، مع بيان موقف الكافرين ومصيرهم: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر موقف الكافرين بما جاء به النبيُّ ﷺ وجزائهم للتحذير منهم، ختمت بتحذير المؤمنين به ﷺ من البخل في الدفاع عن سبيل الله، مع التحذير من التولّي عنه ﷺ ببيان أن هذا أمر مستحقّ للعقوبة من الله: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسمها أشرف الدلالة.

سورة محمد

سورة بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ

الموضوع الأول (الآيات: ١-٣)

مقدّمة تعرض بإيجاز موقف الكافرين والمؤمنين بسيّدنا محمد ﷺ وتبيّن جزاء الفريقين:

- افتتحت السورة ببيان موقف الكافرين بسيّدنا محمد ﷺ للتحذير منه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾.
- ثم عرضت موقف المؤمنين به ﷺ للترغيب فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ②﴾.
- وبيّنت أن معيار الإيمان هو الاتباع، فالكافرون اتبعوا الباطل والذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم.

الموضوع الثاني (الآيات: ٤-٣٢)

عرض مفصّل لما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيّدنا محمد ﷺ، ثم عرض مفصّل لموقف الكافرين والمنافقين، مع بيان جزاء الجميع يوم القيامة:

- بيّن السياق أن أهمَّ ما يجب على المؤمنين نصرة الحقّ الذي جاءهم من الله ومحاربة أعدائه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ④﴾.
- ثم بيّن السياق موقف الكافرين مهوّناً من شأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ⑧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ⑨﴾.
- وبيّن السياق موقف المنافقين ومصيرهم ليحذر المؤمنون منهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ⑯﴾.

الموضوع الثالث (الآيات: ٣٣-٣٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.
- وأعادت بيان مصير الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان موقف الكافرين وجزائهم ليحذر المؤمنون منه، ختمت بتحذيرهم من البخل في الدفاع عن سبيل الله ومحاربة الكافرين، حتى لا يتعرّضوا للعقوبة من الله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

سورة الفتح

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤﴾

الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والتاء والحاء: أصل صحيح يدلّ على خلاف الإغلاق، . . . والفتح: النصر والإظفار»[1]. فخلاصة المعنى اللغويّ لاسم السورة يدور حول النصر والظفر، أما فيما يتعلّق بالدلالة السياقية لاسم السورة، فالذي ترجّح لي أن «الفتح» كناية عن صلح الحديبية، ولذلك لعدّة اعتبارات أولها: ما ذكره الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة من أن دلالة «الفتح» في القرآن هي انتشار الإسلام ودخول الناس أفواجاً في دين الله، فهو بذلك يكون ملازماً للنصر، أما دلالة «النصر» في القرآن فهي الغلبة على الأعداء بعد القتال الفعلي، وقد دخل كثير من الناس في الدين بعد صلح الحديبية، ولذلك سُمّي فتحاً[2]، وثانيها: ما رواه البخاري عن سؤال عمر بن الخطاب للنبيّ ﷺ حينما نزلت هذه السورة إثر الصلح، وقد كان راجعه أكثر من مرة في بنوده، فقال: يا رسول الله، أَوَفتحٌ هو؟ قال: «نعم»[3]، وثالثها: إن القول بأن «الفتح» هو فتح مكة يُبعده قولُه تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ㉑﴾ لأنه يحوي بشارة في هذه

---

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٣٤، بتصرف.

(٢) ينظر: أ.د أبو عودة، **شواهد في الإعجاز القرآني**، ص ٢٨٧.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٢٩٤٥.

السورة لذلك الفتح، فدلالة اسم السورة لا تدلّ عليه بل تبشّر به، ورابعها: المتأمّل في سياق السورة يجد معظمه حول أحداث ذلك الصلح.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين محور السورة وموضوعاتها واسمها، فذكروا أن محور السورة يدور حول التعريف بصلح الحديبية من حيث بيان صفات المؤمنين فيه، والتي أهمّها استواء الحالة النفسية والإيمانية لديهم على المنهج الرباني، مع إدراك ونضج عميقين، والإيحاء بتكريم المبايعين تحت الشجرة، وتعظيم شأن تلك البيعة التي كانت أحد أحداث ذلك الصلح، ومن حيث تصوير نتائجه التي أهمّها بيان حال المؤمنين وما حولهم إبّان هذا الصلح، فقد كان فتحاً في الدعوة، وفتحاً في الأرض، إذ تمّ التخلّص من يهود خيبر بعده بقليل، وفتحاً لموقف المسلمين الذي ازداد قوّة في جزيرة العرب[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ يورث رضى الله وتهيئة النصر، ولما كان صلح الحديبية هو أدلّ ما في السورة على ثبات المؤمنين وصدق إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ، سمّيت السورة باسم «الفتح» الذي يدل على هذا الصلح. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان خيرات الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولاً: مقدّمة تحوي امتناناً من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ ثبتهم على الإيمان في حادثة الصلح، وثانياً: بيان موقف المخلّفين عن الصلح وحرمانهم من خيراته، وثالثاً: بيان بعض خيرات هذا الصلح

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ١٠٠، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٨١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ١٨٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٣٠٦ _ ٣٣١٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٢٨٢- ٢٨٤، ووادي، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٣٨٣- ٣٨٥، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٥٣- ٢٥٧.

على المؤمنين، ورابعاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه في ذلك الصلح، فأنزل الله السكينة عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، وبيان موقف المخلّفين: ١١- ١٧، وبيان خيرات الصلح على المؤمنين: ١٨- ٢٦، والخاتمة: ٢٧- ٢٩. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها امتازت بالعبارة التالية ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية: ١٨، وهي السورة الوحيدة التي أكّد فيها الرضا بحرف التحقيق: «قد»، وهي السورة الوحيدة مع سورة الحشر جاء فيهما العبارة التالية ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الفتح: ٢٩، والحشر: ٨، بينما في سورة المائدة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ الآية: ٢، ولا شك أن إظهار الاسم الجليل أكثر تأكيداً، وثانياً: هي السورة الوحيدة في القرآن جاء فيها الفعل المضارع المضاف للنبيّ ﷺ «ينصرك» الآية: ٣، وثالثاً: هذه العبارة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لم ترد إلا في ثلاث سور: التوبة، الفتح، الصف، أما التوبة والصف فقد ختمت الآية بقوله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣٣، الصف: ٩، لكن في الفتح كان الختام بقوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية: ٢٨، ورابعاً: هي أكثر سورة في القرآن نسبت فيها السكينة إلى الله تعالى: ٤، ١٨، ٢٦، تلتها سورة التوبة لكن بمرتين فقط: ٢٦، ٤٠، وخامساً: لم يتكرر نسبة الجنود إلى الله تعالى إلا في سورتي الفتح والتوبة: الفتح: ٤، ٧، والتوبة: ٢٦، ٤٠، وهذا يؤكّد المحور المذكور لسورة الفتح، وسادساً: أنها مع سورة الأحزاب تعطيان صورة متكاملة، فمحور سورة الأحزاب: تربية المؤمنين على الثقة والإيمان بالله وبرسوله حتى في أحلك الظروف، ومحور سورة الفتح: بيان نتائج الثبات على الإيمان الصادق والثقة بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وإليك بعض أوجه التناسب بين السورتين: أ) انظر في سورة الأحزاب قوله تعالى في الآية ١٧ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وانظر فيها الآية ٦٥ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وانظر الآية: ٢٢ من سورة الفتح ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ب) ذكرت كلمة «مغفرة» مرة واحدة في كل منهما، الأحزاب: ٣٥، والفتح: ٢٩، وقد تكررت العبارة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ في سورة الأحزاب خمس مرات: ٥، ٢٤، ٥٠، ٥٩، ٧٣، وذكرت نفس العبارة في سورة الفتح مرة واحدة: ١٤، ج) عبارة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ذكرت مرتين في كل سورة: الأحزاب: ٢٩، ٣٥، والفتح: ١٠، ٢٩، د) ذكرت كلمة «جنود» مرتين في كل منهما، الأحزاب: ٩ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾، وفي الفتح: ٤، ٧ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هـ) ذكر اسم سيدنا «محمد» ﷺ مرة واحد في كل منهما، الأحزاب: ٤٠، والفتح: ٢٩، و) لم تذكر هذه العبارة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ إلا في هاتين السورتين: الأحزاب: ٤٥، والفتح: ٨، وقريب منها في سورة المزمل: ١٥، ز) انظر في سورة الأحزاب الآية ١ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، والآية ٤٠ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، والآية: ٥٤ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، وانظر في سورة الفتح الآية ٤ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، والآية: ٢٦ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، ح) ذكر اسم الله «العزيز» في سورة الأحزاب مرة واحدة: ٢٥ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، بينما في سورة الفتح ذكر مرتين: ٧، ١٩ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ط) ولا يخفى اشتراك السورتين بكون الفاصلة في الآيات بالألف. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**، وإذا تأمّلت المواقع السابقة في سياق السورتين سيظهر لك أنها جاءت على نحو يناسب المحور المذكور ودلالات اسم كل سورة منهما.

تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾﴾، ولاحظ وصف الصلح بأنه فتح مبين، فقد كان أحد أسباب النصر على المشركين في مكة، وأن ثبات المؤمنين الصادق مع نبيّهم حينها قد أورثهم إنزال السكينة من الله تعالى وزيادة الإيمان في القلوب، ولاحظ ذكر جنود السماوات والأرض التي تملأ قلب المؤمن استبشاراً بالنصر القريب. فهذه الآية تعبّر عن المحور المذكور للسورة بأبلغ صورة.

ولم يقتصر الامتنان الإلهي على المؤمنين في حال الدنيا فقط، بل امتدَّ الامتنان إلى الآخرة أيضاً: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾﴾.

وبيّنت المقدّمة أيضاً الصورة المقابلة للمؤمنين الصادقين من الناس، وهم المنافقون والكافرون: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾، ولاحظ إعادة ذكر جنود السماوات والأرض، ولاحظ ذكر الاسم الجليل «عليماً» عند الحديث عن المؤمنين، لأن الله علم صدق قلوبهم فأنزل السكينة عليهم، أما الكافرون والمنافقون الذين يحادّون الله ورسوله ﷺ فيناسبهم الاسم الجليل «عزيزاً».

وقد امتدحت المقدّمة رسول الله ﷺ وبيّنت الموقف السليم الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون تجاهه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾، وقد كان من تعزير المؤمنين لنبيّهم وتوقيرهم له ﷺ أنهم ثبتوا معه حين عقد الصلح ولم يستمرّوا في جداله فيه بسبب بعض البنود المجحفة للمؤمنين فيه.

ثم عاد السياق ليؤكّد أن صدق الثبات مع النبيّ ﷺ والثقة به يورث الأجر العظيم

من الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

فأنت ترى أن التركيز في هذه المقدّمة حول الأثر الإيجابي لصدق إيمان المؤمنين وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ في صلح الحديبية، الذي سمّاه الله فتحاً وجعله اسماً للسورة.

ثانياً: وبعد بيان موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ، انتقل السياق إلى بيان موقف المخلّفين من الأعراب، الذين منعهم عدم ثقتهم وإيمانهم بالله وبرسوله ﷺ من الخروج معه ﷺ إلى أداء العمرة، ومن تحصيل ما ترتّب على صلح الحديبية من رضا الله وتهيئة نصره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾، وبيّن السياق أنهم جبناء إذا علموا قتالاً، ومبادرون إذا علموا وجود غنائم، يريدون أن يبدّلوا كلام الله الذي حكم بأن لا يخرج لقتال يهود خيبر وأخذ غنائمهم إلا من خرج مع النبيّ ﷺ وكان معه في الصلح.

ولكن السياق أعطاهم فرصة أخرى ليثوبوا إلى رشدهم وإيمانهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾، ولاحظ أن السياق رتّب على الطاعة ـ الدالة على صدق الإيمان والثقة ـ الأجر الحسن من الله، والعذاب الأليم لمن تولّى منهم، وبيّن السياق أيضاً أنّ الحكم على المخلّفين لا ينسحب على أصحاب الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.

إذاً فالحديث عن موقف المخلّفين أكمَلَ الصورةَ في بيان فضائل الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ، فمن كان صادق الإيمان فله الرضى والنصر من الله، ومن تولّى وجَبُن بلا عذر فله الحرمان من النصر والغنائم، وفوق ذلك العذاب في الآخرة.

ثالثاً: ثم عاد السياق لبيان خيرات هذا الصلح الذي أبرز صدق المؤمنين في إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ: ﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾، ولاحظ أن أول فضيلة للصلح كانت نيل الرضى من الله تعالى، ثم إنزال السكينة عليهم، ثم تهيئة أسباب النصر، وأعتقد أن كلمة «الفتح» التي تكررت في هذه السورة ثلاث مرات، كلها تعود إلى صلح الحديبية، ومن أسباب النصر التي هيّأها الله فتح خيبر الذي غَنِم منه المسلمون غنائم عظيمة، أما الأخرى التي لم يقدر عليها المسلمون وقد أحاط الله بها فهي فتح مكة، وفي ذلك بشارة عظيمة أخرى للمؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ.

وقد بيّن السياق هوان الكفار وجُبْنهم، فهم لو قاتلوا المؤمنين لولّوا الأدبار، ومن خيرات هذا الصلح أيضاً أن الله قد كفى المؤمنين القتال بعد أن أظفرهم بطليعةٍ من أربعين رجلاً من الكفار[١]، ومن خيرات هذا الصلح أيضاً أنه لما مُنع المؤمنون من الهجوم على مكة، كان في ذلك حماية لمن كان قد آمن فيها ولم يُميَّز من الكافرين، فقد كان احتمال قتل أناس بالخطأ من هؤلاء المؤمنين وارداً. فهذه هي الخيرات العظيمة التي أكرم الله بها المؤمنين الصادقين يوم صلح الحديبية، بالإضافة إلى نيل رضاه.

رابعاً: وجاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فأعادت ذكر فضائل هذا الصلح: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾، وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله تعالى على النبيّ ﷺ وعلى المؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم، وكيفية تهيئة أسباب النصر لهم، اختتمت السورة بالمقصد ذاته: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

(١) ينظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ص ٥٥٠.

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي يبيّن أن صدق الإيمان والثقة بالله تعالى وبرسوله ﷺ يورث الرضى من الله وتهيئة أسباب النصر، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة بدلالاته اللفظية والسياقية أجمل دلالة وأبلغها بشارةً للمؤمنين.



سورة الفتح

سورة بيان خيرات صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تحوي امتناناً من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ ثبتهم على الإيمان:

- افتتحت السورة بتسمية صلح الحديبية فتحاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.
- وبيّنت امتنان الله على المؤمنين إذ ثبت قلوبهم على الإيمان في ذلك الظرف العصيب: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾.
- وقد امتدّ الامتنان الإلهي على المؤمنين إلى الآخرة أيضاً: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾.
- وبيّنت غضب الله على المنافقين والمشركين الذين حرموا أنفسهم من خيرات الإيمان: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.
- وامتدحت المقدّمة رسول الله ﷺ وأكّدت أن صدق الثبات معه يورث الأجر العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-١٧)

بيان موقف المخلّفين عن الصلح وحرمانهم من خيراته:

- ثم عرض السياق موقف المخلّفين الذين حرموا أنفسهم من خيرات الإيمان: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾.
- وقد بيّن السياق أنهم جبناء إذا علموا قتالاً، ومبادرون إذا علموا وجود غنائم، يريدون أن يبدّلوا كلام الله الذي حكم أن لا يخرج لقتال خيبر إلا من شهد الصلح، وبذلك يكونون قد حرموا أنفسهم من غنائم خيبر.
- وقد أعطاهم السياق فرصة ليعودوا إلى الإيمان، وبيّن أنهم إذا أطاعوا الله سيؤتيهم أجراً حسناً، وإن تولّوا كما تولوا من قَبْل سيعذّبهم عذاباً أليماً.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٨-٢٦)

عودة إلى بيان بعض خيرات هذا الصلح على المؤمنين:

■ بيّن السياق رضا الله عن المؤمنين الذين بايعوا النبي ﷺ وصدقوا وثبتوا معه: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

■ وبيّنت بعض خيرات ثباتهم وصدقهم: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾، وهي غنائم فتح خيبر.

■ وبشّرهم بفتح مكة قريباً: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

■ وقد بيّن السياق أن الله كفى المؤمنين القتال، بعد أن أظفرهم الله بطليعة من الكفار.

■ ومن خيرات هذا الصلح أن الله حمى المؤمنين في مكة من أن يصيبهم إخوانهم المسلمون بسوء خطأً لعدم إمكانية تمييزهم عن الكافرين: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٢٧-٢٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت ذكر فضائل لصلح الحديبية: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله على النبيّ ﷺ وعلى المؤمنين الصادقين، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

سورة الحجرات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

يدلّ اسم السورة على حادثة قدوم وفد بني تميم في العام التاسع من الهجرة، الذي سُمّي عام الوفود، فقام جماعة منهم بمناداة الرسول ﷺ من وراء حجراته بصوت عالٍ وباسمه الصريح، فاسم السورة «الحجرات» يحذّر من هذا الفعل الذي فيه إساءة أدب مع النبيّ ﷺ[(١)].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الإرشاد إلى مكارم الأخلاق إن كان في حقّ النبيّ ﷺ أو في حقّ أمته، فهي تشمل مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه لهذا المجتمع الإيماني، فالسورة تكاد تستقلّ برسم معالم هذا المجتمع الرفيع الكريم النظيف السليم، وكل ذلك مبنيّ على الأدب، ولذلك حوت هذه السورة آداباً عدّة متعلّقة بشخص النبيّ ﷺ، وبالمجتمع المؤمن، وقد كان اسمها

---

(١) ينظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ص ٦٨٦، والطبراني، **المعجم الكبير**، حديث رقم: ٤٩٨٠، والبيهقي، **شعب الإيمان**، حديث رقم: ١٤٨٨.

«الحجرات» بما دلّ عليه واضح الدلالة على تلك التربية الأخلاقية في السلوك الظاهر، والرقابة الداخلية في الباطن[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عزّ وجلّ، لينعكس ذلك في السلوك الظاهر من خلال تحلِّيهم بمكارم الأخلاق مع الله ومع رسوله ﷺ ومع أنفسهم، وتخلّيهم عن سيّئها، مع بيان أن الالتزام بذلك أحد علامات الإيمان الصادق، ولما كانت مناداة بني تميم النبيَّ ﷺ من وراء حجراته أدلّ ما في السورة على إساءة الأدب معه ﷺ، سُمّيت السورة بالحجرات للتحذير من ذاك السلوك الخاطئ الدال على انعدام الرقابة الداخلية الداعية إلى حسن الخلق. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تربية المؤمنين على الأخلاق الخاصة والعامة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور للسورة وبين دلالة اسمها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة مبيّنة لبعض الأخلاق الخاصة الواجبة على المؤمنين تجاه رسول الله ﷺ، وثانيها: توجيهاتٌ تربويةٌ أخلاقية عامة للمجتمع الإسلامي، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق[٢].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٨٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٢٢٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٣٣٤- ٣٣٣٧، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٣١٤، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٣٣٣- ٣٣٦، ومحمد محمود الصواف، **نظرات في سورة الحجرات**، ص ٨- ١٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٥٨- ٢٦٢.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، والتوجيهات التربوية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي: ٦- ١٣، والخاتمة: ١٤- ١٨. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: تكررت فيها لفظة «الرسول» العائدة على سيدنا محمد ﷺ خمس مرات: ١، ٣، ٧، ١٤، ١٥، وثانياً: تكرر النداء المحبب ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيها خمس مرات، وقد كان اثنان منها يختصان بحقوق سيدنا رسول الله ﷺ: ١، ٢، وثلاثة تختص بالمجتمع الإسلامي: ٦، ١١، ١٢، وثالثاً: ذكرت فيها مشتقات التقوى خمس مرات أيضاً: ١، ١٠، ١٢، ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾، ٣ ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾، ١٣ ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾، ورابعاً: ذكرت فيها مشتقات الجذر «علم» العائدة على الله تعالى ستّ مرات: ١، ٨، ١٣، ١٦ (عليم)، ١٦، ١٨ (يعلم)، وخامساً: ذكر فيها الاسم الجليل «رحيم» ثلاث مرات: ٥، ١٢، ١٤، وذكرت فيها =

أولاً: افتتحت السورة بذكر بعض الأخلاق الخاصة المتعلّقة بحقّه ﷺ، والتي يجب على المؤمنين امتثالها، وإلا حبطت أعمالهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾، فقد نهت السورة المؤمنين عن إبرام أمر من الأمور قبل نزول وحي الله على رسوله ﷺ، وقد قدمت السورة ذكر هذا الأمر كونه أكثر التصرفات الخاطئة جرأة على رسول الله ﷺ، ولاحظ أن المقدّمة بيّنت أن التحلّي بالأخلاق الحميدة في التعامل مع النبيّ ﷺ هو من مظاهر تقوى الله عزّ وجلّ، وفي ذلك تربية على الرقابة الداخلية خوفاً من الله عزّ وجلّ.

ثم انتقلت المقدّمة إلى ذكر حادثة بني تميم، وفيها مخالفة للأخلاق المذكورة آنفاً، فقد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته بصوت جَهْوَرِيّ، وباسمه الصريح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾، ولما كانت هذه الحادثة أدل ما في السورة على إساءة الأدب معه ﷺ، وعلى انعدام مراقبة الله تعالى داخل النفوس، سُمّيت السورة باسم الحجرات ليكون في ذلك تحذير للمؤمنين من الوقوع بمثل هذا الفعل.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى ذكر عدد من الأخلاق التربوية العامة في حقّ المجتمع

= «القلوب» ثلاث مرات أيضاً: ٧، ٣ (عن المؤمنين)، ١٤ (عن الأعراب). وسادساً: ذكرت فيها مشتقات الجذر «صدق» مرتين بصورة تقابلية، فقال عن المؤمنين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: ١٥، وقال عن الأعراب ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: ١٧، وسابعاً: امتازت هذه السورة بذكر عدد من الأخلاق لم تذكر في مواضع أخرى في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، ﴿يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾، ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾، ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾، ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ علماً بأن فعل الأمر «اجتنبوا» ذكر في مواضع أخرى في القرآن متعلقاً بأمور أخرى غير الظن، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾، ولم يذكر التنابز والتجسس والغيبة إلا في هذه السورة، ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾. أما فعل الأمر بصيغة الجمع «أصلِحوا» فلم يذكر في القرآن إلا في سورتي الأنفال: الآية ١ مرة واحدة، والحجرات في الآية ٩ مرتين ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ والآية ١٠ مرة واحدة ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾. والفرق بين الرقمين ٩ و ١٠: ١. وبإمكانك أن تضيف هذا الخُلق السيئ من الأعراب لم يتكرر في القرآن ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

المسلم، وقد كان أولها ذكراً ما يتعلق بموضوع القتال لخطورته، فقد حذّرت من أن تكون الإشاعة سبباً في قتال أناس أبرياء بلا بيّنة، وأعادت ذكر فَضْل النبيّ ﷺ ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام بالأخلاق المذكورة في السورة: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾، ولاحظ تربية الرقابة الداخلية حين بيّن السياق أن الله حبَّب للمؤمنين الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

ثم وضعت السورة منهجاً للإصلاح بين المتخاصمين، فأمرت أولاً بمحاولة الإصلاح بين الفئتين المتخاصمتين، فإن أَبَت إحداهما أو بغت قُوتلت من قِبَل المجتمع المسلم حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت عادت محاولة الإصلاح بينهما على أساس من العدل والقسط، وانظر هذا الأمر: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾، ولاحظ إعادة ذكر الأمر بتقوى الله، فتقوى الله مطلوبة في التعامل معه ﷺ، ومطلوبة فيما يخصّ المجتمع المسلم أيضاً، وهي دليل الرقابة الداخلية خوفاً من الله تعالى.

وبعد الانتهاء من موضوع القتال، انتقلت السورة إلى التحذير من أخلاق سيئة ينبغي على المجتمع المسلم أن يكون خالياً منها، فقد نهت السورة المؤمنين السخرية من بعضهم بعضاً، وعن اللمز والتنابز بالألقاب، وأمرت باجتناب الظن، ونهت عن التجسّس والغيبة، ولم يقتصر التوجيه الإلهي على الرجال فقط، بل النساء مأمورات بذلك كالرجال تماماً.

وانظر هذا الأمر الذي يربّي المجتمع المسلم على الرقابة الداخلية أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾، وذكر الاسمين الجليلين: العليم الخبير، وهما متناسبان مع علمه تعالى بما يكون في داخل النفوس.

فأنت تلاحظ أن السورة تربّي المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم خوفاً من الله تعالى، فيلتزموا بما أمرهم به من مكارم الأخلاق خاصّها وعامّها، وترك سيّئها، وأعظم هذه الأخلاق شأناً وأكثرها خطورة ما كان متعلقاً بالنبيّ ﷺ، ومن ثَمّ سُمّيت السورة باسم الحجرات للدلالة على ذلك.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى الخاتمة التي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أعادت التحذير من سيِّئ الأخلاق مع الله ومع رسوله ﷺ، وذكرت مثالاً على ذلك ما قام به الأعراب من أخلاق سيّئة تنمّ عن انعدام الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عزّ وجلّ: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، فالأعراب يكذبون ويظهرون الإيمان، والحقيقة أنه لم يدخل في قلوبهم، ولا يكتفون بذلك بل يمنّون على النبيّ ﷺ إسلامهم، والحقيقة أن إسلامهم إنما هو مِنَّةٌ من الله تعالى عليهم، وذكر علم الله تعالى بعدم دخول الإيمان متلائم مع التربية على الرقابة الداخلية، ومع علمه بما في النفوس كما مَرّ قبل قليل.

ولاحظ إعادة ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المؤمن من مكارم الأخلاق، وأن ذلك دليل صدقهم مع الله ورسوله ﷺ، وأن السياق بيّن عدم صدق الأعراب في ادّعائهم أن لهم المنّة على رسول الله ﷺ في إسلامهم.

وكما افتتحت السورة بتربية المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عزّ وجلّ، وذكرت بعض مظاهر تمام علمه تعالى بما في النفوس، ختمت السورة بالمقصد ذاته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور التربية على الرقابة الداخلية في النفوس من الله عزّ وجلّ، لينعكس ذلك على السلوك في الظاهر مع الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة الحجرات

سورة تربية المؤمنين على الأخلاق الخاصة بينهم وبين الرسول ﷺ، وعلى الأخلاق العامة فيما بينهم وبين المجتمع المؤمن

الموضوع الأول (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تبيّن بعض الأخلاق الخاصة تجاه رسول الله ﷺ:

■ افتتحت السورة بتوجيه المؤمنين لعدم إبرام أمر قبل نزول الوحي على رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾.

■ وأمرتهم بعدم رفع أصواتهم فوق صوت النبيّ ﷺ، وعدم الجهر له بالقول، مبيّنةً أن هذا محبط للأعمال.

■ وبيّنت أن الذين نادوا النبيّ ﷺ من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، وكان الأولى بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم ﷺ.

الموضوع الثاني (الآيات: ٦-١٣)

توجيهات تربوية أخلاقية عامة للمجتمع الإسلامي:

■ ثم انتقل السياق إلى الأحكام العامة فيما بين المؤمنين، فحذر من أن تكون الإشاعة سبباً في قتل أناس أبرياء بدون بيّنة.

■ وأعاد السياق بيان فضل النبيّ ﷺ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

■ وقد وضع السياق منهجاً ربانياً للإصلاح بين الفئات المتخاصمة بين المؤمنين.

■ ونهى السياق عن السخرية، واللمز والتنابز بالألقاب، وأمر باجتناب كثيراً من الظن، ونهى عن التجسّس والغيبة، وهي أوامر موجهة للرجال والنساء على حدّ سواء.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٤-١٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بما يجب أن يكون عليه المؤمنون من الصدق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾.

■ وأعادت التحذير من سوء الأخلاق مع الله ورسوله ﷺ كما كان يصنع الأعراب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾.

■ وكما افتتحت السورة بتربية الرقابة الداخلية في قلوب المؤمنين ليلتزموا بالأخلاق الخاصة والعامة، ختمت بتربيتهم على المقصد ذاته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾.

سورة ق

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى أحد حروف اللغة العربية المذكور أولها وهو حرف القاف، وقد اختلف المفسّرون في المعنى المقصود من هذا الحرف، فمنهم من قال إنه يشير إلى أحد أسماء الله كالقادر أو القابض أو القدوس، أو أنه يشير إلى أحد صفاته كصدق وعده أو قيوميته أو قهره لخلقه، أو أنه يشير إلى تحدّي القرآن وإعجازه من حيث إنه مكوّن من الحروف العربية، أقول: وبالإضافة إلى كون حرف القاف يشير إلى إعجاز القرآن، وبعد تأمّل موضوعات السورة، وجدتُ أنه يشير أيضاً إلى يوم القيامة، إذ سياق السورة كلّه حول هذا الموضوع، وسأذكر بيان ذلك إن شاء الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو إثبات براهين قدرة الله تعالى على البعث، وهي العلم والقدرة والحكمة، فالسورة تبيّن رقابة الله للنفس البشرية من المولد إلى الممات إلى البعث إلى الحشر ثم الحساب، كما وإن السورة تهدف إلى تصديق النبيّ ﷺ في رسالته التي معظمها الإنذار باليوم الآخر، وتثبت لها الشرف والرفعة. فإن كان حرف القاف يشير إلى أحد أسماء الله أو أحد صفاته فالعلاقة بينه وبين ما ذُكر واضحة، وإن كان يشير إلى إعجاز القرآن فهو يدلّ على أن مَن جعل القرآن معجزاً قادر على تحقيق ما جاء فيه من البعث[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٩١، وذكر أن حرف القاف يشير إلى بعض أسماء الله، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة البعث ليوم القيامة من خلال ذكر بعض البراهين العقلية على القدرة الإلهية المطلقة، وذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة، ولما كان حرف القاف يشير إلى القَسَم بالقيامة، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة عرض البراهين العقلية وبعض مظاهر علم الله الحفيظ التي تثبت قدرته تعالى على البعث ليوم القيامة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين محور السورة ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات، أولها: مقدّمة تثبت حقيقة البعث ليوم القيامة بالبراهين العقلية، وثانيها: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يختصّ بالإنسان في الدنيا والآخرة، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٢٤٣، ٢٤٤، وذكر أن حرف القاف يشير إلى بعض صفات الله، وأنه بما له من صفات الجهر والاستعلاء يشير إلى رفعة الرسالة وشرفها، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٣٥٦، ٣٣٥٧، وذكر أن حرف القاف مقصود منه الإعجاز، وهو أول حرف في كلمة «قرآن»، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٢٧٥، وذكر أن حرف القاف مقصود منه الإعجاز، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٣٩١-٣٩٣، ورأيهم كرأي ابن عاشور. وقد ذكر د. أحمد نوفل أن السور التي يكون حرف القاف من حروف فواتحها تفصّل في موضوع يوم القيامة. ينظر: **تفسير سورة يوسف**، ص ٢٢٤، **وتفسير سورة القصص**، ص ١٥. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٠٧، ولم يذكر شيئاً عن حرف القاف، وعطية زاهدة، **فواتح السور والحروف السبعة**، ص ٤٩- ٥١، واعتبر ﴿ق﴾ مشيراً إلى القيامة أو القارعة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١١، وإثبات يوم القيامة ببيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ: ١٢- ٣٥، والخاتمة: ٣٦- ٤٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بمظاهر قدرة الله تعالى: أ) فقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ لم يذكر إلا هنا: ٤٤، وقريب منه قوله في سورة الفرقان ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: ٢٥، ولم يذكر هذا الفعل «تشقّق» في موضع آخر، ب) وكذلك قوله ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: ١٤، وقريب منه في سورة ص ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: ١٤، ج) وكذلك قوله تعالى ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ١٥، ولم تذكر عبارة (الخلق الأول) في موضع آخر، بينما عبارة (خلق جديد) ذكرت في ستّ سور أخرى: الإسراء: ٤٩، ٩٨، والرعد: ٥، =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة إثبات لحقيقة يوم القيامة بالبراهين العقلية التي يراها الناس يومياً: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، ولاحظ حرف القاف المشير إلى القَسَم بيوم القيامة، وكأن افتتاح السورة يقول: أقسم بالقيامة والقرآن المجيد لتبعثنّ ولتحاسبنّ، ولاحظ ذكر بعض مظاهر كمال علم الله تعالى ومطلق قدرته، فهو يعلم ما يُدفن في الأرض من أموات البشر، وهو الذي خلق السماء وزيّنها بالنجوم وما لها من فُرُوج، وقد ذكرت المقدّمة أيضاً من البراهين أن الله هو الذي مَدَّ الأرض وألقى فيها رواسي، وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأنبت به الجنات والنخل والحَبّ، وجعل ذلك رزقاً للعباد. فالقادر على ذلك كلِّه قادر على بعث الناس ليوم القيامة الذي أشار اسم السورة إلى القَسَم به.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى إثبات حقيقة يوم القيامة بذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يختصّ بالإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾، فإن الله الذي وكَّل بالإنسان ملكَيْن يسجّلان كل أعماله، قادر على بعثه ليجازيه بما سُجّل عليه، هذا فيما يتعلق بالدنيا.

وأما مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان في الآخرة: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١

= وإبراهيم: ١٩، والسجدة: ١٠، وسبأ: ٧، وفاطر: ١٦، د) وصف النخل بـ ﴿بَاسِقَـٰتٍ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٠، وهذا الوصف يزيد التأكيد على قدرة الله، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بمظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان، أ) فهي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة (قلب) بالإفراد ودون إضافة إلى ضمير: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: ٣٣، و ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: ٣٧، ب) هي السورة الوحيدة التي اختصت بهذه العبارة ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾: ٤، ج) هي السورة الوحيدة التي اختصت بهذه العبارة لوصف الملكَيْن الموكلَيْن بالإنسان ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: ١٧، وكذلك وصفهما بـ ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: ١٨. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾، فكل نفس لها ملكان موكلان بها، أحدهما يسوقها والآخر يشهد عليها، فلا مجال للإنكار، والتفصيل في عرض هذه المشاهد الأخروية يؤكّد حقيقة يوم القيامة وعلم الله الحفيظ فيها كما لا يخفى.

ولكي يكتمل إثبات حقيقة يوم القيامة، بيّن السياق في كيفية استقبال النار لكل كفار عنيد، وكيف تزلف الجنة للمتقين غير بعيد.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله تعالى ومطلق قدرته: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾، وبذلك يتأكّد أن القادر على إهلاك المكذّبين، وأن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما قادر على بعث الناس ليوم القيامة.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بحرف القاف المشير إلى القيامة وبالقَسَم بالقرآن المجيد للدلالة على أنه سبحانه قادر على بعث الخلق لذلك اليوم، ختمت بالتأكيد على قدرة الله تعالى على الموضوع ذاته: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة ق

سورة عرض البراهين العقلية وبعض مظاهر علم الله الحفيظ التي تثبت قدرته تعالى على البعث ليوم القيامة

الموضوع الأول (الآيات: ١-١١)
المقدّمة التي تثبت حقيقة البعث ليوم القيامة بالبراهين العقلية:

- افتتحت السورة بالقَسَم بحرف القاف الدالة على يوم القيامة، وبالقَسَم بالقرآن المجيد، وكأنها تقول: أقسم بالقيامة وبالقرآن المجيد، لتُبْعثنّ ولتحاسبنّ.
- وردّت على الكافرين المنكرين قدرة الله على البعث بعد أن يكونوا تراباً، ببيان علم الله الحفيظ الذي يعلم ما يُدْفن في الأرض من الأجساد: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾.
- وذكرت المقدّمة من البراهين العقلية الدالة على قدرته تعالى على البعث أنه هو الذي رفع السماء وزيّنها وما لها من فُرُوج، ومَدَّ الأرض وألقى فيها رواسي وأخرج منها الجنات والنخل والحَبّ، وجعله رزقاً للعباد.

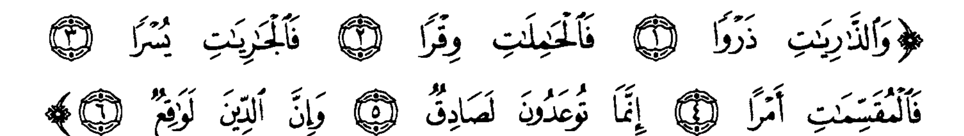
الموضوع الثاني (الآيات: ١٢-٣٥)
إثبات حقيقة البعث ليوم القيامة من خلال بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة:

- فمن مظاهر ذلك في الدنيا أن الله هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وجعل عليه مَلَكيْن عن اليمين وعن الشمال يسجّلان أقواله وأعماله.
- ومن مظاهر ذلك في الآخرة أن الله جعل لكل إنسان ملكين موكَّلَيْن به، أحدهما يسوقه والآخر يشهد عليه، وقد بيّن السياق كيف تستقبل النار كل كفار عنيد، وكيف تُزْلف الجنة للمتقين غير بعيد.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٦-٤٥)
الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله ومطلق قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾.
- وكما افتتحت السورة بحرف القاف المشير إلى القَسَم بيوم القيامة الذي سيبعث الله فيه الخلق، ختمت بالتأكيد على قدرة الله تعالى على الموضوع نفسه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾.

سورة الذاريات



الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الذال والراء والحرف المعتلّ أصلان؛ أحدهما: الشيء يشرف على الشيء ويظلّه (ومنه الذروة)، والآخر: الشيء يتساقط متفرّقاً، ومن الباب: ذرت الريحُ الشيءَ تذروه»[١]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «ذرت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذرواً وذرياً وأذرته وذرّته: أطارته وسَفَتْه وأذهبته، وقيل: حملته فأثارته وأذرته»[٢]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الرياح التي تذرو أسباب الرزق من السحب المحمّلة بالغيث أو تذرو حبوبَ اللقاح وغيرها، ووصفها بصيغة اسم الفاعل يدلّ على كمال طاعتها لآمرها سبحانه وتعالى.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة الكريمة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو ربط القلب البشري بالسماء، وتعليقه بالغيب المكنون، وتخليصه من عوائق الأرض التي تحول بينه وبين التجرّد لعبادة الله تعالى والفرار إليه، ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القَدَر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدّها، فقد عنيت السورة بإطلاق الحِسّ البشري من إساره، وبتعليق القلب بالسماء بشأنه، وبما أن الرياح الذاريات عنوان للغيث والخير والرزق، فقد سُمّيت السورة بها للدلالة على الرزق والخير المنتشر، وفي ذلك توجيه للتدبّر بما وراءها من

---

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ص ٣٨٦، بتصرف.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٦، ص ٢٩.

دلالات القدرة الإلهية[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان قدرة الله على البعث من خلال بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى وخصوصاً فيما يتعلق بموضوع رزق العباد، فكما هو يُهيِّئ رزق العباد من السماء والأرض، فهو قادر على بعثهم ومجازاتهم، ولما كان موضوع الرزق أكثر ما يعني الإنسان، وهو من أدلّ مظاهر قدرة الله تعالى، جُعلت الرياح الذاريات اسماً السورة كونها من أهمّ أسباب الرزق، ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن الله هو الباعث كما أنه هو الرازق**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولاً: مقدّمة تحوي قَسَماً بأسباب الرزق على أن يوم القيامة واقع لا محالة، ثانياً: تأكيد قدرة الله على البعث ببيان لمصير المكذّبين الغافلين، ومصير المتقين العاملين في ذلك اليوم، ثالثاً: عرض قصصي يبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى وبخاصة موضوع الرزق، ورابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[٢].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٢٩٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٢٦٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٣٧٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ٣٣٥، وأ.د مسلم وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٤٣٨- ٤٤٠، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٤١٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٦٢- ٢٦٥.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، وبيان مصير المكذّبين والمتقين يوم القيامة: ٧- ٢٣، والعرض القصصي: ٢٤- ٤٦، والخاتمة: ٤٧- ٦٠. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بألفاظ وعبارات متّسقة تماماً مع محور السورة وموضوع الرزق الذي دلّ عليه اسم السورة، ومن ذلك: أولاً: هذه العبارات المتعلقة بالرزق ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: ٢٢، و ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾: ٥٧، ٥٨، لم تتكرر في القرآن، بما في ذلك «الرزاق» و «ذو القوة المتين»، ثانياً: قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾: ٤٨، لم يتكرر، وقريب منه وصف الأرض بـ ﴿فِرَٰشًا﴾، البقرة: ٢٢، و ﴿مَهْدًا﴾، الزخرف: ١٠، و﴿مِهَٰدًا﴾ النبأ: ٦، ثالثاً: وكذلك هذه العبارة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: ٤٧، وكذلك ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: ٧، رابعاً: وكذلك هذه العبارة المتحدثة عن الرزق: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾: ٥، فصدق وعده تعالى بالرزق دليل صدق وعده بالبعث، وخامساً: كذلك وصف يوم القيامة بـ ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾: ٦، وسادساً: وصف العجل الذي قدمه إبراهيم عليه السلام بـ (السمين): ٢٦، وهذا دليل عمق توكّله على الله في رزقه إذ قدّم أفضل =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى بأسباب الرزق على أن وعده برزق العباد لصادق، وأن وعده ببعثهم للحساب لواقع: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾، فقد أقسم سبحانه بالرياح التي تذرو السحاب أو حبوب اللقاح حسبما أراد الله تعالى، والتأكيد بالمصدر «ذرواً» يجعل كل ما له علاقة بالرياح من أسباب الرزق مقبولاً لتفسير هذه الآية، ثم أقسم سبحانه بالسحب المحملة بالأمطار، وهي تسوقها الرياح أيضاً وفق إرادة الله تعالى، وأقسم بالسفن التي تحمل أرزاق العباد، وهي تسير في البحر بتيسير الله تعالى لها أسبابَ الجري في الماء، وأقسم بالسحاب التي تقسِّم السحب حسبما أُمرت به في بقاع الأرض، وكل ذلك من أسباب رزق الإنسان كما لا يخفى.

ولاحظ جواب القَسَم الذي يصف الوعد برزق العباد بالصادق، وهو أنسب وصف لدفع ما يختلج في نفوس البشر تجاه الرزق المجهول، فقد كُتبت أرزاقهم قبل خلقهم، وقد وعد الله بتنفيذ ما كتبه في لوحه المحفوظ، فلا داعي للقلق بشأن الرزق، بل عليكم بالسعي والأخذ بالأسباب، ولاحظ أنه بعدما ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى جاء جواب القَسَم الثاني بوصف يوم الدين بالواقع، فالقادر على رزق العباد والتكفّل بأمور معيشتهم، قادر على بعثهم وجزائهم.

= ما وجد، أشار لهذه النقطة مؤلفا كتاب من **دلالات أسماء السور**، ص ٢٦٣، بينما في سورة هود وصف العجل بـ (الحنيذ): ٦٩، وسابعاً: كذلك وصف الحجارة التي أرسلت على قوم لوط بأنها ﴿مِّن طِينٍ﴾: ٣٣، ومعلوم ما للطين من دور في رزق الإنسان، بينما وصفت هذه الحجارة بأنها ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ في سورتي هود: ٨٢، والحجر: ٧٤، وكذلك الحجارة التي أرسلت على أصحاب الفيل في سورة الفيل: ٤، وثامناً: لم يذكر (الذَّنوب) وهو: الدلو، للكناية عن تعمّق الظالمين في المعاصي إلا هنا: ٥٩ مرتين، وللذَّنوب دور في استخراج الماء الذي يحتاجه الناس للرزق، وتاسعاً: لم توصف الريح المرسلة على عادٍ بـ ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ إلا هنا كناية عن إهلاكهم: ٤١، وذلك متّسق مع قول امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: ٢٩، ومع ذلك رزقها الله بالولد، وبإمكانك أن تذكر هنا لطيفة وهي أن الله تعالى يقول في سورة الحج ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: ٥٥، ورقم السورة الذاريات: ٥١، ورقم سورة الحج: ٢٢، والفرق بينهما: ٢٩، ولك أن تضيف لطيفة ثانية وهي أن قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾: ٤١، متفق مع قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾: ٥٠، والفرق بين أعداد الآيتين: ٩، وهو نفس الفرق بين أرقام السورتين: الذاريات: ٥١، والشورى: ٤٢، فانظر كيف يستخدم القرآن لفظة (العقم) للدلالة على قدرة الله تعالى من نواحٍ متعددة ومتناسقة. فسبحان مَنْ هذا كلامه.

فالمقدّمة إذاً تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى المتعلقة برزق العباد، لتدعو من خلالها إلى الإيمان بقدرته تعالى على البعث، ومن أهمّ هذه المظاهر الرياح الذاريات التي سُمّيت السورة بها.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان مصير المكذّبين والمؤمنين في يوم القيامة، ولم يَخْلُ السياق من بيان مظاهر كمال قدرة الله تعالى أيضاً: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾، وقد قدّم السياق ذكر مصير الكافرين؛ لأنه أنسب للسياق، ولاحظ أولاً: التأكيد بالقَسَم على قدرة الله تعالى بالسماء ذات الحبك، وهو إما أن يكون وصفاً لمدارات الكواكب والنجوم فيها، وكأنها محبوكة حبكاً، أو وصفاً للسحب حين تجمّعها وكأنها محبوكة أيضاً ـ ولعل هذا القول أقرب للسياق ـ وثانياً: وصف قولهم بالمختلف، وهو وصف مقابل لوصف السماء بالحبك الدال على الانتظام، ولاحظ وصفهم أيضاً بالإفك والخرص، وهي أوصاف تقابل وَصْفَ وعد الله تعالى برزقهم بالصادق، وثالثاً: أنهم تمتّعوا وترفّهوا في هذه الدنيا حتى غفلوا وسهوا عن الذي يرزقهم سبحانه وتعالى، وأنكروا يوم الدين، فكان مصيرهم فيه أن يعذبوا بالنار جزاءً لهم.

وذكر السياق مصير المتقين العاملين لهذا اليوم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾، ولاحظ أن السياق يركّز على موضوع الرزق حتى فيما يتعلق بنعيم أهل الجنة، فهم آخذون ما آتاهم الله فيها من رزقه، والسياق يبيّن أنهم كانوا يعملون ويستعدّون لذلك اليوم؛ لأنهم يؤمنون به، ولم يغفلوا عمن كان يرزقهم سبحانه، بل أظهروا موقف الشكر له بقيام الليل، والاستغفار، ومعلوم أن الاستغفار من أسباب الرزق، ولاحظ أنهم كانوا يؤدّون حقوق السائل والمحروم من أموالهم التي رزقهم الله إياها، فهم لم يغفلوا ويتمتعوا بأموالهم حتى نسوا الرزّاق وأنكروا الآخرة كما فعل من ذُكر قبلهم.

وقد أعاد السياق ذكر مظاهر قدرة الله تعالى فيما يتعلق برزق العباد، فقد هيّأ الأرض لتناسب حال البشر في السعي لكسب أقواتهم، وجعل فيهم القدرة الكاملة على العمل والكَدّ والسعي، ولاحظ القَسَم على صدق وعد الله بالرزق، وهو قَسَم لم يتكرر في القرآن على هذه الصيغة، فكما أن الله تعالى القادرَ جَعَلكم تنطقون، فكذلك هو القادر على التكفّل برزقكم وأمور معيشتكم، أفلا يكون قادراً بعد ذلك على بعثكم ومحاسبتكم؟!

فمن الملاحظ إذاً أن السياق يؤكّد حقيقة قدرة الله تعالى على البعث من خلال بيان قدرته رزق العباد، وهو أمر لا يخفى انسجامه مع دلالة اسم السورة.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي متنوّع، وهو أيضاً يبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى، خصوصاً ما يتعلق بالرزق: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾، ولاحظ كمال توكّل إبراهيم عليه السلام على رازقه، فقد جاء بعجل سمين ليقرّبه إلى ضيفه، ثم بشّرت الملائكة إبراهيم و امرأته بأن الله سيرزقهما بغلام عليم، مع كونها عقيماً، وزوجها شيخ كبير.

وبرزت مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك قوم لوط بحجارة من طين، وذلك لأنهم أعرضوا عن الطريق الحلال الذي هيّأه الله لهم ليرزقهم بالذرية، فقد تركوا الزواج بالنساء وفضّلوا إتيان الرجال شهوة.

وأما قصة إهلاك فرعون فهي تبرز قدرة الله في إهلاك هذا الطاغية الذي كان يزعم أنه الرَّبّ الأعلى، فلو كان يملك من أمر رزقه ـ قبل رزق الناس ـ شيئاً لدفع عن نفسه الهلاك، وأما قصة عادٍ وثمود وقوم نوح فهي تبرز مظاهر قدرة الله تعالى وبشكل منسجم مع سياق السورة من أكثر من جانب، فهم أولاً قد أَمَروا أقوامهم باستغفار الله تعالى والتوبة إليه ليرزقهم الله ويمتعهم متاعاً حسناً، وهذا أمر أخبرت عنه سور أخرى كسورة هود، ولكن الأقوام أعرضوا فاستحقوا العذاب.

وثانياً: ذكر إهلاك عادٍ بالريح العقيم متلائم مع دلالة اسم السورة، فالله تعالى قادر على جعل الريح مُهلكةً للأقوام المكذّبة، كما هو قادر على جعلها سبباً للرزق بما تذروه من السحب وحبوب اللقاح وغيرها، وثالثاً: كذلك ذكر إهلاك ثمود بالصاعقة، فالله تعالى قادر

على جعل الريح تحمل السحب المهيّأة للعذاب، فإذا رآها القوم المكذّبون ظنوها عارضاً ممطرهم، فإذا بها العذاب الأليم، وهو سبحانه قادر على جعل الريح أيضاً تسوق السحب المحملة بالأمطار التي تغيث العباد، كما هو قادر على جعل هذه السحب المحملة بالمطر عذاباً لإهلاك المكذّبين كقوم نوح، وقادر على إنجاء نوح وأهله كما هو قادر على تسيير السفن في البحار.

إذاً فالقصص القرآني المعروض في هذه السورة يسهم في التأكيد على محور السورة، من خلال بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى المتعلقة بالرزق، وهو أمر مترابط مع دلالة السورة.

رابعاً: جاء في خاتمة السورة تأكيد على كل ما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى من خلال ذكر بعض مظاهر قدرته فيما يتعلق بالرزق: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في تهيئة أسباب الرزق للعباد، لتدعو من خلال ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر، ختمت بالتأكيد على كونه تعالى هو وحده القادر على رزق عباده، وبالتالي هو وحده المستحقّ للعبادة، وحذّرت من التكذيب باليوم الآخر: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أجمل دلالة.



سورة الذاريات

سورة بيان أن الله هو الباعث كما أنه هو الرازق

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تحوي قَسماً بأسباب الرزق التي هيّأها الله لعباده على أن يوم القيامة واقع لا محالة:

- افتتحت السورة بالقَسَم بالرياح التي تذرو السحب وغيرها من أسباب الرزق، وبالسحب المحملة بالغيث وبالسفن الجارية وما تحمله من أسباب الرزق وبالرياح التي تقسم السحب حسب إرادة الله، على أن وعده تعالى برزق عباده لصادق، وأن يوم الدين الذي فيه حساب الخلق لواقع.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٣)

تأكيد قدرة الله على البعث ببيان مصير المكذّبين الغافلين ومصير المتقين العاملين في ذلك اليوم:

- أقسم الله بالسماء ذات الحبك، وما فيها من السحب التي تحمل رزق العباد وكأنها محبوكة حبكاً، أن الناس مختلفون حول الإيمان باليوم الآخر.
- فمنهم خرّاصون لاهون عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾.
- ومنهم متقون مؤمنون مستعدّون للقاء الله في ذلك اليوم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾.
- وكما رزقهم الله من واسع فضله، أنفقوا في سبيل الله ليوسعوا على الفقراء: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾.
- وقد أعاد السياق بيان قدرة الله على الرزق بالقَسم بما هيّأه الله من أسباب الرزق في السماء والأرض: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٤-٤٦)

عرض قصصي يبرز بعض مظاهر قدرة الله وبخاصة في موضوع الرزق:

- فقد برزت شدّة يقين إبراهيم عليه السلام برازقه سبحانه حين قدَّم لأضيافه عجلاً سميناً مع أنه لا يعرفهم.
- وبرزت قدرة الله في الرزق في بشارة الملائكة إبراهيم عليه السلام وامرأته بغلام عليم، مع كونها عجوزاً عقيماً.
- وبرزت قدرة الله في إهلاك قوم لوط بحجارة من طين، بعد أن أعرضوا عن الطريق المباح ليرزقهم الله بالذرية، وفضّلوا إتيان الرجال شهوة.
- وبرزت قدرة الله في إهلاك فرعون الذي كان يزعم أنه الرب الأعلى، ولو كان يملك من أمر رزقه شيئاً قبل رزق الناس لدفع عن نفسه الهلاك.
- وبرزت قدرة الله في إهلاك عادٍ وثمود وقوم نوح عليه السلام، وهم أُمِروا بالاستغفار ليرزقهم الله ويمتعهم متاعاً حسناً، لكنهم أعرضوا عن دعوة خالقهم حتى استحقّوا العذاب.
- وكما أقسم الله بالرياح الذاريات التي جعلها الله أحد أسباب الرزق أول السورة، بيّنت هذه القصص أن الله جعل الريح سبباً لإهلاك عادٍ، وكما أقسم الله بالسحب المحملة بالغيث أول السورة، جعلها الله هنا صاعقة أهلكت ثموداً، وكما أقسم بالسفن الجارية في البحار حاملة أرزاق العباد، جعل الله السفينة سبباً لإنجاء نوح عليه السلام ومَن أمن معه، كل ذلك يؤكّد قدرة الله المطلقة خاصة في موضوع الرزق.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٧-٦٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادة الدعوة إلى الإيمان بقدرة الله على البعث من خلال بيان مظاهر قدرته على الرزق: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم ببعض مظاهر أسباب الرزق التي هيّأها الله على أن اليوم الآخر حقّ، ختمت بالتأكيد على كونه تعالى وحده الرازق، مع التحذير من التكذيب باليوم الآخر: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾.

سورة الطور

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بجبل الطور، وهو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربَّه سبحانه وتعالى، وفيه طَلَب موسى عليه السلام رؤية الله، فخرَّ موسى صَعِقاً، وفيه أخذ الألواح عن ربّه، وهو الجبل الذي رُفع فوق رؤوس بني إسرائيل تهديداً لهم حينما أعرضوا عن هدى الله، وهو الجبل الذي طلب فيه بنو إسرائيل رؤية الله جهرة فأخذتهم الرجفة، ثم بعثهم الله بعد موتهم، فالقَسَم بهذا الجبل يدلّ على أن الله تعالى هو الذي أوحى لموسى عليه السلام وهو الذي يوحي لمحمد ﷺ لتبليغ حقائق الدين، والتي من أهمها قدرة الله على البعث لليوم الآخر كما حصل على جبل الطور مع بني إسرائيل(١).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تمثّل حملةً عميقة التأثير في القلب البشري، ومطاردةً عنيفة للهواجس والشكوك والأباطيل التي تساوره، وفيها دحض لكل حجة أو عذر قد يُتَّخذ للحيدة عن الحقّ، والزيغ عن الإيمان، والقَسَم بالطور يدل على أن الله تعالى يقسم بالمقدّسات على أن العذاب واقع على المكذّبين، ومن دلالات هذا الاسم أنه رمز لظهور

---

(١) ذكَرَت سورةُ البقرة أن الله تعالى قد رفع الطور فوق رؤوس بني إسرائيل ترهيباً لهم لالتزام أحكام الله، ينظر الآيتان: ٦٣، ٩٣، وقد ذكر عدد من المفسّرين باقي المعلومات المذكورة عن جبل الطور، منهم: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ١٤، ص ٢٣٥- ج ١٥، ص ٢٠، والآلوسي، **روح المعاني**، ج ٥، ص ٤٣- ٦٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٩، ص ٩٠- ١٢٩. وذلك عند تفسيرهم الآيات: ١٤٣- ١٥٥ من سورة الأعراف.

الحقّ وبزوغ فجرِ رسالةٍ سماوية جديدة أُرسل بها موسى عليه السلام[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات صدق الوحي إلى الأنبياء وما يخبر به من الحقائق، من خلال القَسَم بالأماكن التي أوحى الله بها للرسولَيْن الكريمين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فبالقَسَم بهذه الأماكن يثبت أن الله تعالى هو الذي يوحي لرسله لينذروا أقوامهم، وبذلك يثبت أن حقيقة اليوم الآخر ـ التي هي من أهمّ قضايا الوحي ـ حقٌّ لا مرية فيها. ولما كان جبل الطور هو الجبل الذي صُعق فيه موسى عليه السلام، وفيه أخذ ألواح الرسالة عن ربّه، وهو الجبل الذي أمات اللهُ عليه المكذّبين من بني إسرائيل ثم بعثهم، وهو الجبل الذي رُفع فوق رؤوسهم ليَلْزموا الإيمان، أقسم الله به وجعل من هذا القَسَم اسماً للسورة ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة إثبات الوحي وما يخبر به من الحقائق وأهمّها اليوم الآخر، من خلال القَسَم بأماكن الوحي**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تحوي قَسَماً بأماكن الوحي على أن وقوع العذاب على المكذّبين في اليوم الآخر حقّ، وثانيها: عرض لمصير المكذّبين الكافرين والمؤمنين المتقين في ذلك اليوم، وثالثها: رَدّ لشبهات المكذّبين المتعلقة بالوحي، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٩٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٢٩١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ٣٣٩١- ٣٣٩٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٦، ص ٣٦، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٤٦٤، ٤٦٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤١٣، وعبد الحميد طهماز، **من سورة الطور إلى سورة الناس**، ٣- ١٣، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٦٦- ٢٦٩.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٢، وعرض مصير المكذّبين والمؤمنين يوم القيامة: ١٣- ٢٨، والرّدّ على شبهات المكذّبين: ٢٩- ٤٤، والخاتمة: ٤٥- ٤٩. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، فمن ذلك: أولاً: أ) قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾: ٢- ٤، لم تذكر في القرآن إلا هنا، ب) بينما القَسَم بالطور جاء هنا: ١، وفي سورة=

أولاً: جاء في المقدّمة قَسَم بالمكانَيْن اللّذَيْن أوحى الله فيهما إلى سيدنا موسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، على أن العذاب واقع يوم القيامة على المكذّبين: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾، ولعل التفسير الأنسب لهذه الآيات أن يكون القَسَم بالطور إشارة إلى المكان الذي أوحى الله فيه لسيدنا موسى عليه السلام، والقَسَم بالبيت المعمور إشارة إلى الكعبة الموجودة في مكة، وهي المكان الذي أوحى الله فيه لسيدنا محمد ﷺ، وأما القَسَم بالكتاب المسطور فهو يدلّ على الكتب الإلهية وبالأخص في هذا السياق التوراة والقرآن، ومعنى كونهما في ﴿رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أي: في صحف مهيّأة للكتابة معروضة للقراءة، وأعتقد أن في ذلك إشارة إلى أن حجة التوراة ـ قبل التحريف ـ وحجة القرآن ظاهرة غير خافية.

فالتوراة المنزلة من عند الله والقرآن كتابان مسطوران في صحف منشورة، حجتهما ظاهرة غير خافية لمن أراد أن يؤمن، لكن هذا الوصف زال عن التوراة بعد أن حُرِّفت وبقي للقرآن.

= التين: ٢ فقط، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: ٥، جاء هنا فقط، وقريب منه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾: الأنبياء: ٣٢، ثانياً: كذلك فيما يتعلق بأهوال يوم القيامة: أ) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ هنا فقط بهذه الصيغة: ٦، وقريب منها: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾: التكوير: ٦، ب) كذلك: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: ٩، هنا فقط، ج) كذلك ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ هنا فقط بتأكيد الفعل بذكر المصدر: ١٠، وقريب منها: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ الكهف: ٤٧، و﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ النبأ: ٢٠، و﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: التكوير: ٣، د) كذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ هنا فقط: ١٣، هـ) وكذلك ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: ٤٥، هنا فقط بصيغة الفعل المضارع، وقريب منها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الزمر: ٦٨، وذكر الفعل ﴿يُصْعَقُونَ﴾ عن أهوال يوم القيامة في سورة الطور متلائم مع قوله عن سيدنا موسى عليه السلام ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ الأعراف: ١٤٣، وقد حصل له ذلك على جبل الطور، ثالثاً: أما فيما يتعلق بردّ شبهات المكذّبين حول الوحي: أ) ذكر حرف الإضراب (أم) في سياق تعداد شبهاتهم والرَّدّ عليها خمس عشرة مرة، يدل ذلك على مدى تنطّعهم، ومن هذه المرات قوله ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ لم تذكر في القرآن إلا هنا: ٣٨، وقريب منها ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ الأنعام: ٣٥، ومن هذه المرات أيضاً قوله ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ذكر هنا: ٤١، وفي القلم: ٤٧ فقط. والعبارتان المذكورتان في سورة الطور تؤكّدان أن الوحي من الله تعالى وليس للبشر سبيل إليه إلا عن طريق وحي الله للأنبياء. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أما القَسَم بالسقف المرفوع، فهو يشير إلى السماء التي هي من دلائل قدرة الله تعالى، وهي ستمور يوم القيامة موراً، وكذلك يشير البحر الذي سيسجر يوم القيامة، وذكرُ هاتين الآيتين ـ السماء والبحر ـ معهود في السور التي تتحدث عن أهوال يوم القيامة، مثل سورتَي التكوير والانفطار. ومعلوم أن الإخبار عن يوم القيامة من أبرز الحقائق التي يخبر بها الوحي.

فأنت تلاحظ أن السياق يقسم بالأماكن التي تنزل فيها الوحي، ويقسم بالكتب التي أنزلها الله، على أن الوحي إلى الأنبياء وما فيه من الحقائق ـ التي أهمها اليوم الآخر ـ أمر حقّ لا مرية فيه، وقد أكّد ذلك جوابُ القَسَم وما تبعه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾، ولاحظ ذكر مور السماء، المتلائم مع وصفها بالسقف المرفوع، فمن جعلها سقفاً مرفوعاً في الدنيا، قادر على جعلها تمور موراً يوم القيامة، ولاحظ ذكرَ تسيير الجبال، ليتلاءم ذلك مع ذكر جبل الطور، وتهديدَ المكذّبين بالوحي وحقائقه، الذين هم يخوضون ويلعبون ويعرضون عما جاءهم من الحقّ.

فالمقدّمة إذاً تؤكّد حقيقة اليوم الآخر باعتباره من أبرز قضايا الوحي، من خلال القَسَم بالأماكن التي أوحى الله فيها إلى أنبيائه بالرسالات، وبذلك يثبت أن الوحي من الله للأنبياء حقّ، وما يخبر به حقّ، ومن جهة أخرى يفيد القَسَم بالطور تأكيداً آخر على إثبات يوم القيامة، فهو قد شهد صعق موسى عليه السلام حينما طلب رؤية ربّه، وهو قد شهد موت المكذّبين من أمته عليه السلام حينما طلبوا رؤية الله جهرة فأخذتهم الرجفة، ثم أحياهم الله، فذلك يدل على قدرة إحياء الله الناس للحساب كما أحيى أولئك. ثم إن القَسَم بهذا الجبل يذكّر برفعه فوق رؤوس بني إسرائيل حتى يلتزموا بأحكام التوراة، ففي ذكره موعظة للمعرضين من أمة سيدنا محمد ﷺ.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المكذّبين الكافرين ومصير المؤمنين المتقين يوم القيامة، وقد تقدّم ذكر مصير المكذّبين؛ لأنه الأنسب للسياق الذي يحوي تهديداً لهم: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا

تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، فهم كانوا يكذّبون بالوحي ويدَّعون أنه سحر، فهاهم الآن يرون الحقائق التي أنذرهم بها الوحي أمام أعينهم، ويقال لهم: أفسحر هذا؟.

ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾، فإيمانهم بالوحي وما جاء به من الحقائق وقاهم من عذاب الجحيم، ولاحظ عرض مصير ذريتهم المؤمنين أيضاً، ليكون ذلك أدلّ على أن القيامة وما فيها من ثواب حقّ لا مرية فيه. إن عرض مصير الفريقين يؤكّد بلا ريب حقيقة اليوم الآخر، وهي الحقيقة التي أقسم الله عليها بجبل الطور الذي سمّى السورة باسمه.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى ذكر شُبه المكذّبين المتعلقة بالوحي وردّها: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، ولاحظ قوله ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ الدال على الوحي، أي: أنت إنما تنذر قومك بما يوحي إليك ربك، ولست بكاهن ولا مجنون ولا شاعر ولا متقوّل كما يزعمون لينكروا نزول الوحي عليك، ولاحظ تحدّيهم بأن يأتوا بحديث من مثل هذا القرآن إن كانوا صادقين، ولن يستطيعوا.

ومن الملاحظ أن حرف الإضراب (أم) في سياق عرض شبهاتهم قد تكرر خمس عشرة مرة، وذلك يطلعك على مدى تنطّع المكذّبين وإنكارهم للوحي، وما يخبرهم به من حقائق والتي من أهمّها حقيقة اليوم الآخر، وهي الحقيقة التي قد أقسم الله بجبل الطور على أنها حقّ، وقد أفاد هذا القَسَم أن الوحي حقّ أيضاً، فإن من أوحى لموسى عليه السلام على جبل الطور، هو الذي يوحي لنبيكم ﷺ في مكة، وفي هذا رَدّ لشبهاتهم المتعلقة بإنكار الوحي.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أعادت التأكيد على أن عذاب المكذّبين في يوم القيامة حقّ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾، ولاحظ ذكر صعقهم في ذلك اليوم، ليتلاءم ذلك مع صعق موسى عليه السلام على جبل الطور، وما حصل على ذلك الجبل مع المكذّبين من قوم موسى الذين أماتهم الله ثم أحياهم.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالأماكن التي نزل فيها الوحي على الأنبياء، فثبت بذلك أن الوحي وما يخبر به حقّ، ختمت بأمر النبيّ ﷺ بالصبر على دعوة قومه بما يأتيه من الوحي: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾، المقابل لطلب سيدنا موسى على جبل الطور رؤية الله، فقال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، وفي سورة النجم التالية لسورة الطور أجمل تجلٍّ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ في حديثها عن المعراج، وكما أقسم سبحانه في مفتتح السورة بالسماء التي هي كالسقف المرفوع، ختم السورة بأمر النبيّ ﷺ بتسبيح الله تعالى مع ذكر آيتي الليل والنجوم، وهما آيتان متعلقتان بالسماء، وهكذا التقى البدء والختام على محور إثبات أن الوحي وما يخبر به من الحقائق التي من أهمّها حقيقة اليوم الآخر حقّ لا مرية فيه، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الطور

سورة إثبات الوحي وما يخبر به من الحقائق – وأهمها اليوم الآخر – من خلال القَسم بأماكن الوحي

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)
المقدّمة التي تحوي قَسماً بمكان الوحي لسيدنا موسى ومكان الوحي لسيدنا محمد عليهما السلام، على أن يوم القيامة واقع:

- افتتحت السورة بالقَسَم بجبل الطور الذي أوحى الله فيه لسيدنا موسى عليه السلام، وبالكتاب المسطور وهو إشارة إلى الكتب الإلهية وأخصها هنا التوراة والقرآن، وبالبيت المعمور وهو البلد الحرام الذي فيه الكعبة، بلد الوحي لسيدنا محمد ﷺ، وأقسم بالسماء التي هي سقف مرفوع، والتي ستمور يوم القيامة، وبالبحر المسجور الذي سيُسْجر يوم القيامة.
- وجواب القَسَم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝﴾، فالقَسَم بأماكن الوحي يثبت أن ما يوحي الله به إلى الأنبياء من الحقائق حقّ، وأهمّها اليوم الآخر.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٢٨)
عرض لمصير المكذّبين الكافرين، ومصير المؤمنين المتقين في ذلك اليوم:

- ابتدأ السياق بعرض مصير المكذّبين لأنهم أقرب إلى الأهوال المذكورة عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝﴾.
- ثم انتقل إلى مصير المؤمنين الذين آمنوا بالوحي واتبعوا هداه فكانوا من المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾.
- وقد بيّن السياق أيضاً مصير ذرياتهم المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٩-٤٤)

ردٌّ لشبهات المكذّبين المتعلقة بالوحي:

- أثبت السياق أن الوحي للنبيّ ﷺ نعمة من الله عليه، فهو ﷺ ليس بكاهن ولا مجنون: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.
- وبيّن أنه ﷺ ليس بشاعر، ولا متقوّل، ودعاهم إلى أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.
- وردَّ السياق فريات متعدّدة يفصل بينها بحرف "أم" المذكور خمس عشرة مرة، للدلالة على كثرة افتراءاتهم واضطرابها، وبذلك يثبت أن الوحي للنبيّ ﷺ وما يخبر به من الحقائق حقّ لا مرية فيه.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٥-٤٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على أن عذاب المكذّبين في يوم القيامة حقّ.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم بأماكن الوحي، فثبت بذلك أن الوحي وما يخبر به حقّ، ختمت بأمر النبيّ ﷺ بالصبر على دعوة قومه بما يأتيه من الوحي: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

سورة النجم

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالنجم الذي يكون في السماء في حال هويِّه، على أن النبيّ ﷺ يتلقّى الوحي والعلم من ربّه تبارك وتعالى، فهو ﷺ ليس بضالّ ولا غاوٍ، والقَسَم بالنجم في حال هويِّه يعطي دلالة بطلان عبادة الكواكب والنجوم التي كان يقوم بها بعض المشركين، لا سيما «الشِّعْرى» وهو مذكور في السورة ولم يذكر في سورة أخرى[1]، كما أن هذا القَسَم ـ من وجهة نظري ـ يعطي دلالة على أن مَن جعل للنجم مساراً يهوي به، قادر على خرق قوانين السماء وأن يعرج بعبده ﷺ فيخترق السماوات السبع، حتى يصل إلى سدرة المنتهى.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وبموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تتمحور حول بيان صدق الوحي الذي جاء بهذه العقيدة وبيان وثاقته، وبيان وَهْن عقيدة الشرك وتهافتها، وأن القَسَم بهويّ النجم مهما كان عظيماً يدل على دحض عقيدة الشرك، فالنجم يهوي ويتغيّر مقامه، فلا يكون معبوداً، ومن جهة أخرى يشابه هويّ النجم وما ينتج عنه من نور حِسّيّ، يشابه نزول القرآن من السماء وما فيه من نور معنوي[2].

---

(١) قد أشار سيد قطب إلى أن اسم السورة يدل على بطلان عبادة الكواكب، لا سيما الشعرى: **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٠٦.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٠٣، وقد فسر هوي النجم بالشهب المنقضّة على مَن يسترقون السمع من الشياطين، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٣١٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٠٥، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن ما يوحي الله تعالى به إلى الأنبياء من العلم حقّ، وأن الحقائق التي يدعو إليها الوحي ـ والتي أهمّها التوحيد ـ حقّ، وأن ما سواه جهل وضلال، ولما كانت حادثة المعراج بالنبيّ ﷺ أدلّ ما في السورة على صدق الوحي الذي يتلقّاه ﷺ من ربّه، أقسم تعالى بالنجم في حال هويّه ليدل على أن مَن جعل له مساراً يهوي فيه، قادر على أن يعرج بعبده ﷺ في السماوات السبع ويخرق قوانينها، وبذلك تتحقّق الدلالة على صدق الوحي بأبلغ صورة، ومن جهة أخرى يدل القسم بهويّ النجم على بطلان عقيدة الشرك، فالكواكب والنجوم لا تكون معبودة؛ لأنها تنتقل وتتغير أماكنها. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن الوحي للأنبياء حقّ، والحقائق التي يدعو إليها حق، وأهمّها التوجّه بالعبادة لله وحده، وما سواه جهل وضلال.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام الأول: مقدّمة تحوي قَسَماً بالنجم إذا هوى على أن ما يتلقّاه النبيُّ ﷺ من الوحي والعلم حق، والثاني: إبطال الشرك بمختلف صوره وبيان أنه ناشئ عن جهل المكذبين، مع بيان بعض حقائق الوحي وما يأتي به من العلم من الله تعالى، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= ٣٤٠٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٧، ص ٨٨- ٩٢، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٤٨٦، ٤٨٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤١٦، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٧٠- ٧٢٧.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٨، وإبطال الشرك وبيان بعض حقائق الوحي: ١٩- ٥٥، والخاتمة: ٥٦- ٦٢. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها عبارة ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ التي تعود على الله تعالى، وذلك أربع مرات، مرتان في الآية ٣٠: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ومرتان في الآية ٣٢ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، ثانياً: منها ما يتعلق بالنبيّ ﷺ، فقوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾: ٢- ٥، لم يذكر في موقع آخر من القرآن، وثالثاً: ومنها ما يتعلق بالمشركين المكذّبين: أ) هي أكثر سورة في القرآن ـ بعد سورة يونس ـ يذكر فيها المصدر ﴿ظَنّ﴾ في سياق بيان جهل المشركين المكذبين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى بالنجم في حال هويّه، على أن النبيّ ﷺ ليس بصاحب ضلال ولا غواية، إنما هو يتلقّى وحيه عن الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾، ولاحظ بيان أن نطقه ﷺ بما يتعلق بأمور التشريع إنما هو وحي من الله تعالى، ولاحظ بيان أنه يتلقّى الوحي والعلم من لدن جبريل عليه السلام، وبيان مقام القرب هذا الذي حازه النبيُّ ﷺ ولم يحزه أحد من قبله، هو أبرز تجليات قوله تعالى في سورة الطور السابقة لسورة النجم عنه ﷺ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (بعض الآية: ٤٨).

فبعد أن بيّن سبحانه أنه ﷺ يتلقّى الوحي والعلم عن جبريل، وجبريل يتلقّى عن الله عزّ وجلّ، وأنه ﷺ ذو مقام سامٍ عند الله تعالى، لم يعد هناك شَكّ في كونه ﷺ صادقاً فيما يبلّغه عن ربّه، ولم يعد هنالك مجال لاتهامه بأيّ من التهم الباطلة التي يدّعيها المشركون المكذّبون.

وقد أقسم سبحانه على هذه الحقائق بالنجم إذا هوى، ليدل على أن الله الذي جعل للنجم مساراً يهوي به، قادر على خرق قوانين السماء وأن يعرج بعبده ﷺ في السماوات السبع ويصل إلى مقام القرب، ومن دلالات هذا القَسَم أيضاً أن ما يدّعيه المشركون من عبادة الكواكب والنجوم باطل.

= ٱلظَّنَّ﴾: ٢٣، و ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾: ٢٨، وانظر في سورة يونس: ٣٦ مرتين، ٦٠، ٦٦، ب) هي من أكثر السور التي جاء فيها عبارات تنفي العلم عن المشركين المكذّبين بصيغة صريحة: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾: ٢٨، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: ٣٠، و﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾: ٣٥ وهذه العبارة الأخيرة لم تتكرر في القرآن، وقد جاءت مثل هذه العبارات في سورة الأنعام سبع مرات: ١٠٠، ١٠٨، ١١٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، وفي سورة الحج أربع مرات: ٣، ٥، ٨، ٧١، ج) لم تذكر ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ﴾ إلا هنا: ١٩، ٢٠، في سياق بيان بطلان عبادتها، وكذلك ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾: ٤٩، د) لم تذكر هذه العبارة ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ إلا هنا: ٥٥، هـ) لم يوصف المشركون المكذّبون بأنهم ﴿سَٰمِدُونَ﴾ إلا هنا: ٦١. ورابعاً: أعتقد أن وصف يوم القيامة بقوله تعالى ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾: ٥٧، متلائم مع وصف النجم بالهوي أول السورة، وذلك من حيث السرعة، فالنجم يهوي سريعاً، والقيامة يقرب وقتها سريعاً. ولم يذكر هذا الوصف إلا هنا: ٥٧، وفي سورة غافر: ١٨. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وقد أكّد السياق أن النبيّ ﷺ في ذلك المقام قد رأى من آيات الله الكبرى، ولم تكن رؤيته رؤيا نائم، بل رؤية يقظان ما زاغ البصر منه وما طغى.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان أن ما يقوم به المشركون المكذّبون من عبادة الأصنام وتكذيب النبيّ ﷺ، إنما هو راجع إلى جهلهم وضلالهم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، ولاحظ بيان أن تسمية هذه الأصنام بالآلهة ليس له وجه حقّ، إنما هو جهل وضلال وهوى وظنّ باطل تلقّوه من آبائهم، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ المشير إلى الوحي، فقد جاءهم العلم والوحي الصادق من ربّهم، ففيم إصرارهم على ضلالهم؟!

ثم انتقل السياق إلى إبطال وجه آخر من وجوه الشرك الجاهلية، وهو فيما كانوا يعتقدونه بالملائكة الكرام: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾، فالملائكة الكرام ليسوا إلا عباداً لله عزّ وجلّ، لا يملكون من أمرهم شيئاً بل هم مطيعون لربّهم سبحانه وتعالى، ولاحظ بيان أن تسمية الجاهليين الملائكة تسمية الأنثى، وزعمهم أنهم بنات الله، إنما هو اعتقاد ناشئ عن جهلهم وظنهم الباطل أيضاً، وإن الظن لا يغني من الحقّ شيئاً.

فالملاحظ إذاً أن السياق يثبت أن العلم الذي يأتي من طريق الوحي هو الحقّ فقط، وأن ما عداه جهل وظنّ وضلال، وهذه الحقيقة التي أقسم الله عليها بالنجم إذا هوى، وجعل من هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل عليها.

وفي سياق الرّدّ على شبهات المشركين المكذّبين واعتقاداتهم الباطلة، بيّن السياق أن الله عزّ وجلّ له ما في السماوات والأرض، وأنه واسع المغفرة، وأنه هو الذي ينشئ الإنسان جنيناً في بطن أمّه، وبالتالي فالله وحده المستحقّ للعبادة.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف آخر يبرز جهل المشركين المكذّبين: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، فهذا المكذّب الذي يمنع الخير عن الناس، إنما دفعه جهله وضلاله إلى ذلك، ولو أنه آمن بما جاء به وحي الأنبياء من العلم لما منع خيره عن أحد، ولاحظ التفصيل في ذكر ما جاء في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، ليتلاءم ذلك مع المحور المذكور للسورة، وهو أن ما يأتي عن طريق الوحي من العلم هو الحقّ، وما عداه جهل وضلال.

وقد ذكر السياق بعض ما جاء في هذه الصحف من العلم، وذكر منها ما يتعلق بالحقيقة الكبرى التي ينزل الوحي من أجلها، ألا وهي التوحيد: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾، فالسياق يبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى في خلق أصل الإنسان، وبيان قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين، وقدرته على بعث الخلق ليوم الحساب، ولاحظ ذكر كونه تعالى ربّ الشعرى، ليتلاءم ذلك مع تسمية السورة بالقَسَم بالنجم في حال هويِّه، فالشعرى أحد النجوم التي لها مدار تهوي فيه، فلا تجوز عبادتها، بل المعبود بحقّ هو مَن خلقها وجعل لها مساراً تهوي فيه.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما افتتحت السورة بالقَسَم بالنجم إذا هوى على أن الوحي والعلم الذي يتلقّاه النبيُّ ﷺ عن ربّه حقّ، وأن حقيقة التوحيد ـ التي هي أهمّ حقائق الوحي ـ حقّ، وأن ما عدا الوحي جهل وضلال، ختمت ببيان أن النبيّ ﷺ إنما هو كمن سبقه من الأنبياء يتلقّى العلم والوحي عن الله، وببيان أن ما يدفع المشركين إلى التكذيب إنما هو جهلهم وضلالهم، وقد دعتهم السورة إلى ترك التلهّي وعبادة الله الواحد: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة النجم

سورة بيان أن وحي الله للأنبياء حقّ، وأن الحقائق التي يدعو إليها حقّ، وأهمّها التوجّه بالعبادة لله وحده، وأن ما سواه جهل وضلال

الموضوع الأول (الآيات: ١-١٨)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً بالنجم إذا هوى على أن ما يتلقّاه النبيُّ ﷺ من الوحي والعلم حق:

- أقسم الله بالنجم إذا هوى على أن النبيّ ﷺ ليس بضالٍّ ولا غاوٍ، وأنه ما ينطق عن الهوى، بل هو وحي يوحى من الله.
- والقَسَم بالنجم إذا هوى يدل على أنّ من جعل للنجم مساراً يهوي فيه، قادر على خرق قوانين السماء فيعرج بعبده ﷺ ليتلقّى الوحي من مكان القرب، كما وأن القَسَم بالنجم يدل على بطلان عبادة الكواكب لأنها تهوي في مساراتها رغم ضخامة حجمها.
- وبيّنت المقدّمة أن رحلة معراجه ﷺ لم تكن رؤيا نائم، بل رؤيا يقظان ما زاغ البصر منه وما طغى.

الموضوع الثاني (الآيات: ١٩-٥٥)

إبطال الشرك بمختلف صوره وبيان أنه ناشئ عن جهل المكذّبين، مع بيان بعض حقائق الوحي وما يأتي به من العلم:

- بيّن السياق بطلان عبادة الأصنام: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.
- وبيّن أنها من جهالتهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.
- وبيّن السياق بطلان عبادة الملائكة الكرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.
- وبيّن السياق أن الله وحده المستحقّ للعبادة، فهو الذي له ما في السماوات والأرض، وهو واسع المغفرة، وهو الذي أنشأ الإنسان جنيناً في بطن أمه.
- وبيّن السياق جهل المكذّبين الذين يمنعون الخير عن الناس، وما ذلك إلا لعدم إيمانهم بما جاء في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى، ألا تزر وزارة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.
- وبيّن السياق بطلان عبادة الكواكب والنجوم، بل المستحقّ للعبادة ربّ هذه الكواكب وخالقها: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٦-٦٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- فكما افتتحت السورة بالقَسَم بالنجم إذا هوى على أن الوحي والعلم الذي يتلقّاه النبيّ ﷺ من ربّه حق، وأن ما عداه جهل وضلال، ختمت بالتأكيد على أن النبيّ ﷺ إنما هو كمَن سبقه من الأنبياء يتلقّى الوحي والعلم من الله، وببيان أن الذي يدفع المشركين إلى التكذيب إنما هو جهلهم وضلالهم: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

سورة القمر

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حديثها عن معجزة انشقاق القمر للنبيّ ﷺ حينما طلب منه قومه ذلك، فكان انشقاقه آية دالة على صدق النبيّ ﷺ المؤيّد بالمعجزات من ربّه، بعد أن لم يَكْفِ قومه معجزة القرآن الكريم لحملهم على الإيمان.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو بيان تحقّق الساعة وشدّة قربها، وبيان مصير المكذّبين بها، فهي بمثابة حملة مفزعة لقلوب المكذّبين بالنذر، بقدر ما هي طمأنينة لقلوب المؤمنين، فقصص السابقين المذكورين فيها تؤكّد قدرة الله تعالى على تعذيب المكذّبين وإهلاكهم، وختمها بمشهد من يوم القيامة يؤكّد قدرته على البعث، ومعجزة انشقاق القمر للنبيّ ﷺ آية دالة على قدرة الله على إهلاك المكذّبين بعد معاينتهم الآيات[(١)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٠٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٣٣٩، ٣٤٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٢٤- ٣٤٢٨، وهو يثبت حادثة انشقاق القمر، ولكنه يتوقف في تعليله بأنه معجزة كما جاء في الروايات، بل يعتبره آية من آيات الله، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٧، ص ١٦٦- ١٧٢، وأ.د مسلم، زملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ص ٥١٢. وطهماز، **من سورة الطور إلى سورة الناس**، ص ٣٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤١٩، وقد ذكر أن انشقاق القمر إما معجزة للنبي ﷺ أو من أحداث الآخرة دون ترجيح، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ١٠٧- ١٠٩، وانظر الروايات التي ذكرت أنها معجزة للنبي ﷺ: **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، برقم: ٤٤٨٦، **وصحيح مسلم**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم: ٥٠١٤. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي أيّد بها نبيّه ﷺ بعد أن لم تَكْفِ المكذّبين معجزة القرآن وما فيه من الذكر، مع تهديدهم ببيان مصير المكذّبين السابقين بآيات الله ورسله، ولما كانت معجزة انشقاق القمر للنبيّ ﷺ أدلّ ما في السورة على المحور المذكور، سُمّيت السورة بها للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان إهلاك الله للمكذّبين بعد معاينتهم الآيات الدالة عليه سبحانه.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي تهديداً بالعذاب الأخروي بعد أن لم تَكْفِ المكذّبين آيات الله المعجزات في الدنيا، ثم عرض قصصي يبرز مصير الأقوام لما كذبوا بدعوة الرسل وما أيّدهم الله به من آيات، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة تهديد للمكذّبين بمعجزة انشقاق القمر ـ الذين يعتبرونها وكلَّ آية يرونها من آيات الله سحراً مستمرًّا ـ بالعذاب الأخروي من الله بعد أن لم تكفهم آياته في الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٨، والعرض القصصي: ٩ - ٤٢، والخاتمة: ٤٣ - ٥٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي كلها تحوي تهديداً للمكذبين: أ) فقد تكرر فيها «الساعة» ثلاث مرات: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: ١، ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ ٤٦، ولم تتكرر هذه الصيغ، ب) هي الوحيدة التي اختصت بقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ج) هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر «النذر» مع أل التعريف: ٥، ٢٣، ٣٣، ٣٦، ٤١، كما أنها الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة «نذر» دون أل التعريف: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠، ٣٧، ٣٩، د) قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: ٤، ذكر هنا فقط، هـ) وكذلك قوله ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾: ٦، وقوله ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: ٨، فلم تتكرر «عسر» بدون ياء، وقوله ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: ٤٢، وفي المقابل عن أهل الجنة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾: ٥٥، فلم يذكر «مليك» في موضع آخر، وقوله ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾: ٥١، هنا فقط. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، فهم لم تكفهم آيات القرآن، ولا حتى انشقاق القمر لحملهم على الإيمان، فاستحقّوا العذاب في ذلك اليوم العسر.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد إهلاك الله للمكذّبين السابقين بدعوة رسل الله وآياته التي أيّدهم بها، وقد ابتدأ السياق بقصة نوح، إذ لم يكفِ قومه تسع مئة وخمسون عاماً من الدعوة: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾، ثم عرض السياق إهلاك عادٍ بعد أن كذبوا هوداً، وإهلاك ثمود بعد كذبوا صالحاً، وعقروا الناقة، وهي معجزة دالة على صدق النبيّ كمعجزة انشقاق القمر، فأهلكهم الله، وعرض إهلاك قوم لوط بعد أن أعرضوا عن نعمة الله عليهم بالنساء، وختم بإهلاك فرعون وقومه الذين كذبوا بآيات الله كلّها، وبعد كل قصة كان يكرر العبارة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

إن عرض هذه القصص مع التعقيب على كل واحدة منها بهذا السؤال، ليؤكّد المحور المذكور من الدعوة إلى الإيمان بالمعجزات التي أيّد الله بها نبيّه ﷺ بعد أن لم تكفِ المكذّبين معجزة القرآن.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التهديد بالعذاب الأخروي لمن كذب بآيات الله المعجزات في هذه الدنيا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

وكما افتتحت بتهديد المكذّبين بمعجزة انشقاق القمر بعد أن تكفهم معجزة القرآن الكريم، ختمت ببيان المصير الأخروي للفريق المقابل وهم المؤمنون بآيات الله المعجزات يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، كون انشقاق القمر من آيات الله المعجزات التي أيّد الله بها نبيّه ﷺ.

سورة القمر

سورة بيان إهلاك الله للمكذّبين بعد معاينتهم الآيات الدالة عليه سبحانه وتعالى

الموضوع الأول (الآيات: ١-٨)

المقدّمة التي تحوي تهديداً بالعذاب الأخروي بعد أن لم تكفِ المكذّبين آياتُ الله المعجزات في الدنيا:

- افتتحت السورة بعرض موقف المكذّبين من آية انشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.
- وقد ذكّرتهم المقدّمة وهدّدتهم ببيان مصير المكذبين السابقين: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.
- وحذّرتهم من العقوبة الأخروية إذا أصرّوا على تكذيبهم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾.

الموضوع الثاني (الآيات: ٩-٤٢)

عرض قصصي يبرز مصير الأقوام لما كذبوا بدعوة الأنبياء وما أيّدهم الله به من الآيات:

- أول قصة، قصة قوم نوح عليه السلام الذين لم تكفهم ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة، فقد نجى الله رسوله في السفينة، وأهلك قومه المكذّبين: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.
- ثم عرض السياق قصة إهلاك عادٍ بريح صرصر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر.
- ثم عرض قصة إهلاك ثمود بعدما عقروا الناقة، وهي آية دالة على الله وعلى صدق صالح عليه السلام، كدلالة آية انشقاق القمر على صدق سيدنا محمد ﷺ.
- ثم عرض قصة إهلاك قوم لوط عليه السلام الذين آثروا الشهوة المحرمة على شهوة النساء التي أباحها الله.
- ثم ختم بقصة فرعون وآله الذين كذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.
- بعد كل قصة كان السياق يذكر السؤال التالي: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾، وهو سؤال يؤكّد المحور المذكور الدال على التحذير من التكذيب بآيات الله لأنه أمر معرِّض للهلاك.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٣-٥٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التهديد بالعذاب الأخروي لمن كذّب بآيات الله المعجزات في هذه الدنيا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.
- وكما افتتحت السورة بتهديد المكذّبين بمعجزة انشقاق القمر، ختمت ببيان مصير الفريق المقابل، وهم المؤمنون المتقون: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

سورة الرحمن

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الراء والحاء والميم: أصل واحد يدلّ على الرِّقَّة والعطف والرأفة»[1]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الرحمة رقَّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل في الرِّقَّة المجردة، وقد تستعمل في الإحسان المجرَّد عن الرِّقّة. . . ، وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرّد عن الرَّقَّة»[2]، فافتتاح السورة بهذا الاسم الجليل يعطي دلالات متناسقة مع ما سيذكره السياق من مظاهر رحمته تعالى بالإنس والجانّ، يؤكّد هذا مجيء هذا الاسم على صيغة المبالغة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة الدلالة على عظيم ملك الله وتمام اقتداره، بعموم رحمته وسبقها لغضبه، فالسورة إعلان عامّ في ساحة الوجود الكبير بآلاء الله الباهرة في جميل صنعه وإبداع خلقه، وفي فيض نعمائه وفي تدبيره للوجود وما فيه، وتوجّه الخلائق كلّها إلى وجهه الكريم، مع تحدّي الثقلَيْن إن كانا يملكان التكذيب بهذه الآلاء، فالسورة تحثّ على شكر آلاء الله وتحذّر من تكذيبها أو التغافل عنها، وعلى هذا كلّه دلّ اسمها «الرحمن»[3].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

---

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ٤٤٦.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ٣٤٧. بتصرف.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣١١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٣٧١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٤٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٧، ص ٢٢٩، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٧، ٥٤٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٤٢٢- ٤٢٤، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن**، ص ٢٧٣- ٢٧٦.

التوحيد من خلال عرض بعض مظاهر رحمة الله تعالى المتعلقة بالإنس والجنّ في الدنيا والآخرة. ولما كان الاسم الجليل «الرحمن» يدلّ على ذلك، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان بعض مظاهر آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الدنيا والآخرة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين متساويين تقريباً؛ أولهما: بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الدنيا، وثانيهما: بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الآخرة[1].

---

(١) القسم الأول شملته الآيات: ١- ٣٦، والقسم الثاني: ٣٧- ٧٨. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور التي تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى تبرز بعض مظاهر رحمته: أ) فمن ذلك تكرار عبارة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة، منها الآيتان رقم: ٥٥، و ٦٩، وقريب منها قوله تعالى في سورة النجم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾: ٥٥، علماً بأن رقم سورة الرحمن المشهورة بتكرار تلك العبارة: ٥٥، وقريب منها أيضاً: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: الأنعام: الأعراف: ٦٩، ٧٤، ب) هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «خلق» مع كلمة «الإنسان» صراحة وليس بالضمير العائد عليه: ٣، ١٤، ج) سورة الرحمن وسورة العلق الوحيدتان اللتان تكرر فيهما الفعل «علّم» المختص بالله تعالى فيما يتعلق بالإنسان كجنس وليس كفرد أو مجموعة خاصة: الرحمن: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾: ٢-٤، والعلق: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: ٤، ٥، د) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «الميزان» الدالة على رحمة الله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾: ٧-٩، هـ) هي وسورة الأنعام أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «إنس»، وقد جاءت في سورة الرحمن في سياق التذكير بنعم الله والتحذير من تكذيبها، الرحمن: ٣٣، ٣٩، ٥٦، ٧٤، والأنعام: ١١٢، ١٢٨ (مرتين)، ١٣٠، لكن سورة الرحمن تميّزت بأنها السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «جانّ»: ١٥، ٣٩، ٥٦، ٧٤، و) هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها وصف الله تعالى بأنه «ذو الجلال والإكرام»: ٢٧، ٧٨، وقريب منها وصفه تعالى بأنه «الأكرم» في سورة العلق: ٣، ثانياً: ومنها أمور متعلقة باليوم الآخر وهي أيضاً تبرز مظاهر رحمة الله تعالى: أ) هي السورة الوحيدة التي وصفت فيها حالة السماء يوم القيامة بقوله ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾: ٥٧، ولاحظ أن التعبير لطيف متناسب مع دلالة اسم السورة، ب) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها عبارة ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾: ٤١، بالجمع لا الإفراد مع الفعل المبنيّ للمجهول، ودلالة الجمع ألطف من دلالة الإفراد، وانظر قوله في سورة العلق لكن مع الفعل المبنيّ للمعلوم: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾: ١٥، ١٦، ج) هي السورة الوحيدة التي أخبرت عن ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾: ٤٦، والتعبير بالتثنية يؤكّد مزيد الرحمة، وهي كذلك =

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة بيان لعدد من مظاهر رحمة الله تعالى على الإنس والجن في هذه الحياة الدنيا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، ولاحظ ذكر خلق الإنسان بين تعليم القرآن وتعليم البيان، إن في ذلك مزيد تأكيد على مظاهر رحمته تعالى بالإنسان، إذ لو أن الإنسان خُلق بلا تعليم لما كان حاله أحسن من البهائم، لكن الله أكرمه بالتعليم.

وقد بيّن السياق أن الله تعالى سخّر ما في هذا الكون ليتمكّن الإنسان والجانّ من العيش بكرامة في الأرض، فقد خلق الله الشمس والقمر بحسبان، وجعل نجوم السماء دالة على قدرته، وكذلك شجر الأرض، وقد رفع السماء ووضع للكون ميزاناً، فلا ينبغي للإنسان ولا للجانّ أن يطغيا بسوء تصرفاتهما في ميزان الكون، كما أنهما مأموران بأن يقيما الوزن بالقسط بلا تخسير، وقد وضع الله الأرض للأنام وجعل فيها فاكهة ونخلاً وحَبًّا وريحاناً، هذا كلّه يدلّ كما ترى على مظاهر رحمة الله تعالى بالإنسان والجان. أكد ذلك السؤالُ التقريري بعد ذكر هذه النِّعَم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم انتقل السياق بعد أن أقرَّ نعمة الإمداد إلى نعمة الإيجاد، فذكر أصل خلق الإنسان والجانّ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى هو رَبُّ المشرقين ورَبُّ المغربين، ليتلاءم ذلك مع ما سبقه من بيان أنه هو خالق الإنسان والجانّ، فإن القادر على خلقهما والقادر على خلق المشرقين والمغربين هو وحده المستحقّ للعبادة.

كما وبيّن السياق من مظاهر رحمة الله بالإنسان والجانّ أن الله هو الذي مرج البحرين العذب والفرات وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان، وهو الذي سخر البحر لتجري فيه السفن، وبعد ذكر هذه الآيات الجليلة ذكر أن كل ما على الأرض سيفنى، ولا يبقى إلا الله ذو

= الوحيد التي وُصفت فيها الجنتان بأنهما ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: ٤٨، وأن ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾: ٥٠، د) وهي السورة الوحيدة التي أخبرت عن الجنتَيْن الأخريين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: ٦٢، وأنهما ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: ٦٤، وأن ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾: ٦٦. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الجلال والإكرام. وبذلك يتحقّق أنه تعالى هو موجد الخلق أول مرة، كما أنه هو المعيد لهم في الآخرة.

وقبل الانتقال إلى بيان مظاهر رحمة الله في الآخرة، بيّن السياق أن تسخير الكون للإنس والجنّ لا يعني أن لهما مطلق الحرية فيه، بل هما مأسوران فيه لا يستطيعان النفاذ منه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فليس لأحد من الجنّ أو الإنس القدرة على النفاذ من أقطار السماوات والأرض إلا إذا أراد الله شيئاً من ذلك، كما أكرم عبده ﷺ بعروج السماوات السبع.

ثانياً: وبعد بيان مظاهر رحمة الله بالإنس والجنّ فيما يتعلق بالدنيا، انتقل إلى بيان مظاهر رحمته تعالى بهما في الآخرة، وبذلك يتحقّق أن الله تعالى هو المنعِمُ الرحمنُ ابتداءً، وهو المنعمُ الرحمنُ انتهاءً، وقد بدأ السياق بالحديث عن مصير المجرمين، ولا يتعارض ذلك مع سياق تعداد النِّعَم، بل على العكس، إذ إن بيان مصير المجرمين هو من أبرز مظاهر رحمة الله، لأن بيان مصيرهم دليل عدله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾.

ولكن بالرغم من أن الحديث عن المجرمين إلا أن التعبير ما زال لطيفاً منسجماً مع اسم السورة، فلاحظ التعبير عن انشقاق السماء ووصفها بالوردة كالدهان، وعدم ذكر شيء عن الحساب، بل يؤخذ المجرمون إلى جهنم مباشرة فلا داعي لحسابهم وقد ثبت من جرائمهم أنهم أهل النار، وذكر النواصي والأقدام بالجمع وليس بالإفراد، مع الفعل المبنيّ للمجهول وليس للمعلوم، واقتصر السياق في وصف عذابهم فقط على أنهم يطوفون بين جهنم وبين الحميم الآنِ.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن أهل الجنة، واللافت للنظر أن السياق قسّم أهل الجنة لِقسمين، وجعل لكل فردٍ من القسمين جنتَيْن، ولا يخفى أن هذا التفصيل الذي لم يتكرر في

القرآن على هذا النحو يؤكّد المحور الذي تدور حوله السورة، والذي عبر عنه اسمها بأبلغ صورة، فابتدأ بالحديث عن المقرّبين: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾، ولاحظ ذكر الفاكهة المتناسب مع ذكرها أول السورة، فكما هي من مظاهر رحمة الله بالإنسان في الدنيا، فهي من مظاهر رحمته تعالى في الآخرة، ولاحظ أن السياق وصف بطائن الفرش بأنها من إستبرق، فإذا كان هذا وصف البطائن فما بالك بالظواهر.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن الجنتين الأخريين لمن هم دون المقربين من أهل الجنة: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولاحظ وصف العينين هنا بالنضّاختين، بينما العينان عند المقرّبين وصفت بالجريان، ووصف العينين بالجريان أبلغ، لأن الجريان يعطي مدى أطول وأزيد للماء، بينما الوصف بالنضخ يحدّد مدى الماء وكأنهما نافورتان محدودتان، ولاحظ وصف الفاكهة المتلائم مع ذكرها في المقدّمة، ولا يخفى أن هذا الوصف أقلّ في الدلالة من وصف الفاكهة عند المقربين.

وكما افتتحت السورة باسم الرحمن للدعوة إلى التوحيد بذكر بعض مظاهر رحمته تعالى بالإنس والجانّ، ختمت بالدعوة إلى التوحيد بعد ذكر مظاهر رحمته تعالى بالمؤمنين من الإنس والجانّ في الآخرة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ وأجمل دلالة.



سورة الرحمن

سورة بيان بعض مظاهر آلاء الرحمن على الإنس والجان في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣٦)

بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الدنيا:

- افتتحت السورة بذكر نعمتَيْ خلق الإنسان وتعليمه القرآن والبيان، ولولا هاتان النعمتان لما كان حال الإنسان أفضل من البهائم، ولكن الله أكرمه بالتعليم.
- وقد بيّن السياق بعض مظاهر آلاء الله، إذ سخّر ما في الكون ليتمكّن الإنس والجانّ من العيش بكرامة في الأرض، فالله خالق الشمس والقمر بحسبان، فلا ينبغي للإنس والجانّ أن يطغوا بهذا الميزان بسوء التصرف، وقد وضع الله الأرض للأنام وجعل فيها فاكهة ونخلاً وحباً وريحاناً، ثم أكّد هذه النعم بالسؤال التقريري: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.
- ثم انتقل السياق إلى نعمة الإيجاد، فذكر السياق أن أصل الإنسان من صلصال كالفخار، وأن أصل الجانّ من مارج من نار، وأكّد قدرة الله على خلق الإنس والجانّ ببيان أنه ربّ المشرقين وربّ المغربين، وأنه هو الذي مرج البحرين يلتقيان، وأنه الذي سخّر البحر لتجري فيه الفلك، ثم بيّن أنه قادر على إفناء العالم كما أنه هو الذي خلق العالم أول مرة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.
- وبيّن السياق أن هذه الآلاء لا تعني أن للإنس والجانّ مطلق الحرية في الكون، بل هما مأسوران فيه لا يستطيعان النفاذ منه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٣٧-٧٨)

بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الآخرة:

- ابتدأ السياق ببيان مصير المجرمين المكذّبين بعدما عاينوا من آلاء ربهم الرحمن ما عاينوا، فكان بيان مصيرهم دليلاً على عدل الرحمن سبحانه.
- ولم يفصّل السياق في عرض مصيرهم ولكن ذكر أن المجرمين سيؤخذون بالنواصي والإقدام، ثم يطوفون بين جهنم وبين حميم آنٍ، وعدم التفصيل في بيان مصيرهم متلائم مع دلالات اسم السورة.
- في المقابل فصّل السياق في بيان مصير المؤمنين بالرحمن سبحانه، فابتدأ بالمقربين منهم وهم كل مَن خاف مقام ربه سبحانه، فلهم جنتان ذواتا أفنان، فيهما عينان تجريان، ومن كل فاكهة زوجان: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾.
- ثم فصّل السياق في مصير المؤمنين الذين هم دون المقرّبين في المنزلة، فلهم جنتان آخريان مدهامتان، فيهما عينان نضاختان، وفيهما فاكهة ونخل ورمان.
- وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الدنيا، ختمت بذكر بعض آلاء الرحمن على المؤمنين من الإنس والجانّ في الآخرة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

سورة الواقعة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «وقع: الواو والقاف والعين أصل واحد يدلّ على سقوط الشيء، والواقعة: القيامة، لأنها تقع بالخلق فتغشاهم»(١)، ويقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الوقوع: ثبوت الشيء ووقوعه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقع) جاء في العذاب والشدائد»(٢). وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان أن يوم القيامة يوم سيقع بالناس بلا كذب، وحينها سيُخفض أناس ويرفع آخرون؛ بناء على الأعمال التي ستوزن بميزان الله، ثم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وقد أكّد ذلك مجيء اسم السورة بصيغة اسم الفاعل، وكأنها أمر قد حصل، و «أل» التعريف تدلّ على انفرادها بهذه الصفة، فلا واقعةَ حقيقةً غيرها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

أما من حيث علاقة هذا الاسم بموضوعات السورة، فقد ذكر بعض المفسّرين والكاتبين أن سبب تسمية هذه السورة بهذا الاسم إنما يعود لكونها مملوءة بوقائع يوم القيامة، وأنها تحدّثت عن مآل كل قسم من الأقسام الثلاثة المذكورين أولها، والذين كانوا قد ذُكروا في سورة الرحمن السابقة لها، وجزائهم العادل، فاسم السورة يعبّر عن القضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية، ألا وهي النشأة الآخرة رَدًّا على قول المشركين الشاكّين فيها والمكذّبين بالقرآن، فدلالة اسم السورة « الواقعة » وما يتعلق به الظرف أدلّ ما فيها على ذلك(٣).

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١١٠١.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٨٨٠.

(٣) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ١٠٦، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣١٥، =

ومن الممكن أن تُلخَّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إقامة الحجة على أن القيامة واقعة لا محالة، من خلال بيان قدرة الله تعالى على البعث بالأدلة العقلية، والتأكيد على ذلك ببيان مصير الناس في ذلك اليوم، فاسم السورة يدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة إثبات أن القيامة واقعة لا محالة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: مقدّمة تعرض بعض أهوال يوم القيامة، ثم تفصيلٌ في حال ومصير الأقسام الثلاثة المذكورة فيها، ثم ذِكْر أدلة عقلية من واقع حياة الإنسان على القدرة الإلهية على البعث، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق(1).

أولاً: جاءت مقدّمة السورة متحدّثةً عن بعض أهوال يوم القيامة، وأن الناس سينقسمون

= والبقاعي، **نظم الدرر**، ج٧، ص ٤٠٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٧، ص ٢٨١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٦٢، و أ. د مسلم وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٧، ص ٥٩١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، ص ٤٢٥، وطهماز، **من سورة الطور إلى سورة الناس**، ص ٦٥. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(1) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ ـ ٧، والحديث عن مصير الأقسام الثلاثة: ٨ ـ ٥٦، والأدلة العقلية: ٥٧ ـ ٨٠، والخاتمة: ٨١- ٩٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تؤكّد وقوع يوم القيامة من خلال بيان مصير الناس فيها: أ) فقوله تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾: ٧، لم يتكرر في القرآن، وقوله ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: ٨، ذكر هنا وفي سورة البلد: ١٨ فقط، بينما قوله ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: ٩، لم يتكرر، وكذلك ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾: ١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالأدلة العقلية الدالة على قدرة الله: أ) فمما يتعلق بالإنسان قوله ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾: ٥٨، وقد ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وكذلك قوله ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: ٥٩، وقريب منه في سورة الطور: ٣٥، وكذلك قوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾٦١، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الإنسان: ٢٨، والمعارج: ٤١، ب) ومنها ما يتعلق بالزرع، فقوله ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾: ٦٤، لم يتكرر في القرآن، ج) ومنها ما يتعلق بالماء، فقوله ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾: ٦٩، ٧٠، لم يتكرر، د) ومنها ما يتعلق بالنبات، فقوله ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾: ٧٢، لم يتكرر كذلك. وبإمكانك أن تضيف أن قوله تعالى واصفاً حقيقة اليوم الآخر: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: ٩٥، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وانظر قريباً منه في سورة الحاقة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: ٥١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

حينها إلى ثلاثة أقسام، وذلك يتناسب مع دلالة لفظ الواقعة وجَرْسه الصوتي «فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته ـ بما فيه من مَدّ ثم سكون ـ تُلْقى في الحِسّ كأنما هي ثِقَل ضخم ينقضُّ من علٍ ثم يستقرّ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال، ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يتوقع له الحسّ أرجحة ورجرجة يُحدثها حين يقع، ويلبي السياق هذا التوقّع فإذا هي تخفض أقداراً كانت رفيعة في الأرض، وترفع أقداراً كانت خفيضة، وإذا هي ترجّ الأرض رجًا، وإذا الجبال الراسية تتحوّل إلى فتات يتطاير كالهباء»[1]. ولاحظ أيضاً قوله تعالى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ المؤكّد للمحور المذكور وارتباط اسم السورة به، ومما يلاحظ أن التعبير عن انقسام الناس جاء بصيغة الماضي: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾، والتعبير بهذا الفعل يجعل من القارئ شاهد عيان وكأن الواقعة وقعت وهو يرى انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام بأمّ عينيه.

ثانياً: ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن مصير تلك الأفرقة الثلاثة، فابتدأت بالمقرّبين لفضلهم، ثم أصحاب اليمين، ثم أصحاب الشمال، ولا توجد سورة في القرآن ذكرت الحديث عن هذه الأقسام الثلاثة مجتمعة بهذا القدر الموجود في سورة الواقعة، ويلفت النظر أيضاً أسلوبُ التعبير عن تلك الأقسام، فانظر قوله تعالى عن السابقين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وقوله عن أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ وقوله عن أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ إن التعبير بشبه الجملة المفيدة للظرفية تطلعك على مزيد من الحضور وكأنك تراهم، بينما جاء التعبير في سور أخرى ـ كسورة الرحمن مثلاً ـ بالجملة الاسمية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ التي تفيد الإخبار دون الحضور الذي تجده في سورة الواقعة.

ويلفت النظر أيضاً التفصيلُ في مصير تلك الأقسام الثلاثة، وفي وصف نعيم فريق السابقين المقرّبين، وفريق أصحاب اليمين أوفى وصف، وفي وصف عذاب أصحاب

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٦٢.

الشمال بأدقّ التفاصيل وكأنها معروضة للعيان، فانظر قوله تعالى واصفاً نعيم السابقين المقرّبين: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾، وانظر قوله واصفاً نعيم أصحاب اليمين: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾، وانظر قوله واصفاً عذاب أصحاب الشمال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾. وهذا يؤكّد حقيقة أن القيامة التي ستحدث فيها هذه الأحداث واقعة لا محالة[1].

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى ذكر عدد من الأدلة العقلية على حقيقة البعث، يراها الناس في حياتهم بشكل دائم، فالذي خلق الإنسان من المَنِيّ وصوّره في الأرحام، هو الذي سيُميتُه ثم يبعثه للحساب كما أنشأه أول مرة، والذي أخرج الزرع من الأرض ولو شاء أن يجعله حطاماً لفعل، هو القادر على إخراج العباد من الأرض لحسابهم كما أخرج الزرع، والذي أنزل الماء الذي فيه حياة العباد ولو شاء أن يجعله أجاجاً لفعل، هو القادر على بعثهم كما أحياهم بذلك الماء، والذي أخرج الشجر بعد أن سُقِي بذلك الماء، فاستفاد منه العباد وأوقدوا فيه النار، هو القادر على إخراج العباد من الأرض كما أخرج ذلك الشجر.

فهذه الأدلة العقلية إنما ذُكرت لتؤكّد أن القيامة واقعة لا محالة، وهي أدلّة على صدق القرآن الذي يدعو إلى الإيمان بهذه الحقيقة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد ذكرت مصير تلك الأفرقة الثلاثة حين الموت، فالسابقون يبشرون بالروح والريحان وجنات النعيم، وأصحاب اليمين في أمن وسلام، وأصحاب الشمال في الحميم والجحيم. وهكذا تلتقي الخاتمة مع المقدّمة في التأكيد على المصير الذي سيؤول إليه الأفرقة الثلاثة في القيامة الواقعة لا محالة. وانظر قوله تعالى عن حالة احتضار الإنسان للموت الذي هو أول منازل الآخرة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ

(١) قد أشار سيد قطب إلى ذلك في المصدر السابق ص ٣٤٦١.

﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾، وكما افتتحت السورة بعرض مشاهد من يوم القيامة تؤكّد أن القيامة واقعة لا محالة، خُتِمت بتأكيد المقصد ذاته: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الواقعة

سورة إثبات أن القيامة واقعة لا محالة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تعرض بعض أهوال يوم القيامة:

- افتتحت السورة بعرضٍ لبعض مشاهد يوم القيامة وكأنها قد وقعت حقاً: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.
- ثم بيّنت أن الناس سينقسمون حينها إلى ثلاثة أقسام: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٥٦)

التفصيل في بيان حال ومصير الأقسام الثلاثة:

- ثم انتقل السياق إلى عرض مصير الأقسام الثلاثة بوصف دقيق وكأنك تنظر إليهم.
- فأول فريق السابقون المقرّبون: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾.
- والفريق الثاني أصحاب اليمين: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾.
- والفريق الثالث أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٧-٨٠)

ذكر أدلة عقلية تؤكّد قدرة الله على البعث:

- ثم أكّد السياق قدرة الله على بعث الناس في يوم القيامة بأدلة عقلية يرونها كل يوم:
- فالله هو الذي خلق الإنسان من المَنِيّ، وهو القادر على بعثه.
- وهو الذي أخرج الزرع من الأرض وليس الناس.
- وهو الذي أنزل الماء من المزن ولم يجعله أجاجاً.
- وهو الذي أخرج الشجر بهذا الماء، وسخّره للإنسان فيوقدون فيه النار، فكما أن الله تعالى هو القادر على كل ذلك، فهو قادر على بعث الناس في يوم الواقعة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨١-٩٦)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله على البعث ببيانها حال الأقسام الثلاثة حين الاحتضار: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بعرض مشاهد من القيامة تؤكّد أن القيامة واقعة لا محالة، ختمت بتأكيد المقصد ذاته: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

سورة الحديد

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيان أن الله أنزل نعمة الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس، وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (بعض الآية: ٢٥)، وكأنها إشارة إلى ضرورة استعمال الحديد لنصرة دين الله ورسله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقّق في ذاتها حقيقة إيمانها، لتكون موازينها هي موازين الله، وقِيَمها هي القِيَم الثقيلة في تلك الموازين، ولذلك تدعو السورة إلى بذل النفس والمال في سبيل الجهاد للدفاع عن الدين، وقد سُمّيت السورة بالحديد؛ لأنه القوَّة التي تحمي العدل ويُجاهَد بها أعداء الدين[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والإنفاق في سبيل الجهاد لنصرة الدين، مع بيان بعض مظاهر عظمته تعالى الدالة على أنه قادر على جزاء المنفقين والمجاهدين في سبيله خير الجزاء في الدارين، ولما كان

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣١٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٤٣٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٤٧٥، ٣٤٧٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٧، ص ٣٥٣، ٣٥٦، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ١ – ٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٣٩٣- ٣٩٥، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

ذكر الحديد ذي البأس الشديد أدلّ ما في السورة على ضرورة استخدامه لنصرة الله ورسله بالغيب، سُمّيت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى تسخير الحديد والمال لنصرة الله ورسله عليهم السلام.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة فيها بيان بعض مظاهر عظمته تعالى لتؤكّد قدرته على جزاء المؤمنين المنفقين، وثانيها: دعوة إلى الإنفاق والجهاد في سبيل نصرة الدين مع بيان جزاء المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وثالثها: خاتمة مؤكدة لما سبق(١).

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٦، والدعوة للإنفاق والجهاد: ٧- ٢٤، والخاتمة: ٢٥- ٢٩. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق ببيان عظمته تعالى للدلالة على قدرته على جزاء المؤمنين: أ) فهي الوحيدة في القرآن التي ذكرت فيها الأسماء الجليلة: «الأول» و «الآخر» و «الظاهر» و «الباطن»: ٣، ب) وهي مع سورة سبأ الوحيدتان اللتان ذكر فيهما قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: ٤، وسبأ: ٢، ج) هي وسورة المائدة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما عبارة ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هنا مرتان: ٢، ٥، وفي المائدة أربع مرات: ١٧ (بذكر لفظ الجلالة بدل الضمير)، ١٨ (بذكر لفظ الجلالة)، ٤٠ (بذكر لفظ الجلالة مؤكّدا بالضمير)، ١٢٠ (بذكر لفظ الجلالة)، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالدعوة إلى الجهاد لنصرة الدين، أ) فقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٩، ب) وكذلك قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾: ٢٥، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بالدعوة إلى النفقة لنصرة الدين، أ) فقد تكررت مشتقات الجذر الرباعي «أنفق» فيها خمس مرات: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: ٧، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ... لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾: ١٠، ب) هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «قرض»: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾: ١١، و﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: ١٨، ج) هي الوحيدة التي ذكرت فيها عبارة ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾: ١٨، بينما ذُكرت كلمة «المتصدقين» في سورة يوسف: ٨٨، وكلمتا «المتصدقين والمتصدقات» في سورة الأحزاب: ٣٥، رابعاً: ومنها أمور متعلقة ببيان جزاء الله للمؤمنين، أ) فهي من أكثر السور التي نسب فيها «الفضل» لله: ٢١ (مرتين)، و ٢٩ (ثلاث مرات ولم يتكرر ذلك في آية أخرى)، ب) هي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر «ضاعف» المنسوب لله: ١١، ١٨، وانظر في سورة البقرة: ٢٤٥، ٢٦١، ج) هي وسورة النور أكثر سورتين تكررت فيهما مشتقات الجذر «نور»: ففي الحديد ستّ مرات: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ٩، ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ١٢، ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ... فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾: ١٣، ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ =

أولاً: جاء في المقدّمة بيان لبعض مظاهر عظمة الله تعالى، لبيان أنه قادر على جزاء المنفقين والمجاهدين خير الجزاء: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾، ولاحظ تكرار «السماوات والأرض» أربع مرات، وتكرار الضمير «هو» سبع مرات، وبيان علمه التامّ بما بين السماء والأرض في الليل والنهار، وكل ذلك يدلّ على أنه تعالى ليس بحاجة إلى من ينصره، ولكنه أمر المؤمنين بنصر دينه لتعود الفائدة عليهم، وهو كذلك غني عن النفقات وعن القروض، وهو أعلم بمن جاهد وأنفق بنيّة حسنة من المؤمنين، وبمن تنصل من النفقة والجهاد من المنافقين، وبذلك تبرز العلاقة بين المقدّمة وبين «الحديد» الذي ينبغي استخدامه لنصرة الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى دعوة المؤمنين إلى الإنفاق لنصرة الله تعالى ونبيّه ﷺ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾، وأكثر ما يحتاج إلى النفقة هو الجهاد لما فيه من ضرورة تجهيز الجيوش وإعداد الجند، وقد أكّد ذلك بيان السياق إلى عدم التساوي بين من أنفق وقاتل من قبل الفتح، وبين من أنفق وقاتل من بعده.

وقد تعدّدت أساليب الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله في هذه السورة، فبعد «الإنفاق» ذُكر «الإقراض»: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٞ كَرِيمٞ ۝١١ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾، ولاحظ بيان جزاء المؤمنين يوم القيامة، وذلك لئلا يفهم طلب

= ﴿وَنُورُهُمْۖ﴾: ١٩، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورٗا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾: ٢٨، وفي النور سبع مرات: ٣٥ (خمس مرات)، ٤٠ (مرتين). ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الله «القرض» من المؤمنين على نحو خاطئ، فالفائدة عائدة عليهم فقط، وقد بيّن السياق حرمان المنافقين من ذلك النور جزاء تنصّلهم من النفقة والقتال في سبيل الله وتربّصهم بالمؤمنين.

ومن أجل الزيادة في ترغيب المؤمنين في النفقة والقتال لنصرة الدين، بيّن السياق تميز المؤمنين على من سبقهم من أهل الكتاب الذين نكلوا عن نصرة دين الله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، فإذا التزم المؤمنون بما جاءهم من الحقّ ونصروه كانوا أفضل من أهل الكتاب.

وبعد «الإقراض» ذُكر «التصدُّق»: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ بيان مضاعفة الأجر من الله، فهو الغنيّ، والفائدة عائدة للمؤمنين، ولاحظ بيان أجر الشهداء عند الله، وكل ذلك يؤكّد المحور المذكور الدال على الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الجهاد لنصرة الدين.

وقد حذّر السياق من فتنة الدنيا التي قد تمنع العبد من النفقة ومن القتال، وكذلك حذّر السياق من البخل، وبيّن للمؤمنين أن كل ما أصابهم من المصائب في سبيل نصرة الله سيُوَفّون أجره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الترغيب في القتال لنصرة الله ورسوله ﷺ، واستخدام نعمة الحديد لأجل ذلك: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى، لبيان قدرته على جزاء المؤمنين المنفقين والمقاتلين لنصرته خير الجزاء مع استغنائه تعالى عن خلقه، ختمت بإعادة

دعوتهم إلى الإيمان ونصرة الرسول ﷺ مع بيان أنه تعالى سيؤتيهم ضعف الأجر، وبيان تفضيلهم ـ إذا التزموا نصرة الله ورسله ـ على أهل الكتاب الذين نكلوا عن ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى نصرة الله ودينه بالإنفاق والقتال، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة لكون الحديد من أهمّ النِّعَم التي يجب أن تستخدم لهذا الغرض.



سورة الحديد

سورة الدعوة إلى تسخير الحديد والمال لنصرة الله ورسله عليهم السلام

الموضوع الأول (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تعرض بعض مظاهر عظمة الله تعالى لتؤكّد قدرته على جزاء المنفقين في سبيله:

- افتتحت السورة ببيان عظمة ملكوت الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾.
- وذكرت المقدّمة الضمير "هو" العائد على الله سبع مرات، وذكرت السماوات والأرض أربع مرات، منها مرتان بعبارة: له ملك السماوات والأرض، وكل ذلك يدعو المؤمنين إلى الإنفاق في سبيل الله لنصرة دينه ليقينهم بأن الله الذي بيده الملك سيجزيهم خير الجزاء.

الموضوع الثاني (الآيات: ٧-٢٤)

دعوة إلى الإنفاق والجهاد في سبيل الله ونصرة دينه، مع بيان جزاء المؤمنين وجزاء المنافقين يوم القيامة:

- ثم انتقل السياق إلى الدعوة للإنفاق لنصرة الدين، لأن الجهاد بحاجة إلى المال لتجهيز الجيش، وقد كان ذلك مرة باللفظ الصريح: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾.
- ومرة بالإقراض: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾.
- وقد عرض السياق نكول السابقين من أهل الكتاب عن نصرة دين الله ورسله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾.
- ومن أساليب الحثّ على النفقة الإشادة بالمُصَّدِّقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾.
- وأشادت السورة بالشهداء للحثّ على الجهاد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾.
- وبيّن السياق حرمان المنافقين من النور يوم القيامة نتيجة تخاذلهم عن الجهاد في سبيل الله.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٥-٢٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت الترغيب في القتال لنصرة دين الله، مع الدعوة إلى تسخير نعمة الحديد في هذا السبيل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان عظمة ملك الله تعالى لتؤكّد قدرته على جزاء المؤمنين المنفقين في سبيل نصرة دينه، ختمت بالتعريض بأهل الكتاب الذين نكلوا عن نصرة دين الله، وبالتأكيد على قدرة الله على جزاء المحسنين: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾.

سورة المجادلة

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام»[(١)]، وقال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ فَتْلَه . . . ومنه الجدال، فكأن المتجادلَيْن يفتل كل واحد منهما الآخرَ عن رأيه»[(٢)]، وقد سُمّيت هذه السورة الكريمة بـ «المجادِلة» بصيغة اسم الفاعل و«المجادَلة» بصيغة المصدر، وكلا الاسمين يدلّان على معنى واحد، فدلالة الكسر يدل على خولة بنت ثعلبة، التي جادلت النبيَّ ﷺ في موضوع ظهار زوجها منها قبل نزول حكم الظهار، ودلالة الفتح يدل على مجادلتها للنبيّ ﷺ في الموضوع ذاته[(٣)]. فالدلالة السياقية لاسم السورة يدلّ على تمام علم الله بمجادلة تلك المرأة للنبيّ ﷺ في موضوع الظهار، وبيان حكم الله فيه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة بيان تمام علم الله وكمال قدرته، وقد كان من

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٢٠٥.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ١٨٩ بتصرف.

(٣) أخرج الحادثة الإمام أبو داود، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم: ٢٢١٤، والنسائي، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم: ٣٤٠٦، وابن ماجه، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم: ٢٠٥٣.

مظاهر عظم هذه القدرة أن سمع قول المجادلة مع النبيّ ﷺ في زوجها، ومن ثم بيانه تعالى لحكم الظهار الذي كان أحد مظاهر الخروج من الفطرة السوية للإنسان بما يلحقه بالزوجة من الأذى، ومن مظاهر تمام علمه تعالى وكمال قدرته المذكورة في السورة، بيان وقوع البأس الشديد بمن حادّ الله ورسوله ﷺ، ومن مقاصد السورة أيضاً إنشاء تصوّر جديد شامل لهذه الحياة، وتربية النفوس على منهج الله بأن يبني في ضميرها الشعور الحيّ بوجود الله تعالى في أخصّ خصائصها، وأصغر شؤونها، وأخفى طواياها، وحراسته لها من كيد أعدائها خفيِّه وظاهِرِه، وكل ذلك يدلّ عليه اسم السورة الدالّ على حادثة مجادلة خولةَ النبيَّ ﷺ في موضوع الظهار وما تبعه من بيان حكم الله فيه(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه من خلال بيان تمام علم الله وكمال قدرته، وأنهم إذا التزموا بذلك فهم في رعاية صاحب القدرة العظمى سبحانه، والنصر حينئذ سيكون حليفهم، ولما كانت حادثة مجادلة خولة بنت ثعلبة النبيَّ ﷺ وما نتج عنها من بيان حَدّ من حدود الله، أدلّ ما في السورة على تمام علمه وعظيم قدرته تعالى، سُمّيت السورة بتلك الحادثة ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله السميع العليم**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين محور السورة ودلالة اسمها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن تمام علم الله وكمال حكمته في موضوع الظهار، وثانيها: تربية للمؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق(٢).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٣٢٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٤٧٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥٠٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ص ٢٨، ص ٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٣١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٤٦، ود. شحاتة، **أهداف كل سورة**، ج٢، ص ٢٢١- ٢٢٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٢٧٩- ٢٨٢.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، وتربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه: ٥- ١٣، والخاتمة: =

أولاً: جاء في المقدّمة بيان تمام علم الله تعالى وكمال حكمته، وذلك من خلال بيان سماعه قول المرأة التي تجادل النبيّ ﷺ في موضوع زوجها، وثم بيان حكم الله تعالى في ذلك: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾، ولاحظ نسبة السمع إلى الله في الآية الأولى ثلاث مرات، وذلك بصيغة الفعل الماضي والمضارع وصيغة المبالغة، فهو قد علم أن ذلك سيحصل منذ الأزل، وقد سمعه حال وقوعه واقعاً، وهو سبحانه سميع بكل شيء، ولاحظ حكمة الله تعالى في التفريق بين الزوجة والأمّ، وإنصاف الزوجة من الظهار الخارج عن الفطرة.

ثم بيّن السياق حكم الظهار، فعلى المظاهر أن يحرّر رقبة، فإن لم يجد فعليه صيام

= ١٤- ٢٢. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: ذكر لفظ الجلالة «الله» في كل آية مرة فأكثر، وذلك لتربية المهابة من الله تعالى في نفوس المؤمنين فيلتزموا بحدوده وأحكامه ويستشعروا معيته ويلتمسوا نصره، وثانياً: نسب السمع إلى الله تعالى في الآية الأولى منها ثلاث مرات، ولم يحصل ذلك في آية أخرى من القرآن، وثالثاً: ذكرت فيها هذه العبارة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ٥، ولم تتكرر في القرآن، وقريب منها قوله تعالى في سورة الحج ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ٧٠، لكن لا يخفى أن دلالة آية المجادلة أبلغ، ورابعاً: ذكرت فيها هذه العبارة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ مرتين: ٦ (عن الكافرين)، ١٨ (عن المنافقين)، ولم تذكر هذه العبارة في موضع آخر من القرآن بهذه الصيغة، وبإمكانك أن تضيف أيضاً عبارة «عذاب مهين» التي تكررت في سورة المجادلة مرتين عن الفريقين: ٥، ١٦، ولم تتكرر هذه العبارة في غير المجادلة إلا في سورة النساء ثلاث مرات، ٣٧، ١٥١ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، ١٠٢ ﴿أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وخامساً: ذكرت فيها عبارة (حزب الشيطان) مرتين: ١٩، ولم تذكر هذه العبارة في القرآن إلا في سورة فاطر وتلميحاً: ٦ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وذكرت في المجادلة عبارة (حزب الله) مرتين: ٢٢، ولم تذكر في موضع آخر سوى في سورة المائدة مرة واحدة: ٥٦، وسادساً: نسب فيها الجذر «كبت» إلى الله تعالى على الكافرين مرتين: ٥ ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ولم يذكر هذا الجذر في موضع آخر إلا في سورة آل عمران: ١٢٧ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾، وسابعاً: سورة المجادلة مع سورة النساء أكثر سورتين في القرآن تكررت فيها العبارة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وذلك ثلاث مرات في المجادلة: ٣، ١١ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ١٣ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وثلاث مرات في النساء: ٩٤، ١٢٨، ١٣٥ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ولا يخفى ما في هذا من التربية على الالتزام بحدود الله، وخامساً: تكرر فيها الفعل المضارع «ينبئ» العائد على الله تعالى مرتين: ٦، ٧، وقد اشتركت بذلك مع سورتَي التوبة والأنعام، أما سورة المائدة فقد تكرر فيها ذلك ثلاث مرات، لكن لا يخفى أن المجادلة أصغرهنّ حجماً وبفرق كبير. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

شهرين متتابعين، فإن لم يجد فليطعم ستّين مسكيناً، وذلك كلّه قبل أن يمسّ زوجته، واللافت للنظر أن السياق قد اعتبر حكم الله تعالى في هذه القضية حدًّا من حدود الله لا يجوز تجاوزها، وإلا خرج المتجاوز عن دائرة الإيمان إلى الكفر: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (بعض الآية: ٤)، وذلك يؤكّد المحور المذكور، فالمقدّمة من خلال بيان حكم الله في حادثة مجادلة المرأة وإتباع ذلك بحكم الله، أبرزت تمام علم الله وكمال حكمته، ليكون في ذلك تربية للمؤمنين على الالتزام بأحكام ربّهم.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى تربية المجتمع الإيماني على الالتزام بحدود الله تعالى فيما يتعلق بما هو خارج هذا المجتمع، فابتدأت بموضوع تهوين شأن الكافرين بآيات الله والمحادّين لله ورسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾، فمن مظاهر كمال قدرته تعالى أنه حكم على هؤلاء بالخزي والمهانة كما أُخزي وأهين من كان قبلهم، ولهم في الآخرة عذاب مهين، ولاحظ الإشارة إلى تمام علم الله وكمال قدرته حيث إنه سينبّئهم بما عملوا يوم القيامة بأعمالهم التي أحصاها لهم، وهم قد نسوها وهم عامِلوها!

ثم عاد السياق إلى التربية على الالتزام بأحكام الله تعالى فيما يتعلق بداخل المجتمع الإيماني، واللافت للنظر أن السياق قد ابتدأ ذلك ببيان تمام علم الله، ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام بأوامره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾، وحذّرت السورة من النجوى المحرّمة، وهي التي تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ، وذلك ـ كما لا يخفى ـ يبرز تمام علم الله بما يكون في هذه النجوى الخفيّة، وحذّرت السورة من فعل اليهود الذين كانوا يُحيُّون النبيَّ ﷺ بتحية خبيثة ويقولون في أنفسهم: لولا يعذّبنا الله بما نقول، فقد علم الله بما في أنفسهم فأخبرنا به، ثم أمرت السورة المؤمنين إذا أرادوا التناجي بأن لا يتناجوا إلا بالبِرّ والتقوى، وأن يتقوا الله الذي إليه يحشرون.

فسياق السورة يبرز بصورة جلية بعض مظاهر تمام علم الله تعالى بما يدور في الخفايا، ويأمر المؤمنين بناءً على ذلك بالالتزام بأحكام الله وأوامره، وحينئذ سيكون النصر حليفهم.

ثم انتقل السياق إلى خُلُق كريم آخر متعلق بالاجتماع بين المؤمنين، وهو أن يتفسّحوا في المجالس، وأن ينفضّوا عن المجلس إذا أمروا بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾، وأعتقد أن هذا الأمر مرتبط بما سبقه من أكثر من ناحية فهو متعلق باجتماع الناس على شيء معيّن أولاً كما في الاجتماع للنجوى، ثم إن فيه دلالة على تمام علم الله أيضاً، وذلك أن هذا الأمر يربّي المؤمن على أن لا يكون في قلبه كِبْرٌ يمنعه من الإفساح لأخيه حتى لو كان متأخّراً، ثم إن الأمر بالانفضاض عن المجلس فيه تربية على عدم الإثقال على المتكلّم، أو صاحب مكان المجلس، وهذا خُلُق عظيم متعلق بأمر خفيّ في النفوس لا يعلمه إلا الله، وفيه توقير لأصحاب العلم.

ثم انتقل السياق إلى تربية المؤمنين على خُلُق آخر يبرز تمام علم الله تعالى، فقد أمرهم ابتداءً بتقديم صدقة إذا أرادوا مناجاة النبيّ ﷺ، وقد علم سبحانه بما كان في نفوس المؤمنين من الإشفاق من هذا الأمر فرفعه عنهم وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لله ولرسوله ﷺ: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾، ولاحظ إعادة التحذير ببيان أن الله خبير بما يعملون، فأنت ترى أن السياق يربّي المؤمنين على الالتزام بأوامر الله تعالى وأحكامه، من خلال بيان تمام علمه وكمال قدرته، وهذا مرتبط مع اسم السورة «المجادلة» الذي دلّ على تمام علمه وكمال حكمته تعالى.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أبرز تمام علم الله تعالى بما كان يدور بين المنافقين الذين يتولّون اليهود، وعلم بكونهم كاذبين في حلفهم للتنصل حين افتضاح هذا الأمر الخفي: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ

فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾، وقد بيّن السياق أن أيمانهم الكاذبة لن تغني عنهم من الله شيئاً حين يبعثهم الله.

واللافت للنظر أن السياق قد بيّن أنهم بعملهم هذا قد خرجوا من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر، وأصبحوا من حزب الشيطان: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقد أعادت الخاتمة التذكير بأن الله سينتصر على المحادّين لله ولرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، وفي ذلك تربية للمؤمنين على أن يكونوا مع الله ورسوله ﷺ، وذلك بالتزامهم بأوامر الله تعالى وأحكامه.

وكما افتتحت السورة ببيان تمام علم الله تعالى وكمال قدرته ليكون في ذلك تربية للمؤمنين على الالتزام بأحكامه وأوامره، فإذا فعلوا كان النصر حليفهم، ختمت السورة بالمقصد ذاته: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور التربية من خلال بيان بعض مظاهر تمام علم الله وكمال قدرته، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة المجادلة

سورة تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله السميع العليم

الموضوع الأول (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تبيّن تمام علم الله وكمال قدرته من خلال حادثة المرأة المجادلة للنبيّ ﷺ:

- افتتحت السورة ببيان سماع الله لقول المرأة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾.
- وبيّن أن الزوجة غير الأمّ، فالظهار مُنْكَر من القول وزُوْر.
- وبيّنت حكم الظهار، فعلى المظاهر أن يُحرّر رقبة، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكيناً، من قبل أن يتماسّا.
- واعتبرت المقدّمة عدم الالتزام بحدود أمر الله مخرج عن دائرة الإيمان: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الموضوع الثاني (الآيات: ٥- ١٣)

تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه:

- هوّن السياق من شأن الكافرين المحادّين لله ورسوله ﷺ الخارجين عن حدوده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾.
- وبيّن أن من مظاهر كمال علم الله وقدرته تعالى أنه سيبعثهم يوم القيامة فينبئهم بما عملوا.
- وبيّن أن من مظاهر كمال علم الله وقدرته أنه يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يكون بين المتناجين: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
- وحرّم السياق النجوى المحرمة وهي التي تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ.
- وحذّر من فعل اليهود الذين كانوا يحيّون النبيّ ﷺ بتحية خبيثة: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.
- أمر السياق المؤمنين بأن لا يتناجوا إلا بالبرّ والتقوى. وأمرهم بالإفساح في المجالس والنشوز من المجالس إذ طُلِب منهم ذلك، وفي هذا تربية لهم على أن لا يكون في قلوبهم كِبْر.
- ورفع الله عن المؤمنين الحرج حين أمرهم بتقديم الصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول ﷺ، فأزال عنهم هذا الحكم، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٤-٢٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أبرزت تمام علم الله وكمال قدرته من خلال بيان أنه عالم بما كان يدور بين المنافقين ومواليهم من اليهود وبين أن أيمانهم الكاذبة لن تغني عنهم شيئاً يوم القيامة.
- وأعادت التذكير بأن الله سينتصر على المحادّين لله ورسوله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾، وفي ذلك تربية للمؤمنين على أن يكونوا مع الله ورسوله ﷺ.
- وكما افتتحت السورة ببيان تمام علم الله وكمال قدرته في حادثة المجادلة ليربّي المؤمنين على الالتزام بأوامره وأحكامه، حينئذ سيكون النصر حليفهم، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمٗا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾.

سورة الحشر

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الحاء والشين والراء هو السَّوق والبعث والانبعاث، . . وأهل اللغة يقولون: الحشر: الجمع مع سَوْق»[(١)]، وقد أكّد كلامَه الإمام الأصفهاني رحمه الله بقوله: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها»[(٢)]، ولا يخفى أن الحشر المقصود في السورة متعلق بيهود بني النضير الذين نقضوا العهد مع النبيّ ﷺ إذ قد حاولوا قتله، وتآمروا أيضاً مع قريش ضدّه ﷺ، فحاصر النبيُّ ﷺ حصونهم المنيعة حتى ألقى الله في قلوبهم الرعب وهزمهم، وأمكن المؤمنين منهم، فكان ذلك الحشر أول الإخراج لهم من أرض الجزيرة العربية. فاسم السورة يدلّ على هزيمة الله لهؤلاء الذين شاقّوا الله تعالى ورسوله ﷺ.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصدها وصف ما جرى في يوم حشر بني النضير، وبيان

---

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٦٦. بتصرف.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٢٣٧.

كيف وقع، ولماذا وقع، وما كان في أعقابه من تنظيمات في المجتمع المسلم، وتربية النفوس في ربط أحداث ذلك اليوم بالخالق سبحانه، فالسورة تعرّفنا على بعض صفات الله تعالى وعظيم قدرته، وقد كان أدلّ ما في السورة على عظيم قدرة الله تعالى حشر بني النضير ذوي الحصون المنيعة وهزيمتهم، ولذلك سُمّيت السورة باسمه[(١)].

لكني لاحظت أن سياق السورة لم يقتصر على بيان عظيم قدرة الله وتمام علمه في ظاهر الأمور فحسب، بل بيّن كذلك بعض مظاهر قدرة الله وتمام علمه بباطن الأمور أيضاً، فمن الممكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان انتصار الله على من شاقّه إن كان على الصعيد الظاهر، أو على الصعيد النفسي في الباطن، وذلك لكمال قدرة الله وتمام علمه بما يختصّ بعالَم الغيب أو عالم الشهادة، ولما كان حشرُ اللهِ ليهود بني النضير أدلّ ما في السورة على انتصاره تعالى على أعدائه من اليهود وإخوانهم من المنافقين في الظاهر ونفسياً في الباطن، سُمّيت السورة به. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان انتصار الله على مَنْ شاقّه انتصاراً مادياً في الظاهر، وانتصاراً نفسياً في الباطن.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى المطلقة في انتصاره على من شاقّه، وثانياً: بيان فضل الله تعالى على المؤمنين الناتج عن انتصاره على بني النضير، وثالثاً: بيان الهزيمة النفسية لأهل الكتاب وإخوانهم من المنافقين، ورابعاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[(٢)].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٣٣٠، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٥٠٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥١٨- ٣٥٢١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ٦٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص٥٧. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٤٤٩- ٤٥١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، وبيان فضل الله على المؤمنين: ٥- ١٠، والهزيمة النفسية لأهل الكتاب والمنافقين: ١١-١٧، والخاتمة: ١٨- ٢٤. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: هي السورة الوحيدة في القرآن التي افتتحت بالتسبيح وذكر الاسمين الجليلين: «العزيز الحكيم»، وختمت أيضاً بالتسبيح وبذات الاسمين، وقد=

أولاً: جاء في المقدّمة بيان لكمال قدرة الله تعالى في انتصاره على يهود بني النضير الذين شاقّوه، ولم يكن انتصار الله عليهم عسكرياً ظاهراً فحسب، بل وصل مداه إلى هزيمتهم نفسياً أيضاً: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾، ولاحظ أولاً افتتاح السورة بالتسبيح الدالّ على تنزيه الله تعالى لكمال قدرته وشمول علمه ظاهراً وباطناً، وثانياً ذكر الضمير «هو» العائد عليه سبحانه، مما يزيد جَوَّ السورة مهابة وإجلالاً مناسباً لذلك النصر المبين، وثالثاً بيان أن الله وحده هو الذي أخرجهم من

= افتتحت بالفعل الماضي «سبّح» الدال على أن التسبيح كائن له تعالى منذ الأزل، وختمت بالفعل المضارع «يسبح» الدال على استمرارية التسبيح له تعالى إلى الأبد، ولا تخفى دلالة التسبيح مع سياق السورة الدال على كمال قدرة الله ومطلق التنزيه له، ولا يخفى كذلك الترابط بين دلالة الاسمين الجليلين «العزيز الحكيم» مع سياق السورة، وثانياً: هي أكثر سورة في القرآن تقدم فيها الضمير المنفصل «هو» على اسم الجلالة «الله»، فقد جاء ذلك فيها ثلاث مرات: ٢٢، ٢٣، ٢٤، ومعلوم أن إظهار لفظ الجلالة مسبوقاً بهذا الضمير فيه مزيد إظهار للجلالة والمهابة الإلهية، وبالإمكان أن تضاف مرة رابعة في الآية الثانية ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد ذكر الاسم الموصول «الذي» بدلاً من لفظ الجلالة لأن لفظ الجلالة قد ذكر في الآية الأولى، أضف إلى ذلك أن هذه السورة أربع وعشرون آية، وقد تكرر لفظ الجلالة «الله» فيها تسع وعشرون مرة، ولم تَخْلُ إلا سبع آيات من هذا الاسم الجليل، وثالثاً: امتازت هذه السورة على باقي سور القرآن بذكر أسماء لله تعالى لم تذكر في أيّ سورة أخرى، وهي: السلام، المؤمن، المهيمن، الجبار، المتكبّر، الخالق، البارئ، المصور (بهذه الصيغة بأل التعريف)، وسأذكر ـ إن شاء الله ـ مناسبتها لسياق السورة في مكانها، بينما الاسم الجليل «الملك» مع أل التعريف فقد ذكر في أربع سور: طه: ١١٤، والمؤمنون: ١١٦، وقد كانت العبارة ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ في الموضعين، علماً بأن الذي يفصل بين سورتي طه والمؤمنون سورتان هما الأنبياء والحج، وذكر اسم الله تعالى «الملك» متبوعاً بـ «القدوس» في سورتي الحشر: ٢٣، والصف: ١، ورابعاً: امتازت سورة الحشر بعبارة ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ٤، بينما في سورة الأنفال كانت العبارة ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ١٣، ولم يذكر الرسول ﷺ في سورة الحشر لأن الله تعالى هو الذي تولّى قذف الرعب في قلوب أهل الكتاب مما أدى إلى هزيمتهم، بينما ذكر ﷺ في سورة الأنفال لأنه كان له دور في غزوة بدر، وخامساً: انظر إلى الآية ٢ من سورة الحشر ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وانظر الآية: ١٤ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ وهما تدلان على الهزيمة النفسية لهؤلاء الذين شاقّوا الله تعالى. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ديارهم لأول الحشر، وقد كانت نفوس المؤمنين تستبعد ذلك لحصانة حصونهم، وهذا يدلّ على تمام علم الله بعالم الغيب، فهو يعلم ما في القلوب، فهذا الانتصار العسكري الظاهر، أما الانتصار النفسي فقد كان بقذف الرعب في قلوبهم وهو يدلّ على علم الله بما في القلوب أيضاً، ورابعاً بيان كمال انتصار الله عليهم حتى في الآخرة، ولاحظ أخيراً أن سبب ذلك كلّه أنهم شاقّوا الله ورسوله، والله شديد العقاب، وقد برز أحد مظاهر شدّة عذابه في إخراج هؤلاء.

فهذه المقدّمة تحوي تلخيصاً يؤكّد محور السورة الدالّ على انتصار الله على من شاقّه انتصاراً مادياً ظاهراً ونفسياً باطناً، وذلك لكمال علمه بما في الظاهر والباطن، وقد برز ذلك في يوم حشر يهود بني النضير الذي سُمّيت السورة باسمه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بيان بعض مظاهر فضل الله على المؤمنين التي برزت من هذا الحشر: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾، ولاحظ أن السياق قد ذكر أن المؤمنين لم يكن لهم دور ملحوظ في هذا الحشر إلا فيما يتعلق بقطع شجرهم وتخريب بيوتهم، فقد بيّن السياق أنهم لم يوجفوا خيلاً ولا ركاباً للحصول على هذا الفيء، وذلك يؤكّد المحور المذكور من أن الله تعالى هو الذي تولّى الانتصار على بني النضير.

وقد بيّن السياق كيفية توزيع هذا الفيء على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء من المهاجرين، ثم انتقل السياق إلى أمر آخر يبرز تمام علم الله بما نفوس الخلق، وذلك أنه شهد للأنصار بعدم وجود بغضاء في قلوبهم تجاه المهاجرين الذين اختصّوا ببعض هذا الفيء دونهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾، وأعتقد أن ذكر ذلك متلائم مع ما ذُكر من قذف الرعب في قلوب بني النضير، ومع ما سيأتي من

بيان أن قلوب اليهود شتّى، بينما قلوب المؤمنين سليمة على بعضهم البعض، فكما أن الله قادر على جعل قلوب اليهود شتّى وقادر على أن يقذف فيها الرعب، فهو قادر على جعل قلوب المؤمنين ممتلئة محبة ومودّة، ومن ناحية أخرى فيه دلالة على علم الله بعالم الغيب الباطن أيضاً.

إذاً فذكر هذا الفضل الإلهي على المؤمنين الناتج عن هذا الحشر قد أسهم في الدلالة على المحور المذكور من كمال قدرة الله وتمام علمه بعالمي الغيب والشهادة.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى أمر خطير آخر يبرز تمام علم الله بعالم الغيب، فقد علم سبحانه بما دار بين المنافقين وإخوانهم الكافرين من أهل الكتاب حول التآمر على النبيّ ﷺ وعلى المؤمنين، ولم يقتصر البيان الإلهي على ذلك فحسب، بل بيّن أن تآمرهم لن يفضي إلى نتيجة فعلية وأنهم كاذبون: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولاحظ أيضاً بيان علمه تعالى بما في قلوبهم من رهبتهم المؤمنين أكثر من الله، ولم يقتصر السياق على بيان علم الله تعالى بما في قلوب المنافقين فحسب، بل بيّن كمال علمه تعالى بما انطوت عليه نفسيات اليهود أيضاً: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾، وقد بيّن السياق أن حال المنافقين مع اليهود كحال الشيطان مع الإنسان، إذ تبرّأ منه لما أغواه، فأنت تلاحظ أن السياق ببيانه تمام علم الله بعالمي الغيب والشهادة يؤكّد الهزيمة النفسية لمن شاقّ الله ورسوله ﷺ كما بينت الهزيمة المادية لهم أول السورة، والذي كان حشر بني النضير أدلّ ما في السورة عليه فسُمّيت باسمه.

رابعاً: ثم جاءت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أمرت المؤمنين بتقوى الله تعالى؛ لأنه ذو العلم المطلق والقدرة التامة، وهو وحده بيده النصر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟

كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾، ولاحظ إعادة الأمر بتقوى الله في الآية الأولى، مما يتناسب مع ما بيّنه السياق من تمام علم الله بما يختصّ بعالم الغيب والشهادة، ولاحظ ذكر كونه تعالى خبيراً بما يعلمون، أما الأمر بأن لا يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فهو متلائم مع ذكر المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب، الذين نسوا الله واعتمدوا على حصونهم وقوتهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وهزمهم في الظاهر والباطن.

ولما كان جَوّ السورة مفعماً ببيان بعض مظاهر علم الله التامّ وكمال قدرته، ناسب ذكر عظمة قرآنه العظيم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، فعظمة هذا القرآن إنما هي من عظمة مُنزِله سبحانه وتعالى، ولذلك كان واجباً على الناس الإيمان به والعمل بما جاء فيه.

ولذلك أردف السياق ذكر القرآن بذكر بعض الأسماء الحسنى لله عزّ وجلّ وصفته العليا: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ولاحظ أن أول صفة لله الواحد هي كونه عالماً بالغيب والشهادة، وذلك يتناسب مع الجَوُ العام للسورة، وذكر «الرحمن الرحيم» متلائم مع ما بيّنته السورة من رحمة الله في توزيع الفيء على الجهات الضعيفة في المجتمع، ومن تراحم الأنصار والمهاجرين ومن جاء بعدهم من المؤمنين، أما «الملك» فمتلائم مع قدرته على إزالة ملك يهود بني النضير وجعله فيئاً للمؤمنين، و «القدوس السلام» متلائمان مع تنزيه الله تعالى المذكور أول السورة وآخرها وتنزّهه عن صفات النقص، و «المؤمن» متلائم مع وهْبِهِ الأمنَ للمهاجرين والفئات المستضعفة في المجتمع، ومع وهبه الجنة للمؤمنين يكونون فيها آمنين يوم القيامة.

سورة الحشر

سورة بيان انتصار الله على مَنْ شاقَّه انتصاراً مادياً في الظاهر وانتصاراً نفسياً في الباطن

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى المطلقة في انتصاره على من شاقَّه:

- افتتحت السورة ببيان أن كل ما في السماوات والأرض يسبِّح لله وينزِّهه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.
- وبيّنت انتصاره تعالى انتصاراً مادياً ظاهراً على مَن شاقَّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾.
- وبيّنت انتصاره انتصاراً نفسياً في الباطن على من شاقَّه: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.
- وبيّنت أن سبب الهزيمة التي لحقت ببني النضير إنما هو مشاقّتهم الله ورسوله ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٠)

بيان بعض مظاهر فضل الله تعالى على المؤمنين التي برزت من هذا الحشر:

- انتقل السياق إلى بيان حكم الفيء، وبيّن أنه غنيمة يغنمها المؤمنون بلا قتال، كما حصل مع بني النضير الذين حاصرهم المؤمنون، وبيّن أن الفيء يوزع على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.
- وبيّن السياق سلامة قلوب المهاجرين والأنصار على بعضهم البعض، وأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، هذا في مقابل بيان المقدّمة أن الله قذف في قلوب بني النضير الرعب، وما سيأتي من بيان أن الله جعل قلوب اليهود شتّى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١-١٧)

بيان الهزيمة النفسية لأهل الكتاب وإخوانهم من المنافقين:

- بيّن السياق كذب المنافقين في ادّعائهم أنهم سينصرون اليهود ضد المسلمين: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.
- وبيّن أن المنافقين يرهبون المؤمنين أكثر من رهبتهم من الله تعالى، وما ذلك إلا لقلّة إيمانهم.
- وبيّن مدى الهزيمة النفسية في قلوب اليهود، التي جعلتهم لا يقاتلون المؤمنين إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر، وبيّن أن قلوبهم شتّى مما يؤكّد هزيمتهم النفسية.
- وبيّن أن حال المنافقين مع اليهود كحال الشيطان مع الإنسان حينما أغواه ثم تبرّأ منه، كذلك تبرّأ المنافقون من نصرة اليهود.

- **الموضوع الرابع: (الآيات: ١٨-٢٤)**
- **الخاتمة المؤكّدة لما سبق:**
- أمرت المؤمنين بتقوى الله مرتين، لأن الله ذو القدرة المطلقة وهو وحده بيده النصر.
- وأمرتهم بأن لا يكونوا كاليهود والمنافقين الذين اعتمدوا على قوتهم وحصونهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وألحَقَ بهم الهزيمة.
- وبيّنت عظمة القرآن العظيم الداعية إلى الإيمان به والعمل بما جاء فيه من الهدى، وما عظمة القرآن إلا مِنْ عظم مُنْزِله سبحانه.
- وبيّنت أن الله عالم الغيب والشهادة مما يتناسب مع بيان السورة هزيمة من شاقَّ الله تعالى في الظاهر والباطن.
- وذكرت عدداً من الأسماء الحسنى التي لم تذكر في سورة أخرى، وهي أسماء متناسقة مع سياق السورة وتدل على عظمة الله وكمال قدرته.
- وكما افتتحت السورة بتسبيح الله وتنزيهه، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

سورة الممتحنة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «المِحْنة: الخبرة، وامتحن القولَ: نظر فيه ودبَّره . . ومحنتُه وامتحنتُه: بمنزلة: خبرته واختبرته»[1]، وقد سُمّيت هذه السورة الكريمة بـ «الممتحِنة» بصيغة اسم الفاعل، و «الممتحَنة» بصيغة اسم المفعول، فأما دلالة الكسر فمن باب إضافة الامتحان إلى السورة، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ (بعض الآية: ١٠)، فكأن ذكر هذا الامتحان في هذه السورة جعلها بمثابة الامتحان للنساء المهاجرات، وأما دلالة الفتح؛ فإما أن تكون إشارة إلى أول النساء المهاجرات، وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أو أن تكون الإشارة إلى النساء المهاجرات، أي: النساء الممتحَنة. فدلالة اسم السورة تعود إلى امتحان النساء المهاجرات لمعرفة إذا كان الإيمان هو الذي أخرجهنّ من مكة، أم غرض دنيوي.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن من مقاصد السورة بيان ما يجب أن يكون عليه المجتمع الإيماني من الولاء والبراء وفق المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم، وهذا أعظم الامتحانات، فيجب تقديم الولاء لله ولدينه على كل الولاءات الأخرى التي تقوم على الجنس أو الأرض أو

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٣١.

العشيرة أو القرابة، وعلى ذلك دلّت تسميتها بالممتحنة؛ لأنها تدل على امتحان النساء اللواتي هاجرن من مكة في إيمانهنّ وولائهنّ لله ولدينه(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على أن يكون ولاؤهم لله ولدينه ولرسوله ﷺ، والتبرّؤ من أيّ ولاءات أخرى والتي أخطرها: موالاة الكافرين، ولما كانت النساء الفئة الأضعف في المجتمع، وهنّ سبب المصاهرة والنسب والرحم، أمرت السورة بامتحانهنّ في إيمانهنّ وحقيقة انتمائهنّ لله ولرسوله ﷺ، ليكون ذلك أدعى للمؤمنين بالالتزام بالولاء لله تعالى، واشتقّ من هذا الامتحان اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تربية المؤمنين والمؤمنات على موالاة الله ورسوله ﷺ، وبيان أن هذا أصعب الامتحانات.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين المحور المذكور ودلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: الأول: مقدّمة تدعو إلى الولاء لله ولدينه ولرسوله ﷺ والتبرؤ من موالاة الكافرين، والثاني: الدعوة إلى التأسّي بإبراهيم عليه السلام في موضوع الولاء والبراء وبيان بعض أحكام هذا الموضوع، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق(٢).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٣٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٥٤٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥٣٧، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ١٣١، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٩٠- ٩٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٥٢، ود. شحاتة، **أهداف كل سورة**، ج ٢، ٢٥٩- ٢٦٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ٢٨٣- ٢٨٤.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٣، والتأسي بإبراهيم عليه السلام وأحكام الولاء: ٤- ٩، والخاتمة: ١٠- ١٣، ومن لطائف هذه السورة: أولاً: قوله تعالى في الآية الأولى منها ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ لم يتكرر في القرآن بهذه الصيغة ـ عدوي ـ، لكن جاء في القرآن قريباً منها في سورة الأنفال الآية ٦٠ منها: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، علماً بأن رقم سورة الممتحنة ٦٠، وفي سورة التوبة الآية ١١٤: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وعلى لسان إبراهيم عليه السلام المذكور أيضاً في سورة الممتحنة، وثانياً: قوله تعالى في الآية الأخيرة من سورة الممتحنة ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وبإمكانك أن تضيف قوله تعالى في الآية: ٩ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقد أشبهه قوله تعالى في الآية ٢٣ من سورة التوبة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم ترد هذه العبارة في مكان آخر من القرآن، وثالثاً: قوله تعالى=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة تربية للمؤمنين على أن يكون ولاؤهم لله ولرسوله ﷺ، وأن يقطعوا موالاتهم للكفار، وذلك من خلال التعقيب على ما فعله حاطب بن أبي بَلْتَعة رضي الله عنه حين حاول إخبار قريش بتجهيز النبيّ ﷺ الجيش لفتح مكة(١): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾، ولاحظ بيان مدى إساءة الكفار للمؤمنين، وبيان مدى حقدهم وودّهم أن يكفر المؤمنون بعد إيمانهم، فَفِيْمَ تكون بين الفريقين مودّة وموالاة إذاً؟ ولاحظ ذكر الأرحام والأولاد المتلائم مع دلالة اسم السورة على النساء اللواتي هنّ سبب الأرحام والأولاد.

فمقدّمة السورة تربّي المؤمنين على الامتحان الأصعب في إيمانهم، وهو موالاة الله ودينه ورسوله ﷺ، وقطع موالاة الكافرين ومودّتهم، ولا يخفى تناسق ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ولتعميق مبدأ الولاء لله تعالى في قلوب المؤمنين، ذكر لهم أسوة في السلف وهو إبراهيم عليه السلام، الذي تبرّأ من قومه ومن أبيه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا

= ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾: ٤، لم يتكرر في القرآن، ورابعاً: لفظة «برءاء» بصيغة الجمع لم تذكر إلا في هذه السورة: ٤، وخامساً: عبارة «أسوة حسنة» ذكرت في هذه السورة مرتين عن إبراهيم عليه السلام والذين معه: ٤، ٦، ولم تذكر مرة أخرى إلا في سورة الأحزاب: ٢١، في حقّ سيدنا محمد ﷺ، وسادساً: المصدر «مودة» ذكر في هذه السورة ثلاث مرات، هي أكثر سورة في القرآن حصل فيها ذلك، وقد كانت مرتان منهما في سياق النهي: ١، ومرة في سياق الترجي: ٧. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(١) أخرج الحادثة الإمام البخاري رحمه الله في **الصحيح**، كتاب التفسير، رقم: ٤٨٩٠، والإمام مسلم رحمه الله في **الصحيح**، كتاب فضائل الصحابة، رقم: ٦٤٨٥.

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾، ولاحظ أن السياق نهى عن الاستغفار للمشركين، وذلك لمزيد تعميق ضرورة ترك الموالاة والمودّة بين المؤمنين وبينهم.

وقد بيّن السياق بعض أحكام الولاء والبراء: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولاحظ الاستطراد في الآية الأخيرة، وذلك لتعميق ضرورة ترك الموالاة والمودّة معهم، فذكر إبراهيم عليه السلام وبعض أحكام الولاء والبراء، منسجم مع دلالة اسم السورة على هذا المحور.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فأمرت السورة بامتحان النساء اللواتي يهاجرن من مكة إلى المدينة، لمعرفة السبب الحقيقي في هجرتهنّ، فإن غلب على الظن أنهنّ مؤمنات، يحرم إرجاعهنّ إلى الكفار حتى لا يُفتنّ في دينهنّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، ولما كانت النساء الفئة الأضعف في المجتمع، وهنّ سبب المصاهرة والنسب والرحم، اشتُقّ من امتحانهنّ اسم للسورة، ليكون ذلك أدعى للمؤمنين على الالتزام بالمحور الذي دلّ عليه هذا الاسم.

وكما افتتحت السورة بنداء المؤمنين بموالاة الله ودينه ورسوله ﷺ، ختمت بالنداء ذاته وبالمقصد ذاته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾، وهكذا التقى المفتتح مع الختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الممتحنة

سورة تربية المؤمنين والمؤمنات على موالاة الله ورسوله ﷺ وبيان أن هذا أصعب الامتحانات

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣)

المقدّمة التي تدعو إلى الولاء لله ورسوله ﷺ، والتبرّؤ من موالاة الكافرين:

- افتتحت السورة بتعقيب إلهي على حادثة حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه، وأمرت بترك موالاة الكافرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.
- وحذّرت من الكافرين وبينت مدى حقدهم على المؤمنين: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٤-٩)

الدعوة إلى التأسّي بإبراهيم عليه السلام في موضوع الولاء والبراء، مع بيان بعض أحكام هذا الموضوع:

- ثم بيّن السياق أن إبراهيم عليه السلام تبرّأ من قومه حينما أصرّوا على الكفر: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.
- ونهى السياق أيضاً عن الاستغفار للمشركين: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.
- وأجاز أن يبرَّ المؤمنون مَنْ لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم.
- وفي المقابل حرّم موالاة مَن قاتل المؤمنين في الدين وأخرجهم من ديارهم وظاهر على إخراجهم.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠-١٣)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أمرت بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من أن يكون ولاؤهنّ لله ولرسوله ﷺ، لا لغرض دنيوي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.
- وأمرت النبيّ ﷺ بمبايعة النساء إذا بايَعْنه على أن لا يشركن بالله شيئاً وأن يلتزمن بأحكام الله.
- وكما افتتحت السورة بنداء المؤمنين لترك موالاة الكافرين، ختمت بالنداء ذاته وبالمقصد ذاته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

سورة الصَّفِّ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى ندبها المؤمنين إلى أن يقاتلوا الأعداء صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وهي بذلك تشير إلى أن المؤمنين ينبغي أن تكون قلوبهم وعقولهم وتحركاتهم متّحدة في الهدف المطلوب منهم في الحياة، وهو نصرة دين الله، ولا يمكن أن يكونوا صفاً في القتال إلا إذا كانوا صفاً واحداً في حياتهم الاجتماعية أيضاً.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تهدف لأمرين، أولهما: أن تقرّر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة، والثاني مبنيّ على الأول، وهو أن يكون شعور المؤمن بهذه العقيدة شعوراً يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دين الله على الدين كلّه كما أراد الله، وعدم التردّد بين القول والفعل، فاسم السورة يشير إلى اتحاد القلوب والنيات في موالاة الله، ومعاداة مَن عاداه، بانضباطٍ ووحدة وتماسك، ولذلك بيّنت اختلاف بني إسرائيل على موسى وعيسى عليهما السلام عن نصرة دينهم وأنبيائهم[1].

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٥٧٠- ٥٧٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ٣٥٥٠- ٣٥٥٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ١٧٣، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ١٢٣، ١٢٤، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٥٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٠٥- ٤٠٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٨٥- ٢٨٧.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى القتال في سبيل الله لتحقيق وعد الله بإظهار الدين على الدين كلّه، ولما كان القتال صفاً أدلّ ما في السورة على وحدة القلوب والعقول والتحركات على هذا الهدف، سُمّيت السورة به للدلالة على المحور المذكور وللترغيب فيه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة دعوة المؤمنين إلى اتحاد القلوب والعقول لتحقيق وعد الله بإظهار دين الإسلام على الدين كلّه**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها مقدّمة تدعو إلى أن يطابق قول المؤمنين فعلَهم خاصة فيما يتعلق بالقتال، وثانيها بيان نكول بني إسرائيل عن نصرة دين الله لاختلافهم على أنبيائهم مع علمهم أن دين الله هو الحقّ، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة دعوة للمؤمنين إلى أن يوافق قولهم فعلهم، خاصة فيما يتعلق بالقتال كونه أكثر شيء يهابه الإنسان وأصعب امتحان يثبت صدق الإيمان: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، وبيان نكول بني إسرائيل عن نصرة دين الله: ٥- ٩، والخاتمة: ١٠- ١٤.
ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك:
أولاً منها أمور متعلقة بالمؤمنين: أ) فقوله تعالى لهم ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لم يذكر إلا هنا: ٢، ٣، ب) وكذلك وصف قتالهم بقوله ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾: ٤، ج) وصف الجهاد بالتجارة لم يذكر إلا هنا: ١٠،
ثانياً: ومنها أمور متعلقة بنكول بني إسرائيل مع علمهم بأن الدين حقّ: أ) فقول موسى عليه السلام لهم ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾: ٥، لم يذكر إلا هنا، ب) وكذلك قول عيسى عليه السلام لقومه ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: ٦، ج) أما قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾: ٧، فلم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة بذكر «أل» التعريف للكذب، وقد ذكر افتراء «الكذب» في سورة آل عمران عن بني إسرائيل بصيغة مشابهة: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: ٩٤، د) وقوله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: ٨، فلم يذكر إلا هنا، وقريب جداً منه في سورة التوبة: ٣٢، هـ) وقول عيسى عليه السلام مع جواب الحواريين ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٤، وفي سورة آل عمران: ٥٢، ولكن سورة الصف تميّزت بدعوة المؤمنين بقوله ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾: ١٤، إذ لم يتكرر. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾، لاحظ الاسمين الجليلين «العزيز الحكيم» المناسبين لما تدعو إليه السورة من تحقيق عزّة الإسلام، ولاحظ أن السورة تنهى عن أن يكون قول المؤمن مخالفاً لفعله، لأنه لا يمكن أن تتحقّق الوحدة في القتال، إلا إذا تحقّق الصدق في الأقوال والأفعال في الظروف الاعتيادية، ثم ستتحقّق الوحدة في الظروف الصعبة كالقتال.

فالمقدّمة تدعو المؤمنين إلى الاجتماع على وحدة الهدف في الأقوال والأفعال والنوايا، وأن يكون ذلك مبنيّاً على الصدق، فمتى ما تحقّق ذلك، سيستحقّون النصر الذي وعدهم الله به.

ثانياً: وبعدما أمرت المقدّمة المؤمنين بوحدة الهدف، انتقل السياق إلى بيان تفرّق بني إسرائيل على أنبيائهم ليحذّر المؤمنين مِن موقف مَن سبقهم من الأمم، وابتدأ السياق بذكر اليهود: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾، فهم أعرضوا عن نبيهم، وآذوه وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم، فكانت نتيجة زيغهم عن نبيّهم وعن حكم الله الذي أنزله عليه، أن أزاغ الله قلوبهم فلا تجتمع كلمتهم على الحقّ أبداً.

ثم بيّن السياق موقف النصارى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾، فقد اختلفت كلمتهم في عيسى عليه السلام بعد رفعه مع علمهم بأنه رسول الله إليهم، وكفروا بما أخبرهم به من حقيقة نبوّة سيدنا محمد ﷺ، وقالوا: هذا سحر مبين، فهم أيضاً مختلفون زائغون عن الحقّ.

إن عرض موقف أهل الكتاب السابقين وبيان زيغهم وضلالهم، فيه أبلغ تحذير للمؤمنين من أن يلحق بهم ما حاق بمن قبلهم إذا لم ينتهوا عن أن يخالف قولهم فعلهم، وإذا لم يكونوا كالصف متفقين على وحدة الهدف والنية.

ثم عرض السياق موقف المشركين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى

ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، فهم أيضاً مختلفون في الحقّ كارهون له، مع أن الأصل أن يجمعهم الحقّ على الخير والفلاح، لا أن يتفرّقوا عنه، وبيان أن الله سيتمّ نوره بمثابة وعد للمؤمنين بنصر دينهم على الدين كلّه، بشرط أن يكونوا صفاً كالبنيان المرصوص.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الحثّ على القتال في سبيل الله لنصرة دينه، مع بيان أن ذلك هو التجارة الرابحة عند الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بدعوة المؤمنين إلى وحدة الهدف في النية والقول والفعل والاجتماع على نصرة دين الله، ختمت بحثّهم على أن يكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله من قبل، مع وعدهم بنصر الله وظهور دينهم على الدين كلّه متى ما حقّقوا وحدة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الصف

سورة دعوة المؤمنين إلى اتحاد القلوب والعقول لتحقيق وعد الله بإظهار دين الإسلام على الدين كله

الموضوع الأول (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تدعو المؤمنين إلى أن يطابق قولُهم فعلَهم خاصة فيما يتعلق بالقتال:

- افتتحت السورة ببيان عظمة الله تعالى الذي وعد بإظهار دينه على الدين كلّه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.
- ثم أمرت المؤمنين بأن يكون قولهم مطابقاً لفعلهم، وبيّنت أن مخالفة القول للفعل أمر كَبُر مقتاً عند الله.
- إن دعوة المؤمنين إلى مطابقة قولهم بفعلهم يدل على ضرورة اتحاد قلوبهم وعقولهم لتحقيق وعد الله بإظهار دينه، وهو أمر لا يكون إلا بالقتال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-٩)

بيان نكول بني إسرائيل عن نصرة دين الله لاختلافهم على أنبيائهم مع علمهم أن دين الله هو الحقّ:

- ثم بيّن السياق نكول اليهود عن نصرة دين الله الذي أنزله على موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.
- ثم بيّن نكول النصارى عن نصرة دين الله الذي أنزله على عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾.
- إن عرض موقف الأمم السابقة حين نكلوا عن نصرة دين الله، فيه أبلغ تحذير للمؤمنين من أن يكونوا مثل من سبقهم من الأمم.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠-١٤)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت حثّ المؤمنين على نصرة دين الله والذي لا يكون إلا بالجهاد، وبيّنت أن الجهاد تجارة رابحة عند الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾.
- وكما افتتحت السورة بدعوة المؤمنين إلى اتحاد القلوب والعقول لنصرة دين الله، ختمت بدعوة المؤمنين إلى الاقتداء بموقف الحواريين حينما اتحدت قلوبهم وعقولهم لنصرة نبيهم عيسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾.

سورة الجمعة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حادثة قدوم عيرٍ تجارية إلى المدينة المنورة، وقد كان رسول الله ﷺ يخطب حينها خطبة الجمعة، فلما سمع بقدومها المسلمون ثار الناس إليها ولم يَبْقَ أمام النبيّ ﷺ إلا القليل. فأنزل الله تعالى قوله معاتباً وموجّهاً لهم: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾. فاسم السورة يحذّر من التلهّي بالدنيا عن طاعة الرسول ﷺ[(١)].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم السورة وموضوعاتها واسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة أن يقرَّ في أخلاد المؤمنين أنهم المختارون لحمل أمانة العقيدة، وأن بعثة النبيّ ﷺ فيهم مِنَّة كبرى تقتضي النهوض بالتكاليف التي حُمّلوها بعد نكول بني إسرائيل عن حملها، والتخلص من الجواذب المعوّقة عن هذه الأمانة مثل الحرص والرغبة العاجلة في الربح، واسمها «الجمعة» المفيد فرضية الاجتماع فيها والإقبال على الله والتجرّد عن غيره، يدلّ دلالة واضحة على ذلك[(٢)].

---

(١) أخرج الحادثة الإمام البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، برقم: ٤٨٩٩، والإمام مسلم، الصحيح، كتاب الجمعة، برقم: ١٩٥٢.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٢٤٠، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٥٩٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥٦٢، ٣٥٦٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ٢٠٥، وأ.د مسلم، **التفسير** =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان فضل النبيّ ﷺ وتربية المؤمنين على وجوب التزام هديه وعدم الإعراض عن هديه ابتغاء عرض من الدنيا، ولما كانت حادثة بعض المؤمنين مع النبيّ ﷺ في يوم الجمعة حين قدوم العير أدلّ ما في السورة على هذا المحور، سُمّيت السورة باسم ذلك اليوم للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان فضل النبيّ ﷺ الداعي إلى التزام هَدْيه وعدم التلهّي عنه.**

وبتأمّل موضوعات السورة تبرز العلاقة بينها وبين دلالات اسمها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن فضل الله على المؤمنين ببعثة النبيّ ﷺ، وثانيها: التحذير من موقف اليهود المتخاذلين عن حمل أمانة دينهم وهدي نبيّهم ﷺ، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

= **الموضوعي**، م ٨، ص ١٤٥، ١٤٦. ود. شحاتة، **أهداف كل سورة**، ج ٢، ٢٨٦- ٢٨٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٥٨، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٣٩- ٤٤١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، والتحذير من موقف اليهود: ٥- ٨، والخاتمة: ٩- ١١. ومن لطائف هذه السورة: أنها تشترك مع ثلاث سور من القرآن بأوجه عدّة، وذلك راجع إلى اشتراك هذه السور في أحد جوانب المحور المذكور لكل سورة منها وهو بيان نكول اليهود عن حمل أمانة دينهم، وهذه السور هي: البقرة، وآل عمران، والحشر، وإليك بعض أوجه التناسق بين هذه السور الأربع: أولاً: جاء في سور الجمعة قوله تعالى في الآية: ٢ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وانظر الآية ١٢٩ من سورة البقرة ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وانظر الآية ١٥١ ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ وانظر الآية: ١٦٤ من سورة آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وثانياً: قد اشتركت هذه السور الأربع بالدعوة إلى التزام طاعة النبي ﷺ: الجمعة: ٩- ١١، والبقرة: ١٠٥، وآل عمران: ٣٢ و ١٣٢، والحشر: ٦- ٩، وثالثاً: انظر قوله تعالى في الآية: ٤ من سورة الجمعة عن بعثة النبيّ ﷺ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وقد جاء في سورتي البقرة وآل عمران اعتبار بعثة النبيّ ﷺ فضلاً من الله تعالى، انظر الآيتين: ٩٠، ١٠٥ من سورة البقرة، والآيتين: ٧٣، ٧٤ من سورة آل عمران، ورابعاً: اشتركت هذه السورة مع سورتي البقرة وآل عمران في بيان تفضيل اليهود الدنيا على الآخرة، انظر قوله تعالى الآيتين: ٦ و ٧ من سورة الجمعة: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وانظر الآيتين: ٩٤، و٩٥ في سورة البقرة اللتين ذكرتا العبارة بنفسها =

أولاً: جاء في المقدّمة بيان تنزيه الله تعالى، وفضله على المؤمنين إذ بعث فيهم النبيّ ﷺ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾، وأعتقد أن افتتاح هذه السورة بذكر الأسماء الجليلة «الملك القدوس العزيز الحكيم» متلائم مع دلالات اسم السورة، لأن يوم الجمعة إنما شرع من أجل ذكر الله تعالى، ثم إن في ذكر هذه الأسماء تربية للمؤمنين على عدم ترك الجمعة رغبة في الدنيا، لأنه سبحانه يملك الفضل كلّه، ولاحظ وصف «الأميين» الذي كان عليه العرب، ليكون ذلك أظهر في بيان فضل الله تعالى في بعثة النبيّ ﷺ، ولاحظ ذكر امتداد هذا الفضل إلى يوم القيامة، و تكرار لفظة «الفضل» المنسوبة إلى الله، فالمقدمة تحوي تربية للأمة الإسلامية على أداء حقّ النبيّ ﷺ بالتزام هَدْيه كونه مِنَّة عظمى من الله عليهم، ولا يخفى تلاؤم ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التحذير من اليهود الذين نكلوا عن حمل أمانة دينهم، فتركوا هدي نبيّهم والكتاب الذي أنزله الله عليه، وهم أشهر الأمم في ذلك، ففي ذكرهم تحذير

= لكن ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وقد قال تعالى في سورة آل عمران تعقيباً على ذكر اليهود ومحذّراً من الاغترار بالدنيا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾: ١٨٥، وخامساً: لا يخفى اشتراك سورة الجمعة والبقرة وآل عمران ببيان ترك اليهود لهدى كتابهم، انظر الآية: ٥، من سورة الجمعة، وانظر على سبيل المثال لا الحصر الآية: ١٠١ من سورة البقرة، والآية: ٢١ من سورة آل عمران، سادساً: اشتركت السور الأربع بالدعوة إلى ذكر الله تعالى: الجمعة: ٩، ١٠، وانظر مثالاً لا حصراً: البقرة: ١٩٨، ٢٠٠، وآل عمران: ١٣٥، ١٩١، وبإمكانك أن تضيف أن سورة الحشر افتتحت بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وختمت بـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وفيها قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾: ١٩، وفيها من أسماء الله الحسنى ما لم يذكر في غيرها، وذلك بلا ريب داعٍ إلى ذكر الله تعالى، وسابعاً: قد اختصت سورتا الحشر والجمعة بذكر الاسمين الجليلين «الملك القدوس» دون باقي سور القرآن: الجمعة: ١، والحشر: ٢٣، وقد ذكر فيها الاسمان الجليلان «العزيز الحكيم» مرتين في كل منهما: الجمعة: ١، ٣، والحشر: ١، ٢٣، وقد ذكرت هذه العبارة «عالم الغيب والشهادة» مرة واحدة في كل منهما: الجمعة: ٨، والحشر: ٢٢. وإذا تأملت المواضع المذكورة في السياق الخاص لكل سورة ستجد أنها جاءت على نحو متلائم مع المحور المذكور لكل سورة منها. وينظر للمراجعة، عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

للمؤمنين من موقف اليهود، وتربية لهم على التزام هدي نبيّهم ﷺ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾، وقد أعقب السياق هذه الآية ببيان تفضيل اليهود الدنيا على الآخرة، ولذلك فهم يكرهون الموت ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم، وذلك فيه إشارة إلى تربية المؤمنين على عدم تفضيل متاع الدنيا على هدي النبيّ ﷺ، ولا يخفى ترابط ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة ذكر الحادثة التي منها اشتقّ اسم السورة، وهي تحوي تأكيداً لما سبق، فهي تحذّر من الاشتغال عن يوم الجمعة وما فيه من ذكر الله وهدي النبيّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾، وأعتقد أن ذكر «فضل الله» متلائم مع دلالة الاسمين الجليلين في المقدّمة «الملك القدوس»، وهما كذلك متلائمان مع بيان أن الله تعالى خير الرازقين في الختام، وإذاً فلا يجوز الانشغال بكسب الرزق عن ذكره تعالى في يوم الجمعة الذي جعله الله من شعائر دينه، وذلك لأن المؤمن يوقن أن الله سيغنيه من فضله.

وكما افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى وبيان فضله على المؤمنين ببعثة النبيّ ﷺ فيهم والأمر بالتزام هديه، ختمت بذكر صفات لله تعالى متلائمة مع دلالة الأسماء الواردة في المفتتح، وبيان وجوب التزام هديه ﷺ وعدم التلهّي عنه بمتاع الدنيا: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الجمعة

سورة بيان فضل النبيّ ﷺ الداعي إلى التزام هديه وعدم التلهّي عنه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تبيّن فضل الله تعالى على المؤمنين ببعثة النبيّ ﷺ:

■ افتتحت السورة بتسبيح الله مالك السماوات والأرض، وباعث الرسول ﷺ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

■ وبيّنت أن فضله ﷺ لم يقتصر على مَن عاصره فقط، بل شمل كل مَن آمن به إلى يوم الدين: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-٨)

التحذير من موقف اليهود المتخاذلين عن حمل أمانة دينهم وهدي نبيّهم عليه السلام:

■ ثم بيّن السياق نكول اليهود عن حمل الأمانة التي أوحاها الله بها في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

■ وبيّن السياق أنهم فضّلوا الدنيا والتلهّي بها عن الآخرة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٩-١١)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ حذّرت من الاشتغال والتلهّي بالدنيا عن صلاة الجمعة وما فيها من ذكر الله وهدي النبيّ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله على المؤمنين ببعثة النبيّ ﷺ مما يدعو إلى التزام هَدْيه، ختمت بالتحذير من التشاغل والتلهّي بالدنيا عن التزام هديه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

سورة المنافقون

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى ذكرها بعض صفات المنافقين، وبعض مواقفهم من الرسول الكريم ﷺ، التي تثبت أنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وتثبت استحقاقهم الغضب واللعنة من الله تعالى، ففي تسمية السورة بهم بصيغة اسم الفاعل وبجمع المذكّر السالم، بيان لمدى عراقتهم في النفاق، وفي ذلك تحذير للمؤمنين منهم ومن صفاتهم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة ذمّ النفاق والمنافقين، وكشف مؤامراتهم وفضح دسائسهم، ففي السورة حملة عنيفة عليهم وعلى ما في نفوسهم من الكيد والبغض للمسلمين، وفيها تحذير منهم ومن صفاتهم[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: عرض أمراض المنافقين القلبية، وما نتج عنها من أخلاق ظاهرة ذميمة، وتحذير المؤمنين منها بتوجيهات تربوية. وفي تسمية السورة بالمنافقين دلالة لا تخفى على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٢٤، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٧، ص ٦٠٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥٧٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ٢٣٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ١٦٦، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٦٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ٣٥٥- ٣٥٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن**، ص ٢٨٨- ٢٩٠.

السورة بأنها **سورة بيان الأمراض القلبية للمنافقين وأخلاقهم الذميمة وتحذير المؤمنين منهم**.

وبتأمّل قِسمَي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين، أولهما: عرض لأمراض المنافقين القلبية وأخلاقهم الذميمة، والثاني: تحذير المؤمنين منهم بتوجيهات ربانية تربوية[1].

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة عرض للأمراض القلبية لدى المنافقين، والتي نتجت عنها أخلاق ذميمة، وقد ابتدأ السياق بالحديث عن الأمراض القلبية لخطورتها البالغة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾، فهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وهم كاذبون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ولم يكتفوا بذلك بل اتخذوا أيمانهم الكاذبة للصّدّ عن سبيل الله تعالى، وهم لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم حقًا، ولذلك تركوه وعادوا إلى الكفر، وقد نتج عن هذه

---

(١) القسم الأول شملته الآيات: ١-٨، والثاني: ٩-١١. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ذكر هنا فقط مع ذكرهم الصريح المناسب لاسم السورة، بينما شهد الله عليهم بالكذب لكن بضمير في سورة التوبة: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: ١٠٧، وبالعبارة ذاتها في سورة الحشر: ١١، ثانياً: هي الوحيدة المختصة بقولهم الكاذب: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾: ١، ثالثاً: والوحيدة المختصة بقوله تعالى عنهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: ٤، خامساً: والوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عنهم حين دعوا إلى استغفار الرسول ﷺ: ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾: ٥، والوحيدة التي وصفتهم بقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: ٥، سادساً: والوحيدة التي اختصت بذكر قولهم الكاذب: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾: ٨، سابعاً: وصفهم بأنهم لا يعلمون مع التصريح بذكرهم هنا فقط: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٨، بينما وصفوا بأنهم لا يعلمون لكن بالضمير في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾: ١٣، وفي سورة التوبة: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٩٣، ثامناً: هي الوحيدة التي نسبت العزّة لله مع ذكر الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: ٨، وذكر المؤمنين مناسب في مقابل التصريح بذكر المنافقين كما سبق، بينما نسبت العزّة في القرآن لله تعالى فقط دون ذِكر المؤمنين في سورة النساء: ١٣٩، ويونس: ٦٥، وفاطر: ١٠، والصافات: ١٨٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الأمراض القلبية عدد من الأخلاق الظاهرة الذميمة، فهم جبناء بالرغم من كمال أجسامهم.

ثم عرض السياق أنهم مُصِرّون على باطلهم بالرغم من دعوتهم للاستغفار والتوبة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾، فهم قد بلغوا من الكفر والفسوق حدًا لا يجدي استغفار رسول الله ﷺ - وهو خير البشر - لهم نفعاً.

ثم عرض السياق شيئاً من أقوالهم الدالّة على مرض قلوبهم، وكأن عرض مثل هذه الأقوال يعلل عدم نفع استغفار الرسول ﷺ لهم، ويبيّن مدى الكفر والفسوق الذي بلغوه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾، فهم كارهون لله ولرسوله ﷺ حتى دفعهم كرههم إلى البخل، وهم متكبّرون يَدْعون أنهم هم الأعزّاء، ولكن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فالقسم الأول من السورة كما ترى يعرض الأمراض القلبية لدى المنافقين، وما نتج عنها من أخلاق ظاهرية ذميمة، جعلتهم يستحقّون الغضب واللعنة من الله تعالى.

ثانياً: جاء في القسم الثاني من السورة توجيهات تربوية للمؤمنين تحذّرهم من الاقتداء بالمنافقين بعد أن كُشِفت سرائرهم الخبيثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠﴾، ولاحظ أن السياق حذّر المؤمنين من التلهّي بالأموال والأولاد عن ذكر الله، لأن الذي سبب الأمراض القلبية للمنافقين إنما هو حبهم للدنيا وما فيها من أموال وأولاد حتى أغفلهم عن الإيمان بالله تعالى، ولاحظ أيضاً أن السياق دعا المؤمنين إلى النفقة في سبيل الله، وذلك يقابل وصف المنافقين بالبخل، والذي يدعو المؤمن إلى الإنفاق إنما هو يقينه بأنه سيجد

أجره في الآخرة، ولما انعدم هذا اليقين في قلوب المنافقين، انعكس ذلك على سلوكهم حتى أصبحوا مَثلاً للبخل.

وكما افتتحت السورة ببيان علم الله تعالى وشهادته على ما في قلوب المنافقين من الكذب والكفر الذي دفعهم إليه عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، ختمت ببيان أن الله تعالى قضى على كل نفس أجلاً مسمّى، وسيحاسب الجميع يوم القيامة؛ لأنه خبير بما تعمله كل نفس: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾، وفي ذلك أبلغ تحذير للمؤمنين من المنافقين ومن صفاتهم السيئة، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة المنافقون

سورة بيان الأمراض القلبية للمنافقين وأخلاقهم الذميمة وتحذير المؤمنين منهم

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

عرضٌ لأمراض المنافقين القلبية وأخلاقهم الذميمة:

- افتتحت السورة ببيان شهادة الله بكذب المنافقين في ادّعائهم الإيمان بالرسول ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.
- وبيّنت أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة للصّدّ عن سبيل الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.
- وقد طبع الله على قلوبهم لعودتهم للكفر بعد الإيمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.
- وهم جبناء بالرغم من قوّة أجسامهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.
- وهم لسقم قلوبهم يعرضون عن استغفار الرسول ﷺ لهم ويلوون رؤوسهم متكبّرين.
- وقد انعكس مرض قلوبهم على ألسنتهم أيضاً فتلفّظوا بأقوال تدلّ على كفرهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾، فهذا دليل على بخلهم بالإضافة إلى كفرهم.
- ومن ذلك أيضاً: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، فهم حاقدون كارهون مستكبرون.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-١١)

تحذير المؤمنين منهم بتوجيهات ربانية تربوية:

- حذّر السياق المؤمنين من التلهّي بالأموال والأولاد عن ذكر الله، وهذا يقابل وصف المنافقين بالبخل.
- وحذّر المؤمنين من التلهّي بالدنيا عن الاستعداد بالعمل الصالح للقاء الله، وهذا يقابل حبّ المنافقين للدنيا وما فيها من أموال وأولاد حتى غفلوا عن الإيمان بالله والعمل الصالح.
- وكما افتتحت السورة ببيان شهادة الله العليم على ما في قلوب المنافقين من الكذب لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، ختمت ببيان أن الله سيحاسب جميع الخلق يوم القيامة، لأنه خبير بما تعمله كل نفس: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

سورة التغابن

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الغَبْن: الغين والباء والنون كلمة تدلّ على ضعف واهتضام، يقال: غُبِن الرجلُ في بيعه فهو يُغبَن غبناً، وذلك إذا اهتضم فيه، وغَبِن في رأيه: وذلك إذا ضعف رأيه، والقياس في الكلمتين واحد»[1]. وزاد الإمام الأصفهاني: «يوم التغابن: يوم القيامة، لظهور الغَبْن في المبايعة المشار إليها بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة: بعض الآية ٢٠٧)، وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ (التوبة: بعض الآية ١١١)»[2]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حال الناس في ذلك اليوم، إذ سيظهر غبن الكافرين لعدم إيمانهم، وسيظهر غبن بعض المؤمنين لتقصيرهم في الأعمال الصالحة التي تُرصد لذلك اليوم. ووصف القيامة بيوم التغابن يعطي دلالة على أنه لا تغابن حقيقةً إلا في ذلك اليوم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها إنما سُمّيت بالتغابن لحديثها عن التغابن والمغبونين، وأسباب التغابن وسبل الوقاية منه، واسم السورة يدلّ على كمال المؤمنين في نظر العاقبة، إذ غَبَنوا الكافرين بأخذ أماكنهم من الجنة، وإعطائهم أماكنهم من النار، وكمال سفه الكافرين إذ غَبَنهم المؤمنون. والغَبْن يلحق أيضاً يوم القيامة بمن قصّر في الإحسان من المؤمنين، فيتمنّى أن لو زاد في

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨١١.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٦٠٢.

الإحسان فتعلو مرتبته في الجنة، واسم السورة يحذّر مما جاء في سورة المنافقون السابقة لها من إقامة الدليل على أنه لا بُدّ من الحساب(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال المذكورة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال التحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة، والتحذير من التقصير لئلا يقع المؤمن في الغبن في ذلك اليوم، فاسم السورة يدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من الوقوع في الغبن يوم القيامة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها مقدّمة تبيّن قدرة الله على البعث والحساب، وثانيها تحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة، وثالثها تحذير للمؤمنين من التقصير لئلا يقعوا في الغبن يوم القيامة، ورابعها خاتمة مؤكّدة لما سبق(٢).

أولاً: تذكر المقدّمة أن الذي خلق الناس جميعاً بأحسن صورة، وخلق السماوات والأرض، لقادر على بعث الناس لحسابهم: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٤٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥٨٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ٢٥٩، و أ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٨، ص ١٨٩، وأحمد عطا عمر، **تفسير جزء قد سمع**، ص ١٥١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٦٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٩٣.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ ـ ٤، والتحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر: ٥ ـ ١٠، والتحذير من التقصير: ١١ ـ ١٥، والخاتمة: ١٦ ـ ١٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تبيّن سبب غبن الكافرين يوم القيامة: أ) فقوله تعالى عنهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ﴾: ٦، لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾: ٧، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بتحذير المؤمنين من الغبن يوم القيامة: أ) فقوله ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾: ١٤، ذكر هنا فقط، وقريب منه في سورة التوبة: ٢٤، ب) وأما قوله ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ فقد ذكر هنا: ١٥، وفي سورة الأنفال فقط: ٢٨، بعبارة قريبة، ج) قوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾: ١٦، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾: ١٦، وقريب منه في سورة المائدة: ١٠٨. وبإمكانك أن تضيف أن هذه السورة هي الوحيدة في القرآن التي ذُكرت فيها لفظتا: ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾ و﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾: ٧، وهما تؤكّدان قدرة الله على البعث والجزاء الذي بيان فيه غبن المغبون. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ واللافت للنظر في هذه المقدّمة أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾، يبيّن أن الله قدير على جمع الناس ليوم التغابن وأن يُظهر لهم أعمالهم فيبان غبن المغبون.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى خطاب الكافرين الذين زعموا أنهم لن يبعثوا، فبيّن الله لهم أنهم سيبعثون ليوم الجمع، ذلك يوم التغابن، واللافت للنظر أيضاً أن السورة حذرت من الأعمال التي أوقعت الكافرين بالغبن الأكبر يوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾، فهم يكفرون ويتولّون عن الرسل، وهم يزعمون أنهم لن يبعثوا، فكُفْرهم وتولّيهم ساقهم إلى إنكار الآخرة، وهذا أكبر غبن وأكبر خسارة يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾. وهذه السورة هي الوحيدة في القرآن التي جاء فيها لفظة ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ ولفظة ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ بضمير الجمع المخاطب، مما يناسب دلالة اسم التغابن كما لا يخفى، فهما تؤكّدان قدرة الله تعالى على بعث البشر، وجزائهم بالعدل حسب أعمالهم، حينها سيبان المغبون، أضف إلى ذلك التوكيد بالقَسَم، وبيان أن ذلك على الله يسير.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى خطاب المؤمنين وأمرتهم بالصبر على المصائب حتى لا يُحرموا من الأجر يوم التغابن، وأمرتهم بطاعة الله والرسول، واللافت للنظر أيضاً أن السورة قد حذّرت المؤمنين من الوقوع في التقصير، والتلهّي بالأزواج والأموال والأولاد عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

رابعاً: خُتمت السورة بذكر وصايا تقي المؤمنين من الوقوع في الغبن يوم القيامة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾، فأمرتهم ببذل كل الجهد بالتقوى، والسمع والطاعة والنفقة، ولاحظ أن السورة ختمت ببيان أن الله عالم الغيب والشهادة فيجازي كل امرئ يوم التغابن بما عمل من خيرٍ أو شرٍّ، وكل هذه الأمور لا يخفى ارتباطها بدلالة اسم التغابن، فالسورة تأمر المؤمنين بالتقوى والإنفاق وعدم التلهّي بما يوقعهم في التقصير، حتى لا يلحق بهم الغبن يوم القيامة. وهكذا تلتقي مقدّمة السورة مع خاتمتها على التحذير مما يوقع في الغبن في يوم القيامة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة التغابن

سورة التحذير من الوقوع في الغَبْن يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تبيّن قدرة الله على البعث والحساب:

- افتتحت السورة بتسبيح الله القادر على كل شيء: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.
- وبيّنت أن الله الذي خلق الناس أول مرة قادر على بعثهم ومجازاتهم بأعمالهم، فالله بما تعملون بصير، وإليه المصير، وهو عليم بذات الصدور.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٠)

تحذير مما أوقع الكافرين في الغَبْن الأكبر يوم القيامة:

- ثم بيّن السياق موقف الكافرين بقدرة الله تعالى، المكذّبين بما جاءت به رسله فكفروا وتولّوا.
- ثم رَدّ السياق على زعمهم بأنهم لن يبعثوا: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ⑦﴾.
- وقد بيّن السياق جزاء هؤلاء الكافرين المكذّبين يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ⑩﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١-١٥)

تحذير المؤمنين من التقصير لئلا يقعوا في الغبن يوم القيامة:

- ثم أمر السياق المؤمنين بالصبر على مصائب الدهر، وبطاعة الله والرسول ﷺ، والتوكّل على الله، ليثبت لهم الأجر العظيم يوم التغابن.
- وحذّر السياق من التلهّي عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑭ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ⑮﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٦-١٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت أمر المؤمنين بالتقوى والطاعة والإنفاق استعداداً ليوم التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑯﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان قدرة الله على بعث الناس وحسابهم في يوم التغابن، ختمت بالتأكيد على الموضوع ذاته، مع الدعوة إلى عدم التقصير في العمل الصالح استعداداً لذلك اليوم: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ⑰ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑱﴾.

سورة الطلاق

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيانها لأحكام أهمّ الموضوعات المتعلّقة بالأسرة، وهو الطلاق، فقد فصّلت هذه السورة في بيان تلك الأحكام كالعِدّة والمسكن والنفقة والإرضاع، مع الأمر بالمعروف والتزام التقوى، فاسم السورة يعطي لهذا الموضوع أهمية عظمى ويدعو إلى التزام الأحكام الإلهية المتعلقة به، ويحذّر من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو بيان أحكام الطلاق وما يترتّب عليه، وتهيئة النفوس لتقبّل هذه الأحكام والامتثال لها، ووَصْل هذه الأحكام بقدر الله في السماوات والأرضين، وسننه في إهلاك العاتين عن أمره، والفرج والسعة لمن يتقونه، كل ذلك يطلعنا على خطورة هذا الموضوع وتوليته أهمية كبرى، لدرجة أن السورة افتتحت بنداء النبيّ ﷺ قائد الأمة بشخصه لأهمية هذا الأمر[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٣٤٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٥٩٣- ٣٥٩٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ٢٩٣، ٢٩٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٢١٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٦٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٩٥- ٤٩٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٩٧- ٣٠٠.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الالتزام بتقوى الله فيما يتعلق بأحكام الطلاق، مع التحذير من الإعراض عنها ببيان مصير العاتين عن أمر ربّهم، ولما كان تفصيل هذه السورة لأحكام الطلاق وبيان حكمة الله في شرعه دالاً على المحور المذكور، سُمّيت السورة بالطلاق للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى التزام الإحكام الإلهية الخاصة بالطلاق والتي تحقّق جَبْرَ الخاطرِ لمن يلتزم بها، مع التحذير من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها**.

وبتأمّل موضوعَي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما بيان أحكام الطلاق مع الدعوة إلى التزام تقوى الله فيها لتحقيق جبر الخاطر للمطلِّق والمطلَّقة، وثانيهما: بيان مصير العاتين عن أمر ربّهم[1].

---

(١) بيان أحكام الطلاق شملته الآيات: ١- ٧، وبيان مصير العاتين: ٨- ١٢، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وكلها تدعو إلى التزام أحكام الله مع التحذير من تركها: أ) فقد تكررت فيها مشتقات الجذر «وقى» خمس مرات، وإليك التفصيل: هي أكثر سورة تكرر فيها الشرط ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ...﴾: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: ٢، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾: ٤، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾: ٥، وكلها عبارات لم تتكرر بالصيغ ذاتها، وقوله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾: ١، لم يتكرر بذات الصيغة، وقوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: ١٠، كذلك الأمر، وقريب منه في سورة المائدة: ١٠٠، دون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ب) لم يذكر الفعل «يتعدَّ» إلا هنا: ١، مع سورتي البقرة: ٢٢٩، والنساء: ١٤، ج) لم تتكرر عبارة «حدود الله» إلا هنا: ١ (مرتين)، وفي سورة البقرة سبع مرات، د) لم يتكرر الجذر «يسر» إلا هنا: ٤ ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، ٧﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وفي سورة الشرح: ٥، ٦، وأما الجذر «عسر» فلم يتكرر إلا هنا: ٦ ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ ، ٧، وفي سورة البقرة: ١٨٥، ٢٨٠، والشرح: ٥، ٦، هـ) قوله عن ثواب المؤمن الملتزم بحكم الله ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ لم يذكر إلا هنا: ١١، وقريب منه في سورة الحج: ٥٨، وقوله ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة: ٣، وكذلك قوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: ٣، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ : ٣، وقوله ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾: ٣، وقوله ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾: ١٢، لم يتكرر بهذه الصيغة، وقوله ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾: ١٢، لم يتكرر، وكذلك قوله عن العاتين عن أمر الله ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾: ٨، وقريب منه في سورة الكهف ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾: ٨٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة عرض لأحكام الطلاق مع الدعوة إلى التزام تقوى الله تعالى في تطبيقها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ①﴾، ولاحظ افتتاح السورة بنداء النبيّ ﷺ قائد الأمة، ليدلّ ذلك على خطورة موضوع السورة وأهميته، ولاحظ عبارة ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ مع التحذير من تعدّيها.

وقد فصّل السياق في بيان تلك الأحكام، فأمر الزوج بعد انتهاء العِدّة إما بالإمساك على مطلّقته بالمعروف، أو تسريحها بإحسان، مع شهادة ذوي عدل، وقد بيّن أن من يتق الله يجعل له مخرجاً، وهذا خير عزاء للحالة النفسية البئيسة لكلا الزوجين حالة حصول الطلاق، وقد بيّن السياق أيضاً أن من يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب، وذلك لأن الزوج مكلف بالإنفاق على زوجه في فترة العِدّة، وأعتقد أنه يمكن أن تكون الإشارة إلى الرزق تعود إلى أن الله قد يبدّل الزوج زوجة أفضل من المطلّقة، أو يبدل المطلّقة زوجاً أفضل من مُطلِّقها. فالدعوة إلى التزام التقوى تشمل الرجال والنساء.

ثم فصّل السياق في فترة العِدّة لدى النساء اللواتي يئسن من المحيض، والنساء الصغار اللواتي لم يحضن، فعدّتهن ثلاثة أشهر، وقد بيّن السياق أن من يتق الله يجعل له من أمره يسراً، ولعل في ذلك إشارة إلى تعويض المطلقات بأزواج أفضل، أو تعويض الأزواج بزوجات أفضل. ولاحظ الدعوة إلى التزام أحكام الله في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ⑤﴾، ولاحظ ذكر لفظ الجلالة، لإفاضة الهيبة على السياق، فإن منزل هذه الأحكام هو الله الخالق الحكيم، وسيعظم الأجر لمن يطيعه ويتقيه.

ثم فصّل السياق في حكم السكنى، فأمر بإسكان المطلّقات على حسب القدرة دون ضرر ولا تضييق عليهنّ، وأمر الأزواج بالنفقة على المطلّقات ذوات الأحمال حتى يضعن حملهنّ، وإيتاء المرضعات منهنّ أجورهنّ، وأمر الطرفين بالتزام المعروف. وبيّن أن الله سيجعل من بعد عسر يسراً، وهي عبارة لا يخفى ما فيها من دلالات تجبر خاطر الطرفين لما لحقه من أذى نفسي نتيجة الطلاق، سيّما وفي حالة وجود أطفال منهما.

ثانياً: وبعد بيان تلك الأحكام والدعوة بالتزام تقوى الله في تطبيقها، انتقل السياق إلى بيان مصير العاتين عن أمر الله، وفي ذلك أبلغ تحذير للمؤمنين من التلاعب بأحكام الطلاق فضلاً عن الإعراض عنها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾، ولاحظ التعقيب بالدعوة إلى التزام تقوى الله وربط ذلك بـ (أولي الألباب) و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام، وقد بيّن السياق أن من يلتزم بأحكام الله التي أنزلها على رسوله ﷺ سيدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار خالداً فيها، قد أحسن الله له رزقاً، وفي ذلك دعوة إلى التزام أحكام النفقة كما سبق.

وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ والمؤمنين بالتزام تقوى الله في تطبيق أحكام الطلاق، ختمت ببيان مظاهر كمال قدرته تعالى وشمول علمه، ليكون ذلك أدعى إلى التزام الأحكام الواردة في السورة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الطلاق

سورة الدعوة إلى التزام الأحكام الإلهية الخاصة بالطلاق، والتي تحقّق جبر الخاطر لمن يلتزم بها، مع التحذير من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

بيان أحكام الطلاق مع الدعوة إلى التزام تقوى الله فيها لتحقيق جبر الخاطر للمطلّق والمطلَّقة:

- افتتحت السورة ببيان حكم العِدّة، وبيان وجوب بقاء المطلقة طلاقاً رجعياً في بيت الزوجية، لعل الله يجبر خاطرها ويرجعها زوجُها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.
- ثم فصّل السياق في أحكام الطلاق، فإذا انتهت العِدّة فإما أن يَجبر زوجها خاطرها فيرجعها، أو يُطلّقها بإحسان.
- وبيّن السياق أن الله سيجعل لمن يتقيه مخرجاً، وهو بذلك يجبر خاطر الطرفين إذا التزما التقوى.
- وبيّن أن الزوج مكلف بالإنفاق على مطلَّقته فترة العدة، وجَبَر خاطره ببيان أن الله يرزق من يتقيه من حيث لا يحتسب.
- وبيّن مدّة عدّة النساء اللواتي يئسن من المحيض، والنساء اللاتي لم يحضن، وجبر خاطرهن ببيان أن الله سيجعل لمن يتقيه من أمره يسراً، فعلّه يبدل المطلَّقة زوجاً أفضل، ويبدل المطلّق زوجة أفضل.
- وفصّل السياق في حكم السكنى، فجبر خاطر النساء المطلقات بأمر الرجال بعدم التضييق عليهن أو إضرارهن، وجبر خاطر الرجال بأمرهم بإسكان المطلَّقات بحسب قدرتهم المالية.
- وأمر الرجال بالإنفاق على المرضعات المطلَّقات، وأمر الطرفين بالتزام المعروف، وبيّن أنه تعالى سيجعل من بعد عُسْرٍ يسراً، وهي عبارة تجبر خاطر الطرفين لاسيما حين وجود أطفال منهما.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-١٢)

بيان مصير العاقين عن أمر ربهم:

- بعد أن فصّل السياق في أحكام الله التي تحقّق جبر الخاطر لمن يتقيه من المطلّقين والمطلَّقات، بيّن مصير من أعرض عن أحكام الله أو تلاعب بها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾.
- ومما يحثّ على التزام أحكام الله بيان الخاتمة أن الله سيدخل مَن يلتزم بهذه الأحكام جنات تجري من تحتها الأنهار قد أحسن الله له رزقاً.
- وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ والمؤمنين بالتزام تقوى الله في أحكام الطلاق، ختمت ببيان عظمة الله وشمول علمه ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

سورة التحريم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الحاء والراء والميم أصل واحد، وهو المنع والتشديد»[1]، وزاد الإمام الأصفهاني: «الحرام: الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع بشري، وإما بمنع قهري . . »[2]، وزاد الإمام ابن منظور: «التحريم: خلاف التحليل»[3]، فالدلالة اللفظية لاسم السورة تعود إلى معنى منع النفس من شيء معيّن، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى حادثة تآمر عائشة وحفصة رضي الله عنهما على زينب بنت جحش غيرة منها، لأن النبيّ ﷺ كان يمكث عندها يشرب عسلاً، فتواصتا أن أيّتهما دخل عليها النبيُّ ﷺ فلتقل: إني أجد منك رائحة مغافير ـ صمغ حلو ذو رائحة كريهة ـ فلما دخل على إحداهما وقالت له ذلك، قال لها: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش، فلن أعود له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً »[4]، فلما أدّت هذه المؤامرة إلى أن حرم النبيّ ﷺ على نفسه شرب العسل، اشتُقّ منها اسمٌ للسورة لدعوة نسائه إلى عدم التآمر عليه ﷺ مرة أخرى، وأن يُكفِّر النبيّ ﷺ عن يمينه.

---

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ص ٢٥٦.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٢٢٩.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ٩٧.

(٤) هذه رواية الإمام البخاري رحمه الله: **الجامع الصحيح**، كتاب التفسير، برقم: ٤٩١٢.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن هذه السورة تعرض صفحة من الحياة البيتية للرسول ﷺ، وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه، وبينهن وبينه، وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته ﷺ وحياة المسلمين كذلك، فالسورة تدعو إلى التخلّق بالخلق الشرعي وحسن الأدب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، واسمها «التحريم» بما دلّ عليه يعبر عن ذلك[١].

ومن الممكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين والمؤمنات على موالاة الله ورسوله ﷺ والتحذير من أن التظاهر عليه ﷺ يُعَدّ خروجاً من هذه الموالاة. ولما كانت حادثة عائشة وحفصة رضي الله عنهما مع النبيّ ﷺ أدلّ ما في السورة على المحور المذكور، ومحذّرة من العودة إلى التظاهر عليه ﷺ، اشتقّ منها اسم السورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من الخروج عن موالاة الله ورسوله ﷺ**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين محورها ودلالات اسمها، وإليكم بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: الأول: مقدّمة تدعو إلى موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ والتوبة من التظاهر عليه الذي يؤدي إلى الخروج عن هذه الموالاة، والثاني: بيان مصير من والى الله تعالى ورسوله ﷺ، ومصير الكافرين المعرضين عن هذه الموالاة، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[٢].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٥١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٦١٠، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٨، ص ٣٤٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٢٤٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٤٦٨- ٤٧٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٥٠٥، ٥٠٦، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وبيان مصير المؤمنين الموالين ومصير الكافرين: ٦- ٩، والخاتمة: ١٠- ١٢. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: انفردت هذه السورة من بين سور القرآن بهذه العبارة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ...﴾: ٤، وثانياً: امتازت هذه السورة بمشتقات للجذر «نبأ» على صيغ لم تذكر في مواضع أخرى من القرآن: نبأت، نبأها، أنبأك، نبأني، الآية: ٤، وثالثاً: امتازت أيضاً بمشتقات للجذر «توب» على صيغ لم تذكر =

أولاً: ابتدأت السورة بذكر حادثة حفصة وعائشة رضي الله عنهما مع النبيّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، ولاحظ عبارة «والله مولاكم» المترابطة مع محور السورة ودلالات اسمها، ولاحظ بيان أن ما قامت به حفصة وعائشة أمر يستوجب التوبة، وقد أدّى إلى أن صغت قلوبهما، ولاحظ التحذير من أن التظاهر عليه مرة أخرى أمر يخرجهما عن الموالاة لله تعالى ولرسوله ﷺ، مع بيان أن الله هو مولاه وجبريل والملائكة وصالح المؤمنين.

وقد بيّنت المقدّمة أيضاً أن التظاهر عليه ﷺ مرة أخرى قد يؤدي إلى أن يطلقهنّ النبيّ ﷺ ويبدله الله خيراً منهنّ مسلمات مؤمنات قانتات . . ، فالمقدّمة إذاً من خلال هذه الحادثة تربّي المؤمنين والمؤمنات على لزوم موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ وعدم القيام بعمل قد يؤدي إلى الخروج عن هذه الموالاة، وهذا متلائم تماماً مع دلالات اسم السورة.

ثانياً: وبمناسبة الحديث عن وجوب لزوم موالاته ﷺ، عقبت السورة على تلك الحادثة ببيان أن الإعراض عن موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ أمر يؤدي إلى النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾، ولاحظ لفظة ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ المتلائمة مع ما قامت به حفصة وعائشة وهما من أهل بيت النبيّ ﷺ، ولاحظ بيان أن ملائكة النار لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو متناسب أيضاً مع اعتبار التظاهر على النبيّ ﷺ معصية تستوجب التوبة.

ثم عرض السياق مصير المؤمنين الموالين لله تعالى ولرسوله ﷺ يوم القيامة، ومصير

= في مواضع أخرى من القرآن: تتوبا: ٤ ، تائبات: ٥ (لم توصف النساء بهذا الوصف في مكان آخر)، وبالإمكان إضافة هذه العبارة التي لم تتكرر في القرآن ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾: ٨، ورابعاً: امتازت هذه السورة بكثرة ضمير المثنى المؤنث: تتوبا، تظاهرا، قلوبكما: ٤، كانتا، فخانتاهما، ادخلا: ١٠. ينظر: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الكافرين المعرضين عن هذه الموالاة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى لا يخزي يوم القيامة النبيَّ ﷺ والذين آمنوا معه، وفي ذلك تربية للمؤمنين على موالاته ﷺ، وبما أن الكفار قد اختاروا الإعراض عن موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ فقد وجب جهادهم حتى يكون الدين لله.

فسياق السورة يدعو إذاً إلى موالاة الله ورسوله ليتحقّق للمؤمنين الفلاح في الدنيا والآخرة، وهذا أمر متناسق مع دلالات اسم السورة كما لا يخفى.

ثالثاً: جاء في الخاتمة ذكر موقفين متقابلين متعلقين بموالاة الله ورسله، فالأول منهما موقف امرأة نوح وامرأة لوط اللتين أعرضتا عن موالاة أنبياء الله حتى استحقّتا دخول النار: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۞﴾، ولاحظ أن إعراضهما عن موالاة الأنبياء كان بمثابة خيانة أدّت بهما إلى دخول النار، ولاحظ عبارة «ادخلا النار مع الداخلين» المتناسقة مع ما سبقها من بيان أن النار مصير الكافرين المعرضين عن موالاة الله ورسله.

وكما افتتحت السورة بذكر حادثة حفصة وعائشة رضي الله عنهما مع النبيّ ﷺ وبيان أنها أمر يستوجب التوبة حتى لا تخرجا عن دائرة الموالاة لله تعالى ولرسوله ﷺ، ختمت السورة بذكر موقف امرأتين مؤمنتين كان ولاؤهما لله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۞﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور التربية على موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ وعدم القيام بما يخرج عن هذه الموالاة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة التحريم

سورة التحذير من الخروج عن موالاة الله ورسوله ﷺ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تدعو إلى موالاة الله ورسوله ﷺ، وتدعو إلى التوبة من التظاهر على الرسول الذي يؤدي إلى الخروج عن هذه الموالاة:

- افتتحت السورة بمعاتبة النبيّ ﷺ الذي حرّم على نفسه شرب العسل بعد تآمر حفصة وعائشة رضي الله عنهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾.
- ودعت المقدّمة حفصة وعائشة رضي الله عنهما إلى التوبة من التآمر على النبي ﷺ، وبيّنت أن هذا التآمر يؤدي إلى الخروج عن موالاة الله ورسوله ﷺ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾.
- وحذّرت من أن التظاهر على النبيّ ﷺ مرة أخرى قد يؤدي إلى أن يطلقهنّ وأن يبدله الله خيراً منهنّ.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٩)

بيان مصير مَن وَالَى الله ورسوله ﷺ، ومصير الكافرين المعرضين عن هذه الموالاة:

- بيّن السياق أن الإعراض عن موالاة الله ورسوله ﷺ أمر يؤدي إلى النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.
- وبيّن السياق مصير الكافرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.
- وبيّن مصير المؤمنين الموالين لله ولرسوله ﷺ: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠-١٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- بيّنت الخاتمة موقف امرأة نوح وامرأة لوط اللتين أعرضتا عن موالاة أنبياء الله حتى استحقّتا دخول النار: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.
- وكما افتتحت السورة بذكر حادثة حفصة وعائشة مع النبيّ ﷺ ودعوتهما إلى التوبة حتى لا تخرجا عن موالاة الله ورسوله، ختمت بعرض موقف امرأة فرعون ومريم ابنة عمران اللتين كان ولاؤهما لله تعالى.

سورة الملك

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الميم واللام والكاف: أصل صحيح يدلّ على قوةٍ في الشيء وصحّة. . . والاسم: المَلِك: لأن يده فيه قوية صحيحة»[1]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «المُلك: هو التصرّف بالأمر والنهي . . . فالمُلكُ ضبطُ الشيء المتصرَّف فيه بالحكم»[2]، فوصف الله تعالى بأنه «بيده الملك» يدلّ على أنه سبحانه هو وحده المالك لكل الوجود، وهو وحده بيده الأمر والنهي والتصرف في الوجود حسبما أراد، وصيغة الحصر والقصر تؤكّد على أنه تعالى بيده ـ لا بيد غيره ـ القدرة على المذكور.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو تأكيد حقيقة أن الله تعالى بيده الملك، وذلك من خلال سائر الصور التي عرضتها السورة وسائر الحركات المغيَّبة التي تؤكّد الخضوع للقدرة الإلهية، فالسورة تتناول عناصر المُلك الكامل وهي: القدرة المطلقة، التنزّه عن العبثية، السيطرة التامة، والقدرة على مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء[3].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩٩٦.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٧٤٥. بتصرف.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٥٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٦٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٦٢٨، ٣٦٣١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٧- ٩، وأ. د مسلم، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الدنيا والآخرة، الدالة على أن الله وحده بيده الملك، ولما كان اسم السورة «الملك» المنسوب لله تعالى والمقصور عليه وحده يدل على المحور المذكور، جُعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن الله وحده بيده الملك في الدنيا والآخرة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولاً: مقدّمة تعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى لتدل على أنه صاحب الملك، وثانياً: عرضٌ لبعض مظاهر كمال قدرته تعالى في الآخرة، وثالثاً: تعقيبٌ يعرض مظاهر أخرى للتأكيد على كمال القدرة الإلهية وشمول علمه تعالى في الدنيا، ورابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله الدالة على أنه سبحانه

= وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٢٦٤، ٢٦٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٧١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن**، ص ٣٠١- ٣٠٥.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وعرض مظاهر قدرته تعالى في الآخرة: ٦- ١٢، والتعقيب: ١٣- ٢٤، والخاتمة: ٢٥- ٣٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور و دلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة بذات الصيغة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: ١، بينما ذكر الفعل «تبارك» منسوباً لله تعالى في سورة أخرى، ثانياً: وهي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾: ٢، ثالثاً: هي وسورة فاطر الوحيدتان اللتان اختصتا بذكر الاسمين الجليلين مع بعضهما «العزيز الغفور»، وهما يدلان على كمال قدرته وشمول رحمته: الملك: ٢، وفاطر: ٢٨، رابعاً: هي من السور التي اختصت بذكر الاسمين الجليلين «اللطيف الخبير» الدالين على كمال قدرة الله وشمول علمه: الملك: ١٤، والأنعام: ١٠٣، والحج: ٦٣، ولقمان: ١٦، والأحزاب: ٣٤، خامساً: هي وسورة الأحقاف الوحيدتان اللتان اختصتا بعبارة ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: الملك: ٢٦، والأحقاف: ٢٣، علماً بأن سورة الملك أول سورة في الجزء: ٢٩، وسورة الأحقاف أول سورة في الجزء: ٢٦، سادساً: امتازت هذه السورة بالرغم من قصرها بكثرة الضمير «هو» العائد على الله تعالى: ١، ٢، ١٤، ١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٩، وبكثرة الاسم الموصول «الذي» العائد على الله: ١، ٢، ٣، ١٥، ٢٣، ٢٤. وكثرتهما تؤكّدان الدلالة على كمال قدرته والتأكيد على أنه بيده الملك. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بيده الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾، ولاحظ بيان أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه تعالى خالق الموت والحياة، وهما أمران لا يقدر عليهما غيره، ولاحظ ذكر السماوات السبع وهي من أعظم المخلوقات، كل ذلك يؤكّد المحور المذكور.

ثم إن من اللافت جداً للنظر أن الآيات الدالة على قدرة الله تعالى جاءت في هذه السورة بأسلوب يمكن أن يوصف «بالمثنوية»، فانظر مثلاً قوله في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وانظر في الآية الثانية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، وانظر قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، وقوله في الآية التي تليها ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ...﴾. وسترى أن هذا الأسلوب مطّرد في كل السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان أنه تعالى بيده الملك يوم القيامة أيضاً كما أنه بيده الملك في الدنيا، وبذلك يتحقّق قوله في المقدّمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، ويتحقق أنه هو المبدئ كما أنه هو المعيد: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾، فهو سبحانه كما أنه قادر على خلق البشر، قادر على أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن، ولاحظ المثنوية في الآية التاسعة: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ...﴾، وفي الآية التي تليها: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا...﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب يذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى وشمول علمه في الدنيا، ليؤكّد أن بيده الملك في الدارَيْن: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ

وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ تقديم ذكر الإسرار على الجهر، ليكون في ذلك مزيد تأكيد على أنه تعالى عالم بالسِّرّ كما أنه عالم بالجهر، ولاحظ تثنية ذكر الضمير ﴿هُوَ﴾، وتثنية الفعل ﴿ءَأَمِنتُم﴾، مما يؤكّد أن أسلوب المثنوية مطّرد في السورة.

وبعد عرض هذه المظاهر انتقل السياق إلى نفي الشريك عن الله عزّ وجلّ، فالمعبود بحقّ هو المتفرد بالقدرة المطلقة الذي بيده الملك: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، فالله تعالى وحده هو الناصر، وهو وحده بيده الرزق، ولاحظ تثنية الاستفهام «أمّن»، وفي مقابل هذين الاستفهامَين، عرض مظهرَين لتأكيد التوحيد له عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾. ولاحظ تثنية عبارة ﴿قُلْ هُوَ﴾.

فسياق السورة كما ترى يؤكّد أن الله تعالى وحده بيده الملك، فهو وحده المستحقّ للعبادة، وهذا ما دل عليه اسم السورة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على أن الله تعالى بيده الملك يوم القيامة كما أنه بيده الملك في الدنيا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الله تعالى بيده الملك في الدنيا والآخرة، فهو وحده المستحقّ للعبادة، ختمت ببيان المقصد ذاته: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾، ولاحظ تثنية ذكر عبارة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الملك

سورة بيان أن الله وحده بيده الملك في الدنيا ولآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى لتدل على أنه صاحب الملك:

- افتتحت السورة بذكر محورها الدال على أن الله بيده الملك لكمال قدرته سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.
- وعرضت بعض مظاهر قدرته تعالى لتؤكد المحور، فالله هو الذي خلق الموت والحياة، وهو الذي خلق سبع سماوات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٢)

عرض لبعض مظاهر كمال قدرته تعالى في الآخرة ليؤكّد أن له الملك في الآخرة كما أن له الملك في الدنيا:

- عرض السياق مصير الكافرين بربهم صاحب الملك سبحانه، فبيّن أن لهم عذاب جهنم وبئس المصير، وبيّن كيف تستقبل النار الكافرين إذ تكاد تميّز من الغيظ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧﴾.
- وعرض السياق تحسّر الكافرين فيها: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ⑩﴾.
- وبيّن مصير المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫﴾.
- إن عرض المصير الأخروي لكلا الفريقين ليؤكّد أن الله تعالى صاحب الملك في الآخرة، كما أنه صاحب الملك في الدنيا.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٣-٢٤)

تعقيب يعرض كمال قدرته تعالى وشمول علمه في الدنيا:

- بيّن السياق أنّ الله يعلم السّرّ والعلن: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑬ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ⑭﴾.
- وأنه هو الذي جعل الأرض ذلولاً ليُسهِّل على الناس تحصيل الرزق.
- وأنه لا يُؤمَن خسفه ولا إرسال عقابه على الكافرين.
- وأنه تعالى الناصر الرازق، وأنه هو الذي أنشأ الإنسان وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، وإليه مرجع الناس يوم القيامة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٢٥-٣٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على أن الله بيده الملك يوم القيامة كما أنه بيده الملك في الدنيا، فأخبر تعالى عن قدرته على عذاب الكافرين: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ㉗﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله تعالى بيده الملك في الدنيا والآخرة، ختمت ببيان المقصد ذاته: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ㉘ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ㉙ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ㉚﴾.

سورة القلم

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة على أرجح الأقوال لأمرين اثنين: أحدهما أن يكون القَسَم بالقلم عائداً على أداة الكتابة المعروفة، والقَسَم بما يسطرون إشارة إلى الكتابة، بمعنى أن الله تعالى يُقسِم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على نفي فرية الجنون عن سيدنا محمد ﷺ، وفي هذا القَسَم إشارة لأهمية الكتابة والتعلّم، والثانية أن يكون القسم عائداً على ما يكنى عنه بـ ﴿القلم﴾ من تعلّق علم الله تعالى بالموجودات الكائنة والتي ستكون في اللوح المحفوظ، والقَسَم بـ ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ إشارة إلى ما سطرته الملائكة في ذلك اللوح المحفوظ، وفي هذا القَسَم إشارة لكمال علم الله تعالى بالغيب ومُلكه لمقاليد الأمور[(١)]. وقد ترجح لديَّ بعد النظر في سياق السورة أن الوجه الثاني هو الأقرب للصواب، وسأبيّن أسباب الترجيح إن شاء الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين دلالة اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو إثبات نبوّة سيدنا محمد ﷺ وتثبيت قلبه،

---

(١) من المفسرين الذين اعتمدوا أن يكون القَسَم (بالقلم وما يسطرون) يشير إلى أهمية الكتابة والتعلّم: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٩، ص ٨٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٦٥٠، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٦٠، معتبراً أن قوله تعالى ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ قد يكون إشارة إلى ما يكتبه كتبة الوحي من القرآن حين تنزله على النبي ﷺ، ومن المفسرين من ذكر القول الثاني دون ترجيح: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٠، ص ٨١٣٥، والزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٥٧٢، والرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٣٠، ٧٨، والآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٥، ص ٢٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٦٠.

وإثبات براءته من فرية الجنون التي افتراها عليه الجاحدون، وقد أقسم سبحانه بالقلم وهي أداة الكتابة المعروف كونه يبين المعارف فيما يكتب به الكاتبون، وفي ذلك تنويه لأهمية الكتابة، أو كونه يشير إلى ما كان يسطره كَتَبة الوحي من القرآن، أو ما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ، على أن النبيّ ﷺ بريء من الجنون كونه هو المهتدي لحيازته العلم وتقبّل القرآن والتخلّق بالفرقان، فكأن السورة تحتضن النبيّ ﷺ والحفنة المؤمنة معه، وتسري عنه وتثني عليه بإبراز العنصر الأخلاقي الذي يتمثّل به ﷺ(١).

وما ذكره الأفاضل عن نفي فرية الجنون عن النبيّ ﷺ صحيح بلا ريب، ولكني أعتقد أن القَسَم لنفي تلك الفرية كان على ما يكتبه الملائكة الموكلون باللوح المحفوظ، فيمكن تلخيص محور السورة بالقول بأنه: نفي فرية الجنون عن النبيّ الكريم ﷺ من خلال بيان بعض مظاهر كمال علم مُرْسِله سبحانه وتعالى بالغيب والتدبير الإلهي الغيبي بالخفاء الدال على أنه وحده بيده مقاليد الأمور، فبيان كمال علم المُرْسِل ينفي بأبلغ صورة فرية الجنون عن المُرْسَل، ولما كان القَسَم بالقلم الذي يدل كناية على ما يسطره الملائكة بأقلامهم في ذلك اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله بالغيب أدل ما في السورة على المحور المذكور، اتُّخذ من القَسَم بالقلم اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان كمال علم المُرسِل سبحانه وتعالى بالغيب والتدبير الخفيّ الدال على أنه بيده مقاليد الأمور، الداحض لفرية الجنون عن المُرسَل ﷺ**.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٩، ص ٨٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٦٥٠- ٣٦٥٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٦٠، ٦١، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص٢٩٠. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٧٤، وقد رجّح أن القَسَم عائد على القرآن لكونه أهمّ كتاب في الدنيا. ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤١١- ٤١٨، وقد ذكر أن القلم يدل على أهمية الكتابة والتعلم على المعنى الأول، أو يعود إلى اللوح المحفوظ على المعنى الثاني ولم يرجّح بينهما، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات: أولها: مقدّمة تحوي قَسَماً بكمال علم الله تعالى بالغيب على نفي فرية الجنون عن النبيّ الكريم ﷺ، وثانيها: تثبيت النبيّ ﷺ والرَّدّ على المكذّبين من خلال بيان بعض مظاهر كمال علم الله بالغيب وبعض مظاهر تدبيره الخفيّ، وثالثها: الخاتمة المؤكدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في المقدّمة قَسَم بما يسطره الملائكة بأقلامهم في اللوح المحفوظ على أن النبيّ الكريم ﷺ بريء من فرية الجنون: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، ولاحظ الفعل ﴿يَسْطُرُونَ﴾ الدال على الاستمرارية، لأن علم الله تعالى مستمرّ لا يتوقّف ولا ينتهي، ولاحظ ثانياً: قوله تعالى ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ المؤكّدة بالباء، فما ينزل عليك من الوحي إنما هو نعمة من الله تعالى عليك، فأنى يصلك الجنون، ولاحظ تأكيد نفي الجنون بحرف الباء، وثالثاً: الإشارة إلى

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٧، وتثبيت النبيّ ﷺ والرَّدّ على المكذّبين: ٨- ٤٣، والخاتمة: ٤٤- ٥٢.
ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: كلمة ﴿يَسْطُرُونَ﴾ بدلالتها على ما يسطر باللوح المحفوظ بالفعل المضارع لم تذكر إلا هنا: ١، وقريب منها لفظة ﴿مَسْطُورًا﴾ في سورة الإسراء: ٥٨، والأحزاب: ٦، و ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ في سورة القمر: ٥٣، علماً بأن رقم سورة القمر: ٥٤، ثانياً: لم يتكرر نفي فرية الجنون عن النبيّ ﷺ في سورة واحدة إلا هنا: ٢، فقبلها آية واحدة، و ٥١، فبعدها آية واحدة، ثالثاً: لم يوصف النبيّ الكريم ﷺ بأنه ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إلا في هذه السورة: ٤، ومن كان على خلق عظيم فكيف يأتيه الجنون، رابعاً: في المقابل لم يوصف المكذبون بـ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ بصيغة اسم المفعول إلا هنا: ٦، خامساً: هذه العبارة ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾: ٣٧، لم تذكر إلا هنا وهي تدل على نفي العلم عنهم، متناسقة مع القسم بما سطر في اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله، سادساً: وكذلك هذه العبارة ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ التي لم تذكر إلا في هذه السورة: ٤٧، وفي سورة الطور: ٤١، وسابعاً: لم تذكر هذه العبارة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلا في هذه السورة: ٧، وفي سورة النحل: ١٢٥، وذكرت ذات العبارة في سورة الأنعام لكن ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾: ١١٧، وقريب منها في سورة النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: ٣٠، وثامناً: ارتبط حرف السين الدال على المستقبل مع الأفعال المضارعة في هذه السورة ثلاث مرات: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾: ٥، و ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾: ١٦، و ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٤٤، ولا يخفى دلالة ذلك على كمال علم الله بالغيب، علماً بأن العبارة الأخيرة لم تذكر إلا في سورتي القلم والأنعام: ١٨٢. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

علم الغيب في قوله ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وكذلك في قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وهما عبارتان تدلان على المستقبل بلا شك.

وقد أكّد السياق نفي فرية الجنون ببيان أنه ﷺ على خلق عظيم، ومَن كان على خلق عظيم لا يكون مجنوناً، وفي المقابل وُصف المكذّبون بأنهم مفتونون وضالّون.

أما الذي دفعني إلى اعتبار أن القَسَم بـ ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يعود على ما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله تعالى بالغيب، فقد ذكرت بعض ذلك في الحاشية السابقة، وسيأتي ذكر بعض مظاهر تدبير الله الخفيّ في الغيب في قصة أصحاب الجنة، والإشارة إلى إنجاء يونس عليه السلام من الحوت. فكأن السورة توحي بأن الله المتصف بكمال العلم والتدبير الخفيّ الدال على أن مقاليد الأمور بيده، لا يمكن أن يوصف رسوله بالجنون، وأعتقد أن التفسير بهذا الوجه أنسب للسياق من الوجه الثاني الدال على أهمية الكتابة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تثبيت النبيّ ﷺ في دعوته، وأن لا يثنيه ما يجده من قومه من التكذيب والاتهام الباطل عن الاستمرار في الدعوة: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾، ولاحظ الإشارة إلى كمال علم الله بالغيب، من خلال بيان ما يكنُّ في صدور المكذّبين من وُدِّهم أن يداهنهم النبيّ ﷺ، فيكون ذلك باباً لهم كي يثنوه شيئاً فشيئاً عن دعوته.

ومن مظاهر كمال علم الله تعالى بالغيب أيضاً وتدبيره لمقاليد الأمور حسب إرادته، بيان مصير هذا الحلاف المهين، الموصوف بتسع صفات ذميمة: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾، فقد علم سبحانه في علمه القديم بمصير هذا المكذّب.

ولكي يكتمل النسق، عرض السياق قصة أصحاب الجنة، وهي أيضاً تبرز بعض مظاهر كمال علم الله بالغيب، وتدبيره الخفيّ لمجازاتهم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾، فقد علم سبحانه بنيتهم السرية الخبيثة، وجازاهم بأن جعل جنتهم كالصريم وهم نائمون، لأنهم أرادوا حرمان المساكين خِفْية، فحرمهم الله من ثمرات جنتهم خِفْية.

وقد استدلّ السياق بما جاء في هذه القصة من مظاهر كمال علم الله تعالى على الرد على المكذّبين للنبيّ ﷺ الذي يتهمونه بالجنون: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، ولاحظ كيف كان الرّدّ عليهم ببيان جهلهم، في مقابل بيان كمال علم الله تعالى الذي أقسم عليه أول السورة، فجَعْلُ المسلمين متساوين في مصيرهم مع المجرمين متنافٍ مع الحكمة، والكافرون بتكذيبهم النبيّ ﷺ واتهامه كأنهم يريدون أن يتحقّق هذا التساوي، ثم لاحظ دعوتهم إلى إبراز كتابهم الذي فيه يدرسون إن كانوا صادقين، وكأن السورة تقول: قد أقسمنا باللوح المحفوظ لدينا وبما يسطر الملائكة فيه بأقلامهم على براءة نبيكم من فرية الجنون، وبرز بذلك بعض مظاهر كمال علمنا بالغيب، وذكرنا بعض مظاهر تدبيرنا الخفيّ الدَّالّ على أن مقاليد الأمور بأيدينا، فأتونا بكتابكم! أم تزعمون أن لكم أيماناً بالغة إلى يوم القيامة، أيّكم يزعم ذلك؟

وقد أكّد سبحانه أن بيده مقاليد الأمور وأنه ذو القدرة المطلقة من خلال بيان ما في القيامة من الأهوال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فقد بيّن السياق أنه يومَ تشتدُّ أهوالُ القيامةِ لن تنفعهم آلهتهم شيئاً، وحينئذ لا تنفع الحسرة لأنهم كانوا يُدْعَون إلى السجود وهم سالمون.

فالسياق كما تلاحظ يدل على نفي فرية الجنون عن النبيّ الكريم ﷺ، ويبيّن صدقه ويثبته في دعوته، وذلك من خلال بيان بعض مظاهر كمال علم الله تعالى بالغيب، وبعض مظاهر تدبيره الخفيّ، وكأن السياق يقول: إن الله الذي قد بيّن لكم بعض صفاته، لا يمكن أن يكون رسوله متهماً بالجنون كما تزعمون. وبذلك تدحض فريتهم بأبلغ رَدّ.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد على ما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله تعالى بالغيب وتدبيره الخفيّ لمجازاة أعمال الخلق، لتؤكّد على براءة النبيّ ﷺ: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا

فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾. ولاحظ الآية الأخيرة التي تنفي العلم عنهم، وتثبت علم الغيب لله تعالى، وبذلك تدحض فريتهم بأبلغ رَدّ.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ بأقلامهم، الدال على كمال علم الله تعالى بالغيب، على أن رسوله الكريم ﷺ بريء من فرية الجنون، ختمت كذلك بذكر بعض مظاهر تدبيره الخفيّ الدال على كمال علمه بالغيب، ليستدل بذلك على نفي فرية الجنون عن النبيّ ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، فالله الذي أرسلك هو صاحب العلم التامّ والقدرة الكاملة، وبيده مقاليد الأمور والتدبير في الظاهر والباطن، فاصبر لحكمه ولا تلتفت إلى فرياتهم الباطلة. وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة القلم

سورة بيان كمال علم المرسِل سبحانه وتعالى بالغيب والتدبير الخفي، الدال على أنه بيده مقاليد الأمور، الداحض لفرية الجنون عن المرسَل ﷺ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً بكمال علم الله بالغيب على نفي فرية الجنون عن النبيّ ﷺ:

- افتتحت السورة بالقَسَم بما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله بالغيب، على أن النبيّ ﷺ بريء من فرية الجنون: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.
- وبيّنت المقدّمة أن له ﷺ أجراً غير ممنون وأنه لعلى خلق عظيم.
- وفي المقابل وصفت المكذّبين بالمفتونين الضالّين: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨ - ٤٣)

تثبيت النبيّ ﷺ والرَّدّ على المكذبين من خلال بيان بعض مظاهر علم الله بالغيب، وبعض مظاهر تدبيره الخفيّ:

- برز علم الله تعالى بالغيب في بيان أن المكذّبين يودّون في قلوبهم لو يداهنهم النبيّ ﷺ فيداهنوه.
- وبرز علمه تعالى بالغيب في المستقبل بتوعّد الحلّاف المهين بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.
- وبرز علمه تعالى بالغيب ببيان السورة أنه تعالى عَلِمَ بالنية الخبيثة التي أسرَّها أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾.
- وبرز تدبيره الخفيّ سبحانه في بيان المصير الذي آلت إليه جنتهم وهم لا يشعرون: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾.
- بيّن السياق جهل المكذّبين في مقابل بيان المقدّمة كمال علم الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾.
- وقد أكد السياق أن الله بيده مقاليد الأمور وأنه ذو القدرة المطلقة في الآخرة أيضاً، من خلال بيان مصير المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٤-٥٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله بالغيب وتدبيره الخفيّ لمجازاة أعمال الخلق: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم بما يسطره الملائكة بأقلامهم في اللوح المحفوظ على أن النبيّ ﷺ بريء من فرية الجنون، ختمت بذكر بعض مظاهر تدبير الله الدال على كمال علمه بالغيب، للدلالة على نفي فرية الجنون عن النبيّ ﷺ، فقد تدارك الله برحمته يونس عليه السلام في بطن الحوت واجتباه وجعله من الصالحين، ثم قال خاتماً تعالى السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

سورة الحاقة

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «حقّ: الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدلّ على إحكام الشيء وصحّته، فالحقّ: نقيض الباطل، ويقال: حقّ الشيء إذا وجب، والحاقّة: القيامة، لأنها تحقّ بكل شيء، قال تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الزمر: بعض الآية ٧١)»[١]. وزاد الإمام الأصفهاني: «الحقّ: المطابقة والموافقة، والحاقّة: القيامة، لأنه يحقّ فيها الجزاء»[٢]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى تهويل شأنها، وبيان أنها حق لا مرية ولا هزل فيها. أكّد ذلك مجيء اسم السورة بصيغة اسم الفاعل من الفعل «حقَّ»، وأكّد هذا أيضاً السؤال عنها مرتَيْن، وإضافة «أل» التعريف لاسم السورة أفاد انفرادها بهذا الوصف، فلا حاقّةَ حقيقةٌ غيرها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها سميت بذلك؛ لأن فيها مزيد تأكيد على تحقّق يوم القيامة وأنه جدٌّ لا هزل فيه، وعلى حقيقة الجزاء في ذلك اليوم الذي فيه إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، وكمال قدرة الله تعالى وعدله، فهي تثبت صدق وعود القرآن وبراءة الرسول ﷺ مما اتهمه به أهل الضلال[٣].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٢٤٥.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٢٤٦.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٦٠. والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ١١٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ٣٦٧٤. والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ٣، ص ٤٠٩، و أ. د مسلم وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٨، ص ٣١٨، وطهماز، **من سورة الطور إلى سورة الناس**، ص ٢٥٣، ود. حسن باجودة، **تأملات في سورة الحاقة**، ص ٣، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السور هو: إثبات أن يوم القيامة يوم حقّ جدٌّ لا مجال فيه للهزل، من خلال بيان مصير المكذّبين ومصير المؤمنين في ذلك اليوم، فوصف يوم القيامة بالحاقّة يدل على المحور المذكور، وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن القيامة حقّ جدّ ولا هزل فيها**.

وبتتبع موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة تهول أمر الحاقّة وتبيّن مصير الأقوام المكذّبة بذلك اليوم العظيم، وثانياً: عرض لبعض مشاهد يوم القيامة تؤكّد أنه حقّ لا هزل فيه، وثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاءت المقدّمة بذكر اسم يوم القيامة «الحاقة» مع تكرار السؤال التجهيلي المفيد تهويل ذلك اليوم: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، «ويبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة: الحاقّة، وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحِسّ معنى الجدّ والصرامة والحقّ والاستقرار، وإيقاعُ اللفظ بذاته أشبهُ شيءٍ برفعِ الثقل طويلاً، ثم استقراره استقراراً مكيناً، رَفْعه في مدّة الحاء بالألف، وجِدُّه في تشديد

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ ـ ١٢، ومشاهد يوم القيامة: ١٣ ـ ٣٧، والخاتمة: ٣٨ ـ ٥٢. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان أن يوم القيامة جدّ لا هزل فيه: أ) فقوله ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: ١٣، ذكر بهذه الصيغة هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾: ١٤، وقريب منه في سورة الفجر: ٢١، ج) وقوله ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: ١٦، لم يتكرر، د) وكذلك قوله تعالى واصفاً ذلك اليوم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: ٥١، وقريب منه ما جاء في سورة الواقعة السابقة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: ٩٥، وبإمكانك أن تضيف أنه مما يؤكّد دلالة الجدية والصرامة في هذه السورة أنه ذُكر فيها من أسماء يوم القيامة: القارعة: ٤، والواقعة: ١٥، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصير المؤمنين في ذلك اليوم: أ)فقوله ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾: ١٩، لم يتكرر، ب)وكذلك قوله ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾: ٢٠، ج) وأما قوله ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ فقد ذكر هنا: ٢١، وقريب منه في سورة القارعة: ٢٠، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصير الكافرين: أ) فقوله تعالى عن الكافر ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾: ٢٥، لم يتكرر، ب) وكذلك قوله تعالى عنه ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾: ٢٦، ج) وقوله ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: ٣٠ لم يتكرر بهذه الصيغة، د) وقوله ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾: ٣٢، لم يتكرر. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

القاف بعدها، واستقرارُه بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تُنطق هاء ساكنة »[1]. فالدلالات الناتجة عن وصف يوم القيامة بالحاقّة تفيد معاني الجدّ والصرامة فلا مجال للهزل. ثم إن النطق ثلاث مرات بهذا الاسم مع الوقوف على الهاء بعد حرف الاستعلاء «القاف» المفخّم المشدّد، أشبه بثلاث قذائف لها دوي هائل لا نظير له في كل أسماء السور المشيرة إلى يوم القيامة.

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الأقوام المكذّبة بيوم القيامة وبيان مصيرهم بأسلوب يكاد يخطف القلوب: فلاحظ كيف كان التعبير عن كيفية إهلاكهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١﴾ وانظر إلى الكلمات: بالطاغية، صرصر، أخذة رابية، طغى، التي تحوي حروف الاستعلاء: الطاء والغين والخاء، مع تفخيم الراء، وتفخيم الألف بعد الغين، فكل هذه الكلمات تفيد الجدّ والصرامة، وهي متناسبة مع اسم السورة الذي يحوي المدّ اللازم المثقّل، مع حرف الاستعلاء: القاف. ولاحظ التعقيبَ على إهلاك الأقوام الذي يفيد الجدية: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾. وقولَه تعالى معقباً على ذكر نجاة نوح عليه السلام ومن معه، وإهلاك المكذّبين من قومه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٢﴾.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض بعض مشاهد الآخرة، والملاحظ أن طابع التهويل والجدّ والصرامة يغطي تلك المشاهد كلّها: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤﴾، لاحظ كيف أكّد السياق على أن النفخة الواحدة والدكة الواحدة كفيلتان ببدء ذلك اليوم العظيم دون إعادة، ولاحظ أيضاً كيف عبّر السياق عن نجاة من أوتي كتابه بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ فهو لم يكد يصدق أنه نجا. وكيف عبّر عن مصير الكافر بضمير المفرد في مقابل الأمر بضمير الجمع للملائكة ليأخذوه وينفردوا به ليعذّبوه﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٦٧٤. وقد بين أوجهاً متعددة لتناسق بعض ألفاظ هذه السورة ومشاهدها مع جوّها الدال على التهويل والجدّ والصرامة، وقريب منه كلام د. باجودة، **تأملات في سورة الحاقة**، ص ٤.

﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾، كل ذلك يناسب سياق التهويل والجدية والصرامة التي دلّ عليها وصف يوم القيامة بالحاقّة. ولا تجد في السور التي سُمّيت بأسماء يوم القيامة أو مشاهده تعبيراً عن مصير الكافر أشدّ تهويلاً وحزماً من هذه السورة.

ثالثاً: وجاءت خاتمة السورة لتؤكّد ما سبق، وهي أيضاً مطبوعة بطابع الجدّ والصرامة، يؤكّد ذلك القَسَم بما تبصرون وما لا تبصرون على صدق النبيّ ﷺ بما ينذر به قومه من حقائق الوحي، ولاحظ تكرير التقريع للمكذّبين: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. بل إن الجدّ والحزم والصرامة كان طابع التعبير حتى فيما يتعلق بنفي أيّ فرية عن النبيّ ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وحاشاه ﷺ من أيّ شيء من ذلك. ثم لاحظ ختم السورة بـ «إن» المفيدة للتوكيد خمس مرات لإثبات صدق النبيّ ﷺ، وتكذيب المكذّبين.

وكما افتتحت السورة بذكر يوم الحاقّة العظيم، وبيان مصير بعض الأقوام التي كذبت به، ختمت ببيان حسرة الكافرين على عدم إيمانهم بالحاقّة، وبالدعوة إلى تسبيح الله العظيم القادر على بعث الخلق في ذلك اليوم: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور الدال على أن يوم القيامة حقّ جدّ لا هزل فيه، الذي أكّده اسم السورة بدلالات الجدية والحزم والصرامة التي طبعت كل موضوعات السورة بطابعها.



سورة الحاقة

سورة بيان أن القيامة حقٌّ وجدٌّ لا هزل فيها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

■ **المقدّمة التي تهوّل أمر الحاقة وتبيّن مصير بعض الأقوام المكذّبين بذلك اليوم العظيم:**

■ افتتحت السورة بذكر اسم «الحاقة» مع تكرار السؤال التجهيلي المفيد تعظيم هول ذلك اليوم: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

■ ثم بيّنت مصير بعض الأقوام المكذّبين بذلك اليوم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، وبيّنت إهلاك فرعون وقوم نوح عليه السلام.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٣٧) عرض لبعض مشاهد يوم القيامة تؤكّد أنه حقّ لا هزل فيه:

■ ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مشاهد ذلك اليوم عظيم الهول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾.

■ وبيّن أنه يومئذ تنشقّ السماء وتهوي، ويأتي العرش تحمله الملائكة، حينئذ يُعْرض الناس على ربهم لا تخفى منهم خافية.

■ وبيّن أنه من عِظَم هول ذلك اليوم لا يكاد المؤمن يصدّق أنه نجا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾.

■ وأما الكافر فمصيره مهول مفزع: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٨-٥٢) الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت التأكيد على أن حقائق الوحي التي ينذر بها النبيّ ﷺ حقّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾.

■ ونفت عنه ﷺ أيّ فرية متعلقة بالوحي: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن يوم القيامة حقّ وبيّنت مصير بعض المكذبين بذلك اليوم، ختمت بتهديد الكافرين مع التأكيد على المقصد ذاته: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

سورة المعارج

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الأصل الثالث ـ للجذر عرج ـ: العروج: الارتقاء، يقال: عرج يعرج عروجاً ومَعْرَجاً، والمعْرَج: المصعد»[1]، وأكّد الإمام الأصفهاني ذلك فقال: «العروج: ذهاب في صعود، قال تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ (المعارج: بعض الآية ٤) وقال: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ (الحجر: بعض الآية ١٤)، والمعارج: المصاعد»[2]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الله تعالى بـ «ذي المعارج» وقد فسَّرته الآية التالية له، فيكون المعنى: إن العذاب الذي سأل عنه السائل واقعٌ بالكافرين ولا دافع له، وهو سيقع بهم من الله ذي المعارج، أي: «صاحب المعارج وخالقها، وهي المنازل التي ترتقي بها الملائكة، وقد جاء هذا الوصف ليكون تخلُّصاً إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحقّ للكافرين، وهذا العروج كائنٌ يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة. وهذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها»[3]. فاسم السورة يدلّ على طول ذلك اليوم على الكافر، وقدرة الله تعالى على البعث وعذاب الكافرين في ذلك اليوم الذي يستبعدونه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٧٦٨.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٥٥٧.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ١٥٧.

وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة يقوم على إثبات القيامة وتصوير عظمتها وطول يومها وأنه قد قَرُب، وإنذار من كفر بها وذكر بعض سماتهم، وسمات من آمن بها وشمّر لها، وعلى هذا دلّ اسم «المعارج»، والتركيز في هذه السورة على الهول النفسي لما فيها من ذكر للجزاء وموازينه، أكثر من مشاهد الكون وحركاته، وقد ذكرت السورة بعض صفات ترتقي بأصحابها على باقي البشر وتعرج بهم إلى ربّهم، وفي المقابل حقّرت السورة شأن قسم آخر من الناس وهم الكافرون[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال الرَّدّ على المكذّبين المستبعدين لذلك اليوم المهول والغافلين عنه، وبيان استعداد المؤمنين المصدقين لذلك اليوم، وإنما اختير اسم «المعارج» الدال على طول ذلك اليوم، لكونه أدل ما في السورة على كمال غفلة المكذّب عنه، ومدى استعداد المؤمن المصدّق له، فهو يدل على المحور المذكور[(٢)]. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان طول يوم القيامة وغفلة المكذّبين عنه، واستعداد المؤمنين له.**

وبتتبّع موضوعات السورة يظهر ارتباط اسم السورة «المعارج» بموضوعاتها ارتباطاً وثيقاً، وفيما يلي بيان ذلك:

تحوي السورة مقدّمة تبيّن استبعاد المكذّب لوقوع عذاب الآخرة مع الرَّدّ عليه، ثم ذكراً لبعض المشاهد الأخروية مع بيان مصير المكذّب بسبب غفلته، ثم بيان استعداد المؤمن ليوم القيامة ومصيره فيه، ثم خاتمة عن موقف المكذّبين زمن النبيّ ﷺ مع الرَّدّ عليهم[(٣)].

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ١٤٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٦٩٣، و أ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٨، ص ٣٤٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) أخرج الإمام مسلم رحمه الله في **صحيحه** عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: ما «مِن صاحب كنز لا يُؤدِّي زكاتَه إلا أُحميَ عليه في نار جهنم فيُجْعل صفائح فَيُكوى بِهَا جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...»، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم: ٢٢٥٤.

(٣) المقدّمة شملتها الآيات: ١-٧، والحديث عن مصير المكذّبين: ٨-٢١، والحديث عن المؤمنين: ٢٢- ٣٥، والخاتمة: ٣٦-٤٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان طول يوم القيامة وعظيم هوله: أ) فوصف طول ذلك اليوم=

أولاً: تأتي المقدّمة لتردّ على السائل المنكر أو المستبعد لوقوع العذاب على الكافرين يوم القيامة، وما ذاك إلا لتغافلهم عن تلك الحقيقة ليصنعوا في هذه الدنيا ما يشاؤون بلا حساب، فكانت الإجابة بأن الله قد جعل لهم يوماً مقداره خمسون ألف سنة تعرج فيه الملائكة لتدبير شؤون ذلك اليوم ومهامّه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾، فكان وصف الله تعالى بأنه «ذو المعارج» وما بيّنته الآية التالية لهذا الوصف، دلالة على طول ذلك اليوم الذي يستبعده الكافر. وفيه دلالة أيضاً على قرب وقوعه حتى لو طال أمده في نظر البشر. فكم تساوي حياة البشر منذ بدئها على الأرض في مقابل طول ذلك اليوم؟

ولاحظ أيضاً قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ الذي يؤكّد هذه الحقيقة.

ثانياً: ثم تنتقل السورة إلى بيان موقف الكافرين في ذلك اليوم الطويل، فلا يسأل حميم حميماً، ومما يلاحظ هنا أن السورة قدّمت ذكر مصير الكافرين يوم القيامة على ذكر بعض أعمالهم، لبيان مدى غفلتهم عن هذا اليوم: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾، ويلاحظ أيضاً أن سياق السورة يركّز على عرض الهول النفسي لهؤلاء المكذّبين أكثر من بيان هول الأحداث الكونية لذلك اليوم، مما يؤكّد مدى غفلة المكذّب عن الحساب الطويل في ذلك اليوم.

= بخمسين ألف سنة لم يذكر في القرآن إلا هنا: ٤، ب) وقوله تعالى ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ذكر هنا: ٤٢، وفي سورة الزخرف: ٨٣ فقط، ج) لكن سورة المعارج امتازت بقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾: ٤٤، إذ لم يتكرر بالصيغة ذاتها، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان غفلة الكافرين عن ذلك اليوم: أ) فقوله تعالى عنهم ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾: ٦، لم يذكر إلا هنا، وكذلك وصف جهنم بأنها ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾: ١٧، ١٨ لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة لبيان مدى تغافلهم عن الاستعداد ليوم المعارج، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة ببيان استعداد المؤمنين لذلك اليوم: أ) فقوله تعالى ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾: ٧، ذكر هنا فقط وهو ينبّه المؤمنين للاستعداد، ب) وكذلك وصفهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾: ٢٣، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ج) وأما قوله ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: ٢٤، ٢٥، فقد ذكر هنا بزيادة «معلوم» وهو يؤكّد استعدادهم لذلك اليوم، وذُكر قريب منه في سورة الذاريات: ١٩، لكن دون (معلوم). ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

ثم ذكرت من أعمالهم ما يدل على غفلتهم عن يوم المعارج وكأنهم يعيشون أبداً: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾. فقد ألهاهم التولّي وجمع المال والبخل عن الاستعداد لذلك اليوم.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى ذكر أعمال المؤمنين الذين يخافون ذلك اليوم ويعملون له، ويلاحظ هنا أن السورة قدّمت ذكر أعمال المؤمنين على ذكر ثوابهم على عكس ما حصل مع الكافرين المذكورين قبل قليل، لبيان مدى استعداد المؤمنين لذلك اليوم، فذكرت من أعمالهم: الدوام على الصلاة، وأداء الزكاة، والتصديق بيوم الدين والخوف من عذاب الله فيه، وحفظ الفروج والأمانة والعهد والشهادات، ومن اللطيف أن التعبير عن أدائهم الزكاة هنا جاء مؤكّداً بأنه معلوم: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، بينما في سورة الذاريات: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ (الذاريات: ١٩)، فزيادة كلمة (معلوم) في المعارج أفاد كمال استعدادهم لذلك اليوم الطويل، فهم يجعلون مقدار الزكاة أمراً واجباً وله حسابه الخاص، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ الذي يؤكد كمال استعدادهم ليوم المعارج الطويل.

رابعاً: الخاتمة، وفيها انتقلت السورة إلى ذكر أحوال الكافرين في مواجهة الدعوة وهي أحوال تؤكّد غفلتهم عن يوم المعارج، ومما يلاحظ أن قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ فيه بيان مدى غفلة الكافرين عن ذلك اليوم، « فإن قلت: من أيّ وجه دلّ هذا الكلام على إنكار البعث؟ قلت : من حيث إنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل ، وذلك قوله : ﴿خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النُّطَف ، . . وقيل : معناه: إنّا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بني آدم كلهم، ومن حُكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح»[1].

ومن اللطيف أيضاً أن السياق لم يفصّل في أصل نشأة الإنسان كما جاء في سورتَيْ

---

(١) الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٦٠١. بتصرف بسيط.

الواقعة والقيامة، فانظر كيف عبّر عن ذلك: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وذلك للتأكيد على مدى قِصر حياة الإنسان في مقابل طول يوم المعارج[1].

وختمت السورة بإعادة التذكير بهول ذلك اليوم الطويل والقريب، وبيان غفلة الكافرين عنه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾. والتقى البدء والختام على بيان مدى غفلة المكذّب عن يوم المعارج الطويل، فأنت ترى أن دلالة اسم السورة «المعارج» قد عبّر عن محور السورة وموضوعاتها بأبلغ صورة.



(١) ينظر: الآيات من سورة الواقعة: ٥٨-٦٢، والآيات من سورة القيامة: ٣٧- ٣٩.

سورة المعارج

سورة بيان طول يوم القيامة، وبيان غفلة الكافرين عنه، واستعداد المؤمنين له

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تردُّ على الكافر المستبعد وقوع يوم القيامة، ببيان طول ذلك اليوم وقرب وقوعه:

■ افتتحت السورة بالرَّدّ على مَن يستبعد وقوع القيامة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾.

■ وبيّنت طول ذلك اليوم الذي يستبعده الكافرون: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾.

■ وبيّنت قرب وقوعه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٢١)

عرض لبعض مشاهد ذلك اليوم مع بيان مصير الكافر المكذّب بسبب غفلته:

■ ثم عرض السياق بعض أهوال ذلك اليوم لتأكيد حقيقة وقوعه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

■ وبيّن أن الكافر في ذلك اليوم يودُّ لو أنه يفدي نفسه من العذاب ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته ومَن في الأرض جميعاً.

■ ثم بيّن أن سبب عذابهم هو غفلتهم عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٢-٣٥)

بيان استعداد المؤمنين لذلك اليوم، وبيان مصيرهم فيه:

■ ثم عرض السياق في المقابل استعداد المؤمنين ليوم المعارج: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾.

■ وبيّن السياق أن إيمانهم بذلك اليوم وخشيتهم من عذاب الله فيه، هو الذي جعلهم يستعدّون للقاء الله فيه بالأعمال الصالحة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾.

■ وقد بيّن أنهم يوم القيامة في جناتٍ مُكْرمون.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٦-٤٤)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت بيان غفلة المكذّبين عن الإيمان والاستعداد ليوم المعارج: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨﴾.

■ وبيّنت قِصَر حياة الإنسان في الدنيا مقابل طول يوم المعارج: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾.

■ وكما افتتحت السورة بالرَّدّ على المكذّب المستبعد وقوع يوم المعارج الطويل، ختمت ببيان مصير المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾.

سورة نوح

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سُمّيت هذه السورة الكريمة باسم «نوح» عليه السلام؛ لأنها تبيّن خلاصة دعوته لقومه، وخلاصة موقفهم منها، فقد بيّنت هذه السورة أن نوحاً عليه السلام استخدم شتّى أساليب الدعوة من الجهر والإسرار، والدعوة بالليل والنهار، وبيّنت السورة مدى عناد قومه واستكبارهم عن الحقّ، فاسم السورة يدل على أن نوحاً عليه السلام لم يقصر في دعوته، فهو مثال سامي للدعاة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من دلالات اسم السورة الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة، ومن دلالاته بيان كمال القدرة الإلهية في الآفاق، وبيان تمام القدرة الإلهية على تحقيق دعوة نوح على قومه، وتبديلهم بغيرهم، وذكروا أن التركيز في السورة على محاولات نوح المكثّفة لإنقاذ قومه، فالسورة تبيّن المعالم الرئيسية لدعوته التي يحتاجها كل داعية إلى الله، فالسورة تجعل من نوح عليه السلام قدوة مثالية لكل الدعاة على مَرّ العصور، وذكروا أيضاً أن السورة تعرض صورة من العناد البشري للحقّ، وصورة من الرحمة الإلهية المتجلية برعاية الله للإنسان، فمن مقاصد السورة التسرية عن النبيّ ﷺ وعن الجماعة المؤمنة في مكة، وعن كل داعٍ إلى الله في الأرض، لأن السورة تعرض تقديم نوح حسابه الأخير بعد صبره على الدعوة المضنية ألف سنة إلا خمسين عاماً. وفي

ذلك تهديد للمكذّبين حينما رأوا مصير أسلافهم(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: عرض التقرير النهائي لنوح عليه السلام الذي يبرز عدم تقصيره في دعوته لقومه في أيّ جانب من جوانبها، وفي ذلك تثبيت للنبيّ ﷺ والمؤمنين مما يلاقوه من أذى في مكة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة قدوة الدعاة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز أن من أهمّ الدلالات السياقية لاسم السورة بيان عدم تقصيره عليه السلام في دعوته بالرغم من طول مكثه فيهم، وفيما يلي بيان للترابط الشديد بين هذه الدلالة وبين موضوعات السورة:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة تحوي خلاصة المقصد من دعوة نوح عليه السلام، ثانياً: خطاب لنوح عليه السلام مع ربّه عزّ وجلّ يَبرزُ فيه من جانب عدمُ تقصيره في دعوته لقومه، ومن جانب آخر يبرز موقف قومه من دعوته، وثالثاً: خاتمة على لسان نوح عليه السلام تبرز بغضه للكفر والكافرين الظالمين، ومودّته وحرصه على المؤمنين إلى يوم الدين(٢).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٦٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ١٦٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٠٦، ٣٧٠٧، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ١٨٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٣٦٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٨٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ٣١٩- ٣٢٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٠٨- ٣١١.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، وخطاب نوح مع ربّه تعالى فيما يتعلق بعدم تقصيره في الدعوة: ٥- ٢٠، وفيما يتعلق ببيان موقف قومه من الدعوة: ٢١- ٢٥، والخاتمة: ٢٦- ٢٨، وقد كان السياق يفصل بين هذه الموضوعات بعبارة ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تؤكّد عدم تقصير نوح في دعوته: أ) فقوله ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾: ٥، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾: ٨، ج) وقوله ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾: ٩، د) وقوله لافتاً أنظارهم إلى آيات الله ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: ١٧، وقوله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾: ١٩، ثانياً: ومنها أمور تحذّر من الإصرار على التكذيب: أ) فقوله تعالى على لسان نوح ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾: ٦، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾: ٧، وقد ذكر تغشي الثياب أيضاً هرباً من سماع الدعوة في سورة هود فقط: ٥، ج) وكذلك قولهم ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ٢٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أولاً: جاءت المقدّمة تحوي إقراراً موجزاً من الله تعالى عن دعوة نوح عليه السلام، يبرز فيه السياق عدم تقصيره في الدعوة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، فقد بيّن الله تعالى أن نوحاً عليه السلام دعا قومه إلى توحيد الله وتقواه، وبيّن لهم وجوب المسارعة إلى طاعته؛ لأنه لا مفرَّ لهم من الموت، وهذه خلاصة دعوة الأنبياء جميعاً. إن افتتاح السورة بهذا الإقرار من الله تعالى لما قام به نوح يبرز ـ فيما أعتقد ـ رضا الله التامّ عن الأداء غير المقصّر لنوح عليه السلام. فهو بشهادة الله له يستحقّ أن يكون قدوة للدعاة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض نوح عليه السلام تقريره الأخير لدعوته، ويبرز في ذلك أيضاً عدم تقصيره، فقد دعاهم دعوة متكررة على اختلاف الأزمنة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾، واستخدم مختلف الأساليب، كالجهر والإسرار والترغيب والترهيب: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾، وقد كان من أساليبه أيضاً خطاب فطرتهم وعقولهم ليتيقّظوا من غفلتهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾. إن ما جاء في تقرير نوح عليه السلام من تنوّع أساليب الدعوة على اختلاف الأزمنة وتكرار الدعوة بدون ملل أو كلل، يبرز عدم تقصير نوح عليه السلام في أيّ جانب من الجوانب، بل لقد قام بمهمته على أتمّ وجه. فعلى الدعاة الاقتداء به عليه السلام باستخدام شتّى أساليب الدعوة.

وبعدما عرض نوح عليه السلام خلاصة دعوته لقومه، التي بيّن فيها عدم تقصيره، انتقل

إلى عرض موقف قومه من كل ذلك الجهد: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾، واللافت للنظر أن الآية الأخيرة: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا...﴾ التي هي تعقيب من الله عزّ وجلّ على عرض نوح عليه السلام موقف قومه من دعوته، كان من الممكن أن تكون الآية الأخيرة في السورة، لكن تقديمها كتعقيب إلهي على كلام نوح عليه السلام حول موقف قومه يؤكّد أن نوحاً عليه السلام لم يقصّر في الدعوة، وفي ذلك تربية للدعاة لالتزام الصبر على تكذيب الأقوام.

ثالثاً: ثم ختمت السورة بدعاء ختامي لنوح عليه السلام يظهر فيه بغضه للكفر والكافرين الظالمين، وحرصه ومودّته للمؤمنين، وبيان وِحدة دعوة الدين إلى يوم الدين: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

فأنت ترى أن تسمية السورة بـ «نوح» عليه السلام يعطي أفضل أنموذج للدعاة، فهو لم يقصّر في دعوته لقومه بالرغم من مكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وفي هذا تثبيت للنبيّ ﷺ وللمؤمنين المستضعفين، ولكل داعية إلى الحقّ حتى يوم الدين، وهذا هو المحور الذي التقت عليه مقدّمة هذه السورة وخاتمتها، ودلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة نوح

سورة قدوة الدعاة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي توجز دعوة نوح عليه السلام لقومه، وتبرز شهادة الله له في أنه لم يقصّر في دعوته:

- افتتحت السورة بإقرار الله تعالى أن نوحاً عليه السلام أحد رسل الله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾.
- ثم بيّنت أنه عليه السلام دعا قومه بملخص دعوة الأنبياء جميعاً: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.
- فالمقدّمة تقرِّرُ أن نوحاً عليه السلام قد بادر لإجابة أمر ربّه فدعا قومه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-٢٥)

خطاب لنوحٍ عليه السلام مع ربّه عزّ وجلّ يبرز عدم تقصيره في الدعوة، ويبرز موقف قومه من دعوته:

- ثم انتقل السياق إلى بيان أن نوحاً عليه السلام لم يقصّر في دعوته قومه، فقد استخدم شتّى أساليب الدعوة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾.
- وقد رغبهم بالاستغفار وما فيه من فوائد.
- وخاطب عقولهم قائلاً: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾.
- وعرض أدلة عقلية دالة على الله تعالى، فبيّن لهم أن الله هو الذي خلق سبع سماوات، وجعل فيهن الشمس والقمر، وهو الذي خلق البشر من الأرض ثم يعيدهم فيها، ويخرجهم يوم القيامة منها.
- ثم بيّن السياق موقف قومه من دعوته: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٦-٢٨)

الخاتمة التي تبرز بُغْض نوح عليه السلام للكافرين، ومودّته للمؤمنين إلى يوم الدين:

- وقبل الختام سجّلت الخاتمة بغض نوح عليه السلام للكفر والكافرين: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان دعوة نوح عليه السلام قومه للإيمان، ختمت ببيان مودّته عليه السلام للمؤمنين إلى يوم الدين: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾.

سورة الجِنّ

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حادثة استماع نفرٍ من الجِنّ إلى قراءة النبيّ ﷺ القرآن، فلما سمعوه آمنوا به[1]، فهذه السورة تبرز إقرار هؤلاء النفر من الجِنّ بالإيمان وصحة الاعتقاد، وبيانهم زيف الباطل الذي كان قد أناطه الإنس بالجِنّ، كالاستعانة بهم والاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب وغير ذلك.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن هذه السورة بمثابة شهادة من بعض عالم الجِنّ بكثير من القضايا العقيدية التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها، كادّعائهم أنه ﷺ كان يتلقّى بعض معلوماته عن الجِنّ، وهي كذلك تحوي تصحيحاً للأوهام التي أثيرت حول عالم الجِنّ كادّعاء أنهم يعلمون الغيب، وادّعاء أن بينهم وبين الله تعالى نسباً، وهي كذلك تحوي ردًّا على من ينكر وجود عالم الجِنّ ويعتبره من قبيل الخرافات، وتساهم في إنشاء التصوّر الإسلامي عن حقيقة الإلهية، وحقيقة العبودية، وما من شكّ أنها تظهر أيضاً شرف النبيّ ﷺ إذ ليّن الله له قلوب الإنس والجِنّ، وهي تظهر شرف هذا القرآن العظيم الذي آمن به الجِنّ بمجرّد استماعه[2].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: دعوة الإنس إلى

---

(١) ينظر: البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، برقم: ٤٩٢١، ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الصلاة، برقم: ٩٣٧.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٦٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ١٨٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٢٠- ٣٧٢٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٢١٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، =

الإيمان بالنبيّ ﷺ وصحة الاعتقاد، من خلال ما بيّنه هؤلاء النفر المؤمن من الجِنّ من صدق الإيمان وصحة الاعتقاد وكشف الباطل المتوهّم حول عالم الجِنّ. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة كشف زيف الباطل الذي أناطه الإنس بالجِنّ**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة متحدّثة عن حادثة استماع النفر من الجِنّ إلى النبيّ ﷺ مع بيان صحة اعتقادهم فيما يتعلق بالله تعالى، وثانياً: بيان صحة اعتقادهم في قضايا عقيدية أخرى، وثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في المقدّمة ذكر هذه الحادثة وإقرار الجِنّ بصحة اعتقادهم فيما يتعلق بالله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾، فهم مؤمنون بالله تعالى

= **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٣٩٢، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ٢٠٩، ٢١٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣١٣.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وبيان صحة اعتقادهم في القضايا العقيدية: ٦- ١٤، والخاتمة: ١٥- ٢٨. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أن نفي الصاحبة عن الله تعالى لم يذكر إلا فيها وفي سورة الأنعام على لسان الإنس فيما زعموه حول الجِنّ، ينظر: الجِنّ: ٣، والأنعام: ١٠٠، ١٠١، وثانياً: تشترك هذه السورة مع سورة الكهف في أحد جوانب المحور، فسورة الجِنّ تثبت عدم قدرة الجِنّ على دفع الأذى عن الإنس، وسورة الكهف تثبت حماية من لجأ إلى الله من الأذى، وقد اشتركت السورتان في أمور عدة أذكر منها: أ) هما أكثر سورتين في القرآن ذكرت فيهما مشتقات الجذر «رشد» فقد ذكرت في سورة الجن أربع مرات: ٢: الرشد، ١٠، ١٤، ٢١: رَشَداً، وفي سورة الكهف أربع مرات أيضاً: ١٠، ٢٤: رَشَداً، ١٧: مرشداً، ٦٦: رُشْداً، ب) لم تتكرر مشتقات الجذر «رهق» إلا هنا مرتين: ٦، ١٣: رهقاً، وفي سورة الكهف مرتين أيضاً: ٧٣: ﴿تُرْهِقْنِى﴾، ٨٠: ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾، ج) لم يذكر المصدر «شطط» إلا في هاتين السورتين: في الجن: ٤ ﴿شَطَطًا﴾، وفي الكهف: ١٤ ﴿شَطَطًا﴾. د) لم تذكر لفظة ﴿مُلْتَحَدًا﴾ إلا في هاتين السورتين: في الجن: ٢٢، وفي الكهف: ٢٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. هـ) ولا يخفى ذكر الكتاب غير ذي العوج في مقدمة سورة الكهف، وأن الذي دعا النفر من الجِنّ إلى الإيمان الاستماعُ إلى هذا الكتاب كما جاء في مقدّمة سورة الجن، و) ختمت السورتان ببيان كمال علم الله تعالى والدعوة إلى الإيمان بالرسول ﷺ الداعي إلى التوحيد، ولا يخفى اشتراك السورتين بفاصلة الألف.

وبرسوله ﷺ وبالقرآن الذي أنزله عليه، وهم لا يشركون بالله أحداً، وينفون عنه الصاحبة والولد، وفي ذلك دحض للباطل الذي ألحقه الإنس بالجِنّ من ادّعاء أن بينهم وبين الله تعالى نسباً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض صحة اعتقاد هؤلاء النفر من الجِنّ فيما يتعلق بقضايا عقيدية أخرى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، فهم ينفون قدرتهم على حماية الإنس من الأذى، وهم مؤمنون بالآخرة، وقد أيقنوا أنهم قد مُنعوا من أخبار السماء، وهم لا يعلمون بالغيب، وكل ذلك ينفي ـ كما لا يخفى ـ ما كان يزعمه الإنس حول الجِنّ، وقد بيّن السياق أن الجِنّ متفاوتون في قضية الإيمان، فمنهم مؤمن صالح، ومنهم كافر، وهم موقنون بعدم إعجاز الله تعالى هرباً.

ثالثاً: جاء في الخاتمة دعوة الإنس إلى الإيمان بالنبيّ ﷺ بعدما عرضت السورة موقف هؤلاء النفر من الجِنّ، فبيّنت مصير الكافر المعرض عن الإيمان: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾، ودعت إلى توحيد الله تعالى والإيمان برسوله ﷺ كما آمن أولئك النفر: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾، وقد بيّن السياق أن النبيّ ﷺ وهو رسول لا يعلم الغيب، كما أقروا بعدم علمهم الغيب أيضاً.

وكما افتتحت السورة ببيان إيمان ذلك النفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ وإقرارهم عدم معرفتهم بالغيب، ختمت السورة بدعوة الإنس إلى الإيمان بذات القضايا التي آمن بها أولئك النفر: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الجِنّ

سورة كشف زيف الباطل الذي أناطه الإنس بالجِنّ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تبرز صحة اعتقاد النفر من الجِنّ فيما يتعلق بالله تعالى:

- افتتحت السورة بذكر حادثة استماع النفر من الجِنّ لقراءة النبيّ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾.
- وبيّنت أنهم مؤمنون موحّدون: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.
- وهم ينفون عن الله تعالى الصاحبة والولد: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٤)

بيان صحة اعتقادهم في قضايا عقدية أخرى:

- بيّن السياق أن هؤلاء النفر من الجن ينفون عن أنفسهم القدرة على حماية الإنس من المخاوف: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.
- وبيّن أنهم موقنون بأنهم قد مُنِعوا من أخبار السماء: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.
- وأنهم لا يعلمون الغيب: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.
- هذا ينفي ما كان يزعمه الإنس حول الجِنّ من الاعتقادات الباطلة والقدرات الخارقة.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٥ - ٢٨)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- دعت الخاتمة الإنس إلى التوحيد والإيمان بالنبيّ ﷺ كما آمن هؤلاء النفر من الجِنّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان إيمان ذلك النفر من الجِنّ بالله ورسوله ﷺ وبيّنت عدم معرفتهم بالغيب، ختمت بدعوة الإنس إلى الإيمان بالقضايا ذاتها كما آمن ذلك النفر: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝٢٨﴾.

سورة المُزمّل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «المزمِّل: أصله المتزمّل، والتاء تدغم في الزاي لقربها منها، يقال: تزمَّل فلان، إذا تلفّف بثيابه»[(١)]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حالة النبيّ ﷺ في فترة الوحي أول البعثة، حينما رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فأسرع إلى بيته ﷺ ودخل على خديجة رضي الله عنها قائلاً: «زَمِّلوني زَمِّلوني، فَدَثِّروني»[(٢)]. فاسم السورة يدل على أمر النبيّ ﷺ بعدم الخوف الذي يدعوه إلى التزمّل، والاستعانة على أداء واجبات الدعوة بصلاة قيام الليل.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن تسمية هذه السورة بـ «المزمل» يدل على أن تكليف حمل أمانة الدعوة ثقيل، ويحتاج لجهاد طويل، فلم يعد هناك نوم، ومما يعين على حمل أمانة هذه الدعوة قيام الليل والتوجّه الخالص إلى الله تعالى، لأن الاجتهاد في خدمة الله دال على غاية المحبة[(٣)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تهيئة النبيّ ﷺ لتحمّل أعباء الدعوة بالكدّ والاجتهاد وترك الراحة والاستعانة على ذلك بصلاة قيام الليل،

---

(١) ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٧، ص ٥٨.

(٢) الحادثة المذكورة أخرجها الإمام البخاري رحمه الله في **الصحيح**، كتاب تفسير القرآن، برقم: ٤٩٢٥، ومسلم في **الصحيح**، كتاب بدء الوحي، برقم: ٣٢٨.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٧١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٠٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٤٢، ٣٧٤٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٢٥٤، وأ. د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ٤٢٥، ٤٢٦، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣١٤- ٣١٦.

مع بيان مصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا ودَعَتها على تحمّل تكاليف الإيمان، فاسم السورة ـ الذي يدعو النبيّ ﷺ إلى ترك التزمّل ـ يدل على هذا المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الاستعانة على تكاليف الإيمان بقيام الليل**.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي تهيئة للنبيّ ﷺ لتحمّل أعباء الدعوة والاستعانة بصلاة الليل، ثم بيان لمصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا على تحمّل تكاليف الإيمان، ثم خاتمة مؤكّدة للمحور المذكور[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة أمر النبيّ ﷺ بعدم التزمّل الذي يدعوه إليه الخوف في بداية الوحي من القيام بمهمة الدعوة، ويأمره بالاستعانة بقيام الليل والتوكّل على الله ليعينه على أداء مهمته ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ② نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ③ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ⑥ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ⑦ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ⑧ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ⑨ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ⑩﴾، ولاحظ اختصاص قيام الليل

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، وبيان مصير الكافرين: ١١- ١٩، والخاتمة: ٢٠، ومن لطائف هذه السورة: أنها اختصت بعبارات وألفاظ لم تذكر في موضع آخر من القرآن، وهي عبارات وألفاظ متلائمة مع الأمر بالاجتهاد للقيام بتكاليف الدعوة، ومع بيان حال الكافرين، وإليك تفصيل ذلك: أولاً: من هذه العبارات والألفاظ ما هو متعلق بسيدنا محمد ﷺ: أ) لم يرد فعل الأمر بصيغة المفرد «قم» إلا في هذه السورة وجارتها «المدثر»، ب) لم يوصف القرآن بـ ﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ إلا في هذه السورة، ج) كذلك وصف قيام الليل بعبارة ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾، د) ووصف الدعوة إلى الله في النهار بـ ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، هـ) لم تذكر مشتقات الجذر «بتل» إلا في هذه السورة، وقد جاءت بصيغة التشديد والمصدر ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾، وثانياً: من العبارات والألفاظ ما هو متعلق بالكافرين المؤثِرين راحة الدنيا على تكاليف الإيمان: أ) وصفهم بـ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ لم يذكر إلا هنا، ب) وكذلك وصف عذاب طعام جهنم بـ ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾، ج) ووصف عذاب فرعون بـ ﴿أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، د) ووصف حال الجبال يوم القيامة بـ ﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾، هـ) ووصف يوم القيامة بـ ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، وقد أشار سيد قطب رحمه الله إشارة سريعة إلى تناسق الألفاظ الدالة على الشدة مع جلال التكليف وجدية الأمر، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٤٣. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بالذكر، وهو متلائم مع ترك التزمّل والاجتهاد في الطاعة، ولاحظ أن الأمر في المقدّمة كان بقيام الليل كله إلا قليلاً، لأن في ذلك زيادة في التناسق مع دلالة اسم السورة، وسيأتي في الخاتمة تخفيفٌ متعلق بهذا الأمر، ولاحظ ذكر الإكثار من ذكر الله والتبتل إليه والتوكل عليه وحده، وهي أوامر كما ترى متلائمة مع المحور الدال على تهيئة النبيّ ﷺ لأداء تكاليف رسالته، ومتلائمة مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بيان مصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا على القيام بتكاليف الإيمان: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾، ولاحظ وصف الكافرين بأولي النعمة، وهو وصف دال على إيثارهم الراحة، وما من شك أن التخويف بذكر يوم القيامة متناسق مع الدعوة إلى القيام بتكاليف الدعوة، حتى لا يقع المؤمن في عذاب ذلك اليوم، ولاحظ ذكر فرعون الذي ادّعى الإلهية، وهو في الوقت ذاته آثر راحة الدنيا ودَعَتها على الإيمان بموسى عليه السلام، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، ثم أعاد السياق ذكر التخويف بيوم القيامة وأهواله، ليكون ذلك أدعى في حَثّ الناس على القيام بتكاليف الإيمان، لئلا يقعوا في عذاب ذلك اليوم الشاق.

إذاً فالتخويف بعذاب يوم القيامة، وعرض مصير فرعون، متلائمان مع دلالة اسم السورة الداعي إلى الاجتهاد في القيام بتكاليف الإيمان، وبيان مصير من آثر الراحة على تكاليف الإيمان.

ثالثاً: ثم جاء في الخاتمة التخفيف على النبيّ ﷺ ومن آمن معه فيما يتعلق بقيام الليل، فأمرهم بقراءة ما تيسّر من القرآن في قيام الليل، وذلك لعلمه سبحانه بأصحاب الأعذار من المرضى ومن يضرب في الأرض ابتغاءً للرزق وللجهاد في سبيل الله، وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بترك الراحة، وأمرته بقيام الليل والاجتهاد في القيام بتكاليف الدعوة، وذكر ربّه والتوكل عليه، ختمت أيضاً بأمر النبيّ ﷺ والمؤمنين معه بالاستعانة بقيام الليل والاجتهاد بالقيام بتكاليف الإيمان من صلاة وزكاة واستغفار: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (بعض الآية: ٢٠)، وهكذا التقى البدء والختام على محور الاجتهاد في القيام بتكاليف الإيمان والاستعانة بصلاة قيام الليل، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة.



سورة المزمل

سورة الدعوة إلى الاستعانة بقيام الليل على تكاليف الإيمان

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تدعو النبيّ ﷺ إلى الاستعانة بقيام الليل على أعباء الدعوة:

- افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بترك التزمّل الذي يدعوه إليه الخوف من القيام بمهمة الدعوة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.
- وأمرته بالاستعانة أيضاً بالإكثار من ذكر الله والتبتُّل إليه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.
- وأمرته بالصبر على مشاقّ الدعوة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-١٩)

بيان مصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا على تحمّل تكاليف الإيمان:

- ثم انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين، وبيّن أنهم آثروا نعيم الدنيا على الإيمان بالله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾.
- وبيّن أنهم يستحقّون العذاب يوم القيامة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ فهم لإيثارهم راحة الدنيا على الإيمان، استحقّوا العذاب الشاقّ الدائم في القيامة.
- وأكدّ السياق استحقاق الكافرين للهلاك بعرض أنموذج كفر سابق آثر راحة ونعيمها على تحمّل تكاليف الإيمان: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾.

الموضوع الثالث: (الآية ٢٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- خففت عن النبيّ ﷺ وعن أمته فيما يتعلق بقيام الليل، فأمرت بقراءة ما تيسّر من القرآن في قيام الليل، رحمة بالمرضى والمهاجرين في الأرض ابتغاء الرزق والجهاد.
- وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بترك الراحة والاستعانة بقيام الليل على تكاليف الدعوة، ختمت بالأمر ذاته مع الدعوة لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاستغفار: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

سورة المُدَّثِّر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ① قُمۡ فَأَنذِرۡ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ④ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ⑤ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ⑦﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «الدثار: الثوب الذي يستدفأ به . . يقال: تدثّر فلان بالدثار تدثّراً وادّثر ادّثاراً، فهو مُدّثر، والأصل: متدثر، أدغمت التاء في الدال وشدّدت»[١]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود أيضاً إلى وصف حالة النبيّ ﷺ في فترة الوحي أول البعثة، حينما رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فأسرع إلى بيته وقال لخديجة رضي الله عنها «زَمّلوني زملوني، فَدَثّروني»[٢]، فاسم السورة يدل على أمر النبيّ ﷺ بعدم الخوف الذي يدعوه إلى التدثّر، والنهوض إلى القيام بمهمته وإنذار قومه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة دعوة النبيّ ﷺ إلى الجدّ والاجتهاد والتشمير وحمل النفس على النهوض بالتبعة الكبرى، ومواجهة قريش بالدعوة والإنذار جهاراً وكافة، وهو أمر سيترتّب عليه مشاقّ كثيرة متنوّعة بحاجة إلى استعداد كافٍ[٣].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تهيئة النبيّ ﷺ للاجتهاد والاستعداد لإنذار قومه بالقرآن وما فيه من الترهيب بالآخرة وأهوالها، مع بيان

---

(١) ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٥، ص ٢١٦، بتصرف.

(٢) سبق تخريج الحادثة المذكورة في سورة المزمل السابقة.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٧٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٢٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٥٢، ٣٧٥٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٢٩٣، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٤٥٠ ، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣١٧- ٣٢٠.

مصير المكذّبين بالقرآن وبيوم القيامة، فاسم السورة ـ الذي يدعو النبيّ ﷺ إلى ترك التدثّر ـ يدل على هذا المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الاجتهاد بالإنذار بالقرآن والآخرة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تدعو النبيّ ﷺ إلى الاجتهاد في إنذار قومه والصبر على ذلك، ثم بيان مصير المكذبين بالقرآن العظيم يوم القيامة، وخاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٧، وبيان مصير المكذّبين: ٨- ٤٨، والخاتمة: ٤٩- ٥٦. ومن لطائف هذه السورة: أنها كسابقتها امتازت بألفاظ وعبارات لم تذكر في موضع آخر من القرآن متلائمة مع الأمر بالاجتهاد للقيام بتكاليف الدعوة، ومع بيان حال الكافرين، وإليك تفصيل ذلك: أولاً: من هذه الألفاظ والعبارات ما هو متعلّق به ﷺ: أ) فعل الأمر «قم» هنا وفي المزمّل فقط، ب) و﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، ج) و﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، د) و﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ هنا فقط، أما ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فقد جاء قريب منه في سورة الإسراء: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾، وأما ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ فقد أُمر ﷺ بالصبر في مواضع متعدّدة لكن ليس بهذه الصيغة، ثانياً: ومن هذه الألفاظ والعبارات ما هو متعلق بالكافرين بالقرآن العظيم وبالآخرة: أ) لم يعبّر عن النفخ في الصور بعبارة ﴿نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ إلا هنا، ب) وصفُ يوم القيامة بأنه ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة الفرقان: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾، ج) وصفُ عذاب الكافر بالقرآن بعبارة ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ وبعبارة ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، د) لم يذكر اسم «سقر» إلا هنا ثلاث مرات مع ذكر عدّتها من الملائكة: ٢٦، ٢٧، ٤٢، وفي سورة القمر مرة واحدة: ٤٨، ولا يخفى اشتراك السورتين بفاصلة الراء، هذا وقد اشتركت سورتا المزمّل والمدثّر في أحد جوانب المحور الخاص لكل منهما، وقد أشار الأستاذ بسام جرار إلى الفرق بين محور السورتين لدى مراجعته لكتاب من **دلالات أسماء السور**، فقال: «في المزمّل طلب القيام لبناء النفس، وفي المدثر طلب القيام لواجب الدعوة إلى الله تعالى»، ينظر: ص ٣٢٠، وإليك بعض مظاهر التناسق بين السورتين: أولاً: ابتدأت السورتان بنداءٍ للنبيّ ﷺ وأتبعت بذلك بفعل الأمر «قم»، ثانياً: في أول سورة المزمّل أُمر النبيّ ﷺ بصلاة قيام الليل، وكذلك في آخرها أُمر هو ومن معه بالصلاة والزكاة والنفقة، وقد كان أول اعتراف للمجرمين المعذّبين في سقر كما تذكر سورة المدثّر أنهم لم يكونوا من المصلّين ولم يكونوا يطعمون المسكين، ثالثاً: انظر قوله تعالى في سورة المزمّل ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾: ١٧، وانظر في سورة المدثّر: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾: ٥٣، رابعاً: وصف حال الكافرين في سورة المزمّل بـ ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾: ١١، وانظر قوله تعالى في سورة المدثّر: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾: ١٢و١٣، خامساً: وصف القرآن بـ (التذكرة) جاء في سورة المزمّل مرة واحدة: ١٩، وفي سورة المدثّر مرتين: ٤٩، ٥٤، ولم تذكر هذه اللفظة مرتين في سورة أخرى غير المدثّر، سادساً: انظر في سورة المزمّل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة أمر للنبيّ ﷺ بالقيام والاجتهاد في إنذار قومه، والاستعداد لما يتطلبه ذلك من تطهير النفس وتزكيتها، والصبر على القوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ⑦﴾، فهو ﷺ مأمور بأن يصدع بدعوة التوحيد واتخاذ الله الكبير إلهاً فقط، فليس دونه آلهة سبحانه، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وهو إما أن يدل كناية عن تطهير النفس وتزكيتها، أو أن يدل حقيقة على تطهير الثياب للصلاة، وعلى الاعتبارين فهو متناسق مع دلالة اسم السورة، وهو ﷺ مأمور بترك ما يستقبح من عادات الجاهليين الباطلة، وأن يترك أجر دعوته على الله تعالى فيجازيه كيف يشاء من فضله، وأن يصبر ابتغاء وجه ربّه سبحانه، فأنت تلاحظ أن المقدّمة تهيّئ النبيّ ﷺ للاستعداد التامّ لإنذار قومه بما أوحاه الله إليه، ولا يخفى تناسق ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان مصير المكذّبين بالقرآن العظيم وبالآخرة: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ⑧ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪﴾، ولاحظ التعبير عن النفخ في الصور بالنقر في الناقور، وهو متناسق مع الأمر «قم»، ولاحظ أن السياق خصّص عرض مصير الكافر بآيات الله في ذلك اليوم ليكتمل التناسق مع المحور المذكور ودلالة اسم السورة: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ⑯ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ⑰ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ㉕ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ㉖﴾، ولاحظ التفصيل في عرض موقفه من القرآن، فهو متردّد في اتخاذ وصفٍ له، وبمناسبة الحديث عن الإنذار بما في الآخرة من عذاب لأمثال هذا الكافر بآيات الله، فصّل السياق في وصف سَقَر وعدّتها من الملائكة، ولاحظ أيضاً اختيار اسم «سَقَر» المتناسق مع الأمر «قم». وما من ريب أن حرف الاستعلاء (القاف) أبلغ في الإنذار في الألفاظ المستخدمة لهذا الغرض.

ثم عاد السياق إلى بيان أن هذا القرآن بما يحويه من الترهيب بالآخرة وعذاب النار،

= وَٱلنَّهَارِ﴾: ٢٠، وانظر في سورة المدثّر: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ㉜ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ㉝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾: ٣٢- ٣٤، وسابعاً: جاء في آخر آية من سورة المزمّل قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾، وانظر آخر آية في سورة المدثّر: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

إنما هو بمثابة نذير للبشر: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾، ولاحظ التعبير بإدبار الليل وإسفار النهار، المتناسق مع دلالة اسم السورة، فكأن السياق يبيّن للنبيّ ﷺ في هذه السورة أن مهمته إنذار قومه بهذا القرآن في النهار، بينما في سورة المزمّل كان الأمر بعبادة الله تعالى مخلصاً في الليل، ثم فصّل السياق في مصير المكذّبين بآيات الله تعالى وما فيها من الإنذار والأمر بطاعة الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، وذكر الصلاة أولاً باعتبارها أبرز مظاهر العبودية لله تعالى، وعرض موقفهم من القرآن وما ينذر به من حقائق الآخرة، فقد كانوا يخوضون مع أهل الباطل في الصَّدّ عنه واتخاذ موقف المعادي له، وكانوا يكذّبون بالآخرة، وهذا متّسق مع ما بيّنه السياق من موقف الكافر ومصيره يوم القيامة قبل قليل.

إذاً فالسياق يبيّن أن مهمّة النبيّ ﷺ الاجتهاد في إنذار قومه بهذا القرآن وما يحويه من الترهيب بحقائق الآخرة وأهوالها، ويبيّن موقف الكافرين من هذا الإنذار، وذلك متّسق مع دلالة اسم السورة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أعادت بيان أن دعوة النبيّ ﷺ بهذا القرآن إنما هي بمثابة تذكرة للبشر: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، ولاحظ وصف النبيّ ﷺ وهو ينذر قومه بهذا القرآن **بالقَسْورة**، وهي تحوي حرف القاف المتّسق مع الأمر «قم» ومع لفظة «سَقَر»، ليكون ذلك أظهر في الدلالة على المحور المذكور وأكثر تناسقاً مع اسم السورة.

وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالاجتهاد في إنذار قومه بهذا القرآن لعلهم يتذكرون، ختمت بالدعوة إلى الانتفاع بما فيه من التذكرة، فمن شاء ذكره: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور أمر النبيّ ﷺ بالاجتهاد في إنذار قومه بهذا القرآن وبالآخرة، وعرض موقف قومه منه، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة المدثر

سورة الدعوة إلى الاجتهاد بالإنذار بالقرآن والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تدعو النبيّ ﷺ إلى الاجتهاد في إنذار قومه والصبر على ذلك:

- افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بترك التدثر، والاجتهاد في الإنذار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.
- وأمرته بالاستعداد لما يتطلّبه الإنذار من تطهير النفس وتزكيتها: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.
- وأمرته بالصبر على أمر الله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٤٨)

بيان مصير المكذّبين بالقرآن والآخرة:

- ثم عرض السياق مصير المكذّبين بالآخرة: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.
- ثم بيّن موقفهم من القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾.
- وبيّن مصيره يوم القيامة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾.
- وبيّن السياق أن الذي أدخل الكافرين في سقر هو عدم إيمانهم بما أنذرهم به النبيّ ﷺ من القرآن والآخرة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٩-٥٦)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- وصفت إنذار النبيّ ﷺ قومه بالتذكرة وبيّنت موقفهم منه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾.
- وأعادت بيان عدم إيمانهم بما ينذرهم به ﷺ من الآخرة: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣﴾.
- وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالاجتهاد في الإنذار بالقرآن وما فيه من التحذير من الآخرة، ختمت بالدعوة إلى الانتفاع بما فيه من التذكرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾.

سورة القيامة

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام الأصفهاني: «قام يقوم قياماً، فهو قائم، وجمعه: قيامٌ، والقيامة: عبارة عن قيام الساعة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ (الروم: بعض الآية ١٢)، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ (المطففين: ٦)، والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة»[١]. وزاد الإمام ابن منظور: «يوم القيامة: يوم البعث، يقوم فيه الخلق بين يدي الحَيّ القيّوم، قيل: أصله مصدر: قام الخلق من قبورهم قيامة»[٢]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى القَسَم بيوم القيامة الدال على قدرة الله على بعث الناس ليقوموا بعد موتهم بين يدي الله، والقَسَم باسم السورة يدل على أن يوم القيامة أمرٌ لا مفرّ منه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها تتضمن تعظيم الله عزّ وجلّ الذي لا يتناهى ثوابه وعقابه في ذلك اليوم، وقد أكّد ذلك أنها ذكرت قيام الناس بعد الموت إلى ساحة الحساب، فاسم السورة يشير إلى العلاقة المترابطة بين النفس البشرية ويوم القيامة، وأن يوم القيامة يوم لا مفرّ منه[٣].

---

(١) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٦٩٠.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٢، ص ٢٢٩. بتصرف.

(٣) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد سور القرآن**، ص ١٢١، المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٦٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٤١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٦٦. وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٣٣٧، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ٣، ص ٤٥٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٨٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٢١.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السور هو: إثبات أن البعث ليوم القيامة أمرٌ لا مفرّ منه، من خلال بيان القدرة الإلهية على الخلق أول مرة، فالقادر على الخلق أول مرة، قادر على البعث ليوم القيامة، فاسم السورة يدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن يوم القيامة أمرٌ لا مفرّ منه.**

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بين دلالة اسم السورة وموضوعاتها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن استبعاد الإنسان المكذّب وقوع يوم القيامة مع الرَّدّ عليه، وثانيها: ذكْرُ بعض أحداث ذلك اليوم تؤكّد أنه لا مفرّ منه، وفي وسطها تثبيت لقلب النبيّ ﷺ، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاءت المقدّمة تحوي قَسَماً بذلك اليوم العظيم، وتبيّن موقف الإنسان الذي يسأل عن موعد القيامة مستبعداً وقوعها: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾، ولاحظ بيان قدرة الله على بعث الأجساد ليوم القيامة حتى لو أكلتها الأرض، وأن يجعل أصابع الإنسان خلقاً سوياً كما كانت قبل موته، ولا يخفى تناسق ذلك مع دلالة اسم السورة على أن يوم القيامة آتٍ مهما فَجَرَ الإنسان وتغافل عنه أو كذّب بوقوعه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن بعض مشاهد ذلك اليوم، واللطيف أن السياق

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ ـ ٦، وأحداث يوم القيامة: ٧ ـ ٢٥، والخاتمة: ٢٦ ـ ٤٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان قدرة الله على الخلق والبعث: أ) فقوله ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾: ٣، لم يتكرر في القرآن، ب) وكذلك قوله ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾: ٤، ج) وقوله ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾: ٣٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان أن يوم القيامة لا مفرّ منه: أ) فقوله تعالى ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾: ١٠، لم يتكرر، ب) وكذلك قوله ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾: ١١، ج) وقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾: ١٢، د) وقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾: ٣٠. وهذه السورة هي الوحيدة التي أقسم الله فيها بيوم القيامة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

عقّب على سؤال الإنسان المستبعد لوقوع ذلك اليوم بنقله إلى مشاهد ذلك اليوم بالظرف المقرون بالفاء المفيدة سرعة التعقيب: ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾، وكأن الإنسان لم يكد ينهي سؤاله إلا وقد أصبح يرى مشاهد ذلك اليوم بعينيه. وذلك فيه مزيد تأكيد على قدرة الله على البعث، ولاحظ قوله تعالى الذي يفيد أنه لا مفرّ من حقيقة البعث: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾.

وفي خلال ذكر تلك الأحداث يأتي أمر للنبيّ ﷺ بعدم التعجّل في حفظ القرآن، لأن الله قد تكفّل بحفظ القرآن في قلبه ﷺ، والعلاقة بين محور السورة وهذه التوجيهات واضح، فإن القادر على جمع عظام الإنسان بعد موته، وجعل لحسابه يوماً لا مفرّ منه، قادر على جمع القرآن في قلب النبيّ ﷺ، وإن الذي خلق الإنسان ولم يتركه سُدًى، هو الذي أقام عليه الحجة في ذلك القرآن الذي حفظه من النسيان والتحريف.

ثالثاً: وجاءت الخاتمة لتؤكّد ما سبق، فتحدّثت عن حالة احتضار الإنسان للموت، وأنه لن يمنع حينئذ من خروج الروح مانع، واللطيف أيضاً أن السياق قد عقب على تلك الحالة بذكر مشهد سَوْق الناس إلى ربّهم في يوم القيامة، وكأن الإنسان بمجرّد موته قد أصبح من أهل تلك المشاهد الأخروية: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾، وهذا فيه مزيد تأكيد على قدرة الله على بعث الناس للقيامة كما لا يخفى.

فالخاتمة ذكّرت الإنسان بأصله وأنه لن يترك سُدًى، وأثبتت أن الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من النطفة، هو القادر على أن يحييهم ليوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. وهكذا يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، فكما افتتحت السورة ببيان أن الله قادر على بعث الناس ليوم القيامة بعد موتهم، ختمت بتأكيد قدرة الله على ذلك ببيان أنه هو الذي خلق الناس أول مرة، فهو المبدئ المعيد سبحانه، وهذا ما دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة القيامة

سورة بيان أن يوم القيامة لا مَفرّ منه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تبيّن استبعاد الإنسان المكذّب وقوع يوم القيامة مع الرّدّ عليه:

■ افتتحت السورة ببيان قدرة الله على بعث الناس يوم القيامة، كما هو قادر على خلقهم أول مرة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٥)

عرض لبعض أحداث يوم القيامة تؤكّد أنه لا مفرّ منه:

■ ثم ردّ السياق على المكذّب المستبعد وقوع القيامة: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠﴾.

■ وبيّن أنه لا مفرّ من ذلك اليوم: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾.

■ وبيّن السياق أن الله القادر على جمع الناس ليوم القيامة قادر على جمع القرآن في قلب النبيّ ﷺ، وأن الله خلق الإنسان ولم يتركه سُدًى، قادر على حفظ كتابه من التحريف: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾.

■ ولكي يؤكّد السياق قدرة الله على جمع الناس ليوم القيامة الذي لا مفرّ منه، عرض مصير المؤمنين ومصير الكافرين في ذلك اليوم: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ۝٢٥﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٦-٤٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أكّدت قدرة الله على بعث الناس ليوم القيامة، ببيان أنه تعالى جعل الموت أمراً لا مفرّ منه، كذلك القيامة أمر لا مفرّ منه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

■ وأعادت التأكيد على أن الله لن يترك الإنسان سُدًى، بل سيبعثه ليوم القيامة ويجازيه بأعماله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الله قادر على بعث الناس بعد موتهم، ختمت بتأكيد ذلك ببيان أنه الذي خلقهم أول مرة فهو المبدئ المعيد سبحانه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

سورة الإنسان

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيانها أن الله تعالى هو خالق الإنسان إذ لم يكن شيئاً مذكوراً، فخلقه الله من نطفة أمشاج، وجعل له السمع والبصر، وبيّن له سبيل الهداية والإيمان والشكر من سبيل الضلال والجحود والكفر، ثم بيّنت مصير الفريق يوم القيامة، فاسم السورة يدل على أن المفترض من الإنسان أن يكون مؤمناً شاكراً لربّه لينال النعيم الخالد يوم القيامة، لا أن يكون كفوراً جاحداً فيستحقّ العذاب الخالد يوم القيامة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها بمثابة هتاف نديّ إلى الطاعة والالتجاء إلى الله وابتغاء رضاه، وتذكّر نعمته والإحساس بفضله واتقاء عذابه، وذلك بحديثها عن أصل الإنسان وبيان مصيره الذي يختاره، وبترغيبها بطريق الجنة وتحذيرها من طريق النار، وختمها ببيان عاقبة البلاء لهذا الإنسان، فاسم السورة يشعر أن الحكمة أن يؤول الإنسان إلى مآل أهل الشكر، لا لمآل أهل الكفر، فمن أراد أن يكون شيئاً مذكوراً، فليكن شاكراً لا كفوراً[1].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٧٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٥٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٧٧- ٣٧٧٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٣٧١، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٥٠٧، ٥٠٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٤٩١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٢٤- ٣٢٦.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: دعوة الإنسان إلى الإيمان والعمل الصالح لنيل الأجر العظيم الدائم حين بَعْث الإنسان للحساب يوم القيامة، وهو اليوم الذي يتلهّى عنه الإنسان الكافر مع علمه بقدرة الله عليه، فهو الذي خلق الإنسان أول مرة إذ لم يكن شيئاً، ولما كان في تسمية السورة بـ «الإنسان» دلالة على الفريقين من «الإنسان» المؤمن منه والكافر، ودلالة على ما يجب على الإنسان من الإيمان والعمل الصالح كونه مخلوقاً لله، سُمّيت بهذا الاسم للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة دعوة الإنسان إلى القيام بما يجب عليه من العمل الصالح، ليكون مآله مآل أهل الإيمان والشكر، لا مآل أهل الجحود والكفر.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولاً: مقدّمة تثبت قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه وجزائه، ثانياً: التفصيل في عرض أعمال المؤمنين الشاكرين وجزائهم يوم القيامة للترغيب فيه، ثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة إثبات لقدرة الله تعالى على الخلق والبعث، وبيّنت بإيجاز مصير الإنسان الكافر والإنسان المؤمن: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٦، وعرض مصير الفريقين: ٧- ٢٢، والخاتمة: ٢٣- ٣١، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً منها أمور تثبت قدرة الله على الخلق: أ) فوصف الإنسان بقوله تعالى ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ذكر هنا فقط: ١، ب) وصف النطفة بـ «الأمشاج» ذكر هنا فقط: ٢، ثانياً: ومنها أمور تؤكّد قدرته على البعث من خلال بيان مصير الإنسان الكافر: أ) فقوله ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾: ٤، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الرعد: ٥، وسبأ: ٣٣، ويس: ٨، وغافر: ٧١، ب) قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: ٢٧، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه جداً في سورة القيامة: ٢٠، وقريب منه في سورة الإسراء: ١٨، وأما قوله ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: ٢٧، فلم يذكر إلا هنا، ثالثاً: ومنها أمور تؤكّد قدرته على البعث من خلال جزاء الإنسان المؤمن: أ) فقوله تعالى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾: ٧، ذكر هنا فقط، ب) وهي الوحيدة التي تكررت فيها «الفضة» لوصف النعيم: ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾: ١٥، ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾: ١٦، ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾: ٢١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾، فكما أن الله قادر على خلق الإنسان وقد كان عدماً، فهو قادر على بعثه وجزائه، وقد ابتدأت السورة بعرض مصير الكافرين؛ لأنهم المخاطبون بالمقام الأول حين نزول هذه السورة المكية، وعرض مصير الفريقين دال بلا شكّ على قدرته تعالى على البعث والحساب.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تفصيل لعرض الأعمال الصالحة التي يقوم بها الأبرار، حتى استحقّوا الجزاء العظيم يوم القيامة: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾، فهم لإيمانهم باليوم الآخر وما فيه من الأهوال، يكثرون من الأعمال الصالحة بنية خالصة لله لينالوا الأجر في ذلك اليوم، وما من شكّ أن عرض أعمالهم وجزائهم يؤكّد المحور المذكور، ثم إن اختصاص أعمال المؤمنين بالتفصيل في العرض دون الكافرين يؤكّد دلالة اسم السورة على أن هذا الموقف هو ما يجب أن يكون عليه الإنسان.

وقد أكّد السياق أن هذا الجزاء الذي هيّأه الله للمؤمنين هو الذي ينبغي أ ن يسعى له الإنسان: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى الإكثار من العمل الصالح لنيل الأجر في اليوم الآخر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، وأعتقد أن اختصاص الذكر وقيام الليل بالعرض متلائم مع ما بيّنه السياق من أن الأبرار يعملون أعمالهم لوجه الله، فالذكر وقيام الليل أبعد الأعمال عن الرياء. وهذا يؤكّد أن على الإنسان أن يعمل الأعمال الصالحة وبنيّة صالحة.

وكما افتتحت السورة بذكر قدرة الله تعالى على الخلق والبعث والجزاء وذكر مصير

الفريقين يوم القيامة، ختمت بالتأكيد على القدرة على الخلق والبعث وذكر مصير الفريقين، مع الدعوة إلى عدم التلهّي بالدنيا عن الأعمال الصالحة التي تكون رصيداً يوم القيامة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الإنسان

سورة دعوة الإنسان إلى القيام بما يجب عليه من العمل الصالح، ليكون مآله مآل أهل الإيمان والشكر لا مآل أهل الجحود والكفر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تثبت قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه وجزائه:

- افتتحت السورة بسؤال استنكاري يثبت قدرة الله على خلق الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.
- ثم بيّنت أن الله أعطى الإنسان عقلاً يستطيع أن يختار به طريق الإيمان والشكر، أو طريق الجحود والكفر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.
- وعرضت بإيجاز مصير الكافرين: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾.
- وعرضت بإيجاز مصير المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٢)

التفصيل في عرض أعمال المؤمنين وجزائهم يوم القيامة للترغيب فيه:

- ثم حثّ السياق على الإيمان والعمل الصالح لينال «الإنسان» الجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.
- ثم فصّل السياق في عرض جزائهم في ذلك اليوم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.
- وأكّد السياق أن هذا الجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين، هو الجزاء الذي ينبغي على «الإنسان» أن يسعى إليه بالعمل الصالح: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٣-٣١)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت الدعوة إلى الإكثار من العمل الصالح لنَيْل الأجر في الآخرة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.
- وحذّرت من أن يكون موقف الإنسان موقف الجحود والكفر: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.
- وكما افتتحت السورة بذكر قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه، وبيّنت مصير الإنسان المؤمن والإنسان الكافر، ختمت بالدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح مع بيان مصير الفريقين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

سورة المرسلات

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الراء والسين واللام: أصل واحد مطّرد منقاس، يدلّ على الانبعاث والامتداد»[(١)]، وقد زاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «والإرسال يكون في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتسخير كإرسال الريح والمطر»[(٢)]، فاستخدام صيغة اسم المفعول لوصف الرياح المرسلة يعطي دلالة كمال الانقياد والطاعة لمرسلها سبحانه، وأما الدلالة السياقية فتدلّ على وصف الرياح التي يرسلها الله تعالى بأمره حيثما يشاء وكيفما يشاء، فيجعلها سبباً من أسباب رزق العباد بما تسوقه من السحب المحمّلة بالغيث، فيحيي به الأرض بعد موتها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المحور الذي تدور حوله هذه السورة هو إثبات اليوم الآخر من خلال بيان ما له تعالى من القدرة على إنبات النبات، وإنشاء الأقوات، فالسورة تسهم في تصحيح موازين القِيَم في حياة الناس، وبخاصة فيما يتعلق بالاعتقاد باليوم الآخر الذي هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، وهو أيضاً حجر الأساس في تصورّ الحياة الإنسانية، فاسمها «المرسلات» إن كان يدل على تتابع إرسال الملائكة بمهامّهم الخاصة بهم، يدل على تتابع أحداث يوم القيامة ومواقفه المذهلة، وإن كان الاسم يدل على الرياح المرسلة

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٤٠٢.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٣٥٣. وهو يرى أن المرسلات هي الملائكة لا الرياح.

فهو يدل على بيان قدرة الله من إنبات النبات وإنشاء الأقوات[١].

ولكني أعتقد أن الوجه الثاني لتفسير «المرسلات» أقرب للصواب، ويمكن تلخيص محور السورة بالقول بأنه: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة والبعث، ولما كانت الرياح التي تسوق السحاب الذي فيه الغيث لإحياء الأرض بعد موتها أدل ما في السورة على تلك المظاهر، اشتُقّ من إرسال الله تعالى لها حيث يشاء اسم السورة ليدل على المحور المذكور. وسأبيّن أسباب ترجيح أن يكون اسم السورة وصفاً للرياح لا الملائكة بعد قليل إن شاء الله. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان مظاهر قدرته تعالى على الإحياء والإماتة في الدنيا، الدالة على قدرته على البعث لليوم الآخر**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي قسماً على أن اليوم الآخر واقع لا محالة، ثم عرض لمشاهد وأهوال من يوم القيامة تبرز مصير الكافرين والمؤمنين في ذلك اليوم، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[٢].

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٨٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٨١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٧٨٩- ٣٧٩٠، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٢٩، ص ٤١٩، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٨، ص ٥٣٧. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٤٩٣- ٤٩٥، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، ومشاهد اليوم الآخر: ٨- ٤٤، والخاتمة: ٤٥- ٥٠. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدة أمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، أولاً: تكرار عبارة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، وهي عبارة فيها إنكار ووعيد على منكري الآخرة، ثانياً: هي السورة الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها وصف يوم القيامة بـ ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، وذلك ثلاث مرات: ١٣، ١٤، ٣٨، بينما ذكر هذا الوصف مرة واحدة في كل من السور التالية: الصافات: ٢١، والدخان: ٤٠، والنبأ: ١٧، ثالثاً: لم تذكر عبارة ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ في سياق بيان أهوال يوم القيامة إلا هنا: ٨، وكذلك عبارة ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾: ٩، وعبارة ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾: ١٠، وقريب منها في سورة طه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾: ١٠٥، رابعاً: لم توصف الأرض بكونها ﴿كِفَاتًا﴾ إلا هنا: ٢٥، بمعنى: جامعةً البشرَ من أحياء وأموات، وذلك في سياق الدلالة على قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، وكذلك وصف أصل خلق الإنسان بـ ﴿مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾: ٢٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أولاً: جاء في المقدّمة قَسَم بآيات الله الكونية وآياته المتلوّة المتمثّلة بوحيه إلى الأنبياء على أن يوم القيامة واقع لا محالة: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾، وأعتقد أن الآيات الأربع الأولى تشير إلى دور الرياح في تجميع السحاب أو نشره وتفريقه حسب إرادة الله تعالى، فالرياح يرسلها الله متتابعة ويجعلها تعصف بالسحاب حتى تجمعه فيتراكم وينزل الغيث حيثما أراد الله، كما أنها تقوم بنشر السحاب وتفريقه في بقاع الأرض حسب إرادته سبحانه، ولاحظ وصف الرياح بالمرسلات، بصيغة اسم المفعول الدالة على أنها خالية من الإرادة، بل هي تسير وفق ما أراد مُرسِلها سبحانه ابتداءً، ثم أسند إليها الأفعال الثلاثة: العصف والنشر والفرق، على طريقة المجاز العقلي ـ إسناد الفعل إلى غير فاعله ـ فالله تعالى يرسلها ثم كأنه يجعل لها دوراً في باقي الأفعال، وكلٌّ حسبَ إرادته.

فإرسال الرياح لتجميع السحب ومن ثَمَّ نزول الغيث يمثّل أعظم مظاهر الآيات الكونية التي يراها الناس عياناً كل يوم على قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، فكما يحيي البلاد الميتة بالغيث فتخرج النبات، كذلك هو قادر على إحياء الموتى، ويشهد لهذا التفسير الإشارة في هذه السورة إلى الأرض وما فيها من الماء الفرات الذي يسقي الله به الناس، ثم إن آية الرياح وما ينتج عنها من حياة للبشر يراها الناس بشكل يومي، أشدّ ترابطاً مع دلالة قوله ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ المتكرر عشر مرات في هذه السورة، من آيات الوحي الذي تلقيه الملائكة على الأنبياء والرسل، والله أعلم. ولذلك أرجّح أن يكون اسم السورة «المرسلات» مشيراً إلى الرياح لا الملائكة.

أما الآيتان الخامسة والسادسة فهي تشير إلى دور الملائكة في إلقاء الوحي على الأنبياء والرسل، ليكون في ذلك إعذار من الله تعالى للناس وإنذار لهم. وهكذا اجتمعت الآيات الكونية مع آيات الوحي للقَسَم على أن يوم القيامة واقع لا محالة. فالآيات الأربع الأولى تدل على دور الرياح، والآيتان الخامسة والسادسة تدلان على الملائكة، والله أعلم.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض بعض أهوال يوم القيامة الذي يكذّب به المكذّبون: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ

أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾، ولاحظ ذكر طمس النجوم، وأعتقد أنه متلائم مع حجب السحب التي تجمعها الرياح لنور النجوم أحياناً، وكذا انفراج السماء متلائم مع فرق الرياح للسحب، وذكر نسف الجبال متلائم مع دورها في زيادة نسبة تدفّق مياه الأنهار بسبب ذوبان الجليد على قمم الجبال[١]. فالسورة تستشهد على أهوال يوم القيامة بآيات يراها الناس عياناً في حياتهم، ليكون ذلك أدعى لهم للإيمان بذلك اليوم. ولا يخفى ترابطها مع دلالة اسم السورة.

وقد قرّر السياق حقيقة قدرة الله تعالى على بعث البشر للحساب، فكما أهلك المكذّبين الأوائل وسيُتْبعهم بالمكذّبين الأواخر، فكذلك هو قادر على بعث الجميع، وقد أكّد السياق هذا المعنى أيضاً من خلال التذكير بأصل البشر: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ولاحظ وصف الماء بالمهين، ليكون ذلك أدلّ على كمال قدرة الله تعالى، فكما خلق الله تعالى البشر من هذا الماء المهين وقد كانوا عدماً، كذلك هو قادر على بعثهم بعد موتهم.

ثم أعاد السياق التذكير بآيات كونية يراها الناس يومياً في حياتهم، وهي متلائمة مع دور الرياح المرسلة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾، فقد جعل الله تعالى الأرض جامعة لبني البشر جميعاً، فالأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، وذلك يدل على قدرته على البعث بلا شكّ، ولاحظ ذكر الجبال الرواسي الشامخات، ومعلوم أن لها دوراً في توفير الماء الفرات إذ تعتبر الجبال مستودعات للمياه لأن الغيث ينزل عليها أكثر من أيّ بقعة ثانية في الأرض. ثم إن ذوبان الجليد الذي يكون في قممها من أهمّ روافد مياه الأنهار[٢]، وقد ذكرتُ تلاؤم ذكر الجبال مع أهوال يوم القيامة المذكورة أول السورة.

ومن اللطيف أن من الأهوال المذكورة يوم القيامة أن الله سيجعل للمكذّبين ظلّاً ذا

---

(١) ينظر: أ.د زغلول النجار، **الأرض في القرآن الكريم**، ص ٢٥٧. وأ.د محمد راتب النابلسي، **آيات الله في الأفاق**، ص ١٤٢.

(٢) ينظر: المرجعان السابقان في الصفحة المشار إليها في كليهما.

ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب، وأعتقد أن ذكر ذلك متلائم مع ما ينتج عن تجمع السحب التي تسوقها الرياح من الظِّلّ، فالسورة كما ترى تستشهد على أهوال يوم القيامة بآيات يراها الناس بشكل يومي. فكما أنه قادر على خلق الظِّلّ في الحياة الدنيا ليستظلّ به الناس من الحَرّ، قادر على جعل الظِّلّ يوم القيامة لا يغني من حَرّ جهنم شيئاً.

وكما ذكرت السورة مصير المكذّبين، ذكرت مصير المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾، ولاحظ ذكر كونهم في الظلال، لكنها ظلال حقيقية تحقّق لهم الرفاهية التامّة، ولا يخفى تلاؤم ذلك مع الظِّلّ الناتج عن تجمّع السحب، ولاحظ أنهم مأمورون بالأكل والشرب ليتحقّق لهم الهناء، وأعتقد أن ذلك متلائم مع ما ينتج عن تجمّع السحب ونزول الغيث من إخراج الأرض خيراتها من طعام وشراب. فدلالة اسم السورة كما ترى منسجم مع سياقها كلّه.

ثالثاً: وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال ما يراه الناس من آيات كونية متعلقة بالرياح المرسلة، ومن خلال الآيات التي تلقيها الملائكة على الأنبياء والمرسلين، ختمت السورة بتهديد المكذّبين بتلك الآيات بنوعَيْها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾، فالخاتمة تعيد تذكيرهم بأن طعامهم الذي يتمتّعون به إنما هو ناشئ عن نزول الغيث من السحب التي تجمّعها الرياح كما قرّرت ذلك الآيات الأربع الأولى، ودعوتهم للركوع الذي هو مظهر عبادة وشكر لله تعالى، متلائم مع الآيات التي تلقيها الملائكة على الأنبياء والرسل الداعية إلى عبادة الله وشكره كما قرّرت ذلك الآيتان الخامسة والسادسة، وبذلك التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال ما يراه الناس من مظاهر قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة المرسلات

سورة بيان مظاهر قدرته تعالى على الإحياء والإماتة في الدنيا، الدالة على قدرته على البعث لليوم الآخر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً على أن القيامة واقعة لا محالة:

- افتتحت السورة بقَسَم الله بالرياح التي يرسلها متتابعة، فيجعلها تعصف بالسحب وتنشرها وتفرقها حسب إرادته فينزل منها الغيث ليُحيي الأرض والعباد.
- وأقسم بالملائكة التي تلقي آيات الوحي على الأنبياء لتكون ذكراً للناس وإعذاراً وإنذاراً من الله تعالى.
- وجواب القَسَم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾، فالقَسَم بالرياح المرسلة وما ينتج عنها من نزول الغيث وحياة الأبدان، والقَسَم بالملائكة وما تلقيه من آيات الوحي التي بها حياة الأرواح، يدلان على أن الله قادر على الخلق والبعث ليوم القيامة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٤٤)

عرضٌ لمشاهد وأهوال من يوم القيامة تبرز مصير الكافرين ومصير المؤمنين في ذلك اليوم، ليكون في ذلك مزيد تأكيد على قدرة الله على البعث:

- ذكر السياق من أهوال ذلك اليوم انطماس النجوم، وانفراج السماء، ونسف الجبال، وتأخير الرسل إلى يوم الفصل الذي فيه الحساب.
- وقد كرّر السياق عبارة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ لزيادة الإنكار عليهم بعدما رأوا من الآيات الدالة على قدرته تعالى على البعث ما رأوا، وهم بكفرهم بقدرة الله سيتحقق لهم العذاب الخالد يوم القيامة.
- وأبرز السياق قدرته تعالى على البعث ببيان أن الله هو الذي خلق الإنسان من ماء مهين.
- وأنه هو الذي جعل الأرض كفاتاً، أحياءً وأمواتاً، وجعل فيها رواسي شامخات، وأسقى الإنسان ماءً فراتاً.
- ثم ذكر السياق مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢﴾، فهم بإيمانهم بقدرة الله تحقّق لهم الأمن والسعادة الأبديين.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٥-٥٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت النعي على المكذّبين الذين لم يؤمنوا بقدرة الله على بعثهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾.
- فطعامهم الذي يأكلونه إنما ساقه الله لهم بالرياح المرسلة التي تأتي بالسحب المحمّلة بالغيث، ولكنهم كذبوا بقدرة الله رغم ما رأوه من قدرته على إخراج طعامهم من الأرض.
- وأعادت النعي على المكذّبين الذين لم يؤمنوا بما جاء في آيات الوحي من الهدى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾.
- وبذلك تلتقي المقدّمة وما فيها من القَسَم بمظاهر قدرة الله على الإحياء والإماتة، والقَسَم بآيات الوحي على أن يوم القيامة حقّ، مع الخاتمة التي تنعي على المكذّبين بهذه الآيات بنَوْعيها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

سورة النبأ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «النون والباء والهمزة: قياسه الإتيان من مكان إلى مكان . . . ومن هذا القياس: النبأ؛ لأنه يأتي من مكان إلى مكان»[1]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظَنّ . . . وحَقّ الخبر الذي يقال فيه «نبأ» أن يتعرّى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبيّ ﷺ»[2]، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى تساؤل المكذّبين عن اليوم الآخر، مع بيان أنه نبأ من الله تعالى لا مجال لتكذيبه أو الشك فيه، وتسمية السورة «بالنبأ» يوحي كأنه ليس هناك نبأ غيره، فيوم القيامة هو النبأ الأعظم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة يدور حول حقيقة البعث بعد الموت، بذكر الأدلة على قدرة الخالق على ذلك، فيوم القيامة الذي كان المكذّبون مُجمعين على نفيه، ثابت ثباتاً لا يحتمل الشك، لأن الذي خلقهم ودبّر معيشتهم أحسن تدبير، من حكمته أن لا يترك عبيده يأكلون خيره، ويعبدون غيره، وعلى ذلك دلّ اسمها «النبأ» بما فيه من التفخيم[3].

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٠١٠، بتصرف.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٧٨٨، بتصرف.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٨٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٢٩٤، ٢٩٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٠٠- ٣٨٠٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٤٩٦، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال بيان دلالة بعض مظاهر قدرته تعالى على الخلق والبعث في الدنيا، وبيان مصير المكذّبين والمؤمنين في ذلك اليوم، ولما كان في تسمية يوم القيامة بـ «النبأ» من التفخيم والتعظيم وكأنه لا نبأ غيره، سُمَيت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تعظيم شأن يوم القيامة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تعظم شأن اليوم الآخر وتؤكّد قدرة الله تعالى عليه بعرض بعض مظاهر قدرته تعالى على الخلق والبعث في الدنيا، ثم عرض لمصير الطاغين المكذّبين، ومصير المؤمنين المتقين في ذلك اليوم، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان لقدرته تعالى على الخلق والبعث، من خلال عرض

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٦، وعرض مصير الفريقين يوم القيامة: ١٧- ٣٨، والخاتمة: ٣٩، ٤٠.
ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان قدرته تعالى على الخلق والبعث: أ) فقوله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾: ٨، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وانظر قريباً منه في سورة النحل: ٧٢، وفاطر: ١١، والشورى: ١١، ب) وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾: ٩، وانظر قريباً منه في سورة الفرقان: ٤٧، ج) وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾: ١٠، ١١، وقريب منه أيضاً في سورة الفرقان: ٤٧، د) وكذلك قوله ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾: ١٥، ١٦، وانظر قريباً منه في سورة عبس: ٢٧- ٣١، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصير المكذبين: أ) فوصف جهنم بأنها ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ هنا فقط: ٢١، وكذلك وصفها بأنها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾: ٢٢، وقريب منه في سورة ص: ٥٥، ب) وكذلك وصف جزائهم بـ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾: ٢٦، ج) ووصفهم بقوله ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾: ٢٨، إذ لم تذكر «كِذّاباً» في موضع آخر إلا في هذه السورة: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾: ٣٥، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بمصير المؤمنين: أ) فقوله ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾: ٣١، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وانظر قريباً منه في سورة الزمر: ٦١، ب) كذلك قوله ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: ٣٤، ج) وقوله ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾: ٣٦. رابعاً: بإمكانك أن تزيد أن كلمة «يوم» الدالة على القيامة ذكرت في هذه السورة خمس مرات: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾: ١٧، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾: ١٨، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾: ٣٨، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾: ٣٩، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: ٤٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بعض مظاهر قدرته تعالى التي يراها الناس يومياً في الدنيا، وفي ذلك أبلغ رد على تساؤل المكذّبين عن النبأ العظيم: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾، لاحظ السؤال التجيهلي: عَمَّ يتساءلون؟ المفيد أن يوم القيامة أمر عظيم لا يجوز التغافل عنه أو التكذيب به، ولاحظ قوله: كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون، المفيد أيضاً تعظيم شأن ذلك اليوم الذي سيعلمون حقيقة وقوعه، فسياق السورة يلفت نظر المكذّبين بيوم القيامة إلى خلق الله للأرض التي يعيشون عليها وجعْلها مهاداً، وإلى نومهم واستيقاظهم المشابه للحياة بعد الموت، وإلى خلق السماوات وما فيها، وإخراج النبات بماء السماء، وكلّها آيات تدل على قدرته تعالى على بعثهم ليوم النبأ العظيم كما هو قادر على الخلق أول مرة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير الطاغين المكذّبين، والمؤمنين المتقين لزيادة التأكيد على أن يوم القيامة نبأ عظيم لا مرية فيه، وقبل البدء بعرض مصيرهم، ذكر السياق عدداً من أهوال ذلك اليوم عظيم الشأن، إذ سيُنفخ فيه في الصور فيأتي الناس أفواجاً، وفيه تفتح السماء فتكون أبواباً، وفيه تُسيَّر الجبال فتكون سراباً، ثم ابتدأ السياق بعرض مصير المكذّبين في ذلك اليوم؛ لأنهم الأولى بالترهيب: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾، ولاحظ بيان أنهم كانوا لا يرجون حساباً لذلك اليوم، وقد دفعهم ذلك إلى التكذيب بآيات الله كذاباً، وهذا متفق تماماً مع تساؤلهم عن النبأ العظيم في المقدّمة، وبيان أن الله أحصى كل شيء كتاباً فيه دلالة على قدرته على البعث والحساب العادل.

ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المؤمنين، ليتكامل الترغيب مع الترهيب: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن

رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾، ولاحظ أن السياق يركّز على عرض مظاهر عظمة ذلك اليوم، من خلال التفصيل في عرض مصير الفريقين، وذلك يؤيّد وصف القيامة بالنبأ العظيم، ومما يؤيّد ذلك بيانُ أنه لا أحد يملك الكلام ـ فضلاً عن التصرف ـ في ذلك اليوم إلا بإذن الرحمن سبحانه.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما افتتحت السورة بتساؤل المكذّبين عن النبأ العظيم، ختمت ببيان أنه اليوم الحقّ، وبالدعوة إلى إحسان العمل؛ لأن الله سيجازي في ذلك اليوم كل امرئ بما قدّمت يداه، وكفى بذلك دلالة على قدرته تعالى على البعث لذلك اليوم العظيم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أعظم الدلالة وأفخمها شأناً.



سورة النبأ

سورة تعظيم شأن يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٦)

المقدّمة التي تعظم شأن يوم القيامة، وتؤكّد قدرة الله عليه من خلال بيان قدرته على الخلق والبعث:

■ افتتحت السورة بسؤال تجهيلي يعظم شأن يوم القيامة، ويبيّن أنه أمر لا يجوز التغافل عنه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

■ وبيّنت قدرة الله على البعث ليوم القيامة ببيان أنه هو الذي جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وهو الذي خلق الناس أزواجاً، وهو الذي يُنْزل من المعصرات ماءً ثجاجاً فأخرج به حباً ونباتاً، وجنات ألفافاً.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٣٨)

عرض مصير الطاغين المكذّبين، ومصير المؤمنين المتقين، في ذلك اليوم عظيم الشأن:

■ ثم انتقل السياق إلى الحديث عن يوم القيامة عارضاً بعض أحداثه الجسيمة: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

■ وعرضَ مصير المكذّبين الطاغين: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾.

■ وعرض مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٩-٤٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ فكما افتتحت السورة بتساؤل المكذّبين عن النبأ العظيم، ختمت ببيان أنه اليوم الحقّ، مع الدعوة إلى إحسان العمل للقاء الله في ذلك اليوم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠﴾.

سورة النازعات

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «النون والزاء والعين أصل صحيح يدلّ على قَلْع شيء»[1]، وأما الدلالة السياقية فتعود ـ على أرجح الأقوال ـ إلى وصف حال الملائكة وقت احتضار الكافر للموت، فهي تنزع روحه من جسده نزعاً بليغاً شديداً مهما تفرقت روحه في جسده، ووصف الملائكة بصيغة اسم الفاعل يدلّ على تمكُّنها من هذا الفعل.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة إثبات البعث والجزاء، والاستدلال على ذلك بأن خلق العالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق، وذكروا أن الله قد أقسم بالنازعات الدالة على نزع الملائكة للأرواح عند الموت، وجعل من هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل على إثبات قدرة الله على البعث[2].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات قدرة الله تعالى على البعث من خلال بيان بعض مهام الملائكة الكرام وقت احتضار الإنسان، وبعض

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٠٢٢.

(٢) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٠٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م٩، ص ٢١، ص ٣٨١١، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٥، ص ٢٢- ٣٠، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

مهامّهم في الآخرة، ومن خلال بيان قدرة الله على إهلاك المكذّبين وبعث الخلق كما خلقهم أول مرة، ولما كان القَسم بالملائكة التي تنزع الأرواح وقت احتضار الإنسان أدل ما في السورة على المحور المذكور، اختير ليكون اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة إثبات قدرة الله على البعث من خلال بيان بعض مهامّ الملائكة وقت احتضار الإنسان، وبعض مهامّهم في اليوم الآخر.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة مبيّنة لبعض مهامّ الملائكة وقت احتضار الإنسان وفي يوم القيامة، وثانياً: بيان لبعض مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك المكذّبين، وبعض مظاهر قدرته في خلق السماء والأرض، وثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٤، وبيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى: ١٥- ٣٣، والخاتمة: ٣٤- ٤٦.
ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: أن الآيات الخمس الأولى منها الدالة على مهامّ الملائكة وقت الاحتضار وفي يوم القيامة، لم تتكرر في القرآن، وقريب من قوله تعالى ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾: ٥، ما جاء في سورة الذاريات: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾: ٤، واستخدام لفظ التدبير مناسب لأحداث يوم القيامة كما في النازعات، واستخدام لفظ التقسيم مناسب للرزق كما في الذاريات، ثانياً: أما فيما يتعلق بأهوال يوم القيامة: أ) فقد امتازت هذه السورة بوصف النفخة الأولى بـ ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: ٦، بصيغة اسم الفاعل، وهذا الموقع الوحيد في القرآن بهذه الصيغة، وقريب منه لفظة ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ وهي تدل على العذاب الدنيوي، وقد جاءت في سورة الأعراف: ٧٨، علماً بأن رقم سورة الأعراف: ٧ ، ورقم سورة النازعات: ٧٩، وذكرت ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ أيضاً في الأعراف: ٩١، ١٥٥، والعنكبوت: ٣٧، ب) وقد وصفت النفخة الثانية أيضا في سورة النازعات بـ ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: ٧، وهي لفظة لم تذكر في موضع آخر، وقريب منها في سورة النمل: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾: ٧٢، علماً بأن رقم سورة النازعات: ٧٩، ج) وصف القلوب يوم القيامة بـ (الواجفة) لم يذكر إلا هنا: ٨، وكذلك وصف الأبصار ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾: ٩، وقريب منه ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ في سورتي القلم: ٤٣، والمعارج: ٤٤، و ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ في سورة القمر: ٧، وكذلك وصف الحياة الدنيا بـ ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ هنا فقط: ١١، ووصف العظام بـ ﴿نَّخِرَةً﴾: ١١، ووصف الأرض يوم القيامة بـ ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: ١٣، ولم توصف القيامة بـ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ إلا هنا: ٣٤، ولم تذكر هذه العبارة ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ إلا هنا: ٣٦، وفي سورة الشعراء: ٩١، ومعلوم أن للملائكة دوراً في إبراز الجحيم، ثالثاً: وأما فيما يتعلق بقصة موسى عليه السلام: أ) لم تذكر هذه العبارة ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ إلا هنا: ١٨، وكذلك=

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم بالملائكة ذات المهامّ الخاصة وقت احتضار الإنسان، والملائكة ذات المهامّ الخاصة في يوم القيامة، على أن الله قادر على بعث الناس يوم القيامة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾، فقد أقسم الله تعالى بالملائكة التي تنزع أرواح المكذّبين، والمصدر (غرقاً) يدل على الإغراق في النزع، فهم ينزعون روح الكافر مهما تفرّقت في جسمه، وأقسم تعالى بالملائكة التي تنشط روح المؤمن حين الاحتضار، فتخرج روحه بخفّة، وأقسم تعالى ـ فيما أرى ـ بالملائكة التي تَسْبح بهذه الأرواح بعد إخراجها من الجسد إلى السماء، فإما أن تُفتح أبواب السماء لروح المؤمن، حتى يكتب كتابها في عليين، ثم تعاد للجسد في القبر فينعم فيه إلى قيام الساعة، وإما أن تغلق أبواب السماء لروح الكافر، فتردُّ إلى الجسد في القبر فيعذّب فيه إلى قيام الساعة[1]، فهذه مهامّ الملائكة فيما يتعلق بموت الإنسان في الدنيا.

أما ما يتعلق بيوم القيامة فقد أقسم سبحانه بالملائكة التي تسبق بالأجساد بعد أن يبعثها الله ويَردّ فيها روحها، فتسبق الملائكة بالناس إلى أرض المحشر، ثم تسبق بأهل النار إلى النار، وبأهل الجنة إلى الجنة، ويدبّرون أمور ثوابهم أو عقابهم[2]، وأعتقد أن مغايرة حرف

= ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ هنا فقط: ٢٠، وقريب منها ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ طه: ٢٣، ولم تذكر كلمة ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ مرتين إلا في سورة النازعات وصفاً لآية موسى عليه السلام، ووصفاً للطامة، وذلك يتلاءم مع الفرية الكبرى لفرعون حينما قال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: ٢٤. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(١) جاء هذا في رواية أخرجها الإمام أحمد رحمه الله أن الملائكة تعرج بروح الكافر إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فلا يفتح له، لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ...﴾ (الأعراف: بعض الآية ٤٠)، ثم يؤمرون بردِّ روحه إلى جسده في قبره فيعذّب فيه إلى قيام الساعة، وأن الملائكة تعرج بروح المؤمن حتى تشيعه الملائكة إلى السماء السابعة، فيكتب كتابه في عليين، ثم تعاد روحه إلى جسده فينعم في قبره إلى قيام الساعة، وفي هذه الرواية تفصيل بكيفية نزع روح المؤمن وروح الكافر على نحو متلائم مع أوصاف الملائكة القابضة للأرواح المذكورة في مقدّمة هذه السورة. ينظر: **مسند الإمام أحمد**، حديث رقم: ١٧٨٠٣، وقد صححه محققه الشيخ شعيب الأرنؤوط، وجاء قريب من هذه الرواية رواية أخرى في **سنن إبي داود**، حديث رقم: ٤١٢٧.

(٢) من المفسّرين الذين قدّموا هذا الوجه من التفسير لهذه الأوصاف الخمسة: الإمامان الرازي والبيضاوي رحمهما الله ما عدا قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، فقد فسّراها بأنهم يسبحون في إخراج روح المؤمن كما يسبح الغوّاص =

العطف من الواو إلى الفاء يدل على اختلاف الدار التي تقوم بها الملائكة بهذه المهامّ.

وما من شكّ أن القَسَم بالملائكة التي تقوم بهذه المهام يدل أشدّ الدلالة على قدرة الله تعالى على بعث الموتى، ولذلك اتُّخذ من القَسَم بهذه الملائكة اسمٌ للسورة، ولاحظ أنه أقسم بـ «النازعات» وليس بـ «الناشطات» أو «السابحات» أو «السابقات» أو «المدبّرات»، لأن وصف النازعات يختصّ بحال قبض روح الكافر، وهذا أنسب لسياق السورة التي تبرز إنكار المكذّبين بقيام الساعة، ثم إن هذا الوصف يختصّ بالدنيا وليس بالآخرة كالسابقات أو المدبّرات، ولذلك كان هو الوصف الأنسب للرَّدّ على منكري الآخرة.

ثم انتقل السياق إلى ذكر بعض أهوال يوم القيامة، وبيان حالة المكذّبين في تلك الأهوال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾، وقد تكون هذه الأهوال هي المُقسَم عليه، أو أن يكون المُقسَم عليه محذوفاً ويقدّر بـ «لتبعثنّ»، ولاحظ ذكر النفختين: الراجفة والرادفة، ليكون ذلك أدل على قدرته تعالى على البعث، ولاحظ وصف حالة المكذّبين يوم القيامة، فقلوبهم واجفة خائفة، وأبصارهم خاشعة ذليلة، وذلك لأنهم كانوا يقولون في الدنيا: أئذا متنا وكنا عظاماً نخرة، سنردّ إلى الحياة مرة أخرى؟ ثم يقولون استهزاءً: إذا صحّ هذا ستكون كرَّتُنا خاسرة.

ويردّ السياق على استهزائهم ببيان أن الله تعالى قادر على بعثكم بمجرّد أن يُنْفخ في الصور نفخةٌ واحدة، ولاحظ وصف النفخة بالزجرة، لأنها أنسب لفظ لحال المكذّبين، ثم إن فيها بياناً لبعض مهامّ الملائكة في ذلك اليوم، فإذا حصلت تلك الزجرة، قام الناس جميعاً من قبورهم فتجمعهم الملائكة في الساهرة وهي أرض الحساب.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين،

= الذي يخرج الشيء من أعماق البحار، أو أنها تسبح في مُضيّها لما أُمرت به فيدبرون أمره. ولم يتعرضا للرواية في الهامش السابق. ينظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج ٣١، ص ٢٨، والبيضاوي، عبد الله بن عمر (ت: ٧٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣. ج ٢، ص ٥٦٥.

وبعض مظاهر قدرته في خلق السماء والأرض، ليستدل بذلك على قدرته على البعث، وقدّم السياق ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لأنها أنسب لما بيّنه السياق من موقف المكذّبين بالآخرة: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، ولاحظ ذكر التزكية والخشية أول القصة، ليتلاءم ذلك مع قوله تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، وسيأتي في الخاتمة ذكر مصير من زكى نفسه، ولاحظ وصف آية العصا بالآية الكبرى، ليتلاءم ذلك مع الفرية الكبرى لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، وهي متلائمة مع وصف يوم القيامة بالطامّة الكبرى أيضاً، ولاحظ بيان أن فرعون حشر ونادى جنوده، ولم يُغْنِ ذلك عنه شيئاً، وهذا متلائم مع بيان قدرته تعالى على جعل الملائكة تقوم بحشر الخلق جميعاً يوم القيامة وإيقافهم للحساب ثم العقاب أو الثواب.

وقد اشتمل عذاب فرعون على الدنيا والآخرة، ليتلاءم ذلك مع مهامّ الملائكة المذكورة أول السورة في الدنيا والآخرة، ومن ناحية ثانية يتلاءم ذكرُ فرعون الذي مات غرقاً، مع قوله تعالى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾. وقد تقدّم ذكر عقوبة فرعون في الآخرة على الأولى؛ لأن سياق السورة كلّه حول الآخرة، فهذه القصة كما ترى تؤكّد المحور المذكور وتتلاءم مع دلالة اسم السورة عليه أبلغ التلاؤم.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى في خلق السماء والأرض: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، فخلق السماء والأرض أعظم من إعادة بعث الناس، وذلك دليل على أن القادر على الأولى قادر بلا شكّ على الثانية، فالسياق يؤكّد حقيقة قدرة الله تعالى على البعث ليوم القيامة، وهو ما دل عليه أيضاً وصف الملائكة بالنازعات التي تنزع أرواح المكذّبين، ثم يوم القيامة تسوقهم للحساب.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بمصير المكذّبين بيوم

القيامة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، ولاحظ ذِكْرَ تذكّر الإنسان، الملائم لما ذكرَتْه المقدّمة من حسرة المكذّبين على إنكارهم يوم القيامة واستهزائهم به، وذِكْرَ إبراز الجحيم، الذي يبيّن إحدى مهامّ الملائكة في ذلك اليوم، ولاحظ بيان أن الجحيم هي مأوى المكذّبين التي ستسوقهم إليها الملائكة، وهذا يتلاءم مع وصف الملائكة بالسابقات سبقاً والمدبّرات أمراً أول السورة.

ولكي يكتمل المشهد، عرضت الخاتمة مصير المؤمنين الذي زكّوا أنفسهم وخافوا مقام ربّهم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾، وهنا يبرز دور الملائكة مرة أخرى في سَوق المؤمنين إلى مأواهم في الجنة.

وكما افتتحت السورة بتأكيد قدرة الله تعالى على البعث، من خلال القَسَم بالملائكة التي تنزع أرواح المكذّبين، ختمت السورة بتأكيد قدرة الله على البعث من خلال بيان حسرة المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة النازعات

سورة إثبات قدرة الله على البعث من خلال بيان بعض المهامّ الموكلة للملائكة حين احتضار الإنسان، وبعض مهامّها في اليوم الآخر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٤) المقدّمة التي تبيّن بعض مهامّ الملائكة وقت احتضار الإنسان، وفي اليوم الآخر:

- افتتحت السورة بالقَسَم بالملائكة التي تنزع روح الإنسان الكافر مهما تفرقت في جسمه، وتنشط بروح الإنسان المؤمن فتخرجها بخفّة، ثم تسبح الملائكة بهذه الأرواح إلى السماء، فإما أن تُفْتح أبوابها للروح المؤمنة ثم تردّ إلى القبر لينعم فيه صاحبها إلى يوم القيامة، وإما أن تغلق أبواب السماء دون روح الكافر فتردّ إلى القبر فيعذب فيه إلى يوم القيامة.
- وأقسم الله بالملائكة التي تسبق الأجسام يوم القيامة وتدبّر أمور ثوابهم أو أمور عقابهم.
- وجواب القَسَم إما أن يكون محذوفاً مقدراً بـ (لَتُبْعثنّ)، أو أن يكون قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾ هو الجواب.
- ومن مهامّ الملائكة يوم القيامة النفخ في الصور ليكون زجرة واحدة تبعث الأموات جميعاً: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٥-٣٣) بيان لبعض مظاهر قدرة الله في إهلاك المكذّبين، وبعض مظاهر قدرته في خلق السماء والأرض:

- برزت قدرة الله في إهلاك فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فكان مصيره أن الله أخذه نكال الآخرة والأولى.
- برزت قدرته تعالى في بيان السياق أن خَلْق السماء أعظمُ من خلق الإنسان، فالقادر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان.
- وبيّن السياق أن الله القادر على إخراج المرعى في الأرض من الماء، قادر على بعث الموتى ليوم القيامة.
- فالقادر على خلق السماء والأرض وخلق الإنسان وبعثه، هو مَنْ جعل للملائكة الكرام مهاماً خاصة وقت احتضار الإنسان في الدنيا، ويوم بعثه في الآخرة، كما بيّنت المقدّمة.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٤-٤٦) الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت ذكر بعض مهام الملائكة يوم القيامة في إبراز الجحيم لمن طغى، وسَوْق الطاغين إلى مأواهم فيها.
- ومن مهامّهم أيضاً سَوْق المتقين إلى مأواهم في الجنة.
- وكما افتتحت السورة بتأكيد قدرة الله على البعث من خلال القَسَم ببعض مهامّ الملائكة، ختمت بتأكيد قدرة الله على البعث من خلال بيان حسرة المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾.

سورة عبس

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين والباء والسين أصل واحد يدلّ على تكرُّهٍ في شيء»[(١)]، وأكّد كلامه الإمام الأصفهاني رحمه الله فقال: «العبوس: قطوب الوجه من ضيق الصدر»[(٢)]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى حادثة مجيء عبد الله بن أمِّ مكتوم ﷺ إلى النبيّ ﷺ، وقد كان يدعو جماعة من كبار قريش يأمل إسلامهم، فألحَّ ابنُ أمِّ مكتوم على النبيّ ﷺ في طلب الهدى وهو لا يعلم حال النبيّ ﷺ لأنه أعمى، فكره النبيُّ ﷺ فعل ابن أمِّ مكتوم وعبسَ وجهه، وجعل يُعرِض عنه ويُقبِل على الآخرين، فأنزل الله هذه السورة معاتباً نبيَّه ﷺ في إعراضه عن طالب الهدى، وإقباله على المستَغْنين المستكبرين[(٣)].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة يدور حول تصحيح فكر الداعية بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها، فالسورة تبيّن حقيقة القِيَم في المجتمع المسلم بأسلوب قويّ حاسم، والتوجيه في أولها هدف إلى إقرار حقيقة أن يستمدّ الناس قِيَمهم وموازينهم من اعتبارات إلهية بحتة، فاسم السورة دالّ على المحور بدلالة الحادثة التي اشتقّ منها[(٤)].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٧٣٠.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٥٤٤.

(٣) الحادثة المذكورة أخرجها الترمذي رحمه الله في السنن، كتاب تفسير القرآن، برقم: ٣٣٣١.

(٤) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ١٢٥، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٨٨، =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الهداية إلى الدين فَضْلٌ من الله ومِنَّة لا يدري الداعي مَنْ يستحقّها مِن المدعوّين، فالهداية من الله غير خاضعة لمقياس التمايز البشري، ولما كانت حادثة ابن أمّ مكتوم رضي الله عنه مع النبيّ ﷺ أدل ما في السورة على هذا المحور، اشتُقّ منها اسم السورة ليدل عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تصحيح فكر الداعية بما يُلائم قيمة الدعوة وتوجيهها**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي معاتبة للنبيّ ﷺ في حادثة ابن أمّ مكتوم، ثم بيان لِنِعَم الله على الإنسان من خَلْقٍ وإمدادٍ تستوجب عليه الإيمان والطاعة لله، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق[1].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة معاتبة من الله تعالى لنبيّه ﷺ في حادثة ابن أمّ مكتوم، وتبيّن له أن الهداية من الله فَضْل لا يدري النبيُّ ﷺ من يستحقّه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ

= والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٢٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ١٠٢، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣٨، ٣٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٢١- ٣٨٢٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٠٠. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، وبيان نِعَم الله على الإنسان: ١١- ٣٢، والخاتمة: ٣٣- ٤٢، ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بألفاظ وعبارات متعلقة بالنبيّ ﷺ وبالقرآن العظيم وباليوم الآخر، وهي لم تذكر في مواضع أخرى من القرآن بالصيغة نفسها، وإليك بيان ذلك: أولاً: من هذه العبارات والألفاظ ما هو متعلق بالنبيّ ﷺ: أ) سؤاله ﷺ بـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾: ٣، وقريب منه في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾: ٦٣، وفي سورة الشورى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: ١٧، ومعلوم أن المواضع الثلاثة متعلقة بأمور غيبية، ب) سؤاله ﷺ بصيغة الاستفهام أو النفي: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: ٧، ج) قوله تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: ٦، وقوله ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: ١٠، ثانياً: ومنها ما هو متعلق بالقرآن العظيم: أ) وصفه بـ ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾: ١٣، ب) و ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾: ١٤، ج) و ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾: ١٥، د) و ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾: ١٦، ثالثاً: ومنها ما هو متعلق بيوم القيامة وأهواله: أ) لم يعبّر عن يوم القيامة بـ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ إلا هنا: ٣٣، ب) وكذلك وصف المؤمنين بـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾: ٣٨، ٣٩، ج) ووصف الكافرين بـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: ٤٠، ٤١، وقريب منه في سورة يونس: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾: ٢٦. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ وقوله ﴿وَمَا عَلَيۡكَ﴾، الدال على عدم معرفته ﷺ بمن يستحقّ هذا الفضل من الله، فيبنغي على الداعي أن يدعو الجميع بلا إعراض عن أحدهم، ويترك نتائج دعوته لله تعالى.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد معنى أن الهداية فَضْل من الله تعالى، فبيّن علوّ شأن هذا القرآن العظيم: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾، فالخاسر من أعرض عن هذا الهدى الإلهي السامي.

ثم انتقل السياق إلى ذكر موقف الإنسان من هذا الفضل الإلهي، فهو معرض عن هدى الله وهو الذي خلقه وأمدّه بما يحييه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧﴾، ولاحظ ذكر أصل الإنسان بصيغة التحقير من شأنه، وهذا متلائم مع موقف المستغنين عن الهدى المذكورين أول السورة، ولاحظ أن السياق ركّز على نعمتي الخلق والإمداد، وهما نعمتان تستوجبان على الإنسان أن يؤمن ويطيع ربه، لا أن يعرض عن هداه.

فأنت تلاحظ أن السياق يبيّن أن الواجب على الإنسان أن يؤمن ويلتزم هدى ربه، لا أن يكفر ويعرض عن هداه، وبعد هذا البيان الوافي فالهدى لله يهدي من يشاء وعلى الداعي أن يدعو، وهذا متّسق مع محور السورة والدلالة السياقية لاسم السورة عليه.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، وذلك من خلال عرض شيء من أهوال يوم القيامة ومصير المؤمنين والمعرضين فيه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧﴾، ولاحظ بيان أن القرابة لا تجدي نفعاً في ذلك اليوم، وذلك يؤكّد حقيقة أن المقاييس عند الله تعالى لها اعتبار خاص، فالذي ينفعهم يومئذ ويحقّق لهم الأمان هو فقط الإيمان واتباع الهدى.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الداعي إلى الله يدعو وهو لا يعلم من يستحقّ فضل

الهداية من الله، ختمت بذكر مصير المؤمنين بهدى الله ومصير المعرضين عنه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾، وأعتقد أن التركيز على وصف الوجوه متلائم مع دلالة اسم السورة وهو متعلق بالوجه، فهو ﷺ ومَنْ آمن معه سيكونون سادة الوجوه المسفرة في ذلك اليوم، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة.



سورة عبس

سورة تصحيح فكر الداعية إلى الله بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدّمة التي تحوي معاتبة للنبيّ ﷺ في حادثة ابن أمّ مكتوم:

- افتتحت السورة بعتاب النبيّ ﷺ في حادثة ابن أمّ مكتوم رضي الله عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ② وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾.
- وبيّنت أن الداعي لا يدري أين تكون ثمار دعوته: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ④﴾.
- وعاتبت المقدّمة النبيّ ﷺ في تصدّيه للمستغني المكذّب، وإعراضه عن الساعي لطلب الهدى، وهذا فيه تصحيح لفكر الداعية متلائم مع قيمة الدعوة وتوجيهها: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٣٢)

بيان لنِعَم الله على الإنسان تستوجب عليه أن يؤمن بخالقه ويقبل هداه:

- بيّن السياق علوّ شأن القرآن الذي أُنزل فيه الهدى على النبيّ ﷺ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ⑪ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ⑫ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ⑬ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ⑭﴾.
- ثم أيّد السياق دعوة النبيّ ﷺ ببيان قبح موقف الإنسان المُعرِض عن هدى خالقه، رغم أنه هو الذي أوجده من العدم: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ⑰ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ⑱ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ⑲ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ⑳﴾.
- وبيّن السياق موقف الإنسان المُعرِض عن هدى خالقه الذي أمدّه بنعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ㉓ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ㉔ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ㉕ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ㉖ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ㉗﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٣-٤٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- عرض الخاتمة بعض أهوال يوم القيامة، مما يؤكد أنّ على الإنسان قَبول هدى خالقه قبل أن يصيبه عذاب ذلك اليوم: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ㉝ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ㉞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ㉟﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الداعي يدعو إلى الله دون أن يعلم أين تكون ثمار دعوته، ختمت ببيان مصير مَن اتبع هدى الله الذي أنزله على النبيّ ﷺ ومصير من أعرض عنه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ㊳ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ㊴ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ㊵ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ㊶ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ㊷﴾.

سورة التكوير

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «كور: الكاف والواو والراء أصل صحيح يدل على دورٍ وتجمُّع، ومن ذلك الكَوْر: الدَّور، يقال: كارَ يَكورُ إذا دار ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ كأنها جمعت جمعاً»[1]، ويؤكد ذلك الإمام الأصفهاني إذ يقول: «كورُ الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض، ككوْرِ العمامة»[2]. وأما الدلالة السياقية فتعود إلى حدث تكوير الشمس يوم القيامة «فتكوير الشمس: فساد جِرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها فيختل لاختلاله نظامُ سيرها»[3]. فاسم السورة يدل على أن مَن جعل للشمس مداراً خاصاً بها في الدنيا، قادر على إفساد جرمها يوم القيامة، ونسبة المصدر «التكوير» إلى الشمس يعطي دلالة على أنه لا تكوير للشمس إلا في ذلك اليوم الذي سيدمر فيه العالم الدنيوي ليبدأ العالم الأخروي.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة التهديد بيوم الوعيد وإثبات حقيقة الوحي، واختير اسم «التكوير» لأنه يشير إلى أحد أعظم حوادث يوم القيامة المذكورة في السورة، أو لأن تكوير الشمس هو الحدث الأول، أو لأن الخراب إنما يبدأ من السقف، والشمس أبرز آيات السماء التي هي من فوقنا، والسورة فيها إيقاع عامّ أشبه بحركة جائحة تنطلق من عقالها

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩١٢.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٧٢٩.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ١٤١.

فتقلب وتهزّ كل شيء[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال حدث تكوير الشمس، كونه أحد أحداث يوم القيامة الدالة على سرعة دمار الكون بعد أن كان منتظماً، واختير تكوير الشمس اسماً للسورة للدلالة على المشيئة الإلهية المنفردة في هذا الكون، فكما شاء أن يكون هذا الكون منتظماً على أحسن صورة، فهو قادر على تدميره يوم القيامة بمشيئته. ولأن الشمس أبرز الكواكب التي يعرفها الناس فهم يرونها كل يوم في حياتهم، فكان ذلك أوقع أثراً في نفوسهم، فاسم السورة دال على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان سرعة انصياع الكون لمشيئة الله المعلنة بدء يوم القيامة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

تحوي السورة مقدّمةً فيها ذِكْر اثني عشر ظرفاً تدل على سرعة التدمير الحاصل يوم القيامة مع الخضوع والاستسلام التامّ لمشيئة الله ربّ العالمين، ثم قَسَماً بعددٍ من الظواهر الكونية المنتظمة في الدنيا على صدق الوحي وصدق النبيّ ﷺ، ثم خاتمةً تبيّن تفرّد مشيئة الله في خلقه[٢].

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٣٥، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٩٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٣٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص١٤٠، و أ. د مسلم وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٩، ص ٤٨. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٠٢، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية دلالات وإشارات**، ص ١٧١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) المقدّمة شملتها الآيات: ١-١٤، والقَسَم على صدق الوحي وصدق النبيّ ﷺ: ١٥ - ٢٥، والخاتمة: ٢٦ - ٢٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تدل على قدرة الله على تدمير الكون يوم القيامة: أ) فقوله ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾: ٢، لم يذكر إلا هنا، ب) كذلك قوله ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾: ٦، وقريب منه في سورة الطور ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾: ٦، ج) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾: ١١، لم يتكرر، ثانياً: ومنها أمور دالة على قدرة الله إذ خلق الكون منتظماً في الدنيا: أ) فالقَسَم بالنجوم الخُنَّس لم يذكر إلا هنا: ١٥، ب) وكذلك وصفها بـ ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: ١٦، =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة اثنا عشر ظرفاً تحوي دلالة على السرعة في حصول التدمير، وكلها تدل على الخضوع التامّ والاستسلام لمشيئة الله عزّ وجلّ، فانظر الظروف التالية: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝﴾، تجد أن الأفعال التي اختيرت في التعبير كلّها تدل على السرعة في الخروج عن الانتظام، ومع الخضوع لمشيئة الله: كما ترى في تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال (مع التشديد)، وتسجير البحار (مع التشديد)، وكشط السماء، فكلها أفعال منسجمة مع دلالة اسم السورة من ناحيتين: السرعة في حصول التدمير، والخضوع التامّ للمشيئة الربانية. وقد دلّ على ذلك أنها بصيغة المبني للمجهول، مما يؤكّد على وجود مشيئة إلهية متحكّمة بها.

وانظر الظروف التالية الدالة على كمال الخضوع للمشيئة الإلهية: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝﴾، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝﴾، ولاحظ أيضاً مجيء هذه الأفعال بصيغة المبني للمجهول مما يدل على المشيئة الإلهية وراءها.

وقد كان الجواب الوحيد على كل تلك الظروف الاثني عشر: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، فقط، وهو جواب جامع للغاية المقصودة من اليوم الآخر، وقد اكتفى السياق بهذا الجواب لأنه ليس من المقصود التركيز على ما سيحصل للناس في ذلك اليوم، بل المقصود التركيز على كمال الخضوع للمشيئة الإلهية، مما يتناسب مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى القَسَم بعددٍ من الظواهر الكونية التي يراها الناس بشكل يومي، والدالة على الانتظام التامّ والاستسلام للمشيئة الإلهية، ووجه الربط بين هذه الظواهر و بين ما جاء في أول السورة مما يدل على الدمار وسرعة الخروج عن الانتظام واضح، فإن الذي شاء أن يكون هذا الكون منتظماً لا مجال فيه للخطأ، هو الذي شاء أن

= ج) وقوله تعالى عن الليل ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: ١٧، د) وقوله عن الصبح ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ١٨. وبإمكانك أن تضيف أن عبارة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لم تذكر إلا هنا: ٢٩، وفي سورة الإنسان: ٣١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

يخرج هذا الكون عن انتظامه لبدء يوم القيامة، فالمشيئة الإلهية ظاهرة في سياق السورة كلها: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾، ولاحظ أن القَسَم بآيَتي الليل والنهار مترابط بشكل واضح مع الشمس، فدوران الأرض حول الشمس ينتج الليل والنهار، وكأن السياق يقول: هذه الآيات الدالة على كمال الانتظام والتي ترونها كل يوم ومن أبرزها الليل والنهار، وراءها مشيئة إلهية هي التي جعلَتْها بهذه الروعة، وهذه المشيئة ذاتها هي مشيئة الإله وحده القادر على جعل كل تلك الظواهر تخرج عن انتظامها معلنة بدء يوم الحساب. كل ذلك دلّ عليه اسم السورة «التكوير»، حقاً إنها سورة عجيبة!

أما جواب القَسَم فقد كان: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾، ويلاحظ في جواب القَسَم خضوع الوحي (جبريل عليه السلام) والنبيّ ﷺ للمشيئة الإلهية، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، وكأنه يقول: بعد أن بينّا لكم خضوع كل المخلوقات لمشيئتنا، وأقسمنا بذلك على صدق وَحْينا ورسولنا، فأنّى يكون للشياطين دور يجعلها تخرج عن مشيئتنا فتفتري علينا!

ثالثاً: بقيت الخاتمة وهي أيضاً تبرز المشيئة الإلهية وخضوع الكلِّ لها: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى: فأين تذهبون؟ المتناسق مع ما بيّنته السورة من خضوع كل مخلوق لمشيئته تعالى، فهو القادر على بعثكم في اليوم الذي يكون فيه تكوير الشمس أحد الأمثلة على خروج الكون عن انتظامه معلناً اليوم الآخر.

ولاحظ ختام السورة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، المشير إلى أن الذي جعل لهذا الكون نظاماً إلى أجل مُسَمًّى هو الله الذي شاء ذلك، والذي جعل لهذا الكون نهاية في أجل مُسَمّى ـ وقد ذكر لكم بعض أحداث تلك النهاية وسمّى السورة بأبرز تلك الأحداث إلى أبصاركم ـ هو الله الذي شاء ذلك، فأين مشيئتكم أنتم؟ فاسم السورة «التكوير» يدلّ على المحور الذي التقى عليه البدء والختام في هذه السورة.

بقي سؤالان: لمَ لمْ تُسَمَّ السورة بـ «تكوير الشمس» بل اختير المصدر فقط؟ أعتقد أن السبب في ذلك تركيز الاهتمام على قدرة المكوِّر سبحانه وتعالى، وليس على عظمة حجم ما سيقع عليه التكوير. والله أعلم.

والسؤال الآخر: لمَ لمْ تُسَمَّ السورة سورة «الكشط» أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾، فكشط السماء آيةٌ أعظم من تكوير الشمس؟ والجواب: إن دلالة تكوير الشمس الدالة على السرعة في الخروج عن الانتظام متسقة أكثر مع باقي الآيات الدالة على ذلك في السورة أكثر من كشط السماء، ثم إن الشمس آية أبرز عياناً للناظر من السماء، لأنها جِرم يستطيع الإنسان النظر إليه كجرم كامل، والسماء ليست كذلك، وثالثاً أن آيتي الليل والنهار المذكورتين في السورة والناتجتين عن الشمس متّسقتان مع الشمس أكثر من كشط السماء. والله أعلم.



سورة التكوير

سورة بيان سرعة انصياع الكون لمشيئة الله المعلنة بدء يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٤)

المقدّمة التي تحوي اثني عشر ظرفاً تدل على سرعة التدمير الحاصل يوم القيامة:

- افتتحت السورة بذكر اثني عشر ظرفاً معبّرة عن أحداث يوم القيامة وتدل على سرعة انصياعها لمشيئة الله المعلنة بدء يوم القيامة، فيومئذ تتكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتُسيَّر الجبال، وتعطل العشار، وتحشر الوحوش، وتسجر البحار، وتزوج النفوس، وستسأل الموءودة لم قُتلت، وستنشر الصحف، وتكشط السماء، وتسعر الجحيم، وتزلف الجنة.
- واقتصر جواب هذه الظروف على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ فقط، لأن التركيز على سرعة انصياع الكون لإرادة الله وليس على ما سيحصل للناس في ذلك اليوم.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٥-٢٥)

القَسَم بعددٍ من الظواهر الكونية المنتظمة في الدنيا على صدق الوحي وصدق الرسول ﷺ:

- ثم انتقل السياق إلى القَسَم بعدد من الظواهر الكونية الدنيوية المنتظمة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾.
- وجواب القَسَم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.
- إن القَسَم مع جوابه يدلان على أن مَن جعل هذه الظواهر الكونية منصاعة لمشيئته في الدنيا، قادر على جعلها تنصاع لمشيئة يوم القيامة، وفي هذا أبلغ تصديق للوحي وللنبيّ ﷺ.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٦-٢٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- فكما افتتحت السورة بذكر اثني عشر ظرفاً تدل على سرعة انصياع الكون لمشيئته تعالى يوم القيامة، ختمت بدعوة البشر للاستقامة لله القادر، مع بيان أن لا مشيئة في الكون حقاً إلا لله ربّ العالمين: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

سورة الانفطار

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «فطر: الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيح يدلّ على فَتْح شيء وإبرازه»[١]. وزاد الإمام الأصفهاني: «أصل الفَطْر: الشّقّ طولاً»[٢]. وأما الدلالة السياقية فتعود إلى وصف السماء بالانفطار مما يعطي دلالة بأنها ستنشقُّ شقاً عظيماً متزايداً يؤدي بالنهاية إلى دمارها. وإضافة المصدر «الانفطار» إلى السماء يعطي دلالة على أنه ليس للسماء انفطار إلا في ذلك اليوم. فاسم السورة يدلّ على كمال قدرة الله تعالى.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها موضوعاتها، فذكروا أن مقصودها التحذير من الانهماك في الأعمال السيئة اغتراراً بإحسان الرَّبّ وكرمه، ونسياناً ليوم الدِّيْن الذي سيحاسب فيه على النقير والقطمير، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً، واسمها « الانفطار » أدل ما فيها على ذلك، لأنه يدل على الانقلاب الكوني الذي سيحدث يوم القيامة، وهي تحوي لمسات عتاب وإن كان في طيّاته وعيد، وبيّنت أن علّة الجحود والإنكار هي: التكذيب بالدِّين، أي: الحساب[٣].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: إثبات حقيقة يوم

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٤٩.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ٦٤٠.

(٣) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ١٢٦، البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٤٧. قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٤٦. وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص١٧٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٥٦، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٠٤، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ١٧٩، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

الدِّيْن ـ الذي هو يوم المجازاة حسب الأعمال ـ وأنه يوم عظيم الهول، من خلال حدث انفطار السماء التي هي أعظم آية عرفها الإنسان، وهو الحدث الأعظم من أحداث يوم القيامة المذكورة في السورة، ولما كان انفطار السماء دالاً على كمال قدرة الله على بعث الناس ليوم الدين، اختير ليكون اسماً للسورة دالاً على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تهويل أمر «يوم الدين»**.

ومن خلال تتبّع موضوعات السورة تظهر العلاقة المترابطة بينها وبين دلالة اسم السورة «الانفطار» وبيان ذلك:

تحوي السورة مقدّمة فيها أربعة ظروف تفيد تهويل شأن يوم الدين، مع جواب هذه الظروف، ثم عتاباً للإنسان الجاحد مع بيان سبب جحوده، وبيان مصير المؤمن ومصير المكذّب يوم الدين، ثم خاتمة لتأكيد التهويل المذكور أول السورة[1].

أولاً: جاء في المقدّمة أربعة ظروف تظهر التهويل الشديد ليوم القيامة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾، ولا بُدّ من مقارنة بعض الأمور المشتركة بين هذه السورة والتي سبقتها «التكوير» من أجل بيان مدى ترابط اسم السورة مع موضوعاتها في السورتَيْن، فمعلوم أن انفطار السماء أعظم آية من تكوير الشمس، فالسماء أعظم آية عرفها الإنسان، ولذلك لاحظ التهويل الزائد ليوم الدين على ما جاء في التكوير، فلاحظ أولاً: وصف السماء بالانفطار، بينما في التكوير كان الحديث عن تكوير الشمس، وهي ليست إلا جرماً صغيراً جداً يسبح في السماء، ثم لاحظ وصف الكواكب بالانتثار الناتج عن ذلك الانفطار، بينما في التكوير وصفت النجوم

---

(١) المقدّمة شملتها الآيات: ١-٥، والعتاب والمصير: ٦-١٦، والخاتمة: ١٧-١٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي أمور دالة على عظم أهوال يوم القيامة: أ) فقوله ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾: ٢، لم يتكرر في القرآن، ب) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾: ٣، ج) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾: ٤، وقريب منه في سورة العاديات ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾: ٩، د) هي الوحيدة التي تكررت فيها عبارة «يوم الدين»: ١٥، ١٧، ١٨، هـ) وبإمكانك أن تضيف أن قوله تعالى عن ذلك اليوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾: ١٩، لم يتكرر بهذه الصيغة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بالانكدار، وانتثار الكواكب أعظم آية من انكدار النجوم، وثالثاً أن البحار وصفت بالتفجير مما يتناسب مع دلالة الفطر، بينما في التكوير وصفت بالتسجير، والتفجير أعظم من التسجير، وكأن التسجير مرحلة تؤدّي بالنهاية إلى التفجير، ثم لاحظ قوله تعالى: (وإذا القبور بعثرت)، وهو ملائم جداً لوصف السماء بالانفطار، فبعثرة القبور لا تحصل إلا إذا انفطرت الأرض لتخرج منها الأجساد.

ولاحظ وجواب الظروف الأربعة: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾، بينما في التكوير قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾، تجد أن السياق زاد في الانفطار في التفصيل لإفادة مزيد التهويل لذلك اليوم. فأنت ترى أن دلالة اسم السورة «الانفطار» مترابطة مع مقدّمة السورة الدالة على تهويل ذلك اليوم أكثر مما في التكوير.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى توجيه عتاب إلى الإنسان الجاحد مع بيان سبب جحوده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾، وكأن السياق يقول: مع كل هذا الإنعام الدال على قدرتنا على بعثكم كما خلقناكم أول مرة بأحسن صورة، تكذّبون بالحساب والجزاء يوم القيامة؟! فتهويل يوم القيامة الذي فيه الحساب بارز بوضوح، ثم لاحظ كلمة الردع والزجر: (كلا)، وحرف الإضراب: (بل)، اللذين يفيدان تهويل يوم الدين. ثم إنك لا تجد في سورة التكوير خطاباً موجّهاً للإنسان بنفس القدر الذي جاء في الانفطار، لأن التركيز في التكوير كان على مشيئة الله تعالى بشكل أكبر من التركيز على هول يوم القيامة الذي غفل عنه الإنسان كما في الانفطار. إن قلّة مخاطبة البشر في التكوير مناسب لإبراز مشيئة الله، ومعاتبة الإنسان في الانفطار مناسب لبيان هول ذلك اليوم.

ثم انتقل السياق إلى ذكر الملائكة الكَتَبة الكرام، وأرى أن ترابط ذلك مع دلالات اسم السورة يعود إلى أن يوم الدين مع أنه عظيم الهول كما دل على ذلك اسم السورة «الانفطار»، إلا أنه لا مجال فيه للظلم، بل كل يحاسب بما هو مكتوب في صحائفه، وذلك العدل المطلق: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

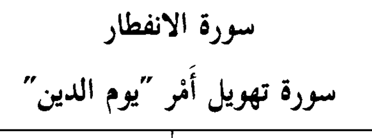
ومما يفيد التهويل أيضاً لذلك اليوم العظيم التقرير في مصير الأبرار والفجار بـ «إنَّ»

المفيدة للتوكيد ومزيد الاهتمام مرتَيْن، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ ولاحظ التهويل في مصير الفجار، فأنت ترى أن دلالات اسم السورة «الانفطار» قد أضفى طابع التهويل على كل موضوعات السورة.

ثالثاً: بقيت الخاتمة، وتجد فيها السؤال التجهيلي المفيد للتهويل أيضاً: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ تكرار عبارة ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ مرتَيْن، وفي الآية الأخيرة لفظة ﴿يَوْمَ﴾ العائدة على يوم الدين مرتَيْن أيضاً، كل ذلك يطلعك على مدى التهويل ليوم الدين المتناسق مع دلالات اسم السورة «الانفطار»، الدال على المحور الذي التقى عليه البدء والختام في هذه السورة.



سورة الانفطار



سورة تهويل أَمْر "يوم الدين"

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تهوّل شأن يوم الدين:

■ افتتحت السورة بذكر أربعة ظروف تفيد تهويل شأن يوم الدين: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾.

■ وقد جاء جواب القَسَم دالاً على أن الإنسان سيحاسب في يوم الدين على ما قدّم وأخّر: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٦)

عتاب للإنسان الجاحد، مع بيان مصير المؤمن ومصير المكذّب يوم الدين:

■ ثم انتقل السياق إلى عتاب الإنسان الجاحد لربه وخالقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

■ وبيّن أن سبب جحود الإنسان لربه أنه لا يؤمن بيوم الدين الذي سَيُحاسب فيه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

■ ثم بيّن السياق أن يوم الدين مع شأنه العظيم إلا أنه لا ظلم فيه، إذ سيحاسب فيه كل امرئ بما كُتب في صحيفته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

■ ومما يؤكّد تهويل شأن يوم الدين أن السياق بيّن مصير الأبرار ومصير الفجار بأسلوب التأكيد: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧-١٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ فكما اختتمت السورة بذكر أربعة ظروف تدل على تهويل شأن يوم الدين، ختمت بالتأكيد على الموضوع ذاته: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾.

سورة المطففين

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الطاء والفاء يدلّ على قلّة الشيء، يقال: هذا شيء طفيف، والتطفيف: نقص المكيال والميزان»[١]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «التطفيف (في الإناء): أن يؤخذ أعلاه ولا يُتَمَّ كيلُه، وطَفَّف على الرجل: إذا أعطاه أقلّ مما أخذ منه»[٢]. فوصفهم بالمطففين يدلّ على أنهم إذا كان لهم الحقّ أخذوه مع زيادة، وإن كان عليهم الحقّ أعطوه مع تخسير، والذي دفعهم لذلك هو عدم إيمانهم بميزان العدل الإلهي يوم القيامة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها نزلت لتعالج حالة التطفيف في الكيل أو سائر الحقوق والواجبات، التي تعتبر إحدى حالات الظلم والانحراف الأخلاقي في التعامل الذي كان سائداً في الجاهلية، فقد كان إدراكهم أن الدين يحطم كل أساس جاهلي تقوم عليه أوضاعهم ومصالحهم، وكان يقودهم إلى التكذيب بحقائق الدين التي من أهمّها الحساب يوم الدين، حتى استحقّوا الوصف بالفجّار، والتحذير من هذا الفعل يجعل السورة تبني في نفوس المؤمنين الرقابة من الله تعالى ومن يوم حسابه، قبل البناء القانوني لتحريم التطفيف[٣].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٦١٦.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٩، ص ١٢٥. بتصرف.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٩٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٥٤، وقطب، **في ظلال**=

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان عدل الجزاء الإلهي في يوم القيامة لكل من الفجار المجرمين، والأبرار المؤمنين، ولما كان التحذير من تطفيف الميزان أو الحقوق في الدنيا مشيراً إلى عدم إقامة المطففين حساباً لميزان الآخرة العادل، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور، وللتحذير من هذا الفعل. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من الميزان الإلهي العادل في الآخرة، الذي يكذب به المطفّفون في كيل ميزان الدنيا**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحذّر المطففين في الميزان والحقوق في الدنيا من عدل ميزان الآخرة، ثم عرضٌ للجزاء العادل حسب ميزان يوم القيامة لكل من الفجار والأبرار، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق[1].

= **القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٥٤- ٣٨٥٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ١٨٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٦٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص٥٠٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص٥٢٥- ٥٢٧، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٢٧- ٣٣٠.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٦، وعرض الجزاء العادل للفجار والأبرار: ٧- ٢٨، والخاتمة: ٢٩- ٣٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى عن المطففين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بدلاً من «من الناس»، وذلك يدل على طغيانهم، كما أنها الوحيدة التي فيها قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، ثانياً: هي الوحيدة التي فيها وصفُ يوم القيامة بـ «يوم عظيم»: ٥، بدون إضافة تفيد التخصيص مثل «عذاب» أو «مشهد»، وهو وصف يدل على تهويل شأنه وشأن ما فيه من الميزان والحساب، كما أنها الوحيدة التي فيها قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ٦، مع ذكر «الناس» من أجل الحساب العادل، بينما انظر قريباً منه في سورة غافر: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: ٥١، وفي سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾: ٣٨، ثالثاً: هي الوحيدة التي فيها قوله تعالى عن الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾: ٧- ٩، وذكر الكتاب وموقعه وبيان أنه مرقوم يدل على أنه لا زيادة فيه ولا نقصان ولا غشّ، في مقابل إجرام المطففين بالزيادة والنقصان والغشّ، بينما انظر قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾: ١٤، الذي يصف المصير النهائي فقط، وكذلك امتازت سورة المطففين بقوله تعالى عن الأبرار: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾: ١٨- ٢٠، بينما انظر في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة تحذير للمطففين الذين يطغون على الناس في كيلهم أو حقوقهم، من عدل ميزان الله تعالى يوم الدين، إذ سيحاسبهم على إجرامهم هذا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾، ولاحظ توعّدهم بالويل، وهو بمثابة حرب من الله عليهم، وهذا يدلنا على أن المطففين «كانوا طبقة الكبراء ذوي النفوذ، الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون، فهم يكتالون «على الناس» لا من الناس، فكأن لهم سلطاناً على الناس بسبب من الأسباب، يجعلهم يستوفون المكيال منهم الميزان منهم استيفاءً وقسراً، . . وإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حقّ الناس، دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفة ولا استيفاء حقّ. . . وإن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي لصدّهم عن التطفيف، ولكنهم ماضون في التطفيف وكأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون»(١).

إذاً فتوعّد الله لهم لم يكن لمجرّد أنهم يطففون الكيل ويبخسونه، بل لأنه كان نتيجة لطغيانهم وتكبّرهم وظلمهم الناس، وهو ناتج عن عدم إقامتهم حساباً لميزان الله العادل يوم القيامة، وإنما اختير اسم السورة من أقلّ هذه الأعمال التي كانوا يعملونها شأناً، للتأكيد على دقّة الحساب يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝﴾ (الكهف: ٤٩).

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان الميزان العدل يوم القيامة، إذ سيحاسب الناس فيه، وسيلاقون جزاء أعمالهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ

= كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾: ٥، وفي سورة الانفطار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾: ١٣، وهما يصفان المصير النهائي لنعيم الأبرار، وسورة المطففين هي الوحيدة التي فيها قوله عن الإبرار ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾: ٢٥، ٢٦، وهو وصف يدل على أنه لا زيادة ولا نقصان ولا غشّ فيه. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٥٥، ٣٨٦٥. بتصرف.

﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾، فأعمال الفجّار محفوظة في كتاب مرقوم لا زيادة فيه ولا نقصان، وليس كميزان الدنيا الذي يستغلّه المطففون لمصالحهم، ولاحظ بيانَ أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، من أجل ذلك لم يحسبوا له حساباً، وبيانَ أنهم معتدون آثمون، وهما وصفان متلائمان مع ظلمهم الناس، ولاحظ أن بيان أعمالهم التي كانوا يكسبونها (ومنها التطفيف) جعلت قلوبهم في غفلة عن لقاء الله، حتى استحقّوا الجحيم.

ثم انتقل السياق إلى بيان جزاء الأبرار العادل، وبذلك يكتمل بيان عدل الميزان الإلهي، ويلتقي الترغيب مع الترهيب: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وهم أيضاً أعمالهم محفوظة في كتاب مرقوم، لكنه في علو لا يشهده إلا الملائكة المقرّبون فقط، ولاحظ أنهم جزاءً لحفظهم حقوق الناس وعدم غشّهم إياهم، حفظ الله لهم رحيقهم في الجنة، وجعله مختوماً بالمسك فلا زيادة ولا نقصان فيه ولا غشّ، ولاحظ وصفهم بالمقرّبين كما وصف الملائكة، وهو وصف يقابل قوله تعالى عن الفجّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

فسياق السورة كما ترى يبرز العدل المطلق لميزان الله وجزائه يوم القيامة، وهو الميزان الذي كذب به المطففون في الدنيا فأكلوا حقوق الناس.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد ذكرت بعض الأعمال التي كان يقوم بها المجرمون في الدنيا، وهي أعمال قادهم إليها تكذيبهم بالآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾، ولاحظ أن الله تكفّل حفظ أعمالهم وجزائهم عليها، ولم يوكّل بذلك أحداً من البشر، مما يؤكّد عدل الميزان الإلهي

في مقابل تطفيف هؤلاء المجرمين في كيلهم.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي دفع المطففين إلى التطفيف هو عدم إقامتهم حساباً لميزان القيامة العادل، ختمت ببيان استهزاء المؤمنين بهم يوم القيامة الدال على تحقّق الجزاء العادل لكلا الفريقين في ذلك اليوم: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة المطففين

سورة التحذير من الميزان الإلهي العادل الذي يكذب به المطففون في كيل ميزان الدنيا

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدّمة التي تحذّر المطففين من الميزان والحقوق في الدنيا، من عدل ميزان الآخرة:

- افتتحت السورة بتهديد المطففين بأن لهم الويل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.
- وبيّنت أن الذي دفعهم إلى الظلم والبخس إنما هو عدم إيمانهم بالآخرة التي فيها ميزان العدل الإلهي: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٨)

عرض للجزاء العادل حسب ميزان يوم القيامة لكل من الفجّار والأبرار:

- ثم بيّن السياق أن أعمال الفجّار محفوظة في سجين في كتاب مرقوم لا مجال فيه للزيادة أو النقصان أو الغشّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.
- ثم بيّن أنهم بسبب تكذيبهم بالآخرة وبآيات الله، سينالون جزاءهم العادل يوم القيامة فيَصْلون الجحيم.
- وبيّن أن أعمال الأبرار محفوظة في عليين في كتاب مرقوم لا مجال فيه للزيادة أو النقصان أو الغشّ.
- وبيّن أنهم لإيمانهم سينالون جزاءهم العادل في النعيم، فيُسْقون من رحيق مختوم، ختامه مسك، قد حفظه الله لهم كما حفظوا حقوق الناس في الدنيا ولم يبخسوها.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٩-٣٦)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- ذكرت بعض الأعمال التي كان يقوم بها المجرمون في الدنيا، وقد قادهم إليها تكذيبهم بالآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾، وقد بيّنت أن الله تكفّل بحفظ أعمالهم ليجازيهم بها حسب ميزان العدل يوم القيامة.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي دفع المطففين إلى التطفيف هو عدم إقامتهم حساباً لميزان الآخرة، ختمت ببيان استهزاء المؤمنين يوم القيامة بهم مما يدل على تحقّق الجزاء العادل للفريقين يوم القيامة: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾.

سورة الانشقاق

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «شقّ: الشين والقاف أصل واحد صحيح يدلّ على انصداع في الشيء، ثم يحمل عليه ويشتقّ منه على معنى الاستعارة، تقول: شققتُ الشيء أشقُّه شقاً، إذا صدعتَه»(١). وأكدّ ذلك الإمام الأصفهاني بقوله: «الشَّقُّ: الخَرمُ الواقع في الشيء»(٢).
وأما الدلالة السياقية فتعود إلى وصف السماء بالانشقاق يوم القيامة، وهو يدل على تصدّعها وتقطّعها وَسَمْعها لربها وطاعتها له في أمره، فاسم السورة يدل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال خضوع واستسلام الكون له يوم القيامة(٣).

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر بعض المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصودها بيان أن أولياء الله ينعمون، وأعداءه يعذّبون، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ولا بالعَرْض على المَلِك الذي أوجدهم، فينقسمون حين ذلك إلى أهل ثواب وأهل عقاب، واسم السورة «الانشقاق» أدلّ دليل على ذلك بتأمّل الظرف وجوابه. وقد أكّدت السورة ذلك بعرضها مشاهد الانقلاب الكوني المتميّزة بطابع الاستسلام لله، استسلام السماء والأرض في طواعية وخشوع ويُسْر، وذلك يناسب خطاب الإنسان بلهجة البصير المشفق الرحيم، خطوة خطوة، وفي راحة ويسر، ثم التعجيب من حال الذين لا

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٥١٩.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٤٥٩.

(٣) وهناك قول آخر: أي: تشققت السماء بالغمام لنزول الملائكة، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٥). ينظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٧١٢.

يؤمنون بعد ذلك كلّه[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال بيان كمال خضوع واستسلام السماء والأرض لأمر الله تعالى في الآخرة، ولما كان انشقاق السماء يوم القيامة أدل آيات السورة على المحور المذكور، سُمّيت السورة به ليدل على المحور. وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة بيان خضوع واستسلام السماء والأرض والإنسان لأمر الله يوم القيامة**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وإليك بيان ذلك:

تحوي السورة مقدّمة تتحدّث عن حال السماء والأرض يوم القيامة، وبيان كمال خضوعهما واستسلامها لربهما، ثم مخاطبة للإنسان مع بيان مصير المؤمنين ومصير المكذّبين وبيان أنه ليس لهم إلا الاستسلام لأمر ربهم في ذلك اليوم، مع تأكيد ذلك ببيان خضوع الآيات الكونية لله تعالى في الدنيا، ثم خاتمة فيها عتاب ودعوة للإيمان بيوم القيامة[(٢)].

---

(١) البقاعي، الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ص ١٢٧، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٦٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٦٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص٢١٧، وأ. د مسلم وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٩، ص ٧٤. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٠٧، وطبّارة، **تفسير جزء عَمّ**، ص ٧١، وطهماز، **من سورة الطور إلى سورة الناس**، ص ٤٠٥.. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) المقدّمة شملتها الآيات: ١-٥، ومخاطبة الإنسان: ٦- ١٩، والخاتمة: ٢٠- ٢٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان خضوع السماء والأرض لله تعالى يوم القيامة: أ) قوله تعالى عنهما ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾: ١، ٥، لم يتكرر في القرآن، ب) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾: ٣، ج) وقوله ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: ٤، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان خضوع الآيات الكونية لله تعالى في الدنيا: أ) فالقَسَم بالشفق لم يذكر إلا هنا: ١٦، ب) وكذلك القَسَم بـ ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: ١٧، وكذلك ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: ١٨. ثالثاً: ومنها أمور تدل على خضوع الإنسان لله تعالى يوم القيامة: أ) فقوله تعالى عن الإنسان: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾: ٦، لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾: ١٤، وقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: ١٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أولاً: تبتدئ السورة بذكر مشهد انشقاق السماء وخضوعها التامّ لأمر ربها جلّ وعلا، ثم خضوع الأرض لأمر ربها أن تُمَدّ وتلقي ما فيها فلا يبقى فيها شيء، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾، ولاحظ تكرار عبارة: وأذنت لربها وحقّت، الدال على كمال الخضوع والاستسلام، ثم إن هذه السورة هي الوحيدة التي جاءت فيها هذه اللفظة.

ومعلوم أن انشقاق السماء آية أقلّ تهويلاً من انفطار السماء كما في سورة الانفطار، ولذلك لا بد من المقارنة بين الأمور المشتركة بين السورتَين لبيان مدى ارتباط موضوعاتهما بالاسم، فأول ما يلاحظ أن سورة الانشقاق لم تفصّل في الأحداث الكونية يوم القيامة على الوجه الذي تراه في سورة الانفطار، لأن مقصودها الدلالة على كمال الخضوع والاستسلام وليس التهويل كما في الانفطار، ويلاحظ ذكر خضوع الأرض واستسلامها في الانشقاق، ولا تجد ذكراً للأرض بشكل مباشر في الانفطار.

وأن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ متناسق مع الدلالة اللفظية للانشقاق، الدال على التصدّع، وصيغة الماضي للأفعال، والفعل المبنيّ للمجهول في قوله (مُدّت)، تؤكّد كمال الخضوع، وكأنه أمر قد حصل وانتهى.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى دعوة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر وبيان مصير المؤمن والكافر فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾، لاحظ بيان أن الإنسان سيلاقي جزاء كدحه في الدنيا، وقد أكّد السياق ذلك بحرف الفاء، مما يدل على مزيد الخضوع والاستسلام، ويلاحظ هنا مزيد التفصيل في ذكر مصير الفريقين: المؤمنين والمكذّبين على نحوٍ لا تجده في الانفطار، فزيادة هذا التفصيل في الانشقاق دال أيضاً على كمال خضوع الإنسان واستسلامه لأمر الله في ذلك اليوم، ولاحظ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾ الدال على خضوع الإنسان لأمر ربه بالبعث، سواء شاء الإنسان ذلك أم أباه.

وإذا قارنّا ما جاء في سورة الانفطار حول موضوع جزاء الإنسان يوم القيامة مع سورة الانشقاق، وجدنا أن سياق سورة الانفطار يركّز على جزاء الإنسان في «يوم الدين» الذي سيلاقي فيه جزاء أعماله، مما أضفى تهويلاً على ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾، بينما في سورة الانشقاق كان التركيز على كمال خضوع الإنسان واستسلامه لأمر ربه تعالى.

ثم انتقلت السورة إلى القَسَم ببعض المظاهر الكونية الدالة على الخضوع والاستسلام التامّ لربّ العالمين في الدنيا: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، ولا يخفى ارتباط هذه الآيات الكونية بالسماء التي أضيف إليها الانشقاق أول السورة، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨﴾، إذ إن اتساق القمر آية تكاد تكون عكس انشقاق السماء تماماً. وكأن السياق يقول: إن الذي خلق هذه الآيات على نحوٍ تكون فيه كاملة الخضوع والاستسلام، هو القادر على بدء يوم القيامة بانشقاق السماء ومد الأرض باستسلام وخضوع أيضاً، وانظر جواب القَسَم الدال على خضوع البشر لأمر ربهم شاؤوا أم أبوا: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾[١]. إن ذكر خضوع هذه الآيات لأمر ربها في الدنيا يؤكّد خضوعها وخضوع الإنسان لأمر ربه يوم القيامة، وهذا ما أكده جواب القَسَم.

ثالثاً: وفي خاتمة السورة تجد التعجيب من حال الكافر الذي لا يؤمن باليوم الآخر بعد ذكر هذه الآيات وتبشيرهم بالعذاب الأليم الذي يستثنى منه المؤمنون الذين لهم أجر عند ربهم غير ممنون: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾، واللافت للنظر أن السياق دعا خلال ذلك إلى السجود

(١) يقول سيد قطب: «أي لتُعانُنَّ حالاً بعد حال، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال. وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة. وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة، مقدرة كذلك مرسومة، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق. حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم». **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٦٩ بتصرف.

لربّ العالمين حينما يذكّرهم القرآن ببيان أن كل ما في الكون مستسلم خاضع لله عزّ وجلّ، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾، وكذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾. وكما افتتحت السورة ببيان استسلام وخضوع السماء والأرض والإنسان لأمر الله يوم القيامة، ختمت بعرض مصير الفريقين من الإنسان في ذلك اليوم، للتأكيد على استسلام الإنسان وكمال خضوعه لأمر الله يوم القيامة.

فأنت ترى أن دلالات الخضوع والاستسلام التي دل عليها اسم السورة «الانشقاق» قد أضفى دلالاته على كل موضوعاتها، فهو لا شكّ أدل ما في السورة على المحور المذكور الذي التقى عليه البدء والختام فيها.



سورة الانشقاق

سورة بيان خضوع واستسلام السماء والأرض والإنسان لأمر الله تعالى يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تبيّن خضوع واستسلام السماء والأرض لأمر الله يوم القيامة:

■ افتتحت السورة ببيان استسلام السماء وخضوعها لأمر الله يوم القيامة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

■ ثم بيّنت أن حال الأرض كذلك: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٩)

بيان خضوع الإنسان لأمر ربه يوم القيامة، مع تأكيد ذلك ببيان خضوع الآيات الكونية الدنيوية لأمر ربها:

■ ثم بيّن السياق حال الإنسان يوم القيامة، إذ ليس له إلا الاستسلام لأمر الله، وابتدأ السياق بعرض مصير المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾.

■ وبيّنت مصير الكافرين: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

■ ثم أكّد السياق حقيقة استسلام الإنسان وخضوعه لأمر ربه في الآخرة، ببيان استسلام وخضوع الآيات الكونية الدنيوية لأمر ربها: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٠-٢٥)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ أعادت ذكر الحال العجيب للإنسان الكافر بآيات الله تعالى، بعد بيان السورة أن كل ما في الكون مستسلم لأمر الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ۝٢١﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان استسلام وخضوع السماء والأرض والإنسان لأمر الله يوم القيامة، ختمت بعرض مصير الفريقين في ذلك اليوم للتأكيد على الاستسلام لأمر ربّه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾.

سورة البروج

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الباء والراء والجيم أصلان، أحدهما: البروز والظهور، والآخر الوَزَر والملجأ»[1]، وقال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «البروج: القصور، وبه سُمّي بروج السماء لمنازلها المختصّة بها»[2]، فوصف نجوم السماء بالبروج يدل علي أن الله تعالى خلقها على نحو بارز منيع ليُسْتدَل بها على عظمته تعالى وكمال قدرته، وهذا ما دلت عليه الدلالة السياقية لاسم السورة، فقد أقسم الله بالسماء التي خلق الله فيها هذه البروج، ليؤكّد حقيقة أن خالقَ هذه البروج شاهدٌ على ما يجري في كَوْنه، وأنه قادر على إنزال بطشه بالظالمين، وأن ينعم المؤمنين في جنات النعيم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو تسلية المؤمنين بأن ما أصابهم من الفتن قد أصاب غيرهم ما هو أكثر منه، وأن الله تعالى قادر على تنعيم المؤمن الولي، وتعذيب الكافر الشقي، واسم السورة يدل على ذلك من أكثر من وجهة، فلما كانت الأخاديد خطوطاً جعلت في الأرض مستعرة بالنار لفتن المؤمنين، أقسم بما تضمنته السماء من بروج للنجوم تشبه مدارات متلألئة بأنوار النجوم الملتهبة على أنه منتقم من الظالمين، ومن جهة أخرى تتشابه بروج النجوم ذات المنازل العالية، مع حادث الأخدود الذي بلغ في الشناعة مبلغاً متطاولاً،

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٢٨.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ١١٥.

ومن الممكن أن تكون دلالة القَسَم بهذه البروج مشتركة مع المنازل العالية للمؤمنين المفتونين الذين ماتوا شهداء(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن بطشَ خالقِ السماوات والأرض، والشهيدِ على ما يجري فيها، والقادرِ على بعث الخلق، أن بطشه واقع بالظالمين سواء في الدنيا أو في الآخرة، ولما كان القَسَم بالسماء ذات البروج دالاً على كمال علم الله تعالى وكمال قدرته، جُعِل هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من بطش خالق البروج الشهيد على ما يجري في كَوْنه**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تحوي القَسَم من الله تعالى على أن انتقامه من الظالمين حاصل لا محالة، وثانيها: تعقيبٌ يؤكّد وقوع بطشه تعالى بالظالمين في الدنيا والآخرة ونصره للمؤمنين، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق(٢).

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٩٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٧٦، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٧١و ٣٨٧٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٢٣٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٨٧و ٨٨، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٠٩، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٣١- ٣٣٣.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، والتعقيب ببيان وقوع بطشه تعالى بالظالمين ونصره للمؤمنين: ٨- ١٦، والخاتمة: ١٧- ٢٢. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، أ) فالقَسَم بالسماء بوصفها ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾: ١، لم يذكر إلا هنا، وكذلك القسم بيوم القيامة ووصفه بـ: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾: ٢، بصيغة اسم المفعول، وكذلك القَسَم ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾: ٣، إذ يعود اسم الفاعل «شاهد» ـ فيما أعتقد ـ على الله تعالى، بينما ذكر اسم الفاعل ﴿شَاهِدٌ﴾ عائداً على الله تعالى في موضعين آخرَين ولكن بدون القَسَم، في سورة آل عمران: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: ٨١، وفي سورة الأنبياء: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾: ٧٨، ب) لم يأتِ في القرآن جواب القَسَم بلفظة ﴿قُتِلَ﴾ الدالة على اللعنة والنقمة إلا هنا ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: ٤، بينما ذكرت هذه اللفظة في مواضع أخرى ولكن لم تكن جواباً للقَسَم، في سورة الذاريات: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾: ١٠، وفي سورة المدثر ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾: ١٩، ٢٠، وفي سورة عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: ١٧، ثانياً: منها ما يتعلق بالله =

أولاً: جاء في المقدّمة قَسَمٌ من الله تعالى ببعض مظاهر كمال قدرته على أن بطشه واقع بالظالمين لا محالة: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾، فالقسم بالسماء التي جعل الله نجومها كالبروج لضخامتها وكثرة عددها وارتفاعها، يدل على أن مَن خلقها وجعل لها مدارات خاصة إلهٌ قدير منتقم، وكذلك القَسَم باليوم الموعود، وهو يوم القيامة الذي سيجازي الله فيه الخلائق بعد أن يبعثهم، وقد أقسم تعالى بذاته كونه شاهداً على ما يجري في كَوْنه ومنه فعلةُ أصحاب الأخدود، والأقسام الثلاثة تؤكّد المحور المذكور.

ولاحظ جواب القَسَم الدال على أن نقمة الله تعالى وبطشه واقع بأصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين، وقد يسأل سائل: لمَ لمْ تذكر السورة أن الله تعالى قد انتقم منهم في الدنيا؟ والجواب أن دلالة القَسَم وجوابه تفيد أنه تعالى أخّر وقوع بطشه بهم إلى اليوم

= تعالى، أ) فقوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بذكر هذين الاسمين الجليلين بعد لفظ الجلالة لم يأتِ إلا هنا، بينما ذكر هذان الاسمان في موضعَيْن آخرين ولكن بدون ذكر لفظ الجلالة، في سورة إبراهيم: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: ١، وفي سورة سبأ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: ٦، ب) وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: ٩، لم يذكر في القرآن إلا هنا وفي سورة المجادلة وبالعبارة ذاتها: ٦، ومعلوم أن محورَي السورتين مشتركان في دلالة هذه العبارة، ج) وقوله تعالى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾: ١٢، لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الدخان: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: ١٦، وفي سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾: ٣٦، د) لم يذكر الاسمان الجليلان ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ مجتمعين إلا هنا، بل لم يذكر ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ إلا هنا وفي سورة هود على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: ٩٠، ومعلوم أن السورتين قد اشتركتا بذكر مصير فرعون وثمود، هـ) لم يذكر اسم الله تعالى ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ إلا هنا: ١٥، وفي سورة هود أيضاً على لسان الملائكة الكرام: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: ٧٣، في سياق تبشير إبراهيم عليه السلام بقدرة الله على رزقه بالولد، ومن اللطيف أن هذا مشترك مع قوله تعالى في سورة البروج: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: ١٣، الدال على قدرته على الخلق والبعث، و) وقوله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: ١٦، لم يذكر إلا هنا، وفي سورة هود: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: ١٠٧، في سياق بيان مصير الأشقياء يوم القيامة، وهذا أمر مشترك مع سورة البروج، ز) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾: ٢٠، لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة، وقد وصف علم الله بالمحيط في مواضع كثيرة، ومن اللطيف أن من هذه المواضع ما جاء في سورة هود أيضاً على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ٩٢، وقد قال شعيب أيضاً فيها لقومه ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: ٨٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الآخر، وذلك أفظع من وقوعه بهم في الدنيا. ثم إن السورة ذكرت وقوع بطش الله تعالى بأقوام آخرين في الدنيا.

وقد بيّن السياق سبب استحقاقهم لنزول هذا البطش الإلهي بهم، فهم قد حفروا في الأرض أخدوداً وأضرموا فيه النار، وقعدوا ينظرون إلى المؤمنين وهم يحترقون فيها، وكأنهم يتمتعون بهذا المشهد الفظيع، وذِكْر أنهم شهود على فعلتهم متلائم مع بيان كونه تعالى شاهداً على ما يجري في كونه، إذاً فالمقدّمة تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، لتؤكّد حقيقة وقوع بطشه بالظالمين، والقَسَم بالسماء ذات البروج يؤكّد هذا.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب يؤكّد حقيقة وقوع بطشه تعالى بالظالمين، وأنه سبحانه سينصر المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾، ولاحظ بيان مدى ظلم أصحاب الأخدود، فهم فعلوا فعلتهم بالمؤمنين لمجرّد أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، وبيان كونه تعالى مالك السماوات والأرض، ليدل على تمام قدرته، و بيان كونه تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ليدل على كمال علمه.

وقد أكّد السياق أن بطش الله تعالى سينزل بأصحاب الأخدود وغيرهم ممن فتن أهل الإيمان يوم القيامة، وأنه سيذيقهم من عذاب جهنم وما فيها من عذاب الحريق، فهما عذابان وليسا عذاباً واحداً، وتخصيص عذاب الحريق بالذكر متلائم مع فعلتهم بالمؤمنين، وأما أهل الإيمان فسيتحقّق لهم النصر التامّ يوم القيامة بدخولهم الجنات، وذلك الفوز الكبير، ولا يعني ذلك أنه تعالى لن ينصر أهل الإيمان في الدنيا.

ولتأكيد حقيقة وقوع بطشه تعالى بالظالمين ونصره للمؤمنين، ذكر السياق بعض الصفات الإلهية المؤكّدة لذلك: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ولاحظ التأكيد بـ«إنَّ» واللام، فبطشه تعالى شديد، أشدّ من بطش الظالمين، وهو سبحانه كما بدأ الخلق قادر على إعادتهم ليوم القيامة، ومع كونه تعالى ذا القدرة التامّة والبطش الشديد، فهو سبحانه غفور ودود لمن تاب وآمن وأحسن

عملاً، وذكر كونه تعالى ذا العرش، متلائم مع دلالة اسم السورة الدال على ضخامة نجوم السماء وارتفاعها، ولاحظ صيغة المبالغة (فعّال) المؤكّدة للمحور المذكور.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بوقوع بطش الله بالظالمين بذكر أنموذجين مشهورين: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾، وسبب اختصاص هذين الأنموذجين ـ فيما أعتقد ـ أن فرعون ادّعى الإلهية، فبيان هلاكه هو وجنوده يدل على أن الله تعالى هو وحده ذو القدرة المطلقة، وأما ثمود فهم مشهورون بنحت الصخور في جبال، وهذا متّسق مع حفر أصحاب الأخدود أخدودهم في الأرض، فكما أن الله تعالى قادر على إهلاك ثمود وهم أحذق قوم في نحت الصخور وظنوا أنها ستؤمّنهم من عذاب الله ـ كما بيّنت سورةُ الحِجْر ـ قادر على إهلاك أصحاب الأخدود الذين حفروا أخدوداً في الأرض، وظنوا أنهم سينجون بفعلتهم ولن يحاسبوا.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم ببعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى لتؤكّد حقيقة وقوع بطشه بالظالمين، وأنه على كل شيء شهيد، ختمت ببيان كونه تعالى محيطاً بأعمال الكافرين وبتكذيبهم وسيجازيهم عليه، وببيان أن القرآن قد أخبر بوقوع بطشه تعالى بهم، وأنه تعالى لديه لوح محفوظ فيه علم كل شيء: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة البروج

سورة التحذير من بطش خالق البروج الشهيد على ما يجري في كَوْنه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً من الله على أن انتقامه من الظالمين حاصل لا محالة:

- افتتحت السورة بقَسَم الله بالسماء وما فيها من النجوم التي هي كالبروج لضخامتها وارتفاعها، وبالقَسَم باليوم الموعود الدال على قدرته تعالى على البعث كما هو قادر على الخلق، وبالقَسَم بذاته سبحانه كَوْنَه شاهداً على ما يجري في كَوْنِه ومنه فِعْلة أصحاب الأخدود.
- وجواب القَسَم: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾، أي: نزلت بهم لعنة الله وسَيَرون بطشه في الآخرة بهم وهو أفظع من بطشه بهم في الدنيا.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-١٦)

تعقيب يؤكّد حقيقة وقوع بطش الله تعالى بالظالمين، وأنه سينصر المؤمنين:

- بيّن السياق المصير الأخروي للظالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠﴾.
- ثم بيّن المصير الأخروي للمؤمنين الفائزين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١﴾.
- ثم ذكر السياق بعض صفات الله الدالة على المحور المذكور: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ فهو المنتقم العظيم سبحانه، وكما هو قادر على الخلق، فهو قادر على البعث والمجازاة.
- ثم بيّن السياق أنه سبحانه مع ذلك فهو غفور ودود لمن آمن وعمل صالحاً: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾.
- وهو سبحانه عظيم الملك قادر على كل شيء: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧-٢٢)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أكّدت حقيقة وقوع بطش خالق البروج من خلال ذكر أنموذجَيْن مشهورين على ذلك: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم بمظاهر كمال قدرته تعالى على أن بطشه بالظالمين واقع لا محالة، وأنه شهيد على كل شيء، ختمت بالتأكيد على كونه تعالى محيطاً بأعمال الكافرين، وبتحذيرهم من بطشه الذي سينالهم، وأن لديه سبحانه لوحاً محفوظاً فيه علم كل شيء: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾.

سورة الطارق

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

ذكر الإمام ابن فارس رحمه الله للجذر «طرق» أربعة أصول، يعنينا منها الأول والثاني: «أحدها الإتيان مساءً، والثاني الضرب»(١)، وقال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الطارق: السالك للطريق، لكن خُصَّ في التعارف بالآتي ليلاً . . . وعُبِّر عن النجم بالطارق، لاختصاص ظهوره بالليل»(٢)، فالدلالة اللفظية تعود لمعنيين، أحدهما مجازي كنائي، وهو أن يكون وصف النجم بالطارق عائداً على ظهوره ليلاً، أو عائداً على طرق الشهب للشياطين المسترقة للسمع، والثاني حقيقي وهو يدل على «النجوم النيوترونية شديدة التضاغط، والمعروفة باسم النجوم النابضة، وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير، ولذا تدور حول محورها بسرعات عالية، مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية ولذا تعرف باسم: النوابض الراديوية، . . . ولعلها المقصودة بالوصف القرآني لأنها تطرق صفحة السماء وتثقب صمتها بنبضاتها سريعة التردّد»(٣)، وجاء اسم السورة على صيغة اسم الفاعل التي تعطي دلالة تمكّن النجم من الطرق على نحو بالغ.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وبليغ حكمته وسعة علمه، وذلك ببيانها لبعض مظاهر قدرة الله تعالى، وقد كان النجم

---

(١) ينظر: ابن فارس، **المقاييس**، ص٣/ ٤٤٩.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٥١٨. بتصرف.

(٣) أ. د زغلول النجار، **السماء في القرآن الكريم**، ص ٢٦٩ - ٢٧١. بتصرف. وينظر: أ. د محمد راتب النابلسي، **آيات الله في الآفاق**، ص ٧٥. الذي له التفسير العلمي ذاته تقريباً.

الطارق الثاقب أحدها، فدلالة القَسَم والمُقْسَم عليه تدل على صدق القرآن في إخباره بتنعيم أهل الإيمان، وتعذيب أهل الكفران، وقد اشتركت موضوعات السورة ببيان بعض مظاهر الحفظ، ليتلاءم ذلك مع المُقْسَم عليه ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات قدرة الله على البعث والمجازاة من خلال بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ في مخلوقاته صغيرها وكبيرها، وقد كان القَسَم بالنجم الطارق أدل ما في السورة على المحور المذكور، فسُمّيت السورة به. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة عرض مظاهر علم الله الحفيظ، الدالة على قدرته على البعث والمجازاة.**

وبتأمّل في موضوعات السورة يبرز له الترابط التامّ بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تحوي قَسَماً من الله عزّ وجلّ بحفظه السماء ونجومها على أن أعمال العباد محفوظة، ثانيها: بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ في خلق الإنسان، ثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(٢)].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى ببعض مظاهر حفظه للسماء ونجومها،

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٣٩٧، وقد فسّر الطارق بالشهب المنقضّة على مَن يسترق السمع من الشياطين، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٨٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٧٧، وأ.د مسلم، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ١٠٠. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٥١١، ٥١٢، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، وبيان بعض مظاهر الحفظ في خلق الإنسان: ٥- ١٠، والخاتمة: ١١- ١٧. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه وفيما يلي بيان ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بحفظ السماء والنجوم والأرض، أ) لم يوصف النجم بـ ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ و﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ إلا هنا، وهما وصفان يدلان على أن الله جعل للنجم مساراً خاصاً به، ب) لم توصف السماء بـ ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ إلا هنا: ١١، ليدل على حفظه تعالى لما نزل منها من الماء وما يرجع إليها، ج) لم توصف الأرض بـ ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ إلا هنا: ١٢، ليدل على حفظه تعالى لما يخرج منها من النبات، ثانياً: ومنها ما يتعلق بحفظ أعمال الإنسان، أ) فقوله تعالى ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: ٤، لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة الأنعام ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: ٦١، وفي سورة الرعد ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: ١١، وفي سورة=

على أن أعمال العباد محفوظة أيضاً: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾، وسواء كان الطارق هو النجم الذي يثقب بضوئه الظلام ويبرز للناس ليلاً، أو هو النجم النيوتروني النابض كما يقول أصحاب التفسير العلمي ـ ولعله الوجه الأقرب لأن في السورة إشارات علمية لم تكتشف إلا حديثاً ـ فالقَسَم يدل على أن الله تعالى حفظ السماء ونجومها، فجعل لكل منها مساراً خاصاً به، مهما كان حجم هذا النجم وسرعته وكثافته.

ولاحظ أن المُقْسَم عليه بهذا القَسَم العظيم هو أن أعمال العباد محفوظة جميعاً، أكّد ذلك أسلوب الحصر والقصر، فهو سبحانه «لا يغيب عن علمه نجمٌ في السماء، فهل يغيب عنه شيء في الأرض؟»[(١)]، ودلالة المُقْسَم عليه تعود بلا شكّ إلى إثبات حقيقة اليوم الآخر، فالله تعالى حافظ لأعمال العباد في الدنيا، ثم يوم القيامة يجازيهم بها، كلٌّ بحسب ما كُتب في صحيفته.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد حقيقة البعث لليوم الآخر من خلال التذكير ببعض مظاهر علم الله الحفيظ في أصل الإنسان: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾، ولاحظ التفصيل في بيان أصل هذه النشأة، فقد وصف السائل المنويَّ بالماء الدافق، هذا السائل الذي يزيد فيه عدد النطاف المنويّة على ثلاث مئة مليون، يُسهّل حركتها باتجاه البويضة، ويحميها من ظروف الرحم الغير ملائمة، إلى أن يصل واحد فقط من هذه النطاف إلى البويضة ويلقحها، فالله تعالى الحفيظ يعلم ما في هذا السائل، وهو الذي يهيّئ للنطاف

= الانفطار ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾: ١٠، ١١، ب) وكذلك قوله تعالى ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: ٩، وقريب منه في سورة يونس ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾: ٣٠، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بحفظ الإنسان في أصل نشأته، فقوله تعالى عن الإنسان ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: ٦، ٧ لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة النور ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾: ٢٥، وفي سورة الفرقان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾: ٥٤، وفي سورة المرسلات ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾: ٢٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(١) أ.د محمد النابلسي، **آيات الله في الآفاق**، ص ٧٧.

الظروف المناسبة للوصول إلى البويضة[١]، فقد حفظ الله تعالى تلك الحيوانات المنويّة في الرحم حتى يصل أحدها إلى البويضة فيلقّحها.

إن الذي حفظ الإنسانَ وأصلُه من بويضةٍ ملقحة من حيوان منويّ واحد، قادر على إرجاعه ليوم القيامة بعد أن تأكل الأرض جسده، ولاحظ أنه في ذلك اليوم تبلى السرائر، فالله تعالى يعلم بما يُسِرُّ الإنسان في نفسه من النوايا التي يخبّئها عن غيره من البشر، وسيحاسبه عليها.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ في السماء والأرض: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾، فقد أقسم الله تعالى بالسماء التي تُرجع بخار الماء الصاعد إليها غيثاً، فهو سبحانه يعلم كمية البخار الصاعد وكمية الماء النازل[٢]، وأقسم سبحانه بالأرض التي تتصدّع بخروج النبات منها حال نزول الغيث، فهو يعلم أعداد هذه النباتات وجميع تفاصيلها، ولاحظ أن جواب القَسَم هو بيان أن الوعد بيوم القيامة قولٌ فَصْل، وليس بالهزل، فالله تعالى الحفيظ بهذه المخلوقات حافظ لأعمال العباد، وسيجازيهم عليها.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالسماء والطارق الدال على كمال علم الله الحفيظ على أنه حافظ لأعمال العباد التي سيجازيهم بها يوم القيامة، ختمت ببيان علمه وحفظه تعالى لكيد الكافرين، وسيجازيهم به يوم القيامة: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



---

(١) ينظر: أ.د محمد راتب، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الإنسان**، ص ١٥٩.

(٢) أ.د محمد راتب، **آيات الله في الآفاق**، ص ٤٤، وقد ذكر ثلاثة أوجه أخرى لتفسير الآية، لكن الوجه المذكور هو الأقرب لسياق السورة.

سورة الطارق

سورة بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ الدال على قدرته على البعث والمجازاة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً من الله بحفظه للسماء ونجومها على أن أعمال العباد محفوظة وسيجازيهم عليها:

- افتتحت السورة بالقَسَم بالسماء وما فيها من النجوم التي تكون كالطارق الذي يطرق ليلاً دلالةً على بروزها في الليل، أو ما فيها من النجوم النيوترونية التي تطرق طريقها بنبضاتها الراديوية وكأنها تثقب الفضاء ثقباً: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾.
- وجواب القَسَم: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ يدل على حفظه تعالى لأعمال العباد كما هو حافظ للسماء وما فيها من النجوم.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٠)

بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ في خلق الإنسان:

- ولتأكيد كونه حافظاً لأعمال العباد وسيجازيهم عليها، عرض السياق بعض مظاهر علم الله الحفيظ في خلق الإنسان: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، فكما أن الله يحفظ الحيوان المنويَّ في رحم المرأة حتى يلقح البويضة فيتكوّن الجنين، فهو سبحانه حافظ لأعمال العباد.
- فالقِسْم الأول من السورة يدل على علم الله الحفيظ بأحد أكبر المخلوقات، والقِسْم الثاني يدل على علمه بأحد أصغر المخلوقات.
- أكّد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾، فسيجازي الله الإنسان بما تخفيه سرائره مما لا يعلمه إلا الله.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١-١٧)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت ذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ في الكون، فهو سبحانه يعلم الصاعد من البخار إلى السماء، والراجع منها ماءً إلى الأرض، وهو يعلم ما يصدع الأرض من النبات، فالقَسَم بهذه الظواهر يدل على أنه تعالى قادر على بعث الخلق لمجازاتهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالسماء والطارق على أنه تعالى حافظ لأعمال العباد التي سيجازيهم بها، ختمت ببيان علمه تعالى وحفظه لكيد الكافرين الذي سيجازيهم به يوم القيامة: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾.

سورة الأعلى

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين واللام والحرف المعتلّ، ياءً كان أو واواً أو ألفاً: أصل واحد يدلّ على السُّمُوّ والارتفاع»(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «الأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل عالٍ، واسمه الأعلى: أي صفته أعلى الصفات»(٢)، فوصف الله تعالى بهذا الوصف على صيغة أفعل التفضيل يدل على التفضيل المجازي المطلق لله تعالى، بمعنى التنزّه والتسامي والترفّع عن أيّ شائبة نقص.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تتضمّن الثابت من قواعد التصوّر الإيماني، من توحيد الرَّبّ الخالق، وإثبات الوحي الإلهي، وتقرير الجزاء في الآخرة، وهذه مقوّمات العقيدة الأولى، ثم تصل العقيدة بأصولها البعيدة بذكر صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، فالسورة تدل على وحدة الحقّ، ووحدة العقيدة، وهو الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها أنه حقّ واحد يرجع إلى أصل واحد، وهو الله الأعلى المنزّه عن النقائص(٣).

---

(١) ابن فارس. **المقاييس**، ص ٦٩٠.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٠، ص ٢٦٩.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٩٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٣٩٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ٣٨٨٣ و ٣٨٩٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٢٧٢، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٤١٣، ٤١٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ١٠٨. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال عرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في آياته الكونية وآياته القرآنية الدالة على أنه الرَّبّ الأعلى، وبيان ما أعدّه الرَّبّ الأعلى جزاءً لمن كذب، وما أعدّه الرَّبّ الأعلى ثواباً لمن آمن. ولما كان وصف الله تعالى بـ «الأعلى» معبّراً عن المحور المذكور، جُعل هذا الوصف اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى عدم إيثار الحياة الدنيا على اتباع هدى وحي الرَّب الأعلى الموصل إلى ما ارتضاه الرَّبّ الأعلى جزاءً للمؤمن في الآخرة التي هي خير وأبقى.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الرَّبّ الأعلى في الآيات الكونية، وثانيها: بيان بعض مظاهر كمال قدرته من خلال الآيات القرآنية، مع بيان مصير من كذب ومن آمن، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وذكر آيات الله القرآنية: ٦- ١٥، والخاتمة: ١٦- ١٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى وبالنبيّ ﷺ: أ) فلم يذكر فعل الأمر ﴿سَبِّحِ﴾ مع ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ إلا هنا: ١، وقد ذكر هذا الفعل مع «اسم ربك العظيم» في سورة الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢، ب) لم يوصف الله تعالى بـ «الأعلى» إلا هنا: ١، وفي سورة الليل: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: ٢٠، لكن لاحظ أن الوصف في سورة الأعلى لم يقيد بالوجه بل جاء مطلقاً، وانظر قريباً منه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: النحل: ٦٠، و ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الروم: ٢٧، ج) لم يذكر الفعل «سوَّى» العائد على الله تعالى بدون ذكر المفعول به إلا هنا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: ٢، وفي سورة القيامة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: ٣٨، والفعل في سورة الأعلى أعمّ كما لا يخفى، د) لم يخصص النبيّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلا هنا: ٨، وقريب منه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾: ٧، ولم تذكر كلمة «اليسرى» الدالة على التفضيل في موقع آخر في القرآن، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالآخرة: أ) لم يوصف المكذّب بـ «الأشقى» بصيغة أفعل التفضيل إلا هنا: ١١، وفي سورة الليل: ١٥، ب) لم توصف النار بـ «الكبرى» إلا هنا: ١٢، ج) ولم توصف الآخرة بأنها ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ بهذا العموم الذي دلّت عليه صيغة أفعل التفضيل إلا هنا: ١٧، وانظر قريباً منها: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾: الضحى: ٤، وهي مختصة بالنبيّ ﷺ، وقريب منها وصف الدار الآخرة أو أجرها بأنه خير للذين يتقون في كل من السور التالية: الأنعام: ٣٢، الأعراف: ١٦٩، النحل: ٣٠، يوسف: ٥٧، ١٠٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وكثرة صيغة أفعل التفضيل الدالة على العموم في سورة الأعلى متلائمة مع الدلالة اللفظية لاسم السورة الدالة على العموم ـ أي: أنه تعالى منزّه عن أيّ نقص ـ كما لا يخفى.

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى الدالة على أنه الرَّبّ الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾، لاحظ بيان أنه تعالى بيده الخلق والتقدير والهدى، ولاحظ وصف الدنيا بالغثاء الأحوى، أي: العشب اليابس، واختصاص سورة الأعلى بهذا الوصف للدنيا متلائم مع دلالة اسم السورة، فالرَّبّ الأعلى لا يقبل أن تكون هذه الدنيا دار جزائه، فلا ينبغي لمن أراد الرَّبّ الأعلى أن يتلهّى بهذه الدنيا عن الإيمان به والعمل الصالح، وسيأتي أن الآخرة هي التي رضيها الرَّبّ الأعلى للجزاء.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان أن الله تعالى هو الرَّبّ الأعلى من خلال ذكر الآيات القرآنية بعد ذكر الآيات الكونية: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾، ولاحظ بيان أن من يتذكّر بالقرآن ويخشى الرَّبّ الأعلى ويتزكّى سييسّره الله لليسرى ويدخله الجنة، وهي المقام الذي ارتضاه الرَّبّ الأعلى ثواباً لمن آمن، وأن من كذب بالقرآن سيجنّبه الله عن الجنة وسيصلى النار الكبرى، وهي المقام الذي رضيه الرَّبّ الأعلى عقاباً لمن كفر.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من التلهّي بالحياة الدنيا عن الآخرة التي ارتضاها الرَّبّ الأعلى داراً خالداً لثواب من آمن، وعقاب من كفر: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر قدرة الله في آياته الكونية الدالة على أنه الرَّبّ الأعلى، ختمت ببيان أن الآيات القرآنية وآيات الوحي للأنبياء السابقين تشهد أن الله هو الرَّبّ الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾، فالكون والوحي هما من الرَّبّ الأعلى، فهو وحده المستحقّ للعبادة، وينبغي على الإنسان التزام هدى الرَّبّ الأعلى، لينال الجزاء الأوفى في الآخرة التي هي خير وأبقى. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ وأجمل دلالة.

سورة الأعلى

سورة الدعوة إلى عدم إيثار الحياة الدنيا على اتباع هدى وحي الرَّبّ الأعلى الموصل إلى ما ارتضاه الرَّبّ الأعلى جزاءً للمؤمن في الآخرة التي هي خير وأبقى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الرَّبّ الأعلى في الآيات الكونية:

- افتتحت السورة بالدعوة إلى التسبيح باسم الرَّبّ الأعلى، لأنه وحده المستحقّ للعبادة، بما برز من مظاهر قدرته تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾.
- إن تشبيه الحياة الدنيا بالغثاء الأحوى ليدل على أن مَنْ أراد الرَّبّ الأعلى لا يقبل أن تكون الدنيا داراً لجزائه، فلا يتلهّى بها عن اتباع هدى الرَّبّ الأعلى سبحانه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٥)

بيان بعض مظاهر كمال قدرة الرَّبّ الأعلى من خلال الآيات القرآنية:

- بيّن السياق أن الله سيحفظ نبيّه ﷺ من نسيان شيء مما يوحى إليه، وأمره بالتذكير بهدى وحي الرَّبّ الأعلى سبحانه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾.
- وبيّن السياق أن من يتذكّر بهذا الوحي إنما هو من يخشى.
- وأن من أعرض عن هدى الوحي سيصلى النار الكبرى التي جعلها الرَّبّ الأعلى جزاء لمن كفر وكذب.
- وبذلك يكون المفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلّى، واتبع هدى وحي الرَّبّ الأعلى سبحانه.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٦-١٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التحذير من التلهّي بالحياة الدنيا عن الآخرة، التي ارتضاها الرَّبّ الأعلى ثواباً لمن اتبع هدى الوحي: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر كمال قدرة الرَّبّ الأعلى في آياته الكونية، ختمت ببيان أن الآيات القرآنية وآيات الوحي إلى الأنبياء السابقين، تشهد أن الله هو الرَّبّ الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.
- فالكون والوحي هما من الرَّبّ الأعلى، فينبغي على الإنسان اتباع هدى الوحي لينال الجزاء الأوفى في الآخرة التي هي خير وأبقى.

سورة الغاشية

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «غشي: الغين والشين والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلّ على تغطية شيء بشيء، والغاشية: القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بإفزاعها»[(١)]، وقد أكد ذلك الإمام الأصفهاني بقوله: «الغاشية: كل ما يغطي الشيء، كغاشية السرج، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٠٧﴾ (يوسف: ١٠٧)، أي: نائبة تغشاهم وتجلّلهم، وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾ كناية عن القيامة»[(٢)].
وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيانها بعض ما يغشى الناسَ من أهوال ذلك اليوم، فينعكس أثره على وجوههم، فمنها وجوه خاشعة عاملة ناصبة، ومنها وجوه ناعمة لسعيها راضية، ومجيء اسم السورة على صيغة اسم الفاعل مع أل التعريف أفاد أنه لا غاشية حقاً غير يوم القيامة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن سورة الغاشية سُمّيت بذلك لما فيها من تأكيد الإنذار بتهويل يوم القيامة، فقد عرضت بعض أحداث يوم القيامة وآيات الله في خلقه الدالة على قدرته، كما وأن من مقاصد هذه السورة بيان تشويه حالة المكذّبين الأشقياء يوم القيامة، وبيان نعومة حالة المؤمنين الأتقياء في ذلك اليوم[(٣)].

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨١٦.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٦٠٧.

(٣) المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٣٩٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٠٤، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٨٩٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٢٩٣. و أ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ١١٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥١٥. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال بيان مدى تأثير يوم القيامة على حالة الناس في ذلك اليوم، فمن كانت أعماله سيّئة غشيته حالة البؤس، ومن أحسن العمل غشيته حالة الرضا، فوصف يوم القيامة بالغاشية يدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أثر غشيان القيامة على وجوه الناس في ذلك اليوم**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الارتباط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة جاءت بصيغة السؤال المفيد للتهويل، مع بيان أثر غشيان يوم القيامة على حالة الكافر والمؤمن، وثانيها: أدلة عقلية على إثبات حقيقة قدرة الله على البعث، وثالثها: خاتمة تبيّن أن ليس على الرسول ﷺ إلا التذكرة وعلى الله الحساب[1].

أولاً: جاء مفتتح السورة بالاستفهام الذي وصف يوم القيامة بالغاشية، وأضفى عليه صبغة التهويل، وقد بيّنتُ بعض دلالات وصف يوم القيامة بهذا الاسم: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ٱلْغَنشِيَةِ ۝١﴾.

ثم انتقلت السورة إلى بيان ما يغشى حالة الناس من أهوال ذلك اليوم، فابتدأت بالمكذّبين، وبيّنتْ بعض ما يغشى حالتهم بسبب أعمالهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا

(١) جاء السؤال الذي يعتبر مقدّمة للسورة في الآية الأولى، والحديث عن حالة الكافرين في الآيات: ٢ ـ ٧، وحالة المؤمنين: ٨ـ ١٦، والأدلة العقلية: ١٧ ـ ٢٠، والخاتمة: ٢١ ـ ٢٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان تأثير يوم القيامة على حالة الكافرين: أ) فقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: ٣، ٤، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، ب) وأما قوله ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فقد ذُكر هنا: ٤، وقريب منه في سورة القارعة: ١١، د) وقوله ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾: ٥، لم يتكرر بذات الصيغة، ثانياً: ومنها ما يتعلق ببيان تأثيره على حالة المؤمنين: أ) فقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾: ٨، ٩، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، ب) وأما قوله ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾: ١٠، فقد ذُكر هنا وفي سورة الحاقة فقط: ٢٢. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. =

يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾، ويلاحظ أن السياق ابتدأ بذكر أثر غشيان حالتهم على الوجه كونه أكرم أعضاء الإنسان، وكونه أبرز ما يُظهر مدى غشيان تلك الحالة. ويؤكّد ذلك التعبير: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، و﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، مع أن الصَّلْي والسقي فعلان يعود أثرهما على كافة الجسد، فكان من الممكن أن يقال: يصلون ناراً حامية، ويسقون من عين آنية.

واللافت للنظر في حديث السورة عن فريق المكذّبين أنك تجد السياق قد بيّن أن سبب غشيان حالة البؤس على وجوههم إنما هو أعمالهم السيئة، فانظر قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾، ولم تذكر كلمة «ناصبة» في سورة أخرى من القرآن، ولا يخفى مدى ارتباطها باسم السورة «الغاشية»، فهي تبيّن غشيان حالة النصب على وجوههم.

ثم انتقل السياق إلى بيان الحالة التي تغشى المؤمنين يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴿١٠﴾﴾، ولاحظ أولاً أن السورة لم تعطف بيان حالة وجوه المؤمنين على حالة وجوه الكافرين، فلم يقل: ووجوه يومئذ ناعمة، بل جعل لهم جملة تعطي خبراً مقطوعاً عما سبق، وذلك يؤكّد الاهتمام ببيان مدى تأثير الحالة التي تغشى القسم الثاني من الناس يوم القيامة. وثانياً التركيز على الوجوه، فهي أكرم الأعضاء، وهي أبرز ما يُظهر الحالة التي تغشاها، وثالثاً نسبة الرضا عن السعي إلى الوجوه، فقد كان من الممكن أن يقال: لسعيهم راضون. كل ذلك يطلعك على مدى ارتباط دلالة اسم السورة «الغاشية» على وجوه هذين القسمين من الناس يوم القيامة: المؤمنين والكافرين.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بعض الأدلة العقلية على قدرة الله على بعث الناس وحسابهم، وفي ذلك دعوة للإيمان والعمل الصالح، فإن مَنْ خلَقَ الإبل ورفعَ السماء ونصب الجبال وسطح الأرض، قادرٌ على بعث الناس ليوم الغاشية، ولاحظ قوله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ الدال على أنه ينبغي استعمال النظر الذي يكون في الوجوه للوصول إلى الإيمان، فتكون هذه الوجوه ناعمة يوم القيامة، وأما الوجوه التي لا تستدل بالنظر في خلق الله على قدرته على البعث، ولا تؤمن بيوم الغاشية، فهي وجوه خاشعة عاملة ناصبة في ذلك اليوم.

ثالثاً: ثم ختمت السورة ببيان أن ليس على النبيّ ﷺ إلا التذكرة، فليس هو عليهم

بمسيطر، بل المسيطر والمحاسب لهم إنما هو الله تعالى الذي خلقهم. واللافت للنظر أنك تجد في خاتمة السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾، الذي يؤكّد محور السورة، فإياب الخلائق كلّها إلى الله وسيحاسبهم على أعمالهم في يوم الغاشية الذي تغشى فيه كل إنسان الحالة التي تناسب أعماله. وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسمها أبلغ الدلالة.



سورة الغاشية

سورة بيان أثر غشيان القيامة على الناس في ذلك اليوم

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٦)

المقدّمة التي تهوّل أمر الغاشية، وتبيّن أثر غشيانها على الكافرين والمؤمنين:

- افتتحت السورة بسؤال تجهيلي يهوّل أمر الغاشية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾.
- ثم بيّنت أثرها على حال الكافرين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾، وهم سيصلون النار، ويسقون من عين آنية، ولا يأكلون إلا الضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.
- وبيّنت أثرها على حال المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾، وهم هانئون فيها لا يسمعون لغواً، ويشربون من العين الجارية، ويتنعمون بها بالسرر المرفوعة، والنمارق والزرابي.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٢٠)

عرض أدلة عقلية تؤكد قدرة الله على البعث ليوم الغاشية كما هو قادر على الخلق:

- ثم انتقل السياق إلى تأكيد قدرة الله على بعث الناس لذلك اليوم من خلال أدلة عقلية يرونها يومياً: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾.
- هذه الأدلة العقلية تدل على أن القادر على خلق الإبل بأحسن هيئة، والقادر على رفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض، قادر بلا شك على بعث الناس ليوم الحساب.
- فمن استفاد من هذه الأدلة المرئية فآمن حفظ وجهه من أن تغشاه حالة البؤس، بل تغشاه حالة الرضا يوم القيامة، ومن لم يؤمن بهذه الأدلة غشيت وجهه حالة البؤس، وحرم من حالة الرضا.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢١-٢٦)

الخاتمة التي تبيّن أن ليس على الرسول ﷺ إلا التذكرة، وعلى الله الحساب:

- بعد عرض تلك الأدلة العقلية التي يراها الناس يومياً، بيّنت الخاتمة أن النبيّ ﷺ ليس له إلا التذكير بالوحي: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.
- وكما افتتحت السورة بتهويل شأن الغاشية، ختمت بتأكيد قدرة الله على بعث الناس لذلك اليوم الذي ستغشى فيه كلَّ فرد منهم الحالةُ التي تناسبه بحسب أعماله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾.

سورة الفجر

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية إلى وقت الفجر، وهو وقت ابتداء ظهور نور الشمس حينما تأخذ ظلمة الليل في الانصرام، وهو وقت مبارك، فيه ينتهي وقت النوم، وفيه صلاة الفجر، ومن ثَمَّ يبدأ وقت الإقبال على أعمال الحياة، وكأنه يعلن عن الحياة بعد الموت، هذا إذا حُمل على المعنى العام، ومن المفسرين مَن خصص هذا الفجر بيوم محدد، وهو فجر يوم النحر الذي يكون فيه الحجيج بالمزدلفة، والذي دفعهم لذلك القسم بالليالي العشر، وقالوا هي ليالي العشر من ذي الحجة، وعلى كلا الاعتبارين فالقسم بالفجر والليالي العشر يدل على بديع صنع الله وسعة قدرته فيما أوجد من نظام لهذا الكون[(١)].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو الاستدلال على يوم القيامة وما فيه من عذاب الكافرين، وأدل ما فيها على هذا المحور الفجر، لأنه يعلن عن يوم جديد وليل قد انقضى، وينتج عنه انبعاث النيام، فكأنه بعث جديد بعد موت متكرّر، والقَسَم بالفجر وما تبعه من الأزمان يدل على بديع صنع الله تعالى وقدرته، وإن فُسِّر الفجر بفجر يوم النحر، دل على بعث الناس للحساب، كما يجتمع الناس لأداء الحجّ[(٢)].

---

(١) ممن اعتمد القول بأن الفجر المقصود هو الصبح أو صلاة الصبح: الإمام الطبري، جامع البيان، ج ١٠، ص ٨٦٠٩، والإمام الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٧٣٤، وممن ذكر القولين من دون ترجيح: الإمام ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٦٨٣، والإمام ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣١٢.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٠٠، وقد خصّ الفجر بيوم عرفة، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، =

وأعتقد أن تفسير الفجر بالصبح هو الأقرب للصواب، فيمكن تلخيص محور السورة بأنه: إثبات قدرة الله على البعث، من خلال القَسَم بأن الله تعالى هو خالق الزمن ومُسَيِّرهُ والقائم عليه، وهو الذي جعل فيه أوقاتاً مباركة، فمَنْ أحسن استغلالها فقدَّم لنفسه كانت له الجنة، ومَن أساء استغلالها كان له العذاب الشديد يوم القيامة، ولما كان القَسَم بالفجر يدل على بداية اليوم، والقَسَم بالليل إذا يسري يدلّ على نهايته، والقَسَم بالليال العشر والشفع والوتر يدلان على الأوقات المباركة، أقسم الله بها للدلالة على المحور المذكور، واختص الفجر لاسم السورة؛ لأنه أكثر الأوقات بركة، وأكثرها دلالة على الحياة بعد الموت ويتجدّد كل يوم وليس في موسم خاص كل عام كالليالي العشر. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى استغلال الزمن وما فيه من الأوقات المباركة للإكثار من العمل الصالح لملاقاة الله تعالى يوم القيامة.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، الأول: المقدّمة التي تحوي قَسماً بالزمن وما فيه من أوقات مباركة على أن يوم القيامة حقّ، والثاني: بيان هلاك الأمم المكذّبة مع تعقيب وتوجيه، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق[1].

= ص ٤١٣، وقد خصّ الفجر بيوم النحر، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٠٢، وقد فسّر الفجر بالصبح، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ١٢٦، وقد فسّروا الفجر بالصبح، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣١٢، وقد ذكر الوجهين ولم يرجّح، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥١٧، وقد فسّر الفجر بالصبح، والجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص وقد فسر الفجر بالصبح ٤٤٩، ٤٥٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٣٤- ٣٣٦، وقد فسَّرا الفجر بالصبح.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وبيان هلاك الأمم المكذبة مع التعقيب والتوجيه: ٦- ٢٠، والخاتمة: ٢١- ٣٠. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يقسم الله تعالى بالفجر إلا في هذه السورة، ولم تذكر الليال العشر والشفع الوتر في القرآن إلا هنا، وقد أقسم الله بها ليؤكّد على هذه الأوقات المباركة، ولم يقسم بالليل حالة كونه يسري للدلالة على تجدّده إلا هنا، ثانياً: وُصف الغافلون في هذه السورة بأوصاف لم تذكر في موضع آخر: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: ١٩، ٢٠، و ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾: ٢٣، ٢٤، =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى الذي خلق الزمن، والذي جعل فيه أوقاتاً مباركة ينبغي استغلالها للتقرّب إليه والاستعداد ليوم القيامة: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۝٥﴾، فالقَسَم بالفجر يدل على بداية اليوم، ويقابله القَسَم بالليل إذا يسري، الدال على نهاية اليوم، فهذان القسمان ـ فيما أعتقد ـ يعطيان دلالة على قدرة الله تعالى، فهو الذي يجعل اليوم يبتدئ بالفجر وينتهي بالليل على مدى الزمن.

وقد أقسم الله تعالى بما جعل في هذا الزمان من أوقات مباركة ينبغي استغلالها في التقرّب إلى الله، وهذه الأوقات هي الليال العشر والشفع والوتر، وأعتقد أن تفسير هذه الليالي بالليالي العشر الأُوَل من شهر ذي الحجة، وتفسير الشفع والوتر بيومَيْ عرفة والنحر، فيوم عرفة هو التاسع، ويوم النحر هو العاشر من ذي الحجة، أعتقد أن هذا التفسير هو الأقرب للصواب، وذلك لأن المخاطبين بالمقام الأول في هذه السورة هم المشركون في مكة، ولا يُستبعد أنهم يعلمون ميزة هذه الليالي العشر فيما تبقّى لديهم من دين إبراهيم عليه السلام، ولا يتعارض هذا مع كون السورة مكية، بل من أوائل السور المكية.

ويؤكّد هذا ما جاء في السيرة النبوية من أنه ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل التي تأتي مكة للحج أو العمرة، وفي بيعة العقبة الثانية خرج المسلمون من الأنصار من حجاج قومهم من أهل الشرك في موسم الحج، وواعدهم النبيّ ﷺ في العقبة وسط أيام التشريق[(١)].

ثم إن هذا التفسير مترابط مع السورة اللاحقة وهي سورة البلد، والبلد هو مكة المكرمة، وهي التي تُؤدى فيها أعمال الحج كما لا يخفى.

إذاً فقد كان العرب يعرفون فضل هذه الأيام ويعرفون موسم الحج، لكنهم أساؤوا استغلاله وجعلوه موسماً للتجارة بدلاً من العبادة، ولاحظ التعقيب على القَسَم بقوله تعالى:

= وثالثاً: وُصف العاملون لليوم الآخر بأوصاف لم تذكر في موضع آخر: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾: ٥، و﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾: ٢٧- ٣٠. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**، ومن اللطيف أن عدد آيات السورة مطابق لعدد أيام الشهر، وكأنها تشير إلى تجدد الشهور في السنة على مرّ الزمان.

(١) ينظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ص ٢١٤- ٢٢١.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾، أي: هل منكم ذو عقل يجعله يسارع باغتنام الأوقات المباركة فيتقرّب إلى الله، ويمنعه عقله من الغفلة والتلهّي والتكذيب باليوم الآخر.

فالمقدّمة إذاً تدل على أن الله خالق الزمن والقائم عليه، وهو الذي جعل فيه أوقاتاً مباركة، وهو القادر على بعث العباد لمجازاتهم على أعمالهم.

ثانياً: ثم عرض السياق مصير بعض الأمم المكذّبة، التي كذبت الرسل وكذبت بلقاء الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾، لاحظ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، الدال على أن الله تعالى الذي خلق الفجر والليل وأقسم بهما ليدل على أنه خالق الزمان، هو الذي أهلك مَن سبق من الأمم المكذّبة، ومن ناحية ثانية يدل هذا القول على تهديد قريش، فإن الذي جعل لهم أوقاتاً مباركة ينبغي استغلالها ـ كالليالي العشر ويوم عرفة ويوم النحر ـ هو الذي أهلك من سبقهم من الأمم المكذّبة، فينبغي أن يكون هذا القسم دافعاً لهم ليحسنوا التصرف، فيؤمنوا ويعملوا للقاء الله.

ولاحظ أن السياق يركّز في عرض مصير هؤلاء الأقوام الثلاثة على بيان أن اغترارهم بقوّتهم هو الذي دفعهم للتكذيب، فقد وصف عاداً بكونها ذات العماد ليدل على ارتفاع مبانيهم، وبيّن أنهم لم يخلق مثلها في البلاد، وبيّن أن ثمود أوتوا من القوة ما يمكنهم من نحت الصخر فيجعلوها بيوتاً لهم، ووصف فرعون بذي الأوتاد ليدل على ارتفاع مبانيه، أو أن يكون الوصف عائداً على الأهرامات.

ولاحظ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾، الدال على أن اغترارهم بقوتهم دفعهم إلى التكذيب بلقاء الله والطغيان والفساد، وقولَه تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾، وهو فيما أرى مترابط مع القَسَم بالفجر والليل إذا يسري، فالله تعالى هو خالق الزمان والقائم عليه، وهو عليم بما يفعله الظالمون ومحاسبهم عليه.

ثم انتقل السياق إلى تعقيب على عرض مصير الأمم المكذّبة، وعرض حالة الإنسان الغافل عن الاستعداد للقاء الله كما يجب، فهو يعبد الله على حرف، فإن أكرمه الله ووسع عليه رزقه شكر، وإن ابتلاه وضيّق عليه رزقه كفر: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ

فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾، فبعد القَسَم بما يدل على أن الله هو خالق الزمان والقائم عليه، وهو عليم بما يفعله الظالمون ومحاسبهم عليه، كان من المفترض أن يكون الإنسان شاكراً في حال الرخاء، صابراً في حال الشِّدّة، ولاحظ بيان أنهم لا يكرمون اليتيم، ولا يحضون على طعام المسكين، وسبب طغيانهم هذا حبّهم الشديد للمال، حتى اغترّوا به ونسوا من رزقهم به، ولم يؤدّوا حقّه فيه.

فالملاحظ إذاً أن القَسَم بالفجر والليل إذا يسري، يعطي دلالة على قدرة الله تعالى كونه خالق الزمان والقائم عليه، فينبغي على الإنسان أن يستعدّ ويعمل للقاء هذا الخالق، لا أن يظلم نفسه بالكفر والطغيان.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما افتتحت بالقَسَم بالفجر للدلالة على قدرته على البعث، كما هو خالق الزمان والقائم عليه، عرضت الخاتمة بعض مشاهد اليوم الآخر لتأكيد قدرته تعالى على البعث والمجازاة: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾، ولاحظ بيان أن الإنسان حينئذ يتحسّر على ما فاته من التقديم لنفسه بالأعمال الصالحة، وأول ما يدخل في هذا السياق تفويت الإنسان استغلال الأوقات المباركة التي أقسم الله بها في المقدّمة. وذكر عذاب هذا المكذّب الغافل ووثاقه متلائم مع محور السورة من كونه تعالى خالق الزمان والقائم عليه، والمجازي للعباد بحسب أعمالهم.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالفجر والليل إذا يسري وما جعل الله من أوقات مباركة ينبغي لأولي الألباب استغلالها للاستعداد للقاء الله، ختمت ببيان مصير من استغلّ حياته كما يجب وتقرّب إلى الله بالطاعات حتى بلغ منزلة من التزكّي يستحقّ بها دخول الجنة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.

سورة الفجر

سورة الدعوة إلى استغلال الزمن وما فيه من الأوقات المباركة للإكثار من العمل الصالح لملاقاة الله تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً بالزمن وما فيه من أوقات مباركة على أن يوم القيامة حقّ:

- افتتحت السورة بالقَسَم بالفجر الدال على بداية اليوم، وعلى قدرته تعالى على إحياء الأموات بعد موتهم، وبالقَسَم بالليالي العشر من ذي الحجة، وبيومي الشفع والوتر وهما يوما عرفة ويوم النحر، وبالقَسَم بالليل إذ يسري الدال على نهاية اليوم، وعلى قدرة الله على إماتة الأحياء: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾.
- وعقب سبحانه على القَسَم بقوله: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾، أي هل منكم ذو عقل فيسارع باغتنام الأوقات المباركة والعمل الصالح لملاقاة الله يوم القيامة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٢٠)

بيان هلاك الأمم المكذّبة مع تعقيب وتوجيه:

- ثم بيّن السياق إهلاك الله عاداً الذين اغترّوا بأجسامهم القوية، وغفلوا عن الإيمان والاستعداد لليوم الآخر، وكذلك بيّن إهلاك الله ثمود الذين اغترّوا بقدرتهم ومهارتهم في نحت الصخور، حتى ظنوا أنها تنجيهم من عذاب الله، وكذلك بيّن إهلاك الله فرعون ذا الأوتاد الذي اغترّ بمبانيه المرتفعة.
- هؤلاء جميعاً جحدوا ربهم سبحانه، وطغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد بدلاً من الإيمان والعمل الصالح، حتى لحق بهم العذاب.
- ثم عقب السياق بذكر موقف الإنسان، فهو يشكر ربه إذا أكرمه ونعّمه، وإذا ابتلاه وقدر على رزقه ضجر، وهو لا يسعد للقاء الله فلا يكرم اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، وقد ألهاه حبُّ المال عن العمل الصالح استعداداً للقاء الله تعالى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢١-٣٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- عرضت مشاهد من اليوم الآخر لتؤكّد قدرته تعالى على البعث: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾.
- وبيّنت حسرة الإنسان الذي لم يستعدّ للقاء ربه، ولم يستغلّ ما في الزمن من أوقات مباركة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالزمن وما فيه من الأوقات المباركة التي ينبغي أن يستغلّها أرباب العقول ليستعدّوا للقاء ربهم، ختمت ببيان مصير من استغل حياته كما يجب وتقرّب إلى الله بالتزكّي والعمل الصالح: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

سورة البلد

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بمكة، وهي البلد الحرام، وقد أقسم الله بها للدلالة على أن الإنسان خُلِق في كَبَد، والقَسَم متلائم مع المُقْسَم عليه من حيث طبيعة الحياة العَسِرة في البلد الحرام، فهو بلد شديد الحَرّ، قليل الماء والثمار(١)، والبلد الحرام هو الذي نزل فيه الوحي على النبيّ ﷺ ليخرج الناس من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وبموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة هو الدلالة على نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتها لخالقه سبحانه، بذكر ما للإنسان من هموم الحياة وضنكها، وهي تذكر السبب المخلّص من هذا الضنك والموصل إلى السعادة الأبدية، وهو اتباع هدى الله عزّ وجلّ، وأما من أعرض عن هدى الله فسينتهي إلى الكبد الأكبر يوم القيامة، ويكون من أخسر الأخسرين. وتأمُّلُ القَسَمِ والمُقْسَم عليه أدل ما في السورة على هذا المقصود، فهو بلد عسير ظروف المعيشة، وهو أيضاً منطلق الدعوة النبوية(٢).

---

(١) ذكر الإمام ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق أن زعماء قريش قالوا يوماً للنبيّ ﷺ: «يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقلّ ماءً ولا أشدّ عيشاً منّا، فَسَلْ لنا ربك فليسيِّر عنّا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق..». **السيرة النبوية**، ص ١٤٨. بتصرف.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٠٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٢٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ٣٩٠٩، ٣٩١٠، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣٤٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير** =

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى اتباع هدى الوحي المنزل في البلد الحرام، ليتحقّق للمؤمن الراحة الأبدية يوم القيامة، وبيان أن الكافر بهذا الوحي سيبقى في الكبد الدائم يوم القيامة، ولما كانت طبيعة الحياة عسيرة في البلد الحرام، وكان هو مهبط الوحي ليخرجهم من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة، أقسم به وجعله اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الخروج من كبد الدنيا لنيل الراحة الأبدية، باتباع هدى الوحي المنزل على النبيّ ﷺ في البلد الحرام**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي قَسَماً بالبلد الحرام ذي الظروف العسيرة، وبكونه مهبط الوحي على أن الحياة الدنيا حياة الكبد، ثم بيان لحال أكثر الناس في هذه الحياة، مع دعوة إلى إحسان العمل، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق(١).

= **الموضوعي**، م ٩، ص ١٣٣، ١٣٤، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٢٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٣٧- ٣٣٩.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، وبيان حال أغلب الناس في الدنيا: ٥- ١٦، والخاتمة: ١٧- ٢٠. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يأتِ القَسَم بالبلد الحرام متبوعاً بكون النبيّ ﷺ حالًّا فيه إلا هنا: ١، ٢، وذلك ليدل على سبيل الخلاص من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة عن طريق اتباع الوحي، بينما جاء القَسَم بالبلد الحرام دون ذكره ﷺ صراحة في سورة التين: ٣، ثانياً: منها أمور تبيّن طبيعة الحياة الدنيا: أ) فقوله تعالى واصفاً حال الدنيا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾: ٤، لم يذكر إلا هنا، ب) وكذلك وصف الفئات المستضعفة فيها، كوصف العبيد بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: ١٣، ووصف اليتيم والمسكين بـ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: ١٥، ١٦، ج) وكذلك وصف المجاعة بقوله: ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: ١٤، ثالثاً: منها أمور تختص بالإنسان الغافل، أ) كقوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾: ٦، ولم يجتمع الفعل (أهلك) مع المال إلا هنا، ولم يوصف المال باللبد إلا هنا، ب) وكقوله تعالى عن الإنسان الغافل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾: ١١، ١٢، لم يذكر إلا هنا، ج) وصف الكافرين يوم القيامة بكونهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٩، وفي سورة الواقعة: ٩ (مرتين)، ووصف مصير الكافرين يوم القيامة بقوله ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ لم يذكر إلا هنا: ٢٠، وفي سورة الهمزة: ٨، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. ومن اللطيف إنك إذا راجعت سياق السور الثلاث: الواقعة والبلد والهُمزَة، فيما يتعلق بحال الكافرين في الدنيا ومصيرهم في الآخرة؛ ستجد أنها تشترك ببيان غفلتهم واغترارهم بمالهم حتى كان مصيرهم الكبد الأكبر يوم القيامة.

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم بالبلد الحرام، والنبيُّ ﷺ مقيم فيه يحذّر قومه بما يأتيه من الوحي، على أن الحياة الدنيا طبيعتها الكبد: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾، فهذا البلد هو من أعسر البلاد معيشة، وقد اختاره الله مهبطاً للوحي، وأنزل الوحي على النبيّ ﷺ المقيم فيه ليخرج الناس من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة، ويتلاءمُ ذِكْرُ النبيّ ﷺ وما كان يكابده من أذى قومه مع القَسَم بالبلد الحرام ذي الطبيعة العسيرة[1]، ومع جَوّ الكبد الغالب على السورة، ولاحظ القَسَم بالوالد وما ولد ليؤكّد حقيقة أن الإنسان خلق في كبد، فمن المعلوم أن الوالدَيْن يعانيان مع المولود في كل مرحلة من حياته، فالوالدة تعاني من الحمل تسعة أشهر، ثم تعاني بالولادة والرضاعة، والأب يعاني بتربية المولود وجلب حاجاته، يعاني بتربيته طفلاً، ثم يعاني بتربيته غلاماً، ثم يعاني بتربيته شاباً. . ، فحياة الوالدين كلّها كَبَدٌ في كَبَدٍ.

ثانياً: وبعد أن أقسم الله بالبلد الحرام، وبيّن أنه هو الذي يوحي لعبده ﷺ المقيم فيه، وأنه تعالى هو خالق الإنسان وأنه قضى على هذه الدنيا طبيعة الكبد، انتقل السياق لبيان حال أكثر الناس، إذ هم يعرضون عن الهدى الذي أنزله خالقهم بالوحي على أنبيائه، ويغترّون بأموالهم وكأنه لا حساب بعد الموت: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى هو الذي جعل للإنسان عينين ولساناً وشفتين، وهو الذي بيّن له طريق الهدى من طريق الضلال، وذلك عن طريق الوحي، فالسياق إذاً يبيّن أن الإنسان إذا اتبع هدى الوحي ضمن الحياة الرغيدة في الآخرة، وإن لم يتبع هدى الوحي فسيبقى في الكبد الأكبر يوم الآخرة.

ولاحظ أن السياق يدعو إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، وخص منها ما يتعلق بالمال، فعلى الإنسان أن يسعى بماله لفكّ الرقاب، أو إطعام اليتامى والمساكين، بدلاً من

---

(١) أشار لذلك الإمام البقاعي رحمه الله في نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٢٦ وقال: «أقسم الله بسيّد البلاد وسيّد العباد ﷺ»، وهو قول ظريف.

إهلاك المال في الوجوه الباطلة، والسياق بذلك يقرّر المحور المذكور من أن اتباع هدى الوحي يوصل إلى الحياة الرغيدة في الآخرة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد قرّرت أن من آمن واتبع هدى الوحي وعمل صالحاً، ضمن الحياة الرغيدة الأبدية في الآخرة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالبلد الحرام، وبالوحي الذي نزل فيه ليخرج الناس من كبد الدنيا إلى رغد الآخرة، ختمت ببيان مصير من أعرض عن هدى الوحي، وأنه سيبقى في الكبد الأكبر في الآخرة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة البلد

سورة الدعوة إلى الخروج من كبد الدنيا لنيل الراحة الأبدية، باتباع هدي الوحي المنزل على النبيّ ﷺ في البلد الحرام

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدّمة التي تحوي قَسَماً بالبلد الحرام ذي الظروف العسيرة، وبكونه مهبط الوحي، على أن الحياة الدنيا حياة الكَبَد:

■ افتتحت السورة بالقَسَم بالبلد الحرام الذي يَحِلُّ فيه النبيّ ﷺ وينزل عليه الوحي فيه، وبالقَسَم بالوالد وما يعانيه من تربية أولاده وتدبير أمورهم: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.

■ وجواب القَسَم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝﴾، فكل هذه الحياة كبد في كبد، فمن آمن واتبع هدى الوحي المنزل في ذلك البلد، خرج من الكبد الدنيوي إلى النعيم الأبدي، ومن كفر به بقي في الكبد الأبدي بعد الكبد الدنيوي.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٦)

بيان حال أكثر الناس في الحياة الدنيا، مع الدعوة إلى إحسان العمل:

■ ثم بيّن السياق حال أغلب الناس، إذ هم يعرضون عن هدى وحي خالقهم ويغترّون بأموالهم وكأنه لا حياة بعد الموت: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝﴾.

■ ثم دعا السياق إلى الإيمان بهدى الوحي والعمل الصالح: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧-٢٠)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

■ قررت الخاتمة أن مَنْ آمن واتبع هدى الوحي المنزل في ذلك البلد وعمل صالحاً، ضَمِنَ الراحة الأبدية يوم القيامة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝﴾.

■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الخروج من كبد الدنيا باتباع هدى الوحي، ختمت ببيان أن من كفر بالوحي فسيبقى في الكبد الأبدي الأخروي بعد الكبد الدنيوي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝﴾.

سورة الشمس

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالشمس، كونها أحد أبرز مظاهر كمال قدرة الله تعالى، على أن المفلح من آمن وزكى نفسه، وأن الخائب من كفر واتبع هواه. فالقَسَم بالشمس يدل على أن مَن خلقها وجعل الليل والنهار ناشئين عنها، هو الذي أنزل القرآن الحكيم، فمن اتبع هداه وتزكّى كان من المفلحين، ومن كفر به واتبع هواه كان من الخائبين.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة إيقاظ النفس البشرية واستعداداتها الفطرية، ليتحمّل الإنسان دوره في شأن نفسه، وتبعته في مصيرها، وربط ذلك بالقَسَم بالظواهر الكونية الدالة على الخالق، ولما كان من غرض السورة تهديد المشركين بأن يصيبهم مثل ما أصاب ثمود، قدّم بالقَسَم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى، فهو المنفرد بالإلهية[(١)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٣٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ٣٩١٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣٦٦، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ١٤٥. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٥٢٢، ود. شحاتة، **أهداف كل سورة**، ج ٥، ص ١٧٦- ١٨١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

الإيمان من خلال بيان أن المفلح من آمن بالوحي وزكى به نفسه، وأن الخائب من كفر بالوحي واتبع هواه، ولما كان القَسَم بالشمس وما تبعها يدل على أن من خلق هذه المخلوقات وجعلها دالة عليه، هو مَن أرسل الأنبياء بالوحي للناس ليؤمنوا بالخالق ويزكوا أنفسهم، جُعِل هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى التزكّي باتباع هدى وحي خالق الشمس والقمر والليل والنهار سبحانه وتعالى.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى قِسْمين، أولهما: القَسَم ببعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى على أن المفلح من آمن وتزكّى، وأن الخائب من كفر واتبع هواه، وثانيهما: تأكيد القِسم الأول من خلال عرض أنموذج لمن كفروا واتبعوا هواهم وبيان مصيرهم(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم ببعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، على أن مَن آمن

---

(١) القسم الأول شملته الآيات: ١- ١٠، والقسم الثاني: ١١-١٥، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، أ) لم يأت في القرآن قَسمٌ بالشمس إلا هنا، ب) والقَسَم بالقمر بهذه العبارة ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَنهَا﴾: ٢ كذلك الأمر، وقد أقسم الله بالقمر في ثلاثة مواضع بعبارات مختلفة: في سورة المدثر: ٣٢، وفي سورة الانشقاق: ١٨، ج) وكذلك القَسَم بالنهار بعبارة ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّنهَا﴾: ٣، وقد أقسم الله بالنهار في موضع آخر فقط: في سورة الليل: ٢، د) وكذلك القَسَم بالليل بعبارة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَنهَا﴾: ٤، وقد أقسم الله بالليل في ستة مواضع أخرى: المدثر: ٣٣، والتكوير: ١٧، والانشقاق: ١٧، والفجر: ٤، والليل: ١، والضحى: ٢، هـ) وكذلك القَسَم بالسماء بعبارة ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَنهَا﴾: ٥، وقد أقسم الله بالسماء في أربعة مواضع أخرى: الذاريات: ٧، البروج: ١، الطارق: ١، ١١، و) وكذلك القَسَم بالأرض بعبارة ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَنهَا﴾: ٦، وقد ذكر القَسَم بالأرض في موضع آخر فقط: الطارق: ١٢، ز) وكذلك القَسَم بالنفس بعبارة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنهَا﴾: ٧، وقد ذكر القَسَم بالنفس في موضع آخر فقط: القيامة: ٢، ومن اللطيف أن القسم بالسماء والأرض انتهى عند الآية السادسة، مما يتناسب مع ما هو معلوم من أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثانياً: ومنها ما يتعلق بالنفس: أ) لم تذكر هذه العبارة ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنهَا﴾ إلا هنا: ٨، إذ لم يضف المصدر (فجور) والمصدر (تقوى) إلى النفس بصيغة المفرد إلا هنا، ب) وكذلك هذه العبارة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا﴾: ٩، وانظر قريباً منها: طه: ٦٤، المؤمنون: ١، الأعلى: ١٤، ج) وكذلك هذه العبارة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا﴾: ١٠، وانظر قريباً منها: طه: ٦١، ١١١، وإبراهيم: ١٥، د) وكذلك هذه العبارة ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَنهَا﴾: ١٢، وقد ذكرت لفظة ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ في موضعين آخرين فقط: الأعلى: =

بالوحي وزكّى به نفسه فهو المفلح، وأن من كفر بالوحي واتبع هواه فهو الخائب: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، فقد أقسم الله بالشمس وهي آية النهار، وبالقمر وهو آية الليل، وهما آيتان يراهما الناس بشكل يومي، وهما من أدل الآيات على عظمة الخالق سبحانه، ولما أثبت القَسَم أن الله هو خالق الشمس والقمر، أقسم بالسماء عظيمة البناء ليثبت أن خالق هذه المخلوقات العظام واحد عظيم القدرة، وناسب عطف القَسَم بالأرض على القَسَم بالسماء، لبيان أن الذي بسطها وسهّل السير فيها هو خالق السماء، وأخّر القَسَم بالنفس كونها أقلّ المذكورات شأناً.

وقد اختصّ اسم السورة بالشمس دون غيرها كالسماء مثلاً مع أنها أعظم منها شأناً؛ لأن الشمس وما ينتج عن دوران الأرض حولها من الليل والنهار أدل آيات السماء على قدرة الله تعالى بالنسبة للبشر، فالشمس آية عظيمة يراها الناس يومياً ولهم منها فوائد كثيرة في حياتهم، وإن كانت السماء أعظم منها شأناً.

ولاحظ جواب القَسَم الذي يبيّن أن الله ألهم النفس فجورها وتقواها، وذلك عن طريق الوحي، فمن آمن بالوحي واتبع أوامره واجتنب نواهيه، زكّى نفسه وكان من المفلحين، ومن كفر بالوحي ولم يلتزم بما جاء به من الأوامر والنواهي، فهو متّبع لهواه ويدسّ نفسه في الضلال، وكان من الخائبين.

فالمقدّمة كما ترى تثبت أن الخالق العظيم، الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة، هو الذي أرسل رسوله العظيم ﷺ بالوحي، ليزكّي به النفوس ويتحقّق لها الفلاح، وأن من

= ١١، والليل: ١٥، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بالله تعالى: أ) لم تذكر هذه العبارة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ إلا هنا: ١٤، ب) وكذلك ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ في سياق العذاب، بينما ذكرت هذه اللفظة في سياق بيان النِّعَم في موضعين فقط: الشمس: ٧، والنازعات: ٢٨، ج) لم تذكر هذه العبارة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ إلا هنا: ١٥. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. ومن اللطيف أن عدد آيات هذه السورة خمس عشرة آية، وهو نصف عدد أيام الشهر، وقد أقسم الله في بدايتها بالشمس وما ينتج عنها من الليل والنهار، ومعلوم أن الليل والنهار يمثّل أحدهما ـ غالباً ـ نصف أيام الشهر.

أعرض عن وحي الله العظيم، ستتحقّق له الخيبة. وأعتقد أن هذا يتلاءم مع قوله تعالى في سورة البقرة الذي يؤكّد هذه الحقيقة: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير أنموذج ممن كذب بالوحي واتبع هواه وكانت الخيبة مصيرهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، وأعتقد أن اختصاص ثمود بالعرض يتلاءم مع محور السورة من حيث إن أمر نبيّهم عليه السلام إياهم بعدم التعرّض لناقة الله بسوء، يشابه ما جاء به الوحي من الأمر بعدم ارتكاب ما حرّم الله، ولاحظ أن السياق بيّن مصير تكذيبهم لنبيّهم عليه السلام، وارتكابهم لما نهاهم عنه، فقد أرسل الله عليهم عذاباً مطبقاً فسواهم بالأرض، وهذا العذاب يتلاءم مع الآيات العظيمة الدالة على الله تعالى المُقسَم بها أول السورة، وكما أن الله القدير جعل الأرض مستوية ـ كما ذكر أول السورة ـ ليدل على عظمته، فكذلك تسويته لثمود بالأرض يدل على قدرته وعظمته.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بعدد من مظاهر كمال قدرة الله تعالى وعظمته، واختصّ منها الشمس اسماً للسورة، ليدل على أنه هو الذي يوحي للأنبياء ليتزكّى من يؤمن، ختمت ببيان أن هذا الخالق العظيم هو القادر على إلحاق الخيبة بمن كذّب وأعرض عن وحيه، ولا يخاف من عاقبة إنزال عذابه بهم شيئاً. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الشمس

سورة الدعوة إلى التزكي باتباع هدى وحي خالق الشمس والقمر والليل والنهار سبحانه وتعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

القَسَم ببعض مظاهر كمال قدرته تعالى على أن المفلح مَن آمن بالخالق العظيم واتبع هدى وحيه، وأن الخائب من اتبع هواه وكفر:

- ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾، فالمُقسِم سبحانه هو الإله الخالق العظيم الذي يوحي بالهدى لأنبيائه ورسله.
- ثم بيّن السياق أن الله يوحي لأنبيائه ليبيّن طريق الفجور من طريق التقوى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.
- فالمفلح مَن اتبع هدى وحي الخالق العظيم، والخائب من أعرض عنه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-١٥)

تأكيد الموضوع الأول من خلال ذِكْر أنموذج تحذيري لمن كفروا واتبعوا أهواءهم مع بيان مصيرهم:

- ثم بيّن السياق موقف ثمود الذين طغوا ولم يتبعوا أمر نبيّهم الذي أوحى الله إليه بأن لا يتعرّضوا لناقة الله وسقياها، ولكنهم كذبوه.
- وكما افتتحت السورة بذكر مظاهر عظمة الله وكمال قدرته للحثّ على اتباع هدى وحيه، بيّنت الخاتمة مصير مَن أعرض عن هدى هذا الخالق العظيم والخيبة التي نالتهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾.

سورة الليل

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالليل حال كونه يغطي الأشياء في ظلامه الدامس، والمراد من هذا القَسَم الدلالة على أن الله الذي خلق الليل يعلم ما يغطيه هذا الليل وما يجري فيه من أمور غيبية في الخفاء، وفي ذلك تأكيد على أنه تعالى يعلم جميع أعمال البشر وأنه قادر على مجازاتهم عليها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة بيان التصرف الإلهي التامّ في النفوس بإثبات كمال قدرته، فالسورة تقرّر حقيقة الجزاء والعمل، من خلال الإيحاء بما وراء تقلُّب الليل والنهار من يدٍ تدير هذا الفَلَك، فإن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر، ولا يتركهم سُدًى ولا يخلقهم عبثاً، كما وأن الليل والنهار اللَّذيْن أقسم الله بهما يتناسبان مع المُقْسَم عليه وهو أن سعي الناس منه خير وشرّ، وهما مماثلان للنور والظلمة، وقد اختير القَسَم بالليل والنهار لبيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان بعض مظاهر شمول علم الله تعالى في كَوْنه وإحاطته بأعمال البشر التي سيحاسبهم عليها الحساب التامّ يوم القيامة، ولما كان القَسَم بالليل والنهار والذكر والأنثى من المخلوقات دالاً على

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٤٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٢٠ و ٣٩٢١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣٧٧ و ٣٧٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ١٦٩ و ١٧٠. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٢٣، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٥٩، ٤٦٠، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

شمول وإحاطة علم الله تعالى، أقسم الله بها واختصّ الليل لاسم السورة؛ لأنه أدل ما فيها على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان علم الله التامّ بأعمال عباده التي سيجازيهم بها، كما أن علمه تامّ بخفايا كَوْنه ومخلوقاته.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين محور السورة ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى قِسْمين، أولهما: القَسَم بالليل والنهار والذكر والأنثى على شمول علمه تعالى بأعمال البشر ومجازاته العادلة لهم، كلٌّ حسب عمله، وثانيهما: تأكيد القِسْم الأول من خلال بيان مصير من كذّب وتولّى، ومصير من آمن واتقى يوم القيامة[1].

أولاً: جاء في القِسم الأول من السورة قَسَم من الله تعالى يدلّ على علمه التامّ بأعمال البشر وقدرته على مجازاتهم عليها: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ

(١) القِسم الأول شملته الآيات: ١- ١٣، والقسم الثاني: ١٤- ٢١، ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور التي تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، أ) فالقَسَم بالليل والنهار بعبارة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ دون تحديد المفعول به لم يتكرر في القرآن، بينما في سورة الشمس السابقة ذكر ضمير المفعول به الذي يعود على الشمس، وعدم ذكر المفعول به في سورة الليل أدل على شمول علم الله لكل ما يغشاه الليل وكل ما يجلّيه النهار، ب) القَسَم بخلق الذكر والأنثى لم يتكرر في القرآن، وهو يدل على كمال قدرة الله وشمول علمه، ج) عبارة ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ التي هي جواب القَسَم لم تتكرر أيضاً في القرآن، وهي تدل على المحور المذكور بلا شكّ، ثانياً: ومنها ما يتعلق ببيان شمول وإحاطة علم الله وكمال قدرته، أ) فقوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: ٧، و ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾: ١٠، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وقريب منه قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: ٨، وهي متعلقة بسيدنا محمد ﷺ، بينما لفظة (العسرى) لم تتكرر في القرآن، وهما عبارتان تدلان على الجزاء العادل حسب العمل، ب) وصف المكذّب المتولّي بـ ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٥، وفي سورة الأعلى: ١١ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ وهي عبارة تدل على الجزاء العادل، ج) وصف المؤمن بـ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ لم يذكر في القرآن بصيغة أفعل التفضيل إلا هنا: ١٧، ووصف جزائه بعبارة ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾: ٢١، كذلك لم تتكرر بذات الصيغة، وقريب منها قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ طه: ١٣٠، وقوله ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾: الضحى: ٥، ومن اللطيف أنهما عبارتان تختصان بسيدنا محمد ﷺ أيضاً. وينظر للمراجعة، عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ولاحظ تقديم ذكر الليل، لأنه أدل على كمال علم الله تعالى بما يغشاه من الأشياء والأحداث الخفيّة، ولاحظ عدم ذكر المفعول به لما يغشاه الليل وما يجلّيه النهار، ليؤكّد حقيقة كونه تعالى عالماً بكل ما يجري في كونه ليلاً أو نهاراً خُفْيَةً أو جهرة، ولم يحدّد السياق بيان نوع الذكر والأنثى، فهو وصف لكل المخلوقات، وفي هذا زيادة في الدلالة على المحور المذكور.

ولاحظ جواب القَسَم الذي يبيّن أنه تعالى عليم بأعمال البشر مهما اختلفت مقاصدها من خير أو شرّ، وبناء على ذلك فالله يجزي كلًّا بحسب عمله، فيُيَسِّر للخير مَن عمل خيراً، وييسر للشَّرّ من عمل شرًّا، ولاحظ التأكيد على أنه سبحانه بيده الدنيا والآخرة، وهذا يؤكّد المحور المذكور. فهذا القِسم الأول من السورة يثبت أن الله العليم بمخلوقاته وبكل ما يجري في كونه، عليم أيضاً بأعمال البشر التي سيجازيهم عليها.

ثانياً: وجاء في القِسم الثاني تأكيد لما تقدّم، وذلك ببيان مصير المكذّب والمؤمن يوم القيامة، وبذلك يتجلّى بيان شمول وإحاطة علم الله تعالى وكمال قدرته بأبلغ صورة: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، ولاحظ وصف المكذّب المتولّي بالأشقى، ووصف المؤمن المتزكّي بالأتقى، مما يدل على أنه سبحانه يعلم من بلغ من دركات الشقاء حتى وصل إلى الوصف بالأشقى، وهو سبحانه يعلم من ارتقى بدرجات التزكية حتى بلغ إلى الوصف بالأتقى.

وكما افتتحت السورة بالقَسَم الدال على أنه تعالى يعلم جميع أعمال البشر وسيجازيهم عليها، وكان القَسَم بالليل أدل هذه الأقسام على ذلك، ختمت ببيان شرط قبول الأعمال، وهو أن تكون النية خالصة لوجه الله تعالى، ليجزي اللهُ مَن قام بالأعمال وفق هذا الشرط بما يرضي هذا العامل المخلص، وفي ذلك دلالة أيضاً على أنه تعالى يعلم مَن تحقّق في عمله هذا الشرط ممن لم يتحقّق به، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.

سورة الليل

سورة بيان علم الله التامّ بأعمال عباده التي سيجازيهم بها، كما أن علمه تامّ بخفايا كَوْنه ومخلوقاته

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٣)

القَسَم بالليل والنهار والذكر والأنثى على شمول علمه تعالى بأعمال البشر، ومجازاته العادلة لهم يوم القيامة:

- أقسم الله تعالى بالليل وما يغشاه من الأسرار والأحداث الخفية، وبالنهار وما يجليه من الكائنات، وبكل أنواع الذكر والأنثى من المخلوقات على أن أعمال البشر شتّى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، وعدم تحديد المفعول به للفعلين: "يغشى، تجلى"، وعدم بيان نوع الذكر والأنثى، يدل على كمال علمه تعالى بكونه وبمخلوقاته ما خفي منها وما ظهر.
- ثم بيّن السياق مصير مَن أحسن العمل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾.
- وبيّن مصير من أساء العمل: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.
- وتحديد مصير الفريقين يبرز كمال علم الله بأعمال خلقه الظاهرة والخفيّة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٤-٢١)

تأكيد الموضوع الأول من خلال عرض مصير من كذّب وتولّى، ومصير من آمن واتقى يوم القيامة:

- بيّنت السورة مصير من كذّب بآيات الله واستكبر عنها: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾.
- وبيّنت مصير من آمن واتقى وأحسن العمل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم الدال على علم الله التامّ بأعمال البشر، ختمت ببيان شرط قبول الأعمال عند الله، وبيان علم الله بمن تحقق فيه هذا الشرط ممن لم يتحقّق فيه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾.

سورة الضحى

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الضاد والحاء والحرف المعتلّ: أصل صحيح واحد يدلّ على بروز الشيء»(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «الضَّحْوُ والضحوة والضحية: ارتفاع النهار... والضحى: حين تطلع الشمس فيصفو ضوءها»(٢)، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى قَسَم الله تعالى بهذا الوقت الدال على ابتداء النهار على أنه تعالى ما ترك سيّدنا محمداً ﷺ منذ خلقه، وما كرهه منذ أحبّه، وفي ذلك رَدّ على امرأة من قريش زعمت أن الوحي انقطع عنه ﷺ؛ لأن ربَّه قد تركه بغضاً له(٣).

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين دلالة اسم هذه السورة ومحورها، فذكروا أن مقصود هذه السورة بيان أن النبيّ ﷺ في عين الرضا دائماً، لا ينفكّ عنه في الدنيا ولا في الآخرة، وأن انقطاع الوحي لفترة ما ليست دليلاً على القِلى، بل هو ابتلاء له حكمة، فالسورة كلّها تسرية وتسلية وترويح وتطمين له ﷺ، واسمها دالّ على ذلك، لأنه قَسَم بأشرف أوقات النهار، وهو ﷺ أشرف الخلق، ونور الضحى الحسي يشبه نور النبيّ ﷺ

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٦١٣.

(٢) ابن منظور: **لسان العرب**، ج ٩، ص ٢١، بتصرف.

(٣) حادثة تلك المرأة مع النبي ﷺ أخرجها الإمام البخاري رحمه الله في **الصحيح**، كتاب التفسير، برقم: ٤٥٦٩، والإمام مسلم رحمه الله في **الصحيح**، كتاب الجهاد والسير، برقم: ٣٣٥٥.

المعنوي، ثم إن الضحى بما يحمل من دلالة الأنس بابتداء حركة الناس، متلائم مع تأنيسه ﷺ في بداية الدعوة، أضف إلى ذلك ما في هذه السورة من ألفاظ ذات موسيقى سارية التعبير وشجية الإيقاع(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تأنيس النبيّ ﷺ وتثبيته على دعوته إلى ربّه، من خلال بيان أن الله تعالى لم ولن يتخلّى عنه، لا قبل البعثة ولا بعدها. وقد أقسم الله بالضحى لإثبات هذا المحور؛ لأن دلالات هذا القَسَم تحقّق الأُنْس له ﷺ. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة تأنيس الله لنبيّه ﷺ في الدنيا والآخرة.**

وبتأمّل السورة يبرز الترابط بين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وبين آياتها، وفيما يلي بيان ذلك(٢): ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٠٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ٤٥٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٢٥- ٣٩٢٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٣٩٤، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٢٠٠، والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ٢٢٨- ٢٣٣، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٢٤، ود. شحاتة، **أهداف كل سورة**، ص ١٩٣- ١٩٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٤٠- ٣٤٢.

(٢) من لطائف هذه السورة: أولاً: أن الضمير العائد على الله تعالى في سياقها جاء كله بضمير المفرد: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ﴾، ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ﴾. . . ، لأنه كفى به مؤنساً سبحانه وتعالى، وثانياً: امتازت هذه السورة بألفاظ لم تذكر في سورة أخرى، على نحو يحقّق له الأنس ﷺ، وفيما يلي بيان ذلك: أ) لم يوصف الليل بالفعل ﴿سَجَىٰ﴾ إلا هنا، ب) لم يذكر الفعل (ودّع) إلا هنا وقد جاء في سياق النفي، وكذا الفعل ﴿قَلَىٰ﴾، ج) لم يذكر في القرآن كونه ﷺ يتيماً إلا هنا، بينما لفظة «الضحى» ومشتقاتها فقد ذكرت في القرآن سبع مرات، منها مرتان تعطيان دلالة الأنس بالناس: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾: الأعراف: ٩٨، و﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾: طه: ٥٩. وباقي المرات تعطي دلالات متعددة، فمنها ما يدل على أن وقت الضحى أقلّ أوقات النهار حرّاً: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾: طه:١١٩، فقد نفى حصول الظمأ لآدم عليه السلام في الجنة بأنه لن يشعر بالحَرّ، ولذلك استخدم أقل أوقات النهار دلالة على الحَرّ، ومنها ما يدل على قدرة الله تعالى في خلق النهار من بدايته: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾: النازعات: ٢٩، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾: الشمس: ١، ومنها ما يدل على قصر هذا الوقت وأخفّها أثراً على الناس: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾: النازعات: ٤٦، فالضحى مع كونه أقصر أوقات النهار ولكنه أكثرها دلالة على الأنس والنشاط والخفة ونفي الحَرّ، وهو دليل على قدرة الخالق، ولذلك استخدمت هذه اللفظة دون غيرها، والله أعلم. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾، لاحظ القَسَم بوقت الضحى وهو أكثر أوقات النهار دلالة على الأنس ببدء حركة الناس بنشاط، وهو ألطف الأوقات وأكثرها دلالة على نفي الحَرّ، ولعل ذلك يطلعنا على سِرّ عدم استخدام ألفاظ أخرى للقَسَم، مثل «الفجر» لأنه أقلّ دلالة على الأنس بالناس، فمعظم الناس نائمون في ذلك الوقت، ومثل «النهار» لأنه يدل على الحَرّ، وإحساس الناس بالتعب، ومثل «الليل» لأنه وإن دل على الأنس باجتماع الناس في بيوتها للنوم، لكنه أقلّ دلالة على الأنس من الضحى كما لا يخفى، فالليل يدل على نهاية الأنس، والضحى يدل على بدء الأنس، وأعتقد أن دلالة الضحى على نشاط الناس متلائمة مع تثبيت النبيّ ﷺ على دعوته بأن يقوم إليها بنشاط.

ولاحظ القَسَم بالليل إذا سجى، فهو آخر أوقات اليوم، وفيه دلالة على الأنس أيضاً لاجتماع الناس في بيوتها من أجل النوم، فالضحى أعطى دلالة الأنس من أول اليوم، والليل أعطى دلالة الأنس في آخره، ثم لاحظ وصف الليل بالفعل «سجى» دون غيره مثل «يغشى»، أو «عسعس»، أو «يسرِ»، فالفعل «سجى» يعطي دلالة الهدوء والراحة النفسية، مع الإشارة إلى طول هذا الوقت المريح، وليس في حروفه حرف استعلاء أو حرف مفخّم مثل «يغشى» أو «يسر» ـ في حال الوقوف على الراء ـ. فالفعل «يغشى» مناسب لسياق الدلالة على قدرة الله تعالى وليس الأنس، والفعل «يسر» يوحي بسرعة انقضاء هذا الوقت، فهو أقلّ دلالة على الأنس من الفعل «سجى»، ولا يخفى أن الفعل «سجى» أشدّ دلالة على الهدوء والراحة من الفعل «عسعس»، لأن «عسعس» يدل على بدء الليل بإقبال ظلامه، فهو مناسب أيضاً في سياق الدلالة على قدرة الله، بينما «سجى» يدل على تمكّن حالة الهدوء والراحة في الليل وطول هذا الوقت المريح.

ولاحظ ذكر الضمير العائد على النبيّ ﷺ مع الفعل «ودّع»، لأن التوديع لا يكون إلا لحبيب، ولم يذكر هذا الضمير مع الفعل «قلى» لأن القلى لا يكون إلا لبغيض، وأيّ تعبير يفيد تثبيته ﷺ على دعوته أكثر من ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾؟ مع التوكيد باللام والفاء.

ولاحظ التعبير عن حاله ﷺ قبل البعثة، فانظر الفعلَ «وجدك» الدال على تحقيق الأنس، والفعلَ «فآوى» المؤكّد بالفاء، وكذلك لم يتخلَّ عنه ربه سبحانه إذ هداه الله إلى الإيمان وحقائقه، وقد كان ﷺ ذا عيال فأغناه ربه، وأعتقد أن عدم ذكر الضمير العائد عليه ﷺ مع هذه الأفعال الثلاثة، من أجل أن لا يقتصر الإيواء والهداية والإغناء من الله تعالى على نبيّه ﷺ فقط، بل هو ﷺ أشرف أنموذج لمن تحقّق له ذلك، فالله تعالى آواه ﷺ وآوى غيره، وهداه وهدى غيره، وأغناه وأغنى غيره.

وبعد أن تحقّق الأنس له ﷺ من الله تعالى بأكمل صورة، ناسب ذكر التوجيه بعدم قهر اليتيم، فكما كنت يتيماً وآواك الله ولم يتخلَّ عنك، فلا تقهر اليتيم ولا تتخلّ عنه، وكما كنت ذا عيال فأغناك الله ولم يتخلّ عنك، فلا تنهر السائل وتتخلّ عنه، ولاحظ الدعوة إلى القيام بمهمة تبليغ الرسالة، وهي أجلُّ نعمة من الله تعالى عليه ﷺ، والتحديث بها يكون عن طريق تبليغها للناس بهمة ونشاط، فكما يبتدئ الناس يومهم ضحًى بهمة ونشاط، فانهض إلى دعوة ربك بهمة ونشاط.

فأنت تلاحظ أن هذه السورة بسياقها تحقّق له ﷺ الأنس والتثبيت في دعوته، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة «الضحى» ألطف وأجمل دلالة.



سورة الضحى

سورة بيان تأنيس الله لنبيه ﷺ في الدنيا والآخرة

- أقسم الله بأكثر أوقات النهار دلالة على الأُنْس بالناس، وأكثرها خِفَّة ولطافة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.
- وأقسم بالليل واصفاً إياه بأبلغ الأوصاف دلالة على الهدوء السكينة والاستئناس والراحة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.
- وجواب القَسَم يحقق أن الله لم يترك نبيّه ﷺ منذ خلقه، ولم يبغضه منذ أحبَّه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.
- وحقق له الأنس في الآخرة أيضا: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾.
- وليس أكثر من هذه العبارة دلالة على الأنس والرضا: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.
- ومما يؤكّد حصول الأنس له ﷺ أن الله أواه حين كان يتيماً: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، وهداه إلى الإيمان وحقائق الوحي حين كان غافلاً عنها: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، وأغناه حين كان فقيراً ذا عيال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾.
- وبعد تحقّق الأنس له ﷺ والرضا في الدنيا والآخرة، وكما آواه الله وقد كان يتيماً، فعليه أن لا يقهر اليتيم، وأن لا ينهر السائل، وأن يحدِّث بنعمة الله عليه فينهض للدعوة إلى الله بهمة ونشاط: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

سورة الشرح

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «أصل الشرح: بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحتُ اللحم وشرَّحته، ومنه شرح الصدر: أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه»[١]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «وشرحَ الله صدره لقبول الخير فانشرح: وسَّعه لقبول الحقّ فاتّسع»[٢]، فالدلالة اللفظية تفيد بسط النفس وإزالة الشدة في قلبه ﷺ من تحمّل أعباء الرسالة، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فمن الممكن أن تعود لأمرين اثنين: أحدهما حسّيّ يعود على حادثة شقّ صدره ﷺ حين كان غلاماً وإخراج حظّ الشيطان منه[٣]، والثاني معنوي مجازي بالمعنى اللغوي المذكور.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين دلالة اسم هذه السورة ومحورها، فذكروا أنها جاءت كتكملة لسورة الضحى التي سبقتها، فالتحديث بنعمة الله المذكور في سورة الضحى يكون بالنَّصَب في عبادة الله والنصَب إليه، والرغبة إليه بتذكّر إحسانه وعظيم رحمته، كما وفيها ظلّ العطف الندي، وفيها روح المناجاة للحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، والبشرى باليسر والفرج، وكل ذلك

---

(١) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٤٤٩.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٨، ص ٥٠.

(٣) حادثة شقّ صدر النبيّ ﷺ أخرجها الإمام مسلم رحمه الله في **الصحيح**، كتاب الإيمان، برقم: ٢٣٦.

يدل عليه اسم السورة دلالة واضحة[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تأنيس النبيّ ﷺ وتثبيته على دعوته إلى ربه، من خلال بيان أن الله تعالى قد أعانه على حمل أمانة الدعوة وخفّف عنه قبل البعثة وبعدها، فالتيسير من الله حليفه ﷺ. والدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة «الشرح» أدل ما في السورة على هذا المحور، ولذلك سُمّيت به. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان التخفيف الإلهي لأعباء الدعوة عن النبيّ ﷺ**.

وبتأمّل السورة يبرز الترابط بين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وبين آياتها، وفيما يلي بيان ذلك[٢]: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد القرآن**، ١٣٤، والمهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٠٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٦٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٢٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ٤٠٧، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٢١٩، والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ٢٣٤- ٢٤٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٢٦. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) من لطائف هذه السورة: أولاً: أن الضمير العائد على الله فيها جاء كله بضمير الجمع ﴿نَشْرَحْ﴾، ﴿وَوَضَعْنَا﴾، ﴿وَرَفَعْنَا﴾، ما عدا ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾، وذلك لأن ضمير الجمع أنسب لسياق التخفيف عن النبيّ ﷺ، أما الموضع الأخير فقد جاء بضمير المفرد لأنه يعبّر عن الربوبية، وهي أيضاً مناسبة لسياق التخفيف مِن (وإلينا فارغب) مثلاً، ثانياً: امتازت هذه السورة بألفاظ لم تذكر في سورة أخرى، على نحو يحقّق له التخفيف في حمل الأمانة ﷺ، وفيما يلي بيان ذلك: أ) لم يضف «الوزر» إلى النبيّ ﷺ إلا هنا، وقد جاء في سياق وضعه عنه ﷺ، ب) وكذلك عبارة ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، ج) وعبارة ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، ومن اللطيف أن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ الشعراء: ٨٤، قريب من آية الشرح، لكن سيدنا إبراهيم عليه السلام نال هذه الدرجة بعد أن طلبها، بينما سيدنا محمد ﷺ نالها فضلاً من الله دون طلب منه ﷺ، أما مشتقات الجذر «شرح» فقد ذكرت في القرآن خمس مرات، أحدها في سياق الذم: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ النحل: ١٠٦، وكأن شرح الصدر لا يكون إلا بالإسلام، وهي الحقيقة التي عبّرت عنها الآيات: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الزمر: ٢٢، و ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الأنعام: ١٢٥، و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ومن اللطيف أيضاً أن سيدنا موسى عليه السلام طلب شرح الصدر ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ طه: ٢٥، بينما سيدنا محمد ﷺ شرح الله له صدره بلا طلب منه ﷺ، وأما مشتقات الجذر «عسر» فلم تتكرر مرتين إلا في هذه السورة وقد جاءت معرفة بأل فالكلمتان تعطيان الدلالة نفسها، وأما مشتقات الجذر «يسر» فلم تتكرر مرتين إلا هنا وفي سورة الطلاق، وقد جاءت بلا تعريف بل بالتنكير «يسراً» فالكلمتان تعطيان دلالات مختلفة، ولذلك قيل: لن يغلب عسرٌ يُسرَيْن. ذكر النقطة الأخيرة الدكتور صلاح الخالدي في كتابه **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**، ص ٢٣٩. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾، ولاحظ فعل الشرح المضارع، وهو يفيد الاستمرارية، وهو أبلغ من لو قيل: (أما شرحنا لك صدرك) مثلاً، وأعتقد أنه بدلالة هذا الفعل المضارع يمكن الجمع بين حادثة شقّ صدره ﷺ حينما كان غلاماً، وقد نزع منه حظّ الشيطان، وهو الشرح الحسّيّ، وقد استمرّ أثر ذلك الشرح إلى أن بعثه الله نبياً، وشرح صدره بالإسلام، وهو الشرح المعنوي، بينما وضع الوزر جاء بالفعل الماضي وهو يؤكّد أن الوزر كان من أيام الجاهلية على اعتبار أن الوزر بمعنى الإثم، ولكني أرى أن الأرجح أن يكون الوزر بالمعنى اللغوي وهو الثقل، فقد وضع الله عن نبيّه ثقل الدعوة منذ البداية وخفّف أمرها عليه ﷺ، ويؤكّد ذلك ـ فيما أرى ـ قوله ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾، وهو فيه مزيد من التمنّن عليه ﷺ، فقد كاد ثقل الدعوة أن ينقض ظهر النبيّ الكريم ﷺ، ولاحظ تكرار الضمير العائد على الله تعالى بصيغة الجمع، وهو أبلغ في الدلالة على التخفيف عنه ﷺ.

ولم يقتصر الفضل الإلهي على نبيّه ﷺ على ما يتعلق بالدعوة وأثقالها فقط، بل رفع الله ذكر نبيه ﷺ إلى يوم الدين، فلا يُعتبر الإنسان مؤمناً إلا بعبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، ولاحظ استخدام أسلوب التوكيد بحرف (الفاء) و (إن) لإثبات حقيقة أن اليسر يغلب العسر، بالإضافة إلى أن العسر جاء معرّفاً بـ (أل) التعريف، فالدلالة واحدة للكلمتين، بينما اليسر لم يُعرّف بـ (أل) وجاء منكّراً، فالكلمتان تعطيان دلالات مختلفة.

ولما حصل له ﷺ التخفيف من ربّه عزّ وجلّ، وبين له أن التيسير حليفه، فعليه أن ينصب إذاً بهمة ونشاط في دعوته، ويرغب إلى ربّه تعالى الذي تكرّم عليه بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر واليسر.

فأنت تلاحظ إذاً أن السورة بسياقها تدور حول محور التخفيف عن النبيّ ﷺ أثقال الدعوة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة «الشرح» ألطف وأجمل دلالة.

سورة الشرح

سورة بيان التخفيف الإلهي لأعباء الدعوة عن النبيّ ﷺ

- افتتحت السورة ببيان أن الله قد شرح صدر نبيّه ﷺ، فلا يجد في صدره حرجاً مما كلّفه الله به، أو أن يكون المعنى أن الله قد أزال من صدره حظّ الشيطان حينما شرح صدره ﷺ وهو غلام: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.
- وقد وضع الله عن نبيّه ﷺ ثقل الدعوة الذي كاد ينقض ظهره: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.
- وله ﷺ زيادة على تخفيف أحمال الدعوة أن رفع الله ذِكْره إلى يوم الدين: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، فلا يُقبل إيمان العبد إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله.
- وبيّن الله له أن العسر الواحد لن يغلب يُسْرَيْن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.
- وبعد هذا التخفيف عن النبيّ ﷺ، فعليه أن ينصب ويرغب إلى ربه ويتقرّب منه بهمة ونشاط شكراً له تعالى على هذا التخفيف: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

سورة التين

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية إلى القَسَم بالتين والزيتون، وهما نوعان معروفان من الأطعمة، وقد اختلف المفسرون في المقصود من هذا القَسَم، فمنهم من اعتمد على ظاهر القَسَم وقالوا إنه يبرز قدرة الله في الخلق العجيب لهذين النوعين وما فيهما من فوائد جمة للإنسان، وذكروا أن ذلك يتناسق مع ما بيّنته السورة من قدرة الله في خلق الإنسان، ومنهم من اعتبر القَسَم بهذين النوعين من الأطعمة كناية عن البلد المشهورة بزراعة هذين النوعين، وهي بلاد الشام، وأشرفها أرض بيت المقدس، ويكون ذلك إشارة إلى رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، وذكروا أن ذلك يتناسق مع طور سينين وهو موضع رسالة سيدنا موسى عليه السلام، والبلد الأمين وهو مكة موضع رسالة سيدنا محمد ﷺ. وأعتقد أن الاعتبار الكنائي للقَسَم هو الأجدر للقبول، وذلك لأنه متناسق ومترابط مع سياق السورة كما سيأتي[١].

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن الحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة

---

(١) من المفسّرين الذين رجّحوا القول بأن القَسَم على ظاهره: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٠، ص ٨٦٩٧، والزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٧٦٣، ومن المفسّرين الذين رجّحوا القول بأن القَسَم كناية عن البلد: الآلوسي، **روح المعاني**، ج ١٥، ص ٣٩٤، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٤، ص ٧١٧، وقد قال عن ترتيب هذه البلدان الثلاثة: «ولهذا أقسم بالأشرف ـ يقصد سيدنا عيسى عليه السلام ـ ثم الأشرف منه ـ يقصد سيدنا موسى عليه السلام ـ ثم الأشرف منهما ـ يقصد سيدنا محمداً ﷺ ـ». وهو قول جميل.

القويمة التي فطر الله الناس عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإنسان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها. فإن كان القَسَم أول السورة يقصد منه نوعَي الأطعمة فهو يدل على كمال قدرة الله في خلق الأطعمة والفطرة البشرية، وإن كان يقصد منه بلدان الرسالات الثلاثة كناية فهو يدل على كمال قدرة الله وعظيم حكمته في إرسال الرسل وتبليغ الدين[١].

وأعتقد أن الوجه الكنائي للقَسَم هو الأقرب للصواب، والله أعلم، فمن الممكن أن يلخّص محور السور بالقول بأنه: الدعوة إلى اتباع هدى أحكم الحاكمين الذي يوحي إلى أنبيائه بالوحي الحكيم، لأن في ذلك انسجاماً بين هدى وحي الخالق وبين الفطرة القويمة التي خَلقَ الإنسانَ عليها، فمن اتبع هدى الوحي ولزم فطرته القويمة وعمل صالحاً فسينعم خالداً في الجنة، ومن كذب بالوحي وأساء العمل وخالف فطرته القويمة فسيعذّب خالداً في النار، ولما كان القَسَم بالتين والزيتون يشير كناية إلى أرض بيت المقدس، وهي أرض رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، وما تبعه من القَسَم بأرض رسالة سيدنا موسى وأرض رسالة سيدنا محمد عليهما السلام، لما كانت هذه الأقسام أدل ما في السورة على المحور المذكور، جُعل القَسمُ بها اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى اتباع هدى وحي أحكم الحاكمين المنسجم مع الفطرة القويمة التي فطرَ الإنسانَ عليها**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[٢]: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٦٨ - ٤٧٠، وقد ذكر الوجهين ولم يرجّح، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٣٢- ٣٩٣٣، وقد رجّح المعنى الكنائي، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٤١٩، وقد رجّح المعنى الكنائي، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٢٣٨، وقد ذكروا الوجهين دون ترجيح. والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ٢٤٨- ٢٥٢، وقد رجّح المعنى الكنائي، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٢٨، وقد رجّح المعنى الكنائي، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٢١٧، ٢١٨، وقد اعتمد القول بأن التين هنا هو نوع الفاكهة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) من لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك:
أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، إذ لم يقسم الله تعالى بالتين والزيتون إلا هنا، بل لم يذكر التين في القرآن إلا هنا، =

ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

فقد أقسم الله ببلاد الشام المشهورة بكثرة هاتين الشجرتين فيها، وأشرف بقعة فيها أرض بيت المقدس، وهي أرض رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، وأقسم بطور سينين وهو البقعة التي أوحى الله بها إلى سيدنا موسى عليه السلام، وبالبلد الأمين، وهو مكة التي أوحى الله فيها إلى سيدنا محمد ﷺ، فالأقسام الثلاثة تدل على أن الله تعالى هو الذي أوحى إلى هؤلاء الرسل الثلاثة عليهم السلام، وأنزل عليهم الوحي ليؤمن الناس ويعملوا صالحاً.

ولعلّ اختصاص اسم التين الذي يشير إلى عيسى عليه السلام باسم السورة بدلاً من الزيتون أو طور سيناء أو البلد الأمين، يعود إلى أن الطور قد أقسم الله به وجعله اسماً لسورة كاملة وجعل اسمها مشيراً إلى موضع رسالة موسى عليه السلام، وكذلك البلد فقد أقسم الله به وجعله اسماً لسورة كاملة وجعل اسمها مشيراً إلى موضع رسالة محمد ﷺ، فجاءت هذه السورة ليشير اسمها إلى موضع رسالة عيسى عليه السلام. وقد ذكرتُ في الهامش سبب اختيار التين اسماً للسورة بدلاً من الزيتون.

وأعتقد أيضاً أن اختيار اسم التين المشير إلى عيسى عليه السلام يعود إلى أنه أكثر الأنبياء الذين دارت حولهم الفريات الضالّة، لا سيّما فيما يتعلّق بادّعاء الإلهية له ولأمّه

= بينما ذكر الزيتون في القرآن في أربعة مواضع أخرى بشكل صريح: الأنعام: ٩٩، ١٤١، والنحل: ١١، والنور: ٣٥، ، وذُكرَ إشارةً في سورة المؤمنون: ٢٠ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾، ولعل هذا يطلعنا على سبب تقديم ذكر التين على الزيتون في السورة التي نحن بصددها، أما القَسَم بطور سينين فقد جاء معنا في سورة الطور، ولم يقسم الله تعالى بالطور في موضع آخر غيرهما، وكذلك القَسَم بالبلد الأمين فقد جاء معنا في سورة البلد، ولم يقسم الله به في موضع آخر، ومن اللطيف أن البلد ذكر في سورة البلد مرتين: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: ١، ٢، وجاء القسم به في سورة التين في الآية الثالثة، وثانياً: ومنها ما يتعلق بالله تعالى، إذ لم يوصف خلق الإنسان بأنه ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إلا هنا: ٤، ولم يوصف جزاء المعرض عن الوحي بقوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ إلا هنا: ٥، بينما وُصف أجر المؤمنين بأنه ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هنا: ٦، وفي سورة فصلت: ٨، والانشقاق: ٢٥، وفي سورة القلم: ٣ في حقّ النبي ﷺ، ولم يذكر الاستفهام التقريري ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في القرآن إلا هنا: ٨، وجاء قريب منه في سورة هود على لسان نوح عليه السلام ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: ٤٥. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

عليهما السلام، فالقَسَم بالأرض التي نزلت عليه الرسالة فيها يدل على أنه مجرّد عبدٌ لله أرسله الله وأيّده بالوحي، بالإضافة إلى قول الإمام ابن كثير رحمه الله المذكور قبل قليل من أن الترتيب روعي به شرف المكانة، فقدّم الأشرف ثم الأشرف منه ثم الأشرف منهما ﷺ.

ولاحظ جواب القَسَم المفيد أن الله تعالى بقدرته التامّة وحكمته المطلقة خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأكرمُ ما في الإنسان عقله، الذي من المفترض أن يقوده إلى الإيمان بالوحي واتباع هداه لا الإعراض عنه، فيحقّق بذلك الانسجام بين هدي الخالق وبين الفطرة القويمة، فجواب القَسَم متلائم مع الأقسام الثلاثة التي تدل على أن الله بحكمته أوحى إلى الأنبياء ليؤمن الناس ويعملوا صالحاً.

وقد بيّن السياق أن من كذب بالوحي وأعرض عنه فسيردّ إلى أسفل سافلين في نار جهنم يوم القيامة، لأن في ذلك مخالفة للفطرة القويمة التي خلق اللهُ الإنسانَ عليها، ويقابل ذلك أن من آمن وعمل صالحاً سيخلدون في النعيم غير المنقطع في الجنة، وكما افتتحت السورة بالقَسَم بأماكن الوحي للدلالة على حكمة الله تعالى، ختمت بسؤال الإنسان عن سبب تكذيبه بالدين بعدما بيّنت هذه السورة أن الله هو أحكم الحاكمين، إنْ كان في وحيه وتشريعه، أو في إحسان خلقه، أو في عدل جزائه، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة التين

سورة الدعوة إلى اتباع هدى أحكم الحاكمين المنسجم مع الفطرة القويمة التي فطرَ الإنسانَ عليها

- افتتحت السورة بالقَسَم ببلاد الشام وأهمها فلسطين، الأرض المباركة التي هي مهبط الوحي على سيدنا عيسى عليه السلام.
- ثم بالقَسَم بطور سنين مهبط الوحي على سيدنا موسى عليه السلام.
- ثم بالبلد الأمين مهبط الوحي على سيدنا محمد ﷺ.
- وجواب القَسَم أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو سبحانه أحكم الحاكمين في وَحْيه، كما أنه أحكم الحاكمين في خَلْقه.
- وبيّنت السورة أن مَن أعرض عن هدى أحكم الحاكمين سيُردُّ أسفل سافلين في نار جهنم.
- واستثنت السورة من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون.
- وبعد أن بيّنت السورة أن الله أحكم الحاكمين إنْ كان في وحيه أو في خلقه، لم تبق للمكذّبين حجّة: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

سورة العلق

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين واللام والقاف: أصل كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يناط الشيءُ بالشيء العالي»[1]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «العلَقُ: التشبّث بالشيء»[2]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى الإشارة إلى أصل الإنسان في رحم أمّه، إذ تعلّق البويضة المخصبة في جدار رحم الأمّ لتأخذ منه غذاءها، وتنمو لتصبح مضغة، ثم يكوّن اللهُ فيها العظام، ثم يكسوها لحماً، ثم تكون جنيناً متكاملاً. فاسم السورة يشير إلى قدرة الخالق سبحانه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو بيان عظيم قدرة الله، وذلك ببيان خلق الإنسان من علق، وقدرة الله تعالى على تعليمه بعد خلقه، وبعثه بعد موته، وفي ذلك دلالة على أنه سبحانه ذو الفضل الواسع والرحمة السابغة، والإنسان لا يملك شكر هذه النعم ولو قضى عمره ساجداً، فنزلت هذه السورة لتذكّر بالله وتدعو لعبادته[3].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٦٩٥.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ٥٧٩.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٠٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٧٨، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٣٦- ٣٩٣٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٤٣٤، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٢٢٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٥٣٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٢٢٧، ٢٢٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٤٣- ٣٤٦.

التوحيد وعبادة الخالق المنعِم سبحانه، من خلال بيان نعمتي الإيجاد والتعليم، والقدرة على البعث والجزاء يوم القيامة، ولما كان خلق الإنسان من العلق هو أدل ما في السورة على نعمة الإيجاد، سُمّيت به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى عبادة الرَّبّ الأكرم الذي أنعم على الإنسان بالإيجاد والتعليم.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة فيها بيان نعمتي الإيجاد والتعليم من الله على الإنسان، ثم تحذير من موقف الجاحد لنِعَم خالقه والمكذّب بآياته، ثم الخاتمة المؤكّدة لما سبق[(١)].

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكر نعمتي الإيجاد والتعليم من الله تعالى على الإنسان: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾، ولاحظ أن السياق خصّ بالذكر أهمّ نعمتين على الإنسان، فلو أوجدَ اللهُ الإنسانَ ولم يعلِّمْه، لما كان الإنسانُ أحسن حالاً من البهائم، لكن الله منّ عليه وأكرمه بالتعليم، ولاحظ الأمر بالقراءة، لأن الدين كلّه قائم على العلم، والقراءة وسيلة التعلّم، إن افتتاح السورة بذكر هاتين النعمتين فيه أبلغ دعوة إلى عبادة هذا الرَّبّ الأكرم سبحانه وتعالى، وأعتقد أن اختصاص «العلق» بالذكر مناسب؛ لأنه أول مراحل تكوّن الجنين بعد أن تلقّح «النطفةُ» البويضة، ولم تذكر النطفة؛ لأنها من المنيّ، وهو سائل وُصف في القرآن

---

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١- ٥، وعرض موقف الجاحد: ٦- ١٤، والخاتمة: ١٥- ١٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي أمور تدل كلها على كمال قدرته تعالى وعظيم نعمته على الإنسان: أ) فالفعل «خلق» دون ذكر المفعول به ذكر هنا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: ١، وفي الأعلى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: ٢، والفلق: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: ٢، ولا يخفى أن آية العلق أدلهنّ على كمال قدرته تعالى على الخلق، ب) قوله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾: ٢، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، فلم يذكر «العلق» في مكان آخر، بل ذكرت «العلقة»، والمصدر «علق» أدل من «العلقة» على القدرة، ج) قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾: ٣، لم يتكرر في القرآن، د) وكذلك ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: ٤، ٥، لم يتكرر بالصيغة ذاتها هـ) وكذلك قوله تعالى الدال على قدرته على البعث: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: ٨. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بالماء المهين، وجَوّ سورة العلق جَوّ الكرم الإلهي، فلا تناسبه النطفة، بل العلق هو الأنسب.

ثانياً: وبعد ذكر هاتين النعمتين الدَّالتَيْن على كمال قدرة الله وعظيم نعمه على الإنسان، انتقل السياق إلى عرض موقف الصادِّ عن سبيل الله والمكذِّب بآياته، وفي ذلك مزيد تقبيح لموقفه بعد بيان نعمة الله عليه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾، ووصف الإنسان المكذِّب بآيات الله بالطغيان هو أنسب وصف، لأنه ينكر نعمة الله عليه، ولذلك تراه ينهى عن عبادة الله وحده، وينهى عن هدى الله وعن تقواه، ويصرّ على التكذيب والتولّي، وهذا أقبح موقف يكون عليه الإنسان بعد أن عرف نعمة ربه الذي خلقه من العلق، ولاحظ التهديد بقوله ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾ الدال على أن خالق الإنسان من علق، قادر على إرجاعه للحساب بعد موته، ولاحظ التهديد بقوله ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ الدال على أن الخالق الذي يرى الجنين في بطن أمّه قبل تكوّنه، ويرعاه حالاً بعد حال، عالم بموقف هذا المكذِّب، وعالم بأحوال البشر جميعاً، وسيجازيهم عليها. فالسورة كما ترى تدعو إلى التوحيد وعبادة الخالق العظيم المُنعِم على الإنسان، والإنسان يصرّ على التكذيب.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على قدرة الله على الحساب والعقاب من خلال بيان مصير ذلك المكذب إن أصر على تكذيبه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾.

وكما افتتحت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالدعوة على طريق العلم والهدى تقرّباً للخالق الأكرم، ختمت بأمره ﷺ بالتقرّب إلى الخالق العظيم والسجود له، وهذا هو الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان المخلوق من العلق، لا أن يصرّ على التكبّر والتكذيب بخالقه الأكرم: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ۝١٩﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة العلق

سورة الدعوة إلى عبادة الرَّبّ الأكرم الذي أنعم على الإنسان بالإيجاد والتعليم

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدّمة التي فيها بيان نعمتَيْ الإيجاد والتعليم من الله تعالى على الإنسان:

- افتتحت السورة ببيان أن الله هو الذي أنعم على الإنسان بنعمتَي الخلق والإيجاد: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②﴾.
- ثم ذكرت نعمة التعليم، التي لولاها لما كان حال الإنسان بأحسن من البهائم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٤)

التحذير من موقف الإنسان الجاحد لنِعَم خالقه، والمكذِّب بآياته:

- بعد بيان نعمتَي الإيجاد والتعليم من الله تعالى على الإنسان، حذّر السياق من موقف الإنسان الجاحد المكذّب: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦﴾.
- وبيّن أن الله قادر على إرجاعه للحساب يوم القيامة، كما خلقه أول مرة من علق: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.
- وعرض السياق موقف الإنسان المكذّب من هدى وحي خالقه سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑭﴾.
- إن عرض موقف هذا المكذِّب الجاحد يبيّن شناعة وقبح تصرفاته بعد أن عَلِم نِعَم خالقه الذي خلقه من علق، وفي ذلك تحذير من مثل موقفه.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٥-١٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله على الحساب والعقاب، كما هو قادر على الخلق أول مرة: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑰ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑱﴾.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التقرّب للخالق الأكرم الذي أنعم على الإنسان بالإيجاد والتعليم، ختمت بالدعوة إلى عبادة هذا الخالق الأكرم سبحانه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ⑲﴾.

سورة القَدْر

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «القاف والدال والراء: أصل صحيح يدلّ على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقَدْر: مبلغ كلّ شيء»[١]، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الليلة التي أنزل فيها القرآن، وبيان أنها بلغت الغاية في الشرف ورفعة المكانة عند الله، وكأنه ليس لليلة غيرها قَدْر.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محورها بيان عِظم ليلة القدر التي تميّزت بابتداء نزول القرآن فيها، فهي ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، وهو الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته وآثاره على البشرية جميعاً، والقَدْر إما أن يكون معناه التقدير والتدبير، وإما القيمة والمقام، وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم، فهو أعظم حدث، وأدل حدث على التقدير والتدبير في حياة العبيد[٢].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٧٦.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٠٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٩٠، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٤٤، ٣٩٤٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٤٥٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ٢٦١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٤٧-٣٤٨.

الإيمان بالقرآن عظيم القدر، من خلال بيان فضل الليلة التي تشرّفت بنزوله فيها حتى سُمّيت ليلة القدر، وجعل الله ثوابها خيراً من ألف شهر، فتسمية السورة بوصف تلك الليلة دال على عظمة قدر القرآن الذي بسببه اكتسبت هذا الوصف. وقد تميّزت هذه السورة عن السور التي تشاركها بأسمائها المشيرة إلى القرآن الكريم بأنها **سورة بيان عظمة ليلة القدر التي اكتسبت القدر من نزول القرآن عظيم القدر فيها**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾، لاحظ افتتاح السورة بأسلوب التأكيد (إنّا) وهو يدل على التعظيم لا سيّما باستخدام ضمير الجمع، ولاحظ تكرار (ليلة القدر) ثلاث مرات، مع السؤال التجهيلي (وما أدراك)، وبيان أن فضل قيامها يزيد على ألف شهر، وهذه كلها أمور تدل على عظمة تلك الليلة.

ولكن لا بدّ من التنبّه إلى أن هذه الليلة اكتسبت القدر من نزول القرآن فيها، فبيان فضلها يدل على فضل القرآن الذي بفضله حظيت بتلك المكانة، ولاحظ بيان تنزّل الملائكة والروح، وذكر الروح ـ جبريل ـ مناسب جداً، لأنه المَلَك الموكل بالوحي، وهو من أعلى الملائكة قدراً، وكما افتتحت السورة ببيان فضل ليلة القدر الذي يعود إلى نزول القرآن عظيم القدر فيها، والذي نزل لتحقيق السلامة دنيا وآخرة للمؤمنين والعاملين بما جاء فيه، ختمت ببيان أن تلك الليلة يتحقّق فيها السلام من الله حتى مطلع الفجر فلا ينال المؤمنين فيها مكروه، وبذلك التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى الإيمان بالقرآن عظيم القدر والعمل بما جاء فيه، وهو المحور الذي دل عليه أبلغ دلالة اسم السورة، العائد على تلك الليلة التي اكتسبت القدر بفضل نزول القرآن فيها.

---

(١) من لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك:
أ) عبارة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ العائدة على القرآن لم تذكر في القرآن بهذه الصيغة إلا هنا: ١، وفي سورة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾: ٢، وسورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: ٣، ب) لم يذكر المصدر «القدر» مع أل التعريف إلا هنا: ١، ٢، ٣، ج) وكذلك وصف ليلة القدر بأنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: ٣، د) ووصفها بأنها ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾: ٥، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وسأذكر مزيداً من أوجه العلاقة بين هذه العبارات واسم السورة.

سورة القَدْر

سورة بيان عظمة ليلة القدر، التي اكتسبت القدر من نزول القرآن عظيم القدر فيها

- افتتحت السورة بالتوكيد ونون العظمة مع الفعل الماضي المؤكِّد للحدث: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾.
- ثم بذكر السؤال التجهيلي المفيد للتعظيم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾.
- ثم ببيان عِظَم أجر تلك الليلة: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾.
- وذلك بسبب تنزّل الروح - جبريل عليه السلام- وهو من أعظم الملائكة قدراً، مع الملائكة فيها من كل أمر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤﴾.
- وكما نزل القرآن في تلك الليلة ليكون سلاماً لـمَن آمن به في الدنيا والآخرة، ختمت السورة ببيان أن ليلة القدر سلام للمؤمنين لا ينالهم فيها مكروه حتى مطلع الفجر: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾.

سورة البيّنة

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الباء والياء والنون: أصل واحد وهو بُعد الشيء وانكشافه . . . وبان الشيءُ وأبان: إذا اتضح وانكشف»[١]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «البينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة»[٢]، فوصف النبيّ ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبيّنة يدل على أن رسالته حجّة واضحة وعلامة على الصدق، وأنه يبيّن الحقّ والباطل من الاعتقاد، والحلال والحرام من الأحكام.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة وردت في مورد إقامة الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب والمشركين، بأنهم متنصّلون من الحقّ مصرّون على الكفر عناداً، ولإثبات ذلك تضمّنت

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٦٤، بتصرف.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ١٥٧.

السورة حقائق تؤكّد هذا، منها أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويلهم عن ضلالهم وانحرافهم إلى الهدى، وأن أهل الكتاب لم يتفرّقوا عن جهل، بل تفرّقوا بعدما جاءهم العلم، وأن أصل الأديان واحد، وقواعده بسيطة ينبغي أن تجمع الناس لا أن يتفرّقوا عنها، واسم السورة الذي يصف النبيّ ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبيّنة يدل على ذلك(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان من خلال بيان إقامة الحجّة على البشر بإرسال الرسل بالبيّنات، وآخرهم سيدنا محمد ﷺ، ولما كان وصف بعثة النبيّ ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بـ «البينة» معبّراً عن المحور المذكور، جُعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة إقامة الحجة على البشر بإرسال النبيّ ﷺ وما أُنزل عليه من البينة**.

وبتأمّل قِسمَي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين، الأول: إقامة الحجة على أهل الكتاب والمشركين ببعثة النبيّ ﷺ بالبينة، والثاني: بيان مصير كلٍّ من الكافرين والمشركين والمؤمنين يوم القيامة(٢).

---

(١) ينظر: الفيروزابادي، **البيان بمقاصد سور القرآن**، ص ١٣٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٤٩٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص ٣٩٤٧، ٣٩٤٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص٤٦٨- ٤٧٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٢٦٨، ٢٦٩. والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٣٣، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) القسم الأول من السورة شملته الآيات: ١- ٥، والقسم الثاني: ٦- ٨، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي السورة الوحيدة التي وصفت إصرار الكافرين والمشركين على ضلالهم بأنهم لم يكونوا ﴿مُنفَكِّينَ﴾: ١، ولم تذكر مشتقات المصدر «فكّ» في موضع آخر إلا في سورة البلد: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: ١٣، ثانياً: هي السورة الوحيدة التي وصفت القرآن بأنه «صحف مطهرة»: ٢، ثالثاً: لم تذكر كلمة «القيمة» بزيادة التاء ـ المتلائمة مع اسم السورة ـ في القرآن إلا هنا، مرة لوصف القرآن ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾: ٣، ومرة لوصف الدين الحق ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾: ٥، بينما وُصف الدين بـ «القيّم» في سورة التوبة: ٣٦، ويوسف: ٤٠، والروم: ٣٠، ٤٣، ووُصف القرآن بـ «القيّم» أيضاً في سورة الكهف: ٢، رابعاً: هي السورة الوحيدة التي وصفت الكافرين والمشركين بـ ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: ٦، والوحيدة التي وصفت المؤمنين بـ ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: ٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أولاً: جاء في القَسَم الأول من السورة بيان أن الله تعالى يرسل الرسل بالبينات ليقيم الحجة على البشر، فلا يكون بعد ذلك أيّ داعٍ لهم إلى عدم الإيمان: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾، فقد أخبر العالِمُ بما في الصدور أن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين لم ينفكوا عما هم عليه من الضلال والانحراف إلا بعد بعثة النبيّ ﷺ، فلما بعث ﷺ، منهم من انفك عن ضلاله واتبع الهدى من الله، ومنهم من أصرّ على ما هو عليه، فبذلك تثبت الحجة من الله تعالى على البشر إذ بعث فيهم رسولاً منهم، وأيّده بالآيات المطهرات القيمات البينات، فلم يبق لهم داعٍ إلى الكفر.

ولا ينبغي ـ فيما أعتقد ـ الوقوف على ظاهر النص والقول بأنه مختصّ بكفار أهل الكتاب ومشركي قريش فقط، بل هو شمل الناس جميعاً، إذ إن الناس قبل بعثة النبيّ ﷺ قسمان: قسم أرسل الله إليهم الرسل مؤيدين بالكتب التي فيها الآيات البينات، وقسم لم يرسل إليهم رسول بعد، فكان ﷺ هو الرسول لهم وللعالمين جميعاً، إذ لا رسول بعده، فكانت بعثته حجة على البشر جميعاً.

ومما يؤكّد ذلك أن النص قد بيّن أن الله تعالى أرسل إلى أهل الكتاب رسلاً وأيّدهم بالكتب التي فيها الآيات البينات، وعلى رأسهم موسى وعيسى عليهما السلام، ولكن أهل الكتاب تفرّقوا بعد موت الرسل، واختلفوا في كتبهم، فحرّفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به، فقد أقام الله عليهم الحجة ابتداء ببعثة الرسل بالبينات فيهم، وها هو أخيراً ببعثة سيدنا محمد ﷺ وما في القرآن من البينة، يقيم الحجة عليهم مرة أخرى، وعلى من لم يُرسَل إليه رسول من الناس، ولاحظ ذكر أن أهل الكتاب أمروا بعبادة الله مخلصين له الدين، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهي ذات التعاليم التي أُرسل بها نبينا ﷺ، وهذا يدل على أن مُرسل الرسل واحد، والمحتوى الأساس للرسالات واحد.

فهذا القِسْم من السورة كما ترى يدعو إلى الإيمان من خلال بيان أن الله تعالى ببعثة

النبيّ ﷺ وما أنزل عليه من الآيات البينات، يقيم الحجة على البشر، كما أقامها على أهل الكتاب ببعثة الرسل فيهم. وعلى هذا دل وصف بعثته ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبينة.

ثانياً: وبعد إقامة الحجة على البشر، ولكي يكتمل الترهيب والترغيب فيكون أدعى للإيمان، عرض القِسْم الثاني مصير من أصرّ على كفره وشركه بعد أن أقام الله عليه الحجة ببعثة الرسول ﷺ بالبينة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾، ووَصْفُ أهل النار بـ «شَرّ البرية» ملائم جداً، لأنهم بعد أن أُقيمت عليهم الحجة بإرسال الرسل بالبينات،لم يستفيدوا من عقولهم وأفئدتهم شيئاً، فأعرضوا عن هدى الله، وما انفكّوا عن ضلالهم وانحرافهم، فهم أسوء حالاً من الأنعام.

ووصف أهل الجنة بـ «خير البرية» في المقابل ملائم جداً أيضاً، لأنه يدل على أنهم استفادوا من عقولهم وأفئدتهم، فمِنْ أهل الكتاب والمشركين مَن انفكّ عن ضلاله وانحرافه فآمن، ومِنْ أمة الإسلام مَنْ لزم الهدى من الله، حتى استحقّوا جميعاً هذا الثواب العظيم.

وكما افتتحت السورة بإقامة الحجة على الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ببعثة النبيّ ﷺ بالبينة، ختمت ببيان مصير من خشي الله تعالى فاتبع البينة واستحقّ الثواب، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة البينة

سورة بيان إقامة الحُجَّة على البشر بإرسال النبي ﷺ وما أُنْزل عليه من البينة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

إقامة الحجة على أهل الكتاب والمشركين ببعثة النبيّ ﷺ:

- افتتحت السورة ببيان أن الله يرسل الرسل ليقيم الحجة على البشر: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③﴾، فبعد بعثة النبيّ ﷺ بالصحف المطهرة أقيمت الحجة على الناس جميعاً، أهل الكتاب منهم والمشركين.
- وبيّنت السورة أن الله ببعثه الأنبياء السابقين لأهل الكتاب، قد أقام الحجة عليهم، ولكنهم اختلفوا بعد ما جاءتهم البينة على أيدي رُسُلِهم.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٨)

بيان مصير كلٍّ من الكافرين والمشركين والمؤمنين يوم القيامة:

- بعد إقامة الحجة على الناس ببعثة النبيّ ﷺ بالبينة، بيّنت السورة مصير الكافرين والمشركين الذين لم ينفكّوا عن ضلالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥﴾.
- وبيّنت مصير من انفكّ عن الضلال فآمن ببعثة النبيّ ﷺ بالبينة، ومصير مَن لزم الهدى من أمته ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ⑧﴾.

سورة الزلزلة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام الأصفهاني: «الزَّلَّة في الأصل: استرسال الرِّجْل من غير قصد، والتزلزل: الاضطراب، وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرير معنى الزَّلل فيه، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ وقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]»(١)، وزاد الإمام ابن منظور: «الزلزلة والزلزال: تحريك الشيء، قال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ المعنى إذا حُرِّكت حركة شديدة»(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان ما يطرأ على الأرض يوم القيامة من الحركة والاضطراب، وفي ذلك دلالة على قدرة الله على البعث، وقد أفاد ذلك مجيء الاسم على صيغة المصدر، وإضافةُ «أل» التعريف له تدل على أنه لا زلزلة للأرض حقيقة إلا في ذلك اليوم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة إنما سُمّيت بذلك لحديثها عن هول زلزلة الأرض يوم القيامة، والأرض هي بداية قصة استخلافنا، والأرض هي نهاية هذه القصة، واسم السورة يشير أيضاً إلى زلزلة القلوب في ذلك اليوم، ويشير إلى انكشاف الأمور وظهور المقدور من انقسام الناس

(١) الأصفهاني، المفردات، ص ٣٨١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٥٢.

في الجزاء إلى أهل سعادة وشقاء[١].

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال أكثر الأحداث هولاً من الأحداث الأخروية المذكورة فيها، ألا وهو زلزلة الأرض، فاسم السورة يدل على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن القيامة زلزلة للأرض ولقلوب البشر.**

وبتأمّل آيات السورة يظهر الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وإليك بيان ذلك[٢]: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، تجد في الآية الأولى توكيد الفعل: زُلْزِلت، بالمصدر: زلزالها، والتوكيد بالمصدر أشدّ صيغ التوكيد، مما يفيد تهويل ذلك الزلزال، وكأن الأرض اختصّت به فهو الزلزال الوحيد، بمعنى أن الزلازل التي سمعنا عنها في حياتنا لا تذكر أمام ذلك الزلزال العظيم. ولاحظ إظهار لفظة ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في الآية الثانية بدلاً من الضمير، إذ كان من الممكن أن يقال: وأخرجت أثقالها، وذلك لأن السياق يريد التركيز على ما سيقع عليه الزلزال، ألا وهي الأرض الشاهدة على أعمال البشر، ثم لاحظ أيضاً قولَه تعالى: ﴿أَثْقَالَهَا﴾، بالجمع، مما يفيد بيان مدى قوة

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٠، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٠٤، و قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٥٤، و أ. د مسلم وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، ج ٩، ص ٢٨٥. ود. شحاتة، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، ج ٤، ص ٢٣٥. وعفيف طبّارة، **تفسير جزء عَمّ**، ص ١٥٦. وأحمد الوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ٥٠- ٦١. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) من لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) لم تكرر مشتقات الجذر «زلزل» إلا هنا: ١ (مرتين)، وفي سورة الأحزاب: ١١ (مرتين)، ب) وأما قوله ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: ٢، فلم يتكرر، ج) وكذلك قوله ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾: ٤، وأما قوله ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾: ٥، فلم ينسب الوحي من الله إلى غير البشر والملائكة، إلا إلى الأرض كما تجد هنا، وإلى النحل كما في سورة النحل: ٦٨، وإلى السماء كما في سورة فصلت: ١٢. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

ذلك الزلزال، إذ إن الأرض ستخرج تلك المليارات البشرية التي دفنت فيها خلال حياتهم عليها. وأمراً آخر: وهو نسبة الأثقال إلى الأرض وكأنها اختصّت بها، مما يشير إلى كونها هي الشاهدة على تلك الأثقال، ومما يفيد التركيز على الأرض التي أضيف إليها اسم السورة: تكرار الضمير العائد إليها خمس مرات، ولاحظ قوله تعالى: ﴿أَخْبَارَهَا﴾، بالجمع لا الإفراد، فهي ستخبر عن أفعال العباد بالتفصيل الذي يفيده الفعل: ﴿تُحَدِّثُ﴾، وهذا يؤكّد المحور المذكور.

وأثر تلك الزلزلة لا يقتصر فقط على الأرض، بل هو سيزلزل قلوب الناس أيضاً ويسبب لهم الهلع والجزع، فقوله تعالى: ﴿أَشْتَاتًا﴾، يدل على ذلك، وكذلك تكرار عبارة: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وهي متلائمة مع قوله تعالى أول السورة: ﴿أَثْقَالَهَا﴾، فالذي سيأمر الأرض لتخرج كل تلك الأثقال، قادر على أن يحقّق العدل بين الناس على أقلّ مثقال. وكل ذلك يفيد مدى أثر تلك الزلزلة التي ستؤدي إلى الحساب على قلوب البشر، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسمها أبلغ الدلالة.



سورة الزلزلة

سورة بيان أن القيامة زلزلة للأرض ولقلوب البشر

- افتتحت السورة ببيان أن القيامة زلزلة للأرض، تُخْرج فيه أثقالها، وتُحدِّث فيه أخبارها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.
- ثم بيّنت السورة أنه بعد خروج الناس من الأرض، سيصدرون أشتاتاً ليحاسبوا حسب ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم مثقال ذرة من خير أو شرّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

سورة العاديات

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين والدال والحرف المعتلّ: أصل واحد صحيح يرجع إليه الفروع كلّها، وهو يدلّ على تجاوزٍ في الشيء وتقدّمٍ لما ينبغي أن يقتصر عليه»[(١)]، فوصف الخيل بالعاديات يدل على تمكّنها من حال العَدْوِ، أكّد هذا وصفها بصيغة اسم الفاعل، وفي القَسَم بالخيل العاديات إشارة إلى وجوب تسخير هذه النعمة في سبيل الله وليس للصدِّ عنه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تبيّن طبيعة الإنسان، فهو جاحد لنِعَم ربه، بخيل لحبّه المال، مهمل للاستعداد ليوم القيامة، وقد حوت السورة علاج ذلك الذي يكون بتذكّر البعث وما فيه من الجزاء، وهذا يتلاءم مع اسم السورة، فالعاديات تكون لمن جعلها في سبيل الله أجراً، وتكون لمن جعلها للصَّدّ عن سبيل الله وزراً، كما أن الاسم يدل على السرعة، وينسجم مع سرعة قدوم يوم القيامة، وهو يدل على المفاجأة أيضاً، والقيامة تأتي فجأة، ثم إن وصف هذه السورة لأحداث يوم القيامة جاء بإيقاع يدل على الخشونة والدمدمة والبعثرة، ليتلاءم مع جوّ الكنود والشُّحّ، فلما أُريد لهذا الوصف إطارٌ مناسب، اختير من

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٧٤٦.

الجوّ المعفّر الصاخب الذي تثيره الخيل العاديات، فجاء الإطار من الصورة والصورة من الإطار، والقَسَم بالعاديات يدل على أن لها قيمة في ميزان الله تعالى(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان علم الله التامّ بأعمال البشر ونواياهم، فهو سبحانه يعلم مَنْ يُسخِّر نِعَم الله عليه في سبيل الله، ويعلم مَنْ يسخر نعم الله عليه للصَّدّ عن سبيل الله ولما كانت الخيول العادية هي الأداة الأولى للقتال، الذي قد يكون في سبيل الله فيحرز بذلك المقاتِل أعظم الأجور من الله، وقد يكون في سبيل الصَّدّ عن دين الله فيكون ذلك أبرز مظاهر كنود الإنسان لله، أقسم الله بها للدلالة على المحور المذكور، ليدل على وجوب تسخير هذه النعمة من أجل الله تعالى. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان وجوب تسخير نِعَم الله تعالى في سبيله وليست للصَّدّ عنه**.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لِقسمين: أولهما يحوي قَسَماً بالخيل العاديات على أن الإنسان جاحد لنِعَم ربه وهو شاهد على ذلك، وثانيهما يحوي تأكيداً للأول إذ يبيّن كمال علم الله تعالى بأعمال الناس ونواياهم يوم القيامة الذي سيحاسبهم فيه(٢).

---

(١) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ٥٠٨، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٥٧، ٣٩٥٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٤٩٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ٢٩٥- ٢٩٧، والندوي، **دراسات قرآنية**، ص ٢٥٣- ٢٥٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٣٦، ود. حسن باجودة، **تأملات في سورة العاديات**، ص ٩- ١٤. ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٢٣٥- ٢٣٧، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ٣٠، ٦٦، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٤٩- ٣٥١.

(٢) القسم الأول شملته الآيات: ١- ٨، والقسم الثاني: ٩ _ ١١، ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، إذ لم يقسم سبحانه بالخيل العاديات ضبحاً الموريات قدحاً المغيرات صبحاً المثيرات نقعاً، إلا هنا: ١- ٤، وكذلك قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾، وهذا القَسَم مع الصورة التشبيهية يدل على أهمية الخيل للقتال، وثانياً: منها أمور متعلقة بكمال علم الله تعالى بأعمال الناس ونواياهم وأنه سيجازيهم عليها يوم القيامة، إذ لم يوصف الإنسان في القرآن بـ (الكنود) إلا هنا: ٦، ولم تذكر عبارة ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ إلا هنا: ٩، ١٠، وقريب منها في سورة الانفطار ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾: ٤، ولم تدخل لام التوكيد على =

أولاً: جاء في القِسْم الأول قَسَم من الله تعالى بالخيل العاديات على أن الإنسان جاحد لنِعَم ربه، والإنسان شاهد على ذلك بسوء تصرّفاته: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝﴾، ولاحظ التفصيل في وصف العاديات، فقد وصف صوتها، وأثر حوافرها، ووقت إغارتها، وصنيعها بالعَدْوِّ حتى وصلت إلى قلب مركزه، وأعتقد أن هذا التفصيل يدل على أهمية الخيل في القتال، للدلالة على أنها نعمة عظيمة من الله تعالى ينبغي أن تُسخَّر في سبيله.

والقَسَم ـ فيما أعتقد ـ مرتبط بجوابه من حيث إن معظم الناس يسخر هذه النعمة في الصَّدّ عن سبيل الله بدلاً من تسخيرها في سبيله، إنني أعتقد بما أن السورة مكية بل من أوائل المكي، أن القرآن يشيد ـ إشارةً ـ بمبدأ القتال في سبيل الله تعالى من خلال اسم هذه السورة، فالقتال أعظم أساليب محاربة دين الله، كما هو أعظم أساليب نصرة دين الله، ولم يصرّح النص القرآني بهوية المغار عليهم في هذه السورة مما يدل على أن القتال أمر ذو وجهَيْن، فمن الممكن استخدام نعمة الخيل في الصَّدّ عن سبيل الله وهذا أكبر مظهر لكون الإنسان كنوداً لربه، وحينها يكون فِعْله هذا بمثابة شهادةٍ منه على ذلك، ومن الممكن استخدام الخيل في سبيل الله تعالى وبذلك يحقّق الإنسان أعظم الأجور من الله تعالى. وفي ذلك بيان لعلمه تعالى بنوايا مَن يستخدم الخيل للقتال.

ولا ينبغي ـ فيما أعتقد ـ الوقوف على ظاهر النص على الخيل العاديات فقط، بل إن القَسَم بها كان لأنها الوسيلة الأولى للقتال في ذلك الوقت، ومن الممكن استنباط الدلالة من اسم السورة في زماننا على كل وسيلة للقتال، ينبغي أن تسخّر للقتال في سبيله الله، وليس في سبيل الصَّدّ عنه.

ولما كان القتال محتاجاً إلى الاستعداد المادي كما هو محتاج للاستعداد النفسي، ذكر

= الاسم الجليل: (الخبير) في القرآن إلا هنا ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾: ١١، وفي سورة فاطر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾: ٣١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

السياق كون الإنسان شديد الحُبّ للمال، وذلك يدعوه إلى البخل، وهذا مظهر ثانٍ من مظاهر جحوده لنعم ربه عزّ وجلّ.

ثانياً: وبعدما بيّن السياق كون الإنسان جاحداً لربه يستغلّ نعمه للصَّدّ عن سبيله، أعقب ذلك ببيان أن الله تعالى عالم بنوايا البشر ومحصل لأعمالهم جميعاً، وسيجازيهم عليها: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾، ولاحظ وصف قيام الناس من قبورهم بالبعثرة، ليتلاءم ذلك مع بعثرة الخيول للحجارة في عَدْوِها السريع، وكما أقسم الله تعالى بالخيل العاديات ليدل على أنه سبحانه عالم بنوايا مَنْ يعتلي تلك الخيول، فمنهم مَن يسخّرها للقتال في سبيله، ومنهم من يسخّرها لمحاربته، ختم السورة ببيان أنه خبير بما في صدور البشر يوم القيامة، وأنه سيحاسبهم بالعدل. وبذلك التقى الختام مع دلالة القَسَم أول السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة العاديات

سورة بيان وجوب تسخير نِعَم الله تعالى في سبيله وليس للصدّ عنه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

القَسم بالخيل العاديات على أن الإنسان كنود لربه وهو شاهد على ذلك:

- افتتحت السورة بالقَسَم بالخيول العادية، مع وصف صوتها: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾، وأثر حوافرها: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾، ووقت إغارتها: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾، وصنيعها بالعدوّ إذ وصلت إلى مركزه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾.
- إن الوصف الدقيق للخيول يدل على أنها نعمة عظيمة ينبغي أن تُسخَّر في سبيل الله.
- ولم يحدّد القَسَم المغيرين ولا المغار عليهم، مما يؤكّد ضرورة تسخير هذه النعمة في سبيل الله.
- وجواب القَسَم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾، فمَنْ سخَّر نعمة الخيول للصّدّ عن سبيل الله، كان هذا أبرز مظهر لكونه كنوداً لربه، وفعله هذا بمثابة شهادة منه على نفسه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾.
- ومَن سخَّر نعمة الخيول العادية في سبيل الله كان له أعظم الأجر عند الله، وكما يحتاج القتال إلى الاستعداد النفسي، فهو يحتاج للاستعداد المادي، وقد بيّن السياق أيضاً موقف الإنسان من هذا الاستعداد أيضاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾، ثم إن المال نعمة أخرى من الله ينبغي أن تُسخَّر في سبيل الله دون بخل.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-١١)

تأكيد الموضوع الأول ببيان كمال علم الله بأعمال الناس ونواياهم التي سيحاسبهم عليها يوم القيامة:

- ثم بيّن السياق أن الله سيبعث الموتى من قبورهم وسيحصّل أعمالهم ونواياهم وسيحاسبهم عليها: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾.
- وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالخيل العاديات ليدل على أنه سبحانه عالم بنوايا من يعتلي تلك الخيول، فمنهم مَن يُسخِّرها للصّدّ عن سبيل الله فهو كنود لربه، ومنهم من يسخّرها في سبيل الله فهو مؤمن تقي، ختمت ببيان أنه تعالى عالم بما في صدور خلقه جميعاً وسيحاسبهم عليه يوم القيامة: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

سورة القارعة

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «القاف والراء والعين، معظم الباب ضربُ الشيء، يقال: قرعتُ الشيء أقرعه: ضربته، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، وسُمّيت بذلك؛ لأنها تقرع الناس، أي: تضربهم بشدّتها، والقارعة: القيامة؛ لأنها تضرب الناس بإقراعها»[(١)]، وأكّد ذلك الإمام الأصفهاني فقال: «القَرْع: ضرب شيء على شيء، ومنه: ضربتُه بالمِقْرَعة»[(٢)]. وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان أنها شديدة التأثير على الناس وكأنها تضربهم ضرباً، ومجيء الاسم على صيغة اسم الفاعل يؤكد هذا، ويدل على تمكُّنِها من القرع إلى حَدّ يعجز عن وصفه إلا الخالق العظيم، كما وأن إضافة «أل» التعريف للاسم تدل على أنه لا قارعة سوى يوم القيامة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها موضوعاتها، فذكروا أن اسم السورة يدل على مقصودها وهو إيضاح يوم الدين بتصوير أحواله في مبدئه ومآله، ثم تقسيم الناس إلى ناجٍ وهالك، كما وأن اسم السورة يلقي ظلًّا وجرساً تشترك فيه حروفه كلها مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء، تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٨١.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٦٦.

حساب وجزاء[١].

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: تأكيد حقيقة يوم القيامة من خلال بيان آثار قرعها على الجبال والناس في ذلك اليوم، ودلالات اسم السورة تُدل على المحور، وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أثر قرع القيامة على الناس والجبال**.

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما مقدّمة تهوّل أمر القارعة، وثانيهما بيان أثر قرعها على الناس، وفيما يلي بيان مدى ارتباط اسم السور بهذين القسمين[٢]:

القسم الأول: تبدأ المقدّمةُ «بإلقاء الكلمة مفردةً وكأنها قذيفة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، بلا خبر ولا صفة، لتلقي بظلّها وجرسها الإيحاء المدوّي المرهوب، ثم أعقبها سؤال التهويل: ما القارعة، ثم أجاب بسؤال التجهيل: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يُلمَّ بها التصوّر»[٣]. وأعتقد أن مخرج الهاء من الجوف عند الوقوف على «القارعة» ثلاث مرات يعطي دويًّا للقارعة وكأنها قذيفة حقاً. لكن سيّد قطب رحمه الله لم يذكر أن دويّ «الحاقة» ذات حرف القاف المفخّم المشدّد والمَدّ اللازم المثقّل أعظم من دويّ «القارعة».

ثم انتقلت السورة إلى بيان مدى قرع يوم القيامة على الناس والجبال بإشارة موجزة،

---

(١) البقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥١٣، قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٦٠. والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ٣، ٥٦٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣٠٦، ود. شحاتة، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، ج ٤، ص ٢٤٩. والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ٧٣- ٨٤، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٥٢.

(٢) مقدّمة السورة في الآيات الخمس الأول، وبيان أثر القارعة على الناس: ٦ ـ ١١. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) فمما يتعلق بالناس قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾: ٤، وهو لم يتكرر، ومما يتعلق بالجبال قوله ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾: ٥، ولم يتكرر أيضاً إلا في سورة المعارج لكن دون كلمة «المنفوش»: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾: ٩، ج) وانظر قوله تعالى عن المؤمنين الآمنين من قرع يوم القيامة ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: ٧، ولم يذكر إلا هنا وفي سورة الحاقة فقط: ٢١، د) وانظر قوله عن مصير الكافرين ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾: ٩، الذي لم يتكرر، وهو دال على أثر قرع القيامة عليهم بأهوالها. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، نفس الجزء والصفحة الآنف الذكر. بتصرف.

فشبّهت حال الناس في ذلك اليوم بصورة عهدوها في حياتهم، وكأن مجموعةً من الفراش تجمّعت في مكان واحد ثم سمعت صوتاً مدوّياً فتطايرت متبعثرة بسرعة وهلع. هذه الصورة لحال الناس يوم القيامة متناسقة مع دلالة لفظ: القارعة، ولاحظ أن السياق شبَّه الناس بأحد أضعف وألطف المخلوقات: الفراش، في مقابل وصف يوم القيامة بأحد أكثر الألفاظ دويًّا: القارعة. لتكون الصورة أبلغ في التشبيه.

وشبّه السياق الجبال في ذلك اليوم بصورة معهودة أيضاً، فبعد أن قُرعت الجبال ببعضها أصبحت فتاتاً لا يكاد يكون لها وزن، كقطعة من الصوف تتطاير في الهواء. ولا يخفى التناسق بين وصف الجبال بهذه الصورة المفزعة وبين دلالات اسم السورة. لا سيّما بزيادة كلمة «المنفوش» الدالة على زيادة أثر قرع القيامة على الجبال.

القسم الثاني: ثم انتقلت السورة في الختام لبيان مصير الناس بعد أن قرعتهم القارعة بأهوالها، ويلاحظ أن السورة اقتصرت على وصف الجبال بآية واحدة فقط، وفصّلت في وصف حال البشر، وذلك متناسق مع الهدف العام من نزول القرآن، أعني وعظ البشر، فهم المقصودون بالمقام الأول، ولاحظ أن من ثقلت موازينه قد وصف مصيره بأنه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾، وهو وصف ملائم لبيان الحالة الآمنة التي صار إليها بعد حالة الخوف والهلع التي وُصف بها الناس أول السورة بسبب القارعة.

وأما الصنف الثاني من الناس: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾، لاحظ فيه أسلوب السخرية البديع: في بداية السورة تبيّن لنا مدى الخوف والجزع الذي تلحقه «القارعة» بالناس، وهنا عند الحديث عن مصير من خفت موازينه، وصف مصيره بأنه أمٌّ، وهي في الأصل مصدر الأمان لدى الطفل، لكن السياق القرآني العجيب قلب مفهوم هذه اللفظة المشعرة بالأمان إلى مفهوم مجزع، سيّما وأنه وصفها بالهاوية، فمن خفّت موازينه يهوي بتلك الدار التي سيلزمها كما تلزم الأمُّ ابنها إلى أن يقرع قعرها. فأنت ترى أن وصف يوم القيامة بـ «القارعة» ودلالاته المخيفة، قد تناسق مع موضوعات السورة أشدّ التناسق، وقد دلّ على المحور المذكور أبلغ الدلالة.

سورة القارعة

سورة بيان أثر قرع يوم القيامة على الناس والجبال

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

تهويل أمر القارعة مع بيان قرعها للناس والجبال:

- افتتحت السورة بسؤال تجهيلي مكرر يهوّل أمر القارعة: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.
- ثم عرضت أثر قرعها على الناس: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾.
- وعرضت أثر قرعها على الجبال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١١)

تأكيد الموضوع الأول ببيان مصير الإنسان في ذلك اليوم:

- وبعد بيان أثر قرع القيامة على الناس والجبال، بيّنت السورة المصير النهائي للإنسان في ذلك اليوم، فمصير المؤمن: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾
- ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.
- ومصير الكافر: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾، فكما افتتحت السورة بتهويل شأن يوم القيامة، ختمت ببيان المصير المهول للإنسان الكافر في ذلك اليوم.

سورة التكاثر

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الكاف والثاء والراء: أصل صحيح يدلّ على خلاف القِلَّة»[١]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «المكاثرة والتكاثر: التباري في كثرة المال والعِزّ»[٢]، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى التحذير من التلهّي بتكثير المال ومتاع الدنيا عن الموت الذي هو أول منازل الآخرة التي فيها الحساب.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة ذمّ الاشتغال بمظاهر الحياة واللهو عن النظر في دلائل القرآن، إلى أن يصيروا إلى القبور التي لا تكاثر فيها ولا تفاخر، مع حثّهم على التدبرّ فيما ينجيهم، فاسم السورة يصرّح بأن سبب الهلاك يوم الجَمْع هو الجمع للمال، فالسورة تدلّ على أن النعمة مسؤولية عظيمة[٣].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان محاسبة

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩١٨.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ص ٧٠٣.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١١، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥١٦، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٦٢، ٣٩٦٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥١٨، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣١٨، ٣١٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٣٨، والوتاري، أحمد عدنان، **فقه السورة القرآنية**، ص ٨٥- ٩٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٥٢- ٣٥٥.

الإنسان يوم القيامة على ما جمعه من نعيم الدنيا، ولما كان بيان أن التكاثر في نعيم الدنيا يلهي عن الإعداد لذلك اليوم، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور وللتحذير منه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة التحذير من أنْ يكون التكاثر في نعيم الدنيا الفاني منسياً العذابَ الأخرويَّ الباقي.**

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، فلاحظ أولاً: الفعل الماضي ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، وكأن التلهّي بالتكاثر فطرة في البشر لا ينجو منها إلا من أقام لحساب الآخرة حساباً، وثانياً: اختصار حياة الإنسان في الآيتين الأوليين، فهو ينتقل من الدنيا وما فيها من اللهو والتكاثر، إلى حفرة من حفر المقابر، وثالثاً: التأكيد على الجزاء يوم القيامة بتكرار كلمة الردع الزجر ﴿كَلَّا﴾ و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وبيان أن الجزاء يوم القيامة علم اليقين، وسيرونه عين اليقين، ومع ذلك يتلهّى الإنسان بالتكاثر عن تلك الحقيقة، ورابعاً: تكرار الفعل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ مع التشديد المفيد التأكيد، ولم يذكر الجنة؛ لأن السياق سياق ردع وزجر وترهيب، وهي مفهومة ضمناً من قوله ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، فمن تنعّم في الدنيا بما أحلّه الله وأدّى حقّ الله فيه، كسب معه نعيم الآخرة المقيم، ومن تنعّم في الدنيا بما حرّمه الله، ولم يؤدِّ حقّ الله فيه، خسر نعيم الآخرة.

---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) قوله ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: ١، لم يتكرر في القرآن بهذه الصيغة، ب) لم يذكر ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في القرآن إلا هنا: ١، وفي سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾: ٢٠، وهما تدلان على عدم التلهّي بمتاع الدنيا، ج) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة الردع والزجر «كلا» ثلاث مرات متتالية: ٣، ٤، ٥، وكأنها تردعهم وتزجرهم عن تلهّيهم بالتكاثر، د) وهي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «اليقين» العائدة على الجزاء في الآخرة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: ٥، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾: ٧، ومع ذلك يتلهّى عنها الناس، هـ) وهي الوحيدة التي فيها قوله ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: ٨، وانظر قريباً منه في سورة النحل: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾: ٥٦، و﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ٩٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

فالسورة كما ترى تثبت حقيقة السؤال عن نعيم الدنيا في يوم القيامة، وكما افتتحت السورة ببيان تلهّي الإنسان بالتكاثر في نعيم الدنيا عن الحساب في الآخرة، ختمت ببيان أنه سيُسأل يوم القيامة عن كل ذلك النعيم، وحينها سيعرف مصيره، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة التكاثر

سورة التحذير من أن يكون التكاثر في نعيم الدنيا الفاني مُنْسياً العذابَ الأخروي الباقي

- افتتحت السورة ببيان أن التلهّي بالدنيا أمر غالب على الإنسان إلا مَن رحم الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.
- وبيّنت أن الحساب يوم القيامة أمر حقٌّ لا مرية فيه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.
- وقد ذكر السياق الجحيم لأن سياق السورة للتحذير والترهيب، والجنة مفهومة ضمناً، فمَن تنعّم بما أحلّه الله في الدنيا وأدّى حقّ الله فيه، نال النعيم الباقي أيضاً في يوم القيامة.
- وكما افتتحت السورة ببيان تلهّي الإنسان بالتكاثر عن الآخرة، ختمت ببيانها أن كل إنسان سيُسْأل عن نعيمه في الدنيا، وحينها سيعلم كل إنسان مصيره: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

سورة العصر

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالعصر، الذي هو ـ على أرجح الأقوال التي قيلت من وجهة نظري ـ الجزء المعروف من النهار، وهو«ما بين آخر وقت الظهر إلى حين اصفرار الشمس، فمبدؤه إذا صار ظِلّ الجسم مثله، بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس، ويمتدّ إلى أن يصير ظِلّ الجسم مثلَيْ قدره بعد الظِّلّ الذي كان له عند زوال الشمس. والعصر مبدأ العَشِيّ، ويعقبه الأصيل واحمرار الشمس عند المغيب»[1]. والقَسَم به يدلّ على قِصَر مدّة حياة الفرد من الإنسان في هذه الدنيا، وذلك من نواحٍ عدّة سيأتي بيانها إن شاء الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وآياتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وآياتها، فذكروا أن المقصود من هذه السورة حَثّ الإنسان على تدارك ما بقي من عمره ليؤمن ويعمل صالحاً، وإلا كان من الخاسرين، فالقَسَم بالعصر، وهو الوقت المعروف من النهار، يدل على قِصَر وقت حياة الإنسان في الدنيا، وذلك لأنه يؤذن بانتهاء النهار، ففيه إيماء بمَثَل الحياة حين تدنو الآجال بعد مضيّ طور الشباب، وفي هذا الوقت يحسب التاجر غلّته بعد العمل في النهار ليرى أربح أم خسر، وفي العصر يتحفّز الناس للإقبال على بيوتهم للمبيت والتأنيس بأهلهم وأولادهم، وكأنه يعلن عن انتهاء حياة ويؤذن ببدء أخرى، وكأن القَسَم

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٢٨. بتصرف، وقد ذكر المفسّرون تفسيرات مختلفة للقَسَم بالعصر، فذكروا أنه قَسَم بعصر النبيّ ﷺ، أو عصر يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم عليه السلام، أو صلاة العصر .. والوجه المذكور أعلاه هو الأقرب للسياق فيما أعتقد.

بالعصر يقول: بعض النهار باقٍ، لتحثّ الإنسان على تدارك ما بقي والتوبة عما سبق. كما وأن السورة تمثّل المنهج الكامل الذي يريده الإسلام، وهو المنهج الوحيد الناجي الرابح في جميع الأعصار، وما سواه خاسر يؤدي للهلاك(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان قصر مدّة لبث الإنسان في الدنيا، فالخاسر حقاً من كذّب وأعرض عن المنهج القرآني ليجازى بالخلود في الخسران يوم القيامة. والرابح حقاً من اتبع المنهج القرآني في حياته لينال أجر ربحه الخالد يوم القيامة، ولما كان القَسَم بالعصر يدل على قِصَر حياة الإنسان في الحياة الدنيا، جُعل من القَسَم به اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة **بأنها سورة دعوة الإنسان إلى تدارك ما بقي من عُمِره بالإيمان والعمل الصالح**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك(٢): ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، ولاحظ القَسَم بوقت العصر للدلالة على قِصَر حياة الإنسان في هذه الحياة، وهو أنسب وقت يُقسَم فيه لهذا السياق، إذ لو أقسم بالفجر لدل ذلك على بدء الحياة والنشاط، ولو أقسم بالضحى لدل على الأنس بالناس الذين يغدون إلى

---

(١) ينظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٣٢، ص ٨٤- ٨٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٢١، ٥٢٢، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٦٤، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٢٨- ٥٣٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣٢٥- ٣٢٧، ٣٣٦، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ٥٣٩، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٦٧، ٤٦٨، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ٩٧- ١٠٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٥٦- ٣٥٩.

(٢) من لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يقسم الله تعالى بالعصر إلا في هذه السورة، بل لم يُذكر هذا الوقت من النهار إلا هنا، بينما جاءت مشتقات الجذر (عصر) في القرآن لدلالات أخرى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ البقرة: ٢٦٦، و ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يوسف: ٣٦، و ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يوسف: ٤٩، و ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ النبأ: ١٤، ثانياً: لم يذكر المصدر (خسر) بدون ألف ونون إلا هنا: ٢، وفي سورة الطلاق ﴿وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾: ٩، والآيتان تتحدثان عمن أعرض عن هدى الله تعالى، ثالثاً: لم تُذكر هذه العبارة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إلا هنا: ٣، وكذلك عبارة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ لم تذكر إلا هنا، وفي سورة البلد: ١٧، وهما عبارتان توصيان بالتزام المنهج الرباني. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

أعمالهم، ولو أقسم بالظهر لدل ذلك على انشغال الناس بأعمالهم أيضاً، بينما القَسَم بالعصر الذي هو الوقت الفاصل بين آخر النهار وأول الليل، يدل على أن الدنيا في إدبار والآخرة في إقبال، بالإضافة إلى ما ذكره الأفاضل قبل قليل، ولو أقسم بالمغرب أو الليل، لدل ذلك على الحياة الآخرة ولفاتت الدلالة على قِصَر الحياة والدنيا، ولفاتت أيضاً الدعوة إلى تدارك ما تبقّى من الوقت للتوبة.

وليس القَسَم ـ فيما أعتقد ـ للدلالة على صلاة العصر، إذ لو كانت الصلاة هي المقصودة لقال: (وصلاة العصر)، يؤيّد ذلك أن القرآن قد ذكر في سورة النور صلاة الفجر وصلاة العشاء بلفظ صريح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ (النور: بعض الآية ٥٨)، فلو كانت الصلاة في سورة العصر هي المقصودة لذكرها صراحة.

ولاحظ أسلوب الحصر والقصر مع التوكيد، للدلالة على أن الخسر يحيق بكل مَن أعرض عن المنهج الرباني، والخسر يتحقّق يوم القيامة، فإذا فات عمر الإنسان ـ وهو قصير ـ في الدنيا ولم يتبع هذا المنهج، فسيخلد في النار ويكون من الأخسرين، ومن تدارك عمره القصير في الدنيا واتبع المنهج الرباني القائم على الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، فسيخلد في الجنة ويتحقّق له الربح الأكبر.

وكما ابتدأت السورة بالقَسَم بالعصر للدلالة على قصر حياة الإنسان في هذه الدنيا، بيّنت خاتمتها أن من قواعد المنهج الرباني لتحقيق الربح التواصي بالحقّ والتواصي بالصبر، وكأن أحدهم لا يدري متى ينتقل من هذه الحياة القصيرة، فيوصي إخوانه بالتمسّك بالحقّ والصبر عليه ليتحقّق لهم الربح جميعاً يوم القيامة. وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة العصر

سورة دعوة الإنسان إلى تدارك ما بقي من عمره بالإيمان والعمل الصالح

- افتتحت السورة بالقَسَم بالعصر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾، وهو الوقت الفاصل بيّن النهار والليل، الدال على إدبار الدنيا وإقبال الآخرة، وكأن القَسَم يقول: «بعض النهار باقٍ»، ليدرك الإنسان ما بقي من عمره فيؤمن ويعمل صالحاً.
- وجواب القَسَم دال على أن الجنس البشري في خسر، إن لم يدركوا ما بقي من عمرهم القصير في الدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحاً، وإلا سيعذَّبون بالعذاب الخالد يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾.
- واستُثْنِي من جواب القَسَم مَن أدرك عمره القصير في هذه الدنيا فآمن وعمل صالحاً وتواصى بالحقّ وتواصى بالصبر، وهؤلاء الذين سينعمون بالنعيم الخالد يوم القيامة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

سورة الهمزة

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ④ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ⑥ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ⑨﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «الهَمّاز والهُمَزة: الذي يَخلُف الناسَ من ورائهم ويأكل لحومهم. . . والهُمَزة الذي يهمز أخاه في قفاه من خلفه ـ أي: بغيبته ـ واللمز في الاستقبال، . . فالهمّاز العيّاب في الغيب، واللماز العيّاب بالحضرة»[1]، وذكر الإمام العسكري قولاً يؤكّد أن الهمز أشدّ من اللمز فقال: «المشهور عند الناس أن اللمز: العيب سِرًّا، والهمز: العيب، . . والهُمَزة: الذي يعكس بظهر الغيب، واللمزة: الذي يعكس في وجهك»[2]، وعليه يكون الهمز أشمل وأكثر تنوّعاً في الأساليب من اللمز، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الشخص الذي دفعه حُبّ المال وجمعه إلى التكبّر على الناس لدرجة أنه يغتابهم بما يؤذيهم، وقد بلغ به حبّه للمال إلى درجة الظن أن ماله سيخلده في الدنيا، وأنه لن يحاسب عليه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تعرض صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يؤتى المال فتسيطر به نفسه، ويشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة، التي تهون أمامها جميع القِيَم والأقدار،

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٥، ص ٩٠، ٩١ بتصرف، وقد أكّد كلامه حينما عرف «اللمزة»: ج ١٣، ص ٢٣١.

(٢) الحسن بن عبد الله العسكري، **الفروق اللغوية**، ص: ٦٥. بتصرف، وذكر عن غيره وجوهاً أخرى.

أقدار الناس والمعاني والحقائق، وأنه قد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب، فالسورة تحلّل الدافع إلى هذا السلوك وتظهر خطورته وتبيّن جزاءه، إذ سيُحطّم في الحطمة نتيجة تكبّره[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان مصير مَن دفعهم حُبّ المال وجمعه إلى التكذيب بيوم القيامة، ولما كان همزهم الناس سلوكاً دالاً على ما في قلوبهم من التكبّر وعدم الإيمان بالحساب، اختير هذا الوصف ليكون اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور، وللتحذير من هؤلاء. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان مصير مَن دفعهم حُبّ المال وجمعه إلى التكبّر على الناس والتكذيب بالآخرة.**

وبتأمّل قِسمي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما: بيان صفة الهُمَزة واللمزة والداعي الذي دعاهم للهمز واللمز، وثانيهما: بيان مصيرهم يوم القيامة[2].

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة تعريف بالهمزة اللمزة، وبيان السبب الذي

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٢، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٢٥، ٥٢٦، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٧٢، ٣٩٧٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٣٥، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣٤١، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٥٤٠، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ١٠٩- ١٢٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٦٠- ٣٦٢.

(٢) القسم الأول شملته الآيات: ١- ٣، والثاني: ٤- ٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة ببيان صفة الهمزة، أ) فهي وسورة المطففين الوحيدتان اللتان افتتحتا بذكر «الويل» وهما مشتركتان في الحديث عمن دفعهم حُبّ المال إلى الظلم، ب) قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾: ٢، ذكر هنا فقط، وانظر قريباً منه في سورة المعارج ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾: ١٧، ١٨، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصيره، أ) فقوله تعالى عن الهمزة ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: ذكر هنا فقط: ٤، ب) ووصف جهنم بـ ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ هنا فقط: ٤، ٥، وكذلك وصفها بـ ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾: ٦، وبأنها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: ٧، وبأنه فيها ﴿عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾: ٩، بينما وصفها بـ ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ ذكر هنا: ٨، وفي سورة البلد: ٢٠، وهما مشتركتان في بيان مصير من جمع المال ولم يؤدِّ حقّ الله فيه. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وسأبيّن مناسبة هذه الألفاظ بالتفصيل مع اسم السورة.

دعاهم لذلك: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، فلاحظ توعّدهم بالويل، وليس ذلك لمجرّد أنهم يهمزون الناس ويلمزونهم، بل بسبب تكبّرهم الذي دعاهم إليه جمع المال، حتى حسبوا أنهم سيتمتعون به خالدين وبلا حساب، فانشغالهم بجمع المال وحساباته أنساهم الآخرة وحسابها.

ولاحظ تقديم الهمزة على اللمزة، وذلك لأن الهمزة الذي يغتاب الناس في غيبتهم أذاه أشدّ وأبلغ من اللمزة الذي يهزأ بالناس بحضرتهم، يؤكّد هذا قوله تعالى عن الهمزة في موضع آخر: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ (القلم: ١١)، وقوله تعالى عن اللمزة: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩﴾ (التوبة: ٧٩)، فالهمزة يسترسل في غِيبة الناس وتعييبهم فيكون أذاه أكبر، ولذلك اختير «الهمزة» ليكون اسماً للسورة بدلاً من «اللمزة». وقد اختير اسم السورة من الفعل الظاهر على سلوك من دفعه جمع المال إلى التكذيب بالحساب، فجمعُ المالِ إلى درجة التكذيب أمر خفيّ، ولكنه يبرز للناس من سلوك الهمز واللمز الدال على التكبّر، وفي ذلك تحذير للمؤمنين منهم.

ثانياً: ثم بيّنت السورة مصير هؤلاء الذين يحسَبون أنهم لا يُحاسبون: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾، ولاحظ كلمة الردع والزجر ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما يحسبون، بل سيحاسبون وسيعذّبون، ولاحظ قوله ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾، وهو متلائم مع نبذهم الفقراء في الحياة الدنيا، فجوزوا بالنبذ في الحطمة، ووصف النار بـ ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ ملائم لتحطيمها كبرياءهم، ووصفها بـ ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ ملائم لإصرارهم على جمع المال وتعديده حتى قادهم إلى الإصرار على التكبّر، ووصفها بأنها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ ملائم لما في قلوبهم من التكبّر البالغ درجة التكذيب بالحساب، وهما أمران خفيان محلهما الفؤاد.

وكما افتتحت السورة ببيان صفة الذين يهمزون الناس ويلمزونهم بسبب جمع المال الذي قادهم إلى التكبّر وإنكار الحساب، ختمت ببيان أنهم سيعذّبون بنار مؤصدة عليهم كما

كانوا يوصدون «الخَزْانات» على المال ويحرمون الفقراء من حقّ الله فيه، وبأن فيها عمداً ممدّة يوثقون بها؛ جزاء حرمانهم الفقراءَ حقَّهم، أو أن النار موصدةٌ أبوابُها عليهم بعمد ممدّدة فلا تُفتَح؛ لزيادة تيئيسهم من الخروج منها، وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الهمزة

سورة بيان مصير مَن دفعهم حبُّ المال وجمعُه إلى التكبّر على الناس والتكذيب بالآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣)

بيان صفة الهمزة والداعي الذي دعاهم إلى الهمز واللمز:

- افتتحت السورة بالتوعّد لكل همزة يغتاب الناس بغيبتهم، ولكل لمزة يغتاب الناس بحضرتهم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾.
- ثم بيّنت صفتهم: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾.
- وبيّنت الداعي الذي دعاهم إلى التكبّر وهمز الناس ولمزهم: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، فهم انشغلوا بجمع المال وعدّه حتى أنساهم حساب الآخرة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٤-٩)

بيان مصير الهمزة واللمزة يوم القيامة:

- ثم بيّنت السورة مصير الذين يَحْسبون أنهم لا يُحاسبون: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾، جزاء نبذهم الفقراء في الدنيا.
- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ سُمّيت بالحطمة؛ لأنها تحطم كبرياءهم، وبالموقدة لإصرارهم على الكِبْر والاستهزاء بالفقراء.
- ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ جعلها الله تطّلع على أفئدتهم لما علم ما فيها من الكِبْر وازدراء الناس حتى وصلوا إلى إنكار الآخرةِ وحسابِها.
- ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ كما كانوا يوصدون "خَزْناتهم" على الأموال ويحرمون الفقراء من حق الله فيها.
- ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ يُوثَقون بها في النار ويُحْرَمون الحرية كما كانوا يَحْرِمون الفقراء حقّهم، أو أن أبواب النار موصدة عليهم بعمد ممدّدة فلا تفتح؛ جزاء حرمانهم الفقراء حقّهم.

سورة الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن حادثة إهلاك الله لأصحاب الفيل حينما أرادوا هدم بيت الله الحرام، وهي حادثة مشهورة يعرفها العرب تماماً لمعاينتهم إياها، فاسم السورة يؤكّد قدرة الله على إهلاك الطغاة، ومن ناحية ثانية يدعو المشركين إلى الإيمان بالله الذي أنعم عليهم بحفظ بلدهم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تدل على رعاية الله لبيته الحرام، وهو المكان الذي اختاره ليكون محضن العقيدة الجديدة، وليكون النقطة التي يبدأ منها زحف المؤمنين بهذه العقيدة لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض، فهي تدل على منِّ الله على قريش بهذه النعمة ليدعوهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ الذي بعثه بهذه العقيدة، فاسم السورة يشير إلى عِظَم كيد أصحاب الفيل، وعِظَم العقوبة التي نزلت بهم، وفي ذلك تهديد لقريش ببيان أنه مهما عَظُم كيد الكافرين، فإن كيد الله أكبر وأعظم[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بالله العظيم مُرسل النبيّ محمد ﷺ، من خلال بيان قدرة الله على إهلاك الكافرين، ولما كانت حادثة إهلاك أصحاب الفيل دالة على قدرة الله على الإهلاك التي شاهدها

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٣، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٢٨، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٧٤- ٣٩٨١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٤٣، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ٣٤٩، ٣٥٠، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٢٧٩- ٢٨٢، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ١٢٣، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٦٣- ٣٦٥.

الكافرون عياناً، سُمّيت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الإيمان ببيان قدرة الله على إهلاك الكافرين**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[١]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾، لاحظ قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أن النبيَّ ﷺ وُلدَ في ذلك العام، وذلك يدل على أن إخبارَ اللهِ عن أمرٍ يعدُّ بمثابة المعاينة، ثم إن في ذلك لفتَ نظرٍ لقريش الذين رأوا هذه الحادثة بأعينهم، ولاحظ قوله ﴿رَبُّكَ﴾، الدال على أن الذي أهلك أصحاب الفيل هو مَن بعث محمداً ﷺ في قريش، فينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به اعترافاً منهم بذلك الفضل لله، وبيان أن كيد أصحاب الفيل قد جُعل ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾، يلفت نظر قريش كذلك إلى أنهم ينبغي أن يجتمعوا على الإيمان بالرسول ﷺ لا أن يضلّوا بالتفرّق عنه.

وأعتقد أن بيان إرسال جماعات الطير بالحجارة من سجيل على أصحاب الفيل، متلائم مع ما بيّنته آيات أخرى من أن الآلهة التي يعبدها المشركون ستكون حصباً في جهنم كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ (الأنبياء: ٩٨)، فكما أن إرسال الحجارة من سجيل دال على قدرة الله، فلا يبعد أن يجمع المشركين وآلهتهم ليكونوا حصباً لجهنم، وبيان أنه جعلهم كعصف مأكول يؤكّد معاينة قريش لتلك الحادثة برؤيتهم جثث أصحاب الفيل، وفي ذلك مزيد تهديد لهم ببيان قدرة الله على إهلاك الكافرين، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون حادثة الفيل أبرز مظاهر قدرته تعالى على إهلاك الكافرين لرؤيتهم إياها بأعينهم.

---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) فقوله ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة غافر ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: ٢٥، ب) لم تذكر «الطير الأبابيل» إلا هنا، ج) قوله ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾: هود ٨٢، و﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: الحجر: ٧٤، وهما يختصّان بقوم لوط عليه السلام. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

سورة الفيل

سورة الدعوة إلى الإيمان ببيان قدرة الله على إهلاك الكافرين

- افتتحت السورة ببيان أن الذي أهلك أصحاب الفيل هو رَبّ محمد ﷺ الذي بعثه في قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾.
- ثم بيّنت قدرة الله على إهلاك أعدائه الكافرين، فقد جعل كيد أصحاب الفيل في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.
- وختمت السورة ببيان معاينة قريش لجثث أصحاب الفيل، فهم أيقنوا أن الله هو الذي أهلكهم، فينبغي أن يكون أهل قريش أول مَن يؤمن بالرسول الذي بعثه الله إليهم، فكما أن الله أرى قريشاً قدرته على إهلاك أصحاب الفيل، فلا يبعد أن يهلك المكذّبين من قريش وغيرهم إن أصرّوا على التكذيب.

سورة قريش

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى قبيلة قريش، الذين أنعم الله عليهم بنِعَم جليلة، إذ هيّأ الله لهم رحلتَي الشتاء والصيف بأمان، وذلك لأنهم سُكّان البيت الحرام الذي حفظه الله من كيد أعدائه، وجعل أهله آمنين من الجوع والخوف، فينبغي لقريش أن تخصّ الله وحده بالعبادة؛ لأنه وحده الذي أنعم عليهم بهذه النعم.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تذكير لقريش بمنن الله عليهم، فقد مكّن الله لهم السير في الأرض للتجارة صيفاً وشتاءً لا يخشون عادياً يعدو عليهم، وذكرهم بمنّة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين، ومنة تأمينهم في الحرم من الخوف، وذلك ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله، وهو رَبّ هذا البيت الذي يعيشون بجواره آمنين طاعمين، ويسيرون مرعيين ويعودون سالمين(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: دعوة قريش للإيمان والتوحيد، من خلال بيان بعض نِعَم الله عليهم، وفي تسمية السورة بهم رفعة لشأنهم

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٤، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٣٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٨٢، ٣٩٨٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٥٤- ٥٥٩، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣٦٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٤٢، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٣٣- ١٤٠، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٢٦٦- ٢٦٩.

وتحفيز لهم على الإيمان والتوحيد. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان بعض نِعَم الله على قريش التي تدعوهم إلى الإيمان بالمنعِم سبحانه.**

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾، فلاحظ افتتاح السورة بذكر ما ألفته قريش من رحلتَي التجارة صيفاً وشتاءً، التي كانت أهمّ سبب لكسب أقواتهم ورزقهم، وقد أمّن الله هاتين الرحلتين لهم بسبب أنهم عُمّار المسجد الحرام، فلا يتعرّض لهم أحد بسوء، بينما يتخطّف الناس من حولهم.

وفي توجيه حرف اللام الداخل على الإيلاف أقوال ثلاثة كلّها تدل على أن هذا الإيلاف نعمة عظيمة من الله، فاللام إما أن تكون لام تعليل مرتبطة بسورة الفيل قبلها، فيكون المعنى قد أهلكنا أصحاب الفيل ليكون إيلاف قريش في رحلتَيْهم آمناً، أو أن تكون مرتبطة بقوله (فليعبدوا)، فيكون نظم الكلام: لتعبد قريش ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف بسبب رحلتَي الشتاء والصيف، وإما أن تكون متعلقة بفعل محذوف مقدر (اعجبوا)، أي: اعجبوا من ترك قريش عبادة ربّ هذا البيت، وهو الذي هيّأ لهم الرحلتين[2].

وبعد أن بيّن السياق هذه النعمة الجليلة التي كانت أهمّ سبب لكسب القوت في قريش، انتقل السياق إلى الدعوة إلى التوحيد بذكر النعمة الكبرى عليهم، إذ جعلهم آمنين من خوف

---

(١) من لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: هي الوحيدة التي ذكرت إيلاف قريش المتمثّل في رحلتيَ الشتاء والصيف، والوحيدة التي جاء فيها عبارة ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ لبيان اختصاص الله بإنعام هذه النعمة عليهم، والوحيدة التي فيها عبارة ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾، وانظر قريباً منها في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾: ١٤، وهي الوحيدة التي فيها عبارة ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ وانظر قريباً منها في سورة القصص: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾: ٥٧، وفي سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: ٦٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(٢) ينظر: الطبري، **جامع البيان**، ج ١٠، ص ٨٧٧٩، والزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ٧٩٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٥٤.

الاعتداء عليهم بسبب جوارهم لهذا البيت الحرام، فالله وحده هو الذي أمّن لهم الرحلتين، وهو وحده الذي أطعمهم من الجوع بالرغم من صعوبة ظروف معيشتهم، وهو وحده الذي أمّنهم من أعدائهم، فلا تجوز العبادة بعد ذلك إلا لله وحده.

ففي تسمية السورة باسمهم دعوة وتحفيز لهم لعبادة الله وحده والإيمان برسوله ﷺ، وهذا هو المحور الذي دلّت عليه آيات السورة، وكان اسمها دالاً عليه أبلغ الدلالة.



سورة قريش

سورة بيان بعض نِعَم الله على قريش التي تدعوهم إلى الإيمان بالمُنعِم سبحانه

- افتتحت السورة بذكر نعمة إيلاف رحلتَي الشتاء والصيف، اللتين هيّأهما الله لقريش ليكسبوا بهما رزقهم وقُوْتهم.
- ثم أمرت السورة قريشاً بعبادة الله المُنعِم عليهم، وهو ربّ البيت الحرام الذي يعيشون بجواره آمنين.
- وختمت السورة بذكر أكبر نعمة من الله عليهم، إذ هيّأ لهم الرحلتين فضمنوا رزقهم وقُوْتهم، وقد جعلهم الله آمنين من اعتداء المعتدين لمجاورتهم بيت الله، فضمنوا حفظ أنفسهم، فالواجب عليهم التوجّه بالعبادة لله وحده الذي أنعم عليهم بهذه النعم الجليلة.

سورة الماعون

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الميم والعين والنون: أصلٌ يدلّ على سهولة في جريانٍ أو غير ذلك، ومعن الماء: جرى»[١]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «المعن والماعون: المعروف كلّه، لتيسُّره وسهولته لدَيْنا، بافتراض الله إياه علينا... والماعون: هو اسم جامع لمنافع البيت كالقِدر والفأس وغيرها مما جرت العادة بعاريّته»[٢]، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان أن المكذّبين بالدين بلغ بهم السوء إلى درجة أن يمنعوا الناس من الماعون مهما كان بسيطاً ومتيسَّراً، وذلك يدل على عدم إيمانهم بالجزاء يوم القيامة على الإحسان.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو بيان أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء يجرِّئ على مساوئ الأخلاق، فمَنْع الماعون إما أن يكون بداية التكذيب إذ تصل بهم الدناءة إلى حبس المعروف، أو أن يكون نهايةً أو نتيجةً للتكذيب بالدين، فلا يدفعهم إيمانٌ بالأجر الأخروي إلى فعل أقلّ المعروف، كما وأن السورة تبين أن الدين ليس مظاهر وطقوس تعبديّة، فهي لا تغني ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرّد، يدفع

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩٨٩.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٤، ص ١٠١. بتصرف.

القلب إلى العمل الصالح يرقى به الناس في الأرض[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح من خلال بيان مصير المتكبّرين الذين يظلمون اليتيم والمسكين والضعفاء، لدرجةٍ أوصلتهم إلى التكذيب بالدين وحرمان الماعون لعدم إيمانهم بما بيّنه الدين من الجزاء يوم القيامة، ولما كان حرمانهم الماعون وهو أقلّ المعروف دالاً على المحور المذكور، سُمّيت السورة به للدلالة على المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان الانحراف السلوكي الاجتماعي والانحراف التعبّدي لمن يكذّب بالدين.**

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[٢]: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾، فقد ابتدأت السورة ببيان الإثم الأكبر لهم، فهم يكذّبون بالدين وما جاء به من الجزاء على العمل يوم القيامة، ثم عرض السياق من أعمالهم ما يدل على ذلك، فهم يدعّون اليتيم ولا يشفقون عليه، ولا يحثّ بعضهم بعضاً على إطعام المساكين، ولو أنهم آمنوا بما في الآخرة من الجزاء على العمل لكانت صفاتهم عكس هذه

---

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٤، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٤١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٨٤- ٣٩٨٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٦٤، وأ. د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٣٧٧، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٤٣، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ١٤١، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٧٠- ٣٧٢. ود. أحمد نوفل، **النسق القرآني وأثره في الترجيح، سورة الماعون أنموذجاً**، بحث محكم في مجلة الدراسات الإسلامية، ص ١٩٣- ٢٠٠.

(٢) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) فعبارة ﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ لم تذكر إلا هنا: ١، وفي سورة الانفطار: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾: ١٨، ب) وعبارة ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: ٢، لم تذكر إلا هنا، ج) وعبارة ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، لم تذكر إلا هنا: ٣، وفي سورة الحاقة: ٣٤، ج) وعبارة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾: ٤، للمصلين المرائين لم تذكر إلا هنا، وكذلك عبارة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: ٥، وكذلك ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾: ٦، وقريب منها ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ النساء: ١٤٢، وأما عبارة ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾: ٧، فلم تذكر إلا هنا. وكلها عبارات تدل على مدى السوء الذي يبلغه المكذّب بالدين وجزاء الآخرة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

الصفات الشنيعة تماماً، هذا في الجانب السلوكي الاجتماعي. فيُفهم ضمناً أن السورة تحثّ على إكرام اليتيم، وإطعام المسكين، بشرط الإيمان والنية الصادقة، لينال المؤمن الأجر من الله يوم القيامة.

أما في الجانب التعبّدي فقد كانت الأعمال التعبّدية للمكذّبين دالة على تكذيبهم بيوم الدين أيضاً، فهم ساهون عن الصلاة الحقيقية التي أمرهم الله بها في وحيه إلى نبيّه ﷺ، وهم يصلّون كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنفال: ٣٥)، فصلاتهم تصفير وتصفيق وصياح، ونيّتهم في صلاتهم هذه أن يراهم الناس فيصفونهم بالتديّن، والحقيقة أن صلاتهم هذه لا تمت للدين بصلة، فضلاً عن نيّتهم الباطلة، ولذلك استحقّوا الويل من الله، فلا هم مؤمنون بالجزاء يوم القيامة في الجانب الاجتماعي السلوكي، ولا في الجانب التعبّدي أيضاً. ولو آمنوا بجزاء الآخرة لأقاموا الصلاة كما أرادها الله تعالى وبنيّة خالصة له، وهذا حثٌّ للمؤمنين على أداء الصلاة على حقيقتها يفهم ضمناً ليقينهم بالأجر يوم القيامة.

وكما افتتحت السورة ببيان الإثم الأكبر وهو التكذيب بالدين وجزاء الآخرة، ختمت ببيان ما نتج عن ذلك من منعهم الماعون وهو أقلّ المعروف، للدلالة على أن تكذيبهم بالدين أثّر سلباً حتى في أقلّ الأعمال الصالحة شأناً، فحرموا أنفسهم من أجرها، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الماعون

سورة بيان الانحراف السلوكي الاجتماعي والانحراف التعبُّدي لمن يكذِّب بالدين

- افتتحت السورة بالتعجّب من حال المكذّب بيوم الدين ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾.
- ثم بيّنت انحرافاته السلوكية الاجتماعية، فهو يَدُعُّ اليتيم ولا يحضُّ على طعام المسكين.
- ثم بيّنت انحرافاتهم التعبّدية، فهم لا يُصلُّون كما أمرهم الله، وساهون عن الصلاة الحقيقية التي أمرهم الله بها، وهم يراءون في صلاتهم ليَصِفهم الناس بالتديُّن ويحفظوا مكانتهم.
- وكما افتتحت السورة ببيان الإثم الأكبر لهم إذ هم يُكذِّبون بيوم الدين، ختمت ببيان حرمانهم أقلّ المعروف شأناً فهم يمنعون حتى الماعون، وما ذلك إلا لأنهم لا يقيمون للجزاء يوم الدين اعتباراً.

سورة الكوثر

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الكاف والثاء والراء: أصل صحيح يدلّ على خلاف القِلّة . . . ثم يزاد فيه للزيادة في النعت، فيقال الكوثر: الرجل المعطاء»[(١)]، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «الكوثر: الكثير من كل شيء، وقيل: الكوثر نهر في الجنة وهو للنبيّ ﷺ»[(٢)]، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان ما منح الله نبيه ﷺ من الخير الكثير، لعلوّ منزلته وفضله ﷺ، وفي ذلك ترغيب بالإيمان به حتى يحظى المؤمن بشيء من هذا الكوثر.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة بيان المنحة الإلهية لسيدنا محمد ﷺ بكل خير يمكن أن يكون، ودعوته إلى الاستجابة لله والتجرّد له في كل الأمور، وبيان أن اتباعه ﷺ فيه الخير الكثير والخلود الحقيقي، فالسورة تمثّل حقيقة الهدى والخير والإيمان، والضلال والشَّرّ والكفران، الأولى كثرة وفيض وامتداد، والثانية قلّة وانحسار وانبتار[(٣)].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بدعوة النبيّ ﷺ وعبادة الله وحده، من خلال بيان الجزاء الذي أعطاه الله لنبيّه ﷺ

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩١٨، بتصرف.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٣، ص ٢٧، بتصرف. وقال: « وجميع ما جاء في تفسير الكوثر قد أعطيه النبيُّ ﷺ: أعطي النبوّة وإظهار الدين الذي بُعث به على كل دين، والنصر على أعدائه، والشفاعة لأمته، وما لا يحصى من الخير، وقد أعطي من الجنة على قدر فضله على أهل الجنة ﷺ ». ص ٢٨.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٥، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٤٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٨٧- ٣٩٨٩، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٧٢، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٥٤٤، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ١٥٣- ١٦٦، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٧٣- ٣٧٥.

ولمن آمن معه في الدنيا والآخرة، وبيان جزاء من كفر به ﷺ، فاسم السورة «الكوثر» دالّ على الجزاء الخيّر الذي أعطيه ﷺ ومن آمن به، ففيه ترغيب بالإيمان به، ولذلك جُعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان فضل نبيّ هذا الدين ﷺ، وحرمان من أعرض عنه**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، لاحظ حرف التوكيد مع ضمير العظمة، والفعل الماضي ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾، وكأنه وعد قد تحقّق من الله، مع أنه وعد يشمل الخير في الدنيا والآخرة، وفي بيان الخير الذي مُنحه ﷺ دعوة للإيمان به، لأن هذا الفضل سينال كل من آمن به واتبع هداه، وبعد بيان هذا الفضل، انتقل السياق إلى الدعوة إلى الالتزام بأحكام الدين، فيجب التوجّه بالصلاة والنحر إلى الله وحده، لأنه وحده القادر منح هذا الخير، واختصاص الصلاة والنحر بالذكر؛ لأنهما من أبرز الأعمال التعبّدية التي كان يعرفها العرب، لكنهم كانوا يقومون بها بانحراف في التطبيق كما كانت صلاتهم تصفيقاً وتصفيراً، أو بانحراف في التوجّه كما كانوا ينحرون لآلهتهم، وكما افتتحت السورة ببيان الفضل الذي أعطيه ﷺ، ختمت ببيان مصير المكذّبين، فكما أعطي ﷺ من وجوه الخير كلّها في الدنيا والآخرة، قُطع المكذّبون من نيل شيء من هذه الوجوه في الدنيا والآخرة، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أكرم دلالة[2].

---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) هي إحدى السور الأربع المفتتحة بحرف التوكيد مع ضمير العظمة «إنّا»، وهنّ: سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، ونوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، والقدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، والكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، فمنهنّ اثنتان تبينان الفضل الذي أعطيه ﷺ، وسورة القدر تبيّن فضل رسالته ﷺ، ب) عبارة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ لم تتكرر في القرآن، وقريب منها ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ في سورة الضحى: ٥، ج) قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ ذكر هنا فقط، د) وصف عدّوه ﷺ بقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ذكر هنا فقط. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(٢) يقول سيّد قطب رحمه الله: «إذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ فهو واجده حينما نظر أو تصوّر، فهو واجده في النبوّة.. وفي الملأ الأعلى الذي يصلّي عليه.. وفي سُنته الممتدة على مدار القرون.. وفي الخير الذي فاض على البشرية بسببه... وأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، أين هم؟ أين ذكراهم؟ وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيه مَن كانوا يقولون عنه: الأبتر»، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٨٨، ٣٩٨٩. بتصرف شديد.

سورة الكوثر

سورة بيان فضل نبيّ هذا الدين ﷺ، وحرمان مَنْ أعرض عنه

- افتتحت السورة بالتأكيد على أن الله تعالى قد أعطى نبيّه ﷺ الخير من كل شيء في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾. ويُفهم ضمناً أن هذا الخير سيُعطى أيضاً لمَن آمن به ﷺ.
- فيجب إذاً عليه ﷺ وعلى مَن آمن به أن يتوجّهوا بعباداتهم لخالقهم الذي أعطاهم هذا الخير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.
- وختمت السورة ببيان حرمان المُبغِض للنبيّ ﷺ المُعرِض عنه من أيّ خير: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

سورة الكافرون

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى النداء الموجّه في مفتتحها للكافرين، وهو يتضمّن التبرّؤ منهم ومما هم عليه من الشرك، وقد جاء النداء بصيغة اسم الفاعل وعلى جمع المذكّر السالم، للدلالة على مدى عراقتهم في الكفر، التي أوجبت هذا التبرّؤ منهم، لأن دين الإيمان والتوحيد ودين الكفر والشرك لا يلتقيان أبداً.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة إعلام الكافرين بالبراءة منهم من كل وجه، فلا مطمع للوفاق بين أهل الإيمان وأهل الكفر في أن يقاربهم النبيّ ﷺ في أن يعدل بربّه أحداً في زمن من الأزمان، وذلك بسبب الاختلاف في جوهر الاعتقاد وأصل التصوّر وحقيقة المنهج وطبيعة الطريق بين الفريقين، فالسبيل الوحيد للالتقاء بينهما هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإيمان بجملته، فالسورة تدعو إلى التوحيد العملي[1].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال التأكيد على أن العبادة الحقّة لله تعالى وحده لا تتغير في أيّ زمن

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ٤١٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٥٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٩٠- ٣٩٩٣، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٨٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٤٠٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٥٤٥، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٣٦٥- ٣٦٧، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٦٧- ١٧٦، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

من الأزمان، فطالما أصرّ الكافرون على الكفر والشرك فهم منفصلون عن دين التوحيد. وقد سُمّيت السورة باسمهم؛ لأنه يدل على المحور المذكور، وفي ذلك تحذير منهم ومن شركهم. وقد تميزت هذه السورة بأنها **سورة المفاصلة المُطْلقة بين أهل الإيمان والتوحيد، وبين أهل الكفر والشرك**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، لاحظ افتتاح السورة وختمها بجملتين مثبتتين، وبينهما أربع جمل منفية، وافتتاح السورة بهذا النداء يدل على العموم، فيشمل كل كافر أو مشرك إلى يوم الدين، ولاحظ أن النبيّ ﷺ نفى عن نفسه عبادة غير الله تعالى بصيغتين، فعلية: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾، واسمية: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾، والفعلية تدل على الزمن الذي نزلت فيه السورة، وكأنه قال: لا أعبد الآن ما تعبدون، والاسمية تدل على المستقبل، وكأنه قال: ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، كما وأن الفعلية تدل على نفي العبادة مهما قصر الزمن، أي: لا أعبد ما تعبدون ولو للحظة، والاسمية تدل على الدوام، أي: ولا يكون من شأني أن أكون عابداً لما عبدتم. فقد قطع منهم الرجاء في أن يعبد شيئاً من دون الله في جميع الأزمنة ومهما قصُرت مدةُ العبادة.

«ثم انظر كيف أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، نفى

---

(١) من لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها النداء الموجّه للكافرين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: ١، ثانياً: وهي الوحيدة التي جاءت فيها عبارة ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾: ٢، بهذه الصيغة، وانظر قريباً منها: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأنعام: ٥٦، وغافر: ٦٦، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يونس: ١٠٤، ثالثاً: والوحيدة التي جاءت فيها عبارة ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾: ٣، ٥، رابعاً: وكذلك عبارة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾: ٤، خامساً: وكذلك عبارة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾: ٦، وانظر قريباً منها في سورة الزمر: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾: ١٤، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**. وقد جاء فيها كل ضمير يعود على النبيّ ﷺ بصيغة المفرد، ليناسب دين التوحيد، وكل ضمير يعود على الكافرين بصيغة الجمع ليناسب الشرك الذي هم عليه.

عنهم العبادة الحقّة بالصورة الاسمية أيضاً فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات، نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً، وهو تناظر جميل. . . فإصراره هو ﷺ على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم، والنفي عنه أدوم وأبقى من النفي عنهم»(١).

وأعتقد أنه من الممكن أن تجعل كل جملة منهما متعلقة بالجملة التي سبقتها، فتكون: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ الأولى متعلقة بجملة: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فيكون المعنى: أي: ليس من شأنكم أن تكونوا عابدين لما أعبد ولو للحظة، وتكون ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ الثانية متعلقة بجملة ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، فيكون المعنى: وليس من شأنكم أن تكونوا عابدين لما أعبد في المستقبل، ووجه نفي العبادة عنهم في هذا السياق متعلق بالإصرار على الشرك، فإذا عبدوا الله مع عبادتهم لغيره لا تعتبر تلك عبادة حقّة، وإذا تخلّصوا من شركهم وعبدوا الله وحده خرجوا من دائرة النفي.

وكما افتتحت السورة بجملة مثبتة فيها نداء للكافرين، ختمت بجملة مثبتة أيضاً فيها النتيجة النهائية لما ترتّب على الجمل الأربع المنفيات بين هاتين الجملتين، وهي المفاصلة المطلقة بين أهل الإيمان والتوحيد، وبين أهل الكفر والشرك إذا ما أصرّوا على ما هم عليه، وبذلك التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



---

(١) أ.د فاضل صالح السامرائي، **التعبير القرآني**، ص ٢٩ بتصرف.

سورة الكافرون

سورة المفاصلة المطلقة بين أهل الإيمان والتوحيد، وبين أهل الكفر والشرك

- افتتحت السورة بنداء كل كافر أو مشرك إلى يوم الدين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾.
- وأعلنت على لسان النبيّ ﷺ براءته مِنْ عبادة غير الله بالصيغة الفعلية: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾، الدالة على الزمن الذي نزلت فيه السورة، أي: لا أعبد الآن ولو للحظة ما تعبدون.
- ونفت عن الكافرين المشركين عبادة الله بالجملة الاسمية: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③﴾، الدالة على تحجُّر موقفهم وثباتهم عليه، فطالما يشركون مع الله أحداً بالعبادة فهم لا يعبدون الله عبادةً حقَّة.
- وأعلنت على لسان النبيّ ﷺ براءته من عبادة الله بالجملة الاسمية: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④﴾، الدالة على ثبات موقفه المستمرّ، فهو ﷺ لن يعبد مع الله أحداً لا في زمن نزول السورة، ولا حتى بعده إلى حين وفاته ﷺ.
- وأعادت ذكر موقفهم بذات العبارة الدالة على تحجُّر عقولهم: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤﴾.
- ثم ختمت بالمفاصلة المطلقة بيّن دين الإيمان والتوحيد، ودين الكفر والشرك: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾.

سورة النصر

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «النون والصاد والراء: أصل صحيح يدلّ على إتيان خير وإيتائه، ونصرَ الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوّهم»(١)، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان أن الله تعالى سينصر رسوله ﷺ على أعدائه ويُظهِر دينه، وسيكون النصر شأن أمته طالما التزمت بدين ربّها، أثبت ذلك إضافة النصر إلى الله تعالى، وكأنه لا نصر لغير هذه الأمة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو الوعد من الله بالنصر الكامل للمؤمنين، وهو الذي سيُغلب فيه الطغاة، وتزول به عوائق انتشار الدين بين الناس، فالسورة تكشف عن طبيعة هذه العقيدة وهذا المنهج الرباني، ومدى ما يريد أن يبلغ من البشر من الرفعة والكرامة والتجرّد والخلوص، الذي لم تبلغه البشرية قطّ إلا في ظلّ الإسلام(٢).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان من خلال بيان مستقبل هذا الدين، إذ سيكون النصر حليفه، طالما التزم المسلمون

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ١٠٣٠.

(٢) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٦، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٥٩، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٩٤- ٣٩٩٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٥٨٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ص ٥٤٦، ود. الجابري، **أسماء السور القرآنية**، ص ٤٢٥- ٤٢٧، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٧٧- ١٨٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٧٣- ٣٧٥.

بأحكامه. ولا تخفى العلاقة بين هذا المحور واسم السورة المضاف إلى الله تعالى. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان أن النصر الإلهي هو لهذا الدين فقط**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾، لاحظ إضافة النصر إلى الله تعالى، وكأنه لا نصر إلا لهذه الأمة المحمدية، ولاحظ وصف دخول الناس في دين الله «بالفتح» الدال على انتشار هذا الدين في أرجاء الأرض، فالنصر هو الخطوة الأولى للفتح، ولذلك اختصّ النصر باسم السورة دون الفتح، بالإضافة إلى أن النصر يبرز فيه جهد المقاتِلين المجاهدين المؤيَّدين بنصر ربّهم، وليس الفتح كذلك بل هو ناتج عن النصر، ولاحظ إضافة الدين إلى الله، فليس في الوجود دين ينسب إلى الله غير الإسلام، ودخول الناس أفواجاً في هذا الدين دالٌّ على مدى قوّة النصر الذي سيمنحه الله لهذه الأمة، ودالٌّ على عدل المسلمين رغم ما أوتوه من النصر، إذ سيرغب الناس في دخول الدين أفواجاً طوعاً، ولا يعني منح النصر للأمة الإسلامية أن تتخلى عن ربّها بعد النصر ويصير حالها حال البطر والأشر والبطش، ولذلك أمرت السورة بتسبيح الرَّبّ المانح للنصر واستغفاره بشكل دائم، للدلالة على التزام المؤمنين واعترافهم بفضل ربّهم سبحانه، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة وأكثرها بشارة.

---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) عبارة ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ ذكرت هنا، وفي سورة البقرة: ٢١٤ (مرتين)، والروم: ٥، فقط، ب) عبارة ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ لم تتكرر في القرآن، وهي دالة على نصر الأمة بلا شكّ، ج) عبارة ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ لم تتكرر في القرآن مع ذكر الاستغفار، وهي دالة على إخلاص التوجّه لله المانح للنصر، د) عبارة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لم تتكرر في القرآن بذات الصيغة دون ذكر «الرحيم» أو «الحكيم»، وهي دالة على فضل الله المانح للنصر سبحانه وتعالى. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

سورة النصر

سورة بيان أن النصر الإلهي لهذا الدين فقط

- افتتحت السورة ببيان أن نصر الله وفتحه سيأتي لهذا الدين: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾.
- ثم بيّنت أن الناس سيرغبون فيه طوعاً؛ لما علموا أن النصر والفتح الإلهي حليفه: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾.
- وختمت السورة ببيان أن النصر والفتح أمران داعيان إلى تسبيح الله واستغفاره والتوبة إليه، لا أن يكونا داعيان إلى الطغيان: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

سورة المسد

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ⑤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الميم والسين والدال أصل صحيح يدلّ على جدْل شيء وطيّه، فالمَسَدُ: لِيْف من جريد النخل، والمسد: حبل يتّخذ من أوبار الإبل. . والمسد: الليف لأن من شأنه أن يُفتَل للحبل»(١)، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حالة امرأة أبي لهب في النار يوم القيامة، إذ سيُجعل في عنقها حبل مفتول ليدل على ذُلّها وإحكام السيطرة عليها بخشونة، جزاء ما كانت تقوم به في الدنيا من وضع الشوك في طريق النبيّ ﷺ على المعنى الحسِّيّ، أو جزاء ما كانت تسعى به من إيقاع الفتنة وصَدّ الناس عن النبيّ ﷺ على المعنى المجازي. وإنما اختُصّ ذكر حالة أبي لهب؛ لأنه قال للنبيّ ﷺ ـ حينما صعد على الصفا ودعا بطون قريش للإيمان في أوائل البعثة ـ: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟(٢).

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين دلالة اسم هذه السورة ومحورها، فذكروا أن تسميتها بالمسد يدل على الخسران الكلي المفضي إلى الهلاك لمنكري هذا الدين الحقّ، فالسورة تردّ على الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته، مع كونه أشدّ الناس قرابة إلى النبيّ ﷺ، وقد تولّى الله سبحانه عن رسوله ﷺ أمر المعركة، فسجلت في صفحات هذا الكتاب الخالد صفحة تنطق بغضب الله وحربه على أبي لهب وامرأته والكائدين لدعوة الله في الدنيا. واسم السورة «المسد» بما يدل عليه من الذل والخشونة

---

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٩٨٥.

(٢) حادثة أبي لهب مع النبيّ ﷺ أخرجها الإمام البخاري رحمه الله في **الصحيح**، كتاب التفسير، برقم: ٤٩٧٣، والإمام مسلم رحمه الله في **الصحيح**، كتاب الإيمان، برقم: ٣٥٥.

والإحكام أدل ما فيها على المحور المذكور[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان مصير الهلاك المذل لمن حارب دعوة الله تعالى، وأنه لن يغني عنه شيء من ذلك المصير، وإنما اشتُقّ من حالة امرأة أبي لهب في النار اسم السورة ليكون ذلك أكثر دلالة على الإذلال والتحقير لمن حارب دعوة الله. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة بيان المصير المذل لمن حارب دعوة الله تعالى**.

وبتأمّل السورة يبرز الترابط بين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه وبين آياتها، وفيما يلي بيان ذلك[٢]: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾، لاحظ أن السياق لم يكتفِ ببيان هلاك يَدَي أبي لهب، بل أكّد ذلك بهلاكه كلّه، فقد هلك

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٦٧، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٣٩٩٩- ٤٠٠١، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٦٠٠، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٤٣٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ٥٤٧، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ١٨٩- ٢٠٢، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور**، ص ٣٧٩- ٣٨١.

(٢) من لطائف هذه السورة: أنها امتازت بألفاظ ذكرت فيها على نحوٍ لم يذكر في سورة أخرى في القرآن، وهي تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وبيان ذلك: أولاً: لم تتكرر مشتقات الجذر «تبّ» مرتين إلا هنا، وقد ذكرت مرة في سورة غافر: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾: ٣٧، ومرة في سورة هود: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: ١٠١، وإنك لتعجب أن وصف كيد فرعون بالتباب متلائم مع وصف كيد أبي لهب، أضف إلى ذلك وجهاً آخر من التناسق لاختصاص فرعون بهذا الوصف، وذلك أن الله تعالى مدح موقف امرأة فرعون المؤمنة في سورة التحريم، وهذا يقابل ذمّ موقف امرأة أبي لهب الكافرة، أما آية سورة هود فهي تتحدّث عن مصير من اتخذ الأصنام آلهة، وهو مصير مشابه لموقف أبي لهب وامرأته، وبإمكانك أن تضيف لطيفة أخرى وهي أن رقم هذه الآية: ١٠١، ورقم سورة هود: ١١، ورقم سورة المسد: ١١١، ثانياً: لم تتكرر لفظة ﴿لَهَبٍ﴾ إلا في هذه السورة، وقد ذكرت مرة واحدة فقط في سورة المرسلات: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: ٣١، ثالثاً: لم يذكر الجِيد إلا هنا، ومعلوم أنه في سياق الذم، رابعاً: لم تذكر لفظة «حبل» بصيغة المفرد وكان يراد بها الدلالة الحقيقية إلا هنا، بينما ذكرت في مواضع أربعة أخرى في القرآن بدلالة المعنى المجازي الكنائي: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، آل عمران: ١٠٣، و ١١٢، و ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ق: ١٦. وقد أشار للنقطة الأخيرة مؤلّفا كتاب **من دلالات أسماء السور**: ٣٨١. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

بسبب الأعمال التي كان يقترفها بيديه، وسيتحقّق له الهلاك الكامل المذل في النار ذات اللهب، ولاحظ بيان أن ماله وكَسْبه لم يغنيا عنه شيئاً، ليكون ذلك أبلغ في الإذلال، هذا إذا اعتبرتَ الواو عاطفة، أما إذا اعتبرتها استئنافية فذلك يدل على أنه لم يكسب كسباً خيّراً ينجيه من عذاب النار، ولاحظ وصف النار بذات اللهب، ليتناسق ذلك مع كنيته، فيتحقّق له السخرية مع الإذلال.

ولما كانت امرأته تساعده في إيذاء النبيّ ﷺ فقد نالها نصيبها من العذاب المذل أيضاً، فوصفها بحمّالة الحطب في الدنيا يعطي دلالتين: أحدهما على المعنى الحقيقي الحسِّيّ، بمعنى أنها كانت تحتطب الشوك وتضعه في طريق النبيّ ﷺ إيذاءً له، وقد كانت تبتغي بذلك محاولة إذلاله ﷺ، والدلالة الثانية معنوية مجازية، بمعنى أنها لما كانت تسعى في إشعال نار الفتنة بين النبيّ ﷺ ومن آمن معه والصَّدّ عنه، فشُبِّه سعيها هذا بحمّالة الحطب التي تستخدمه لإيقاد النار، ولذلك جاء وصف عذابها يعطي دلالتين أيضاً: أحدهما معنوي مجازي بمعنى أن لها حبلاً تُشدّ به من رقبتها في النار بشكل مذل، وهذا يكافئ سعيها لإيقاع الأذى والفتنة والصَّدّ عن النبيّ ﷺ، والثانية حسية بمعنى أن الحبل الذي كانت تستخدمه لجمع الشوك وإلقائه في طريق النبيّ ﷺ، سيصبح يوم القيامة في عنقها تشدّ به في النار بشكل مذل يكافئ محاولتها إذلال النبيّ ﷺ.

بقي عدد من الأسئلة قد تدور في الذهن حول تسمية السورة بالمسد، وليس بغيره مثل سورة (أبي لهب) أو (اللهب) ولماذا جعل المسد في جِيْد امرأته وليس في جِيْده، أما السؤال الأخير فقد حاول الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا الإجابة عنه فقالا: «يبدو أن الدور المركزي والنصيب الأكبر في إحكام الكيد للرسول ﷺ كان لزوجة أبي لهب، والأصل في الجِيْد أنه المكان الذي تضع فيه المرأة زينتها، . . ولعل في ذلك إشارة إلى تابعية أبي لهب لزوجته بسبب جمالها وذهاب شخصيته أمام جمالها»[1].

أقول: أعتقد أن الأمر أعمق من ذلك، فأرى أنه لما كان المقصود بيان المصير المهلك

(١) من دلالات أسماء السور، ص ٣٨١. بتصرف.

المذل لمن يعادي دعوة النبيّ ﷺ، كان بيان مصير امرأة أبي لهب التي اشتركت معه في هذه الجريمة، واشتقاق اسم السورة من عذابها أبلغ في الإذلال، فمن المعروف أن العربي تأخذه الحميّة والغيرة إذا بلغه أن أحداً مدح جانباً جمالياً في امرأته، فما بالك وقد ذمّت هذه السورة امرأة أبي لهب وهو سيّد قومه، وبيّنت مصيرها المذل. إن بيان مصيرها المذل يحقّق بطبيعة الحال الإذلال لزوجها. أضف إلى ذلك أن أخذ الموقف المعادي مع اتخاذ موقف عملي يدل على هذه المعاداة ـ كما كانت امرأة أبي لهب تصنع ـ أمر مستبعد من طبيعة جنس النساء، ولذلك كان بيان مصيرها أذمّ لها؛ لأنها أخذت موقفاً مستبعداً من جنسها.

ولو سُمّيت السورة بسورة (أبي لهب) مثلاً، لفات جانب التعمّق في الإذلال من خلال اشتقاق اسم السورة من صورة عذاب امرأته، ولربما كان في تسميتها سورة (أبي لهب) شيء من التكريم له، ولو سُمّيت بسورة (اللهب) مثلاً لفات جانب التعمّق في الإذلال أيضاً. والله أعلم.

فأنت ترى إذاً أن هذه السورة بسياقها تبيّن المصير المذل لمن يعادي الدعوة إلى الله، وقد اشتقّ من صورة عذاب امرأة أبي لهب في النار اسم للسورة ليكون أدلّ على هذا الإذلال.



سورة المسد

سورة بيان المصير المذلّ لمن حارب دعوة الله تعالى

- افتتحت السورة ببيان هلاك أبي لهب بسبب ما اقترفته يداه في الصدّ عن سبيل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.
- وبيّنت أن جاهه وماله لن يغنيا عنه شيئاً من عذاب الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.
- وبيّنت مصيره النهائي المذلّ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.
- وعابت على زوجته التي كانت تعمل عملاً مستقبحاً من بني جنسها، إذ كانت تضع الحطب في طريق النبيّ ﷺ، أو كانت تُشْعل نار الفتنة بينه وبيّن أصحابه ﷺ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾.
- وختمت السورة ببيان المصير المذلّ لها، واشتقّ منه اسم السورة ليكون ذلك أبلغ في الإذلال لمن حارب دعوة الله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

سورة الإخلاص

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطّرد وهو تنقية الشيء وتهذيبه»[١]، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «فإخلاص المسلمين: أنهم قد تبرّؤوا مما يدّعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث... فحقيقة الإخلاص: التبرّي عن كل ما دون الله»[٢]، ولم يذكر اسم السورة داخلها، لكنه متعلق بما فيها من توحيد الربوبية والإلهية والتوجّه إلى الله تعالى، من حيث إنها أمور مبنيّة على الإخلاص، فليس لها اعتبار عند الله إلا بالإخلاص، وكأن الدين كلّه ضُغط في هذه الكلمة.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالاتصاف بأقصى الكمال، للدلالة على صحيح الاعتقاد للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال، ونفي النقص عنه والاعتماد عليه في جميع الأحوال، وهذه هي الخطوط الرئيسة في حقيقة الإسلام الكبيرة، فالسورة تدعو إلى التوحيد العملي[٣].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٣٢٧.

(٢) الأصفهاني، **المفردات**، ٢٩٢. بتصرف.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٧، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٥٧٥، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٤٠٠٢- ٤٠٠٥، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٦١٢، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٤٤٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي**، ٥٤٩، ٥٥٠، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ٢٠٣- ٢١٤، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ٣٨٢- ٣٨٤.

التوحيد من خلال نفي الشريك والمثيل عن الله تعالى، بإثبات أحديته في الربوبية والإلهية، ولما كان التوحيد قائماً على الإخلاص لله تعالى بالعبودية والتوجّه، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة دعوة المؤمن إلى الإخلاص في توحيد إلهية الله وربوبيته**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، لاحظ ضمير الشأن «هو» الدال على مزيد التأكيد والتعظيم، وبيانُ أنه تعالى ﴿أَحَدٌ﴾ دال على صفة الوحدانية، وقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ دال على توحيد الربوبية، فهو وحده الرَّبّ المتوجَّه إليه لقضاء الحوائج، وقد تقدّم بيان أنه تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على بيان أنه ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لزيادة النفي عما كان يعتقده العرب وغيرهم من وجود أبناء وبنات لله تعالى، ثم نفى عن ذاته الوالد للمبالغة في النفي وإن لم يقل بذلك أحد من البشر، وكما افتتحت السورة بإثبات الوحدانية لله، ختمت ببيان نفي وجود مثيل مشابه له تعالى في القدرة، وبذلك تكون هذه السورة دالة على التوحيد من كل النواحي، فالواجب على البشر بعد أن عرّفتهم هذه السورة بربّهم أن يعبدوه وحده ويتوجّهوا إليه وحده لقضاء حوائجهم، وهذان أمران مبنيان على الإخلاص لكي يستحقّ العبد الأجر من الله، ولذلك سُمّيت السورة بالإخلاص للدلالة على المحور المذكور.



---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) منها ما يتعلق بصفة الوحدانية: فقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، ب) ومنها ما يتعلق بتوحيد الربوبية بإخلاص التوجّه له تعالى، فقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ لم يتكرر، ج) ومنها ما يتعلق بنفي المثيل عنه تعالى، فقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لم يتكرر. وكلها أمور مبنية على الإخلاص كما لا يخفى.

سورة الإخلاص

سورة دعوة المؤمن إلى الإخلاص في توحيد ربوبية الله وإلهيته

- افتتحت السورة بدعوة المؤمن إلى الإخلاص في الإيمان بصفة الوحدانية لله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.
- وبدعوته إلى الإخلاص في توحيد الربوبية لله بالتوجّه إليه وحده لقضاء الحوائج: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.
- وبدعوته إلى الإخلاص في توحيد الإلهية لله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.
- وكما افتتحت السورة بذكر صفة الوحدانية لله تعالى، ختمت بدعوة المؤمن إلى نفي الكُفْءِ عن الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.
- كل هذه الأمور يجمعها «الإخلاص»، ودون الإخلاص لا يكون لها اعتبار عند الله تعالى، ولذلك سُمّيت السورة بهذا الاسم الجامع لمحتواها.

سورة الفلق

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء واللام والقاف أصل صحيح يدلّ على فرجة وبينونة في الشيء.. والفَلَق: الصبح، لأن الظلام ينفلق عنه.. والفَلَق: الخَلْق كلّه، كأنه شيء فُلِق عن شيء حتى أبرز وظهر»[1]، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان أن الله هو ربّ الفَلَق وهو المستعاذ، ووجه الاستعاذة على حسب المعنيين المذكورين لغوياً «فالاستعاذة بربّ الصبح الذي يؤمّن بالنور من شرّ كل مستور، والاستعاذة بربّ الخلق الذي يؤمّن من شرّ خلقه»[2].

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود السورة هو التوجيه إلى الاعتصام بالله من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن، على وجه الإجمال والتفصيل، فالشرور لها معنى الظلمة حقيقة أو مجازاً، والاستعاذة بربّ الفلق من باب الفأل الحسن لتبديد ظلمات الشرور جميعها[3].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الله وحده المستعاذ به من شرور الخلق، ولما كان بيان أنه ربّ الفلق دالاً على أنه الخالق وأنه بيده وحده الضّرّ والنفع، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه

(١) ابن فارس، **المقاييس**، ص ٨٢٧.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٤٠٠٧.

(٣) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤١٨، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٦٠٣، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٤٠٠٦- ٤٠٠٩، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٤٦٤- ٤٦٥، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٥١، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٢١٥- ٢٢٨، ووادي، ومهنا، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ص ٣٨٦، ٣٨٧.

السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الاستعاذة بنور ربّ الفلق، من ظلمات شَرّ ما خلق**.

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾: فالله وحده هو ربّ الفلق، فهو ربّ الخلق جميعاً، أو هو ربّ الصبح، والإضافة إلى الفلق الدال على النور مناسبة لعلم الله الكاشف لكل الخبايا، وقوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ شمل جميع المخلوقات التي يمكن أن تصيب بالشَّرّ كالآدميين والجنّ أو الدوابّ، ومن اللطيف أن الشَّرّ أضيف إلى الليل الغاسق الذي تمكّن ظلامه، وهذا يقابل إضافة الرَّبّ إلى الفلق، فهو سبحانه النور في مقابل ظلمة الشرور، ولاحظ تنكير الغاسق لإفادة العموم، ومعلوم أن الليل لتمكّن ظلامه تكثر فيه الشرور لغفلة الإنسان حينها إما بالنوم أو لعدم أو ضعف الإبصار.

فهذا التعوّذ من شرور كل المخلوقات، وهو عامّ، ثم انتقل إلى الأخصّ وهو السحر، فالسورة تفيد أن الله هو المستعاذ به حتى من السحر وأهله، وكما افتتحت السورة ببيان أن الله هو ربّ الخلق أو هو ربّ الصبح للدلالة على كمال قدرته وعلمه، فيكون بذلك وحده هو المستعاذ به من الشرور عامة، ختمت ببيان أنه المستعاذ به حتى من أخصّ الأخصّ وهو الشَّرّ الكامن في قلب الحاسد، وهو أخفى أنواع الشرور، وذكر الحاسد بصيغة الإفراد والتنكير زاد ذلك تأكيداً. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يضف المصدر «فلق» إلى الله تعالى إلا هنا: ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾: ١، ثانياً: هذه السورة هي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها ذكر المصدر «شَرّ»، وذلك أربع مرات، وإليك التفصيل: أ) لم تذكر الشرور عامة بقوله تعالى ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إلا هنا: ٢، ودون تحديد مفعول به للفعل «خلق»، وقد ذُكر هذا الفعل من غير تحديد المفعول به في سورة العلق: ١، والأعلى: ٢، ب) ولم توصف شرور الليل الخفية بقوله ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: إلا هنا: ٣، وقد ذكر غسق الليل في سورة الإسراء فقط: ٧٨، ج) لم توصف شرور الساحرات والسحرة بقوله ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ إلا هنا: ٤، د) ولم توصف شرور الحاسدين بقوله ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إلا هنا: ٥، وقد ذكرت سورة البقرة حقد الحاسدين من أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾: ١٠٩.

سورة الفلق

سورة الدعوة إلى الاستعاذة بنور رب الفلق من ظلمات شر ما خلق

- افتتحت السورة ببيان أن الله هو الرَّبّ الخالق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾، فهو ربّ الخلق جميعاً، أو هو ربّ الصبح، فهو النور في مقابل ظلمة الشرور.
- ولما كان هو وحده الخالق، كان هو وحده المستعاذ به من شرور خلقه التي لا يعلمها إلا هو: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾، فهذه الاستعاذة العامة من شرور كل المخلوقات.
- ثم انتقل إلى التخصيص، فبيّن أنه المستعاذ به من شَرّ ظلمة الليل وما فيها من الشرور الخفية: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③﴾.
- ثم انتقل إلى الأخصّ، فبيّن أنه المستعاذ به من شرور السحر وأهله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④﴾.
- ثم ختم ببيان أنه المستعاذ به من أخصّ الأخصّ وهو الحسد الخفيّ الذي يكون في قلب الحاسد: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾.
- فهو سبحانه لعلمه المنير بخلقه، كان وحده المستعاذ به من ظلمات شرور خلقه الخفيّة.

سورة الناس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيان أن الله وحده هو ربّ الناس وملكهم وإلههم، فهو سبحانه لكمال قدرته وشمول علمه المستعاذ به من شرور وساوس الجنة وغواة الإنس.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة التوجيه إلى الاعتصام والاستعاذة بالإله الرَّبّ الخالق الملك من شَرّ الخلق الباطن، مع استحضار المؤمن معاني هذه الصفات، إذ لا قِبل للمؤمن بدفع هذه الشرور إلا بعون ربّه سبحانه، فليس الإنسان مغلوباً على أمره، فمن يذكرون الله في حفظٍ من الشَّرّ ودواعيه الخفية، فالسورة تلخّص الصراع بين الحقّ والباطل، وتدل على أن الاستمساك بالله وبدينه سيكون عاصماً من قوى الشَّرّ الجنية منها والإنسية، التي هي الشَّرّ الأعظم ضدّ الناس[١].

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: المهايمي، **تبصير الرحمن**، ج ٢، ص ٤٢٩، والبقاعي، **نظم الدرر**، ج ٨، ص ٦١١، وقطب، **في ظلال القرآن**، ج ٦، ص ٤٠١٠- ٤٠١٢، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ٣٠، ص ٦٣٢، وأ.د مسلم، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي**، م ٩، ص ٤٧٧، ٤٧٨، والوتاري، **فقه السورة القرآنية**، ص ٢٢٩- ٢٣٩، والغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، ص ٥٥٢.

التوحيد من خلال بيان أن الله وحده هو الرَّبّ المستعاذ به من شرور الجنة والناس، ولما كان بيان أنه تعالى رَبّ الناس وملكهم وإلههم، وهم الذين يراهم الجنُّ من حيث لا يرون هم الجنَّ، فهم الفريق الأضعف، سُمّيت السورة بهم لبيان أن الله هو المستعاذ به لهم. وقد تميّزت هذه السورة بأنها **سورة الدعوة إلى الاستعاذة بقدرة رَبّ الناس من شَرّ غواة الجنة والناس.**

وبتأمّل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك[1]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، ولاحظ إضافة الإله والملك إلى «الناس» في كل مرة، بدلاً من الضمير فيقال مثلاً: قل أعوذ بربّ الناس وملكهم وإلههم. إن في ذلك مزيدَ تأكيدٍ على أن الله وحده هو الرَّبّ والملك والإله، كما وإن في ذلك زيادة دعوة وتنبيه للناس إلى الاستعاذة بربهم وملكهم وإلههم، ولاحظ أنه وُصف أولاً « بأنه ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم الرَّبّ قد يكون ملكاً وقد لا يكون، كما يقال رب الدار.. فلا جرم بيّنه بقوله ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا يكون، فلا جرم بيّنه بقوله ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، لأن الإله خاصّ به سبحانه لا يشركه فيه غيره»[2].

فهذه الآيات الثلاث تدعو الناس إلى الاستعاذة بربهم وملكهم وإلههم، ثم بيّنت السورة ما هي الشرور المستعاذ بالله منها، وهي الشرور الناتجة عن إغواء كل وسواس خناس، يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس، ولاحظ عدم تحديد الوسواس بصفة معينة سوى أنه خناس، وهذا يدل على العموم فيشمل كل وسواس، ويدل على الخفاء، لأنه

---

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) عبارة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ و﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ و﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ كلها لم تتكرر في القرآن بالصيغ ذاتها، ب) هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الوسوسة: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، كما وأنها الوحيدة التي أُضيفت فيها الوسوسة للناس، والوحيدة التي وصف فيها الوسواس بالخناس، وكلها عبارات تدل على شرور الجنة والناس، وأن المستعاذ به منها هو الله وحده. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، **المعجم المفهرس**.

(٢) الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٣٢، ص ١٩٦. بتصرف.

وسوستهم خفية لا يملك لها الإنسان دفعاً إلا بذكر الله تعالى، ولاحظ ذكر الصدور بالجمع، للدلالة على أنهم يتمنّون إغواء الناس جميعاً لو استطاعوا، وكما افتتحت السورة ببيان أن الله تعالى هو رَبّ الناس وملكهم وإلههم فهو وحده المستعاذ به لهم، كونهم الفريق الأضعف إذ الجنةُ تراهم والناسُ لا يرون الجنة، ختمت السورة ببيان أن الله المستعاذ به من شرور وساوس الجنة كونهم أقوى في التأثير عبر الوسوسة، وهو أيضاً المستعاذ به من شرور غواة الناس وإن كان إدراك خطرهم واضحاً لإمكان رؤيتهم، فهو سبحانه المستعاذ به من الخطر الأكبر ومن الخطر الأقلّ شأناً. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

فسورة الفلق السابقة أثبتت أن الله هو المستعاذ به من شرور كل الخلق، وسورة الناس أثبتت أنه المستعاذ به من شرور عدو الناس، وهم غواة الجنة وغواة الناس، فبهاتين السورتين يثبت أنه تعالى المستعاذ به من الشرور جميعها، عامّها وخاصّها؛ لأنه هو الخالق لكل شيء على وجه العموم والخصوص.



سورة الناس

سورة الدعوة إلى الاستعاذة بقدرة رَبّ الناس من شَرّ غواة الجِنّة والناس

- افتتحت السورة ببيان كمال قدرة الله تعالى، فهو وحده رَبّ الناس، وهو وحده ملك الناس، وهو وحده إله الناس.
- ثم بيّنت أنه لكمال قدرته وشمول علمه المستعاذ به من شَرّ الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس.
- وختمت ببيان أنه المستعاذ به من شرور غواة الجنة، لأنهم أشدّ خطراً لأنهم يرون الناس، بينما الناس لا يرون الجنة، وبيان أنه المستعاذ به من شَرّ غواة الناس أيضاً، وهم أقلّ خطراً من الجنة لإمكان رؤيتهم.

الخاتمة

أحمد الله ربَّ العالمين الذي أعانني على إتمام هذا الكتاب والذي خلص إلى نتائج وتوصيات كثيرة، فلقد لفت موضوع العلاقة بين أسماء السور وموضوعاتها أنظار عدد من المفسِّرين والكاتبين في علوم القرآن قديماً وحديثاً، ممّا يدلّ على أهمية هذا الموضوع، وكان حديثهم عن هذا الموضوع بحاجة إلى تتميم، إذ منهم من انطلق من مبدأ أن اسم السورة له علاقة مباشرة بمحورها، دون التطرّق إلى بيان وجه العلاقة بين اسم السورة وموضوعاتها بشكل مستوفٍ، ومنهم من اقتصر على نظرة عجلى على السياق الذي جاء به اسم السورة، دون التطرّق إلى بيان وجه العلاقة بينه وبين المحور أو الموضوعات، فبقيت الحاجة قائمة إلى دراسة وافية لأوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها.

وإن من أبرز النتائج التي توصّلت إليها:

- وجوب الاعتماد على الدلالة السياقية لاسم السورة، وإردافها بالدلالة اللفظية له إن لزم الأمر، ثم التفكّر في الربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، للإجابة عن الأسئلة الكثيرة التي تدور في الذهن حول هذا الموضوع.

- أن لكل سورة محوراً يربط موضوعاتها، وأن موضوعاتها مترابطة مع بعضها أشدّ الترابط وكأنها عِقْد درٍّ منتظم.

- أن مقدِّمة السورة وخاتمتها تلتقيان على المحور الجامع لكل موضوعاتها، وأن الخاتمة في السورة تحوي خلاصة مؤكّدة لموضوعات السورة، وأن اسم السورة أدلّ ما فيها على المحور، ولذلك يمكن وصف اسم السورة بأنه: «يمثّل روحها العامّ».

- أن الوصول إلى معرفة المحور الجامع لموضوعات السورة يقوم على تتبّع الألفاظ المتكرّرة بشكل لافت فيها، والألفاظ التي انفردت السورة المتناولَة بها، ثم محاولة الربط بينها وبين موضوعات السورة، حتى يصبح بالإمكان في النهاية صياغة محور السورة بشكل سليم مانع جامع.

ـ أن معرفة المحور الجامع لموضوعات السورة، ومعرفة وجه العلاقة بينه وبين اسمها، تساعدان المفسِّر على تفسير السورة بشكل أدقّ وأصحّ، وتجنّبه الانحرافات التي تخرجه عن روح نصّ السورة.

ـ أن كثيراً من السور تشترك في المحور الجامع لموضوعات السورة، ولكن لكل سورة أسلوبها الخاص في عرض موضوعاتها بما يتناسب مع هذا المحور، وأن معرفة وجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها يساعد في التمييز بين أساليب هذه السور المختلفة، والتي يجمعها المحور الواحد، وتبقى كل سورة تعرض ما يناسب المحور من زاوية معينة تختلف بها عن باقي السور.

ـ وقد تناولتُ في هذا الكتاب بعض السور التي يجمعها موضوع يوم القيامة، فتناولت سور (التكوير والانفطار والانشقاق)، وبيّنت جانباً من الأسلوب المميّز لكل منها، والعلاقة بين اسمها وبين هذا الأسلوب، وبيّنت ما يؤكد المحور المذكور لكل سورة من بعض الألفاظ المتكرّرة فيها، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منها بذكرها.

ـ وتناولت سورتي: (الحِجْر والكهف) اللتين يعود اسمهما لموضوع القصص القرآني، ويجمعهما محور واحد، وبيّنت ما يؤكّد المحور المذكور لكل سورة من بعض الألفاظ المتكرّرة فيهما، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منهما بذكرها، وبيّنت جوانب متعدِّدة من أوجه الترابط والتناسق بين السورتين.

ـ وتناولت كذلك سورتي: (النمل وسبأ) فاسمهما أيضاً يعود إلى موضوع القصص، وبيّنت الدراسة ما يؤكّد المحور المذكور لكل منهما، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منهما بذكرها، وبيّنت جوانب متعدّدة من أوجه الترابط والتناسق بين السورتين.

ـ وتناولت كذلك سورتي: (الأنفال والتوبة) وسورتي (الأحزاب والفتح) فاسمهما يعود إلى أحداث السيرة النبوية، وبيّنت الدراسة ما يؤكّد المحور المذكور لكل منهما، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منهما بذكرها، وبيّنت جوانب متعدّدة من أوجه الترابط والتناسق بين السورتين.

كانت هذه أهمّ الخلاصات التي توصّلت إليها في هذا الكتاب، سائلاً المولى عزّ وجلّ التوفيق والسداد لي ولجميع المسلمين.

هذا، والله أعلم، وعلمه أحكم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّم، والحمد لله ربِّ العالمين، اللَّهمَّ اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم، واجعله في ميزان حسناتي وميزان حسنات كل مَن أسهم فيه، وميزان حسنات كل من قرأه فذكرني والمسلمين بدعوة صالحة.



المصادر والمراجع

الآلوسي، محمود (ت ١٢٧٠ هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ط ١، ١٦ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.

الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت: ٤٢٥ هـ)، **مفردات ألفاظ القرآن**، ط ٣، (تحقيق صفوان داوودي)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٢.

باجودة، د. حسن محمد، **الوحدة الموضوعية في سورة يوسف**، ط ١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٥.

باجودة، د. حسن، **تأملات في سورة الحاقة**، ب ط، دار بوسلامة، تونس، ١٩٨٢.

باجودة، د. حسن، **تأملات في سورة محمد ﷺ**، ب ط، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩.

باجودة، د. حسن، **تأملات في سورة العاديات**، ب ط، دار بو سلامة، تونس، ١٩٨٢.

باجودة، د. حسن، **تأملات في سورة يس**، ط ٣، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧.

البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦ هـ)، **الجامع المسند الصحيح**، ط ١، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٥.

البقاعي، إبراهيم بن عمر (ت: ٨٨٥ هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ط ٤، ٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١.

البهي، د. محمد، **تفسير سورة الصافات**، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١.

البيضاوي، عبد الله بن عمر (ت: ٧٩١ هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)، **جامع الترمذي**، ط ١، دار الأفكار، عمان، ٢٠٠٤.

الجابري، د. سيف راشد، **أسماء السور القرآنية دلالات وإشارات**، ط ٣، بدون دار نشر، ٢٠٠٣.

حجازي، د. محمد محمود، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ط ١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠.

خاروف، محمد فهد، وراجح، كريّم، **الميسّر في القراءات الأربع عشرة**، ط ٤، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٦.

الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح، **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**، ط ١، دار عمار، عمّان، ٢٠٠٠.

الدبل، محمد بن سعد، **النظم القرآني في سورة الرعد**، ب ط، عالم الكتب، الرياض، ١٩٨١.

دراز، د. محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، ب ط، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥.

الدوسري، د. منيرة محمد، **أسماء سور القرآن وفضائلها**، ط ١، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢٦ هـ.

الرازي، محمد بن عمر (ت: ٦٠٦ هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط ٣، ١٦ م، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥.

رجب، أ.د مصطفى، **فيض المنان في علوم القرآن**، ط ١، مؤسسة طيبة، القاهرة، ٢٠١٣.

رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، ١٢م، ط ١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٧.

رفعت، د. محمد، **الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية**، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧.

الرقب، د. أحمد سليمان، **سورة ﴿ص﴾**، ط١، دار المأمون، عمّان، ٢٠٠٨.

زاهدة، عطية، **فواتح السور والحروف السبعة**، ب ط، ب دار نشر، ١٩٨٠.

الزرقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان**، ط ٢، مجلد واحد، دار الكتب العلمية، بيروت.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، ب ط، مجلد واحد، (تحقيق أبي الفضل الدمياطي)، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.

الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨ هـ)، **تفسير الكشاف**، ط ٤، ٤ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦.

السامرائي، أ.د فاضل صالح، **التعبير القرآني**، ط ٤، دار عمار، الأردن، ٢٠٠٦.

سبحاني، د. محمد عناية الله، **البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران**، ط ١، دار عمار، عمّان، ٢٠٠٥.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، ب ط، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

شحاتة، د. عبد الله، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، ٥ م، ط ٤، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨.

الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، ب ط، ٣ م، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١.

الصواف، محمد محمود، **نظرات في سورة الحجرات**، ط ٤، دار الرسالة، بيروت.

طبّارة، عفيف، **تفسير جزء عَمّ**، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ب ت.

الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط ٤، ١٠ م، (ت: أحمد البكري وزملائه) دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٩.

طهماز، عبد الحميد، **من سورة الطور إلى سورة الناس**، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨.

طهماز، عبد الحميد، **العواصم من الفتن في سورة الكهف**، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.

طهماز، عبد الحميد، **النبيّ ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب**، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦.

ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ب ط، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧.

عباس، أ. د فضل حسن، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، ط٢، ٢م، دار النفائس، عمّان، ٢٠١٠.

عباس، أ. د فضل، **قصص القرآن الكريم**، ط ٢، دار النفائس، عمّان، ٢٠٠٧.

عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ب ط، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١.

العريض، د. علي حسن، **فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان**، ب ط، دار الإصلاح، الدمام، ١٩٨١.

العسكري، الحسن بن عبد الله (ت: ٤٠٠ هـ)، **الفروق اللغوية**، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩.

علي، د. عادل حسن، **الجمان في علوم القرآن**، ب ط، مكتبة المتنبي، الدمام، ٢٠٠٦.

عمر، أحمد عطا، **تفسير جزء ﴿قد سمع﴾**، نُشر في عمّان بدون دار نشر، ٢٠٠٤.

عمر، أحمد عطا، **تفسير سورة الأنعام**، ط ١، دار الفكر، عمّان، ٢٠٠٠.

أبو عودة، أ. د عودة، **شواهد في الإعجاز القرآني**، ط١، دار عمار، عمّان، ١٩٩٨.

الغزالي، محمد، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، ط ١٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٣.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥ هـ)، **معجم المقاييس في اللغة**، ط ١، (تحقيق شهاب الدين أبو عمرو)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ م.

الفراهي، عبد الحميد، **دلائل النظام**، ب ط، الدائرة الحميدية، حيدر آباد، ١٣٨٨ هـ.

الفيروزابادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)، **البيان بمقاصد القرآن**، ط ١، (تحقيق إسلام بن عيسى العبادي)، المكتب الإسلامي، عمّان، ٢٠١٣.

قطب، سَيّد، **في ظلال القرآن**، ط ٣٤، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤.

قطب، سَيّد، **التصوير الفني في القرآن**، ط ١١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤.

قطب، محمد، **دراسات قرآنية**، ط ٨، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ط ٢، ٤ م، مؤسسة الريان، بيروت، ٢٠٠٥.

المثنى، د. عبد الفتاح محمود، **نظرية السياق القرآني**، ط١، دار وائل، عمّان، ٢٠٠٨.

المجالي، أ.د محمد خازر، **الوجيز في علوم الكتاب العزيز**، ط ٣، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمّان، ٢٠٠٦.

مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ)، **المسند الصحيح**، ط١، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩.

مسلم، أ.د مصطفى، وزملاؤه، **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، ط ١، مطبعة المعارف، الشارقة، ٢٠١٠.

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت: ٧١١ هـ)، **لسان العرب**، ط ٤، ١٧ م، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥.

المهايمي، علي بن أحمد (ت: ٨٣٥ هـ)، **تبصير الرحمن وتيسير المنّان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن**، ط ٢، ٢ م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.

النابلسي، أ.د محمد راتب، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الإنسان**، ط٢، دار المكتبي، دمشق، ب ت.

النابلسي، أ.د محمد، **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الآفاق**، ط٢، دار المكتبي، دمشق، ب ت.

النجار، أ.د زغلول، **السماء في القرآن الكريم**، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.

النجار، أ.د زغلول، **الأرض في القرآن الكريم**، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٦.

الندوي، أبو الحسن علي الحسني، **المدخل إلى الدراسات القرآنية وتأمّلات في سورة الكهف**، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٤.

الندوي، أبو الحسن، **دراسات قرآنية**، ط ١، (إعداد سَيّد الغوري)، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٢.

نوفل، د. أحمد إسماعيل، **سورة يوسف: دراسة تحليلية**، ط ٢، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٩.

نوفل، د. أحمد، **تفسير سورة القصص**، **دراسة تحليلية موضوعية**، ط ١، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ٢٠٠٥.

نوفل، د. أحمد، **تفسير سورة الإسراء: دراسة تحليلية موضوعية**، ط ١، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ٢٠١٤.

نوفل، د. أحمد، **الحرب النفسية من منظور إسلامي**، ط١، دار الفرقان، عمّان، ٢٠٠٤.

نوفل، د. أحمد، **قراءة في آية: ﴿إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته﴾**، ط ١، دار الفضيلة، عمّان، ٢٠٠٧.

ابن هشام، عبد الملك (ت: ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)، **السيرة النبوية**، ب ط، مجلد واحد، مؤسسة المعارف، بيروت، ٢٠٠٥.

وادي، عيسى إبراهيم، ومهنا، محمود عبد الكريم، **من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم**، ط ١،(مراجعة الأستاذ بسام جرار)، دار الرضوان، عمّان، ٢٠١٢.

الوتاري، أحمد عدنان، **فقه السورة القرآنية**، ط ١، طبع على نفقة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠١١.

ومن الأبحاث العلمية المحكمة:

خليفة، أ. د إبراهيم عبد الرحمن، **اسم السورة يمثّل روحها العام**، بحث مستلّ من حولية كلية أصول الدين، القاهرة، العدد: ٩، ١٩٩٢.

نوفل، د. أحمد، **النسق القرآني وأثره في الترجيح، سورة الماعون أنموذجاً**، بحث محكم في مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد ٢، العدد: ٢، رمضان، ١٤٣٤ هـ.



فهرس المحتويات



الإخراج الفني

موسى وحيد مصطفى